ديوان المتنبي

تحقيق

د. درويش الجويدي

1



ديوان المتنبي

تحقيق

د. درويش الجويدي

الجزء الأول





شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 978 - 614 - 414 - 137 - 3


وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً



مقدمة

بعد حمد خالق السماوات والأرضين الذي أعان على إتمام هذا العمل، والصلاة والسلام على خير عباد اللّه أجمعين وعلى آله الأطهار الكرام الميامين وصحبه العظام المبجّلين، وبعد.

توفّر لهذا العمل عناصر هامّة، منها تسمية بحور قصائد الديوان، وتحريك الأبيات فيها ونقدها وتحليلها وشرح ما غمض من معانيها وترتيب القصائد فيها على حسب الترتيب الألفبائي تسهيلاً على القرّاء الكرام لإيجاد ما يبغون الإطلاع عليه من القصائد بأيسر السبل.

من حسن حظّ المتنبي كشاعر عظيم أنه قد توافرت له أسباب الغنى الفنيّ والثقافي التي بوّأته تلك المكانة العالية في الشعر العربي؛ فقد وصله كمٌّ هائل من عيون الشعر منذ الجاهلية حتى عصر أبي تمام الذي استقى منه المتنبي الكثير، فتتلمذ على شعره في قسم من حياته، فكان أن أعاد للشعر العربي ألقه في ما يُسمَّى بالكلاسيكية الجديدة، ولكن للأسف لم تبد في شعره علائم تجديد كانت بوادرها الأولى معاصرة له في الشعر الأندلسي.

ولقد تأتّى للمتنبي ملكات ذاتية ساعدته على الاستفادة من ذلك الرصيد الضخم من الشعر فحفظ آلاف القصائد والمقطوعات، فضلاً عن ذكاء حادّ لا يُذكر.

عاش المتنبي في عصر تحول الحضارة العربية الإسلامية إلى حضارة عالمية، قوامها الفكر النيّر، بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري. وكان

العصر عصر تحوّل في الحياة الاجتماعية والسياسية؛ فالدويلات تنتشر بسرعة هائلة، والدولة المركزية العباسية بدأت تفقد ألقها، والحركات الهدّامة بدأت تعيث فساداً وخراباً ودماراً وقتلاً في أبناء الأمة دون تمييز؛ فالقرامطة من جانب وقبلهم ثورة الزنج، ممّا جعل الجوّ مؤاتياً للمغامرين ليجرّبوا محاولات لهم علّهم يسلخون من جسم الدولة قطعة أرض يتملَّكون عليها، ومن هؤلاء المتنبي نفسه في مطلع شبابه، والخليفة في بغداد عاجز حتى عن حماية نفسه. وبفقد السلطة المركزية في بغداد كان لبني بويه الفرس من الديلم الجولة والصولة فحكموا وظلموا.

وعلى أطراف تلك المدائن في الشرق نشأت إمارات عديدة كانت تؤوي إليها الكثيرين من الشعراء يُشيدون بأمجاد حماتها ويحصلون على جوائزهم. فلا عجب أن نجد مئات الممدوحين في شعر المتنبي وحده. ولولا الأمير الذي قاد حركة الدفاع عن الدولة ضدّ الروم الذين شجّعهم ضعف الدولة على تحطيمها بالإغارة على ثغورها القريبة من حدودهم. وكان هذا حدثاً سجّل المتنبي معظم أحداثه، فإذا بتلك الأحداث تبعث حيّة في شعره، مخلّد القادة المدافعين عن بيضة الإسلام والدولة العظيمة.

ما يُؤخذ على المتنبي أنه لم يُخلص لممدوحيه، فتارة يمدحهم ويرفع من شأنهم فوق سائر البشر، وطوراً يميل على أعراضهم فيقسو حتى يصل في بعض الأحيان إلى إسفاف هجاء لم يعرف عن سواه أنه أتى بمثله، فيشتم الأعراض ويسلبها حتى من ورقة التوت التي تستتر بها.

واللَّه نسأله الستر والعفو.

د. درويش جويدي

ترجمة الشاعر

هو: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكِندي، أبو الطيّب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يُعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ: ٩١٥م في محلّة تُسمّى «كندة» وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثم تنقّل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبياً. وتنبّأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون. وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الإخشيد) فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه. ووفد على سيف الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) سنة ٣٣٧هـ فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافوراً الإخشيدي وطلب منه أن يوليه، فلم يولّه كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه. وقصد العراق، فقرئ عليه ديوانه.

وزار بلاد فارس فمرّ بأرّجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات. ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح سنة ٣٥٤هـ = ٩٦٥م، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد). وفاتك هذا هو خال ضبّة بن يزيد الأسدي العيني، الذي هجاه المتنبي بقصيدته البائية المعروفة. وهي من سقطات المتنبي.

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١: ٣٦، معاهد التنصيص ١: ٢٧،

ابن الوردي ١ : ٢٩، ابن الشحنة: حوادث سنة ٣٥٤هـ، لسان الميزان ١ : ١٥٩، تاريخ بغداد ٤ : ١٠٢، المنتظم ٢٤٠٧، المستشرق بلاشير في دائرة المعارف الإسلامية ١: ٣٦٣ـ ٣٧١، دار الكتب ٧ : ٢٠٠، الأعلام ١ : ١٢٥، يتيمة الدهر، للثعالبي ١: ٧٨ـ ١٦٢، نزهة الألباء، لابن الأنباري: ٣٦٦ـ ٣٧٤، الأنساب للسمعاني: ٥٠٦ب، النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي ٣ : ٣٤٠، شذرات الذهب، لابن العماد ٣: ١٣ـ ١٥، خزانة الأدب، للبغدادي ١: ٣٨٢ـ ٣٨٩.

دراسات حول المتنبي ومنزلته الشعرية:

- الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأحمد بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦هـ = ٩٧٢م.
- أبو الطيب ما له وما عليه، للثعالبي.
- الكشف عن مساوئ شِعر المتنبي، للصاحب بن عبَّاد الطالقاني.
- الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى، لأبي سعيد محمد بن أحمد العامدي المتوفى سنة ٤٣٣هـ = ١٠٤٢م.
- الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي، لمحمد بن أحمد المغربي، ألّفه ردًّا على من اتّهم المتنبي بالسرقة من أبي تمام والبحتري.
- الاستدراك في الأخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائية، لضياء الدين ابن الأثير، المتوفى سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م، والكتاب نقد لكتاب ألفه أبو محمد سعيد بن المبارك الدهان المتوفى سنة ٥٦٩هـ = ١١١٣م في سرقات المتنبي من أبي تمام.
- الرسالة الحاتمية في ذكر سرقات أبي الطيب وساقط شعره، لمحمد بن الحاتمي البغدادي، المتوفى سنة ٣٨٨هـ = ٩٩٨م، ويتحدَّث فيها عن حكم أرسطو التي استخدمها المتنبي.
- تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب، لأبي

كثير وجيه الدين بن عبد الرحمٰن الشافعي، المتوفى في حدود سنة ٩٣٠هـ = ١٥٢٤م، وهو نقد للمتنبي.

- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ليوسف البديعي، المتوفى سنة ١٠٧٣هـ = ١٦٦٣م. وهو كتاب في حياة المتنبي وشعره ونماذجه ومقلّديه.
- أبو الطيب المتنبي، لحلمي بك، القاهرة ١٣٣٩هـ = ١٩٢١م.
- الأدب المربي في حياة المتنبي، لحسين حسني، الإسكندرية ١٩١٧.
- النهج العربي إلى شرح حكم المتنبي، لإبراهيم عبد الخالق، طبع في القاهرة.
- الروائع، للبستاني عدد ١١، ١٢ سنة ١٩٣٧م.
- ذكرى أبي الطيب، لعبد الوهّاب عزام، بغداد ١٩٣٦.
- مع المتنبي، لطه حسين، القاهرة ١٩٣٦ (في جزءين).
- الطبيعة في شعر المتنبي، لأحمد زكي أبو شادي وذكره السحرتي في كتاب: أدب الطبيعة، المطبوع في الإسكندرية ١٩٣٧ ص٣٠.

شروح الديوان

١ - شرح ابن جني، المتوفى ٣٩٢هـ = ١٠٠١م.

٢ - شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفليلي المتوفى سنة ٤٤١هـ = ١٠٤٩م.

٣ - شرح أبي العلاء المعرّي، المتوفى سنة ٤٤٩هـ = ١٠٥٧م، وعنوانه معجز أحمد، أو: اللامع العزيزي.

٤ - شرح المشكل من ديوان المتنبي، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المتوفى سنة ٤٥٨هـ = ١٠٦٦م.

٥ - شرح علي بن أحمد الواجدي، المتوفى سنة ٤٦٨هـ = ١٠٧٥م.

٦ ـ شرح التبريزي، المتوفى سنة ٥٠٢هـ = ١١٠٨م.

٧ ـ شرح بعض أبيات المتنبي لعلي بن جعفر بن القطاع، المتوفى سنة ٥١٥هـ = ١١٢١م.

٨ ـ شرح مرهف بن أسامة بن منقذ، المتوفى سنة ٦١٣هـ = ١٢١٦م.

٩ ـ شرح أبي عبد اللّه الحسين بن إبراهيم الأربلي الكوراني، المتوفى سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م.

١٠ ـ شرح العكبري، المتوفى سنة ٦١٦هـ = ١٢١٩م.

١١ ـ النظام في شرح ديوان المتنبي وأبي تمام، للمبارك بن أحمد المستوفي الإربلي، المتوفى سنة ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م.

١٢ ـ شرح ناصيف اليازجي، وعنوانه: العرف الطيب في شرح أبي الطيب، نشره ابنه إبراهيم في بيروت سنة ١٣٢٥هـ = ١٨٨٨م.

١٣ ـ شرح إبراهيم صادر، بيروت ١٩٢٦.

١٤ ـ شرح عبد الرحمن البرقوقي، القاهرة ١٩٢٩.

رويّ الهمزة

خير من تحت السماء

يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان قوم قد هجوه، ونحلوا الهجاء إلى أبي الطيب فكتب إليه يعاتبه، فكتب أبو الطيب إليه:

[الوافر]

أَتُنْكِرُ يَا ابْنَ إسْحَاقٍ إخَائِي
وَتَحْسَبُ مَاءَ غَيْرِي مِنْ إنَائِي (١)

أَأَنْطِقُ فِيكَ هُجْراً بَعْدَ عِلْمِي
بَأَنَّكَ خَيْرُ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ (٢)

وَأَكْرَهُ مِنْ ذُبَابِ السَّيْفِ طَعْماً
وَأَمْضَى فِي الْأُمُورِ مِنَ الْقَضَاءِ (٣)

وَمَا أَرْبَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنّي
فَكَيْفَ مَلِلْتُ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ؟ (٤)

---

(١) إنه عِتاب مدلّ وصديق؛ فما صدر من ابن إسحاق ينمّ عن تسرّع وعدم تقدير لإخلاص المتنبي، فقد اعتقد أن أبا الطيب قد هجاه، لذا فهو يعاتبه عِتاب صديق محبّ.

(٢) الهجر: أقبح القول. استرضاء لابن إسحاق يدخل في حوار معه مستفهماً؛ فمن غير المعقول أن يصدر من المتنبي ما يسيء إلى علاقتهما المبنية على الأخوَّة الصادقة والحبّ، وبخاصة أن ابن إسحاق خير من تحت السماء خَلْقاً وأصلاً ومقاماً، وتتوالى الصفات التي يحبها الممدوح.

(٣) ذباب السيف: حده، أمضى: أشدّ قطعاً. ومن صفات ابن إسحاق أن طعمه في حلوق أعدائه مرّ كطعم العلقم، يحمل لهم الموت، وهو مجدّ يمضي في تحقيق أمانيه دون توانٍ وضعف همّة، لذا فهو أسرع من القضاء في تحقيق إرادته.

(٤) أربت: زادت. يبدي الشاعر خوفه لعلمه أن ممدوحه قادر على إلحاق الأذى به، فهو لم يتجاوز العشرين من عمره بعد ولم يملّ من الحياة؛ فالمستقبل أمامه واعد، وأمانيه عذاب.

وَمَـا اسْـتَـغْـرَقْـتُ وَصْـفَـكَ فِـي مَـدِيـحِـي
فَـأَنْـقُـصَ مِـنْـهُ شَـيْـئـاً بِـالْـهِـجَـاءِ (١)

وَهَـبْـنِـي قُـلْـتُ: هَـذَا الـصُّـبْـحُ لَـيْـلٌ
أَيَـعْـمَـى الْـعَـالَـمُـونَ عَـنِ الـضِّـيَـاءِ (٢)

تُـطِـيـعُ ٱلْـحَـاسِـدِيـنَ وَأَنْـتَ مَـرْءٌ
جُـعِـلْـتُ فِـدَاءَهُ وَهُـمُ فِـدَائِـي (٣)

وَهَـاجِـي نَـفْـسِـهِ مَـنْ لَـمْ يُـمَـيِّـزْ
كَـلَامِـي مِـنْ كَـلَامِـهِـمِ الْـهُـرَاءِ (٤)

وَإِنَّ مِـنَ الْـعَـجَـائِـبِ أَنْ تَـرَانِـي
فَـتَـعْـدِلَ بِـي أَقَـلَّ مِـنَ الْـهَـبَـاءِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٣. استغرقت: استوفيت. ولمزايا ابن إسحاق الحميدة التي لا تحصى، لم يستطع الشاعر الإتيان بذكرها في مدحه له، لذا فلا يمكنه أن يشوّهها بهجائه له فيضيع مدحه، ويذهب هباءً.

(٢) ولنفرض أنني هجوتك وقلبت الحقائق رأساً على عقب؛ فالليل ليل والنهار نهار، فلا يمكن أن يكون الليل نهاراً، ولا يمكن أن يكون النهار ليلاً؛ لذا فأنت مشهور بخير الخصال؛ فالهجاء لا يغفل من قيمتك بل يمكن أن يُنير جوانب من شخصيتك قد تكون مجهولة للبعض.

(٣) يطلب الشاعر من ابن إسحاق أن يكون يقظاً وألّا يستمع لقول الحساد؛ فهو يميّز بين الحق والباطل، والشاعر يفديه بروحه وبما يملك، ويتمنّى الشاعر أن يكون الحساد فداءً له، فهم لا يستحقون الحياة لما يتمتعون به من شرور.

(٤) الهراء: التافه، الساقط. يثير الشاعر في نفس ممدوحه ملكة الذكاء فهو قادر على التمييز بين الفاسد والصحيح من الأقوال؛ فمن لا يمكنه الحكم على الأمور بما تحمل من حقائق، فهو يهجو نفسه بنفسه ويحكم عليها بالغباء؛ فكلامه حق وصدق وكلامهم بهتان وزور.

(٥) تعدل: تساوي. الهباء: هو ما نراه في شعاع الشمس من ذر الغبار. يستغرب الشاعر من ممدوحه، وهو يعتذر منه، أن يستصغره حتى لا يراه في ضوء الحقائق شيئاً له قيمة وكأنه هباء طار في الجوّ وتبعثر في كل مكان.

وَتُـنْـكِـرَ مَـوْتَـهُـمْ وَأَنَـا سُـهَـيْـلٌ
طَـلَـعْـتُ بِـمَـوْتِ أَوْلَادِ الـزِّنَـاءِ(١)

وعقاب لبنان

يمدح أبا عليّ هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وكان يذهب إلى التصوف:

[الكامل]

أَمِـنَ ٱزْدِيَـارَكِ فِـي الـدُّجَـى الـرُّقَـبَـاءُ
إِذْ حَـيْـثُ كُـنْـتِ مِـنَ الـظَّـلَامِ ضِـيَـاءُ(٢)
قَـلَـقُ الْـمَـلِـيـحَـةِ وَهْـيَ مِـسْـكٌ هَـتْـكُـهَـا
وَمَـسِـيـرُهَـا فِـي الـلَّـيْـلِ وَهْـيَ ذُكَـاءُ(٣)
أَسَـفِـي عَـلَـى أَسَـفِـي الَّـذِي دَلَّـهْـتِـنِـي
عَـنْ عِـلْـمِـهِ فَـبِـهِ عَـلَـيَّ خَـفَـاءُ(٤)

---

(١) سهيل: نجم. يرى العرب أنه يحمل الموت والخراب. يفخر الشاعر بأنه الموت المحتم لحاسديه؛ فإذا بشروقه في سماء حياتهم شؤم مؤذن بهلاكهم، هؤلاء أولاد الزنى، فلا يعرف آباؤهم، مما يستوجب احتقارهم وركنهم على مزبلة الحياة.

(٢) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٨٦. ويروى «إذْ حيث أنتِ» بدلاً من «إذ حيث كنتِ». الازديار: الزيارة. الدّجى: الظلمة. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني. يخاطب الشاعر زائرته الليلية إنها نور يشعّ في ظلمة الليل الحالك فتمزّق عتمته وتضيء جنبات حياته وعدم سطوعها في سماء حياته يجعل الرقباء مطمئنين فلن ينكشف أمرهم ولن تكون لها زيارة تبعثر قلقه وخوفه من الظلام في وحشة الليل.

(٣) القلق: الاضطراب. هتكها: انكشافها. الذُّكاء: الشمس. الليل عالم فسيح يحمل في طيّاته أحلاماً ورؤى وأخيلة عِذاباً للمحبين كما يحمل الخوف للمعذّبين والقلق والهمّ للمحرومين، فالمحبّ ينتظر من يحملها الحبّ على تخطي حاجز الخوف لترتمي بأحضان حبيبها، والمبشر بمقدمها تضوّع المسك يسيح في أرجاء المكان عبقاً مسكراً؛ إنها الشمس بدفئها وحنانها في عتمة الحياة.

(٤) دلَّهتني: تيّمتني. لقد فات الشاعر فرصة غالية وأسفه على ما جعله يأسف فوات فرصة الشعور بمعنى الحبّ ولقاء الحبيب؛ فهو المدلّه الذي أضناه الحبّ وذهب بعقله، فثمّة شيء لم يعرفه على حقيقته بقي خافياً عليه؛ وهنا يعمق الأسف في روحه وعقله.

وَشَكِيَّتِي فَقْدُ السَّقَامِ لأَنَّهُ
قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ[(١)]

مَثَّلْتِ عَيْنَكِ فِي حَشَايَ جِرَاحَةً
فَتَشَابَهَا كِلْتَاهُمَا نَجْلَاءُ[(٢)]

نَفَذَتْ عَلَيَّ السَّابِرِيَّ وَرُبَّمَا
تَنْدَقُّ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمْرَاءُ[(٣)]

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِي إِذَا مَا زُوحِمَتْ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِي الْجَوْزَاءُ[(٤)]

وَإِذَا خَفِيتُ عَلَى الْغَبِيِّ فَعَاذِرٌ
أَنْ لَا تَرَانِي مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ[(٥)]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. السقام: المرض. لبّ الألم حمل الشاعر على التذمّر والتشكي لهجر حبيبته له؛ فقد كان يُحسّ طعم الألم ويجد له أسباباً تجعله يتذوّق لذّة العذاب في أعضاء جسده؛ فلكلٍّ عضو مذاق خاص، والآن ما عاد يُحسّ بهكذا إحساس لأن محبوبته تبخرت من جوّ حياته.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٦١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. مثلت: تشكلت وبدت. الحشا: ما اضطمَّت عليه الضلوع. إنها نظرات قاتلة، أصابت سهام عينيك قلب الشاعر فمزّقته وأدمته، فإذا بالجراح دامية اتّسعت واتّسعت بقدر نظراتك وبقدر ما تسلطه عيناك من إشعاعات اخترقت حُجُب القلب.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. السابري: الدرع المحكمة النسج. الصعدة: الرمح المستقيم اللدن. تندق: تتكسّر، إنها نظرات سريعة النفاذ إلى أعمق قلب الشاعر اخترقت كلّ الحواجز حتى الدرع الواقي من أعتى أنواع السلاح فقد القدرة على المقاومة فانهار وتحطمت سدوده، رغم أن هذا القلب كانت لديه ملكة مقاومة الرماح التي تكسرت أمام صموده، وكان النصر حليفه في معاركه دائماً.

(٤) يفخر الشاعر برباطة جأشه وثبات عزيمته؛ فهو صخرة الوادي الصلبة التي تثبت للمحن رغم تعدّد أشكالها، فلا الأجواء من حرّ وسيول تزيلها عن مكانها. إنه الشاعر الفذّ الذي لا يطاوله غيره من الشعراء في سماء الشعر كالجوزاء يُنظر إليها بحسرة ملؤها الحسد والغيرة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥، الغبي: الأحمق الغافل. =

شِـيَـمُ الـلَّـيَـالِـي أَنْ تُـشَـكِّـكَ نَـاقَـتِـي
صَــدْرِي بِــهَــا أَفْــضَــى أَمِ الْــبَــيْــدَاءُ[(١)]
فَـتَـبِـيـتُ تُـسْـئِـدُ مُـسْـئِـداً فِـي نَـيِّـهَـا
إِسْــآدَهَــا فِــي الْــمَــهْــمَــهِ الإِنْــضَــاءُ[(٢)]
بَــيْــنِــي وَبَــيْــنَ أَبِــي عَــلِــيٍّ مِــثْــلُــهُ
شُــمُّ الْــجِــبَــالِ وَمِــثْــلُــهُــنَّ رَجَــاءُ[(٣)]

= المقلة: العين. يطلّ من علياء اعتزازه بنفسه، فثمّة حمقى، بل رؤوسهم غباء يحول بينهم وبين تقدير الرجال على حقيقتهم، فلهؤلاء عذرهم، منهم كالعميان الذين تعامَوْا عن معرفة حقائق الأمور لعدم الرؤية لديهم، وهؤلاء يعذرون لإعاقتهم.

(١) الشيمة: العادة. أفضى: أدى إلى الاتساع. البيداء: المفازة. من عادة الشاعر أن جعلته أمانيه وأحلامه أن يسعى وراء المجد، فيجمع المال، وهو طريق القوّة وأن يتبوّأ ذُرى، وهذه لا تتأتّى للمرء إلّا بميادين البطولة، ومن ذلك كثرة الأسفار، فإذا بالعادة تتأصل لدى الشاعر حتى ناقته راحت تشكّ بنتيجة محاولته الحثيثة دون كلل أو ملل بنجاحه، فهو يقطع المفاوز ويتحدّى الأخطار، ورغم ذلك لم يحقّق ما تمنَّاه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩. الإسآد: سُرى الليل وإدمانه. النيّ: الشحم. المهمه: المفازة. الإنضاء: الهزال. ناقة الشاعر لا تعرف للراحة طعماً، فهي ليل نهار على سفر، تآكل الشحم لديها حتى هزلت، ورغم ذلك فإنها تقطع المفازات الخطرة على أمل الوصول إلى مستقر لها، ولكن عبثاً.

ـ ثمة بيتان لم يردا في الديوان على نفس الروي والقافية والوزن، وهما:

أَنْسـاعُـهـا مَـمْـغُـوطـةٌ وخِـفـافُـهـا   مَـنْـكُـوحَـةٌ وطـريـقُـهـا عَـذْراءُ
يـتـلوّن الـخِرِّيـتُ من خوف التَّوَى   فـيـهـا كـمـا يـتـلـوَّن الـحِـرْبـاءُ

ـ الأنساع، الواحد نسع: وهو سير كهيئة الزمام يُشدّ به الرحل. المغط: الخفاف المدّ. المنكوحة: هي المثقوبة بالحصى لصعوبة ووعورة الطريق فتدمى. الطريق العذراء: التي لم تسلك من قبل. يذكر الشاعر أن ناقته تتعرّض للمخاطر لكثرة ترحالها في أرض لم تعرف بشراً سلكها من قبل.

ـ الخِرّيت: الدليل الذي يرود مجاهل الأرض عن معرفة جيدة. التوى: الهلاك، الموت. إنها المتاهة الخطرة، حتى الدّليل المتمرّس العالم بمجاهل تلك الأرض عن معرفة جيّدة فإنه على تردّد دائماً؛ فهو يتلفّت يميناً وشمالاً مخافة الضياع في تلك المفازة، فضلاً عن قسوة حرارة الشمس؛ فهو يتلوّن بألوان شتّى كما تتلوّن الحرباء.

(٣) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٧٦. شم الجبال: الجبال =

وَعِـقَـابُ لُـبْـنَـانٍ وَكَـيْـفَ بِـقَـطْـعِـهَـا
وَهُـوَ الـشِّـتَـاءُ وَصَـيْـفُـهُـنَّ شِـتَـاءُ[(١)]

لَـبَـسَ الـثُّـلُـوجُ بِـهَـا عَـلَـيَّ مَـسَـالِـكِـي
فَـكَـأَنَّـهَـا بِـبَـيَـاضِـهَـا سَـوْدَاءُ[(٢)]

وَكَـذَا الـكَـرِيـمُ إِذَا أَقَـامَ بِـبَـلْـدَةٍ
سَـالَ الـنُّـضَـارُ بِـهَـا وَقَـامَ الْـمَـاءُ[(٣)]

جَـمَـدَ الْـقِـطَـارُ وَلَـوْ رَأَتْـهُ كَـمَـا تَـرَى
بُـهِـتَـتْ فَـلَـمْ تَـتَـبَـجَّـسِ الأَنْـوَاءُ[(٤)]

فِـي خَـطِّـهِ مِـنْ كُـلِّ قَـلْـبٍ شَـهْـوَةٌ
حَـتَّـى كَـأَنَّ مِـدَادَهُ الأَهْـوَاءُ[(٥)]

= الشاهقة. إنها رحلة جِدّ شاقة، فثمّة جبال عالية تحول بين الشاعر وممدوحه، ورغم ذلك فلا يمنع وصوله لمن يرغب بمدحه وحصوله على جوائزه.

(١) عِقاب لبنان: جباله الشامخة الصعبة المرتقى. ومن الحوائل الطبيعية جبال تعانق السماء، تكلّلها غيوم ثلجيَّة شتاءً وصيفاً، وشتاؤها يملأ القلوب برداً.

(٢) لبس: أشكل الأمور. ثلوج تكدّست، فارتدت الطبيعة ثوبها الأبيض الساحر، وبدل أن تثير الشاعر بجمالها الخلّاب أثارت فيه خوفه من الضياع؛ ذلك أن معالم الطريق محتها الثلوج، فإذا بهذا البياض يستحيل سواداً مخيفاً مرعباً.

(٣) ورد البيت في لسان العرب ١٢: ٤٩٧ مادة (قوم) ويقال: قام الماء إذا ثبت متحيّراً لا يجد منفذاً، وإذا جمد أيضاً، قال: وعليه فُسّر بيت أبي الطيب: . . . «أي ثبت متحيراً جامداً» النضار: الذهب. والشاعر المتكسّب يجد دائماً طريقه إلى ذهب ممدوحه، يستثير فيه ملكة الكرم ويغريه بذلك، فالكريم في بقائه بأرض، فلا بدّ له من نثر أمواله بين الناس كالماء يسيل خيره وتتّسع دوائره لتشمل أكبر عدد ممّن يستحقّون كرمه.

(٤) القطار، الواحدة قطرة من ماء. بهتت: دهشت. تتبجّس: تتفجر. الأنواء، الواحد نوْء: سقوط نجم من الغرب وطلوع رقيبه من الشرق. وعلم الأنواء عند العرب يعنى بالأمطار لأهميتها في حياتهم. يتابع الشاعر الصورة المعبّرة عن شدّة كرم الشاعر إنه سبّاق إلى المكرمات؛ لذا تتجمّد المياه خجلاً من كرمه وعجزاً عن مقارعته ومباراته، فهو دائم السبق بكرمه.

(٥) المداد: الحبر. الأهواء: الميول والرغبات. والدلالة على شدّة كرم الممدوح أن من =

وَلِـــكُـــلِّ عَـــيْـــنٍ قُـــرَّةٌ فِـــي قُـــرْبِـــهِ
حَـــتَّـــى كَـــأَنَّ مَـــغِـــيـــبَـــهُ الأَقْـــذَاءُ[١]

مَـــنْ يَـــهْـــتَـــدِي فِـــي الْـــفِـــعْـــلِ مَـــا لَا تَـــهْـــتَـــدِي
فِـــي الْـــقَـــوْلِ حَـــتَّـــى يَـــفْـــعَـــلَ الـــشُّـــعَـــرَاءُ[٢]

فِـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ لِـــلْـــقَـــوَافِـــي جَـــوْلَـــةٌ
فِـــي قَـــلْـــبِـــهِ وَلِأُذْنِـــهِ إِصْـــغَـــاءُ[٣]

وَإِغَـــارَةٌ فِـــي مَـــا احْـــتَـــوَاهُ كَـــأَنَّـــمَـــا
فِـــي كُـــلِّ بَـــيْـــتٍ فَـــيْـــلَـــقٌ شَـــهْـــبَـــاءُ[٤]

مَـــنْ يَـــظْـــلِـــمُ الـــلُّـــؤَمَـــاءَ فِـــي تَـــكْـــلِـــيـــفِـــهِـــمْ
أَنْ يُـــصْـــبِـــحُـــوا وَهُـــمُ لَـــهُ أَكْـــفَـــاءُ[٥]

= يبتغي من كرمه يحلو له الحصول على صكّ فيه وعد بعطاء جزيل؛ فالكلّ على موعد مع الغنى في حال كتابته ذلك الصكّ.

(١) قرّة العين: سعادتها وفرحها، الأقذاء، الواحدة قذى: ما يسقط في العين أو الشراب. ومن جمال أفضال ممدوحه أنه مدعاة السرور والفرح؛ فالقرب منه راحة وضمان مستقبل والبعد عنه عناء وغمٌّ ودموع ندم وفقر.

(٢) الممدوح ملهم الشعراء؛ فهم يستلهمون ممّا يقوم به من جليل الأعمال العظيمة، قولاً وفعلاً، إنه سبّاق إلى كلّ مكرُمة.

(٣) ومن مزايا ذلك الممدوح الفِطنة والذكاء فضلاً عن إحساسه بجمالية الشعر الذي يفعل في نفسه فعل السحر، فيبادر إلى الإنعام على الشعراء الذين يتوافدون عليه لسماعهم بكرمه، فبذلك يخلد بخلود أقوالهم فيه، وإشادتهم بجميل فعاله.

(٤) الإغارة: الهجوم فجأة دون سابق إنذار. احتواه: حصّله من مال. الفيلق: الفرقة من الجيش. الشهباء: البيضاء التي غلب بيضاؤها على سودائها. شأن الشعراء مع هذا الممدوح أنهم يُفاجئونه بمدائحهم فيستولون على ثروته، كأن أقوالهم فيه جيوش تستحوذ على مشاعره وأمواله، وهو مسرور بما يفعل.

(٥) اللؤماء، الواحد لئيم: الخسيس الأرومة والخلق. الأكفاء، الواحد كفوء: المساوي. ومن آثار مسلك الممدوح أنه ظلم من اتّصف باللؤم على أن يقوم بأعماله العظيمة، فلن يستطيعوا أن يُجاروه أو يباروه في مكارمه وأفضاله.

وَنَـذِيـمُـهُـمْ وَبِـهِـمْ عَـرَفْـنَـا فَـضْـلَـهُ
وبِـضِـدِّهَـا تَـتَـبَـيَّـنُ الأشْـيَـاءُ[١]
مَـنْ نَـفْـعُـهُ فِـي أَنْ يُـهَـاجَ وَضَـرُّهُ
فِـي تَـرْكِـهِ لَـوْ تَـفْـطَـنُ الأعْـدَاءُ[٢]
فَـالـسَّـلْـمُ يَـكْـسِـرُ مِـنْ جَـنَـاحَـيْ مَـالِـهِ
بِـنَـوَالِـهِ مَـا تَـجْـبُـرُ الـهَـيْـجَـاءُ[٣]
يُـعْـطِـي فَـتُـعْـطَـى مِـنْ لُـهَـى يَـدِهِ الـلُّـهَـى
وَتُـرَى بِـرُؤْيَـةِ رَأْيِـهِ الآرَاءُ[٤]
مُـتَـفَـرِّقُ الـطَّـعْـمَـيْـنِ مُـجْـتَـمِـعُ الْـقُـوَى
فَـكَـأَنَّـهُ الـسَّـرَّاءُ وَالـضَّـرَّاءُ[٥]

---

(١) الذمّ: ذكر العيوب. واللؤماء مذمومون دائماً في كلّ مصر وزمان وفضل ممدوح الشاعر سببه هؤلاء الذين خَلَوْا من كلّ مكرمة، لذا لو كان الناس جميعاً كرماء فضلاء لما أمكن اكتشاف ما يمتاز به الممدوح من مزايا جعلته يحتل تلك المكانة الرفيعة في الوجود.

(٢) ومن حسن حظّ ذلك الممدوح أن أعداءه ناصبوه العداء فكان عليه مقاتلتهم وإذلالهم واستحواذه على أموالهم ونسائهم وإخضاعهم؛ وهذا سرّ سعادته، ولو علم هؤلاء أن حسن حظه بذلك لسالموه، وهذا ما يُفقده فرصة لا تعوّض، وبالتالي لا يستطيع المساهمة في غنى من يُغنيهم بأمواله وحمايته لهم.

(٣) النوال: العطاء، الهيجاء: الحرب. والسلم مضرّ بمالية الممدوح والحرب مصدر ثراء له، لذا عليه أن يحمي ماله بطريقين: الحرب أولاهما وقوته ثانياً. والسلم باب راحة له ولجنده وهو فرصة لتوزيع ما غنمه من حروبه على من يحتمي بكنف غناه ويلوذ بلوائه.

(٤) اللهى، الواحدة لهوة: الهبات العظيمة. ومن مزايا ممدوح الشاعر أنه يعطي بلا حساب، فعطاؤه جزيل، وهو يساعد الكرماء على كرمهم، فهم واسطة بينه وبين الفقراء، وهو ذو رأي سديد، منه يستمدّ العقلاء آراءهم.

(٥) ومن مزايا الممدوح أنه خير لأصحابه يُغدق عليهم الخيرات، فيعيشون بنعيم، وهو شرّ لأعدائه، فيعيشون بشقاء وبؤس، فهو ذو وجهين متعارضين، فضلاً عن قوته وشدّته على أعدائه.

وكـــأنَّـــه مـــا لا تـــشـــاء عُـــداتُـــه
مُـــتَـــمَـــثِّـــلاً لـــوفـــوده مـــا شـــاؤوا[١]

يـــا أيُّـــهَـــا الْـــمُـــجْـــدَى عَـــلَـــيْـــهِ رُوحُـــهُ
إذْ لَـــيْـــسَ يَـــأْتِـــيـــهِ لَـــهَـــا ٱسْـــتِـــجْـــدَاءُ[٢]

اِحْـمَـدْ عُـفَـاتَـكَ لَافُـجِـعْـتَ بِـفَـقْـدِهِـمْ
فَـلَـتَـرْكُ مَـا لَـمْ يَـأْخُـذُوا إعْـطَـاءُ[٣]

لَا تَـــكْـــثُـــرُ الأمْـــوَاتُ كَـــثْـــرَةَ قِـــلَّـــةٍ
إلَّا إذَا شَـــقِـــيَـــتْ بِـــكَ الأحْـــيَـــاءُ[٤]

وَالْـقَـلْـبُ لَا يَـنْـشَـقُّ عَـمَّـا تَـحْـتَـهُ
حَـتَّـى تَـحِـلَّ بِـهِ لَـكَ الـشَّـحْـنَـاءُ[٥]

---

(١) والممدوح على نقيض دائماً فأعداؤه يتمنّون له الخسران المبين ويعملون على ذلك، أمّا الوفود التي تكتنف دياره فإنهم ينعمون برفده وحسن ضيافته، ممّا يزيد حسد الحاسدين ويُثير سُخطهم.

(٢) المجدى: المُعطَى. ومن حسن حظّه أن الوفود عليه لا يطلبون منه روحه، ولو فعلوا لحصلوا عليها لعظم كرمه؛ فهم يكتفون بكرم نائله وحسن عطائه.

(٣) العفاة: طالبو المعروف. ويروى «لا فجعت بحمدهم» بدلاً من «لا فجعت بفقدهم». يطلب الشاعر من ممدوحه ردّ معروف طالبي إحسانه لأنهم لم يطلبوا منه روحه، لذا يدعو أن يبقوا على الدوام إلى جانبه ينعمون بفيض كرمه، ولقد بادلوا صاحبهم كرماً بكرم لأنهم يعملون على المحافظة عليه.

(٤) الأموات أموات، فكثرتهم وقلّتهم؛ فهم أموات على كلّ حال، ولكن في حال فقدك فسوف تنزل المصائب بالأحياء، فهم أحياء بحياتك لما تصبّ عليهم من فيض كرمك.

(٥) الشحناء: البغضاء، القلوب مكمن أسرار النفوس، فالكراهية تكمن في أعماق بني البشر، لا تنكشف إلّا في حال توفّر أسباب تفجرها، كالحسد والغيرة، وتلك الأسباب مصدرها المتفوّقون في هذه الحياة، ولذا فمن واجبك أيّها العظيم أن تبادل أعداءك دواءهم قتلاً وتشريداً.

لَمْ تُسْمَ يَا هَارُونُ إِلَّا بَعْدَمَا اْقـ
ـتَرَعَتْ وَنَازَعَتِ اسْمَكَ الأسْمَاءُ[1]
فَغَدَوْتَ وَاسْمُكَ فِيكَ غَيْرُ مُشَارِكٍ
وَالنَّاسُ فِي مَا فِي يَدَيْكَ سَوَاءُ[2]
لَعَمَمْتَ حَتَّى الْمُدْنُ مِنْكَ مِلاَءُ
وَلَفُتَّ حَتَّى ذَا الثَّنَاءُ لَفَاءُ[3]
وَلَجُدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبخَلُ حَائِلاً
لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ[4]
أَبْدَأْتَ شَيْئاً مِنْكَ يُعْرَفُ بَدْؤُهُ
وَأَعَدْتَ حَتَّى أُنْكِرَ ٱلإِبْدَاءُ[5]

---

(١) و (٢) تقارعت: تساهمت. أسماء البشر عناوين تحمل معناها ودلالتها، والبشر يتسمَّوْن بأسماء يلذّ لهم سماعها إمّا محبّة، وإما لموسيقاها، وإما لما لأصحابها دور في حياة أمة من الأمم. وهارون رمز تشرئب له الأعناق، تشبهاً وتفاؤلاً على أن يكون حاملو الاسم موفقين كصاحبه. وهذا لا يكفي، فأنت حملت الاسم ومن تسمّى لا يشاركك بفضلك فأنت فوق من اتّخذ الاسم وسيلة من وسائل التقرّب إليك، لكرمك وشمول عطائك معظم من تتولّى رعايتهم.

(٣) المِلاء، الواحد ملأى. فتّ: سبقت. اللفاء: الدنيء الخسيس من نعمة الوجود أن الصيت الحسن يشمل سائر البلدان، وقليل من يتحقّق له ذلك بفضل حسن فعاله، فتتهاوى النفوس عليه وكأنها فراشات تبحث عن الضوء، وهذا الممدوح تأتّى ذلك بفضل قريحة الكرم لديه فرغم حبّ الناس الكاسح له، فإنهم لم يوفوه حقّه ولم يُبادلوه إلّا بالنزر القليل ممّا يستحقّ.

(٤) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٣ : ٢٤١. كرم لا حدود له يكاد ينتهي بالمرء إلى الفقر، ممّا يُحوّله إلى البخل لنفاد ما في يديه، حتى الفرح المصحوب بالضحك المفرط فقد ينقلب إلى بكاء.

(٥) أبدأت: اخترعت. أعدت: كرّرت. يخاطب الشاعر ممدوحه مادحاً سابقته في الكرم، فهو سنَّ سنَّة لم تكن في سابق العهود حتى أدرك أقصى حالات الكرم، ولم يكتف بذلك بل إنه حالة متجدّدة، ممّا جعل الناس ينسبون ما كان من عادته في بدء رحلة الكرم عنده.

فَـالْـفَـخْـرُ عَـنْ تَـقْـصِـيـرِهِ بِـكَ نَـاكِـبٌ
وَالْـمَـجْـدُ مِـنْ أَنْ تُـسْـتَـزَادَ بَـرَاءُ[(١)]

فَـإِذَا سُـئِـلْـتَ فَـلَا لِأَنَّـكَ مُـحْـوِجٌ
وَإِذَا كُـتِـمْـتَ وَشَـتْ بِـكَ الْآلَاءُ[(٢)]

وَإِذَا مُـدِحْـتَ فَـلَا لِـتَـكْـسِـبَ رِفْـعَـةً
لِـلـشَّـاكِـرِيـنَ عَـلَـى الْإِلٰـهِ ثَـنَـاءُ[(٣)]

وَإِذَا مُـطِـرْتَ فَـلَا لِأَنَّـكَ مُـجْـدِبٌ
يُـسْـقَـى الْـخَـصِـيـبُ وَتُـمْـطَـرُ الـدَّأْمَـاءُ[(٤)]

لَـمْ تَـحْـكِ نَـائِـلَـكَ الـسَّـحَـابُ وَإِنَّـمَـا
حُـمَّـتْ بِـهِ فَـصَـبِـيـبُـهَـا الـرُّحَـضَـاءُ[(٥)]

لَـمْ تَـلْـقَ هٰـذَا الْـوَجْـهَ شَـمْـسُ نَـهَـارِنَـا
إِلَّا بِـوَجْـهٍ لَـيْـسَ فِـيـهِ حَـيَـاءُ[(٦)]

---

(١) ناكب، عادل، مائل. يخاطب الشاعر ممدوحه، فلقد أدرك منتهى ذرى المجد، والتوفيق حليفه، فلا سبيل إلى النكول في هذا السبيل إلى الوراء، وكذلك لا سبيل إلى الاستزادة لأن المجد لم يعد لديه متّسع، فقد حلّ الممدوح في أعلى ذراه.

(٢) و (٣) كتمت: احتجبت. المثول بين يدي الممدوح لا يُقصد منه البخل، ولا الاستعلاء وإنّما الغاية منه معرفة أحوال الناس والاطلاع على شؤونهم عن كثب للقيام بما يحتاجونه من خدمات، فأفضال الممدوح دالَّة على كرمه وأريحيَّته. والمدح لا يزيد من قدره، فهو فوق كلّ تكريم، ولن يدرك ممدوح شأوه مهما بلغ في العلياء، ومن طبيعته لذّة العطاء، وهي من اللّه تعالى من اختصّهم بنعمة الكرم.

(٤) الدأماء: البحر. إن ما توافر لدى الممدوح هو عطاء ربّاني لذا فإنه ينهمر من لدن الله تعالى، وليس معنى ذلك قلة يده وانقطاع رزقه، فاللّه عزّ وجلّ يرزقه لعلمه أن الممدوح واسطة بين اللّه تعالى والبشر، والبحر فياض بالخير العميم، على سائر الناس.

(٥) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣١٥. معاهد التنصيص للعباسي ٢: ٩. النائل: العطاء. الرحضاء: العرق من أثر الحمّى الشديدة: إنها مباراة بين الإنسان ممثلاً بالممدوح وبين الطبيعة ممثلة بالأمطار الغزيرة؛ فالممدوح يُسارع في الخيرات ويفيض عطاؤه على البشر، ورحلة الشتاء طويلة الأمد، لذا فإنها تودُّ لو تجاريه بسرعة الكرم، لذا فإنها تصاب بالحمّى، والعرق يغطيها حسداً وحنقاً.

(٦) ورد البيت في: أسرار البلاغة: ٣٨٧، معاهد التنصيص للعباسي ١: ١١٦ ومن مغالاة =

فَبِأَيِّمَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إِلَى الْعُلَى
أُدُمُ ٱلْهِلَالِ لِأَخْمَصَيْكَ حِذَاءُ[(١)]

وَلَكَ الزَّمَانُ مِنَ الزَّمَانِ وِقَايَةٌ
وَلَكَ ٱلْحِمَامُ مِنَ الْحِمَامِ فِدَاءُ[(٢)]

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هُوْ
عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ[(٣)]

خير من تحت السماء

وغنى المغني فقال:

[مخلّع البسيط]

مَاذَا يَقُولُ الَّذِي يُغَنِّي
يَا خَيْرَ مَنْ تَحْتَ ذِي السَّمَاءِ[(٤)]

شَغَلْتَ قَلْبِي بِلَحْظِ عَيْنِي
إِلَيْكَ عَنْ حُسْنِ ذَا الْغِنَاءِ[(٥)]

= الشاعر أنه جعل الشمس لا تخجل من إشراقها أمام أنوار وجه ممدوحه التي أشرقت على الكون بحيوية إشراقها ودفئها.

(١) الأديم: وجه الأرض، الأخمص: ما دخل في باطن القدم. يتعجب ويسأل ممدوحه عن سر تفوّقه، فقد أدرك المراكز وذرى المجد حتى أدرك القمر، فكان له حذاء يرتقي به إلى السماء.

(٢) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يدعو الشاعر بالبقاء السرمديّ لممدوحه أن يحميه الزمان، فلا يُفاجئه بنكباته ومصائبه، بل إنه يتمنى لو مات الموت لينعم برغد العيش ولذّة الحياة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. اللذ: لغة في الذي. الورى: البشر. عقمت: فقدت القدرة على الإنجاب. يختم الشاعر قصيدته مؤكداً على أن ممدوحه من البشر ينتمي إليهم لحماً ودماً، ويمتاز عنهم بمزايا جعلته يتبوّأ المكانة الرفيعة، ولو لم يكن هكذا لكانت حواء أمّ البشر ما ولدت من البشر أحداً يستحق شرف إنسان بمعنى الكلمة.

(٤) و (٥) الغناء لغة النفس والأذن، يسيح المرء مع النغم والصوتِ والأداء والمعنى في =

أوحشت أرض الشام

وعاب قوم عليه علوّ الخيام فقال:

[الوافر]

لَـقَـدْ نَـسَـبُـوا الْـخِـيَـامَ إِلَـى عَـلَاءِ
أَبَـيْـتُ قَـبُـولَـهُ كُـلَّ الإِبَـاءِ[١]
وَمَـا سَـلَّـمْـتُ فَـوْقَـكَ لِـلـثُّـرَيَّـا
وَلَا سَـلَّـمْـتُ فَـوْقَـكَ لِـلـسَّـمَـاءِ[٢]
وَقَـدْ أَوْحَـشْـتَ أَرْضَ الـشَّـامِ حَـتَّـى
سَـلَـبْـتَ رُبُـوعَـهَـا ثَـوْبَ الْـبَـهَـاءِ[٣]
تَـنَـفَّـسُ وَالْـعَـوَاصِـمُ مِـنْـكَ عَـشْـرٌ
فَـتَـعْـرِفُ طِـيـبَ ذٰلِـكَ فِـي الـهَـوَاءِ[٤]

= أنشودة تحرّك المشاعر، والشاعر كان بين أمرين إما أن يستمع للمغني وينسجم معه، وإما أن يملأ ناظريه بمفاتن ممدوحه، لذا فالغناء لا يشدّه وإنما شغل قلبه وعقله بمفاتن ممدوحه وأفضاله التي يسعى الشاعر لإشباع نهمه منها، فالغناء بلغة المال يعني الإفلاس، وسرعان ما يتلاشى أثره في نفس الماديين عادة.

(١) و (٢) يعتذر الشاعر إلى ممدوحه من أنه جعل خيامه عالية، ولم يقصد الإساءة إليه فهي عالية علوًّا مادياً، وهو علوّ لا يساميه شرف ممدوحه وسؤدده؛ إنّه يلامس النجم بل يزيد على الثريا، والشاعر لا يرى علو السماء شيئاً إذا ما قيس برفعة ممدوحه.

(٣) أوحش المنزل: أقفر وذهب عنه الناس. سلبت: اختلست الربوع، الواحد ربع: الدار بعينها. البهاء: الحسن. يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه سرّ البهجة حيثما حلَّ؛ فأرض الشام ذهب عنها جمالها، وأقفرت فيها الديار، بعدما استحوذ الممدوح على سرّ جمالها بانتقاله منها إلى العواصم.

(٤) العواصم: بلاد قصبتها أنطاكية. ومن مغالاة الشاعر في مدحه أن عبق طيب ممدوحه يسبقه إلى حيث انتقل قبل مسيرة عشرة أيام، فإذا برعيته يتنسمون هواءً جديداً، فيه عبق الأمل والطمأنينة والأمن في ربوعهم.

أصغر من الهجاء

ولما أنشد هذه القصيدة وانصرف اضطرب المجلس وكان نبطي من كبراء كتابه يقال له أبو الفرج السامري فقال له: دعني أسعَ في ذمه، فرخص له في ذلك وفيه يقول أبو الطيب:

[الوافر]

أَسَامِرِيُّ ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءِ
فَطِنْتَ وَأَنْتَ أَغْبَى الأَغْبِيَاءِ (١)

صَغُرْتَ عَنِ الْمَدِيحِ فَقُلْتَ أُهْجَى
كَأَنَّكَ مَا صَغُرْتَ عَنِ الْهِجَاءِ (٢)

وَمَا فَكَّرْتُ قَبْلَكَ فِي مُحَالٍ
وَلَا جَرَّبْتُ سَيْفِي فِي هَبَاءِ (٣)

لا تعذل المشتاق في أشواقه

وأمره بإجازة أبيات فقال:

[الكامل]

أَلْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ
وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ (٤)

---

(١) فطنت: تنبّهت. يهجو الشاعر السامريَّ، إنه هزاءة ضحكة البشر، يسخرون منه لغبائه، فهو لا يقدّر الشعر حقّ قدره ولا يحترم قائله، وفطنته لم تهده إلى سرّ عظمة الشعر ولم يستطع تذوّقه، فاستحق السخرية لجهله.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢١٣. يوجّه الشاعر سهام نقده اللاذعة للسامريّ، فقد تضاءل حتى تقلّص ولم يعد يبدو شيئاً بل أصبح هباءة، لذا فهو لا يستحقّ المدح، حتى بدا يستحقّ الهجاء لذلك.

(٣) الهباءة: الشيء المنبثّ الذي تراه في البيت من ضوء الشمس. وما يدهش الشاعر أنه لم يطرأ على باله أنه بشيء عدمي يرى ويحسّ في حال وجود ذلك اللاموجود في نظره أصلاً، ولم تشأ الظروف أن يجرّد لسانه لمحاربة شيء لا يراه ولا وجود له أصلاً.

(٤) العذول: اللائم. لطالما تأكّد المتنبي من حاسديه ولائميه. بدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني، يتحدّث عن القلب ذلك العضو منبع الفكر والمشاعر، وهو المهيمن على كلّ حركات البشر، وهو المتحكّم بتوازن الجسد، وداء القلب نفسي يألم لألم صاحبه ويبكي لبكائه، وهو العالم بخفايا الأمور.

فَـوَمَـنْ أُحِـبُّ لأَعْـصِـيَـنَّـكَ فِـي ٱلْـهَـوَى
قَـسَـمـاً بِـهِ وَبِـحُـسْـنِـهِ وَبَـهَـائِـهِ(١)

أَأُحِـبُّـهُ وَأُحِـبُّ فِـيـهِ مَـلاَمَـةً
إِنَّ الـمَـلاَمَـةَ فِـيـهِ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ(٢)

عَـجِـبَ الـوُشَـاةُ مِـنَ الـلُّـحَـاةِ وَقَـولِـهِـمْ
دَعْ مَـا بَـرَاكَ ضَـعُـفْـتَ عَـنْ إِخْـفَـائِـهِ(٣)

مَـا الْـخِـلُّ إِلَّا مَـنْ أَوَدُّ بِـقَـلْـبِـهِ
وَأَرَى بِـطَـرْفٍ لَا يَـرَى بِـسَـوَائِـهِ(٤)

إِنَّ الْـمُـعِـيـنَ عَـلَـى الـصَّـبَـابَـةِ بِـالأَسَـى
أَولَـى بِـرَحْـمَـةِ رَبِّـهَـا وَإِخَـائِـهِ(٥)

---

(١) البهاء: الجمال. يُقسم الشاعر بحبيبته أنه لن يستسلم لرجاء اللائم ويُطيعه وينزل عند رغبته ويفعل ما يطلبه منه.

(٢) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي: ٢: ١٤١. يُعمل الشاعر منطقه فلا يُمكن لعاقل أن يجمع الأضداد في وقت واحد؛ فهو لا يمكنه أن يجمع بين حبّه والنهي عن حبّه، ذلك أن النزول عند رغبة اللائم تدعو إلى الامتناع عن حبّه، وهو يُخلص الحبّ لحبيبه.

(٣) الوشاة، الواحد واشٍ: النمام الذي يحرّف الحقائق وينمّق الأكاذيب. اللاحي: اللائم. ثمّة خلاف بين الوشاة واللّحاة؛ فاللحاة ينصحون الشاعر بالتخلّي عن حبيبته، بينما الوشاة يستغربون تلك الدعوة بكتمان هذا الحبّ لأن من لا يستطيع الكتمان، فهو بالتالي يعجز عن ترك ذلك الحبّ لضعفه وعدم تخليه عنه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. والخِلّ: الصديق. الطرْف، بسكون الراء: النظر. يرى الشاعر أن الصداقة الحقّة بين الأخِلّة تلازم وتلاحم وتصاقب في المشاعر والأخلاق والأهداف، فالخليل يُحسّ بقلب صديقه ويشعر بمشاعر وليفه، فيألم لألمه ويسعد لسعادته ويُفكر بعقل صاحبه.

(٥) الصبابة: رقّة الشوق وحرارته. الأسى: الحزن، والمداواة والعلاج. يرى الشاعر أن العون من اللائم لا يكون إلّا بمدّ يد المساعدة والأخذ بيد صديقه لا باللوم والتوبيخ والتقريع بل بالمداواة وتقديم العلاج الشافي المضمون النتائج الحسنة للتخلّص من عذاب صديقه والنهوض به من عثرته.

مَهْلاً فَإِنَّ الْعَذْلَ مِنْ أَسْقَامِهِ
وَتَرَفُّقاً فَالسَّمْعُ مِنْ أَعْضَائِهِ[١]

وَهَبِ المَلَامَةَ فِي اللَّذَاذَةِ كَالْكَرَى
مَطْرُودَةً بِسُهَادِهِ وَبُكَائِهِ[٢]

لَا تَعْذُلِ الْمُشْتَاقَ فِي أَشْوَاقِهِ
حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْشَائِهِ[٣]

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ
مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ[٤]

وَالْعِشْقُ كَالْمَعْشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ
لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَائِهِ[٥]

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنِفِ الْحَزِينِ فَدَيْتُهُ
مِمَّا بِهِ لأَغَرْتَهُ بِفِدَائِهِ[٦]

---

(١) يخاطب الشاعر لائمه طالباً منه عدم التسرّع والاستمرار بلومه، فاللوم يزيده ألماً وأسىً ويجعل المرض يسري في جسده وينتشر حتى الأذن قد تبلى بالصمم.

(٢) هب: افرض. الكرى: النعاس. ويخاطب الشاعر اللائم بأنه يلذّ له اللوم، وذلك لا يُكلّفه شيئاً من العذاب والألم والهمّ الذي يعاني منه الشاعر، فهو لا يعرف للنوم طعماً، فليله سهاد وأرق وقلق وبكاء لما يعاني من حبّ.

(٣) يروى «لا تعذر» بدلاً من «لا تعذل». العذل: اللوم. الحشا: ما اضطمّت عليه الضلوع. يطلب الشاعر من لائمه التوقف عن اللوم، وعليه أن يجرّب نفس الدواء الذي يتعاطاه الشاعر؛ إنه الحبّ فليجرب إكسيره، وليعش تجربة الشوق والعذاب وليمسك بيده النار المقدّسة.

(٤) تضرّج بالدم: تلطّخ. يرى الشاعر أن العاشق قتيل ودموعه دم ينزف مؤذنة بموت بطيء، طعمه العذاب ورائحته حشرجة مؤلمة، كمن قتل في ساحة الحرب، فكلاهما شهيد قضية.

(٥) الحوباء: النفس، الروح. يقرّر الشاعر حقيقة يؤمن بها أن العشق طعمه لذيذ، في حال قرب المعشوق أو بعده، فناره تطهّر النفس من أدرانها، وقد يتلف العاشق ويودي به إلى الهلكة، ورغم قسوة العشق فإن طعمه لذيذ وذو أثر في النفس والروح.

(٦) الدنف: المريض مرضاً دائماً مزمناً. أغرته: جعلته يغار. ويخاطب الشاعر لائمه بأنه =

وُقِـيَ الأَمِـيـرُ هَـوَى الْـعُـيُـونِ فَـإِنَّـهُ
مَـا لَا يَـزُولُ بِـبَـأْسِـهِ وَسَـخَـائِـهِ[(١)]
يَـسْـتَـأْسِـرُ الْـبَـطَـلَ الْـكَـمِـيَّ بِـنَـظْـرَةٍ
وَيَـحُـولُ بَـيْـنَ فُـؤَادِهِ وَعَـزَائِـهِ[(٢)]
إِنِّـي دَعَـوْتُـكَ لِـلـنَّـوَائِـبِ دَعْـوَةً
لَـمْ يُـدْعَ سَـامِـعُـهَـا إِلَـى أَكْـفَـائِـهِ[(٣)]
فَـأَتَـيْـتَ مِـنْ فَـوقِ الـزَّمَـانِ وَتَـحْـتِـهِ
مُـتَـصَـلْـصِـلاً وَأَمَـامِـهِ وَوَرَائِـهِ[(٤)]
مَـنْ لِـلـسُّـيُـوفِ بِـأَنْ يَـكُـونَ سَـمِـيُّـهَـا
فِـي أَصْـلِـهِ وَفِـرِنْـدِهِ وَوَفَـائِـهِ؟[(٥)]

= لو حاول أن يحلّ محل من تلف لشدّة وطأة العشق على أن يحلّ محله في رحلة العذاب اللذيذ لأثار غيرته ولما رضي بالتخلّي عن نعمة هذا العذاب والإحساس بروعة الحبّ.

(١) وقي: حفظ. البأس: القوة. السخاء: الكرم. يدعو الشاعر لممدوحه بالسلامة من الوقوع بالحبّ وعذابه، ذلك أن قويّ الإرادة يتحلّى بشجاعة الأبطال وكرم الأسخياء، والهوى غلّاب يتغلغل إلى أعماق القلوب رغم ما يبدو عليه من ضعف فتّاك وليونة قاسية.

(٢) يستأسر: يُقيّد. الكميّ: الشجاع المتغطي المتستر بالدرع والبيضة. ومن قوة العشق أنه يقدر على أعتى الرجال من الأبطال الشجعان فلا يحول دون تسرّبه إلى القلوب الدروع وكلّ أنواع السلاح: فبلطفه يقدر على تمزيق كلّ الحواجز والموانع ليغزو القلوب والنفوس.

(٣) النوائب، الواحدة نائبة: المصائب، الويلات. الأكفاف، الواحد كفء: الأقران المساوون. يخاطب الشاعر سيف الدولة طالباً منه العون لمساعدته على تخطّي العثرات والمصائب التي يتعرّض لها الشاعر ليقطع دابرها ويتغلّب عليها بفضل مساعدته وحمايته، فسيف الدولة بطل الجلاد، يتصدّى لكل صعب وينجح في مهماته.

(٤) الصلصة: الصوت الذي تحدثه السلاسل الحديدية. كنت يا سيف الدولة ضربة الدهر الذي يهيئ أمثالك للأمة وقت المحن والشدائد، فكنت للشاعر عوناً عن دفع نوائب الدهر، فأقلته من عثرته، وأمسكت بيده إلى القوّة، وحملت عنه عبء الحياة.

(٥) من للسيوف: أي من يكفل لي بأن يكون في مثيل له. فرند السيف: رُبده ووشيه. =

طُبِعَ الْحَدِيدُ فَكَانَ مِنْ أَجْنَاسِهِ
وَعَلِيٌّ الْمَطْبُوعُ مِنْ آبَائِهِ (١)

ملك القلوب والزمان

واستزاده سيف الدولة فقال:

[الكامل]

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِ التَّائِهِ
وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ (٢)
يَشْكُو الْمَلَامُ إِلَى اللَّوَائِمِ حَرَّهُ
وَيَصُدُّ حِينَ يَلُمْنَ عَنْ بُرَحَائِهِ (٣)
وَبِمُهْجَتِي يَا عَاذِلِي الْمَلِكُ الَّذِي
أَسْخَطْتُ أَعْذَلَ مِنْكَ فِي إِرْضَائِهِ (٤)
إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ
مَلَكَ الزَّمَانَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

= من جميل قول المتنبي أنه لا يوجد في الحديدية القاطعة أمثال سيف الدولة الذي يشاركها بأسمائها ويختلف عنها بمزاياه، فهو بطل شريف الأصل يمتاز بخير الفضائل خلقاً وفعالاً ونحيزة وكرماً ووفاءً.

(١) كلّ شيء يرجع إلى أصله، والحديد يكنفه الصدأ، وقد يُبليه، ولا قلب له يُحسّ به؛ والسيف لا يقطع بذاته، ولكن بيد بطل. وسيف الدولة ذلك البطل الذي من آبائه صفات البطولة والعظمة والسؤدد والشرف.

(٢) التائه: المتحير. سوداء القلب: العلقة السوداء التي في جوف القلب. لن يؤثر لوم اللائمين؛ فالقلب نافر عاصٍ لا ينفذ إليه أثارة من لوم؛ ذلك أن حبّ سيف الدولة استحوذ على لبّ قلب الشاعر فملأه، ولا مكان لغيره فيه.

(٣) البرحاء: الحمّى. الشوق وتوهجه. ها هو ذا قلب الشاعر يردّ على اللائمين اللوم، فحرارته تحرق ممّا يجعل لوم اللائمين لا وجود له أصلاً فقد حقن قلبه بجرعة حبّ أفعمته، فحالت دون أيّ أثر جانبي لعذل أو لوم.

(٤) المهجة: الروح. أسخط: أغضب. يعلن الشاعر للعاذل أنه على استعداد للتضحية بنفسه فدًى للملك، ولذا فإنّه حمل سائر الناس على الغضب منه لما يبذله في سبيل رضى سيف الدولة عنه. ولقد استطاع التغلغل إلى أعماق قلوب رعيّته فملكهم طاعة وحبًّا وإعجاباً، فإذا به يتصرّف كما يحلو في الأرض والسماء والبشر.

الـشَّـمْـسُ مِـنْ حُـسَّـادِهِ وَالـنَّـصْـرُ مِـنْ
قُـرَنَـائِـهِ وَالـسَّـيْـفُ مِـنْ أَسْـمَـائِـهِ (١)
أَيْــنَ الــثَّــلَاثَــةُ مِــنْ ثَــلَاثِ خِـلَالِـهِ
مِــنْ حُــسْــنِــهِ وَإِبَــائِــهِ وَمَــضَــائِــهِ (٢)
مَــضَــتِ الــدُّهُــورُ وَمَــا أَتَـيْـنَ بِـمِـثْـلِـهِ
وَلَــقَــدْ أَتَــى فَــعَــجَــزْنَ عَــنْ نُـظَـرَائِـهِ (٣)

شمس منيرة سوداء

بنى كافور داراً بإزاء الجامع الأعلى على البركة، وطالب أبا الطيب بذكرها فقال يهنئه بها:

[الخفيف]

إِنَّــمَــا الــتَّــهْــنِــئَــاتُ لِــلأَكْــفَــاءِ
وَلِــمَــنْ يَــدَّنِــي مِــنَ الْــبُــعَــدَاءِ (٤)
وَأَنَــا مِــنْــكَ لَا يُــهَــنِّــىءُ عُــضْــوٌ
بِــالْــمَــسَــرَّاتِ سَــائِــرَ الأَعْــضَــاءِ (٥)

---

(١) لا يحسد سيف الدولة إلّا الشمس رغم ارتفاعها واتساع دائرة وجودها، ذلك أن النصر حليفه الدائم، وقد اتّخذ السيف اسماً من أسمائه التي تدلّ على عظمته وشرفه وأصالة محتده.

(٢) الخلال، الواحدة خلّة: المزايا الحسنة، من المستبعد أن تقارن الشمس والنصر والسيف بما يتّصف به سيف من صفات إنسانية رفيعة، فهو يرفض الظلم ويأبى الذلّ والخضوع للضعف، والنصر حليفه الدائم.

(٣) توالت الأزمنة بخيلة، فلم تأتِ بالعظماء أمثال سيف الدولة، وهو لمّا كانت الأمة على موعد معه، عجز الزمان عن أن يمدّها بشبيه لسيف الدولة بمواصفاته. وتلك مغالاة تصل إلى حدّ التملّق والكذب؛ فالتاريخ الإسلامي يفيض بذكر من هم أفضل من سيف الدولة بمئات الأميال في الزمان والمكان والمكانة.

(٤) و (٥) يدَّني: يقترب. الكفء: النظير، الشبيه. فالمناسبات السعيدة قليلة في حياة البشر، وإذا ما كانت، فإنهم يتبادلون التهنئات. يرى المتنبي أنه كفء لممدوحه، ولذا فهو يهنئ نظيره، ويرى أنه من ممدوحه، وهما اثنان امتزجا بواحد، فكأنه يهنئ نفسه. وتلك مساهمة فيها كثير من المبالغة، واللوم يوجّه للممدوح الذي قبل من المتنبي مُغالاته.

مُسْتَقِلٌّ لَكَ الدِّيَارَ وَلَوْ كَا
نَ نُجُوماً آجُرُّ هٰذَا الْبِنَاءِ[١]
وَلَوَ اَنَّ الَّذِي يَخِرُّ مِنَ الأمـ
ـوَاهِ فِيهَا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءِ[٢]
أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تُهَنَّى
بِمَكَانٍ فِي الأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ[٣]
وَلَكَ النَّاسُ وَالْبِلَادُ وَمَا يَسْـ
ـرَحُ بَيْنَ الْغَبْرَاءِ وَالْخَضْرَاءِ[٤]
وَبَسَاتِينُكَ ٱلْجِيَادُ وَمَا تَحْـ
ـمِلُ مِنْ سَمْهَرِيَّةٍ سَمْرَاءِ[٥]
إِنَّمَا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمِسْـ
ـكِ بِمَا يَبْتَنِي مِنَ الْعَلْيَاءِ[٦]
وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي ٱنْسَلَخَتْ عَنْـ
ـهُ وَمَا دَارُهُ سِوَى الْهَيْجَاءِ[٧]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤، يروى «أستقل» بدلاً من «مُستقل». الآجر: الطوب المشوي. يرى الشاعر أن من حقّ ممدوحه أن ينعم بسعة الدنيا والغنى، لذا فهو يستقلّ ما بيده ولو كان باستطاعته لجعل نجوم السماء آجراً لقصر ممدوحه.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. خرير الماء: صوته. حتى المياه وهي سرّ الحياة لكافة الكائنات؛ فالممدوح يسمو لذا فهو الوحيد الذي يستحقُّ التهنئة في هذا الوجود حيثما حلّ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. وما يغري كافوراً أنه يُحبّ أن يسمع بأن ما على الأرض من بشر ودوابّ؛ فالغبراء ملكه والخضراء.

(٥) السمهرية: الرماح الصلبة، المنسوبة إلى سمهر وهو رجل كان يقوّم الرماح. من مظاهر غنى كافور سعة بساتينه حيث يعمّ الخير، تحميها رجال وجند يستعملون رماحاً سمهرية.

(٦) و (٧) إن مدعاة فخر الإنسان في هذا الوجود ما يستطيع تحقيقه في حياته من نجاحات =

وَبِمَا أَثَّرَتْ صَوَارِمُهُ الْبِيـ
ـضُ لَهُ فِي جَمَاجِمِ الأَعْدَاءِ[(١)]

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ لَيْسَ بِالْمِسْـ
ـكِ وَلكِنَّهُ أَرِيجُ الثَّنَاءِ[(٢)]

لَا بِمَا يَبْتَنِي الْحَوَاضِرُ فِي الرِّيـ
ـفِ وَمَا يَطَّبِي قُلُوبَ النِّسَاءِ[(٣)]

نَزَلَتْ إِذْ نَزَلْتَهَا الدَّارُ فِي أَحْـ
ـسَنَ مِنْهَا مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ[(٤)]

حَلَّ فِي مَنْبِتِ الرَّيَاحِينِ مِنْهَا
مَنْبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالآلَاءِ[(٥)]

= وانتصارات. لقد واتت كافوراً نجاحات عديدة، لقد تبوّأ عرش مصر بطموحه وجدّه وحسن التوفيق الذي حالفه؛ وهذا ما جعله يترك أثراً في تاريخ هبَة النيل؛ فابتنى دوراً عانقت السماء، ولقد تمكّن من دفع الفاطميين عن مصر طوال حكمه، فحافظ على استقلال ذلك الإقليم بجنده وجيشه الملتزم بأوامره.

(١) كانت الانتصارات متوالية شرقاً وغرباً فوقف بوجه أطماع الحمدانيين في الشرق وغيرهم كما صدّ الفاطميين في الغرب.

(٢) الأريج: توهج ريح الطيب. تفوّق المتنبي في مدحه لكافور؛ فالمسك زكي الرائحة، تتمثل فيه راحة المشاعر وطمأنينة النفس، فكان أن يُذكر أبو المسك بجميل الصفات والأثر الطيب في نفوس رعيّته.

(٣) الحواضر: المدن الآهلة بالسكّان. الريف: حيث يكثر الزرع والخضرة، ويعمّ الخصب. يُطبي: يستميل. إن سرّ عظمة كافور في أعماله التي تنمّ عن نبوغ وعقل نيّر، فابتنى العلياء وقاد الجيوش وانتصر على أعدائه فشاع صيته في البلاد، وهذا يلذّ له، خلاف من المتحضرين بيوتاً فيفتخرون بها أو من يعمل على استمالة النساء بأمواله وما يُنفقه عليهن تقرّباً وتحبّباً.

(٤) و (٥) السنى بالقصر: الضوء، والسناء: العظمة والسمو. الدار أحجار وأثاث، وكلّ ذلك لا يُساوي إنساناً، حتى ولو كان على هامش الحياة، فكيف بمن كان بمنزلة كافور، فنزوله في تلك الدار رفعة لها، فقد حلّ فيها من سمت همته وبلغ العلياء واعتلى عرش العظمة. ورغم الاهتمام بتلك الدار وتزيينها بما يريح النفس والعين من أثاث وبساتين وزروع، فقد حلَّ فيها نبت المكرمات والفضائل والكرم.

تَـفْـضَـحُ الـشَّـمْـسَ كُـلَّـمَـا ذَرَّتِ الـشَّـمْـ
ـسُ بِـشَـمْـسٍ مُـنِـيـرَةٍ سَـوْدَاءِ[١]

إِنَّ فِـي ثَـوبِـكَ الَّـذِي الـمَـجْـدُ فِـيـهِ
لَـضِـيَـاءً يُـزْرِي بِـكُـلِّ ضِـيَـاءِ[٢]

إِنَّـمَـا ٱلْـجِـلْـدُ مَـلْـبَـسٌ وَابْـيِـضَـاضُ الـنَّـ
ـفْـسِ خَـيْـرٌ مِـنَ ابْـيِـضَـاضِ الـقَـبَـاءِ[٣]

كَـرَمٌ فِـي شَـجَـاعَـةٍ وَذَكَـاءٌ
فِـي بَـهَـاءٍ وَقُـدْرَةٌ فِـي وَفَـاءِ[٤]

مَـنْ لِـبِـيـضِ الْـمُـلُـوكِ أَنْ تُـبْـدِلَ الـلَّـوْ
نَ بِـلَـوْنِ ٱلْأُسْـتَـاذِ وَالـسَّـحْـنَـاءِ[٥]

فَـتَـرَاهَـا بَـنُـو الْـحُـرُوبِ بِـأَعْـيَـا
نٍ تَـرَاهُ بِـهَـا غَـدَاةَ الـلِّـقَـاءِ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥، يروى «يَفضح» بدلاً من «تفضح». يحمل هذا البيت في طيّاته هجاءً مرًّا؛ فالشمس نور ودِفء ونعمة الوجود، فإذا بهذا ينكسف وتخفيه ظلمة قاتمة سوداء بسبب نور أسود انعدمت فيه الرؤية؛ إنها ظلمة كافور.

(٢) يزري: يحقر. يحتوي ثوب كافور على امرئ تجسّدَت فيه كلّ عناصر الضياء، لذا اختفت الشمس كما اختفى ملوك ذلك الزمن لوجود من أمكنه أن يكسف أنوارهم بسطوع نجمه في سماء تلك الديار.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. القباء: الثوب. الجلد رداء خارجي، ولا دخل فيه للإنسان، فاللَّه عزّ وجلّ خلق البشر وميّزهم بألوانهم وأشكالهم، فاختلف كلّ ذلك لحكمة يعلمها اللَّه؛ وإنما المعوّل على أخلاق البشر وطباعهم وميولهم ورغباتهم وما يتركونه في هذه الحياة. وهذا سرّ عظمة كافور.

(٤) راح الشاعر يعدّد الفضائل التي يتمنّى كلّ إنسان أن تتوفر فيه؛ وهذا ديدان الشعر التكسّبي في الشعر العربي، الكرم، الشجاعة، الذكاء، ويظهر دهاء المتنبي في ذكره بهاء المنظر، فضلاً عن الوفاء بالعهد والوعد، وذلك تذكير من المتنبي لكافور بما وعده به.

(٥) و (٦) السحناء: الهيئة. يودّ الملوك البيض لو استحالوا إلى زنوج في ساحة الحرب =

يَــا رَجَــاءَ الْــعُــيُــونِ فِــي كُــلِّ أَرْضٍ
لَــمْ يَــكُــنْ غَــيْــرَ أَنْ أَرَاكَ رَجَــائِــي (١)

وَلَــقَــدْ أَفْــنَــتِ الْــمَــفَــاوِزُ خَــيْــلِــي
قَــبْــلَ أَنْ نَــلْــتَــقِــي وَزَادِي وَمَــائِــي (٢)

فَــارْمِ بِــي مَــا أَرَدْتَ مِــنِّــي فَــإِنِّــي
أَسَــدُ الْــقَــلْــبِ آدَمِــيُّ الــرُّوَاءِ (٣)

وَفُــؤَادِي مِــنَ الْــمُــلُــوكِ وَإِنْ كَــا
نَ لِــسَــانِــي يُــرَى مِــنَ الــشُّــعَــرَاءِ (٤)

= حتى يُرعبوا أعداءهم، ذلك أن سواد اللون مخيف لأعدائهم، فضلاً عن قوّة جأش من اتصف من الزنوج بالشجاعة والثبات في الحروب، فلا يفرّون كما يفعل بعض الملوك من البيضان.

(١) و (٢) أمنية المتنبي أن يرى كافوراً، لذا راح يجوب الأرض مفتشاً عن أمنيته في الحياة، فوجدها أخيراً متمثلة بكافور، فكان على موعد مع تحقيق رجائه. ولقد عانى كثيراً حتى أدرك أمنيته، لذا فقد اخترق الصحراوات الموحشة، فإذا بتلك المفاوز تلتهم خيوله وتستنفذ زاده وتودي بما لديه من المياه، ورغم ذلك فإنه لم يعرف الملل طريقاً إليه، وهو مصمم على الوصول إلى كافور.

(٣) و (٤) الرواء: المنظر. يصرح المتنبي ببغيته؛ إنه يطلب ولاية، وكافور بيده أن يمنحه ما يرغب به، ولو فعل لمات المتنبي الشاعر، وإن نعم المتنبي الإنسان بالإمارة. يَدّعي المتنبي أنه قادر على القيام بأعباء الإمارة ذلك أن قلبه قلب آدمي، ولكنه في الحقيقة أسد، تتمثل به الشجاعة وهمّة الملوك ومهابة الأسود وقيادتهم، فضلاً عن قلب يحمل هموم الملوك وآمالهم وأحلامهم رغم أنه شاعر ينتمي إلى بائعي الكلام في سوق التملّق والشعر التكسبي.

رويّ الألف

ضحك كالبكاء

قال عند وروده إلى الكوفة يصف منازل في طريقه ويهجو كافوراً في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة (٩٦٢ م):

[المتقارب]

أَلا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَى
فِدَى كُلِّ ماشِيَةِ ٱلْهَيْذَبَى (١)

وَكُلُّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ
خَنُوفٍ وَمَا بِيَ حُسْنُ الْمِشَى (٢)

وَلٰكِنَّهُنَّ حِبَالُ الْحَيَاةِ
وَكَيْدُ الْعُدَاةِ وَمَيْطُ الأَذَى (٣)

---

(١) الخيزلى: مشية للنساء فيها استرخاء وتثاقل وتفكك. الهيذبى: ضرب من مشي الخيل فيه جِدّ وسرعة. يبدأ الشاعر قصيدته بذكر اهتمامه من وجوده في الحياة؛ فهو لا يهتمّ بالنساء بكلّ ما يمثلنه في حياة الرجال، فمشي الجمال من النساء وما فيه من غنج ودلال وتثاقل وتفكك لا يثير اهتمامه، وإنما يلفت انتباهه شدّة جري الخيول وقوة عدوها، وهي شريكة الأبطال وميدانها المفضّل ساحات القتال. وللشاعر توق لإبراز بطولته وتفوّقه في عالم الفروسية.

(٢) النجاة: الناقة السريعة تنجو براكبها في حال تعرّضه للخطر. البُجاوية: النياق المنسوبة إلى بجاوة إلى قرى النوبة، تشتهر بشدّة سرعتها. الخنوف من الإبل: اللينة في السير والمشى: طريقة المشي. يرى الشاعر أن ما يُعجبه في تلك النياق سرعتها لما تقدّمه له من منافع، إذاً هو لا يهتم بها لذاتها بل بعملها، فمن يؤدّي عملاً مفيداً في هذه الحياة يستحقّ التقدير، وعليه فإن النسوة ليس لهن قيمة في نظر المتنبي إذا ما تمايلن ومسن في مشيهن.

(٣) العداة: الأعداء، ميط الأذى: إبعاده. يوضح الشاعر السبب الحقيقي بأن حبّه للإبل إنما مصدره فوائدها للإنسان، فهي رزق وتسبب الرزق، وتساعد المرء على الانتقال =

ضَـرَبْـتُ بِـهَـا الـتِّـيـه ضَـرْبَ الْـقِـمَـا
رِ إمَّـــا لِـــهٰـــذَا وَإمَّـــا لِـــذَا[١]
إذَا فَـــزِعَـــتْ قَـــدَّمَـــتْـــهَـــا الْـجِـيَـادُ
وَبِـيـضُ الـسُّـيُـوفِ وَسُـمْـرُ الْـقَـنَـا[٢]
فَـــمَـــرَّتْ بِـــنَـــخْـــلٍ وَفِـــي رَكْـــبِـــهَـــا
عَـــنِ الْـعَـالَـمِـيـنَ وَعَـنْـهُ غِـنَـى[٣]
وَأَمْـــسَـــتْ تُـــخَـــيِّـــرُنَـــا بِـالـنِّـقَـا
بِ وَادِي الْـمِـيَـاهِ وَوَادِي الْـقُـرَى[٤]
وَقُـــلْـــنَـــا لَـــهَـــا أَيْـــنَ أَرْضُ الْـعِـرَاقِ
فَـــقَـــالَـــتْ وَنَـــحْـــنُ بِـتُـرْبَـانَ هَـا[٥]
وَهَـــبَّـــتْ بِـــجِـــسْـــمِـــي هُـــبُـوبَ الـدَّبُـو
رِ مُـسْـتَـقْـبِـلَاتٍ مَـهَـبَّ الـصَّـبَـا[٦]

= في مجاهل الصحراء، وتعينه على التخلّص من مطبّات الحياة، وبها يدفع الأذى عنه، ويردّ كيد عدوّه إلى نحره.

(١) التيه: المفازة، يذكر الشاعر مغامرته حين هرب من مصر فارًّا من كافور وكان لا بدّ له من وسيلة سريعة، ومن هنا كانت الناقة سبيل نجاة، فإذا به يعبر الصحراء رغم خطورتها، إنه يغامر بحياته، قد ينجو وقد لا ينجو كأنه يقامر بشيء عزيز عليه، فكان لا بدّ من المغامرة.

(٢) والحنكة الحربية تقتضي أخذ الحيطة من المفاجآت للحفاظ على الناقة وراكبها من غدر كافور أن تتقدمها الخيول السريعة المستريحة للقتال بالسيوف والرماح.

(٣) نخل: ماء معروف. واعتزازاً بقوته، فقد استطاع المتنبي المرور بنخل، ولم يعرّج عليه للتزوّد بالماء لاعتياده على الظمأ ولقلَّة حاجته لمساعدة العالمين، إنه كفيل بالدفاع عن نفسه.

(٤) النقاب: موضع يتفرّع منه طريقان، أحدهما يؤدّي إلى وادي المياه، والآخر يوصل إلى وادي القرى، يرسم المتنبي رحلة الخلاص من كيد كافور. وصل الركب إلى النقاب، ذلك الموضع الذي يُؤذن باختيار سلوك أحد طريقين، فإذا بالناقة تتمهل سائقها لاختيار الطريق التي يرغب في سلوكها.

(٥)و (٦)تربان: موضع يبعد عن المدينة نحو خمسة فراسخ. ها: حرف تنبيه. ثمَّة حوار =

رَوامِـــي الْـــكِـــفَـــافِ وَكِـبْـدِ الْـــوِهَـــادِ
وَجَـــارِ الْـــبُـــوَيْـــرَةِ وَادِي الْـــغَـــضَـــى (١)
وَجَـــابَـــتْ بُـــسَـــيْـــطَـــةَ جَـــوْبَ الـــرِّدَا
ءِ بَـــيْـــنَ الـــنَّـــعَـــامِ وَبَـــيْـــنَ الْـــمَـــهَـــا (٢)
إِلَـــى عُـــقْـــدَةِ الـــجَـــوْفِ حَـــتَّـــى شَـــفَـــتْ
بِـــمَـــاءِ الـــجِـــرَاوِيِّ بَـــعْـــضَ الـــصَّـــدَى (٣)
وَلَاحَ لَـــــهَـــــا صَـــــوَرٌ وَالـــــصَّـــــبَـــــاحَ
وَلَاحَ الـــشَّـــغُـــورُ لَـــهَـــا وَالـــضُّـــحَـــى (٤)
وَمَـــسَّـــى الـــجُـــمَـــيْـــعِـــيَّ دِئْـــدَاؤُهَـــا
وَغَـــادَى الْأَضَـــارِعَ ثُـــمَّ الـــدَّنَـــا (٥)

= جرى بين الشاعر وناقته، ولمعرفتها الجيّدة في الدروب أشارت إلى حيث أراد، فهو يودّ الوصول إلى بلاد العراق، فإذا بها تشير إليها، ثم راحت تسابق الريح بما تحوي من نشاط وحيوية مارة بحمى ذلك الموضع في البادية متجهة إلى الشرق مخلّفة وراءها ريح الدبور الغربي ومستقبلة الصبا، الهواء المنعش الذي يغطي الشرق بنسماته الرقيقة.

(١) روامي: قاصدة، تتوالى أسماء الأمكنة التي قطعتها ناقة الشاعر، بدءاً بالكفاف فكبد الوهاد، ثم جار البويرة وأخيراً وادي الغضا.

(٢) جابت: قطعت وخرقت. بُسَيْطة: موضع بين الكوفة ومكة من أرض نجد، المها، الواحدة مهاة: الأبقار الوحشية. ما زالت النياق تتابع سيرها في تلك القفار والصحاري الموحشة تلافياً لمفاجآت الأخطار، إنّها تسير وسط النعام والمها، في أرض قفراء لا أنيس فيها من البشر، فكان عليها أن تتآلف مع ما تراه من حيوانات.

(٣) و (٤) عقد الجوْف: موضع. الجراوي: منهل ماء عذب. الصدى: العطش. الركب يتابع السير مسرعاً كالبرق، ها هو قد أدرك عقدة الجوف، وعرَّج على الجراوي يروي ظمأه من ماء عذب زلال في صَوَر كذلك المنهل الآخر وتتدافع الأمكنة وصورها مسرعة أمام أعين المسرعين مروراً بالشغور ذلك الموضع في العراق، مع انبلاج الفجر وشمس الضحى.

(٥) الجميعي والأضارع والدّنا: مواضع. الدئداء: السير السريع أرفع من الخبب. إنه المساء يستقبل الركب المسرع الذي لم يعرف طعم الراحة، وتتسارع صور الجميعي والأضارع والدّنا، ولا يزال أمام الخوف مساحات.

فَـيَـا لَـكَ لَـيْـلاً عَـلَـى أَعْـكُـشٍ
أَحَـمَّ الْـبِـلَادِ خَـفِـيَّ الـصُّـوَى[١]
وَرَدْنَـا الـرُّهَـيْـمَـةَ فِـي جَـوْزِهِ
وَبَـاقِـيـهِ أَكْـثَـرُ مِـمَّـا مَـضَـى[٢]
فَـلَـمَّـا أَنَـخْـنَـا رَكَـزْنَـا الـرِّمَـا
حَ فَـوْقَ مَـكَـارِمِـنَـا وَالْـعُـلَا[٣]
وَبِـتْـنَـا نُـقَـبِّـلُ أَسْـيَـافَـنَـا
وَنَـمْـسَـحُـهَـا مِـنْ دِمَـاءِ الْـعِـدَا[٤]
لِـتَـعْـلَـمَ مِـصْـرُ وَمَـنْ بِـالْـعِـرَاقِ
وَمَـنْ بِـالْـعَـوَاصِـمِ أَنِّـي الْـفَـتَـى[٥]
وَأَنِّـي وَفَـيْـتُ وَأَنِّـي أَبَـيْـتُ
وَأَنِّـي عَـتَـوْتُ عَـلَـى مَـنْ عَـتَـا[٦]

---

(١) أعكش: موضع قرب الكوفة. الأحم: الحالك السواد. الصُّوى، واحدها صوة: أحجار توضع علامات لمعرفة الطرق. الطريق طويل، والخوف لا يزال في النفوس، وإن خفّت حدّته، وممّا يزيد بإحساس الخوف أن الليل ظلمة عمياء اختفاء معالم الطريق.

(٢) الرهيمة: موضع قرب الكوفة. الجوز: وسط الشيء، لم تنته رحلة الخوف، إنه على مشارف الوطن، لقد أصبحت الكوفة في متناول اليد وطلائع الليل تتسرّب إلى جوف الكون، ولا زال الليل في أوله، وما بقي منه أكثر ممَّا مضى.

(٣) و(٤) لقد آن للركب أن يستريح في كنف أرض الميلاد، ترجّل المتعبون طلباً للراحة، وتركوا النياق تأخذ قسطها من الراحة كذلك، وراح القوم يركزون رماحهم ويمسحون سيوفهم من دماء الأعداء ويُقبلونها؛ فهي العشير الصادق الأمين والرفيق الصالح في رحلة العذاب.

(٥) و(٦) يُعلن الشاعر تحدّيه واعتزازه، ويملأ قلبه اعتزاز بانتصاره، إنه الفتى الذي أمكنه الخلاص من مصر وما تمثله من ظلم عاناه من ملكها، والعواصم ومن فيها من ملوك لم يقدروا كفاءة الشاعر وقوّته؛ فقد استطاع أن يفي بأنه سيفلت من قبضة كافور، وسيخدعه ويسخر منه، بل إنه علا عليه ورد له الصاع صاعين، فرفع عنه الظلم وردّه على من كان يسبب ألمه.

وَمَـــا كُـــلُّ مَـــنْ قَـــالَ قَـــوْلاً وَفَـــى
وَلا كُـــلُّ مَـــنْ سِـيـمَ خَـسْـفـاً أَبَـى (١)
وَمَـــنْ يَـــكُ قَـــلْـــبٌ كَـقَـلْـبِـي لَـهُ
يَـشُـقُّ إِلَـى الْـعِـزِّ قَـلْـبَ الـتَّـوَى (٢)
وَلا بُـــدَّ لِـــلْـــقَـــلْـــبِ مِـــنْ آلَـــةٍ
وَرَأْيٍ يُـــصَـــدِّعُ صُـــمَّ الـــصَّـــفَـــا (٣)
وَكُـــلُّ طَـــرِيـــقٍ أَتَـــاهُ الْـــفَـــتَـــى
عَـــلَـــى قَـدَرِ الـرِّجْـلِ فِـيـهِ الْـخُـطَـا (٤)
وَنَـــامَ الْـــخُـــوَيْـــدِمُ عَـــنْ لَـــيْـــلِـــنَـــا
وَقَـــدْ نَـــامَ قَـــبْـــلُ عَـــمًـــى لا كَـــرَى (٥)
وَكَـــانَ عَـــلَـــى قُـــرْبِـــنَـــا بَـــيْـــنَـــنَـــا
مَـــهَـــامِـــهُ مِـــنْ جَـــهْـــلِـــهِ وَالْـــعَـــمَـــى (٦)

---

(١) ومن مدعاة فخره أنه صادق الوعد، يلتزم بقوله ولا يحيد عنه؛ إنه يمتاز عن غيره ممن يعدون ولا يفون، وفي ذلك تعريض بكافور فقد وعده وأخلف وعده، وكذلك فمن طبيعة النفوس الضعيفة أن تستكين للذلّ وترضى به، أما الشاعر فإنه يرفض الاستكانة للذلّ، لذا استطاع أن يرفع عن نفسه معرّة ظلم كافور.

(٢) التوى: الهلاك. يفخر الشاعر بعلوّ همته وقلبه المفعم بالاعتزاز والتصميم على تحدّي الموت؛ إنه على استعداد لمجابهة الموت ببسالة وثقة بقدرته على الانتصار.

(٣) يصدع: يشق. صم الصفا: الحجارة الصلبة. آلة القلب: العقل الرزين. يفخر الشاعر بحسن تصرّفه في نكبته، فعلى المرء أن يتمتع بقلب لا يعرف للخوف طريقاً، وعقل نيّر يكتشف حقيقة وجود الإنسان في هذه الحياة، لمواجهة الصعاب والانتصار عليها، فإذا بصمّ الصخور تتحطم تحت جبروت الإرادة والعقل المبصر.

(٤) الحياة رحلة طويلة قد تكون أو قصيرة، وعلى الإنسان أن يمشي رحلته بقدر سعة خطواته، ومن كانت خطواته واسعة يستطيع أن يحقق أمانيه. وهنا سرّ نجاح المرء في هذا الوجود. وهذا ما حققه المتنبي.

(٥)و (٦)الكرى: النعاس. يتفجّر المتنبي كرهاً وغضباً لكافور، فقد عمد إلى تصغيره بقوله خويدم تحقيراً له، لقد نام عن مغامرة الشاعر وهروبه من قبضته، ومعلوم أن =

وَمَـاذَا بِـمِـصْـرَ مِـنَ الْـمُـضْـحِـكَـاتِ
وَلٰـكِـنَّـهُ ضَـحِـكٌ كَـالْـبُـكَـا (١)

بِـهَـا نَـبَـطِـيٌّ مِـنَ أَهْـلِ الـسَّـوَادِ
يُـدَرِّسُ أَنْـسَـابَ أَهْـلِ الْـفَـلَا (٢)

وَأَسْـوَدُ مِـشْـفَـرُهُ نِـصْـفُـهُ
يُـقَـالُ لَـهُ أَنْـتَ بَـدْرُ الـدُّجَـى (٣)

وَشِـعْـرٍ مَـدَحْـتُ بِـهِ الْـكَـرْكَـدَنَّ
بَـيْـنَ الْـقَـرِيـضِ وَبَـيْـنَ الـرُّقَـى (٤)

فَـمَـا كَـانَ ذٰلِـكَ مَـدْحـاً لَـهُ
وَلٰـكِـنَّـهُ كَـانَ هَـجْـوَ الْـوَرَى (٥)

= كافوراً كان ساهراً على حماية مصر من طمع الفاطميين في الغرب والحمدانيين في الشرق. أمَّا نومه هذا فلم يكن نعاساً، وإنما كان نوم غفلة وحمق وغباء.

(١) يتعدّى كره المتنبي إلى المصريين، فلو لم يكونوا على شاكلة ملكهم ما كانوا ليستسلموا طائعين له ولعملوا على خلعة والتخلّص من ربقته. وهذا شرّ البلية ما يحمل على الضحك منهم لغفلتهم وجهلهم.
ـ ورد بيتان لم يردا في الديوان وهما التاليان:

لقد كنت أحْسِبُ قبلَ الخصـ ـيِّ أنّ الرؤوسَ مقرُّ النُّهى
فلما نظرْتُ إلى عَقْلِهِ رأيْتُ النُّهى كُلَّها في الخُصَى

(٢) النبط: قوم من غير العرب كانوا ينزلون البطائح بين العراقين. السواد منطقة زراعية في العراق. الفلا، الواحدة فلاة: المفازات، يقصد بذلك بوادي العرب. يقصد الشاعر بالنبطي السوادي الوزير أبا الفضل بن خنزابة؛ فمن دواعي سخرية الأقدار أن يدرس أنساب العرب من ليس بعربي.

(٣) المشفر: شفة البعير. ينزل المتنبي بكافور إلى مستوى الحيوانية؛ فهو أسود، رمز العبودية، وهو ذو مشفر رمز الحيوانية، والغريب المعيب أنهم يشبّهونه ببدر الدجى. وهذا يسجّل على المتنبي في مديحه لكافور وتملّقه له، فقد جعله شمساً منيرة وبدراً طغى نوره على سائر ملوك عصره حتى إنه فضله على سيف الدولة.

(٤) و (٥) الكركدن: ضرب من الحيوانات البرية الإفريقية يألف مياه الأنهار والبحيرات. لا ينسى الشاعر أنه مدح ذلك الحيوان بغية الحصول على ماله وخداعه فكانت قصائده =

وَقَـــدْ ضَــلَّ قَــوْمٌ بِــأَصْنَـامِــهِـمْ
فَـــأَمَّـــا بِـــزِقِّ رِيَـــاحٍ فَـــلَا (١)
وَمَـــنْ جَـــهِـلَـتْ نَـفْـسُـهُ قَـدْرَهُ
رَأَى غَـيْـرُهُ مِـنْـهُ مَـا لا يَـرَى (٢)

= بمثابة الرُّقى لكي يطمئنّ له كافور. وهو ينطق عن حقيقة شعوره، فهو لم يبغِ مدحه المغلَّف بسخرية حادَّة لم تفت على كافور، وإن جعله يعتقد، فقد كان الخداعَ متبادلاً بين الاثنين.

(١) الزقّ: السقاء. يسخر الشاعر من المصريين، فقد اتخذوا ذلك الزقّ الذي يصدر عن ريح نتن تشمئزّ منه الأنوف وتنفر منه الأذواق.
ـ ورد بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:
وتـلـك صـمـوت وذا نـاطـقٌ إذا حـرّكـوهُ فَـسَـا أو هَـدَى

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤، ينطق الشاعر بحكمة مفادها أن المرء الذي لا يعرف نفسه حقّ المعرفة، ويداخله الغرور والإعجاب بما يرى أن لديه من حميد الخصال ويعمى عن حقيقة نفسه، يعرّض نفسه لسخرية الناس لمعرفتهم بنواقصه وتخلّفه لمراقبتهم لكل ما يصدر عنه بعيون مجهرية مكبّرة لعيوبه.

رويّ الباء

الجرذ الصريع

ومرّ في صِباه برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يُعَجِّبان النّاسَ من كِبَرِه، فقال:

[المتقارب]

لَـقَـدْ أَصْـبَـحَ الْـجُـرَذُ الْـمُـسْـتَـغِـيـرُ
أَسِـيـرَ الْـمَـنَـايَـا صَـرِيـعَ الْـعَـطَـبْ(١)

رَمَـــاه الْـــكِـــنَـــانِـــيُّ وَالْـــعَـــامِـــرِيُّ
وَتَـــلَّاهُ لِـــلْـــوَجْـــهِ فِـــعْـــلَ الْـــعَـــرَبْ(٢)

كِـــلَا الـــرَّجُـــلَـــيْـــنِ اتّـــلَـــى قَـــتْـــلَـــهُ
فَـــأَيُّـــكُـــمَـــا غَـــلَّ حُـــرَّ الـــسَّـــلَـــبْ(٣)

وَأَيُّـــكُـــمَـــا كَـــانَ مِـــنْ خَـــلْـــفِـــهِ
فَـــإِنَّ بِـــهِ عَـــضَّـــةً فِـــي الـــذَّنَـــبْ(٤)

لقب على لقب

وقال في صباه يهجو القاضي الذهبي:

[البسيط]

لَـمَّـا نُـسِـبْـتَ فـكُـنْـتَ ٱبْـنـاً لِـغَـيْـرِ أَبٍ
ثُـمَّ ٱمْـتُـحِـنْـتَ فَـلَـمْ تَـرْجِـعْ إِلَـى أَدَبِ(٥)

---

(١) الجرذ: نوع من أنواع الفئران. المستغير: الذي يُغير على مؤن البيوت ويسطو عليها.

(٢) تلاه: صرعاه. يسخر الشاعر بقاتلي الجرذ؛ فأحدهما كِناني والآخر عامري، فقد صرعاه لوجهه.

(٣) اتّلى: تولى وباشر. غلّ: خان وسرق من مغانم الحرب خِفية. ويسخر الشاعر؛ فقد اشتركا بقتل الجرذ، فسألهما أيكما استحوذ على سلبه وخان في ما سرق من المغانم؟

(٤) يتمادى الشاعر بسخريته، فيسألهما أيكما عضّ ذنب الجرذ؟

(٥) يهجو الشاعر القاضي بأقسى ما يُرمى به إنسان؛ إنه لا يعرف له أب، فهو ابن زنى، ولقد جرّده من الأخلاق فلا أدب له.

سُمِّيتَ بالذَّهَبيِّ اليَوْمَ تَسْمِيَةً
مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ العَقْلِ لا الذَّهَبِ[١]

مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيْكَ بِهِ
يَا أيُّهَا اللَّقَبُ المُلْقَى عَلَى اللَّقَبِ[٢]

أبا سعيد

عذله أبو سعيد المجَيْمري[٣] على تركه لقاءَ الملوك:

[الرجز]

أَبَا سَعِيدٍ جَنِّبِ العِتَابَا
فَرُبَّ رَأْيٍ أَخْطَأَ صَوَابَا[٤]

فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا ٱلْحُجَّابَا
وَٱسْتَوْقَفُوا لِرَدِّنَا البَوَّابَا[٥]

وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابَا
وَالذَّابِلَاتِ السُّمْرَ وَالعِرَابَا[٦]

يَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا ٱلْحِجَابَا

---

(١) يتابع الشاعر هجاءه؛ فتسمية الذهبيّ لم تُشتقَّ من الذهب بل اشتقّت من ذهاب العقل.

(٢) وَيْك؛ تخفيف من ويلك، حذفت اللام لكثرة الاستعمال. ويُتابع أن اللقب عار عليك، فهو ملقب بك، ذلك أن لقبك مأخوذ من لقب لما فيه معنى العار والخزي.

(٣) هو أبو سعيد المنبجي من بني المجيمر، قبيلة بمنبج من طيّئ.

(٤) يخاطب الشاعر أبا سعيد راداً على عتابه بأن الوقوف على أبواب الملك خطأ جسيم، ولذا فهو لا يُشاطره رأيه.

(٥) إنّهم حجبوا أنفسهم عنه بحُجَّاب يحولون دون دخوله على ساداتهم.

(٦) الصارم القِرْضابا: السيف البتّار. الذابلات: الرماح اللدنة. العِراب: الخيول العربية. والجواب على هؤلاء الملوك السيوف البتّارة القاطعة والرماح الطويلة الليّنة، فإنها تُزيل الحُجَّاب عن مراكزهم، وعندئذٍ يسهل التخلّص من الملوك.

عليّ أن أشرب

وقال ارتجالاً:

[مجزوء الكامل]

لِأَحِبَّتِي أَنْ يَمْلَأُوا
بِالصَّافِيَاتِ ٱلْأَكْوُبَا (١)

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا
وَعَلَيَّ أَنْ لَا أَشْرَبَا (٢)

حَتَّى تَكُونَ الْبَاتِرَا
تُ الْمُسْمِعَاتِ فَأَطْرَبَا (٣)

ليس للّه غالب

قال وقد سألوه في نفي الشماتة عنهم:

[الطويل]

لِأَيِّ صُرُوفِ الدَّهْرِ فِيهِ نُعَاتِبُ
وَأَيِّ رَزَايَاهُ بِوِتْرٍ نُطَالِبُ (٤)

مَضَى مَنْ فَقَدْنَا صَبْرَنَا عِنْدَ فَقْدِهِ
وَقَدْ كَانَ يُعْطِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ عَازِبُ (٥)

---

(١) الصافيات، الواحدة صافية، ويقصد بذلك الخمرة. الأكوب، الواحد كوب: الأقداح لا عرى لها. يطلب الشاعر ممن اعتبرهم أحبته أن يملأوا كؤوس الخمر صافية لتعاطيها معهم.

(٢) و (٣) يبذلوا: يُقدموا. الباترات: السيوف القاطعة. يشترط الشاعر على أحبته أن يشرب الخمرة معهم إن لعبت السيوف بالرؤوس وهذا ما يطربه ويفرح قلبه؛ وهذا بلا أدنى ريب من تأثير القرامطة في فكر شاب لم ينضج بعد، ولم تكتمل عِدّة الرجولة الحقّة لديه.

(٤) الصروف: المصائب، الويلات، النكبات، الرزايا. الوتر: الثأر. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني، يعبّر فيه عن مأساة البشر المحتومة على بني البشر جميعاً دون استثناء. لذا لا عتبَ لمخلوق أمام المصيبة لما قدّره اللّه عزّ وجل، فلا بدّ من الاستسلام والخضوع لإرادته سبحانه وتعالى، فلا يمكن طلب الثأر من هذه الفاجعة.

(٥) عازب: بعيد. يروى «يعطى» بفتح الطاء بدلاً من «يعطي» بكسر الطاء. لقد رحل =

يَــزُورُ ٱلْأَعَــادِي فِــي سَــمَــاءِ عَــجَــاجَــةٍ
أَسِـنَّـتُـهُ فِـي جَـانِـبَـيْـهَـا ٱلْـكَـوَاكِـبُ (١)
فَـتُـسْـفِـرُ عَـنْـهُ وَالـسُّـيُـوفُ كَـأَنَّـمَـا
مَـضَـارِبُـهَـا مِـمَّـا ٱنْـفَـلَـلْـنَ ضَـرَائِـبُ (٢)
طَـلَـعْـنَ شُـمُـوساً وَالْـغُـمُـودُ مَـشَـارِقٌ
لَـهُـنَّ وَهَـامَـاتُ الـرِّجَـالِ مـغَـارِبُ (٣)
مَـصَـائِـبُ شَـتَّـى جُـمِّـعَـتْ فِـي مُـصِـيـبَـةٍ
وَلَـمْ يَـكْـفِـهَـا حَـتَّـى قَـفَـتْـهَـا مَـصَـائِـبُ (٤)
رَثَـى ٱبْـنَ أَبِـيـنَـا غَـيْـرُ ذِي رَحِـمٍ لَـهُ
فَـبَـاعَـدَنَـا مِـنْـهُ وَنَـحْـنُ ٱلْأَقَـارِبُ (٥)

= المغفور له عن أحبائه وأقربائه وأصدقائه الذين كانوا ينعمون بفضله عند النكبات، وهو يُعينهم بما يستطيع، ويحملهم على الصبر في المواطن الحرجة التي لا يمكن فيها الصبر.

(١) ورد البيت في: أسرار البلاغة للجرجاني: ٢٠٠. العجاجة: الغبار. الأسنة: رؤوس الرماح. من طبيعة الشعر التكسبيّ المدح حتى في ظلال قصائد الرثاء. زيارات المغفور له لأعدائه تتوالى، حيث يتصاعد الغبار، وتلمع الأسنة، وتتهاوى السيوف على رقاب أعدائه معلنة انتصاره.

(٢) و (٣) تسفر: تكشف. مضارب السيوف: حدودها وظباتها. انفللن: انثلمن. الضرائب، الواحدة ضريبة: أي المضروبة بحدّ السيف. تنكشف المعركة عن انتصار ذلك البطل، وقد تثلّمت السيوف التي يستعملها جنده لكثرة ما ضُربت برؤوس أعدائه، وكأنها ضربت برؤوسهم فانثلمت. ولقد أشرقت كأنها شمس مشعّة شديدة الحرارة تذيب رؤوس أعدائه، تعلوها ثم تذوب فيها كأنها تؤذن بغروب حياة الأعداء. فيتهاوون صرعى.

(٤) شتى: متعدّدة. قفتها: تلتها. اجتمعت المصائب من جداول واتّحدت لتؤلف نهراً كبيراً صبّت في بحيرة تلك الفاجعة بفقد من اتهمنا بأنّا شامتون لفقد من عزّ علينا موته.

(٥) يروى «غير ذي رحم لنا» بدلاً من «غير ذي رحم له». ثَمَّة من رثى فقيدنا ولا تربطه بنا وبفقيدنا رابطة قرابة مظهراً شماتتنا بموته، والحقّ أنّ موت ابن العمّ آلمنا وأحزننا دون الأباعد ممن يعملون على تمزيق وحدة قرابتنا.

وَعَــرَّضَ أَنَّــا شَــامِــتُــونَ بِــمَــوْتِــهِ
وَإِلَّا فَــزَارَتْ عَــارِضَــيْــهِ الْــقَــوَاضِــبُ (١)

أَلَــيْــسَ عَــجِــيــبــاً أَنَّ بَــيْــنَ بَــنِــي أَبٍ
لِــنَــجْــلِ يَــهُــودِيٍّ تَــدِبُّ الْــعَــقَــارِبُ (٢)

أَلَا إِنَّــمَــا كَــانَــتْ وَفَــاةُ مُــحَــمَّــدٍ
دَلِــيــلاً عَــلَــى أَنْ لَــيْــسَ لِــلَّــهِ غَــالِــبُ (٣)

والدنيا لمن غلبا

يمدح المغيث بن عليّ بن بشر العجلي: [البسيط]

دَمْــعٌ جَــرَى فَــقَــضَــى فِــي الــرَّبْــعِ مَــا وَجَــبَــا
لِأَهْــلِــهِ وَشَــفَــى أَنَّــى وَلَا كَــرَبَــا (٤)

عُــجْــنَــا فَــأَذْهَــبَ مَــا أَبْــقَــى الْــفِــرَاقُ لَــنَــا
مِــنَ الْــعُــقُــولِ وَمَــا رَدَّ الَّــذِي ذَهَــبَــا (٥)

سَــقَــيْــتُــهُ عَــبَــرَاتٍ ظَــنَّــهَــا مَــطَــراً
سَــوَائِــلاً مِــنْ جُــفُــونٍ ظَــنَّــهَــا سُــحُــبَــا (٦)

---

(١) التعريض: اللمح والغمز. العارضان: جانبا لحية المرء. القواضب: السيوف البتّارة. لقد كان من أمر من رثى قريبنا رمي الشقاق بين الأقرباء ليصيد بالماء العكر فيفلّ وحدة القرابة بتلميحه أننا فرحون بذلك المصاب، فإن لم يرتدع فسوف تزوره سيوفنا البتّارة وتقسم عارضيه نصفين.

(٢) النجل: الولد. دبيب العقارب: كناية عن النميمة. يقرّر الشاعر حقيقة أنه قد يدخل بين الأقرباء من يعمل على تمزيق وحدتهم بالدّسّ وبذر بذور الشقاق والنميمة، إنه يهودي ابن يهودي لا يحبّ الخير للبشر يعمل بخبث لا يكلّ ولا يملّ. وهذا ديدنه الأبدي.

(٣) ينهي الشاعر قصيدته، بدعوة أقرباء محمد بأن يُقرّوا بحقيقة أن صاحبهم الذي استعصى على أعدائه فغلبهم قد غلبته إرادة خالق الموت سبحانه وتعالى.

(٤) أنّى: اسم استفهام يُفيد الاستبعاد. يبدأ المتنبي قصيدته بمطلع تقليدي بالوقوف على الأطلال. لقد أثارت بقايا باهتة في ذلك الربع الذي رحل عنه الأحبة ألم الشاعر فبكى ذكريات حبّ دفنته الأيام والمصائب، وذلك من حقّ تلك الديار عليه أن تستدرّ دموعاً فتغسل الأحزان، ولكن ذلك مستبعد ولا يمكن حدوثه.

(٥) و (٦) عاج: عرّج، مال ووقف. استوقف الشاعر صحبه على تلك الديار ليتلمّس بقايا =

دَارُ الْمُلِمِّ لَهَا طَيْفٌ تَهَدَّدَنِي
لَيْلاً فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي وَلَا كَذَبَا[١]
نَاءَيْتُهُ فَدَنَا أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى
جَمَّشْتُهُ فَنَبَا قَبَّلْتُهُ فَأَبَى[٢]
هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ
بَيْتاً مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا[٣]
مَظْلُومَةُ الْقَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غُصُناً
مَظْلُومَةُ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرَبَا[٤]
بَيْضَاءُ تُطْمِعُ فِي مَا تَحْتَ حُلَّتِهَا
وَعَزَّ ذٰلِكَ مَطْلُوباً إِذَا طُلِبَا[٥]

= حياة ماضية كان الحبّ لا يزال فيها ندياً غضاً، ولكن كلّ ما في المكان باهت عفت عليه السنون، فأثار فيه حزناً ولوعة، فإذا المكان أخرس لا ينطق، فقد فارقه الحبّ وجرت دمعة سخينة بدت مطراً وسحباً سكبتها عيون جرّحها الألم.

(١) الملم: النازل. تلك الديار تخصّ حبيبة الشاعر، ولقد زاره طيف الحبيبة، وهو بين النائم والصّاحي، فإذا بعينيه لم تصدّق ما ترى وقد انجلى المنظر عن تهديد وهجران وكان قد أمل بفرحة اللقاء ومنّى نفسه بجرعة من الحبّ، لذا فرّ النوم من عيني الشاعر وما عرف طعمه.

(٢) يروى «أنأيته» بدلاً من «ناءيته»: باعدته. دنا: قرب. جشم: داعب. الطيف، سراب خادع، لا يمكن الإمساك به، وإنما الإحساس به؛ ذلك أن ذبذبات الشعور تخلق الطيف في عالم وهمي جميل. وطيف الشاعر طيف نفور، لا يستسلم للإغراءات.

(٣) الطنب: حبال يشدّ بها الخباء ليثبت في الأرض. إن حبّ الشاعر ارتبط بأعرابية ذات جمال طبيعي بديع لم تشوهه المدنية بتزين أو بهرج، وهذا ما جعلها تسكن قلب الشاعر بسهولة ودون مقاومة، فاستقرّت متربعة على عرشه، مطمئنة.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز للجرجاني: ٣٨٣. مظلومة القد: ممشوقة القوام. مظلومة الريق: عذبة. الضرب: العسل. يصف الشاعر محبوبته وصفاً خارجياً؛ إنها ممشوقة القوام، غصن أخضر ليّن رقيق، عذبة الريق كأنه مُزج بالعسل، فبدا ألذّ طعماً ومذاقاً.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٠. الحلة: الرداء. إنها بيضاء حرّة، في حديثها رقّة، تجذب عاشقها بحسن حديثها ممّا يُثيره فيودّ الإمساك بها، ولكن ذلك لا يتأتّى له لعفافها وطهر ثوبها.

كَـأَنَّـهَـا الـشَّـمْـسُ يُـعْـيِـي كَـفَّ قَـابِـضِـهِ
شُـعَـاعُـهَـا وَيَـرَاهُ الـطَّـرْفُ مُـقْـتَـرِبَـا (١)
مَـرَّتْ بِـنَـا بَـيْـنَ تِـرْبَـيْـهـا فَـقُـلْـتُ لَـهَـا
مِـنْ أَيْـنَ جَـانَـسَ هٰـذَا الـشَّـادِنُ الْـعَـرَبَـا (٢)
فَـاسْـتَـضْـحَـكَـتْ ثُـمَّ قَـالَـتْ كَـالْـمُـغِـيـثِ يُـرَى
لَـيْـثَ الـشَّـرَى وَهْـوَ مِـنْ عِـجْـلٍ إِذَا ٱنْـتَـسَـبَـا (٣)
جَـاءَتْ بِـأَشْـجَـعَ مَـنْ يُـسْـمَـى وَأَسْـمَـحَ مَـنْ
أَعـطَـى وَأَبْـلَـغَ مَـنْ أَمْـلَـى وَمَـنْ كَـتَـبَـا (٤)
لَـوْ حَـلَّ خَـاطِـرُهُ فِـي مُـقْـعَـدٍ لَـمَـشَـى
أَوْ جَـاهِـلٍ لَـصَـحَـا أَوْ أَخْـرَسٍ خَـطَـبَـا (٥)

---

(١) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٥١. يعيي: يتعب. الطرْف، بسكون الراء: النظر. إنها شمس بإشراقها ودفئها وحنانها في ظل برد الحياة وقسوتها، فتبعث في النفس روحاً جديداً، ولو حاول المرء الإمساك بشعاع كهذا لما أفلح؛ ذلك أنه وهم هوائي يصعب استيعابه في عالم المادة، ذلك أنه حلم.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. الترب: الرفيق في عمر قريب لصديقه. الشادن: الغزال الذي قوي واستغنى عن أمه وبرزت قرناه. استضحك: تكلّف الضحك. الليث: من أسماء الأسد. عجل: قبيلة عربية. خطرت محبوبة الشاعر بمشيتها ومعها صديقتان في مثل سنيها، فسألها وقد تيّمته، كيف تسنى لك أن تكون ظبية وقد نشأت في كنف العرب؟ فتكلّفت ضحكة كأنها مستغربة، وأجابت: لا تعجب مما ترى فإني كالمغيث: يبدو لك أسداً، وهو عربي من بني عجل. وبذلك سهل على الشاعر التخلص من الغزل لحبيبته إلى الانطلاق إلى موضوع مدحي.

(٤) و (٥) بدأ الشاعر بذكر صفات شائعة في المدح التكسبي. لقد أنجبت قبيلة عجل رجلاً شجاعاً، كريماً، بليغاً نطقاً وكتابة. ومن معجزات ممدوحه أنه متوقّد الذكاء لو انصبت على جاهل خامل لانطلق مسرعاً وقد حلّت به عبقرية فذّة، ولو نزلت على جاهل لانمحت معالم الجهالة وبدا عالماً بحراً في العلوم، أو لو مرّت وغارت في حلق أخرس لنطق بالحكمة وقام خطيباً بليغاً في الجماهير.

إِذَا بَـدَا حَـجَـبَـتْ عَـيْـنَـيْـكَ هَـيْـبَـتُـهُ
وَلَـيْـسَ يَـحْـجُـبُـهُ سِـتْـرٌ إِذَا ٱحْـتَـجَـبَـا[١]

بَـيَـاضُ وَجْـهٍ يُـرِيـكَ الـشَّـمْـسَ حَـالِـكَـةً
وَدُرُّ لَـفْـظٍ يُـرِيـكَ الـدُّرَّ مَـخْـشَـلَـبَـا[٢]

وَسَـيْـفُ عَـزْمٍ تَـرُدُّ الـسَّـيْـفَ هِـبَّـتُـهُ
رَطْبَ الْـغِـرَارِ مِـنَ الـتَّـأْمُـورِ مُـخْـتَـضِـبَـا[٣]

عُـمْـرُ الْـعَـدُوِّ إِذَا لاقَـاهُ فِـي رَهَـجٍ
أَقَـلُّ مِـنْ عُـمْـرِ مَـا يَـحْـوِي إِذَا وَهَـبَـا[٤]

تَـوَقَّـهُ فَـمَـتَـى مَـا شِـئْـتَ تَـبْـلُـوَهُ
فَـكُـنْ مُـعَـادِيَـهُ أَوْ كُـنْ لَـهُ نَـشَـبَـا[٥]

تَـحْـلُـو مَـذَاقَـتُـهُ حَـتَّـى إِذَا غَـضِـبَـا
حَـالَـتْ فَـلَـوْ قَـطَـرَتْ فِـي الْـمَـاءِ مَـا شُـرِبَـا[٦]

---

(١) و (٢) إن ممدوح الشاعر ذو هيبة تخشع لها الأبصار فتبقى حسرى لا تجرؤ على الاستمرار في التطلّع نحوه، ورغم طلاقة وجهه فإشراقتها نور تسطع شمسه على ديجور ظلمة حالكة، فتنير أرجاء الكون بابتسامته العذبة السحرية، فيبدو لؤلؤ ثغره درًّا منسقاً بديعاً.

(٣) العزم: القوّة والإرادة. هِبّته: مضاؤه. الغِرار: الحدّ. التأمور: دم القلب. يتحدّث الشاعر عن قوة ممدوحه؛ إنه ماضي العزم، قوي الإرادة سيفه بتّار، حادّ الشفرة، رطبها لكثرة ما سفك من دماء الأعداء، ولا يُعرف لونه الحقيقي لكثرة ما ابتلّ من الدماء.

(٤) الرهج: الغبار. وهب: أعطى. الأعمار لدى الممدوح في سباق النفاذ، فسرعان ما يصبح العدوّ في خبر كان إذا التقاه في ساحة الوغى، وأسرع من قضاء عمر عدوّه، نفاذ ما لديه من مال؛ فمن شِدّة كرمه سرعة توزيع ماله على مستحقيه.

(٥) توقّه: تجنّب غضبه. تبلوه: تختبره. النشب: المال. ينصح الشاعر المرء أن يتجنب غضب ممدوحه؛ فهو صاعقة مدمّرة، وعلى المرء إما أن يكون صديقه أو أن يكون عدوّه، وفي هذه الحالة، فلا يلومَنّ إلّا نفسه؛ فسرعان ما يؤول أمره إلى دمار، أو ماله، فيصير إلى نفاذ.

(٦) حالت: تبدّلت. إن ممدوح الشاعر لطيف المعشر قريب المتناول لمن أخلص له الودّ =

وَتَـغْـبِـطُ الأَرْضُ مِـنْـهَـا حَـيْـثُ حَـلَّ بِـهِ
وَتَـحْـسُـدُ ٱلْـخَـيْـلُ مِـنْـهَـا أَيَّـهَـا رَكِـبَـا(١)
وَلَا يَــرُدُّ بِــفِــيــهِ كَــفَّ سَــائِــلِــهِ
عَـنْ نَـفْـسِـهِ وَيَـرُدُّ ٱلْـجَـحْـفَـلَ الـلَّـجِـبَـا(٢)
وَكُــلَّـمَـا لَـقِـيَ الـدِّيـنَـارُ صَـاحِـبَـهُ
فِـي مُـلْـكِـهِ ٱفْـتَـرَقَـا مِـنْ قَـبْـلِ يَـصْـطَـحِـبَـا(٣)
مَــالٌ كَــأَنَّ غُــرَابَ الْــبَـيْــنِ يَــرْقُـبُـهُ
فَـكُـلَّـمَـا قِـيـلَ هٰـذَا مُـجْـتَـدٍ نَـعَـبَـا(٤)
بَــحْــرٌ عَـجَـائِـبُـهُ لَـمْ تُـبْـقِ فِـي سَـمَـرٍ
وَلَا عَـجَـائِـبِ بَـحْـرٍ بَـعْـدَهَـا عَـجَـبَـا(٥)

= وأحبّه؛ فهو عذب زلال يستسيغه محبوه كالماء سرّ حياتهم، وهو تارة علقم لا يستطيع أعداؤه ابتلاعه تغصّ به حلوقهم فيختنقون ويموتون غيظاً وحسرة.

(١) الغبطة: تمنّي المرء أن يكون على ما عليه من خير، دون تمنّي زوال النعمة منه. الأرض تودّ في كل أرجائها أن تتشرف بمقدمه فرحة ومفتخرة بتلك المنّة التي حلّت عليها، حتى الخيل، كلّ منها ترغب كلّ فرس أن تتشرّف بامتطائها واعتلائه منها لتفخر بذلك.

(٢) الجحفل: الجيش العظيم. اللجب: المختلط الأصوات والأقوام. ينوّه الشاعر بكرم وبشجاعة ممدوحه؛ إنه لا يردّ عنه من ابتغى كرمه وقصد مساعدته، فهو لا يتوانى عن مدّ يد المساعدة له. وهو يمدّ يده بسيفه ليقهر الجيش العظيم بقوّة ساعده وحسن بلائه في الأعداء.

(٣) ومن شدّة كرمه لا يلتقي دينار في خزائنه ديناراً آخر، لسرعة إنفاقه على من يستحقّ عطاءً.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. المجتدي: طالب الإحسان. نعب الغراب: صاح. ومن حسن طالع بُغاة فضل الممدوح أنه في حال حصوله على مال، ندب غراب البين صوته مخبراً المحتاجين عمّا لديه، فيأتونه ليصيب كل منهم نصيبه من العطاء.

(٥) ومن مبالغة الشاعر أن جعل عجائب ممدوحه تتناولها الألسن بالإشادة بصاحبها، فهو أشجع الشجعان، وهو أكرم الناس؛ فرغم اتساع البحر وكثرة كنوزه التي لا تحصى، فقد حوى الممدوح من فضائل النفس وقوة أريحية الكرم ما يفيض عمّا يزخر به البحر.

لَا يُقْنِعُ ٱبْنَ عَلِيٍّ نَيْلُ مَنْزِلَةٍ
يَشْكُو مُحَاوِلُهَا التَّقْصِيرَ وَالتَّعَبَا (١)

هَزَّ اللِّوَاءَ بَنُو عِجْلٍ بِهِ فَغَدَا
رَأْساً لَهُمْ وَغَدَا كُلٌّ لَهُمْ ذَنَبَا (٢)

أَلتَّارِكِينَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ أَهْوَنَهَا
وَالرَّاكِبِينَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا صَعُبَا (٣)

مُبَرْقِعِي خَيْلِهِمْ بِالْبِيضِ مُتَّخِذِي
هَامَ الْكُمَاةِ عَلَى أَرمَاحِهِمْ عَذَبَا (٤)

إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ لَاقَتْهُمُ وَقَفَتْ
خَرْقَاءَ تَتَّهِمُ ٱلْإِقْدَامَ والْهَرَبَا (٥)

مَرَاتِبٌ صَعِدَتْ وَالْفِكْرُ يَتْبَعُهَا
فَجَازَ وَهْوَ عَلَى آثَارِهَا الشُّهُبَا (٦)

---

(١) يُشيد الشاعر بطموح ابن علي ممدوحه، فهو دائماً يسمو إلى العلاء ولا تفتر همته أو يتوانى، إنما يدفعه نجاح إلى تحقيق نجاح آخر، وبالمقابل ثمّة من تخذله قدراته على اللحاق به فتقعد به وقد أرهقته المحاولة وحلّ به الإجهاد، فتراخت أعضاؤه وفترت همَّته.

(٢) و (٣) اللواء: الراية. ينتقل الشاعر للإشادة بقبيلة الممدوح، اختار بنو عجل الممدوح قائداً وأميراً لهم؛ وهم يرفعون رايتهم باسمه، ممَّا جعلهم سادة الناس في مقدمة القبائل، وما عداهم من الناس أصبحوا أذناباً يأتمرون بأمرهم. ومن طبع القبيلة أن يتخلّوا عن أسهل الأمور ليحققوا ما يصعب على غيرهم لتبقى الزعامة فيهم.

(٤) البيض: السيوف. الهام، الواحد: هامة: الرؤوس. الكماة، الواحد كمي: البطل المدجج بالسلاح. العذب، الواحدة عذبة: الريشة تعلّق في طرف الرمح. يمدح الشاعر القوم بمسارعة أعدائهم بأخذهم بالسيوف التي تدرك رؤوسهم قبل وصول الأعداء إلى خيولهم، فتكون رماحهم وسيوفهم دافعة الضرار عن خيولهم، فإذا بالرؤوس تتهاوى تحت سنابك الخيل وتدوسهم بقوائمها.

(٥) المنية: الموت. الخرقاء: الهوجاء. ومن عجيب مغالاة الشاعر أن الموت يفرّ من هؤلاء خوفاً ورعباً، فهو يتردّد فلا يتقدّم وقد أصابه الهلع واصطكت ركبتاه جبْناً فآثر السلامة ونكص على عقبيه فارًّا بنفسه.

(٦) الشهب: الكواكب. وطموح القوم حملهم على تحقيق أعلى الغايات وأسمى =

مَـحَـامِـدُ نَـزَفَـتْ شِـعْـرِي لِـيَـمْـلأَهَـا
فـآلَ مَـا امْـتَـلأَتْ مِـنْـهُ وَلَا نَـضَـبَـا[١]
مَـكَـارِمٌ لَـكَ فُـتَّ الْـعَـالَـمِـيـنَ بِـهَـا
مَـنْ يَـسْـتَـطِـيعُ لِأَمْـرٍ فَـائِـتٍ طَـلَـبَـا[٢]
لَـمَّـا أَقَـمْـتَ بِـإِنْـطَـاكِـيَّـةَ ٱخْـتَـلَـفَـتْ
إِلَـيَّ بِـالْـخَـبَـرِ الـرُّكْـبَـانُ فِـي حَـلَـبَـا[٣]
فَـسِـرْتُ نَـحْـوَكَ لَا أَلْـوِي عَـلَـى أَحَـدٍ
أَحُـثُّ رَاحِـلَـتَـيَّ الْـفَـقْـرَ وَٱلْأَدَبَـا[٤]
أَذَاقَـنِـي زَمَـنِـي بَـلْـوَى شَـرِقْـتُ بِـهَـا
لَـوْ ذَاقَـهَـا لَـبَـكَـى مَـا عَـاشَ وَٱنْـتَـحَـبَـا[٥]

= المراكز، لذا فقد استطاعوا أن يدركوا الكواكب ويتجاوزوها لبعد هممهم.

(١) نزفت: استوفت. آل: رجع. نضب: جفّ. لا حصر لمفاخر القوم رغم كثرتها، ولقد جعلت شعري ميداناً للإشادة بها، ولم أعطها حقها من فيض شعري، ولا يزال شعري مفسحاً المجال لذكرها رغم قصائدي المتعدّدة في مدحهم، فهو رواء لتبقى فضائلهم حيَّة يمدها برفد الحياة المتمثل بالماء.

(٢) فتّ: سبقت. عاد الشاعر لممدوحه ذاكراً مكارمه المتعدّدة التي بواسطتها سبق العالمين بها، وبلا شكّ فإنهم لا يستطيعون إدراك كلّ تلك المكرمات لعجزهم وعدم توفّر أكثرها لديهم.

(٣) يذكر الشاعر تهافت الساعين إلى صلة ممدوحه الذي تولّى إمرة إنطاكية، فهم يأتون إليه يحملهم الأمل بكرمه إليهم، فيعودون راضين مسرورين بما رجعوا به من خيرات.

(٤) ألوي: أعرّج، أميل. تنامت إلى مسامع الشاعر أخبار عن كرم ممدوحه فسارع إلى من أمل فيه الخير، لا يفكر بالنزول بباب سواه، وقد ساعد على ذلك ناقته وحاجته إلى رفده وبضاعة الشعر لبيعها في سوق التزلّف.

(٥) البلوى: المصيبة. شرقت: غصصت. الانتحاب: رفع الصوت بالبكاء. يرجع الشاعر ما حلّ به من فقر إلى الزمن الذي غصّه بالمصائب، ولو حدث أن ذاق تلك الغصّة لبكى ألماً وحُزناً طوال حياته، فكيف به وهو الضعيف يحمل بين برديه طبيعته =

وَإِنْ عَـمِـرْتُ جَـعَـلْـتُ ٱلْـحَـرْبَ وَالِـدَةً
وَالـسَّـمْـهَـرِيَّ أَخـاً وَالـمَـشْـرَفِـيَّ أَبَـا(١)
بِـكُـلِّ أَشْـعَـثَ يَـلْـقَـى الـمَـوْتَ مُـبْـتَـسِـماً
حَـتَّـى كَـأَنَّ لَـهُ فِـي قَـتْـلِـهِ أَرَبَـا(٢)
قُـحٍّ يَـكَـادُ صَـهِـيـلُ ٱلْـخَـيْـلِ يَـقْـذِفُـهُ
عَـنْ سَـرْجِـهِ مَـرَحـاً بِـٱلْـغَـزْوِ أَوْ طَـرَبَـا(٣)
فَـالـمَـوْتُ أَعْـذَرُ لِـي وَالـصَّـبْـرُ أَجْـمَـلُ بِـي
وَالْـبَـرُّ أَوسَـعُ وَالـدُّنْـيَـا لِـمَـنْ غَـلَـبَـا(٤)

= البشرية؟ هل يوجد إنسان يتزلّف بهذا القدر؟ وهو في البيت اللاحق يتنمّر، فهو يجمع في نفسه نقيضين لا يلتقيان.

(١) عمرت: عشت. السمهري: الرمح. المشرفي: السيف. أماني الشاعر يحفزها فكر قرمطيّ متطرّف، إنه من المنطقي ألّا يقبل ممدوح من الشاعر أن يتفوّه أمامه بهذه اللهجة المتعجرفة، وهو من أبان عجزه وفقره في البيت السابق. إنه يعلن حرباً ضروساً لا هوادة فيها، فسوف يجعل الحرب والدة ترعاه وتحتضنه، والرمح أخاً يلازمه والسيف أباً يحميه.

(٢) الأشعَث: المغبرّ من كثرة الترحال ومشاركته في الحروب. الأرب: الحاجة. سوف يصحب الشاعر المجرّب في الحروب المقاتل الشرس الذي يسخر بالموت فيلقاه مبتسماً، وهو يبغي القضاء عليه، وتلك غايته.

(٣) القحّ: العربي الخالص، إنه العربيّ الخالص. المرح: النشاط. يصف الشاعر الأشعث إنه عربي خالص العروبة نشيط يمتطي فرساً يغني أغنية النصر ويفرح في ساحة الوغى لعادته النصر.

(٤) ينهي الشاعر قصيدته بقانون سنّه لنفسه، الموت خير له من حياة ذليلة، والصبر أفضل له من نفاده؛ فنفاد الصبر دلالة ضعف، والبَرّ بساحة واسعة للسعي في جنبات الأرض، فيه تظهر معادن الرجال على حقيقتهم، والدنيا تفتح ذراعيها لمن ناضل وغالب عوامل الضعف فيه، فلا بدّ أن يكون النصر حليفه آخر الأمر.

أسد فرائسها الأسود

يمدح علي بن منصور الحاجب:

[الكامل]

بِـأَبِـي الـشُّـمُـوسُ ٱلْـجَـانِـحَـاتُ غَـوَارِبَـا
ٱلـلَّابِـسَـاتُ مِـنَ ٱلْـحَـرِيـرِ جَـلَابِـبَـا (١)
أَلْـمُـنْـهِـبَـاتُ قُـلُـوبَـنَـا وَعُـقُـولَـنَـا
وَجَـنَـاتِـهِـنَّ الـنَّـاهِـبَـاتِ الـنَّـاهِـبَـا (٢)
أَلـنَّـاعِـمَـاتُ الْـقَـاتِـلَاتُ الْـمُـحْـيِـيَـا
تُ الْـمُـبْـدِيَـاتُ مِـنَ الـدَّلَالِ غَـرَائِـبَـا (٣)
حَـاوَلْـنَ تَـفْـدِيَـتِـي وَخِـفْـنَ مُـرَاقِـبـاً
فَـوَضَـعْـنَ أَيْـدِيَـهُـنَّ فَـوْقَ تَـرَائِـبَـا (٤)
وَبَـسَـمْـنَ عَـنْ بَـرَدٍ خَـشِـيـتُ أُذِيـبُـهُ
مِـنْ حَـرِّ أَنْـفَـاسِـي فَـكُـنْـتُ الـذَّائِـبَـا (٥)

---

(١)و (٢) الجانحات: المائلات. الجلابيب: الواحد جلباب: الرداء يلتحف به. يُفدّي الشاعر النسوة اللواتي يرحلْن بعيداً، وقد تسربلن بالجلابيب، لقد سلبن قلوب الرجال واستحوذن على عقولهم فساحت عقولهم بوجوههن النضرة المشرقة الجميلة التي انتهبت الأبطال الذين يُبلون البلاء الحسن في الحروب ويحصلون على أسلاب قتلاهم.

(٣) الناعمات: الرقيقات. القاتلات: اللواتي يصددْن ويهجرْن. المحييات: الودودات بوصلهن. الدلال: الغنج. الغرائب: مختلف فنون الإغراء. يعدّد الشاعر المواصفات التي تتصف بها نوادر النساء المحبّبة للرجال. الرقة واللطف، مع شيء من التمنّع والصدّ لمعرفة رصيدهن من الحبّ، مبديات الغنج والدلال وشتى أنواع فنون الإغراء.

(٤) الترائب، الواحدة تريبة: عظام الصدر. لقد حاولت النسوة لفت نظر الشاعر إليهن دون لفت أنظار من في المكان، ولشدّة إحساسهن بما يقمن به من حرج وخوف وضعن أيديهن على صدورهن.

(٥) البرد: الثلج، ويقصد بذلك ثغورهن. كانت بسمات ساحرة، كشفت عن ثغورهن ذوات الأسنان اللؤلؤية البديعة، ممّا حمل الشاعر على الخوف على تلك الأفواه من أن تذيبها أنفاسه الحرّى فإذا به يذوب.

يَا حَبَّذَا المُتَحَمّلُونَ وَحَبَّذَا
وَادٍ لَثَمْتُ بِهِ الْغَزَالَةَ كَاعِبَا(١)

كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ ٱلْخُطُوبِ تَخَلُّصاً
مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبْنَ فِيَّ مَخَالِبَا(٢)

أَوْحَدْنَنِي وَوَجَدْنَ حُزْنَاً وَاحِداً
مُتَنَاهِياً فَجَعَلْنَهُ لِي صَاحِبَا(٣)

وَنَصَبْنَنِي غَرَض الرُّمَاةِ تُصِيبُنِي
مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُّيُوفِ مَضَارِبَا(٤)

أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا
مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا(٥)

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ
مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا(٦)

---

(١) لثمت: قبّلت. المتحمّلون: الراحلون. الكاعب: الفتاة التي بدأ ثديها يتكعّب. يحلو للشاعر الركب وهم يرتحلون، ولقد قبّل فتاة في مقتبل العمر كأنها الغزال في رقّته وأناقته وجمال عينيه وصوته الساحر.

(٢) الخطوب، الواحد خطب: المصائب. يسأل الشاعر وقد تملكه خوف من أن يقع أسير الإغراء؛ فالخطب جلل، ذلك أنهنّ غرسن مخالب الوقيعة في مشاعره، وهو يودّ الفرار من هذا الشرك الجميل الخدّاع.

(٣) و (٤) إنها وحشة الفراق، فالشاعر يُعاني من هجر، لقد رحل الأحبَّة، وتركنه يُعاني حزناً أليماً وفراغاً ممضّاً. ولقد جعلت المصائب منه هدفاً يُرمى، فيصيب الرامي بسهولة حيث يريد من جسده المضنى من هجر من أحبّ.

(٥) أظمأتني، حذفت منها الهمزة تخفيفاً: جعلتني عطشان، للشاعر عطش جفف مسارب الأمل في أفق حياته، فراح يسعى في سبيل إرواء نفسه، فإذا بالمصائب تتوالى عليه من كلّ جانب.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. حبيت: أعطيت الخوص، الواحدة خوصاء: هي الناقة الغائرة العينين من شدّة الإعياء والجهد، الدارش: الجلد الأسود. يصوّر الشاعر سوء حاله، فقد لم يوفق للحصول على ناقة قد أعياها المسير، فإذا به ينتعل خفاً أسود، إنه راكب ماشٍ.

حَـالٌ مَـتَـى عَـلِـمَ ابْـنُ مَـنْـصُـورٍ بِـهَـا
جَـاءَ الـزَّمَـانُ إِلَـيَّ مِـنْـهَـا تَـائِـبَـا[١]
مَـلِـكٌ سِـنَـانُ قَـنَـاتِـهِ وَبَـنَـانُـهُ
يَـتَـبَـارَيَـانِ دَمـاً وَعُـرْفـاً سَـاكِـبَـا[٢]
يَـسْـتَـصْـغِـرُ ٱلْـخَـطَـرَ ٱلْـكَـبِـيـرَ لِـوَفْـدِهِ
وَيَـظُـنُّ دِجْـلَـةَ لَـيْـسَ تَـكْـفِـي شَـارِبَـا[٣]
كَـرَمـاً فَـلَـوْ حَـدَّثْـتَـهُ عَـنْ نَـفْـسِـهِ
بِـعَـظِـيـمِ مَـا صَـنَـعَـتْ لَـظَـنَّـكَ كَـاذِبَـا[٤]
سَـلْ عَـنْ شَـجَـاعَـتِـهِ وَزُرْهُ مُـسَـالِـمـاً
وَحَـذَارِ ثُـمَّ حَـذَارِ مِـنْـهُ مُـحَـارِبَـا[٥]
فَـالْـمَـوْتُ تُـعْـرَفُ بِـالـصِّـفَـاتِ طِـبَـاعُـهُ
لَـمْ تَـلْـقَ خَـلْـقـاً ذَاقَ مَـوْتـاً آيِـبَـا[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. يخلص الشاعر إلى ممدوحه، بعد ما جال متغزلاً في مطلع قصيدته، مبيّناً سوء حاله، آملاً بأن يكون ابن منصور باب خلاصه ممَّا فيه من سوء الحال وضيق المعاش، وفي حال إحسان ابن منصور فيكون الزمان قد تاب عن مضايقاته له.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. السنان: نصل الرمح. البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع. يتباريان: يتسابقان بأفعال متعارضة، يشرع الشاعر بمدح ممدوحه؛ إنه ملك، شجاع محارب، ذو مزيّتين متعارضتين، أولاهما: فتكه بأعدائه يقتل فيهم كيف يشاء، وثانيهما: كرم معتاد يسكب خيراته بغزارة.

(٣) و (٤) الخطر: الأمر الجلل. ولعظم كرمه وشدّة بأسه، فإن الممدوح لا يرى المعضلات العظيمة ذات أهمية، بل إنه يعتبرها تافهة لا تساوي شيئاً نظراً لما يتمتّع به، ولذا فإن دجلة وما يحمل من أرزاق لا يكفي شارباً ممن ينعم برفده وكرمه. ولو حدّثه أحد هؤلاء عمَّا فعله معه من جميل الأفعال لظنّه كاذباً لكثرة تلك الأفعال ولعدم قدرة الكثيرين على فعل تلك الأفعال.

(٥) و (٦) يخاطب الشاعر من سوّلت له نفسه معاداة ممدوحه، محذراً إيَّاه بأن يعرف ما وصلت إليه شجاعته؛ فعليه أن يزوره مسالماً له، وعليه ألّا يُعاين بطولته في ساحة الوغى، فسيرى الموت متمثلاً بتمثيله بالأبطال الذين صرعوا على يديه، ولو عاد أحدهم إلى الحياة وأخبر عمَّا فعله به لشابت من ذلك رؤوس الأطفال.

إنْ تَـلْـقَـهُ لَا تَـلْـقَ إلَّا قَـسْـطَـلاً
أَوْ جَـحْـفَـلاً أَوْ طَـاعِـنـاً أَوْ ضَـارِبَـا(١)

أَوْ هَـارِبـاً أَوْ طَـالِـبـاً أَوْ رَاغِـبـاً
أَوْ رَاهِـبـاً أَوْ هَـالِـكـاً أَوْ نَـادِبَـا(٢)

وَإِذَا نَـظَـرْتَ إِلَـى الْـجِـبَـالِ رَأَيْـتَـهَـا
فَـوْقَ الـسُّـهُـولِ عَـوَاسِـلاً وَقَـوَاضِـبَـا(٣)

وَإِذَا نَـظَـرْتَ إِلَـى الـسُّـهُـولِ رَأَيْـتَـهَـا
تَـحْـتَ ٱلْـجِـبَـالِ فَـوَارِسـاً وَجَـنَـائِـبَـا(٤)

وَعَـجَـاجَـةً تَـرَكَ ٱلْـحَـدِيـدُ سَـوَادَهَـا
زِنْـجـاً تَـبَـسَّـمَ أَوْ قَـذَالاً شَـائِـبَـا(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. القسطل: الغبار. الجحفل: الجيش اللجب. إنها حال من لا يستكين، فتارة يتقدّم الممدوح جيشاً لجباً يُروي الأبطال برمحه، ويقطع رؤوس أعدائه بسيفه، في وسط المعركة حيث يتصاعد الغبار عند اشتداد الوطيس.

(٢) أما حال الآخرين من البشر فالأمر يختلف؛ منهم الفارّ من غضبه، أو سيفه، ومنهم الراغب برفده، الطامع بكرمه، ومنهم الراغب بمصالحته، أو التقرّب إليه مذعناً لإرادته، آملاً بمصالحته، أو الخائف من سطوته، أو منهم من هلك لمعاداته إيّاه بسيفه، ومنهم من يندب موتاه الذين سقطوا صرعى في حربه.

(٣) العواسل، الواحد عاسل: الرماح. القواضب، الواحد قاضب: السيوف البتّارة. ومن عادة الممدوح أنه يجوب الأرجاء، فتارة يصعد بجيشه الجبال فتبرق آلات أسلحة الجيش مشعة وقد انعكست عليها أشعة الشمس، فتبدو الرماح والسيوف.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. الجنائب، الواحدة جنبية: الخيول التي تقاد إلى جنب الفارس. وتارة يسدّ جيش الممدوح السهول، إنهم فرسان يمتطون جيادهم، فضلاً عن جياد أخرى رديفة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٧. العجاجة: الغبار. القذال: مؤخر الرأس من الإنسان أو الجواد، وإتماماً فصورة الجيش في ساحة الوغى تتشكّل الألوان بصور تخدع النظر؛ الغبار يتصاعد في السماء ويختلط بالعتاد الحربي الأسود الحديدي، فيبدو المشهد من بعيد كأن زنجياً تطاول برأسه والبسمة تعلو ثغره، أو يبدو قفاه وقد غزا الشيب رأسه.

فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النَّهَارُ بِهَا دُجَى
لَيْلٍ وَأَطْلَعَتِ الرِّمَاحُ كَوَاكِبَا[١]
قَدْ عَسْكَرَتْ مَعَهَا الرَّزَايَا عَسْكَراً
وَتَكَتَّبَتْ فِيهَا الرِّجَالُ كَتَائِبَا[٢]
أُسُدٌ فَرَائِسُهَا ٱلْأُسُودُ يَقُودُهَا
أَسَدٌ تَصِيرُ لَهُ ٱلْأُسُودُ ثَعَالِبَا[٣]
فِي رُتْبَةٍ حَجَبَ ٱلْوَرَى عَنْ نَيْلِهَا
وَعَلَا فَسَمَّوهُ عَلِيَّ ٱلحَاجِبَا[٤]
وَدَعَوْهُ مِنْ فَرْطِ السَّخَاءِ مُبَذِّراً
وَدَعَوْهُ مِنْ غَصْبِ النُّفُوسِ الْغَاصِبَا[٥]
هٰذَا الَّذِي أَفْنَى النُّضَارَ مَوَاهِباً
وَعِدَاهُ قَتْلاً وَالزَّمَانَ تَجَارِبَا[٦]

---

(١) وإتماماً للصورة: إنه نهار ولكن عتمة الليل داهمته وفي الحالة هذه تتلألأ الرماح مضيئة تلمع في أفق المشهد وكأنها كواكب في جنبات السماء.

(٢) عسكرت: اجتمعت، الرزايا، الواحدة رزيّة: المصائب والويلات. الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجند. وإتماماً للصورة، شغلت ساحة المعركة الجند، وقد انتظموا كتائب تحمل على الأعداء فتنزل بهم شتّى أنواع الموت والمصائب.

(٣) إنهم أسد شجاعة وفتكاً، إنهم يفتكون بأسود تحوّلوا إلى ثعالب جبناء لرعبهم.

(٤) و (٥) حجب: ستر. الورى: الناس. إنها مرتبة عالية بلغها عليّ الحاجب بجيشه وعزيمته. وكانت تسمية الحاجب على مستوى دلالتها، فقد أخمد صوت كلّ عدوه. ولعظم كرمه أسماه الحاسدون مبذراً لعدم قدرتهم على إدراك شأوه في السخاء، وهم لشدّة بطشه بهم اتهموه بأنه يغصب النفوس حياتهم.

(٦) النضار: الذهب. ومن عظم الممدوح أنه يمارس عملية الإفناء؛ فالذهب يفنيه بتوزيعه بين محبيه ورعيته، والأعداء أفناهم قتلاً وسفكاً لدمائهم، والزمان أفاد منه تجربة ومعرفة وكأنه يضطلع على غيبه، وهو بذلك موفق، مما يجعله قادراً على قتل ما في الزمان من مفاجآت سيّئة الطالع.

وَمُخَيِّبُ الْعُذَّالِ مِمَّا أَمَّلُوا
مِنْهُ وَلَيْسَ يَرُدُّ كَفّاً خَائِبَا (١)

هٰذَا الَّذِي أَبْصَرْتُ مِنْهُ حَاضِراً
مِثْلَ الَّذِي أَبْصَرْتُ مِنْهُ غَائِبَا (٢)

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ
يُهْدِي إِلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا (٣)

كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِراً
جُوداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا (٤)

كَالشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا
يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا (٥)

أَمُهَجِّنَ الْكُرَمَاءِ وَالْمُزْرِي بِهِمْ
وَتَرُوكَ كُلِّ كَرِيمِ قَوْمٍ عَاتِبَا (٦)

شَادُوا مَنَاقِبَهُمْ وَشِدْتَ مَنَاقِباً
وُجِدَتْ مَنَاقِبُهُمْ بِهِنَّ مَثَالِبَا (٧)

---

(١) و (٢) العذال، الواحد عذول: اللائمين. إن الممدوح لا يهتم لأقوال اللائمين بما يفعل، فيعودون وقد كسفتهم الخيبة بسوادها، وآمالهم ذهبت أدراج الرياح. والممدوح في الحقيقة لا يرد طالب الخير بالخيبة، بل إنه لكرمه ينفله العطاء الجزيل، وليس غريباً أن يرى الشاعر صدق القول والفعل من ممدوحه.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٨. الثاقب: المضيء. إن الممدوح بدر يُضيء سماء المعوزين في ظلمة الحياة بكرمه ولا يستثني منهم أحداً، كما يرى المرء ضوء القمر المشعّ حيثما كان في الكون.

(٤) ورد البيت في: الوساطة من المتنبي وخصومه: ١٢٨. وإن الممدوح بحر شاسع واسع تشمل أمواج الكرم لديه للقريبين منه لؤلؤاً وجواهر، وحتى من بعد فإن سُحُب الخير تسوقها رياحه نديّة عطرة بكرمه.

(٥) وإن الممدوح بمثابة شمس تشمل الكون كلّه بفيض ضوئها وشعاعها فالمشارق والمغارب لا تمايز بينهما.

(٦) و (٧) أمهجن: أي يا عائب. المزري: المحقر. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً =

لَـبَّـيْـكَ غَـيْـظَ ٱلْـحَـاسِـدِيـنَ الـرَّاتِـبـا
إِنَّـا لَـنَـخْـبُـرُ مِـنْ يَـدَيْـكَ عَـجَـائِـبَـا (١)
تَـدْبِـيـرَ ذِي حُـنَـكٍ يُـفَـكِّـرُ فِـي غَـدٍ
وَهُـجُـومَ غِـرٍّ لَا يَـخَـافُ عَـوَاقِـبَـا (٢)
وَعَـطَـاءَ مَـالٍ لَـوْ عَـدَاهُ طَـالِـبٌ
أَنْـفَـقْـتَـهُ فِـي أَنْ تُـلَاقِـيَ طَـالِـبَـا (٣)
خُـذْ مِـنْ ثَـنَـايَ عَـلَـيْـكَ مَـا أَسْـطِـيـعُـهُ
لَا تُـلْـزِمَـنِّـي فِـي الـثَّـنَـاءِ الْـوَاجِـبَـا (٤)
فَـلَـقَـدْ دَهِـشْـتُ لِـمَـا فَـعَـلْـتَ وَدُونَـهُ
مَـا يُـدْهِـشُ الـمَـلَـكَ ٱلْـحَـفِـيـظَ الْـكَـاتِـبَـا (٥)

= بعظمة كرمه، فقد تخطّى الكرماء جميعاً بمباراة الكرم وأزرى بهم، ولم يترك أحداً منهم راضياً، ممّا حملهم على عدم الرضى بما يفعل والغيرة والحنق تملأ قلوبهم. لقد عملوا على بناء صرح كرمهم، فإذا به لم يكتمل؛ بل إنه تكتنفه مثالب النقص. بينما كانت إشادتك صرح الكرم متقنة البنيان عالية الأركان.

(١) غيظ الحاسدين: حنقهم وغضبهم. الراتب: المقيم. نخبر: نعلم يقيناً. يمتثل الشاعر لطلب ممدوحه المقيم على عادة راسخة في حياته، والتي حملت الحاسدين ليختزنوا في قلوبهم حقداً دفيناً وكرهاً لمن قدّم على حسن نحيزته وأصالة أرومته المرة تلو المرة؛ وفي كلّ مرّة يظهر للرائي عجائب جديدة تنمّ عن موهبة الكرم فيه.

(٢) يروى «تدبير وهجوم» بدلاً من «تدبير ذي حنك». الحنك، الواحدة حنكة: نضج التجربة. الغرّ: من لا تجربة لديه. ومن مزايا الممدوح أنه مطلع على الأمور وقد عجنته التجربة، ويحسن الحكم على المستقبل وهو في الوقت نفسه مغامر لا يحسب للعواقب حساباً؛ وهذا سرّ نجاحه في الحياة.

(٣) عداه: تخطّاه وتجاوزه. ولعظم كرم الممدوح، فإن لم يأته طالب إحسان، فإنه ينفق ماله في البحث عمّن يحتاج إليه.

(٤) يقدّم الشاعر عن تقصيره في مدح ممدوحه عذره؛ فالممدوح يستحقّ الكثير من الإشادة بما لديه من صفات حميدة، والواجب الزيادة. والحقيقة أنه زاد وأكثر.

(٥) دهش: تحيّر. الملك الحفيظ: هو كاتب أعمال البشر من الملائكة. عبّر الشاعر عن شدّة حيرته بما شاهد ولقي من ممدوحه من كرم وحسن ضيافة، حتى إن الملك المطّلع على أعمال البشر يُدهش بدوره لعلمه بأن ما فعله هذا الممدوح لم يفعله سواه.

بدر رزايا وعطايا

وقال فيه ارتجالاً وهو على الشراب وقد صفت الفاكهة والنرجس:

[الرمل]

إِنَّمَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ سَحَابُ
هَطِلٌ فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابُ(١)

إِنَّمَا بَدْرٌ رَزَايَا وَعَطَايَا
وَمَنَايَا وَطِعَانٌ وَضِرَابُ(٢)

مَا يُجِيلُ الطَّرْفَ إِلَّا حَمِدَتْهُ
جُهْدَهَا الأَيْدِي وَذَمَّتْهُ الرِّقَابُ(٣)

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلٰكِنْ
يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِّئَابُ(٤)

فَلَهُ هَيْبَةُ مَنْ لَا يُتَرَجَّى
وَلَهُ جُودُ مُرَجًّى لَا يُهَابُ(٥)

---

(١) يشرع الشاعر بمدح بدر بن عمار؛ إنه سحاب ماطر يحمل الخير للبعض فيعمّهم النفع والغنى وراحة البال، وهو في المقابل عذاب ودمار وقتل لمن غضب عليه، شأنه في ذلك شأن المطر، الذي يعم قوماً بالنفع وآخرين بالخراب والهلاك بصواعقه ورعوده.

(٢) الرزايا، الواحدة رزيّة: المصائب. المنايا، الواحدة منيّة: الموت. يتوسّع الشاعر بفكرة الهطول، وكأنها دوائر اتّسعت في بركة برميّة حجر، بشكل متعاكس، فهو مصائب وكوارث تنزل بساحة أعدائه وموت ناتج عن طعن الرماح وضرب يقطع الهام يُؤذن بانتصاره، وتارة هو كرم يعمّ نفعه البشر برفده وعطاياه.

(٣) الطرْف، بسكون الراء: النظر. الجهد: الطاقة. يصف الشاعر ممدوحه بأنه دائم البحث عن الخير، لذا ترتفع الأيدي له بالدعاء شاكرة متمنّية له دوام العمر والتوفيق في هذه الحياة، وثمّة من يذمّ فعله بهم لتسلّطه عليهم بالغلبة والقهر لعدائهم له.

(٤) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ٩. إن قتله أعداءه ليست غايته من ذلك خوفه منهم أن يغدروا به؛ فقد زرع الرعب في نفوسهم فجبنوا واستكانوا، ولكن من عادته القتل فيهم لأنه قد عوّد الذئاب على تمزيق أجسادهم إرباً إرباً وأكلهم.

(٥) من مزايا الممدوح المهابة والوقار، لا ينبس ببنت شفة امرؤ إلّا في حال صفاء ذهنه، وفي حالة غضبه لا يُرجى منه عفو على من عاداه بينما هو في حال هدوء باله لا يُحسّ من رجا إحسانه بمهابة يعامله معاملة الصديق، ويفيض له عطاءً ونوالاً.

طَاعِنُ الْفُرْسَانِ فِي الْأَحْدَاقِ شَزْراً
وَعَجَاجُ الْحَرْبِ لِلشَّمْسِ نِقَابُ[١]
بَاعِثُ النَّفْسِ عَلَى الْهَوْلِ الَّذِي لَيْسَ
لِنَفْسٍ وَقَعَتْ فِيهِ إِيَابُ[٢]
بِأَبِي رِيحُكَ لَا نَرْجِسُنَا ذا
وَأَحَادِيثُكَ لَا هٰذَا الشَّرَابُ[٣]
لَيْسَ بِالْمُنْكَرِ إِنْ بَرَّزْتَ سَبْقاً
غَيْرُ مَدْفُوعٍ عَنِ السَّبْقِ الْعِرَابُ[٤]

السلام عليك مني

جلس بدر بن عمار يلعب بالشطرنج وقد كثر المطر فقال أبو الطيب:

[الوافر]

أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُرَجَّى
عَجَائِبَ مَا رَأَيْتُ مِنَ السَّحَابِ[٥]
تَشَكَّى ٱلْأَرْضُ غَيْبَتَهُ إِلَيْهِ
وَتَرْشُفُ مَاءَهُ رَشْفَ الرُّضَابِ؟[٦]

(١) الشزر: نظر الغضبان بمؤخر عينه. العجاج: الغبار. النقاب: الحجاب الذي تغطي المرأة وجهها به. يمدح الشاعر ممدوحه بإجادته فنون القتال، فهو يسدّد رمحه في ساحة الوغى إلى عيني عدوه وقد تعالت سحب الغبار فسدّت الساحة، والشمس في كبد السماء، والغضب كأنه نار تقدح من عينيه.

(٢) ومن شجاعة الممدوح تحدّي المخاطر؛ إنه يرمي نفسه حيث لا يرجع امرؤ سالماً، ويعود منتصراً مظفّراً، ممّا يُوحي بعظم بطولته.

(٣) يُفدّي الشاعر ممدوحه بأبيه فرائحته تفوق النرجس عبقاً وعبيراً، وهو محدّث بارع ملك زمام الكلمة وبلاغة العبارة، لذا فكلامه أشدّ إسكاراً من الشراب.

(٤) تبرز: تفوّق. العِراب: الخيل العربية. الكلّ ممن عرفوا الممدوح يُقرون بتفوّقه وسبقه؛ إنه أهل لذاك، شأنه في ذلك شأن الخيول العربية، فإن ميدانها ميادين السباق.

(٥) و(٦) يخاطب الشاعر الملك سائلاً عمّا يراه، فثمة سحاب في الأفق يبشّر بهطول المطر؛ وذلك نعمة إلٰهية عظيمة. والأرض عطشى تنتظر طوال غيابه، وهي على =

وَأُوهِمُ أَنَّ فِي الشِّطْرَنْجِ هَمِّي
وَفِيكَ تَأَمُّلِي وَلَكَ ٱنْتِصَابِي [١]
سَأَمْضِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي
مَغِيبِي لَيْلَتِي وَغَداً إِيَابِي [٢]

رفعت رجلها من التعب

وقال في لعبة كانت تدور فوقفت حذاء بدر:

[المنسرح]

يَا ذَا الْمَعَالِي وَمَعْدِنَ ٱلْأَدَبِ
سَيِّدَنَا وَٱبْنَ سَيِّدِ الْعَرَبِ [٣]
أَنْتَ عَلِيمٌ بِكُلِّ مُعْجِزَةٍ
وَلَوْ سَأَلْنَا سِوَاكَ لَمْ يُجِبِ [٤]
أَهٰذِهِ قَابَلَتْكَ رَاقِصَةً
أَمْ رَفَعَتْ رِجْلَهَا مِنَ التَّعَبِ؟ [٥]

= استعداد لامتصاص كلّ قطرة، فهو بمثابة الرضاب الذي يرتشف الولهان ريق حبيبته.

(١) يقف الشاعر متأملاً محاسن ممدوحه الذي يلعب بالشطرنج ولا يهتمّ باللعب، وإنما وقوفه منتصباً لذلك فقط.

(٢) طال الانتظار، فإذا بالشاعر يعتذر بانسحابه من مجلس الملك ويعده بأنه سيأتي غداً.

(٣) يخاطب الشاعر ممدوحه بصفتين محببتين إلى كلّ ممدوح وهما بلوغه أعلى درجات المجد وكمال الأدب خلقاً وعلماً، وبأنه سيده وقد ورث السيادة والده سيد العرب عراقة ومجداً.

(٤) ويذكر بأنه محيط علمه بكل صغيرة وكبيرة حتى المعجزات التي ليس بمقدور البشر القيام بها، وتبيان ذلك أنه لا يوجد من يقوم بمقامك.

(٥) يسأل الشاعر ممدوحه مستعلماً عن السبب الذي دفع تلك المرأة إلى القيام بحركة لافتة، فهو يودّ معرفة إن كانت ترقص وترفع رجلها أم أنها قد تعبت وهي تمثل بين يديه.

فتى ترمي الحروب به الحروب

يمدح علي بن محمد بن سيار بن مُكرَم التميمي، وكان يحب الرمي بالنشّاب ويتعاطاه، وكان له وكيل يتعرض للشعر فأنفذه إلى أبي الطيب يناشده، فتلقاه وأجلسه في مجلسه ثم كتب إلى عليّ يقول:

[الوافر]

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبَا
فَأَعْذَرُهُمْ أَشَفُّهُمُ حَبِيبَا[(١)]

وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ ٱلْأَعَادِي
فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا؟[(٢)]

تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهَا فِي حَدِيثٍ
تَرُدُّ بِهِ الصَّرَاصِرَ وَالنَّعِيبَا[(٣)]

وَقَدْ لَبِسَتْ دِمَاءَهُمُ عَلَيْهِمْ
حِدَاداً لَمْ تَشُقَّ لَهَا جُيُوبَا[(٤)]

أَدَمْنَا طَعْنَهُمْ وَالْقَتْلَ حَتَّى
خَلَطْنَا فِي عِظَامِهِمِ الْكُعُوبَا[(٥)]

---

(١) الضروب: الأنواع. أشفهم: أرقهم. يبدأ الشاعر قصيدته بالنسيب على طريقة الشعراء التقليديين في مدحهم؛ فالناس تختلف مشاربهم وميولهم في حبّهم لمحبوباتهم، ومن حقّ بعضهم أن يستغفر له حبّه إن كانت حبيبته تفضل سواها جمالاً وخلقاً.

(٢) السكن: هو ما ترتاح إليه النفوس، يذكر الشاعر أن ما ترتاح إليه نفسه قتل الأعادي، وهو يتمنّى زورة حبيبه هذا، لديه عشق دموي ذو مسحة قرمطيّة.

(٣)و (٤)الصرصر: صوت النسور والبزاة. النعيب: صوت الغراب. يودّ الشاعر أن يترك في ميدان المعركة جثث القتلى، وقد اجتمعت عليها أصناف الكواسر من الطير لتروي قصة بطولته بأصواتها فرحة مزغردة، وفي مكان ما من ساحة المعركة غربان تنعي بنعيبها الصرعى الممدّدين وقد عفرتهم الأرض بترابها ودماؤهم تغطي أجسادهم، وقد تخلّت عنهم زوجاتهم مؤثرات النجاة بأنفسهنّ وقد نسين شق جيوبهنّ أسفاً ولوعة.

(٥) الكعوب: الواحد كعب: وهو ما بين الأنبوبتين. إنها صورة رهيبة لمن دفع حياته في سبيل قضية من قضايا الحياة الهامة أو إذعاناً لمن بيده مصير البشر البؤساء يدفعونهم =

كَـأَنَّ خُـيُـولَـنَـا كَـانَـتْ قَـدِيـمـاً
تُـسَـقَّـى فِـي قُـحُـوفِـهِـمِ الْـحَـلِـيـبَـا[(١)]
فَـمَـرَّتْ غَـيْـرَ نَـافِـرَةٍ عَـلَـيْـهِـمْ
تَـدُوسُ بِـنَـا الْـجَـمَـاجِـمَ وَالـتَّـرِيـبَـا[(٢)]
يُـقَـدِّمُـهَـا وَقَـدْ خُـضِـبَـتْ شَـوَاهَـا
فَـتًـى تَـرْمِـي الْـحُـرُوبُ بِـهِ الْـحُـرُوبـا[(٣)]
شَـدِيـدُ الْـخُـنْـزُوَانَـةِ لَا يُـبَـالِـي
أَصَـابَ إِذَا تَـنَـمَّـرَ أَمْ أُصِـيـبَـا[(٤)]
أَعَـزْمِـي طَـالَ هٰـذَا الـلَّـيْـلُ فَـانْـظُـرْ
أَمِـنْـكَ الـصُّـبْـحُ يَـفْـرَقُ أَنْ يَـؤُوبـا؟[(٥)]

= للموت في سبيل غرض زائل. وبفرح يعلن الشاعر عن فعلة شنعاء فلا يكتفي بطعنة واحدة لجسد حطمه سوء مصيره بل يلذّ له أن يُديم الطعن لجسد لا يستطيع دفعاً عن نفسه، وقد فقد الحامي والنصير فإذا بكعوب الرماح وقد اخترقت أجساماً تخلّت عنها الحركة فباتت جامدة.

(١) و (٢) القحوف، الواحد قِحف: العظم الذي فوق الدماغ. الجمجمة: العظم الذي يحتوي الدماغ. التريب: عظم الصدر، موضع القلادة من صدر الغادة. تعاطت خيول الشاعر في طفولتها المبكرة شرب الحليب في قحف وجماجم الأعداء، وها هي اليوم تمرّ سلسة القياد لفرسانها، وهي تتعمّد وطأ جماجم الأعداء وصدورهم زيادة في الكيد وتحقيراً لأصحابها.

(٣) الشوى: اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس. ويروى «خَضبت» للمعلوم بدلاً من «خُضبت». يقدم سيّد القوم وأشجعهم في الحرب ليكون حامياً لمن خلفه ومشجّعاً لهم، يلتقي الطعن ويخوض في دماء الأعداء، إنه الفتى الذي اكتملت عناصر الفتوّة لديه من شجاعة وقوّة وكرم، والشاعر يقصد نفسه بذلك، فهو مسعار حرب تمتدّ به الحرب إلى حروب متتالية.

(٤) الخنزوانة: التكبر. تنمّر: استحال كالنمر غضباً. ولتهوّره وادّعائه فإن الشاعر لا يهتمّ لما يؤول إليه أمره في الحرب وهو مغضب أقتل أعداءه أم قتلوه.

(٥) يفرق: يخاف. يؤوب: يعود. يخاطب الشاعر عزمه مستغرباً ما الذي جعل الليل يتأخر عن موعده، والصبح مستسلم في نومه، هل خاف من عزم الشاعر لذلك طالت غفوته؟

كَــأَنَّ الْــفَــجْــرَ حِــبٌّ مُــسْــتَــزَارٌ
يُــرَاعِــي مِــنْ دُجُــنَّــتِــهِ رَقِــيــبَــا[١]
كَــأَنَّ نُــجُــومَــهُ حَــلْــيٌ عَــلَــيْــهِ
وَقَــدْ حُــذِيَــتْ قَــوَائِــمُــهُ ٱلْــجَــبُــوبَــا[٢]
كَــأَنَّ ٱلْــجَــوَّ قَــاسَــى مَــا أُقَــاسِــي
فَــصَــارَ سَــوَادُهُ فِــيــهِ شُــحُــوبَــا[٣]
كَــأَنَّ دُجَــاهُ يَــجْــذِبُــهَــا سُــهَــادِي
فَــلَــيْــسَ تَــغِــيــبُ إِلَّا أَنْ يَــغِــيــبَــا[٤]
أُقَــلِّــبُ فِــيــهِ أَجْــفَــانِــي كَــأَنِّــي
أَعُــدُّ بِــهِ عَــلَــى الــدَّهْــرِ الــذُّنُــوبَــا[٥]

---

(١) و (٢) الحِبّ: المحبوب. يراعي: ينتظر. الدُّجنة: الظلمة. يصوّر الشاعر الحالة التي يعانيها الفجر إنه يترقّب زيارة محبّ عاشق، ولكن خوفه من مفاجأة صغيرة سارة تحمله على الاستكانة لدُجنة الليل. ولقد بدت النجوم التي زرعت السماء بالضياء حلى تزيّن بها غيدها، وكذلك اتخذ الليل الأرض بمثابة حذاء ثقلت عليه الحركة فتسمّر في مكانه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. من جمال الشعر الوجداني أن تنعكس إحساسات الشاعر على الطبيعة ويتفاعل معها وهذا ما حصل، فالليل في نزعه الأخير، ورغم ذلك يتأخّر وتوشح بوشاح حزين فبدت الكدرة على محيَّاه، وكأنه مدنف مريض يشعر مع الشاعر في لحظة تعاسته.

(٤) الدجى، الواحدة دُجية: العتمة الشديدة. السهاد: السهر. التمازج الوجداني بين عتمة الليل البهيم وبين أرق، يتلازم ويشتدّ تماسكهما؛ فالظلمة لا تختفي لأن سهاده يشدّها إليه، وهي لا تنقضي إلّا بانقضائه. لذا لا يغيب سهاده إلّا مع إشراقة فجر جديد، وهذا يعني أنه لا يعرف طعم الراحة والنوم.

(٥) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ٢٠، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. يطول الليل ويطول معه السهر، وفي محاولة الهروب من وحشة الليل راح الشاعر ينظر إلى كبد السماء باحثاً عن أسباب فشله وحرمانه ممّا ينعم به آخرون من مجد ورفعة وهو يعاني مرارة مصدرها الشعور بالتفوّق والحسد للآخرين؛ وهذا ما يعده ذنوباً قضاها الدهر عليه.

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ
يَظَلُّ بِلَحْظِ حُسَّادِي مَشُوبَا (١)
وَمَا مَوْتٌ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ
أَرَى لَهُمُ مَعِي فِيهَا نَصِيبَا (٢)
عَرَفْتُ نَوَائِبَ ٱلْحَدَثَانِ حَتَّى
لَوِ ٱنْتَسَبَتْ لَكُنْتُ لَهَا نَقِيبَا (٣)
وَلَمَّا قَلَّتِ ٱلْإِبِلُ ٱمْتَطَيْنَا
إِلَى ٱبْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ ٱلْخُطُوبَا (٤)
مَطَايَا لَا تَذِلُّ لِمَنْ عَلَيْهَا
وَلَا يَبْغِي لَهَا أَحَدٌ رُكُوبَا (٥)
وَتَرْتَعُ دُونَ نَبْتِ ٱلْأَرْضِ فِينَا
فَمَا فَارَقْتُهَا إِلَّا جَدِيبَا (٦)

---

(١) إن إحساس الشاعر بوجود حسّاد يكيدون إليه إحساس انغرس في أعماق قلبه ولازمه طوال دهره، لكن ما الذي يدفع هؤلاء لحسده؟ ولم يكن قد حصل على شيء ذي بال!! إن الليل والنهار يحدثان له ألماً ممضًا، فكلاهما طويل، وأخطر ما في النهار أنه قد امتزج بحسد مميت قاتل لا يرحم.

(٢) والموت والحياة في نظر الشاعر يتساويان؛ فثمة من يشاركه الحياة ويحمل في نفسه حسداً له، وليستريح لا بدّ له من القضاء على حاسديه وقتلهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. الحدثان: المصائب والويلات. انتسبت: ادعت الانتساب. النقيب: العليم بأعمال الناس وأحوالهم. لقد عجنت التجربة الشاعر فعرف خفايا النفوس لما نزل بساحته من مصائبهم ونوائبهم، فأدموْا قلبه حتى أصبح خبيراً بأمورهم.

(٤) ينتقل الشاعر بعد هذه المقدمة الطويلة ليتذكر أنه أمام أحد من أنعم عليه بالسلطان، فإذا به يكشف عن ضعفه بعدما تهوّر في غروره؛ إنه لا يملك وسيلة تنقله إليه سوى المصائب والخطوب التي دفعته إلى باب ذلك الممدوح.

(٥) و (٦) إنها المصائب أسوأ وسيلة فما من مخلوق يودّ ركوبها لما تؤول إليه من جفاف الحياة وبؤسها؛ إنها ترتعي النفوس بقسوتها وعنفها لذا فقد تركتني بلا مؤنة ولا زاد خالياً من كلّ شيء.

إِلَـى ذِي شِـيـمَـةٍ شَـغَـفَـتْ فُـؤَادِي
فَـلَـوْلَاهُ لَـقُـلْـتُ بِـهَـا الـنَّـسِـيـبَـا [(١)]

تُـنَـازِعُـنِـي هَـوَاهَـا كُـلُّ نَـفْـسٍ
وَإِنْ لَـمْ تُـشْـبِـهِ الـرَّشَـأَ الـرَّبِـيـبَـا [(٢)]

عَـجِـيـبٌ فِـي الـزَّمَـانِ وَمَـا عَـجِـيـبٌ
أَتَـى مِـنْ آلِ سَـيَّـارٍ عَـجِـيـبَـا [(٣)]

وَشَـيْـخٌ فِـي الـشَّـبَـابِ وَلَـيْـسَ شَـيْـخاً
يُـسَـمَّـى كُـلُّ مَـنْ بَـلَـغَ الـمَـشِـيـبَـا [(٤)]

قَـسَـا فَـالأُسْـدُ تَـفْـزَعُ مِـنْ قُـوَاهُ
وَرَقَّ فَـنَـحْـنُ نَـفْـزَعُ أَنْ يَـذُوبَـا [(٥)]

---

(١) الشيمة: الخلق. ويروى «شعفت» بدلاً من «شغفت»، وهما بمعنًى واحد أي تيّمتني عشقاً وحبًّا. النسيب: التغزل بالنساء وذكر محاسنهن في الشعر. لقد جذب الشاعر حسن خلق ممدوحه، فملك عليه فؤاده، ولولا ما يتمتّع به من مهابة ورجولة حقّة لتغزّلت بصفاته كعاشق لها.

(٢) الرشأ: الغزال، وقد استغنى عن أمه، وبرز قرناه. الربيب: المربى. لقد ملكت أخلاقه على البشر نفوسهم، واستحوذت على حبّهم، فهم شركاء في ذلك، وهذا ما يسبب إزعاجاً لأنه يودّ أن يستأثر بهذا الحبّ دون سواه، وهي بلا شكّ لا تُشبه الرشأ برقّته وجماله، ذلك أن صاحبها من البشر في إنسانيته وسمو أخلاقه.

(٣) إنها ظاهرة مثيرة للدهشة، وهي من عجائب الزمن في عصر اختلطت فيه المثل بالرزائل، ولكن ليس عجيباً أن ينبغ في آل سيار مثال رفيع الأخلاق، فهم بلغوا الغاية القصوى في الفضائل والأمجاد.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. الشيخوخة حالة فكرية وجسدية، يتمثل فيها التعقّل والحكم على الأشياء بوعي، وكثير من الشباب من يتمتّع بحكمة الشيوخ ودرايتهم شأن ممدوح الشاعر، والغريب أن كثيرين من دارت بهم الأيام حتى أدركوا سن الشيخوخة، ومع ذلك لم يحققوا في هذه الحياة إلّا الغباء وعدم إدراك معنى الحياة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. ويروى «من يديه» بدلاً من «من قواه». الممدوح على طرفي نقيض، إنه في ميادين القتال بطل مغوار ترهبه الأسود، فيقسو عليها، وهو في حالة سكونه بين أحبائه يذوب رقة وتحلو أخلاقه ويلين جانبه لمن يحبّ.

أَشَدُّ مِنَ الرِّيَاحِ الْهُوجِ بَطْشاً
وأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا[١]
وَقَالُوا ذَاكَ أَرْمَى مَنْ رَأَيْنَا
فَقُلْتُ رَأَيْتُمُ الْغَرَضَ الْقَرِيبَا[٢]
وَهَلْ يُخْطِي بِأَسْهُمِهِ الرَّمَايَا
وَمَا يُخْطِي بِمَا ظَنَّ الغُيُوبَا[٣]
إِذَا نُكِبَتْ كِنَانَتُهُ ٱسْتَبَنَّا
بِأَنْصُلِهَا لأَنْصُلِهَا نُدُوبَا[٤]
يُصِيبُ بِبَعْضِهَا أَفْوَاقَ بَعْضٍ
فَلَوْلَا الْكَسْرُ لاتَّصَلَتْ قَضِيبَا[٥]
بِكُلِّ مُقَوَّمٍ لَمْ يَعْصِ أَمْراً
لَهُ حَتَّى ظَنَنَّاهُ لَبِيبَا[٦]

---

(١) الهوج، الواحدة هوجاء، والرياح الهوج: الشديدة العصف. البطش: الفتك العنيف. الندى: الكرم. عاد الشاعر مرّة أخرى إلى نفس الفكرة؛ فالممدوح مدمّر سريع الفتك بلا رحمة، إنه يُمطر أعداءه بالويل والثبور وأحباءه يفيض كرمه السريع المحيي في جفاف الحياة وضيقها.

(٢) الغرض: الهدف يرمى بالسهام. وشأن الناس البسطاء فيه أنهم يرون غاية أفعاله القريبة ويصيب أهدافه لحذقه ومهارته في رمي سهامه، ويرد الشاعر أنكم تروْن القريب ولا تروْن ما يرمي إليه من بعيد.

(٣) إن الممدوح يمتاز بفكر ثاقب صائب استطاع به إدراك مكنون المغيبات بظنه وألمعيّته؛ فسهامه لا تخطئ أهدافها، ومن المؤكد أنه قادر على إصابة الأهداف المادية بيديه.

(٤) نكبت: قلبت رأساً على عقب. الكنانة: جعبة السهام. استبنّا: اكتشفنا. الندوب، الواحد ندْب: آثار الجراح. يذكر الشاعر براعة ممدوحه بالرمي بالقوس؛ إنه يرمي الهدف بالعديد من الأقواس التي تصيب الهدف بمكان واحد، وتكفي مقارنة بسيطة بين ما يصدر عنه منها وما يصدر عن غيره لنكتشف حذقه في الرمي.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. الأفواق، الواحد فوق: حيث يوضع الوتر من السهم. يتابع الشاعر حديثه عن حذق ممدوحه بالرمي بالنشّاب؛ الأقواس تتلاحق وتنزل جميعاً في هدفها، ولذا فاللاحق منها يتكسّر على السابق ولولا ذلك لكانت قضيباً يطول باستمرار طالما يرمي الممدوح بقوسه نباله.

(٦) ولشدّة مهارة الممدوح فإنه يحوّل سهامه حيث يشاء بإرادته وكأنها تعقل عنه وتأتمر بأمره مذعنة لإرادته.

يُــرِيــكَ الــنَّــزْعَ بَــيْــنَ الْــقَــوْسِ مِــنْــهُ
وَبَــيْــنَ رَمِــيِّــهِ الْــهَــدَفَ ٱللَّــهِــيــبَــا[١]
أَلَــسْــتَ ٱبْــنَ ٱلْأُلَــى سَــعِــدُوا وَسَــادُوا
وَلَــمْ يَــلِــدُوا ٱمْــرَأً إِلَّا نَــجِــيــبَــا[٢]
وَنَــالُــوا مَــا ٱشْــتَــهَــوْا بِــٱلْــحَــزْمِ هَــوْنــاً
وَصَــادَ ٱلْــوَحْــشَ نَــمْــلُــهُــمُ دَبِــيــبَــا[٣]
وَمَــا رِيــحُ الــرِّيَــاضِ لَــهَــا وَلَــكِــنْ
كَــسَــاهَــا دَفْــنُــهُــمْ فِــي الــتُّــرْبِ طِــيــبَــا[٤]
أَيَــا مَــنْ عَــادَ رُوحُ الــمَــجْــدِ فِــيــهِ
وَعَــادَ زَمَــانُــهُ الْــتَــالِــي قَــشِــيــبَــا[٥]
تَــيَــمَّــمَــنِــي وَكِــيــلُــكَ مَــادِحــاً لِــي
وَأَنْــشَــدَنِــي مِــنَ الــشِّــعْــرِ الْــغَــرِيــبَــا[٦]

---

(١) النزع: جذب الوتر للرمي. الرمي: الهدف. يصوّر الشاعر كيفية رمي ممدوحه النبل؛ فهو يجذب الوتر بشدّة وتمكّن، فإذا بالسهم ينطلق بسرعة فإذا باللهب الناري يمتدّ خطاً من الوتر حتى الهدف؛ ذلك أن اختراق السهم بالهواء المنتشر في الجو يشبه حفيف النار عند التهابها.

(٢) يعزو الشاعر ممدوحه، وقد استعمل الاستفهام التقريري، إلى من وافاهم السعد والتوفيق والسيادة في الحياة الدنيا، فكان منهم الموفقون النجباء الكرماء، فأنت منهم في المكان الأسمى.

(٣) يمدح الشاعر أسلاف ممدوحه، لقد قاموا جادّين بأعمالهم فحالفهم التوفيق وحصلوا على ما أرادوا في رفق وسهولة، فإذا بالوحش يقع في أيديهم دون عناء وبأهون الأسباب.

(٤) عبق يدغدغ الأنوف بطيبه ينبعث من الرياض، لم يكن ذلك منها، وإنما استقت ذلك من أجداث آباء الممدوح، فإذا بتراب الأرض يتضوّع عبقاً ساحراً.

(٥) القشيب: الجديد. يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه قد تجدّد به مجد أثيل موروث عن آباء ماجدين، فإذا بالمجد يعود بحلة قشيبة وبلون جديد.

(٦) تيمَّمني: قصدني. يذكر الشاعر أن حضوره بين يدي ممدوحه سببه وكيل الممدوح الذي مَثُل بين يدي المتنبي وأنشده قصيدة فيها من الشعر الغريب.

فَـآجَــرَكَ ٱلإِلٰــهُ عَـلَــى عَـلِـيــلٍ
بَـعَـثْـتَ إِلَـى الـمَـسِـيـحِ بِـهِ طَـبِـيـبَـا [١]
وَلَـسْـتُ بِـمُـنْـكِـرٍ مِـنْـكَ ٱلْـهَـدَايَـا
وَلٰـكِـنْ زِدْتَـنِـي فِـيـهَـا أَدِيـبَـا [٢]
فَـلَا زَالَـتْ دِيَـارُكَ مُـشْـرِفَـاتٍ
وَلَا دَانَـيْـتَ يَـا شَـمْـسُ الْـغُـرُوبَـا [٣]
لأُصْـبِـحَ آمِـنـاً فِـيـكَ الـرَّزَايَـا
كَـمَـا أنَـا آمِـنٌ فِـيـكَ الْـعُـيُـوبَـا [٤]

أحسنا الأدب

قال يصف مجلسين له قد انزوى أحدهما عن الآخر ليُرَى من كل واحد منهما ما لا يُرى من صاحبه:

[البسيط]

أَلْـمَـجْـلِـسَـانِ عَـلَـى الـتَّـمْـيِـيزِ بَـيْـنَـهُـمَـا
مُـقَـابِـلَانِ وَلٰـكِـنْ أَحْـسَـنَـا ٱلْأَدَبَـا [٥]
إِذَا صَـعِـدْتَ إِلَـى ذَا، مَـالَ ذَا رَهَـبـاً
وَإِنْ صَـعِـدْتَ إِلَـى ذَا، مَـالَ ذَا رَهَـبَـا [٦]

---

(١) و (٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣١٦، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. آجر: أثاب. يدعو الشاعر للممدوح بخير الجزاء من اللّٰه عزّ وجلّ لأنه أرسل إليه بطبيب مريض، والشاعر هو المسيح الشافي من كلّ مرض، ودواؤه شعر يشفي كلّ عليل. ولقد قبل تلك الهدايا شاكراً، بل إنه زاده أديباً كذلك.

(٣) يدعو الشاعر لممدوحه بدوام سعده وبقاء دياره مشعّة بوجوده عامرة بأنوار وجهه وطول عمره.

(٤) يردف الشاعر معبّراً لممدوحه عن أمله ببقائه سالماً وبعيداً عن المصائب التي تنزل بالناس، وهو على يقين بأنه سالم من العيوب، ولذا يخاف أن ترزأ تلك الفضائل بفقده فتبقى بلا حامل لها وبلا معنى.

(٥) و (٦) إنهما مجلسان يتمايز الواحد منهما عن الآخر، وذلك أدب منهما، وفي حال انحياز الممدوح لأحدهما مال الآخر خوفاً منه وهيبة له.

فَلِمْ يَهَابُكَ مَا لَا حِسَّ يَرْدَعُهُ
إِنِّي لَأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا عَجَبَا [(١)]

إن معي السحاب

ولم استقل في القبة نظر إلى السحاب فقال:

[الوافر]

تَعَرَّضَ لِي السَّحَابُ وَقَدْ قَفَلْنَا
فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِنَّ مَعِي السَّحَابَا [(٢)]
فَشِمْ فِي الْقُبَّةِ الْمَلِكَ الْمُرَجَّى
فَأَمْسَكَ بَعْدَ مَا عَزَمَ ٱنْسِكَابَا [(٣)]

كفى بقرب الأمير طيباً

وأشار إليه طاهر العلويّ بمسك وأبو محمد حاضر فقال:

[مخلّع البسيط]

أَلطِّيبُ مِمَّا غَنِيتُ عَنْهُ
كَفَى بِقُرْبِ ٱلْأَمِيرِ طِيبَا [(٤)]
يَبْنِي بِهِ رَبُّنَا الْمَعَالِي
كَمَا بِكُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَا [(٥)]

---

(١) وما يثير دهشة الشاعر أنه وجد أن ما لا حسّ له يخاف ممدوحه، فيكف بمن يُحسّ فماذا يفعل، وذلك العجب كلّ العجب ممّا يرى.

(٢)و (٣)قفلنا: رجعنا. إليك: اسم فعل أمر بمعنى اكفف. شمْ: فعل أمر من شام البرق: استطلع الشاعر علّ البرق يأتي بالمطر. سحاب بالأفق يبشر بغيث ومطر غزير، والشاعر قد عاد، والمطر نتاجه قد يطول به الزمن، فإذا بالشاعر يلتفت إلى ممدوحه الكريم المعطاء، لذا فهو يطلب من السحاب أن يستمدّ مطره من ممدوحه وألّا يُلحّ في الطلب لأن عطاء الممدوح بدأ ينسكب مدراراً، ممَّا حمل الشاعر على الطلب من السحاب أن يمسك عن الانهمار حياء من جود ممدوحه.

(٤) ورد البيت في: أسرار البلاغة: ٣١٦. يكفي الشاعر أن يقرب ممدوحه لينعش بعبقه دون سائر الطيب؛ ذلك أن طيبه يحيي قلبه وروحه.

(٥) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ٤٠. يخاطب الشاعر طاهراً العلوي، =

لولا الملاحة لم أعجب

قال وقد استحسن عين باز في مجلسه :

[المتقارب]

أَيَـــا مَـــا أُحَـــيْـــسِـــنَـــهَـــا مُـــقْـــلَـــةً
وَلَـــوْلَا الـــمَـــلَاحَـــةُ لَـــمْ أَعْـــجَـــبِ (١)

خَـــلُـــوقِـــيَّـــةٌ فِـــي خَـــلُـــوقِـــيِّـــهَـــا
سُـــوَيْـــدَاءُ مِـــنْ عِـــنَـــبِ الـــثَّـــعْـــلَـــبِ (٢)

إِذَا نَـــظَـــرَ الْـــبَـــازُ فِـــي عِـــطْـــفِـــهِ
كَـــسَـــتْـــهُ شُـــعَـــاعـــاً عَـــلَـــى الْـــمَـــنْـــكِـــبِ (٣)

كثير حياة المرء مثل قليلها

وقال يمدح أبا القاسم طاهر بن الحسين العلوي :

[الطويل]

أَعِـيـدُوا صَـبَـاحِـي فَـهْـوَ عِـنْـدَ الْـكَـوَاعِـبِ
وَرُدُّوا رُقَـادِي فَـهْـوَ لَـحْـظُ الْـحَـبَـائِـبِ (٤)

= وهو من أحفاد نسل السيدة فاطمة كريمة سيدنا محمد ﷺ، ولقد تابع قوله : «كم بكم يغفر الذنوبا».

(١) ورد البيت في : أمالي ابن الشجري ٢ : ١٣٤. يعجب الشاعر لجمال تلك العين، وقد استعمل أفعل التفضيل مصغراً للتحبّب، ومصدر إعجابه جمال حرّك مشاعره فأنطقه بما يُحسّ به.

(٢) خلوقية : نسبة إلى ضرب من الطيوب أصفر اللون. سويداء : سوداء. يصف الشاعر هذه المقلة، إنها صفراء بلون الخلوق تتوسطها عين إنسان أسود يشبه حبة صغيرة من عنب الثعلب.

(٣) العطف : الجانب من لدن رأس الرجل إلى وِركيه. المنكب : مجمع عظم العضد والكتف. الباز : ضرب من جوارح الطير، يُصطاد به. فلو أن الباز نظر إلى تلك المقلة ونظر إلى جانبه لانعكست أشعّة مضيئة تغطّي منكبه كلّه.

(٤) ورد البيت في : أسرار البلاغة، للجرجاني : ٢٢٨. الكواعب، الواحدة كاعب : الفتاة التي نهد ثدياها. الحبائب، الواحدة حبيبة. ولحظ الحبائب : رؤيتهن. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع تقليدي غزلي، إنه لم ينعم بلذّة النوم، فقد رحلت عنه حبيبته مع =

فَــإِنَّ نَـــهَـــارِي لَـــيْـــلَـــةٌ مُـــدْلَـــهِـــمَّـــةٌ
عَـلَـى مُـقْـلَـةٍ مِـنْ بَـعْـدِكُـمْ فِـي غَـيَـاهِـبِ(١)
بَـعِـيـدَةِ مَـا بَـيْـنَ ٱلْـجُـفُـونِ كَـأَنَّـمَـا
عَـقَـدْتُـمْ أَعَـالِـيْ كُـلِّ هُـدْبٍ بِـحَـاجِـبِ(٢)
وَأَحْـسَـبُ أَنِّـي لَـوْ هَـوِيـتُ فِـرَاقَـكُـمْ
لَـفَـارَقْـتُـهُ وَالـدَّهْـرُ أَخْـبَـثُ صَـاحِـبِ(٣)
فَـيَـا لَـيْـتَ مَـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَ أَحِـبَّـتِـي
مِـنَ الْـبُـعْـدِ مَـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَ الـمَـصَـائِـبِ(٤)
أَرَاكِ ظَـنَـنْـتِ الـسِّـلْـكَ جِـسْـمِـي فَـعُـقْـتِـهِ
عَـلَـيْـكِ بِـدُرٍّ عَـنْ لِـقَـاءِ الـتَّـرَائِـبِ(٥)

= أتراب لها، وطار النوم من عينيه، وليعرف الراحة والسكون فهو يطلب إعادة من أحبّ ليغفو سعيداً مطمئناً.

(١) مدلهمة: حالكة السواد. الغياهب، الواحد غيهب: الظلمة. يعلّل الشاعر السبب الذي من أجله لم يعرف طعم النوم، لقد اسودّت الدنيا في عينيه، فلم يميز بين نهار وليل؛ فقد اكتسح العمى نور عينيه بعد هجر حبيبته، فلا بدّ من عودة ليعود رقاده عذباً برؤية من أحبّ في المنام.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. الهدب: الشعر النابت على أشفار العين. لقد غاب عن مقلته النوم، فلم يغمض له جفن ولا رفّت له عين وكأن نظره قد سُدَّ بحاجب منع عنه الرؤية فتسمّر نظره وجمد.

(٣) إن الشاعر على يقين أنه لو أراد مفارقة ممدوحه لما استطاع، ذلك أن حبّه ممدوحه قد ملك عليه مشاعره، ولو أحبّ ذلك لكان ثمّة مانع من ذلك يتمثل بصلة ثمينة تصله من جانب الممدوح، رغم بعده عن الشاعر. ورغم أن الدهر الخؤون صاحب شيء يلازمه ملازمة حميمة، ولذا عليه أن يُفارقه رغماً عنه على أمل أن يلقى ممدوحه.

(٤) يتمنّى الشاعر أن يصله أحبته الممثلون بالممدوح ويلازموه ملازمة النكبات، كما أنه يرغب بمفارقة المصائب وبعدها عنه كما يبعد أحبته.

(٥) أراك: أظنّك. السلك: الخيط الذي يحتوي اليواقيت في العقد. عقّ: نفر، جحد. الترائب، الواحدة تريبة: عظام الصدر، موضع القلادة. يخاطب الشاعر المصائب، إنه يرى أنها توهّمت أن جسمه بمثابة سلك، نفرت منه لشبه بين قلادتها وجسمه =

وَلَـوْ قَـلَـمٌ أُلْـقِـيـتُ فِـي شَـقِّ رَأْسِـهِ
مِنَ السُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ[١]

تُـخَـوِّفُـنِـي دُونَ الَّـذِي أَمَـرَتْ بِـهِ
وَلَـمْ تَـدْرِ أَنَّ الْـعَـارَ شَـرُّ الْـعَـوَاقِـبِ[٢]

وَلَا بُـدَّ مِـنْ يَـوْمٍ أَغَـرَّ مُـحَـجَّـلِ
يَـطُـولُ اسْـتِـمَـاعِـي بَـعْـدَهُ لِـلـنَّـوَادِبِ[٣]

يَـهُـونُ عَـلَـى مِـثْـلِـي إِذَا رَامَ حَـاجَـةً
وُقُـوعُ الْـعَـوَالِـي دُونَـهَـا وَالْـقَـوَاضِـبِ[٤]

كَـثِـيـرُ حَـيَـاةِ الْـمَـرْءِ مِـثْـلُ قَـلِـيـلِـهَـا
يَـزُولُ وَبَـاقِـي عَـيْـشِـهِ مِـثْـلُ ذَاهِـبِ[٥]

= وسبب ذلك مخالفتها وكرهها لكل ما يُشبهه؛ وثمّة تناقض في موقفها منه؛ فهي تنفر منه من جانب ولا تتخلى عن رغبتها في صلته من جانب آخر.

(١) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٦٩، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. ولشدّة ما نزل به من ضعف وهزال فبات كظلّ آدميّ، فلو أدخل في شقّ قلم، لما طرأ على خطّ القلم من تغيير.

(٢) والحبيبة تود بقاء الشاعر إلى جانبها محذّرة له من أخطار الغربة ومغامرة الترحال؛ والترحال بالنسبة إليه فرار من عواقب البقاء دون البحث عن طرق النجاح في هذا الوجود.

(٣) الأغرّ: الأبيض. المحجّل من الخيل: ما كانت قوائمه الأربع بيضاً. غاية ارتحال الشاعر أن يصادف يوم سعده بقتله أعاديه، حيث تتعالى أصوات النادبات يبكين قتلاهن، ساعتئذٍ يشعر بالرضى عما يفعله.

(٤) رام: طلب، العوالي: الرماح. القواضب: السيوف القاطعة. ليس سهلاً أن يتوصّل الإنسان إلى تحقيق أمانيه دون أن تعترضه صعاب ممثلة بمواجهة الأخطار والويلات والحروب.

(٥) يرى الشاعر أن عيش المرء أيامه معدودة، مهما طال عمره أو قصر فلا بدّ من الموت، ولذا فعليه مواجهة قضائه بشجاعة دون خوف لكي يحقّق أمانيه في هذا الكون.

إِلَـيْـكِ فَـإِنِّـي لَـسْـتُ مِـمَّـنْ إِذَا ٱتَّـقَـى
عِـضَـاضَ ٱلْأَفَـاعِـي نَـامَ فَـوْقَ الْـعَـقَـارِبِ[١]

أَتَـانِـي وَعِـيـدُ ٱلْأَدْعِـيَـاءِ وَأَنَّـهُـمْ
أَعَـدُّوا لِـيَ الـسُّـودَانَ فِـي كَـفْـرِ عَـاقِـبِ[٢]

وَلَـوْ صَـدَقُـوا فِـي جَـدِّهِـمْ لَـحَـذِرْتُـهُـمْ
فَـهَـلْ فِـيَّ وَحْـدِي قَـوْلُـهُـمْ غَـيْـرُ كَـاذِبِ[٣]

إِلَـيَّ لَـعَـمْـرِي قَـصْـدُ كُـلِّ عَـجِـيـبَـةٍ
كَـأَنِّـي عَـجِـيـبٌ فِـي عُـيُـونِ الْـعَـجَـائِـبِ[٤]

بِـأَيِّ بِـلَادٍ لَـمْ أَجُـرَّ ذُؤَابَـتِـي
وَأَيُّ مَـكَـانٍ لَـمْ تَـطَـأْهُ رَكَـائِـبِـي[٥]

كَـأَنَّ رَحِـيـلِـي كَـانَ مِـنْ كَـفِّ طَـاهِـرٍ
فَـأَثْـبَـتَ كُـورِي فِـي ظُـهُـورِ الْـمَـوَاهِـبِ[٦]

---

(١) يصوّر المتنبي مفهومه للكرامة بأن مجابهة الموت تجنّبه لسعات الضعفاء الجبناء المتمثلة بالعقارب، فهؤلاء يمتصون كبرياءه ويفتكون بعزّته، ولكنهم للأسف لا يموتون، وهو يفضل الموت على الحياة في حالة الذلّ هذه.

(٢) الوعيد: التهديد. الأدعياء: الواحد دعيٌّ من ينتسب إلى أصل نبيل ولم يكن كذلك. السودان: الزنوج. كفر عاقب: إحدى قرى الشام. هناك من يهدّد الشاعر بالقتل، لذا راح هؤلاء يرصدون له جماعة من السودان ليفتكوا به في قرية كفر عاقب.

(٣) ينعى الشاعر على من ادّعوا بانتسابهم إلى أنبل البيوت أنهم كاذبون ولذا لم يحذرهم، وبما أنهم كاذبون فهم بالأحرى سيكذبون في تهديدهم له ولا يمكن أن يصدقوا في ذلك.

(٤) يستغرب الشاعر من سخرية الأقدار أن هؤلاء يتهدّدونه، وذلك عجيب، وهو من صمد في وجه الأعاصير صابراً لا يبالي بكلّ ما تعرّض له من نكبات.

(٥) يروى «ذوائبي» بدلاً من «ذؤابتي». وذؤابة النعل: ما مسّ الأرض من القدم. يفخر الشاعر أنه مغامر يجول في بلاد اللّه تعالى الواسعة طلباً للمجد وبحثاً عن الرزق.

(٦) الكور: الرحل. ينتقل الشاعر من التشكي من هموم الحياة إلى الممدوح طاهر بن الحسين العلوي الذي استحوذ على كل فضيلة، والشاعر بدوره قد طرق كل باب باحثاً عن ضالته، فإذا بمواهب طاهر تسوق الشاعر إليه.

فَـلَـمْ يَـبْـقَ خَـلْـقٌ لَـمْ يَـرِدْنَ فِـنَـاءَهُ
وَهُـنَّ لَـهُ شِـرْبٌ وُرُودَ الـمَـشَـارِبِ [(١)]

فَـتًـى عَـلَّـمَـتْـهُ نَـفْـسُـهُ وَجُـدُودُهُ
قِـرَاعَ الأَعَـادِي وَٱبْـتِـذَالَ الـرَّغَـائِـبِ [(٢)]

فَـقَـدْ غَـيَّـبَ الـشُّـهَّـادَ عَـنْ كُـلِّ مَـوْطِـنٍ
وَرَدَّ إِلَـى أَوْطَـانِـهِ كُـلَّ غَـائِـبِ [(٣)]

كَـذَا الْـفَـاطِـمِـيُّـونَ الـنَّـدَى فِـي بَـنَـانِـهِـمْ
أَعَـزُّ ٱمِّـحَـاءً مِـنْ خُـطُـوطِ الـرَّوَاجِـبِ [(٤)]

أُنَـاسٌ إِذَا لَاقَـوْا عِـدًى فَـكَـأَنَّـمَـا
سِـلَاحُ الَّـذِي لَاقَـوْا غُـبَـارُ الـسَّـلَاهِـبِ [(٥)]

---

(١) فناء الدار: ما امتدّ من جوانبها. ومن عظم كرم الممدوح واشتهاره بذلك حمل الخلق على ولوج دياره يعبّون إكسير فضله ويرتوون من فيض نبعه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. يصوغ الشاعر صورة جميلة، طالما صاغها شعراء التكسّب، فالممدوح تتمثّل فيه الفتوّة العربية بأجمل صورها، فقد حصّل علماً ذاتياً لدنياً متوارثاً من لدن أجداده، فكان شجاعاً بالفطرة في ساحات القتال، كريماً سلك دروب الكرم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. ولقد استطاع الممدوح بأن يفوز بقصب السبق في مضمار الكرم، فإذا بالشهود يمثلون بين يديه، وهم من طبعهم البقاء في أوطانهم لا يغادرونها، فإذا بهم يشدّون إليه الرحال دون غيره، ويرجعون إلى أوطانهم تطفح في قلوبهم المسرّة ممّا نالهم منه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. الندى: الكرم. البنان، الواحدة بنانة: أطراف الأصابع، يقصد بذلك أيديهم. يروى «أكفهم» بدلاً من «بنانهم». الفاطميون: نسبة إلى أشرف نساء العالمين السيدة فاطمة ريحانة رسول اللّه ﷺ. الرواجب: مفاصل الأصابع. يمدح الشاعر آل بيت الممدوح بالكرم المتأصل فيهم، فقد تنمحي خطوط أيديهم لكثرة ما ينفقون في سبل الخير ولكن كرمهم باق لا يزول.

(٥) السلاهب، الواحد سلهب: الفرس الطويل. يُشيد الشاعر بشجاعة أهل ممدوحه: فهم في حال لقاء أعدائهم لا يأبهون بما لدى هؤلاء من سلاح وكأنه غبار جيَادهم، فهم لا يكترثون بذلك بل يقدمون وفي قلوبهم إيمان بالنصر.

رَمَـوْا بِـنَـوَاصِـيـهَـا الْـقِـسِـيَّ فَـجِـئْـنَـهَـا
دَوَامِـي الـهَـوَادِي سَـالِـمَـاتِ ٱلْـجَـوَانِـبِ (١)
أُولَــئِــكَ أَحْــلَــى مِــنْ حَــيَــاةٍ مُـعَــادَةٍ
وَأَكْـثَـرُ ذِكْـراً مِـنْ دُهُـورِ الـشَّـبَـائِـبِ (٢)
نَـصَـرْتَ عَـلِـيًّـا يَـا ٱبْـنَـهُ بِـبَـوَاتِـرٍ
مِنَ الْـفِـعْـلِ لَا فَـلٌّ لَـهَـا فِـي الـمَـضَـارِبِ (٣)
وَأَبْــهَــرُ آيَــاتِ الــتِّــهَــامِــيِّ أَنَّــهُ
أَبُـوكَ وَأَجْـدَى مَـا لَـكُـمْ مِـنْ مَـنَـاقِـبِ (٤)
إِذَا لَـمْ تَـكُـنْ نَـفْـسُ الـنَّـسِـيـبِ كَـأَصْـلِـهِ
فَـمَـاذَا الَّـذِي تُـغْـنِـي كِـرَامُ الـمَـنَـاصِـبِ (٥)
وَمَــا قَــرُبَــتْ أَشْــبَــاهُ قَــوْمٍ أَبَــاعِــدٍ
وَلَا بَــعُــدَتْ أَشْــبَــاهُ قَــوْمٍ أَقَــارِبِ (٦)

---

(١) النواصي، الواحدة ناصية: مقدمة شعر رأس المرء. الهوادي، الواحدة هادية: الأعناق. والدليل على شجاعة القوم أنهم يواجهون نبال أعدائهم ولا ينحرفون حتى يدركوا مقدمة أعناقهم فيبطشون بهم.

(٢) الشبائب: الواحد شبيبة. إن هؤلاء أغنية الغرّ يحلو للمرء ذكرهم بل إنهم أحلى من حياة أعيدت لصاحبها بعد موت مفاجئ، ولا عجب أن ذكرهم يتردّد على ألسنة البشر رغم تكرّر الدهور.

(٣) يقصد بعليّ الجدّ الأعلى للممدوح وهو سيدنا علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه. البواتر، الواحد باتر: السيوف القاطعة. الفلّ: الأثلام في السيف. عاد الشاعر إلى مدح ممدوحه، إنه يد النصر التي تذكر بجدّه الأعلى فإذا بأعمال الممدوح تعتبر استمراراً لانتصارات الجدّ، وهي تخلو من كلّ عيب كسيوف قاطعة لا فلول فيها.

(٤) و (٥) يقصد الشاعر بالتهامي الرسول ﷺ. المناقب، الواحدة منقبة: الفضائل. ومن عظيم أعمال النبي محمد ﷺ أنه أبو الممدوح، وتلك منزلة أعلى المنازل لا تتوفر لمخلوق سواه، فجلالة ذلك أو النسب الرفيع والأصل النبيل، ومهما علت مناصب البشر لا يمكن أن تدانيها مهما ارتفعت في ميزان الحقيقة.

(٦) يسخر الشاعر بأولئك الأدعياء الذين ادّعوا أنهم ينتسبون إلى آل البيت، فهم ليسوا كذلك، فلا شبه بالمعاصرين منهم، وبالتالي فلا شبه بأجداد ممدوحه فالشبه واضح سمة وشكلاً وأخلاقاً.

إِذَا عَـلَـوِيٌّ لَـمْ يَـكُـنْ مِـثْـلَ طَـاهِـرٍ
فَـمَـا هُـوَ إِلَّا حُـجَّـةٌ لِـلـنَّـوَاصِـبِ(١)
يَـقُـولُـونَ تَـأْثِـيـرُ الْـكَـوَاكِـبِ فِـي الْـوَرَى
فَـمَـا بَـالُـهُ تَـأْثِـيـرُهُ فِـي الْـكَـوَاكِـبِ(٢)
عَـلَا كَـتَـدَ الـدُّنْـيَـا إِلَـى كُـلِّ غَـايَـةٍ
تَـسِـيـرُ بِـهِ سَـيْـرَ الـذَّلُـولِ بِـرَاكِـبِ(٣)
وَحُـقَّ لَـهُ أَنْ يَـسْـبِـقَ الـنَّـاسَ جَـالِـسـاً
وَيُـدْرِكَ مَـا لَـمْ يُـدْرِكُـوا غَـيْـرَ طَـالِـبِ(٤)
وَيُـحْـذَى عَـرَانِـيـنَ الـمُـلُـوكِ وَإِنَّـهَـا
لَـمِـنْ قَـدَمَـيْـهِ فِـي أَجَـلِّ الـمَـرَاتِـبِ(٥)
يَـدٌ لِـلـزَّمَـانِ ٱلْـجَـمْـعُ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـهُ
لِـتَـفْـرِيـقِـهِ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَ الـنَّـوَائِـبِ(٦)

---

(١) النواصب: الخوارج، يرى الشاعر أن الشجرة العلوية المتمثلة بطاهر في علمه وورعه وشجاعته، فإن لم تتوفّر تلك الفضائل في إنسان ما فسوف يتخذها الخوارج حجة عليه، بأنّه دعيّ نسب، وهو كاذب في دعواه.

(٢) يدّعي بعض الناس أن مصائر البشر تتعلّق بحركات الكواكب، وذلك لا أصل له في حقيقة الأمر، وإنما قد تصادف ويصدق بعضها. والممدوح هو سرّ سعادة من رضي عنه فيغتني ويُسرّ من لدن الممدوح، وقد يغضب الممدوح على آخرين فينزل بهم الدمار وسوء الحال.

(٣) و (٤) الكتد: ملتقى الكتفين من بني آدم. والذلول: الدابة المطواع لقائدها. لقد سما الممدوح إلى أفق المجد، وبلغ أقصى مناه، فإذا بالدنيا تسير بسيره مِطواعة، مؤتمرة بأمره في سائر أحواله. ومن الطبيعي أن يسبق الناس جميعاً بأدنى تعب، فأتته الدنيا صاغرة دون تعب رغم جهود البشر الجبارة فإنهم لم يبلغوا شأوه.

(٥) العرانين، الواحد عرنين: الأنوف. ومن مغالاة الشاعر أنه جعل أسمى مراتب الملوك أن تُداس أنوفهم ورؤوسهم بقدمي ممدوحه وفي ذلك رفعة له وتكرمة.

(٦) ومن حسن حظ الشاعر أن الزمان ابتسم إليه وقدّم له خدمة جليلة بأن جمع بينه وبين ممدوحه، فإذا بالمصائب تنزاح عن كاهله ويسطع في سماء حياته نجم السعد.

هُـوَ ٱبْـنُ رَسُـولِ الـلَّـهِ وَٱبْـنُ وَصِـيِّـهِ
وَشِـبْـهُـهُـمَـا شَـبَّـهْـتُ بَـعْـدَ الـتَّـجَـارِبِ(١)
يَـرَى أَنَّ مَـا مَـا بَـانَ مِـنْـكَ لِـضَـارِبِ
بِـأَقْـتَـلَ مِـمَّـا بَـانَ مِـنْـكَ لِـعَـائِـبِ(٢)
أَلا أَيُّـهَـا الـمَـالُ الَّـذِي قَـدْ أَبَـادَهُ
تَـعَـزَّ فَـهٰـذَا فِـعْـلُـهُ فِـي الْـكَـتَـائِـبِ(٣)
لَـعَـلَّـكَ فِـي وَقْـتٍ شَـغَـلْـتَ فُـؤَادَهُ
عَـنِ الْـجُـودِ أَوْ كَـثَّـرْتَ جَـيْـشَ مُـحَـارِبِ(٤)
حَـمَـلْـتُ إِلَـيْـهِ مِـنْ لِـسَـانِـي حَـدِيـقَـةً
سَقَاهَا الحِجَى سَقْيَ الرِّيَاضِ السَّحَائِبِ(٥)
فَـحُـيِّـيـتَ خَـيْـرَ ٱبْـنٍ لِـخَـيْـرِ أَبٍ بِـهَـا
لأَشْـرَفِ بَـيْـتٍ فِـي لُـؤَيِّ بْـنِ غَـالِـبِ(٦)

---

(١) يجعل الشاعر ممدوحه ابن النبي ﷺ، وكذلك ابن وصيّ الرسول، فقد أوصى له بالخلافة من بعده ﷺ، ولقد دلّت التجارب وشبهه بهما على أنه صادق في دعواه.

(٢) يأنف الممدوح من هُجْر الكلام وسيّئه، ولذا فهو يتحلّى بأفضل الخصال، فلا يجد العائب مجالاً للتنقص ممن يرى أن ذكر المعايب أشدّ من القتل.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. يروى «تسلّ» بدلاً من «تعزّ». الكتائب، الواحدة كتيبة: الفرقة من الجيش. يخاطب الشاعر أموال الممدوح التي فُرّقت على من يستحقّها بألّا تحزن بل عليها أن تتعزّى بما يذهب على يده من قتل لأعدائه وأسر لهم؛ فالكلّ في ذلك سواء.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. ومن سوء تقدير المال أنه قد شغل الممدوح عن البذل والعطاء رجاء الاحتفاظ به أو أنه أثار طمع الأعداء بغنى الممدوح، وفجأة ينتفض حسّ الكرم في الشاعر، فيبذر ما لديه من مال وينتقم لنفسه من خديعة استطاع الفكاك من إغراءاتها.

(٥) و (٦) يقصد الشاعر بالحديقة: القصيدة: الحجى: العقل. يتفضّل الشاعر على ممدوحه بقصيدة وليدة عقله الفيّاض ملىء خصباً وريًّا وجمالاً. ينهي الشاعر قصيدته بالدعاء لممدوحه، فهو ابن خير أب ومن أشرف بيت قرشيّ ينتمي للؤي بن غالب، آملاً له أن ينعم بحياة ملؤها السعادة والدوام.

حسام على حسام

قال وهو يسايره إلى الرقة وقد اشتد المطر بموضع يعرف بالثديين:

[الوافر]

لِـعَـيْـنِـي كُـلَّ يَـوْمٍ مِـنْـكَ حَـظٌّ
تَـحَـيَّـرُ مِـنْـهُ فِـي أَمْـرٍ عُـجَـابِ[١]

حِـمَـالَـةُ ذَا الْـحُـسَـامِ عَـلَـى حُـسَـامٍ
وَمَـوْقِـعُ ذَا الـسَّـحَـابِ عَـلَـى سَـحَـابِ[٢]

تسايرك السواري والغوادي

وزاد المطر فقال:

[الوافر]

تَـجِـفُّ الأَرْضُ مِـنْ هٰـذَا الـرَّبَـابِ
وَيَـخْـلُـقُ مَـا كَـسَـاهَـا مِـنْ ثِـيَـابِ[٣]

وَمَـا يَـنْـفَـكُّ مِـنْـكَ الـدَّهْـرُ رَطْـبـاً
وَلَا يَـنْـفَـكُّ غَـيْـثُـكَ فِـي انْـسِـكَـابِ[٤]

تُـسَـايِـرُكَ الـسَّـوَارِي وَالْـغَـوَادِي
مُـسَـايَـرَةَ ٱلْأَحِـبَّـاءِ الـطِّـرَابِ[٥]

تُـفِـيـدُ الْـجُـودَ مِـنْـكَ فَـتَـحْـتَـذِيـهِ
وَتَـعْـجِـزُ عَـنْ خَـلَائِـقِـكَ الْـعِـذَابِ[٦]

---

(١) و (٢) يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مثار إعجابه، فهو في كلّ يوم متجدّد، وهو في كل حال متغيّر، تبدو منه الأعاجيب بألوان شتّى، إنه حسام يبتر أعداءه، وتتدلّى حمالة سيفه، مما يُوحي بأنه بطل شجاع، وفي الجانب الآخر كريم يشمل كرمه مساحات شاسعة بسرعة، وهو أسرع من السحب عطاءً.

(٣) و (٤) الرباب: السحاب الرقيق الأبيض. يخلق: يبلى. كسا: لبس. سرعان ما تبتلع الأرض ماء تلك السحب وتذوى نباتات الأرض في حال اشتداد الحرّ، بينما كرم الممدوح يستمرّ تدفقه في كل حين ولا ينقطع مهما تبدّلت الأحوال طوال دهره.

(٥) و (٦) السواري: السحب السارية. الغوادي: الغيوم المنتشرة في أرجاء السماء في النهار. اتّخذت طبيعة الوجود منحًى جديداً؛ فإذا بالغيوم تأتمر بأمر ممدوح الشاعر =

مبذول المقاتل في الحب

أمره سيف الدولة بإجازة هذا البيت:

[الطويل]

خَـرَجْـتُ غَـدَاةَ الـنَّـفْـرِ أَعْـتَـرِضُ الـدُّمَـى
فَلَمْ أَرَ أَحْلَى مِنْكَ فِي الْعَيْنِ وَٱلْقَلْبِ(١)

فقَال:

[الطويل]

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْماً إِلَى قَلْبِي
وَأَقْتَلَهُمْ لِلدَّارِعِينَ بِلَا حَرْبِ(٢)

تَفَرَّدَ بِٱلْأَحْكَامِ فِي أَهْلِهِ الْهَوَى
فَأَنْتَ جَمِيلُ ٱلْخُلْفِ مُسْتَحْسَنُ الْكِذْبِ(٣)

وَإِنِّي لَمَمْنُوعُ الْمَقَاتِلِ فِي ٱلْوَغَى
وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُولَ الْمَقَاتِلِ فِي الْحُبِّ(٤)

= فتسري حيث يريد وتهطل بالمقدار الذي يقدّره لها، فتبدو شادية طربة فرحة، ذلك أنها تستمدّ من الممدوح الكرم، ورغم ذلك فإنها لا تبلغ شأوه لما يتمتع به من رفيع الخلق وعظيم المواهب والقدرات.

(١) غداة النفر: وقت النفر من عرفات إلى المزدلفة بعد عصر اليوم التاسع من ذي الحجة للمبيت هناك وجمع حصيات الجمار. اعترض: استقبل. الدمى، الواحدة دمية: الصورة من العاج شبّهت بها النسوة لجمالهن.

(٢) يعلن الشاعر استعداده على بذل نفسه فداءً لممدوحه الذي لا تخطئ سهامه، وقد اخترق أحدها قلب الشاعر فأسره حبًّا وتعلّقاً، وهو قادر على قتل أعدائه رغم احتراسهم الشديد ورغم الدروع التي يلبسونها لتحميهم؛ فهو بمقدوره قتلهم بلا مبارزتهم والالتحام بهم لسطوته وخوفهم منه.

(٣) و (٤) اختصّ الهوى بأحكام جائرة، فإذا وعد وفى، ولكن الأمر مع الممدوح مختلف، فهو إن هدّد قد يعفو ويغفر، وهنا فالإخلاف رحمة وسعة تدلّ على مقدرة عظيمة وحِلم رفيع، والشاعر مقاتل عنيد لا يستسلم ولا ينهزم، ولكن الأمر مختلف في هذه الحالة فالمحبوب استحوذ على القلب، فما كان من الشاعر إلّا الاستسلام.

وَمَـنْ خُـلِـقَـتْ عَـيْـنَـاكَ بَـيْـنَ جُـفُـونِـهِ
أَصَابَ ٱلْحُدورَ السَّهْلَ فِي الْمُرْتَقى الصَّعْبِ(١)

سبقنا إلى الدنيا

وقال يعزيه بعبده يماك وقد توفي في شهر رمضان سنة أربعين وثلاث مئة :

[الطويل]

[و] لَا يُـحْـزِنِ الـلَّـهُ الأمـيـرَ فَـإِنَّـنِـي
سَـآخُـذُ مِـنْ حَـالَاتِـهِ بِـنَـصِـيـبِ(٢)

وَمَـنْ سَـرَّ أَهْـلَ الأَرْضِ ثُـمَّ بَـكَـى أَسًـى
بَـكَـى بِـعُـيُـونٍ سَـرَّهَـا وَقُـلُـوبِ(٣)

وَإِنِّـي وَإِنْ كَـانَ الـدَّفِـيـنُ حَـبِـيـبَـهُ
حَـبِـيـبٌ إِلَـى قَـلْـبِي حَـبِـيـبُ حَـبِـيـبِي(٤)

وَقَـدْ فَـارَقَ الـنَّـاسُ الأحِـبَّـةَ قَـبْـلَـنَـا
وَأَعْـيَـا دَوَاءُ الـمَـوْتِ كُـلَّ طَـبِـيـبِ(٥)

سُـبِـقْـنَـا إِلَـى الـدُّنْـيَـا فَـلَـوْ عَـاشَ أَهْـلُـهَـا
مُـنِـعْـنَـا بِـهَـا مِـنْ جَـيْـئَـةٍ وَذُهُـوبِ(٦)

---

(١) الحدور : المنحدر من الأمكنة . يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يقدر على امتلاك القلوب والمشاعر ، فقد استقرّت في العيون صورته المحبَّبة ، مما سهّل عليه أصعب الأمور التي يستحيل على غيره تحقيقها .

(٢) يدعو الشاعر ألّا يحزن اللّه الأمير ، فالمصاب أليم جلل ، وهو على استعداد ليشارك ممدوحه المصاب علّه يخفّ محمله بالمشاركة الوجدانية .

(٣) ورد البيت في : الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٠٩ . يتابع الشاعر التعبير عن ألم المصاب ، فقد نزل بمن يعمل على مسرّة الناس بما يقدّم لهم ، وها هو الآن يبكي فإذا بمن شاركهم أفراحهم وسرورهم يبكون لبكائه ، وقد أرعب قلوبهم حزناً وألماً .

(٤) و (٥) الدفين : الميت . يُعلن الشاعر عن حبّه العظيم لمن يحبّه ممدوحه ؛ فالميت حبيب حبيبه ، فهو يحبّه بدوره لمحبّة حبيبه له . والقانون الصارم الذي لا يحيد عنه مخلوق ؛ فالموت مصير كلّ مخلوق ولا مفرّ منه ، وهنا يبطل كلّ دواء ويبوء كلّ طبيب بالفشل .

(٦) ورد البيت في : الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٠٩ . يقول الشاعر والألم يعصر =

تَـمَـلَّـكَـهَـا الآتِـي تَـمَـلُّـكَ سَـالِـبٍ
وَفَـارَقَـهَـا الْـمَـاضِـي فِـرَاقَ سَـلِـيـبِ(١)

وَلَا فَـضْـلَ فِـيـهَـا لِـلـشَّـجَـاعَـةِ وَالـنَّـدَى
وَصَـبْـرِ الْـفَـتَـى لَـوْلَا لِـقَـاءُ شَـعُـوبِ(٢)

وَأَوْفَـى حَـيَـاةِ الْـغَـابِـرِيـنَ لِـصَـاحِـبٍ
حَـيَـاةُ ٱمْـرِىءٍ خَـانَـتْـهُ بَـعْـدَ مَـشِـيـبِ(٣)

لأَبْـقَـى يَـمَـاكٌ فِـي حَـشَـايَ صَـبَـابَـةً
إِلَـى كُـلِّ تُـرْكِـيِّ الـنِّـجَـارِ جَـلِـيـبِ(٤)

وَمَـا كُـلُّ وَجْـهٍ أَبْـيَـضٍ بِـمُـبَـارَكٍ
وَلَا كُـلُّ جَـفْـنٍ ضَـيِّـقٍ بِـنَـجِـيـبِ(٥)

= قلبه: إن أفواج الحياة تتوالى منذ كان الوجود، وهم يمرون سِراعاً يتخطّفهم الموت بلا رحمة، ولو أن الأجداد لا يزالون على قيد الحياة لما وسعت الأرض أحداً، ولضاقت الأرض عليهم بما رحُبت.

(١) والناس بين سالب ومسلوب، ولكل منهما فرصته على هذه الأرض، فهو سالب تارة ومسلوب أخرى، فهو يترك كلّ شيء والألم يعتصر قلبه.

(٢) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ١ :١٠٨. الشعوب: من أسماء المنيَّة. فكرة الخلود البشري تُفقد بني الإنسان فكرة النضال في هذا الوجود؛ فالجبان لا يخاف الشجاع، والبخيل لا يخاف فقراً، والمريض لا يفكر بالموت، سواء جزع أم تشجّع لعلمه بالنتائج مسبقاً ممّا يضعف فيه الدوافع الضرورية لقيام الحياة واستمرارها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. لا يستقيم وفاء الدنيا لامرئ منذ كان الوجود حتى قيام الساعة؛ فحتى من ألمّت به الشيخوخة وخضّبت شعره بالمشيب فلا بدّ له من الرحيل.

(٤) النجار: الأصيل، الجليب: المجلوب، ولو استقام أمر البقاء على قيد الحياة لكان يماك مولى سيف الدولة التركي حيًّا، فقد ترك موته في نفس الشاعر ألماً وحزناً.

(٥) النجيب: الذكي، الألمعي. يرى الشاعر أن البياض لا يعني الذكاء وحِدّة من كان أبيض ضيق الجفن؛ فإن كان يماك تركياً فليس ذلك يعني أن الأتراك على شاكلته حِدّة ذكاء ونبوغ، فهو نادر فيهم ومن هنا حبّه له.

لَـئِـنْ ظَـهَـرَتْ فِـيـنَـا عَـلَـيْـهِ كَـآبَـةٌ
لَـقَـدْ ظَـهَـرَتْ فِـي حَـدِّ كُـلِّ قَـضِـيـبِ [١]

وَفِـي كُـلِّ قَـوْسٍ كُـلَّ يَـوْمِ تَـنَـاضُـلٍ
وَفِـي كُـلِّ طِـرْفٍ كُـلَّ يَـوْمِ رُكُـوبِ [٢]

يَـعِـزُّ عَـلَـيْـهِ أَنْ يُـخِـلَّ بِـعَـادَةٍ
وَتَـدْعُـو لِأَمْـرٍ وَهْـوَ غَـيْـرُ مُـجِـيـبِ [٣]

وَكُـنْـتُ إذا أَبْـصَـرْتُـهُ لَـكَ قَـائِـمـاً
نَـظَـرْتُ إِلَـى ذِي لِـبْـدَتَـيْـنِ أَدِيـبِ [٤]

فَـإِنْ يَـكُـنِ الْـعِـلْـقَ الـنَّـفِـيـسَ فَـقَـدْتَـهُ
فَـمِـنْ كَـفِّ مِـتْـلَافٍ أَغَـرَّ وَهُـوبِ [٥]

كَـأَنَّ الـرَّدَى عَـادٍ عَـلَـى كُـلِّ مَـاجِـدٍ
إِذَا لَـمْ يُـعَـوِّذْ مَـجْـدَهُ بِـعُـيُـوبِ [٦]

---

(١) القضيب: البتّار من السيوف. الكآبة: الحزن. لقد سبب موت يماك لنا ألماً وحزناً؛ وذلك أنه كان في ميادين القتال سيفاً قاطعاً لدابر الأعداء.

(٢) التناضل: القتال. الطرف: الجواد الأصيل. ويماك فارس مغوار لا يُشقّ غباره، فهو يحسن الرمي في المعركة، ويعتلي ظهور الخيل في سائر الأيام ومن هنا كانت الحاجة إليه.

(٣) ومن طبيعة يماك الإسراع إلى تلبية أمر سيّده بلا تردّد، وتلك عادته الطاعة العمياء وقت الملمات.

(٤) ذو اللبدتين: الأسد. ومن صفات يماك أنه كالأسد لدى قيامه بواجبه أمام سيّده، وهو أيضاً يُحسن القيام بضروب العلوم وفنون الأدب.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. العِلق: النفيس الثمين من كلّ شيء. المتلاف: الكريم. الأغرّ: الشريف. الوهوب: المعطاء. إن يماك نادر المثيل نفيس، ولقد كان فقده بمثابة ضياع كريم شريف النفس لا يبخل بشيء لشدّة ملكة الكرم لديه.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. الردى: الموت. الماجد: الموفق. يعوّذ: يعلّق تعويذة في رقبته لحمايته من عيون الحاسدين. يخاطب الشاعر سيف الدولة، فهو الشريف الماجد من تعرّض إلى نكبة قاصمة، لم يتّخذ حذره من =

وَلَـوْلَا أَيَـادِي الـدَّهْـرِ فِي الْـجَـمْـعِ بَـيْـنَـنَـا
غَـفَـلْـنَـا فَـلَـمْ نَـشْـعُـرْ لَـهُ بِـذُنُـوبِ (١)

وَلَـلـتَّـرْكُ لِـلْإِحْـسَـانِ خَـيْـرٌ لِـمُـحْـسِـنٍ
إِذا جَـعَـلَ الْإِحْـسَـانَ غَـيْـرَ رَبِـيـبِ (٢)

وَإِنَّ الَّـذِي أَمْـسَـتْ نِـزَارٌ عَـبِـيـدَهُ
غَـنِـيٌّ عَـنِ ٱسْـتِـعْـبَـادِهِ لِـغَـرِيـبِ (٣)

كَـفَـى بِـصَـفَـاءِ الْـوُدِّ رِقًّـا لِـمِـثْـلِـهِ
وَبِـالْـقُـرْبِ مِـنْـهُ مَـفْـخَـراً لِـلَـبِـيـبِ (٤)

فَـعُـوِّضَ سَـيْـفُ الـدَّوْلَـةِ الْأَجْـرَ إِنَّـهُ
أَجَـلُّ مُـثَـابٍ مِـنْ أَجَـلِّ مُـثِـيـبِ (٥)

فَـتَـى الْـخَـيْـلِ قَـدْ بَـلَّ الـنَّـجِـيـعُ نُـحُـورَهَـا
يُـطَـاعِـنُ فِـي ضَـنْـكِ الـمُـقَـامِ عَـصِـيـبِ (٦)

= ريب الدهر باتخاذه تعويذة تحميه من مكائد الزمن، ولذا تمكن منه الدهر فخطف منه أحبّ ما يملك من الجند.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. يقصد الشاعر بأيادي الدهر: حسناته، لا يستقيم حال الدهر على سمت واحد؛ فهو تارة يُسيء للمرء وتارة أخرى يُحسن معه الصنيع؛ فمن حسناته أنه جمع بيننا.

(٢) الربيب: التام. ومن حسن صنيع الدهر أن يجعل إحسانه تاماً غير منقوص وإلّا فهو قد كدّره بالإساءة في حال كونه ناقصاً.

(٣) شرع الشاعر يمدح سيف الدولة إنه ملك العرب من نزار، فهو حاميهم وراعيهم يشملهم بكرمه وإحسانه، وهم يأتمرون بأمره؛ فهو لا يحتاج إلى عبيد غرباء لا يرتبط بهم برباط الدم والولاء.

(٤) و (٥) الودّ: الحب والعطف. الرقّ: العبودية، اللبيب: العاقل، الفطن. إن ما يجمع سيف الدولة بالعرب صفاء الودّ والمحبّة الصادقة، وتلك سلاسل من حرير تقيّد الملك ورعيته بالحبّ والولاء والتقرّب من القائم بأمور الرعية فخر لا يخفى على أريب حصيف. ومن دواعي سرور الشاعر أن اللّٰه تعالى عوّضه بخير الجزاء وذلك بقربه إلى جانب ذلك الرجل العظيم.

(٦) النجيع: الدم. الضنك: الضيق. العصيب: الشديد، ومن صفات سيف الدولة أنه من =

يَـعَــافُ خِـيَــامَ الـرَّيْــطِ فِــي غَـزَوَاتِــهِ
فَـمَــا خَـيْـمُــهُ إِلَّا غُـبَــارُ حُـرُوبِ (١)

عَـلَـيْـنَـا لَـكَ الإِسْـعَـادُ إِنْ كَـانَ نَـافِـعـاً
بِـشَــقِّ قُـلُــوبٍ لَا بِـشَــقِّ جُـيُــوبِ (٢)

فَـرُبَّ كَـئـيـبٍ لَـيـسَ تَـنْـدَى جُـفُـونُـهُ
وَرُبَّ نَـدِيِّ الـجَـفْـنِ غَـيْـرُ كَـئِـيـبِ (٣)

تَـسَــلَّ بِـفِـكْـرٍ فِـي أَبَـيـكَ فَـإِنَّـمَـا
بَـكَـيْـتَ فَـكَـانَ الـضِّـحْـكُ بَـعْـدَ قَـرِيـبِ (٤)

إِذَا اسْـتَـقْـبَـلَـتْ نَـفْـسُ الْـكَـرِيـم مُـصَـابَـهَـا
بِـخُـبـثٍ ثَـنَـتْ فَـاسْـتَـدْبَـرَتْـهُ بِـطِـيـبِ (٥)

= الخيل، فارس شجاع يجول ويصول في ميادين القتال، فيسفك دماء الأعداء، ويقطع رقابهم ويعمل فيهم رمحه وقد اشتدّ عليه الزحام وتكاثرت عليه الأبطال يصرعون تحت ضرباته الساحقة.

(١) يعاف: يأنف، يكره. الريط؛ الواحدة ريطة: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين. ومن طبع سيف الدولة أنه يكره الاستسلام للدعة وراحة البال، بل إنه يأنس إلى المعالي وخوض الحروب، حيث يشق الغبار عنان سماء المعركة.

(٢) الإسعاد: المساعدة. الجيوب، الواحدة جيب: وجيب القميص هو ما ينفتح منه على النحر. يخاطب الشاعر سيف الدولة بأن من واجبه المشاركة بالمصاب، فإن كان ذلك يجدي نفعاً، فلا بدّ له من شقّ القلوب لا من شقّ الجيوب.

(٣) الكئيب: الحزين. تندى: تتبلّل بالدمع. ليس البكاء دالّاً على الحزن كما أن البكاء لا ينمّ عن حزن؛ فالحزن في القلوب وإن أصحابها عصيّون على الدمع.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ٣١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. يدعو الشاعر سيف الدولة لكي يتقبّل ما نزل بساحته من مصاب أليم إلى أن يتذكر أبويه وما حلّ بهما كحال سائر البشر من موت، فبكى لفراقهما وسرعان ما نسي وعاد إلى حياته الطبيعية، فإذا بالسرور يعمّ دياره.

(٥) الخبث: الخوف. ثنت: عادت. استدبرته: أعادته. والكريم من طبعه أن يستقبل المصائب برحابة صدر، فما من شيء يدوم على حال، والأحوال دول؛ فالمصائب تعقبها مسرات، والعكس صحيح.

وَلِـلْـوَاجِـدِ الـمَـكْـرُوبِ مِـنْ زَفَـرَاتِـهِ
سُـكُـونُ عَـزَاءٍ أَوْ سُـكُـونُ لُـغُـوبِ(١)
وَكَـمْ لَـكَ جَـدًّا لَـمْ تَـرَ الْـعَـيْـنُ وَجْـهَـهُ
فَـلَـمْ تَـجْـرِ فِـي آثَـارِهِ بِـغُـرُوبِ(٢)
فَـدَتْـكَ نُـفُـوسُ الْـحَـاسِـدِيـنَ فَـإِنَّـهَـا
مُـعَـذَّبَـةٌ فِـي حَـضْـرَةٍ وَمَـغِـيـبِ(٣)
وَفِي تَـعَـبٍ مَـنْ يَـحْـسُـدُ الـشَّـمْـسَ نُـورَهَـا
وَيَـجْـهَـدُ أَنْ يَـأْتِـي لَـهَـا بِـضَـرِيـبِ(٤)

حب الشجاع الحرب أورده الحرب

يمدحه ويذكر بناء مرعش سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م):

[الطويل]

فَـدَيْـنَـاكَ مِـنْ رَبْـعٍ وَإِنْ زِدْتَـنَـا كَـرْبَـا
فَـإِنَّـكَ كُـنْـتَ الـشَّـرْقَ لِـلـشَّـمْـسِ والْـغَـرْبَـا(٥)

---

(١) الواجد: الحزين. المكروب: الحزين. اللغوب: الإعياء. ومن طبيعة الأحداث أن يستريح الحزين إلى هدوء البال طوعاً أو كرهاً لما ينزل به من إعياء نتيجة شدّة حزنه على من فقد.

(٢) الغروب، الواحد غرب: الدموع. وكثير من الأجداد قد رحلوا عن هذا الوجود، ولم يعرف سيف الدولة وجوههم أو ير صورهم ولم يبكهم، فليتأسّ بهم وهم من أرومته، ويماك غريب وإن عرفه سيف الدولة وشاهد ملكاته.

(٣) ومن طبيعة الأحداث أن يدعو الشاعر على حاسدي ممدوحه ليكونوا فداءً له، ولينعموا بعذابهم وقد نهشت الغيرة والحسد قلوبهم.

(٤) الضريب: المثيل، الشبيه. والممدوح شمس، تنشر الدفء والضياء والأمن، فإذا بنورها يشمل الكون كله بإشعاعها، ومهما حاول هؤلاء العثور على شبيه للممدوح فلن يعثروا عليه، شأنه في ذلك شأن الشمس.

(٥) ورد شطر البيت الأول في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٨٥. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع تقليدي، شأنه في ذلك شأن الشعراء الجاهليين. الربع: المنزل. الكرب: الحزن. يخاطب الشاعر الديار وقد رحل عنها ساكنوها، فخيّم عليها الحزن =

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا
فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبَّا[١]

نَزَلْنَا عَنِ الأكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً
لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا[٢]

نَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ
وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتْبَا[٣]

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلاً تَقَلَّبَتْ
عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كِذْبَا[٤]

وَكَيْفَ الْتِذَاذِي بِالأَصَائِلِ وَالضُّحَى
إِذَا لَمْ يَعُدْ ذَاكَ النَّسِيمُ الَّذِي هَبَّا[٥]

= وغزتها الظلمة التي كانت تنداح بإطلالة وجه الحبيبة، فيعمّ النور المكان، ويتوالى على المكان ليل ونهار بوجود من يحبّ.

(١) الفؤاد: القلب. يستغرب الشاعر من حاله كيف أن تعرّف إلى معالم المكان، رغم أن حبيبته قد استحوذت على قلبه وعقله. ومن دونهما لا يستطيع امرؤ معرفة أيّ شيء.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. الأكوار، الواحد كور: رحل البعير. نلمّ: ننزل. بان: رحل. ما إن عرّج الركب حتى ترجّل جمعهم عن رواحلهم إكراماً لذكرى حبيب ترك الربع خاوياً إلى حيث تحطّ به الأقدار.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. الغرّ: البيضاء. لقد استحالت طبيعة الربع بفعل العوامل الطبيعية، فالأمطار فعلت فعلها، فما عادت الأمطار سبب الحياة، فإذا بها تمحو رسوم تلك الديار فاستحقت الذمّ لذلك، ومن عتب الشاعر الإعراض عنها؛ فقد أصبحت غريبة فاقدة لهويتها.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. في هذا البيت رائحة تشاؤم وعتاب؛ فالدنيا لا يستقيم أمرها على حال، بل إنها لعوب بخواطر البشر تتقلّب كيفما اتّفق، فإذا بالصدق يبدو كذباً، فترى العين خلاف الواقع.

(٥) الأصائل، الواحد أصيل: وقت ما بين العصر والمغرب. لقد كان للأصائل طعم وريح خاص يوم كانت الحبيبة في تلك الديار تنشر عبق الحب صباح مساء ويتنفّس الشاعر بهجة الفتوّة والشباب في غفلة عن مسؤوليات الحياة الملحّة.

ذَكَـرْتُ بِـهِ وَصْـلاً كَـأنْ لَـمْ أَفُـزْ بِـهِ
وَعَـيْـشـاً كـأنِّـي كُـنْـتُ أَقْـطَـعُـهُ وَثْـبَـا[1]

وَفَـتَّـانَـةَ الْـعَـيْـنَـيْـنِ قـتَّـالَـةَ الْـهَـوَى
إِذَا نَـفَـحَـتْ شَـيْـخـاً رَوَائِـحُـهَـا شَـبَّـا[2]

لَـهَـا بَـشَـرُ الـدُّرِّ الَّـذِي قُـلِّـدَتْ بِـهِ
وَلَـمْ أَرَ بَـدْراً قَـبْـلَـهَـا قُـلِّـدَ الـشُّـهْـبَـا[3]

فَـيَـا شَـوْقُ مَـا أَبْـقَـى وَيَـا لِـي مِـنَ الـنَّـوَى
وَيَـا دَمـعُ مَـا أَجْـرَى وَيَـا قَـلْـبُ مَـا أَصْـبَـى[4]

لَـقَـدْ لَـعِـبَ الـبَـيْـنُ الـمُـشِـتُّ بِـهَـا وَبِـي
وَزَوَّدَنِـي فِـي الـسَّـيْـرِ مَـا زَوَّدَ الـضَّـبَّـا[5]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. ويروى «نهبا» بدلاً من «وثبا». ومن طبيعة المسرّات أنها تمضي سِراعاً كالبرق الخاطف تلك هي حال الشاعر كانت في تلك الأطلال؛ فإذا بالعيش كغمضة عين.

(٢) نفحت: نشرت الطيب. لقد فتن الشاعر بذات عينين ناعستين جميلتين تصطاد بهما من ودّت إيقاعه في شركها حتى الشيخ تنفخ فيه قوّة الشباب وعزم الفتوّة.

(٣) البشر: ظاهر الجلد، الدرّ: اللؤلؤ. الشهب، الواحد شهاب: النجوم. يصف الشاعر حبيبته، فهي رقيقة الجلد يكاد الذرّ يجرحه لرقّته، وهي بدر يشرق في ليالي ظلمة الحياة فيضيء الكون بفيض من نور جميل ساحر.

(٤) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٠٨، ٢١٩، شرح شواهد شروح الألفية، للعيني ٤: ٢٦٦، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٣: ١٦٣. النوى: البعد. صبا: مال. ويروى «بالي» بالباء بدلاً من «يالي» بالياء. يتألم الشاعر لما حلّ به، فقد أودى فراق حبيبته بأشواقه وأحلامه وخلّف وراءه دموعاً وقلباً حملت أمانيه حبيبته معها فبات يهيم حيثما حلّت.

(٥) البين: الهجر، الفراق. المشتّ: المبعد. الضب: ضرب من الحيوانات الزاحفة. ومن سخرية الأقدار أن الفراق يلعب لعبة الضياع فلا يستهدي الشاعر إلى طريق السلامة فالتبست عليه الطرق المؤدّية إلى منجاته في حيرة الضياع.

وَمَــنْ تَــكُــنِ الأُسْــدُ الــضَّــوَارِي جُــدُودَهُ
يَــكُــنْ لَــيْــلُــهُ صُــبْــحــاً وَمَــطْــعَــمُــهُ غَــصْــبَــا [(١)]

وَلَــسْــتُ أُبَــالِــي بَــعْــدَ إِدْرَاكِــي الْــعُــلَــى
أَكَــانَ تُــرَاثــاً مَــا تَــنَــاوَلْــتُ أَمْ كَــسْــبَــا [(٢)]

فَــرُبَّ غُــلَامٍ عَــلَّــمَ الْــمَــجْــدَ نَــفْــسَــهُ
كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا [(٣)]

إِذَا الــدَّوْلَــةُ ٱسْــتَــكْــفَــتْ بِــهِ فِــي مُــلِــمَّــةٍ
كَفَاهَا فَكَانَ السَّيْفَ وَالْكَفَّ وَالْقَلْبَا [(٤)]

تُــهَــابُ سُــيُــوفُ الْــهِــنْــدِ وَهْــيَ حَــدَائِــدٌ
فَــكَــيْــفَ إِذَا كَــانَــتْ نِــزَارِيَّــةً عُــرْبَــا [(٥)]

وَيُــرْهَــبُ نَــابُ الــلَّــيْــثِ وَالــلَّــيْــثُ وَحْــدَهُ
فَــكَــيْــفَ إِذَا كَــانَ الــلُّــيُــوثُ لَــهُ صَــحْــبَــا [(٦)]

---

(١) و (٢) ينطق الشاعر بلسان حاله؛ فالوراثة قانون لا يحيد في الحياة، فالولد سرّ أبيه، والشبل من ذاك الأسد. إنه ينتمي إلى ضواري الأسود، تربّى بعرين يصعب الوصول إليه لمنعته، ولقد تعوّد على الصيد يأخذ كلّ شيء غصباً، وليله كنهاره كفاح ونجاح. لذا فهو لا يهتمّ سواءٌ أكان إدراكه المعالي من جناه أم من أجداده.

(٣) و (٤) يتخلص الشاعر إلى مدح سيف الدولة من خلال الإشادة بما حقّقه بجهده لنفسه من سمو ورفعة، ففعله شبيه بفعل ممدوحه البارع في فنون القتال ضرباً وطعناً وهو مرجع الأمة في الملمات وصعاب الأمور يأخذ بيدها إلى برّ الأمن والأمان، بفضل ما يتمتّع به من ملكات نادرة؛ إنه السيف البتّار والقلب القوي على أعدائه الرحيم على رعيته بما يهبها من عطاء يمينه وكرم نفسه.

(٥) و (٦) ومن حسن التفاتة الشاعر أن سيوف الهند المصنوعة من حديد لا تعمل إلا بفضل حامليها وقوتهم، وسيف الدولة عربي ينتمي إلى نزار تلك القبيلة العريقة بفنون القتال، فلذا لا بدّ أن يثير في نفوس أعدائه الخوف قبل منازلته في ميدان المعركة، وهو السيف القاطع ينبري لهم منفرداً، والطامة الكبرى إذا صحب الأسد الضاري أسوداً من بني قومه.

وَيُخْشَى عُبَابُ الْبَحْرِ وَهْوَ مَكَانُهُ
فَكَيْفَ بِمَنْ يَغْشَى الْبِلَادَ إِذَا عَبَّا (١)

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى
لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتْبَا (٢)

فَبُورِكْتَ مِنْ غَيْثٍ كَأَنَّ جُلُودَنَا
بِهِ تُنْبِتُ الدِّيبَاجَ وَالْوَشْيَ وَالعَصْبَا (٣)

وَمِنْ وَاهِبٍ جَزْلاً وَمِنْ زَاجِرٍ هَلا
وَمِنْ هَاتِكٍ دِرْعاً وَمِنْ نَاثِرٍ قُصْبَا (٤)

هَنِيئاً لِأَهْلِ الثَّغْرِ رَأْيُكَ فِيهِم
وَأَنَّكَ حِزْبَ اللَّهِ صِرْتَ لَهُمْ حِزْبَا (٥)

---

(١) عباب البحر: موجه المتلاطم. يغشى: يغطي بشموله. عبّ: امتلأ. الممدوح بحر متلاطم زاخر جبّار في حال غضبه؛ الكل يقف أمامه عاجزاً مشلول الإرادة، وهو في حال هدوئه كريم يعمّ فضله. ونواله يشمل بلاداً شاسعة بفيض كرمه.

(٢) وللمرّة الأولى يُمدح ممدوح بمعرفته بأسرار الديانات، وإجادة في اللغات؛ فهو يتكلّم بها في طلاقة وسلاسة، فضلاً عن تفتح ذهنه بلمحات تنمّ عن ذكاء حادّ تحيّر العلماء من الناس، والغريب أن تلك الخطرات لم يرد ذكرها في الكتب.

(٣) الغيث: المطر. الديباج: فارسي معرّب، ضرب من الأردية. الوشي: ثوب مزركش لكثرة الألوان فيه، العصْب: من أردية اليمن. يدعو الشاعر لممدوحه بالبركات؛ وذلك لأنه يُسبغ على رعيته ومنهم الشاعر شتى أنواع الأثواب، فكأن جلودهم نبتت بما يسترهم من كرمه.

(٤) الجزل: الكثير. الزجر: المنع والنهي. هلا: من أسماء الصوت. القصب: المعي. يتابع الشاعر مدح سيف الدولة، فهو كريم يهب الكثير ولا يخشى فقراً، فهو يحصّل ما يوزّعه من مال بفضل حروبه المظفّرة، فهو يصول ويجول بخيله ديار الأعداء ويمزّق دروع الأبطال فينثرهم معفّرين بتراب الأرض وقد تمزّقت امعاؤهم.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٢٣. الثغر: هو البلد المجاور لبلاد أعداء المسلمين. من حسن حظ سكّان ذلك الثغر أن سيف الدولة اضطلع بمهام الدفاع عنهم، إنه من حزب اللّه تعالى المنصور وهم به يجتمعون ويقوون على أعدائهم.

وَأَنَّكَ رُعْتَ الدَّهْرَ فِيهَا وَرَيْبَهُ
فَإِنْ شَكَّ فَلْيُحْدِثْ بِسَاحَتِهَا خَطْبَا(١)

فَيَوْماً بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمُ
وَيَوْماً بِجُودٍ يَطْرُدُ الْفَقْرَ وَالْجَدْبَا(٢)

سَرَايَاكَ تَتْرَى وَالدُّمُسْتُقُ هَارِبٌ
وَأَصْحَابُهُ قَتْلَى وَأَمْوَالُهُ نُهْبَى(٣)

أَتَى مَرْعَشاً يَسْتَقْرِبُ الْبُعْدَ مُقْبِلاً
وأَدْبَرَ إِذْ أَقْبَلْتَ يَسْتَبْعِدُ الْقُرْبَا(٤)

كَذَا يَتْرُكُ الأَعْدَاءَ مَنْ يَكْرَهُ الْقَنَا
وَيَقْفُلُ مَنْ كَانَتْ غَنِيمَتُهُ رُعْبَا(٥)

وَهَلْ رَدَّ عَنْهُ بِاللُّقَانِ وُقُوفُهُ
صُدُورَ الْعَوَالِي وَالْمُطَهَّمَةَ الْقُبَّا(٦)

---

(١) رعت: أرعبت. ريب الدهر: حدثانه ومصائبه. الخطب: المصيبة. ومن مبالغات الشاعر أن سيف الدولة أرعب الدهر فخاف ولم يسعَ لإنزال الخسف في أهل ذلك الثغر، فإذا بهم ينعمون بالأمن والسلام في ظلّ سيف الدولة حاميهم.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٢٣. الجدب: القحط. أيام سيف الدولة تتلخص بيومين، نراه يوماً محارباً للروم ينزل بهم الخسف ويطردهم من الثغر بجيشه ويوماً آخر يعمل على إصلاح حال أهل الثغر، فيطرد عنهم شبح الفقر برفده وعطائه.

(٣) و (٤) السرايا، واحدتها سرية: صفوة الجيش من فرقه. تترى: متتالية. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بما هو عليه من إنجازات؛ فسراياه تتوالى إلى ذلك الثغر وتتوالى الانتصارات، وفي مقابل ذلك فرار قائد الروم الدمستق مؤثراً السلامة مخلفاً وراءه جيشاً مهزوماً تتناوشه أسلحة جند سيف الدولة، وتنتهب أمواله؛ ولقد حمله جشعه على المغامرة ومهاجمة مرعش تلك المدينة التي رفع أركانها سيف الدولة. ولكن خابت مساعيه حالما سمع بقدوم جيش عظيم على رأسه سيف الدولة حتى ولّى هارباً مرعوباً.

(٥) يقفل: يرجع، تلك هي حال الجبناء الذين يكرهون اللقاء في ميادين الجِلاد، وينقصون على أعقابهم يجرّون وراءهم غنيمة بخس مغلّفة بالرعب وبطائنها الجبن.

(٦) اللقان: أحد ثغور بلاد الروم آنذاك «الأناضول» اليوم. العوالي: الرماح. الخيل =

مَـضَـى بَـعْـدَ مَـا الْـتَـفَّ الـرِّمَـاحَـانِ سـاعَـةً
كَـمَـا يَـتَـلَـقَّـى الْـهُـدْبُ فِـي الـرَّقْـدَةِ الْـهُـدْبَـا(١)

وَلٰـكِـنَّـهُ وَلَّـى وَلِـلـطَّـعْـنِ سَـوْرَةٌ
إِذَا ذَكَـرَتْـهَـا نَـفْـسُـهُ لَـمَـسَ الْـجَـنْـبَـا(٢)

وَخَـلَّـى الْـعَـذَارَى وَالْـبَـطَـارِيـقَ وَالْـقُـرَى
وَشُـعْـثَ الـنَّـصَـارَى وَالْـقَـرَابِـيـنَ وَالـصُّـلْـبَـا(٣)

أَرَى كُـلَّـنَـا يَـبْـغِـي الْـحَـيَـاةَ لِـنَـفْـسِـهِ
حَـرِيـصـاً عَـلَـيْـهَـا مُـسْـتَـهَـامـاً بِـهَـا صَـبَّـا(٤)

فَـحُـبُّ ٱلْـجَـبَـانِ الـنـفـسَ أَوْرَدَهُ الـبـقَـا
وَحُـبُّ الـشُّـجَـاعِ الـحَـرْبَ أَوْرَدَهُ الْـحَـرْبَـا(٥)

= المطهمة: التامة الخلق. القبّ من الخيل: الضامرة. ومن سوء حظّ الدمستق أنه نزل في اللقان يستعدّ للحرب، ولسوء طالعه فلم تغن عنه أسلحة جيشه وحالما علم بجيوش النصر قادمة توارى عن الأنظار.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. الهدب: أشفار العين. سرعان ما فرّ الدمستق من جحيم الموت وقد استمرّت المناوشات بين الفريقين ساعة كأنها إغماضة عين حالمة، فإذا بالنائم يهبّ مرتعشاً خائفاً من رقدته.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. السورة: الحدّة. لقد ولى الدمستق هارباً وتاركاً جيشه لمصيره البئيس والمعركة في أوج اشتدادها، ومن شدّة تأثره بما شاهد راح يتحسس جنبيه والوهم يُوحي إليه أنه مصاب بطعنة رمح ليتأكّد بأنه لا يزال على قيد الحياة.

(٣) تخلّى عن مسؤوليته؛ فالعذارى سبايا والبطارقة صرعى أو أسرى والرهبان أذلّة، جاءوا يستنهضون الهمم فإذا بهم يلاقون سوء المصير، فلم تنفعهم قرابينهم وصلبانهم ولم تحمهم من الذلّ الذي حلّ بهم.

(٤) و (٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. ويروى «التقى» بدلاً من «البقا» ويروى «النفس» بدلاً من «الحرب». المستهام: العاشق. طبع البشر على حبّ الحياة والبقاء يدفعهم عشق للذائذها؛ فالجبان يحتمي بالذل قانعاً بخنوعه، فلا يُقدم على المغامرة والقتال، والشجاع يحرص على البقاء فيُقاتل دِفاعاً عن نفسه وحماية لها من الطامعين وردعاً لكل من تسوّل له نفسه الانقضاض عليها.

وَيَــخْــتَــلِــفُ الــرِّزْقَــانِ وَالْــفِــعْــلُ وَاحِــدٌ
إِلَــى أَنْ يُــرَى إِحْــسَــانُ هٰــذَا لِــذَا ذَنْــبَــا[١]

فَــأَضْــحَــتْ كَــأَنَّ الــسُّــورَ مِــنْ فَــوْقِ بَــدْئِــهِ
إِلَى الأَرْضِ قَدْ شَقَّ الْكَواكِبَ والتُّرْبَا[٢]

تَــصُــدُّ الــرِّيَــاحُ الْــهُــوجُ عَــنْــهَــا مَــخَــافَــةً
وَتَــفْــزَعُ مِــنْــهَــا الــطَّــيْــرُ أَن تَــلْــقُــطَ الْــحَــبَّــا[٣]

وَتَــرْدِي ٱلْــجِــيَــادُ الْــجُــرْدُ فَــوْقَ جِــبَــالِــهَــا
وَقَــدْ نَــدَفَ الــصِّــنَّــبْــرُ فِــي طُــرْقِــهَــا الْــعُــطْــبَــا[٤]

كَــفَــى عَــجَــبــاً أَنْ يَــعْــجَــبَ الــنَّــاسُ أَنَّــهُ
بَــنَــى مَــرْعَــشــاً تَــبًّــا لِآرَائِــهِــمْ تَــبَّــا[٥]

وَمَــا الْــفَــرْقُ مَــا بَــيْــنَ الْأَنَــام وَبَــيْــنَــهُ
إِذَا حَذِرَ الْمَحْذُورَ وَٱسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. ومن طبيعة الوجود أن البشر يعملون بجدّ على النجاح في هذه الحياة، فيُوفق أحدهما، وهذا من حسن سعده، ويفشل الآخر بنفس العمل، فيكون خسراناً لنفسه وحزناً، فيكون ذلك من سعادة الأول وتعاسة الآخر.

(٢) و (٣) يصف الشاعر أسوار مدينة، فقد استطالت حتى بدت كأنها معلّقة بأكناف السماء وتدلّت فاتّسقت مع الأرض، ممَّا يوحي بمباركة السماء للأرض، فكانت هبة سمائية اخترقت حُجُب النجوم ورست على الأرض، ولشموخها تقف عائقاً تصدّ الرياح الهوجاء من كلّ نوع، حتى الطيور ترتدّ خائبة، فلا تقدر على التقاط الحبّ فيها إلّا بإرادة بانيها.

(٤) الرديُ: ضرب من عدو الجياد الشديد. الصّنبر: الريح الشديدة البرودة فيها غيم ومطر، العطب: القطن، العِهْد. يصوّر الشاعر البلدة وقد تكلّلت بالثلوج، فإذا بجياد سيف الدولة تخترق المفاوز والطرق الوعرة بسرعة وقوة فتتناثر الثلوج مندوفة.

(٥) و (٦) ولعظمة ذلك البناء الشامخ يعجب الناس ممّن بنى ذلك الصرح العظيم، لضعف هممهم يقيسون هذا العمل على أنه من خوارق العادات؛ وهذا هو الفرق بين سيف الدولة وهمم الآخرين، فهو لا يسمح للمستحيل أن يحول بينه وبين ما يريد، ولو عجز عنه الآخرون.

لِأَمْرٍ أَعَدَّتْهُ الْخِلَافَةُ لِلْعِدَى
وَسَمَّتْهُ دُونَ الْعَالَمِ الصَّارِمَ الْعَضْبَا (١)
وَلَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهُ الْأَسِنَّةُ رَحْمَةً
وَلَمْ يَتْرُكِ الشَّأمَ الْأَعَادِي لَهُ حُبَّا (٢)
وَلٰكِنْ نَفَاهَا عَنْهُ غَيْرَ كَرِيمَةٍ
كَرِيمُ الثَّنَا مَا سُبَّ قَطُّ وَلَا سَبَّا (٣)
وَجَيْشٌ يُثَنِّي كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ
خَرِيقُ رِياحٍ وَاجَهَتْ غُصناً رَطْبَا (٤)
كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ
فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجْبَا (٥)
فَمَنْ كَانَ يُرضي اللُّؤْمَ وَالْكُفْرَ مُلْكُهُ
فَهٰذَا الَّذِي يُرْضِي الْمَكَارِمَ وَالرَّبَّا (٦)

---

(١) الصارم العضب: السيف البتّار. لقد اعتمدت الخلافة العباسية سيف الدولة من حماتها وأعطته هذا اللقب لملاءمة المسمى الاسم.

(٢)و (٣)وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٠. لقد انزاح أعداء سيف الدولة مرغمين عنه وعن بلاد الشام لا حبًّا به بل خوفاً منه ومن جيشه الذي دوّخهم فعادوا مهزومين والعار يُكلِّل جباههم، وإنه كريم السجايا لم يجرؤ أحد على سبّه وسبّ آبائه، وهو بدوره لا يشتم أحداً ترفّعاً وكرامة.

(٤) الطود: الجبل الصعب المرتقى لعلوّه. الخريق من الرياح: العاصفة الشديدة الهبوب. يذكر الشاعر جيش سيف الدولة، فهو يتخطى الجبال الشديدة المرتقى الشاهقة، فيشقها شقين كأنه الرياح العاتية بمواجهة الأغصان الرطبة فتسحقها وتقضي عليها.

(٥) المغار: الإغارة. العجاج: الغبار. ومن المغالاة أن النجوم الدراري تختفي مخافة ثورة غضبه ومفاجأة إغارته، لذا احتجبت بإثارة الغبار حتى لا تبدو لعيان جند جيشه.

(٦) يعرّض الشاعر بمن يقبل الذلّ من الملوك ويستسلم للؤم والكفر، فسيف الدولة ليس من هذا القبيل إنه يسعى لرضى ربّه تعالى يحدوه في ذلك مكارم أخلاقه وحلو سجاياه.

التوبة تمحو الذنوب

قال في ما كان يجري بينهما من معاتبة مستعتباً من القصيدة الميمية :

[الطويل]

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ عَاتِبَا
فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُّيوفِ مَضَارِبَا[١]

وَمَا لِي إِذَا مَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَهُ
تَنَائِفَ لَا أَشْتَاقُهَا وَسَبَاسِبَا[٢]

وَقَدْ كَانَ يُدْنِي مَجْلِسِي مِنْ سَمَائِهِ
أُحَادِثُ فِيهَا بَدْرَهَا وَالْكَوَاكِبَا[٣]

حَنَانَيْكَ مَسْؤُولاً وَلَبَّيْكَ دَاعِياً
وَحَسْبِيَ مَوْهُوباً وَحَسْبُكَ وَاهِبَا[٤]

---

(١) الورى: الناس. يستغرب الشاعر أن سيف الدولة عاتب عليه، وهو لم يرتكب ما يوجب عتباً وملامة، لذا يدعو له بالسلامة والمعافاة من كلّ بلاء فالبشر فداه جميعاً لأنه أمضى السيوف وأشدّها مضاءً.

(٢) التنائف، الواحدة تنوفة: المفازات. السباسب، الواحدة سبسب: الفلوات القفراء الموحشة. الجفاء حالة نفسية موحشة، فالشاعر يأسف ويُحسّ بوحشة لتجافي سيف الدولة عنه، وفي حال شوقه يرى أن هوّة شاسعة تفصله عنه دونهما فلوات قفراء موحشة شاسعة.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢ : ٣٢٣. يصف الشاعر علو مكانته في مجلس سيف الدولة، فالمجلس كالسماء حيث تحيط بممدوحه نجوم ذلك العصر من علماء وشعراء ومغنين وفلاسفة، وهو في وسطهم كالقلادة يتبادل معهم حلو الحديث حيث يسود الودّ والاحترام والحبّ.

(٤) يتودّد الشاعر لسيف الدولة طالباً منه أن يُسبغ عليه حناناً من لدنه وهو على استعداد ليبادله المسارعة إلى الإجابة لما يُحب ويرضى، فثمّة رابط يربطهما الودّ والمصلحة؛ فسيف الدولة يَفيض عطاؤه على الشاعر وهذا ما يجعله يختص بممدوحه، والشاعر بدوره يُشيد بإنجازات ممدوحه العظيمة.

أَهٰـذَا جَـزَاءُ الـصِّـدْقِ إِنْ كُـنْـتُ صَـادِقـاً
أَهٰـذَا جَـزَاءُ الْـكِـذْبِ إِنْ كُـنْـتُ كَـاذِبَـا(١)
وَإِنْ كَـانَ ذَنْـبِـي كُـلَّ ذَنْـبٍ فَـإِنَّـهُ
مَـحَـا الـذَّنْـبَ كُـلَّ الـمَـحْـوِ مَـنْ جَـاءَ تَـائِـبَـا(٢)

لا تَشِنه بالنضار

وقال وقد عرض على الأمير سيوف فيه واحد غير مذهب فأمر بإذهابه: [المنسرح]

أَحْـسَـنُ مَـا يُـخْـضَـبُ ٱلْـحَـدِيـدُ بِـهِ
وَخَـاضِـبَـيْـهِ الـنَّـجِـيـعُ وَالْـغَـضَـبُ(٣)
فَـلَا تَـشِـيـنَـنْـهُ بِـالـنُّـضَـارِ فَـمَـا
يَـجْـتَـمِـعُ الـمَـاءُ فِـيـهِ وَالـذَّهَـبُ(٤)

أنت لعلة الدنيا طبيب

قال فيه يعوده من دمل كان به: [الوافر]

أَيَـدْرِي مَـا أَرَابَـكَ مَـنْ يُـرِيـبُ
وَهَـلْ تَـرْقَـى إِلَـى الْـفَـلَـكِ الْـخُـطُـوبُ(٥)

---

(١) و (٢) عتاب الأصدقاء والأحباب يمحو الجفوة بينهم ويعيدهم إلى صافي الودّ والعهد. يسأل الشاعر عن الجزاء الحسن؛ فالصدق جزاؤه نعم الجزاء، عطاءً وتكرمة. وفي حال كذبه فليس هذا الموقف جزاء الكاذبين، والعفو من شيم الكرام وجميل عفو سيف الدولة يعني تقرّباً ومغفرة. ويكفي المرء التوبة والاعتذار عمّا يمكن أن يكون بدر من الشاعر عن غير قصد.

(٣) يخضب: يصبغ بالحنّاء. النجيع: الدم. يرى الشاعر أن السيف أجمل ما فيه أن يصبغ بدماء الأعداء القانية التي يفجّرها الغضب لكرامة صاحبه وشفاءً لغضبه.

(٤) شان: عاب. النضار: الذهب. يطلب الشاعر من سيف الدولة أن يبقي السيف على حاله فالذهب يُفقده حاسّة القتل ويجعله للزينة، وهنا لا قيمة له، لأنه فقد أسباب وجوده، لذلك فمن غير الممكن أن يجتمع الماء سرّ الحياة والذهب لدى من كان يقتله العطش.

(٥) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٢١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: =

وَجِسْمُكَ فَوْقَ هِمَّةِ كُلِّ دَاءٍ
فَقُرْبُ أَقَلِّهَا مِنْهُ عَجِيبُ(١)

يُجَشِّمُكَ الزَّمَانُ هَوًى وَحُبًّا
وَقَدْ يُؤْذَى مِنَ المِقَةِ ٱلْحَبِيبُ(٢)

وَكَيْفَ تُعِلُّكَ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ
وَأَنْتَ لِعِلَّةِ الدُّنْيَا طَبِيبُ(٣)

وَكَيْفَ تَنُوبُكَ الشَّكْوَى بِدَاءٍ
وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ لِمَا يَنُوبُ(٤)

مَلِلْتُ مُقَامَ يَوْمٍ لَيْسَ فِيهِ
طِعَانٌ صَادِقٌ وَدَمٌ صَبِيبُ(٥)

= ١١٢. أرابه: حمله على الشكّ بنيّته وعمله. الخطوب: المصائب والويلات. يخاطب الشاعر سيف الدولة مستفهماً مستعظماً متعجباً من انزعاج ممدوحه ممّا ألمّ به؛ إنه الفلك في عليائه فلا يُغيره إذا ألمّ به ما يُزعجه، فهو حدث عابر لا يُؤثر بهمّة العظيم.

(١) يتابع الشاعر منوّهاً بمناعة جسم ممدوحه، فالأدواء لا تؤثر بعزيمته والغريب أن أقلّ الأمراض أثراً فاجأ سيفاً لا تقوى عليه السيوف فكيف بدمّل لا شأن له؟

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. يجشمك: يلاعبك ويغازلك. المقة: المحبة. إن ما حلّ بك إنما هو حبّ الزمان لك ومغازلة الحبيب لحبيبه، وقد يؤذي الحبّ من ودّه لشدّة حبّه له ولاختباره.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٢. ومن أغرب الأمور أن الأطباء الذين يُسهمون بشفاء النفوس في هذا الوجود يتعرّضون للأدواء؛ فتلك أمثولة الحياة.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. تنوبك: تنزل بك. المستغاث: المستعان. ومن أغرب الأمور أيضاً أن يحلّ بك المرض وألمه وأنت من يُستعان به في الملمات وصعاب الأمور.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. ومن طبع النفوس الملل والتأفّف من حالات الخنوع والاستكانة إلى الدعة، فحياة سيف الدولة القيام بعظائم الأمور والمصاولة والمجاولة في ميادين القتال، حيث تُهدر دماء الأعداء ثمناً للمجد.

وَأَنْتَ الْمَلْكُ تُمْرِضُهُ ٱلْحَشَايَا
لِهِمَّتِهِ وَتَشْفِيهِ ٱلْحُرُوبُ[(١)]

وَمَا بِكَ غَيْرُ حُبِّكَ أَنْ تَرَاهَا
وَعَثْيِرُهَا لِأَرْجُلِهَا جَنِيبُ[(٢)]

مُجَلِّحَةً لَهَا أَرْضُ الأَعَادِي
وَلِلسُّمْرِ المَنَاحِرُ وَالْجُنُوبُ[(٣)]

فَقَرِّطْهَا الْأَعِنَّةَ رَاجِعَاتٍ
فَإِنَّ بَعِيدَ مَا طَلَبَتْ قَرِيبُ[(٤)]

إِذَا دَاءٌ هَفَا بُقْرَاطُ عَنْهُ
فَلَمْ يُعْرَفْ لِصَاحِبِهِ ضَرِيبُ[(٥)]

---

(١) الحشايا: الفراش الوثير. يخاطب الشاعر ممدوحه بحقيقة حاله إنه ملك يعاف الاستكانة وتمرضه الدعة، فمن عادته مقارعة الأبطال في ميادين القتال لبعد همته، فشفاؤه في مزاولة ما اعتاد عليه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. العثير: الغبار. الجنيب: الفرس التي تقودها إلى جنبك. إن مرض سيف الدولة عشقه لفرس يقودها في وسط المعمعة تثير الغبار، وهذا ما يزعجه فشوقه شوق الحبيب لرؤية من يُحبّ.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. مجلحة: مصمّمة على الإقدام. السمر: الرماح. المناحر، الواحد منحر: حيث تذبح الذبائح. الجُنوب: الواحد جنب. ومن طبع تلك الخيول أنها قد اعتادت أن تطأ أرض الأعداء بقوّة وعناد وتصميم، وقد سمحت للرماح أن تنفذ فيها وفي جنوبها.

(٤) قرط عنان الفرس: أرخاه. الأعنة، الواحد عنان: اللجام، الرسن. يطلب الشاعر من ممدوحه إرسال جياده لتجوس ديار الأعداء فهي بعيدة في الحقيقة قريبة على من اعتاد على وطئها.

(٥) هفا: زلّ. بُقراط: أعظم أطباء اليونان في عصرهم الذهبي. الضريب: المثيل، الشبيه. إنه مرض غريب لم يعرف سببه ودواءه أشهر أطباء اليونان، بُقراط، فرغم مزاولته لعلوم الطبّ لم يعرف أن من اعتاد على الحروب يمرض إذا لزم حياة الدّعة وترك ما اعتاد عليه، لكان ذكر الدواء الناجع لذلك.

بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْوَضَّاءِ تُمْسِي
جُفُونِي تَحْتَ شَمْسٍ مَا تَغِيبُ (١)

فَأَغْزُو مَنْ غَزَا وَبِهِ اقْتِدَارِي
وَأَرْمِي مَنْ رَمَى وَبِهِ أُصِيبُ (٢)

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا
عَلَى نَظَرِي إِلَيْهِ وَأَنْ يَذُوبُوا (٣)

فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ
عَلَيْهِ تَحْسُدُ ٱلْحَدَقَ الْقُلُوبُ (٤)

الرفق بالجاني عتاب

أحدث بنو كلاب حدثاً بنواحي بالس وسار سيف الدولة خلفهم وأبو الطيب معه فأدركهم بعد ليلة بين ماءين يعرفان بالغبارات والخرارات فأوقع بهم وملك الحريم فأبقى عليه فقال أبو الطيب بعد رجوعه من هذه الغزوة وأنشده إياها في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة (٩٥٤ م):

[الوافر]

بِغَيْرِكَ رَاعِياً عَبِثَ الذِّئَابُ
وَغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ الضِّرَابُ (٥)

---

(١) الوضاء: الجميل. أجمل ما اعتاد على رؤيته وجه سيف الدولة المشعّ جمالاً وضياءً؛ إنه بمثابة شمس دائمة الإشراق ليل نهار خلاف الشمس التي تُشرق وتغرب.

(٢) ينوّه الشاعر بدوره في حروب سيف الدولة، إنه يشاركه المصير، فهو دائماً إلى جانبه يُقاتل بقتاله، فيغزو ويرمي النبال، فيصيب مقاتل الأعداء بهمّة ممدوحه.

(٣) و (٤) شحّ: بخل. لطالما تألّم المتنبي من الحساد، وقد اصطنعهم باستعلائه وعدم تقديرهم وهم من هم في بلاط سيف الدولة مكانة ورفعة، فكادوا له عند سيّده وأفسدوا العلاقة بينهما، وهو يعذرهم لبخلهم ولعدم تقديرهم له، وهو يتمنّى لهم الموت حسرة وغيرة منه، فقد حلّ في المقام السامي من قلب أميره، ومن الطبيعي أن يستثير حسد حاسديه؛ فالعيون ترى فتُكوى القلوب منهم.

(٥) عبث: استخفّ ولعب. الصارم من السيوف: البتّار. الضراب: المقارعة بالسيوف. يخاطب الشاعر سيف الدولة إنه راعٍ حريص على حماية رعيته وممتلكاته خلاف غيره الذي يترك الذئاب تفتك برعيته، والذئاب هم المغيرون، وأنت سيف ماضٍ بتّار تُجيد فنون القتال خلاف غيرك، فهم سيوف مثلّمة لا تقطع حتى في الهواء.

وَتَمْلِكُ أَنْفُسَ الثَّقَلَيْنِ طُرًّا
فَكَيْفَ تَحُوزُ أَنْفُسَهَا كِلابُ[١]

وَمَا تَرَكُوكَ مَعْصِيَةً وَلَكِنْ
يُعافُ الْوِرْدُ وَالمَوْتُ الشَّرَابُ[٢]

طَلَبْتَهُمُ عَلَى الأَمْوَاهِ حَتَّى
تَخَوَّفَ أَنْ تُفَتِّشَهُ السَّحَابُ[٣]

فَبِتَّ لَيَالِياً لا نَوْمَ فِيهَا
تَخُبُّ بِكَ المُسَوَّمَةُ الْعِرَابُ[٤]

يَهُزُّ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ
كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ[٥]

وَتَسْأَلُ عَنْهُمُ الْفَلَواتِ حَتَّى
أَجابَكَ بَعْضُهَا وَهُمُ ٱلْجَوَابُ[٦]

---

(١) الثقلين: عالم الإنس والجنّ. طرًّا: جميعاً. ومن مغالاة الشاعر أن سيف الدولة يتمتّع بسلطة عظيمة على عالمي الإنس والجِنّ. لذا فليس لقبيلة بني كلاب حقّ أن تملك مصيرها.

(٢) يعاف: يكره. الورد: ورود المياه. ينعى الشاعر على تلك الشرذمة جبنهم، فقد فرّوا مهزومين أمام جند الأمير مخافة نقمته، فهم لو ثبتوا لوردوا موارد الهلكة ولأكلتهم سيوفه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. ومن مغالاة الشاعر التنويه بشدّة حرص سيف الدولة في ملاحقة المهزومين، فقد دخل بجنده إلى مخابئهم بحثاً عن فلولهم الذين لاذوا بالموانع المائية، فإذا بالسحب يدبّ فيها الخوف لئلا يحتمي بها الفارّون.

(٤) تخبّ: ضرب من عدو الجياد السريع. الخيل المسوّمة: المُعَلَّمة. العراب: العربيّة الأصيلة. لقد كانت محاولة سيف الدولة جادّة في ملاحقة بني كلاب، فلم يستسلم للنوم بل شمّر عن ساعد الجدّ تخبّ به جياد عربية أصيلة تلاحقهم حيثما لجأوا.

(٥) سيف الدولة يتقدّم جيشه على رأسه، وقد انتظم ذلك الجيش فرقاً وكأنه عقاب كاسر يهمّ بالانقضاض على فريسته وقد فرد جناحيه.

(٦) الفلوات، الواحدة فلاة: الصحارى. يصف الشاعر طريقة ملاحقة فلول المنهزمين؛ =

فَقَاتَلَ عَنْ حَرِيمِهِم وَفَرُّوا
نَدَى كَفَّيْكَ وَالنَّسَبُ الْقُرَابُ (١)

وَحِفْظُكَ فِيهِم سَلَفَيْ مَعَدٍّ
وَأَنَّهُمُ الْعَشَائِرُ وَالصِّحَابُ (٢)

تُكَفْكِفُ عَنْهُمُ صُمَّ الْعَوَالِي
وَقَدْ شَرِقَتْ بِظُعْنِهِم الشِّعَابُ (٣)

وَأُسْقِطَتِ ٱلْأَجِنَّةُ فِي ٱلْوَلَايَا
وَأُجْهِضَتِ ٱلْحَوَائِلُ وَالسِّقَابُ (٤)

وَعَمْرٌو فِي مَيَامِنِهِمْ عُمُورٌ
وَكَعْبٌ فِي مَيَاسِرِهِمْ كِعَابُ (٥)

= لقد طاف الصحراوات بحثاً، فكان أن عثر عليهم وهم الذين كشفوا أمرهم له، ممّا ساعده على الإيقاع بهم.

(١) و (٢) لاذ المقاتلون بالفرار تاركين النسوة وصغارهم عرضة للضياع والسبي، فإذا بالممدوح يحمي أعراضهم ويمنع عنهم الذلّ ويقاتل دونهم؛ ذلك أنهم جميعاً ينتسبون إلى أب واحد؛ فالجدّ معدّ بن عدنان، وإن اختلفت عشائرهم، فسيف الدولة تغلبي من ربيعة، وبنو كلاب من مضر. ومضر وربيعة من معد بن عدنان.

(٣) تكفكف: تمنع. صمّ العوالي: الرماح. شرقت: غصّت. الظعن، الواحدة ظعينة: النسوة المرتحلات في هوادجهن. الشعاب، الواحد شعب: الطرق في الجبال. يصف الشاعر حسن صنيع سيف الدولة بالنسوة اللواتي تُهْنَ في الشعاب لا يلوين على شيء طالبات النجاة بأنفسهن، فإذا بسيف الدولة دونهن ودون وصول الأذى إليهن.

(٤) الأجنَّة، الواحد جنين: الولد في بطن أمه. الولايا، الواحدة ولية: البرذعة توضع على ظهر البعير لحماية راكبه. أجهضت: أسقطت، الحوائل، الواحدة حائل: الأنثى من صغار الإبل. السقاب، الواحد سقْب: الذكر من صغار الإبل. يصوّر الشاعر ما ألم بالنسوة من رعب جعلهن يسقطن أجنتهن، حتى الإبل لشدّة ما ألم بها من خوف، أسقطت هي بدورها ما في أرحامها.

(٥) إنها حالة هرج ومرج، فأفخاذ عمرو تشتّتت وتبعثرت أفرادها في كلّ ناحية وصوب يميناً، ولم يكن حال كعب أفضل من حال أختها، فإذا بها تنحو ناحية اليسار.

وَقَـدْ خَـذَلَـتْ أَبُـو بَـكْـرٍ بَـنِـيـهَـا
وَخَـاذَلَـهَـا قُـرَيْـطٌ وَالـضِّـبَـابُ(١)

إِذا مَـا سِـرْتَ فِـي آثَـارِ قَـوْمٍ
تَـخَـاذَلَـتِ ٱلْـجَـمَـاجِـمُ وَالـرِّقَـابُ(٢)

فَـعُـدْنَ كَـمَـا أُخِـذْنَ مُـكَـرَّمَـاتٍ
عَـلَـيْـهِـنَّ الْـقَـلَائِـدُ وَالـمَـلَابُ(٣)

يُـثِـبْـنَـكَ بِـالَّـذِي أَوْلَـيْـتَ شُـكْـراً
وَأَيْـنَ مِـنَ الَّـذِي تُـولِـي الـثَّـوَابُ(٤)

وَلَـيْـسَ مَـصِـيـرُهُـنَّ إِلَـيْـكَ شَـيْـنـاً
وَلَا فِـي صَـوْنِـهِـنَّ لَـدَيْـكَ عَـابُ(٥)

وَلَا فِـي فَـقْـدِهِـنَّ بَـنِـي كِـلَابٍ
إِذَا أَبْـصَـرْنَ غُـرَّتَـكَ ٱغْـتِـرَابُ(٦)

---

(١) خذلت: تخلَّفت عن نصرتها. من عادة العرب أنهم كانوا يتناحرون ويتّحدون في الملمات الصعبة، فإذا بأحد أفخاذ القبيلة، أبي بكر يتخلّون عن صغارهم ويتركونهم لمصير بائس. ولم يكن حظّ قريط والضباب بأفضل حال.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. التخاذل: التراخي عن مدّ يد المساعدة والعون. ومن شدّة بأس سيف الدولة أن من كُتب عليه القتل التخاذل؛ فالمقتول يخذل نفسه، ورأسه يخذله، فيتخلّى عن حامله جزاء جبنه، ولذيوع صيت سيف الدولة بأنه بطل صنديد موفق، ممّا يُوقع في النفوس رعباً، فينهزمون نفسياً قبل هزيمتهم عسكرياً على أيدي سيف الدولة.

(٣) الملاب: ضرب من الطيب، فارسي معرّب. لقد عادت النسوة مكرّمات، ولم يمسسهن سيف الدولة بسوء بل إنه طيّب خواطرهن فأسبغ عليهن من نعمه القلائد يتزيّن بها، والطيوب يتطيّبن بها.

(٤) يثبنك: يكافئنك. لقد بادلت النّسوة سيف الدولة على نعمه وإكرامه لهن الشكر الجزيل، ولم يحظ الفارّون من أقوامهن بشيء من هذا القبيل إلّا اللوم والعتب. وإن كان إحسانك أعظم من أن يُكافأ بكلمة شكر أو اعتراف بجميل.

(٥) و (٦) الشين: العاب والعيب. الصون: الحماية. لم ينزل في النساء عار بمصيرهنّ =

وَكَيْفَ يَتِمُّ بَأْسُكَ فِي أُنَاسٍ
تُصِيبُهُمُ فَيُؤْلِمُكَ الْمُصَابُ (١)

تَرَفَّقْ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ
فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ (٢)

وَإِنَّهُمُ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا
إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةٍ أَجَابُوا (٣)

وَعَيْنُ ٱلْمُخْطِئِينَ هُمُ وَلَيْسُوا
بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا (٤)

وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبَتْ عَلَيْهِمْ
وَهَجْرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ (٥)

وَمَا جَهِلَتْ أَيَادِيكَ الْبَوَادِي
وَلٰكِنْ رُبَّمَا خَفِيَ الصَّوَابُ (٦)

= إليك، بل إنك أكرمتهن وأحسنت إليهن حتى كأنهن في بيوتهن وفي كنف أزواجهن. وإنهنّ لم يشعرن بضيق أو حرج بعيداً عن بعولتهن؛ فقد استعضن عن كلّ ذلك بنور وجه سيف الدولة الفيّاض حبًّا وحناناً.

(١) و (٢) البأس: الشدّة والقوّة. إن ما نزل بالقوم من بأس من يديك عاد عليك بالحزن والألم. ويردف الشاعر مدحه برجاء؛ مفاده الدعوة إلى استبدال الانتقام بالعفو، فعفو القادر عتاب يفعل فعل السحر بالقلوب ويغسل أضغانها وتصفو النفوس.

(٣) و (٤) ويردف الشاعر قوله بأنهم عبيد سيف الدولة، إنهم العون والمدد يوم تشتد المحن، وإنهم لنعم المجيب لدعوة أميرهم إذا ما نزل به من النوائب والمحن، ورغم أنهم مخطئون حقاً، ولكنهم ليسوا أول من أخطأ بحقّ سيدهم؛ والخطأ من طبيعة البشر؛ فالعفو أوجب، وبه تدعو الحكمة.

(٥) يذكر الشاعر ممدوحه بأنه سرّ حياة القوم، والغضب حالة طارئة يزول بزوال أسبابه، وإذا تخلّى عن هؤلاء، فذلك عقاب قاسٍ وموت محتّم لهم.

(٦) يقرّر الشاعر حقيقة مفادها أن كرم سيف الدولة على ساكني البادية من العرب موفور معلوم لساكنيها، ومع ذلك قد تخفى مقاصد تلك الأفعال على بعضهم؛ وهذا لا يستوجب الانتقام القاسي في هذه الحالة.

وَكَـــمْ ذَنْـــبٍ مُـــوَلِّـــدُهُ دَلَالٌ
وَكَـمْ بُـعْـدٍ مُـوَلِّـدُهُ ٱقْـتِـرَابُ[١]

وَجُـــرْمٍ جَـــرَّه سُـــفَـــهَـــاءُ قَـــوْمٍ
وَحَـــلَّ بِـغَـيْـرِ جَـارِمِـهِ الْـعَـذَابُ[٢]

فَـــإِنْ هَـــابُـــوا بِـــجُـــرْمِـهِـم عَـلِـيًّـا
فَـقَـدْ يَـرْجُـو عَـلِـيًّـا مَـنْ يَـهَـابُ[٣]

وَإِنْ يَـــكُ سَـيْـفَ دَوْلَـةِ غَـيْـرِ قَـيْـسٍ
فَـمِـنْـهُ جُـلُـودُ قَـيْـسٍ وَالـثِّـيَـابُ[٤]

وَتَـــحْـــتَ رَبَـــابِـــهِ نَـــبَـــتُـــوا وَأَثُّـــوا
وَفِـــي أَيَّـــامِـــهِ كَـــثُـــرُوا وَطَـــابُـــوا[٥]

وَتَـــحْـــتَ لِـــوَائِـــهِ ضَـــرَبُـــوا الأَعَـــادِي
وَذَلَّ لَـهُـمْ مِـنَ الْـعَـرَبِ الـصِّـعَـابُ[٦]

---

(١) ومن سوء التقدير عند بعض الناس أنهم يحسبون أن ما يصنعونه دلال، فيكون سمجاً، بحيث يصبح ذنباً يستحقّ العقاب. وقد يكون سبب البعد والهجر شدّة القرب لمعرفة الرصيد لدى الحبيب.

(٢) الجرم: الذنب. السفه: الطيش وعدم التعقّل. يبرّر الشاعر ما حصل فثمّة من دفعه طيشه إلى الإساءة إلى سيف الدولة عن عمد أو عن جهل، فإذا بالعقاب يعمّ كثيراً من البريئين؛ وفي ذلك ظلم ما بعده ظلم.

(٣) هابوا: خافوا. لقد وقع ما أغضب علياً أي سيف الدولة من هؤلاء، إنهم أجرموا بحقّ أميرهم، ممّا جعلهم يخافون غضبه. وهم الآن يأملون عفوه لخوفهم من شدّة بطشه وعقابه.

(٤) والحقيقة أن سيف الدولة لم يكن من قيس وأفخاذها، ولكنّ قيساً لا زالت تعيش بفضل فيض كرمه؛ فهم ينعمون بصحة جيدة ويرفلون بأثواب يكتسون بها من عطاياه.

(٥) و (٦) الرباب: السحاب الأبيض وقيل: هو السحاب المرئي كأنه دون السحاب سواء أكان أبيض أم أسود. أثّوا: اغتنوا بالإبل والمغنم والعبيد والمتاع. لقد عمّهم فيض كرمه، فإذا بالخير يعمّ ديارهم وأسرهم فأثروا وامتلكوا الإبل والغنم والعبيد والمتاع، وفي ظل حكمه زادوا عدداً وطابوا نفوساً وانشرحت صدورهم، وهم اليد التي كان يبطش بها بأعدائه، فإذا بالعرب يُذعنون لهم طائعين.

وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَاباً
ثَنَاهُ عَنْ شُمُوسِهِم ضَبَابُ [(١)]

وَلَاقَى دُونَ ثَأْيِهِم طِعَاناً
يُلَاقِي عِنْدَهُ الذِّئْبَ الْغُرَابُ [(٢)]

وَخَيْلاً تَغْتَذِي رِيحَ الْمَوَامِي
وَيَكْفِيهَا مِنَ الْمَاءِ السَّرَابُ [(٣)]

وَلٰكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَى إِلَيْهِمْ
فَمَا نَفَعَ الْوُقُوفُ وَلَا الذَّهَابُ [(٤)]

وَلَا لَيْلٌ أَجَنَّ وَلَا نَهَارٌ
وَلَا خَيْلٌ حَمَلْنَ وَلَا رِكَابُ [(٥)]

---

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٤. ولإظهار قوّة بني كلاب وبالتالي التنويه بقوّة سيف الدولة؛ لو أن غير سيف الدولة قد حاول الاعتداء عليهم لما أفلح، ذلك ولامتنع ذلك عليه بفضل أبطالهم، وهم حماة نسائهم يدفعون عنهم البلاء برجال ينقضّون على أعدائهم فيقتلون منهم، ثم يختفون، وهذا ما يزيد في أعدائهم رعباً وخوفاً، وسوف يدفعون البلاء عن ممتلكاتهم وحظائرهم بطعن قاتل، فإذا بصرعاهم تتناوشها الذئاب والغربان تمزيقاً وفتكاً.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٦١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٥. الموامي، الواحدة موماة: المفاوز، الطرق الضيقة في الجبال. يلاقي الأعداء دون الوصول إلى ديار بني كلاب خيلاً اعتادت على اجتياز الطرق الضيقة الوعرة في الجبال، فضمرت بطونها، لاكتفائها بالماء دون العلف، وكأنها اغتذت السراب والماء، فهي جياد عربية أصيلة، وقد اعتادت أن تكتفي بالنزر من العلف والماء.

(٤) و (٥) أسرى: سرى ليلاً. أجنَّ: ستر. ومن سوء حظّ القوم أن سيّدهم قد سار يطلبهم في الليل، فارتبكوا وحاروا لهول المفاجأة، فهل يواجهون مصيراً محتّماً أم يفرّون؟ وإلى أين؟ وحتى الليل وقد كشف رعبهم، فلم تمنع عنهم ظلمته من سيف الدولة شيئاً، وحتى الخيل لم يسارعوا إليها، فتبلدت إراداتهم عن كلّ حركة.

رَمَيْتَهُمُ بِبَحْرٍ مِنْ حَدِيدٍ
لَهُ فِي الْبَرِّ خَلْفَهُمُ عُبَابُ[١]
فَمَسَّاهُمْ وَبَسْطُهُمُ حَرِيرٌ
وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ[٢]
وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ
كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ[٣]
بَنُو قَتْلَى أَبِيكَ بِأَرْضِ نَجْدٍ
وَمَنْ أَبْقَى وَأَبْقَتْهُ الْحِرَابُ[٤]
عَفَا عَنْهُمْ وَأَعْتَقَهُمْ صِغَاراً
وَفِي أَعْنَاقِ أَكْثَرِهِمْ سِخَاب[٥]
وَكُلُّكُمُ أَتَى مَأْتَى أَبِيهِ
فَكُلُّ فَعَالِ كُلِّكُمُ عُجَابُ[٦]
كَذَا فَلْيَسْرِ مَنْ طَلَبَ الأَعَادِي
وَمِثْلَ سُرَاكَ فَلْيَكُنِ الطِّلَابُ[٧]

---

(١) و (٢) العباب: اليمّ الطامي. لقد كانت الرمية من رمية يحسب لكلّ حساب حساباً، فاستعدّ ببحر من الجند المدججين بالسلاح كأنه الأمواج المتدافعة، تتوالى أمواجه تباعاً، فإذا بمسائهم المنعّم يتحول صباحاً دامياً، فإذا بهم يلتحفون بالتراب هلكى بعدما كانوا ينعمون برفاهٍ وحياة مليئة بالبحبوحة.

(٣) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢:١٣٨. القناة: الرمح. الخضاب: الحِنّاء. حتى السلاح في أيديهم تحوّل إلى أداة قاتلة لهم، فإذا بالدماء تغطي أكفهم، فإذا بهم يبدون كنسائهم لما حلّ بهم من عار الهزيمة.

(٤) و (٥) لقد ورث هؤلاء ذلّ آبائهم الذين فتك بهم والد سيف الدولة في بلاد نجد، فقتل منهم من قتل، ومنّ على من سلم منهم على قيد الحياة، فقد وهب صغارهم الحياة، ومَنَّ عليهم فألبسهم سِخَاباً قِلادات من قرنفل، فكانوا عتقاء سيفه.

(٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢:٣٢٦. الولد سرّ أبيه، فسيف الدولة قام بما قام به أبوه، وهؤلاء قاموا بما قام به آباؤهم، من عصيان وارتداد، فكان آباؤهم قدوة سيئة، وسيف الدولة، فعل فِعل أبيه فكان قدوة حسنة، فلا عجب في ذلك.

(٧) إن ما قام به سيف الدولة عمل حسن، فقد فاجأ بني كلاب ليلاً وفي الليل والاحتراس =

غبطت أعظمه الرميم

فزع الناس لخيل لقيت سرية سيف الدولة ببلد الروم فركب وركب معه أبو الطيب فوجد السرية قد ظفرت. وأراه بعض العرب سيفه فنظر إلى الدم عليه وإلى فلول أصابته في ذلك اليوم فأنشد سيف الدولة متمثلاً بقول النابغة الذبياني:

[الطويل]

وَلا عَيبَ فيهم غيرَ أنّ سيُوفَهُمْ
بهِنّ فُلُولٌ مِن قِرَاعِ الكتائِبِ
تُخُيّرْنَ من أزمانِ يوْمِ حَليمَةٍ
إلى اليَوْمِ قد جُرّبنَ كلّ التَّجارِبِ (١)

غير أنثى العقل والحسب

توفيت أخت سيف الدولة بميافارقين وورد خبرها إلى الكوفة فقال أبو الطيب يرثيها ويعزيه بها وكتب إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة (٩٦٣ م):

[البسيط]

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ
كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ (٢)
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَيْ مُؤَبَّنَةً
وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ (٣)

= والتزام الحذر يكون طلب العدو وتكون الانتصارات.

(١) استشهد المتنبي ببيتين من شعر النابغة الذبياني، ورد البيت الثاني في لسان العرب ١٢: ١٤٩، مادة «حلم». «ويوم حليمة: يوم معروف أحد أيام العرب المشهورة، وهو يوم التقى المنذر الأكبر والحارث الأكبر الغساني.. وقال النابغة يصف السيوف:
تُوُرِّثن من أزمان يوم حليمةِ إلى اليوم، قد جُرِّبْن كلّ التجارِبِ»

(٢) بدأ المتنبي مرثيته مخاطباً المتوفاة، منوّهاً بعلو نسبها؛ إنها أخت خير الناس سيف الدولة، وابنة خير أب أبي الهيجاء، وكلا سيف الدولة وأبي الهيجاء أشرف أبناء زمانهما، وانتسابها إليهما يرفعها إلى أعلى الأنساب آنذاك.

(٣) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني ٣: ٣٣٨. التأبين: الرثاء. إن الشاعر يرفع قدر المتوفاة فلا يسميها باسمها، ويكفيه أن يذكر محاسنها وينوّه بصفاتها لتعرف، فصيتها انتشر عبيره بين سائر العرب.

لَا يَـمْـلِـكُ الـطَّـرِبُ الـمَـحْـزُونُ مَـنْـطِـقَـهُ
وَدَمْـعَـهُ وَهُـمَـا فِـي قَـبْـضَـةِ الـطَّـرَبِ[1]

غَـدَرْتَ يَـا مَـوْتُ كَـمْ أَفْـنَـيْـتَ مِـنْ عَـدَدٍ
بِـمَـنْ أَصَبْتَ وَكَـمْ أَسْكَـتَّ مِـنْ لَـجَـبِ[2]

وَكَـمْ صَـحِـبْـتَ أَخَـاهَـا فِـي مُـنَـازَلَـةٍ
وَكَـمْ سَـأَلْـتَ فَـلَـمْ يَـبْـخَـلْ وَلَـمْ تَـخِـبِ[3]

طَـوَى الْـجَـزِيـرَةَ حَـتَّـى جَـاءَنِـي خَـبَـرٌ
فَـزِعْـتُ فِـيـهِ بِـآمَـالِـي إِلَـى الْـكَـذِبِ[4]

حَـتَّـى إِذَا لَـمْ يَـدَعْ لِـي صِـدْقُـهُ أَمَـلاً
شَـرِقْـتُ بِـالـدَّمْـعِ حَـتَّـى كَـادَ يَـشْـرَقُ بِـي[5]

تَـعَـثَّـرَتْ بِـهِ فِـي الأَفْـوَاهِ أَلْـسُـنُـهَـا
وَالْـبُـرْدُ فِـي الـطُّـرْقِ وَالأَقْـلَامُ فِـي الْـكُـتُـبِ[6]

---

(١) الطرب: حالة تعتري المرء عند اشتداد الفرح أو الحزن. يعتذر الشاعر عن تقصير يلحقه في حق المتوفاة ذلك أن شدّة الحزن تلجم المرء عن التعبير عمّا يعانيه من حزن وألم يعصر قلبه ويلجم لسانه، ويترجم الدمع ما لديه من لوعة وحسرة.

(٢) اللجب: الصياح والضجيج. يخاطب الشاعر الموت المفاجئ، فلم يمهّد لوفاة أخت سيف الدولة، فبموتها أصاب الموت أناساً كثيرين، فقد كانت موئل المحتاجين والفقراء ينعمون ببرها وكرمها، فافتقد هؤلاء معيناً على النوائب في ظلمة الحياة هذه.

(٣) يعاتب الشاعر الموت بأنه لم يرع صحبة أخيها، فقد كان رفيق الموت يصحبه معه في جيشه يقبض أرواح قتلاه، ولم يبخل يوماً، بل إنه كان يستجيب لنداء الموت ويُشبع نهمه بجثث أقوى الأبطال. فأين حسنات ذلك البطل؟

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٧. أخبار الأحزان لا تخفى، بل إنها تطير مع الرياح، وسرعان ما تنامى الخبر إلى مسامع الشاعر فأذناه لم تصدق ما تسمع، والرياح تدوّي بالخبر متخطية الجزيرة ما بين بلاد الشام والكوفة في العراق. فهل يكون الأمر مجرّد دُعابة أم أنها الفاجعة؟ والدعابة تكون في كلّ شيء إلّا في حقل الموت.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٧. إنها الحقيقة المرّة، فإذا بالدموع التي تكاد تخنق لكثرتها وتقطع الأنفاس.

(٦) ورد البيت في: شرح شواهد الشافية، للبغدادي: ٢٤٠، الوساطة بين المتنبي =

كَـأَنَّ فَـعْـلَـةَ لَـمْ تَـمْـلأْ مَـوَاكِـبُـهَـا
دِيَـارَ بَـكْـرٍ وَلَـمْ تَـخْـلَـعْ وَلَـمْ تَـهَـبِ(١)
وَلَـمْ تَـرُدَّ حَـيَـاةً بَـعْـدَ تَـوْلِـيَـةٍ
وَلَـمْ تُـغِـثْ دَاعِـيـاً بِـالْـوَيْـلِ وَٱلْـحَـرَبِ(٢)
أَرَى الْـعِـرَاقَ طَـوِيـلَ الـلَّـيْـلِ مُـذْ نُـعِـيَـتْ
فَـكَـيْـفَ لَـيْـلُ فَـتَـى الْـفِـتْـيَـانِ فِـي حَـلَـبِ(٣)
يَـظُـنُّ أَنَّ فُـؤَادِي غَـيْـرُ مُـلْـتَـهِـبِ
وَأَنَّ دَمْـعَ جُـفُـونِـي غَـيْـرُ مُـنْـسَـكِـبِ(٤)
بَـلَـى وَحُـرْمَـةِ مَـنْ كَـانَـتْ مُـرَاعِـيَـةً
لِـحُـرْمَـةِ الـمَـجْـدِ وَالْـقُـصَّـادِ وَٱلْأَدَبِ(٥)

= وخصومه: ١٤٧. يصف الشاعر أحوال وسائل الاتصال ونقل الأخبار بسرعة، فإذا بها مشلولة شُلّت حركتها، فالأفواه تلجلجت وتلعثمت فغارت فيها الكلمات وأخرست، حتى طرق البريد وناقلوه تلجلجت وتعثّرت لغتها، وطرقها تمادت وبعُدت، والأقلام جفّت مدامعها فامتنعت عن ترجمة الحدث الجلل الأليم.

(١) ورد البيت في خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٢٥٢. يجعل الموت كلّ شيء سريعاً، فكأن فَعْلة، كناية عن خَوْلة، فالشاعر لم يذكر اسم المتوفاة صراحة كأنه يرفض الإقرار بالأمر الواقع، لقد كانت توجّه الجيوش لتغزو بإرادتها في ديار بكر، كما كانت موئل الكرم؛ فهي تهب الأثواب وتخلعها على المحتاجين وتوزع هباتها كيفما اتّفق.

(٢) التولية: الذهاب والرجوع. الويل: الحرب، الدمار، الموت. يصف السلوك مسلك المتوفاة؛ فقد كانت تحمل الكَلّ وتُغيث الملهوف وتمدّ يد المساعدة لكلّ محتاج في وقت الشدّة والحروب التي تقضي على كلّ شيء.

(٣) و (٤) لقد كان لنعي أخت سيف الدولة أثره الأليم في بلاد العراق، ولا شكّ أن هذا المصاب الأليم سيؤلم سيف الدولة في حلب إنه يعتقد أن قلب الشاعر لم يتفتّت حزناً، ففيه نار لاعجة حارقة تترجمها دموع علّها تُطفئ هذا اللهب.

(٥) يُقسم الشاعر أنه يتألّم لهذا المصاب بمن كانت تراعي الودّ وتحفظ العهد وتقدر العلماء والشعراء والأدباء لمعرفتها واطّلاعها، ولهذا فلها حرمة خاصّة بين النساء.

وَمَنْ مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلَائِقُهَا
وَإِنْ مَضَتْ يَدُهَا مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ(١)
وَهَمُّهَا فِي الْعُلَى وَالْمَجْدِ نَاشِئَةً
وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ(٢)
يَعْلَمْنَ حِينَ تُحَيَّا حُسْنَ مَبْسِمِهَا
وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّنَبِ(٣)
مَسَرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطِّيبِ مَفْرِقُهَا
وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ(٤)
إِذَا رَأَى وَرَآهَا رَأْسَ لَابِسِهِ
رَأَى الْمَقَانِعَ أَعْلَى مِنْهُ فِي الرُّتَبِ(٥)
وَإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثَى لَقَدْ خُلِقَتْ
كَرِيمَةً غَيْرَ أُنْثَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ(٦)

---

(١) خلائقها: أخلاقها وصفاتها. النشب: المال. يقرّ الشاعر بموت أخت سيف الدولة التي تمتاز بسمو خلقها، فلا شبيه لها في هذا المجال، ولقد تركت مالاً تُذكر به لمن يستحقّه من المعوزين والفقراء.

(٢) الأتراب: الأصحاب، الواحد ترب: في مثل العمر. لقد نهضت إلى نشدان المعالي منذ حداثتها، بينما مثيلاتها كان لا يشغلهن سوى اللعب واللهو خاليات البال من كلّ ما هو جليل عظيم.

(٣) الشنب: بريق الأسنان وجمال مبسمها. لقد كانت تتلقى صويحباتها مبتسمة، وقد كانت طاهرة الذيل فلم يُقبّلها مخلوق دلالة طهرها ونقائها.

(٤) المفرق: حيث يفترق الشعر من الرأس. اليلب: ضرب من الدروع اليمانية تتخذ من الجلود. البيض، الواحدة بيضة: الخوذة لباس الرأس. يصف الشاعر حال المتوفاة، فقد كانت تستعمل الطيب الذي يسرّ ويفخر أنه لامس رأسها، بينما تتحسّر وتتألم أدوات الحرب لعدم اهتمامها بها، فهي لم تتزيّا بزيّ الرجال، بل إنها تعتز بأنوثتها.

(٥) المقانع، الواحد مقنع: ضرب من الأقنعة تحتجب به المرأة. جعل الشاعر الخوذ والدروع تتألم وتَدِبّ الغيرة في البيض لأنها تحسّ بأن تلك المرأة تفضّل الأقنعة عليها، وبذلك تكون مفضّلة عندها؛ وهذا ما يزعج الخوذ.

(٦) لقد حباها اللّه تعالى أنوثة المرأة، ولقد ورثت آباءً كراماً فضلاً عن عقل تفوق به كثيراً من الرجال وسائر أخواتها من النساء.

وإنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا
فَإنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنًى لَيْسَ فِي الْعِنَبِ [(١)]

فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةٌ
وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ [(٢)]

وَلَيْتَ عَيْنَ الَّتِي آبَ النَّهَارُ بِهَا
فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تَؤُبِ [(٣)]

فَمَا تَقَلَّدَ بِالْيَاقُوتِ مُشْبِهُهَا
وَلَا تَقَلَّدَ بِالْهِنْدِيَّةِ الْقُضُبِ [(٤)]

وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا
إلَّا بَكَيْتُ وَلَا وُدٌّ بِلَا سَبَبِ [(٥)]

قَدْ كَانَ كُلُّ حِجَابٍ دُونَ رُؤْيَتِهَا
فَمَا قَنِعْتِ لَهَا يَا أَرْضُ بِالْحُجُبِ [(٦)]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٣٥. الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٧. تغلب: قبيلة سيف الدولة. الغلباء: الممتنعة برجالها وفرسانها. الأصل: المحتد. إن المتوفاة تنتمي إلى قبيلة تغلب ذات التاريخ الطويل والأمجاد العريقة في التاريخ في الجاهلية والإسلام، وفضلاً عن ذلك فإنها أي خولة تمتاز عنهم جميعاً كالخمرة؛ فمزاياها خلاف أصلها من العنب بما تتركه في النفوس من أثر.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٦٥. يتمنّى الشاعر لو أن المتوفاة، وهي شمس يعمّ خيرها الناس، بقيت على قيد الحياة، ويتمنّى لو أن الشمس العادية قد غابت لعدم نفعها الأنام؛ وفي ذلك مناقضة لطبيعة دور الشمس العظيم في حياة الكرة الأرضية.

(٣) ويردف الشاعر تمنيه أن تكون الشمس التي حملت للكون يوماً جديداً فداء للتي طواها الموت بين جناحيه، وأن تبقى على قيد الحياة.

(٤) الهندية: السيوف المصنوعة في الهند. القضب، الواحد قضيب: الرقيق من السيوف. يرى الشاعر أن المتوفاة قد فاقت بنات جنسها نبلاً وحسناً وخلقاً، ولم يوجد مثيل لها في عالم الرجال.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. الصنائع، الواحدة صنيعة: جميل الأفعال. ومما يزيد حزن الشاعر أن المتوفاة كانت ذات يد محسنة، فضلاً عن صدق ودادها للشاعر؛ فإذا بدموعه تُغطّي وجنتيه.

(٦) حجب: ستر. من طبع ربّات الحجال من النبلاء الاحتجاب وندرة الاختلاط بالعامة، =

وَلَا رأَيْــتِ عُــيُــونَ الإنْــسِ تُــدْرِكُــهَــا
فَـهَـلْ حَـسَـدْتِ عَـلَـيْـهَـا أَعْـيُـنَ الـشُّـهُـبِ(١)
وَهَــلْ سَــمِـعْـتِ سَـلَامـاً لِـي أَلَـمَّ بِـهَـا
فَـقَـدْ أَطَـلْـتُ وَمَـا سَـلَّـمْـتُ مِـنْ كَـثَـبِ(٢)
وَكَـيْـفَ يَـبْـلُـغُ مَـوْتَـانَـا الَّـتِـي دُفِـنَـتْ
وَقَـدْ يُـقَـصِّـرُ عَـنْ أَحْـيَـائِـنَـا الْـغَـيَـبِ(٣)
يَـا أَحْـسَـنَ الـصَّـبْـرِ زُرْ أَوْلَـى الْـقُـلُـوبِ بِـهَـا
وَقُـلْ لِـصَـاحِـبِـهِ يَـا أَنْـفَـعَ الـسُّـحُـبِ(٤)
وَأَكْــرَمَ الــنَّــاسِ لَا مُــسْــتَــثْــنِــيــاً أَحَــداً
مِـنَ الْـكِـرَامِ سِـوَى آبَـائِـكَ الـنُّـجُـبِ(٥)

= فكان من الطبيعي أن تسير سيرة هؤلاء النسوة فتحتجب، ولكن الأرض بدافع الطمع حجبتها لنفسها، فابتلعتها لتحتفظ بها إلى الأبد.

(١) الشهب، الواحد شهاب: شعلة نار ساطعة، الدراري، ومن علوّ شأنها عَسُر على البشر النظر إليها ورؤيتها، فقد كانت دراري السماء تعايشها وترافقها ولقد حسدت الأرض صويحباتها فاحتضنتها في قلبها.

(٢) يخاطب الشاعر الأرض لائماً ومعاتباً، فقد سمعت سلامه للمتوفاة، وهو بعيد عنها، يودّ لو يصل إلى مسامعها، وقد تعطلت وسائل الاتصال بين الشاعر والمتوفاة، وقد أطال المناجاة عن بعد، وما استطاع المصافحة. ولم ينعم بجواب شافٍ.

(٣) الغيب، الواحد غائب. وما يعبّر عن حيرة الشاعر أن السلام لا يمكن أن يصل إلى الموتى للفاصل الزماني والمكان بين عالم الأحياء وعالم الأموات، والحقيقة أن الشاعر يقرّ أنه لم يكن باستطاعته إرسال السلام والمتوفاة على قيد الحياة، وهو قريب منها، فكيف بذلك، وهما في عالمين مختلفين ومكانين متباعدين؟

(٤) يخاطب الشاعر الصبر متمنياً عليه أن يزور أولى القلوب بالحزن، وهو سيف الدولة علّه يُخفف من شدّة وطأة الألم والحزن، ومستثيراً فيه ملكة الكرم فعطاؤه أنفع السحب لسهولته وعدم إيذائه؛ فمن طبع السحب صَواعق ورعود وبرق ودمار في بعض الأحيان، والشاعر تكسبيّ حتى في هذا الموضع، موضع العواطف الرقيقة الصادقة.

(٥) النجب، الواحد نجيب: النبلاء. يخاطب الشاعر سيف الدولة؛ إنه أكرم الناس طرّا =

قَـدْ كَـانَ قَـاسَـمَـكَ الـشَّـخْـصَـيْـنِ دَهْـرُهُـمَـا
وَعَـاشَ دُرُّهُـمَـا الـمَـفْـدِيُّ بِـالـذَّهَـبِ[1]

وَعَـادَ فِـي طَـلَـبِ الـمَـتْـرُوكِ تَـارِكُـهُ
إِنَّـا لَـنَـغْـفُـلُ وَٱلْأَيَّـامُ فِـي الـطَّـلَـبِ[2]

مَـا كَـانَ أَقْـصَـرَ وَقْـتـاً كَـانَ بَـيْـنَـهُـمَـا
كَـأَنَّـهُ الْـوَقْـتُ بَـيْـنَ الْـوِرْدِ وَالْـقَـرَبِ[3]

جَـزَاكَ رَبُّـكَ بِـالأحْـزَانِ مَـغْـفِـرَةً
فَـحُـزْنُ كُـلِّ أَخِـي حُـزْنٍ أَخُـو الْـغَـضَـبِ[4]

وَأَنْـتُـمُ نَـفَـرٌ تَـسْـخُـو نُـفُـوسُـكُـمُ
بِـمَـا يَـهَـبْـنَ وَلَا يَـسْـخُـونَ بِـالـسَّـلَـبِ[5]

حَـلَـلْـتُـمُ مِـنْ مُـلُـوكِ الـنَّـاسِ كُـلِّـهِـم
مَـحَـلَّ سُـمْـرِ الْـقَـنَـا مِـنْ سَـائِـرِ الْـقَـصَـبِ[6]

= سوى أجداده النجباء، فهم كرماء في أصولهم وأخلاقهم. وذلك من المغالاة عند المتنبي، فقد اختصر تاريخ البشرية بسيف الدولة وآله.

(١) و (٢) يقصد الشاعر بالشخصين أختي سيف الدولة، فقد توفيت الصغرى منهما، فكأنها فدت أختها الكبرى، إذ بها كدرّ فدي بذهب، فكانت الكبرى دراً والصغرى ذهباً. ولكن الدهر القاهر ينزَع الباقية منهما، فالأيام من طبعها أنها لا تغفل من أهملته وإن طال بها الزمن.

(٣) الورد: إتيان الإبل الماء. القرب: السير ليلاً لورد الماء. لقد كانت وفاة كلّ منهما سريعة ومتقاربة كأن ما بينهما يوم وليلة، كمن ذهب ليرد الماء ويأخذ حاجته، ثم ليعود أدراجه إلى حيث انطلق.

(٤) يخاطب الشاعر سيف الدولة متمنياً له غفران أحزانه، فالمصائب إخوة الغضب، والغضب يُمكن غسله بتفجيره ضد مسببه، ولكن الأمر مختلف فالغضب من أمر غيبي، وفي هذه الحالة فلا بدّ من الاستسلام والتأسي بمن غبر.

(٥) تسخو: تتكرّم. السلب: ما يأخذه المحارب من سلب ضحيته. يخاطب الشاعر سيف الدولة؛ إنه من قوم كرماء يُعطون عن طيب نفس ما يجودون به، ولكنهم لا يتنازلون عن سلب موتاهم؛ ذلك أنهم قوم ذوو منعة وعزّة وأنفة، لذا فهم لا يجودون بما يؤخذ منهم غصباً وقهراً.

(٦) يمدح الشاعر سيف الدولة وآله بأنهم ملوك سائر الناس، وأنهم بمثابة القنا القوية =

فَـلَا تَـنَـلْـكَ الـلَّـيَـالِـي إنَّ أَيْـدِيَـهَـا
إِذَا ضَـرَبْـنَ كَـسَـرْنَ الـنَّـبْـعَ بِـالْـغَـرَبِ[(١)]

وَلَا يُـعِـنَّ عَـدُوًّا أَنْـتَ قَـاهِـرُهُ
فَـإِنَّـهُـنَّ يَـصِـدْنَ الـصَّـقْـرَ بِـالْـخَـرَبِ[(٢)]

وَإِنْ سَـرَرنَ بِـمَـحْـبُـوبٍ فَـجَـعْـنَ بِـهِ
وَقَـدْ أَتَـيْـنَـكَ فِـي الْـحَـالَـيْـنِ بِـالْـعَـجَـبِ[(٣)]

وَرُبَّـمَـا ٱحْـتَـسَـبَ الإِنْـسَـانُ غَـايَـتَـهَـا
وَفَـاجَـأَتْـهُ بِـأَمْـرٍ غَـيْـرِ مُـحْـتَـسَـبِ[(٤)]

وَمَـا قَـضَـى أَحَـدٌ مِـنْـهَـا لُـبَـانَـتَـهُ
وَلَا ٱنْـتَـهَـى أَرَبٌ إِلَّا إِلَـى أَرَبِ[(٥)]

= الصلبة مقابل القصب الفارغ القلوب ممّا يسهّل كسره؛ وعليه فإنهم أفضل ملوك الأرض.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. النبع: ضرب من الشجر الصلب ينبت في رؤوس الجبال تتّخذ منه القِسيّ. الغرب: ضرب من النباتات ينبت على ضفاف الأنهار ضعيف. يدعو الشاعر لسيف الدولة بألّا يُضام، فالليالي من طبعها أنها تؤلم المرء بمقاييس لا تخضع للمنطق، فإذا بالضعيف من الأمور يُهلك الأقوياء لمفاجاءاته التي لم يُحسب لها حساب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. الخرب: ذكر الحُبارى. من الطيور يضرب به المثل في البلاهة. ويردف الشاعر مؤيداً المعنى الذي ذكره في البيت السابق أن الليالي تُعين الضعفاء للإيقاع بالأقوياء، داعياً له بالبقاء والمنعة؛ إنه صقر من طبيعته الصيد والسموّ، يتمنّى له ألّا يقع فريسة ضيف غبيّ.

(٣) تقسو الحياة، فتُفقد البشر كلّ شيء يحبّونه بسرعة عجيبة، وهنا سرّ تعلّق بني آدم في ما يُحبونه، فيُفجعون بما يُحبون فتبقى ذكراه أليمة في النفوس. ومن حسن حظّ سيف الدولة أن الليالي لا تُعين من يبطش به الممدوح، وقد سرّته الليالي بأخته ثم فجعته فاستردّتها منه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. قد يكون الحرص مضيعة للوقت، في بعض الأحيان، فتأتي منغّصات بغتة لم يكن المرء يتوقّع حدوثها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. اللبانة: الحاجة. الأرب: الغرض. يُحسّ المرء أن الشاعر متشائم وإن لمّح إلى حقيقة أن طموح البشر لا يُحدّ، =

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا ٱتِّفَاقَ لَهُمْ
إلّا عَلَى شَجَبٍ وَٱلْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ (١)

فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً
وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فِي الْعَطَبِ (٢)

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ
أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ (٣)

سمعاً لأمر أمير العرب

أنفذ إليه سيف الدولة كتاباً بخطه إلى الكوفة يسأله المسير إليه فأجابه بهذه القصيدة وأنفذها إليه في ميّافارقين وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة (٩٦٤ م):

[المتقارب]

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ
فَسَمْعاً لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ (٤)

وَطَوْعاً لَهُ وَٱبْتِهَاجاً بِهِ
وَإِنْ قَصَّرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ (٥)

= فإن حقّق أحد نجاحاً عمل على تحقيق نجاح آخر وهكذا دواليك، فتنتهي الحياة ولا تنتهى حاجات بني البشر، وهذا هو سرّ بقاء الحياة وحيويتها.

(١) و (٢) الشجب: الهلاك. الخلف: الاختلاف. آمن الناس بأن الموت حقّ محتّم على كلّ مخلوق، واختلفوا بكيفيّته وطرقه وأوقاته في ما بينهم على رأيين، فالمؤمنون بالبعث يؤمنون بخلود الروح في عالم البرزخ حتى قيام الساعة يوم الحشر؛ فيكون الجزاء، والرأي الآخر يؤمن به الملاحدة والدهريّون الذين يؤمنون بفناء الروح النفس بفناء الجسد.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. المهجة: الروح. يرى الشاعر أن التفكير في حال الدنيا متعب، حيث لا خلود، ولا دوام على حال، وما يريح المرء الاستسلام لمصيره وعدم التفكير في الأمر.

(٤) و (٥) الابتهاج: الفرح. يبدي الشاعر استعداده لموافاة سيف الدولة الذي طلب منه الإسراع بالمجيء إليه؛ ولقد فهم المقصود من رسالة فتحت في نفسه أملاً جديداً وفرحة لا تُساويها فرحة، ومع ذلك فالشاعر يقدّم اعتذاره عن تخلّفه والمسارعة =

وَمَـا عَـاقَـنِـي غَـيْـرُ خَـوْفِ الْـوُشَـاة
وَإِنَّ الْـوِشَـايَـاتِ طُـرْقُ الْـكَـذِبْ (١)

وَتَـكْـثِـيـرِ قَـوْمٍ وَتَـقْـلِـيـلِـهِـمْ
وَتَـقْـرِيـبِـهِـمْ بَـيْـنَـنَـا وَالْـخَـبَـبْ (٢)

وَقَـدْ كَـانَ يَـنْـصُـرُهُـمْ سَـمْـعُـهُ
وَيَـنْـصُـرُنِـي قَـلْـبُـهُ وَالْـحَـسَـبْ (٣)

وَمَـا قُـلْـتُ لِـلْـبَـدْرِ أَنْـتَ الـلُّـجَـيْـ
ـنُ وَمَـا قُـلْـتُ لـلـشَّـمْـسِ أَنـتِ الـذَّهَـبْ (٤)

فَـيَـقْـلَـقَ مِـنْـهُ الْـبَـعِـيـدُ الأَنَـاةِ
وَيَـغْـضَـبَ مِـنْـهُ الْـبَـطِـيءُ الـغَـضَـبْ (٥)

وَمَـا لَاقَـنِـي بَـلَـدٌ بَـعْـدَكُـمْ
وَلَا ٱعْـتَـضْـتُ مِـنْ رَبِّ نُـعْـمَـايَ رَبْ (٦)

= للمثول بين يدي سيف الدولة، والحقّ أن خوف الشاعر من شماتة حسّاده وأعدائه به.

(١) و (٢) الوشاة، الواحد واشٍ: النمامون الذين يتناقلون زور الحديث. يلتمس الشاعر لنفسه العذر بأن ثمَّة وُشاة يتآمرون عليه، عمادهم في ذلك الكذب مغلّفاً بزخرف القول يصوغونه بمكر وخديعة. إنهم يُمعنون بتمزيق سجل فضائله ويسردون معايب يُلصقونها به بسرعة رهيبة؛ وهذا ما جعله يتردّد في العودة إلى كنف أميره. والتقريب والخبب ضرب من عدو الفرس.

(٣) لقد كان سيف الدولة يستمع إلى أقوال الوشاة، وتبدو عليه علائم قبول ما يتفوّهون به، ولكن الواقع خلاف ما كان يظهره، فقد كان ينصر الشاعر عملياً يعضده اثنان قلبه الكبير الذي لا يقبل الظلم لأحد وحسبه الرفيع السامي.

(٤) و (٥) اللجين: الفضة. الأناة: عدم التسرّع في الأحكام، الحلم. يعرض الشاعر مشكلته مع سيف الدولة؛ لقد كان خالص الودّ، صادق اللهجة، ومدحه ينمّ عن حبّ وإعجاب لشخص ممدوحه، وإسباغ النعوت على البدر أنه فضّة السماء وعلى الشمس أنها الذهب لا ينقص من قيمتهما الحقيقية بالنسبة للبشر وللوجود. وعلى ذلك فلا مدعاة للنفور من شخص الشاعر والغضب ممَّا يفعل.

(٦) لاقني: أمسك بي، واحتبسني، يذكر الشاعر أن يعوّل على الإقامة في حمى سيف =

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوا
دِ أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ وَالْغَبَبْ(١)

وَمَا قِسْتُ كُلَّ مُلُوكِ الْبِلَادِ
فَدَعْ ذِكْرَ بَعْضٍ بِمَنْ فِي حَلَبْ(٢)

وَلَوْ كُنْتُ سَمَّيْتُهُمْ بِاسْمِهِ
لَكَانَ ٱلْحَدِيدَ وَكَانُوا ٱلْخَشَبْ(٣)

أَفِي الرَّأْيِ يُشْبَهُ أَمْ فِي السَّخَا
ءِ أَمْ فِي الشَّجَاعَةِ أَمْ فِي الْأَدَبْ(٤)

مُبَارَكُ ٱلاسْمِ أَغَرُّ ٱللَّقَبْ
كَرِيمُ الْجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ(٥)

أخُو الْحَرْبِ يُخْدِمُ مِمَّا سَبَى
قَنَاهُ وَيَخْلَعُ مِمَّا سَلَبْ(٦)

= الدولة؛ فهو لم تطب له سُكنى بلد والاستقرار في ربوع سوى كنف الممدوح، كما أنه قد اتَّخذ صاحب نعمته سيداً له لا يريم عن بلاطه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. الأظلاف، الواحد ظلف: ظفر كلّ ما اجترّ، وهو ظلف البقرة والشاة والظبي. الغبب: ما تدلى من لحم تحت حنك الثور. ومن سوء تعبير الشاعر أن جعل سيف الدولة جواداً ركب متنه، فهو لن يتخلّى عن ذلك ليركب متن كل ثور، ويقصد بذلك سائر الملوك دونه.

(٢) و (٣) يفضل الشاعر سيف الدولة عن سائر الملوك والأمراء الذين مدحهم، إنه سيف حديدي، لا يقف مقابله أحد منهم؛ فهم سيوف خشبية محنطة، سرعان ما يتكسرون إذا التقوا بالسيف الحديدي، ومن هنا فمدح الشاعر لأميره يمتاز بصدق المشاعر وحِدّة الإعجاب.

(٤) يُنكر الشاعر على سائر الملوك والأمراء أن يتشبّهوا بسيف الدولة؛ فهو يفوقهم رأياً وكرماً وشجاعة وأدباً.

(٥) ورد البيت في معاهد التنصيص، للعباسي ١ : ١٠. الجرشى: النفس. يمدح الشاعر سيف الدولة؛ إنه مبارك الاسم، عليّ من العلوّ والرفعة، وأغرّ اللقب، مشهور بلقبه الذي اشتهر به وخلّده، عزيز النفس، وينتمي إلى أصل شريف نبيل.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. ومن صفات الممدوح أنه أخو =

إِذَا حَازَ مَالاً فَقَدْ حَازَهُ
فَتًى لَا يُسَرُّ بِمَا لا يَهَبْ[(١)]
وَإِنِّي لأُتْبِعُ تَذْكَارَهُ
صَلَاةَ ٱلْإِلٰهِ وَسَقْيَ السُّحُبْ[(٢)]
وَأُثْنِي عَلَيْهِ بِآلائِهِ
وَأَقْرُبُ مِنْهُ نَأَى أَوْ قَرُبْ[(٣)]
وَإِنْ فَارَقَتْنِي أَمْطَارُهُ
فَأَكْثَرُ غُدْرَانِهَا مَا نَضَبْ[(٤)]
أَيَا سَيْفَ رَبِّكَ لَا خَلْقِهِ
وَيَا ذَا الْمَكَارِمِ لَا ذَا الشُّطَبْ[(٥)]
وَأَبْعَدَ ذِي هِمَّةٍ هِمَّةً
وَأَعْرَفَ ذِي رُتْبَةٍ بِالرُّتَبْ[(٦)]

= الحرب، تقتضي المؤاخاة التلازم والمصاحبة الدائمة، وعليه يكون لا يستكين إلى الدّعة بل إنه لا يتوقّف عن الإيقاع بأعدائه، فيسبي من سراريهم نساءً وأولاداً ورجالاً فيهب من يشاء من سباياه، لذا فهو لا يشتري عبيداً، كما أنه يهب الأردية التي يربحها في حروبه لمن يريد.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. ومن طبع سيف الدولة أن الكرم متأصل في نفسه، فهو لا يبخل بما لديه، بل إنه يفرح إذا نثر المال في الناس.

(٢) ومن مبالغات الشاعر أنه إذا ذكر سيف الدولة صلّى عليه لكي يباركه اللّه تعالى ويرزقه من عميم عطائه ونعمائه.

(٣) الآلاء: النعم. نأى: بعُد. يذكر الشاعر فضائل ممدوحه العديدة في الكرم، ويمدحه بهذه الصفة التي عمّت بفيضها القريب والبعيد ممّن يعرف ومن لا يعرف.

(٤) الغدران، الواحد غدير: ما اجتمع من السيول في مكان ما. وقد يتوقّف عطاء سيف الدولة عن الشاعر، ولكثرة ما حصل عليه من عطايا أمره، فأكثر ما لديه فإن الشاعر لا يزال يحتفظ به؛ فغدرانه لم تنضب بعد.

(٥) الشُّطَب: الواحدة شطبة: الطرائق في متن السيف. خاطب الشاعر ممدوحه، إنه سيف اللّه تعالى، وليس بسيف البشر، ويردف مخاطباً فيصفه بصاحب المكارم والأخلاق الرفيعة، وليس بسيف مزيّن بطرائقه كسائر السيوف الحديدية.

(٦) إنه بعيد الهمة، فطموحه دائماً إلى كريم المعالي، وهو من يميّز صحبه فيرفع رتبهم ويسمو بهم.

وَأَطْعَنَ مَنْ مَسَّ خَطِّيَّةً
وَأَضْرَبَ مَنْ بِحُسَامٍ ضَرَبْ(١)

بِذَا ٱللَّفْظِ نَادَاكَ أَهْلُ الثُّغُورِ
فَلَبَّيْتَ وَٱلْهَامُ تَحْتَ ٱلْقُضُبْ(٢)

وَقَدْ يَئِسُوا مِنْ لَذِيذِ الْحَيَاةِ
فَعَيْنٌ تَغُورُ وَقَلْبٌ يَجِبْ(٣)

وَغَرَّ الدُّمُسْتُقَ قَوْلُ الْعُدَا
ةِ أَنَّ عَلِيًّا ثَقِيلٌ وَصِبْ(٤)

وَقَدْ عَلِمَتْ خَيْلُهُ أَنَّهُ
إِذَا هَمَّ وَهْوَ عَلِيلٌ رَكِبْ(٥)

أَتَاهُمْ بِأَوْسَعَ مِنْ أَرْضِهِمْ
طِوَالَ السَّبِيبِ قِصَارَ الْعُسُبْ(٦)

---

(١) الخطية: الرمح. إنه يجيد الطعن برمحه فيتغلّب على سائر من يستعمل الرماح في القتال، وهو أفتك من يستعمل سيفاً.

(٢) و (٣) الثغور، الواحد ثغر: البلدان المتاخمة لبلاد الأعداء من بلاد المسلمين. إنه نداء أهل الثغور من المسلمين الذين يتقوّون ببطل همام يستنجدون به في ساحات القتال يوم تقطع السيوف الرقاب وقد اشتدّت عليهم المحن، وفرَّت من عيونهم نعمة الأمن والطمأنينة ويئسوا من الحياة، فافتقدوا طعم النوم اللذيذ، وقد استولى على قلوبهم الرعب وضاقت الدنيا عليهم بما رحُبت وخفقت قلوبهم خفقان اليأس.

(٤) الدمستق: قائد الروم، العداة: الأعداء. ثقيل: مريض يلازم الفراش. وصب: مريض. لقد تنامى إلى مسامع الدمستق أن سيف الدولة مريض يلازم الفراش وقد اشتدّ عليه المرض فلا يستطيع حِراكاً.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. ومن عادة خيل سيف الدولة وجيشه أنه لا يتوانى عن نجدة بني قومه مع كونه مريضاً فإذا بها تستجيب لإرادته.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. لقد استعدّ الدمستق فجهز جيشاً جرّاراً تعجز أرضهم عن استيعابه، وقوامه الجياد من الخيل المطهّمة.

تـغِـيـبُ الـشَّـوَاهِـقُ فِـي جَـيْـشِـهِ
وَتَـبْـدُو صِـغَـاراً إذا لَـمْ تَـغِـبْ (١)

وَلَا تَـعْـبُـرُ الـرِّيـحُ فِـي جَـوِّهِ
إِذَا لَـمْ تَـخَـطَّ الْـقَـنَـا أوْ تَـثِـبْ (٢)

فَـغَـرَّقَ مُـدْنَـهُـمُ بِـالْـجُـيُـوشِ
وَأَخْـفَـتَ أصْـوَاتَـهُـمْ بِـالـلَّـجَـبْ (٣)

فَـأَخْـبِـثْ بِـهِ طَـالِـبـاً قَـهْـرَهُـمْ
وَأَخْـبِـثْ بِـهِ تَـارِكـاً مَـا طَـلَـبْ (٤)

نَـأَيْـتَ فَـقَـاتَـلَـهُـمْ بِـاللِّـقَـاءِ
وجِـئْـتَ فَـقَـاتَـلَـهُـمْ بِـالـهَـرَبْ (٥)

وَكَـانُـوا لَـهُ الْـفَـخْـرَ لَـمَّـا أَتَـىٰ
وَكُـنْـتَ لَـهُ الْـعُـذْرَ لَـمَّـا ذَهَـبْ (٦)

---

(١) ولعظم هذا الجيش وكثرة الجند، فقد اختفت الجبال الشاهقة فبدت صغيرة من جوانبها، وقد غطّاها.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. ولضيق المسافة بين جند الأعداء يصعب على الرياح المرور، فإذا بها تخترق الرماح، وقد تعبر الرياح في تموّج تضاريس تلك الجبال بين علوّ وانخفاض.

(٣) اللجب: الصخب، الضجيج، لقد نزل قائد الروم بجيش عظيم بلاد ثغور المسلمين، فإذا بها تغرق بطوفان اكتسح أصوات استغاثة أبناء تلك الثغور لشدّة الجلبة وعلوّ الصخب.

(٤) أخبث من صيغ التعجب. قائد الروم شديد الخبث، فقد رمى جنده لقمة سائغة في أنياب جيش سيف الدولة، ومن خبثه أنه سرعان ما فرّ من ساحة المعركة لجبنه مخلّفاً وراءه جيشاً تتآكله الهزيمة.

(٥) نأيت: بعدت. يخاطب الشاعر سيف الدولة، لقد انتهز قائد الروم بعدك عن سكان الثغور، فلقيهم محارباً، وسرعان ما فاجأته حتى فرّ مؤثراً السلامة، فجعل جنده طعماً للهزيمة النكراء.

(٦) وفي الحقّ أنه آلم سكان الثغور بقتالهم، فافتخر عليهم وعلا كعبه، ولكن ذلك لم يدم طويلاً حتى كانت المفاجأة التي لم يتوقّع حصولها، فإذا بسيف الدولة يصول =

سَـبَـقْـتَ إِلَـيْـهِـمْ مَـنَـايَـاهُـمُ
وَمَـنْـفَـعَـةُ الْـغَـوْثِ قَـبْـلَ الْـعَـطَـبْ (١)
فَـخَـرُّوا لِـخَـالِـقِـهِـمْ سُـجَّـداً
وَلَـوْ لَـمْ تُـغِـثْ سَـجَـدُوا لِـلـصُّـلُـبْ (٢)
وَكَـمْ ذُدْتَ عَـنْـهُـمْ رَدًى بِـالـرَّدَى
وَكَـشَّـفْـتَ مِـنْ كُـرَبٍ بِـالْـكُـرَبْ (٣)
وَقَـدْ زَعَـمُـوا أَنَّـهُ إِنْ يَـعُـدْ
يَـعُـدْ مَـعَـهُ الْـمَـلِـكُ الْـمُـعْـتَـصِـبْ (٤)
وَيَـسْـتَـنْـصِـرَانِ الَّـذِي يَـعْـبُـدَانِ
وَعِـنْـدَهُـمَـا أَنَّـهُ قَـدْ صُـلِـبْ (٥)
لِـيَـدْفَـعَ مَـا نَـالَـهُ عَـنْـهُـمَـا
فَـيَـا لَـلـرِّجَـالِ لِـهَـذَا الْـعَـجَـبْ (٦)

= ويجول، وإذا بقائد الروم يفرّ من ساحة المعركة، وله في ذلك عذر وجيه، فمثل سيف الدولة لا يصمد أمامه أحد.

(١) و (٢) الغوث: النجدة. لقد أدرك سيف الدولة سكان الثغور وهم يدفعون عن أنفسهم مرّ الهزيمة، فإذا بهم يستروحون معنى النصر في أحرج الأوقات وأعسر الظروف، وقبل أن يحلّ بهم موت محقّق، فإذا بهم يسجدون شكراً للّه تعالى على خلاصهم، وإن لم يحصل ذلك لكانوا أذلّة يسجدون للصليب.

(٣) زاد: حمى، دافع. الردى: الموت. الكرب: الحزن الشديد. يخاطب الشاعر سيف الدولة لقد حُلْت دون هلاك سكان الثغور فأهلكت أعداءهم، وكشفت عنهم الغُمّة فأنزلت بجيش العدو الهزيمة والعار.

(٤) و (٥) المعتصب: المتوج. ومن مقولات الروم أن الدمستق قد يرجع بجيش عظيم، وفي هذه المرة قد يقود الجيش ملك الروم المتوّج وإلى جانبه قائده، وهما يبغيان النصر ممن يعبدان، وهما يؤمنان بأنه صُلب، وهل يمكن من صلب أن ينصرهما؟

(٦) وما يثير الدهشة أنهما يعتقدان بأن المسيح عليه السلام قادر على نصرهما مع اعتقادهما بصلبه فلم يمنع أعداءه من الكيد له وقتله؛ وهذا غريب من عقولهم القاصرة.

أَرَى الـمُـسْـلِـمِـيـنَ مَـعَ الـمُـشْـرِكِـيـ
ـنَ إِمَّـا لِـعَـجْـزٍ وَإِمَّـا رَهَـبْ[١]
وَأَنْـتَ مَـعَ الـلَّـهِ فِـي جَـانِـبٍ
قَـلِـيـلُ الـرُّقَـادِ كَـثِـيـرُ الـتَّـعَـبْ[٢]
كَـأَنَّـكَ وَحْـدَكَ وَحَّـدْتَـهُ
وَدَانَ الْـبَـرِيَّـةُ بِـٱبْـنٍ وَأَبْ[٣]
فَـلَـيْـتَ سُـيُـوفَـكَ فِـي حَـاسِـدٍ
إِذَا مَـا ظَـهَـرْتَ عَـلَـيْـهِـمْ كَـئِـبْ[٤]
وَلَـيْـتَ شَـكَـاتَـكَ فِـي جِـسْـمِـهِ
وَلَـيْـتَـكَ تَـجْـرِي بِـبُـغْـضٍ وَحُـبْ[٥]
فَـلَـوْ كُـنْـتَ تَـجْـزِي بِـهِ نِـلْـتُ مِـنْـكَ
أَضْـعَـفَ حَـظٍّ بِـأَقْـوَى سَـبَـبْ[٦]

الملك الأستاذ

يمدحه وأنشده إياها في سلخ شهر رمضان سنة ست وأربعين وثلاث مئة (٩٥٧ م):

[البسيط]

مَـنِ ٱلْـجَـآذِرُ فِـي زِيِّ الأَعَـارِيـبِ
حُـمْـرَ ٱلْـحِـلَـى وَالـمَـطَـايَـا وَٱلْـجَلَابِـيـبِ[٧]

---

(١) ينتقد الشاعر تخاذل المسلمين الذين وادعوا المشركين مؤثرين سلامة أنفسهم، ومن أسباب ذلك أن الخوف استولى على قلوبهم وعقولهم وأن العجز قد شلّ إراداتهم.

(٢) و (٣) يخاطب الشاعر سيف الدولة؛ إنه وحيد ينصر دين اللّه تعالى فلا يعرف للنوم طعماً لذيذاً، بل إنه يرهق نفسه، وهذا يعني أن سيف الدولة قد أخلص للّه تعالى وعبده من دون الناس الذين يؤمنون بالمسيح، أي بالابن والأب.

(٤) ظهرت: تغلبت. الكئب: الحزن. يتمنى الشاعر أن يعمل سيف الدولة سيوفه في الحسّاد، فتكون له الغلبة والكيد لهم؛ وهذا ما يُثلج قلب الشاعر.

(٥) و (٦) الشكاة: المرض. يتمنّى الشاعر أن يحلّ المرض الذي يُعاني منه سيف الدولة أن ينزل في أجسام الحاسدين، ويتمنّى عليه أن يُبادله حبًّا بحبّ، فهو من تمكن في قلبه حبّ سيف الدولة ولكنَّه قليل الحظّ منه.

(٧) الجآذر، الواحد جؤذر: ولد البقرة الوحشية، تشبه النسوة بها لجمال عيونهن. =

إِنْ كُـنْـتَ تَـسْـأَلُ شَـكًّـا فِـي مَـعَـارِفِـهَـا
فَـمَـنْ بَـلَاكَ بِـتَـسْـهِـيـدٍ وَتَـعْـذِيـبِ(١)

لَا تَـجْـزِنِـي بِـضَـنًـى بِـي بَـعْـدَهـا بَـقَـرٌ
تَـجْزِي دُمُـوعِـيَ مَـسْـكُـوباً بِـمَـسْـكُـوبِ(٢)

سَـوَائِـرٌ رُبَّـمَـا سَـارَتْ هَـوَادِجُـهَـا
مَـنِـيـعَـةً بَـيْـنَ مَـطْـعُـونٍ وَمَـضْـرُوبِ(٣)

وَرُبَّـمَـا وَخَـدَتْ أَيْـدِي الـمَـطِـيِّ بِـهَـا
عَـلَـى نَـجِـيـعٍ مِـنَ الْـفُـرْسَـانِ مَـصْـبُـوبِ(٤)

كَـمْ زَوْرَةٍ لَـكَ فِـي ٱلْأَعْـرَابِ خَـافِـيَـةٍ
أَدْهَـى وَقَـدْ رَقَـدُوا مِـنْ زَوْرَةِ الـذِّيـبِ(٥)

= الأعاريب، جمع أعراب: البدو سكان الصحراء. الجلابيب، الواحد جلباب: الملحفة ترتديها النسوة فوق أثوابهن. يشرع الشاعر متغزلاً على طريقة الجاهليين في مطلع قصيدته المدحية مثيراً في ممدوحه لفت نظره إلى سرب من النسوة جميلات العيون، يرتدين من اللباس الأحمر ممَّا يعني أنهن من البدو النبيلات، ومن بنات الملوك، يمتطين نياقاً حمراء كريمة، إنه موكب بهيج يلذّ للمرء سماع أنبائه.

(١) إنها حالة توهّم، لقد التبس الأمر على الشاعر، ما الذي يراه، هل يُشاهد نسوة أم جآذر؟ فإذا به يسأل نفسه عمن أرّق ليله فلم يعرف للنوم طعماً؛ إنه عذاب وسهر.

(٢) الضنى: المرض. يدعو الشاعر ألّا ينزل بالنسوة المرض الذي أسقمه وأضناه، فقد أورثنه داءً أليماً، بفراقهن وجعلنه يبكي حزناً لرحيلهن، وأيضاً في مآقيهن دموع الفراق.

(٣) الهوادج، الواحد هودج: مراكب النسوة على الإبل. يصور الشاعر ما عليه هؤلاء النسوة، فهنّ مصونات لا يجرؤ أحد على الاقتراب منهن لذا فمن تصدّى لهنّ لقي جزاء ذلك الضرب والطعن، لأنهن يرتحلْن بمواكبة وحراسة.

(٤) الوخد: ضرب من سير الإبل السريع الخطو. النجيع: الدم. ومن الجائز أن تسير بهن مطاياهن وقد سالت دماء الفرسان دونهنّ لحمايتهنّ وصونهنّ.

(٥) ورغم منعة هؤلاء النسوة، فقد كان الشاعر دائم الزيارة لهن، ممَّا يعني أنه كان يسطو عليهنّ بجراءته وشجاعته، ولا يبالي بمن يقوم على حراستهن وحمايتهنّ.

أَزُورُهُـمْ وَسَـوَادُ اللَّـيْـلِ يَـشْـفَـعُ لِـي
وَأَنْـثَـنِـي وَبَـيَـاضُ الـصُّـبْـحِ يُـغْـرِي بِـي[١]
قَـدْ وَافَـقُـوا الْـوَحْـشَ فِـي سُـكْـنَـى مَـرَاتِـعِـهَـا
وَخَـالَـفُـوهَـا بِـتَـقْـوِيـضٍ وَتَـطْـنِـيـبِ[٢]
جِـيـرَانُـهَـا وَهُـمُ شَـرُّ الْـجِـوَارِ لَـهَـا
وَصَـحْـبُـهَـا وَهُـمُ شَـرُّ ٱلْأَصَـاحِـيـبِ[٣]
فُـؤَادُ كُـلِّ مُـحِـبٍّ فِـي بُـيُـوتِـهِـمِ
وَمَـالُ كُـلِّ أَخِـيـذِ الـمَـالِ مَـحْـرُوبِ[٤]
مَـا أَوْجُـهُ ٱلْـحَـضَـرِ ٱلْـمُـسْـتَـحْـسَـنَـاتُ بِـهِ
كَـأَوْجُـهِ الْـبَـدَوِيَّـاتِ الـرَّعَـابِـيـبِ[٥]
حُـسْـنُ ٱلْـحَـضَـارَةِ مَـجْـلُـوبٌ بِـتَـطْـرِيَـةٍ
وَفِـي الْـبَـدَاوَةِ حُـسْـنٌ غَـيْـرُ مَـجْـلُـوبِ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. إنه يقوم بزيارتهنّ، والليل يُخيّم على الكون بسدوله المدلهمّة، ويرحل عنهن وقد نشر الصبح خيوطه الذهبية على أرجاء الكون، فيكشف عنه ولا يجرؤ أحد على اعتراضه أو إيذائه.

(٢) المراتع، الواحد مرتع: المراعي حيث ترعى الحيوانات المتوحشة وتسرح. التقويض: الهدم. التطنب: شدّ طُنُب الخيام بالأوتاد. يذكر الشاعر سكنى هؤلاء الأعراب، لقد شاركوا الوحوش في مراتعها ومراعيها، وقد خالفوها بسكن الخيام؛ فهم ينصبونها في حال نزولهم ويقوّضونها في ترحالهم. بينما لا تأوي الوحوش لا خيام لها.

(٣) يذكر الشاعر علاقة هؤلاء الأقوام بجيرانهم، إنهم يفتكون بتلك الوحوش فيمعنون بها قتلاً، ويتخذون من لحومها طعاماً لمن يُعيلون، لذا فهم شرّ الأصحاب والجيران.

(٤) المحروب: المعدم، من لا مال له. يصف الشاعر أخلاق القوم؛ فنساؤهم يستولين على عقول من لعبت بهم لواعج الحبّ، فيأخذنهم بنظراتهن الفاتنة، وأما الرجال منهم فإنهم يستولون على أموال الآخرين وتؤول أحوال هؤلاء إلى الفقر والعدم.

(٥) و (٦) الرعابيب، الواحدة رعبوبة: النساء السمينات التارّات. يفضل الشاعر نساء البدوي على نساء سكّان المدن اللواتي يتزيّن بشتى أنواع الزينة؛ بتطرية وجوههنّ بالمساحيق وسائر أنواع الطيب، لذا فإن جمالهن صناعي خلاف البدويات اللواتي حبتهن العناية الإلهية بجمال طبيعي بعيد عن التصنّع عماده الصدق حيث لا زيف.

أَيْـنَ الـمَـعِـيـزُ مِـنَ الآرَامِ نَـاظِـرَةً
وَغَـيْـرَ نَـاظِـرَةٍ فِـي ٱلْـحُـسْـنِ وَالـطِّـيـبِ (١)

أَفْـدِي ظِـبَـاءَ فَـلَاةٍ مَـا عَـرَفْـنَ بِـهَـا
مَـضْـغَ الْـكَـلَامِ وَلَا صَـبْـغَ الْـحَـوَاجِـيـبِ (٢)

وَلَا بَـرَزْنَ مِـنَ الْـحَـمَّـامِ مَـاثِـلَـةً
أَوْرَاكُـهُـنَّ صَـقِـيـلَاتِ الْـعَـرَاقِـيـبِ (٣)

وَمِـنْ هَـوَى كُـلِّ مَـنْ لَـيْـسَـتْ مُـمَـوِّهَـةً
تَـرَكْـتُ لَـوْنَ مَـشِـيـبِـي غَـيْـرَ مَـخْـضُـوبِ (٤)

وَمِـنْ هَـوَى الـصِّـدْقِ فِـي قَـوْلِـي وَعَـادَتِـهِ
رَغِـبْـتُ عَـنْ شَـعَـرٍ فِـي الـرَّأْسِ مَـكْـذُوبِ (٥)

لَـيْـتَ الْـحَـوَادِثَ بَـاعَـتْـنِـي الَّـذِي أَخَـذَتْ
مِـنِّـي بِـحِـلْـمِـي الَّـذِي أَعْـطَـتْ وَتَـجْـرِيـبِـي (٦)

---

(١) الآرام: الظباء الخالصة البياض. ناظرة: مقبلة. يفاضل الشاعر بين نسوة المدينة، فهن معيز مبهرج، وبين نسوة الأعراب، فهن آرام بيض حِسان من العِين لم يتصنّعن جمالاً، ويمتزن بليونة الجانب لأزواجهن خلاف نسوة المدينة كالمعزى النافرة دائماً، حيث يتطاولن على أزواجهن.

(٢) ينتقد الشاعر نسوة المدن، فهن يتصنعن، فيمضغن الكلام خلاعة وتخنثاً خلاف ظباء الفلاة من الأعراب؛ إنهن فصيحات يُحسنّ نطقاً سليماً.

(٣) ماثلة: بادية، العراقيب، الواحد عرقوب: هو العصب الغليظ فوق عقب الرجل. ومن مظاهر التصنّع أن نسوة المدن يستحمن في الحمامات ليصلحن من شأنهن فيُبدين زينتهن وشيئاً من المظاهر التي تلفت أنظار الرجال بشدّ خصورهنّ بحيث تبدو أوراكهن ظاهرة للعيان ويصقلن عراقيبهن خلاف نساء البدو.

(٤) المموّهة: التزيّف والتدليس. يبدي الشاعر كراهيته لكلّ ما يعتبره تزييفاً لحقيقة الجمال الطبيعي، فقد أبدى انزعاجه من كلّ ما يبدو تصنعاً ولذا فقد أبقى على شيبه ولم يلجأ إلى الخضاب لإخفاء ما آلت إليه حاله.

(٥) رغب عن شيء: تركه. ينوّه الشاعر بحبّه للصدق، وقد تآلف معه واعتاده، فأصبح مَلكة نفسيّة، فكان من الطبيعي أن يبقي على شيب رأسه.

(٦) الحلم: الرزانة. يتمنّى الشاعر لو استطاع العودة إلى الشباب والحيوية، فقد كانت =

فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ
قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ(١)
تَرَعْرَعَ ٱلْمَلِكُ الأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً
قَبْلَ اكْتِهَالٍ أَدِيباً قَبْلَ تَأْدِيبِ(٢)
مُجَرَّباً فَهَماً مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ
مُهَذَّباً كَرَماً مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ(٣)
حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نِهَايَتَهَا
وَهَمُّهُ فِي ابْتِدَاءاتٍ وَتَشْبِيبِ(٤)
يُدَبِّرُ المُلْكَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ
إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ(٥)
إذا أَتَتْهَا الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ
فَمَا تَهُبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ(٦)
وَلا تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إذا شَرَقَتْ
إِلَّا وَمِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ(٧)

= تجارة تبادل المنافع بين الشاعر وبين أحداث الدهر التي أخذت منه شبابه وفتوّته وتركت له التعقّل والرزانة، وهو يتمنّى لو أنها ردّت عليه شبابه واستعادت ما وهبته.

(١) يعقّب الشاعر أن حداثة السن ليست مانعة عن الحلم، لذا فالحليم حليم في كلّ مراحل عمره؛ في شبابه وشيخوخته، وهو كذلك.

(٢) و (٣) ترعرع: شبّ. الأستاذ: لقب كافور. تخلّص الشاعر إلى مدح كافور. لقد نشأ الملك الحسن التدبير كامل الحلم قبل اكتهاله، وجمع إلى ذلك أدب السلوك إضافة إلى أدب العلم، فاكتملت لديه عوامل النضوج، فكان كاملاً دون تدخّل البشر في إنضاجه؛ فقد جمع إلى الفهم حسن التجربة، دون اختبار، وكان مهذباً دون مهذب يقوم على إصلاحه، وذلك بسبب كرم خلق متأصّل فيه.

(٤) و (٥) التشبيب: ذكر ابتداء فترة الشباب. لقد حالف التوفيق كافوراً في مطلع شبابه، وهو لا يزال يطلب المعالي لبعد همته، فقد أدرك، وهو لا يني يجهد بهمة ليحقق أمجاداً قصوى. ويعمل على توسيع دائرة ملكه الذي يشمل مصر وعدن وتخوم بلاد العراق وأطراف أرض الروم والنوبة.

(٦) و (٧) النكب، الواحدة نكباء: الرياح الهوجاء لا حصر لجهة هبوبها. ومن مبالغات =

يُـصَـرِّفُ الأَمْـرَ فِـيـهَـا طِـيـنُ خَـاتَـمِـهِ
وَلَـوْ تَـطَـلَّـسَ مِـنْـهُ كُـلُّ مَـكْـتُـوبِ (١)
يَـحُـطُّ كُـلَّ طَـوِيـلِ الـرُّمْـحِ حَـامِـلُـهُ
مِـنْ سَـرْجِ كـلِّ طَـوِيـلِ الْـبَـاعِ يَـعْـبُـوبِ (٢)
كَـأَنَّ كـلَّ سُـؤَالٍ فِـي مَـسَـامِـعِـهِ
قَـمِـيصُ يُـوسُـفَ فِـي أجْـفَـانِ يَـعْـقُـوبِ (٣)
إِذَا غَـزَتْـهُ أَعَـادِيـهِ بِـمَـسْـأَلَـةٍ
فَـقَـدْ غَـزَتْـهُ بِـجَـيْـشٍ غَـيْـرِ مَـغْـلُـوبِ (٤)
أَوْ حَـارَبَـتْـهُ فَـمَـا تَـنْـجُـو بِـتَـقْـدِمَـةٍ
مِـمَّـا أَرَادَ وَلَا تَـنْـجُـو بِـتَـجْـبِـيـبِ (٥)
أَضْـرَتْ شَـجَـاعَـتُـهُ أَقْـصَـى كَـتَـائِـبِـهِ
عَـلَـى الْـحِـمَـامِ فَـمَـا مَـوْتٌ بِـمَـرْهُـوبِ (٦)

= الشاعر أن الرياح تهبّ على بلاده حسب إرادته، وذلك مهابة له وإعظاماً، فكيف بالبشر؟ إنهم رهن أمره يمتثلون لمشيئته، وحتى الشمس، فإنها تشرق طوعاً لإرادته وتغرب متى شاء، فإذا بها تتفلّت من نظامها الذي خلقها اللّه تعالى عليه؛ وهذا أيضاً من مبالغات المتنبي السمجة.

(١) تطلّس: انطمس، وانمحى. أمر كافور نافذ، وحالما يبدو خاتمه حتى في حال انطماس دلالته، يبادر إلى تنفيذ إرادته إعظاماً له وتبجيلاً.

(٢) اليعبوب من الجياد: السريع العدو. يحطّ: يسجد بعد ترجّله. يكفي أن يرى الفارس ذو الرمح الطويل خاتم كافور حتى يترجّل عن فرسه فيسجد احتراماً وتعظيماً وإذعاناً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. وما يدلّ على كرم كافور أنه يهشّ مسروراً لدى سماعه سائلاً جاء يطلب منه مِنّة وعطاءً وكأن ذلك قميص يوسف قد ألقي على وجه يعقوب فارتدّ بصيراً بإذن اللّه تعالى.

(٤) و (٥) ومن مبالغات الشاعر أن أعادي كافور؛ فقد ينتصرون عليه بحسن مسألته، لأنه لا يردّ طلب طالب. إنه ينتصر على الجيوش الجرارة ولكنه تخجله الكلمة المعسولة المعجونة بالرّقة الخادعة، وهؤلاء لا ينجيهم الفرار من غضبه عند النزال ويقعون بين يديه مهما كثر عددهم، وذلك من حظوظهم ومن حسن حظه فيكونون غنائم سهلة يتساقون تحت أقدامه.

(٦) أضرت: جرأت. الحمام، بكسر الحاء: الموت. ومن أثره الحميد أن شجاعته =

قَـالُـوا هَـجَـرْتَ إِلَـيْـهِ الْـغَـيْـثَ قُـلْـتُ لَـهُـمْ
إِلَـى غُـيُـوثِ يَـدَيْـهِ وَالـشَّـآبِـيـبِ[(١)]

إِلَـى الَّـذِي تَـهَـبُ الـدّوْلاتِ رَاحَـتُـهُ
وَلَا يَـمُـنُّ عَـلَـى آثَـارِ مَـوْهُـوبِ[(٢)]

وَلَا يَـرُوعُ بِـمَـغْـدُورٍ بِـهِ أَحَـداً
وَلَا يُـفَـزِّعُ مَـوْفُـوراً بِـمَـنْـكُـوبِ[(٣)]

بَـلَـى يَـرُوعُ بِـذِي جَـيْـشٍ يُـجَـدِّلُـهُ
ذَا مِـثْـلِـهِ فِـي أَحَـمِّ الـنَّـقْـعِ غِـرْبِـيـبِ[(٤)]

وَجَـدْتُ أَنْـفَـعَ مَـالٍ كُـنْـتُ أَذْخَـرُهُ
مَـا فِـي الـسَّـوَابِـقِ مِـنْ جَـرْيٍ وَتَـقْـرِيـبِ[(٥)]

لَـمَّـا رَأَيْـنَ صُـرُوفَ الـدَّهْـرِ تَـغْـدِرُ بِـي
وَفَـيْـنَ لِـي وَوَفَـتْ صُـمُّ الأَنَـابِـيـبِ[(٦)]

= حملت الجبناء في جيشه الذين يتخلّفون في مؤخرته إلى أن ثارت في نفوسهم روحه، فإذا بهم لا يهابون الموت.

(١) و (٢) الشآبيب، الواحد شؤبوب: الدفعة الشديدة من المطر. يعرّض الشاعر بسيف الدولة، وقد تركه غير نادم؛ الناس يتداولون خبر فراره من كنف سيف الدولة، وهو كريم، فردّ عليهم أنه قصد غيوثاً مخلّياً المغيث وفيضه إلى فيوضات تمتدّ وتمتدّ بحيث تتّسع الوجود بأكوانه إنه المعطاء يسبغ على أمثال الشاعر الدول والأموال الجزيلة بلا حساب.

(٣) و (٤) يروع: يرعب. إن من حسن سيرته وعدله في رعيته، أنه لا يتسلّط على أموال أحد من رعاياه فيثير خوف غيره على ممتلكاته، فمن كان لديه وفر من مال يطمئن على ما لديه فلا ينكبه، ولكنه يُرعب جيوش أعدائه فيُنزل بهم الهزائم ممَّا يثير خوف أعداء آخرين فيلزمون الحياد ويُؤثرون السلامة مخافة مآل لا تحمد عُقباه ودماء تغطّي الأرض من جيش مهما عظم عدده.

(٥) التقريب: ضرب من العدو. لقد أعدّ الشاعر عُدّة الخلاص من غدر سيف الدولة، عمادها جياد اعتادت السبق وتمارس فنون الركض حتى حطّ رحاله عند كافور.

(٦) صروف الدهر: مصائبه، نوائبه. صمّ الأنابيب: الرماح. إن تلك الجياد تشارك =

فُتْنَ الْمَهَالِكَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهَا
مَاذا لَقِينَا مِنَ الْجُرْدِ السَّرَاحِيبِ(١)
تَهْوِي بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ
لِلُبْسِ ثَوْبٍ وَمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبِ(٢)
يَرَى النُّجُومَ بِعَيْنَيْ مَنْ يُحَاوِلُهَا
كَأَنَّهَا سَلَبٌ فِي عَينِ مَسْلُوبِ(٣)
حَتَّى وَصَلْتُ إِلى نَفْسٍ مُحَجَّبَةٍ
تَلْقَى النُّفُوسَ بِفَضْلٍ غَيْرِ مَحْجُوبِ(٤)
فِي جِسْمِ أَرْوَعَ صَافِي الْعَقْلِ تُضْحِكُهُ
خَلَائِقُ النَّاسِ إِضْحَاكَ الأعَاجِيبِ(٥)
فَالْحَمْدُ قَبْلُ لَهُ وَالْحَمْدُ بَعْدُ لَهَا
وَلِلْقَنَا وَلإدْلَاجِي وَتَأْوِيبِي(٦)

= الشاعر مصيره، فإذا به وقد ألمّت بداره المصائب يجد في تلك الجياد المعين والنصير الصادق، وكذلك الرماح التي كان يختزنها لوقت الحاجة.

(١) و (٢) فتن: اجتزن. المهالك: الطرق الخطرة. الجرد من الجياد: القصيرة الشعر. السراحيب، واحدها سُرحوب: الفرس الطويل. لقد استطاع الشاعر اجتياز كلّ الصعاب الطبيعية، ونجح في التغلُّب على أسباب الخوف، فإذا بالمهالك تطويها جياده طيًّا سهلاً، حتى تعجّبت المهالك من نجاحها بالوصول إلى كافور، بسرعة يقودها ماضٍ بعيد الهمّة لا يطلب مالاً ولا لباساً، وإنما يبغي مجداً مخلّداً تذكره الأيام.

(٣) طموح عظيم لا يحدّه حدّ، يودّ الشاعر أن يُمسك بكلتا يديه نجوم السماء ويتشبّث بها وكأنها سُلبت منه، وهو يبغي استعادتها بما أوتي من قوّة.

(٤) و (٥) لقد استطاع الشاعر معرفة حقيقة ذاته، فترفّع واحتجب عن الخلق ترفّعاً، ومن هوان الناس عليه، فإنه يلقاهم غير هيّاب. ذلك أنه ثابت الجنان لا تثنيه المحن يتحكم عقله بأعماله العظيمة، ولذا فهو يسخر من صغائر الناس وهم يثيرون ضحكه لإسفافهم وضعتهم، حتى من اتهم منهم بأنه يملك عقلاً مميّزاً.

(٦) الإدلاج: السير في الليل. التأويب: السير خلال النهار. يحمد الشاعر فعل كافور به واستقباله الحافل له، كما يمدح جياده وسلاحه ودأبه الدائم ليل نهار، وهو يسعى في سبيل المجد.

وَكَــيْــفَ أَكْــفُــرُ يَــا كَــافُــورُ نِــعْــمَــتَــهَــا
وَقَـدْ بَـلَـغْـنَـكَ بِـي يَـا كُـلَّ مَـطْـلُـوبِـي (١)

يَـا أَيُّـهَـا الْـمَـلِـكُ الْـغَـانِـي بِـتَـسْـمِـيَـةٍ
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَنْ وَصْفٍ وَتَلْقِيبِ (٢)

أَنْـتَ الْـحَـبِـيـبُ وَلَـكِـنِّـي أَعُـوذُ بِـهِ
مِـنْ أَنْ أَكُـونَ مُـحِـبًّـا غَـيْـرَ مَـحْـبُـوبِ (٣)

كل مكان ينبت العز طيب

يمدحه في شوال سنة سبع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٨ م):

[الطويل]

أُغَـالِـبُ فِـيـكَ الـشَّـوْقَ وَالـشَّـوْقُ أَغْـلَـبُ
وَأَعْـجَـبُ مِـنْ ذَا الـهـجْـرِ وَالْـوَصْـلُ أَعْـجَـبُ (٤)

أَمَــا تَــغْــلَــطُ الأَيَّــامُ فِــيَّ بِــأَنْ أَرَى
بَـغِـيـضـاً تُـنَـائِـي أَوْ حَـبِـيـبـاً تُـقَـرِّبُ (٥)

---

(١) يقرّ الشاعر أنه لن يُنكر النعمة التي قدمتها خيوله، فقد أعانته على إدراك مناه وأوصلته إلى مطلوبه.

(٢) الغاني: المستكفي. يخاطب الشاعر الملك بأنه مشهور باسمه شرقاً وغرباً، وهو غني عن كلّ وصف، وهو لا يحتاج لأي لقب.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٤٧. يخاطب الشاعر كافوراً معلناً حبّه له، وهو يتمنى على الملك أن يُبادله حبًّا بحبّ، وهذا ما يفرحه ويُثلج صدره.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. يُخاطب الشاعر ممدوحه كاشفاً معاناته؛ إنها مغالبة وجدانية، مغالبة بين الحبّ الصادق المخلص للممدوح، والممدوح لا يعير أدنى اهتمام لشاعره، والهجر هنا معنوي، فكلّ منهما يلتقي صاحبه، فالجفاء من قبل الممدوح، والشوق من قبل الشاعر الذي يُعاني حالة صراع مع ممدوحه ومع ذاته، وهو يستعين بصبره عسى أن تزول تلك الجفوة بينهما، وعماد صبره حبّ مخلص صادق.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣١٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. التنائي: البعد. يرى الشاعر أن الزمن يعمل بخلاف ما يريد، إنه يعمل على تقريب من يكرهه إلى ممدوحه، وإبعاده، لذا يتساءل إن كان بإمكان الزمن قلب تلك =

وَلِـلّـهِ سَـيْـرِي مَـا أَقَـلَّ تَـئِـيَّـةً
عَـشِـيَّـةَ شَـرْقِـيّ الْـحَـدَالَـى وَغُـرَّبُ (١)
عَـشِـيَّـةَ أَحْـفَـى الـنَّـاسِ بِـي مَـنْ جَـفَـوْتُـهُ
وَأَهْـدَى الـطَّـرِيـقَـيْـنِ الَّـتِـي أَتَـجَـنَّـبُ (٢)
وَكَـمْ لِـظَـلَامِ الـلَّـيْـلِ عِـنْـدَكَ مِـنْ يَـدٍ
تُـخَـبِّـرُ أَنَّ الـمَـانَـوِيَّـةَ تَـكْـذِبُ (٣)
وَقَـاكَ رَدَى الأَعْـدَاءِ تَـسْـرِي إِلَـيْـهِـم
وَزَارَكَ فِـيـهِ ذُو الـدَّلَالِ الـمُـحَـجَّـبُ (٤)
وَيَـوْمٍ كَـلَـيْـلِ الْـعَـاشِـقِـينَ كَـمَـنْـتُـهُ
أُرَاقِـبُ فِـيـهِ الـشَّـمْـسَ أَيَّـانَ تَـغْـرُبُ (٥)

= المعادلة فيقربه من ممدوحه ويبعد أعداءه عن ممدوحه، فيخلو له جوّ المحبّة فتعود المياه إلى مجاريها.

(١) التئية: المكوث في المكان والبقاء فيه. الحدالى: موضع بالشام. غرّب: جبل: أحد جبال الشام. يعجب الشاعر من سرعة رحلته تاركاً وراءه حلب ومن فيها، فإذا بالأرض تنطوي بسرعة، وهو لا يستكين بمكان مارًّا بالحدالى وغرّب.

(٢) يقصد بأحفى الناس: سيف الدولة. جفا: بعُد مغاضباً. كان ذلك عشية رحلة اللاعودة إلى من أحسن استقبال الشاعر، ووضعه بالمكان اللائق به، وعلى مفرق الطرق كان حوار داخلي بين الشاعر وذاته فهل يرجع إلى مكرمه أم يتابع رحلة الهروب إلى المجهول. إنه القرار الصعب.

(٣) المانوية: أصحاب ماني الزردشتي الذي يقول بأن النور هو الخير كله وبأن الظلمة الوجه المعاكس للنور وتتمثل به الظلمة، يُناقش الشاعر ما عليه من عزم بنظرة سوداوية تشاؤمية، مفضلاً الظلمة على النور، مؤكداً بأن المانويين يكذبون بادعائهم بأن الظلمة يتمثل فيها الشرّ.

(٤) الردى: الموت، السُّرى: سير الليل. والسبب في أن الشاعر آمن بتلك النظرية أن الظلمة حجبته عن أعين الأعداء وأعانته على تحقيق مبتغاه. إنها نظرة تنمّ عن لؤم طبع الشاعر، فقد جعل معشر سيف الدولة أعداءً وقد عايشهم واستفاد من سيف الدولة مالاً وجاهاً وصيتاً حسناً. وقد زاره طيف أحلامه مشجعاً إيّاه على التمادي بهروبه إلى قدره الذي يرى فيه تحقيق آماله.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. يصوّر الشاعر حالة الخوف =

وَعَــيْــنِــي إِلَــى أُذنَــيْ أَغَــرَّ كَــأَنَّــهُ
مِـنَ الـلَّـيْـلِ بَـاقٍ بَـيْـنَ عَـيْـنَـيْـهِ كَـوكَـبُ(١)

لَـهُ فَـضْـلَـةٌ عَـنْ جِـسْـمِـهِ فِـي إِهَـابِـهِ
تَـجِـيءُ عَـلَـى صَـدْرٍ رَحِـيـبٍ وَتَـذْهَـبُ(٢)

شَـقَـقْـتُ بِـهِ الـظَّـلْـمَـاءَ أُدْنِـي عِـنَـانَـهُ
فَـيَـطْـغَـى وَأُرْخِـيـهِ مِـرَاراً فَـيَـلْـعَـبُ(٣)

وَأَصْــرَعُ أَيَّ الْــوَحْــشِ قَــفَّــيْــتُــهُ بِــهِ
وَأَنْــزِلُ عَــنْــهُ مِــثْــلَــهُ حِــيــنَ أَرْكَــبُ(٤)

وَمَـا الْـخَـيْـلُ إِلَّا كَـالْـصَّـدِيـقِ قَـلِـيـلَـةٌ
وَإِنْ كَـثُـرَتْ فِـي عَـيْـنِ مَـنْ لَا يُـجَـرِّبُ(٥)

= التي كان يُعاني منها. لقد استتر عن العيون ذلك اليوم، فإذا بذلك اليوم لا يبدو كسائر الأيام؛ إنه يوم طويل كليل العاشقين المحرومين طويل طويل، حيث يتطلّع إلى نهاية يوم غير مرغوب به على أمل أن يستر الليل مسعاه.

(١) وردت الأبيات الستة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. الأغرّ: الفرس الأبيض الجبهة. ولشدّة حذر الشاعر فقد استعان بجواده، مركزاً على أذنيه؛ ذلك أن الفرس شديد السمع، وإذا ما سمع ما يُخيفه نصب أذنيه فيتنبه فارسه ويحتاط للأمر، ويتماهى لون الجواد مع سواد الليل البهيم، ولكن عينيه تضيئان وكأنهما كوكبان ينيران أمام فارسه طريق رحلته.

(٢) الإهاب: الجلد. رحيب: واسع. يصف الشاعر فرسه؛ إنه رحيب الإهاب، تتسع خطواته، فيطوي المسافات. ومن حسنات إهابه الفضفاض أنه يسمح له أن يسبح بحرّية، فتجيء وتذهب على صدره الرحيب.

(٣) العِنان: سير اللجام. يصف الشاعر سير الفرس؛ فقد مزّق ظلمة الليل ووحشته، وطوراً يدني لجامه ويجذبه إليه فيثب نشيطاً مرحاً، وفي حال أرخى له لجامه لعب برأسه فرحاً مرحاً.

(٤) قفيته: لحقته. وذلك الفرس يُشارك سيده الصيد، إنه سريع يُعين على قتل الوحش الضاري بسرعته وطواعيته لسيده، وفي كلا الحالين، أي بعد الانتهاء من الصيد والترجّل عنه أو ركوبه، فهو يحتفظ بحيويته ونشاطه.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣١٣. يبدي المتنبي رأيه بأن الجياد التي تمتاز =

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا
وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ (١)

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ
فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ (٢)

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً
فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعَتَّبُ (٣)

وَبِي مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّي أَقَلُّهُ
وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلَّبُ (٤)

وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَدْحَهُ
وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمْلِي عَلَيَّ وَأَكْتُبُ (٥)

= بحسن المودة والإخلاص نادرة. تكتشف حقيقة أمرها بالمصاحبة الدائمة، شأنها في ذلك شأن الأصدقاء الحقيقيين، تكتشف طبيعتهم وقت الشدائد، ومن هنا كانوا من الندرة بمكان.

(١) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٣. يرى الشاعر أن تعدّد ألوان الخيل وشدّة جريها مزيّة تثير إعجاب البشر، ولكن ذلك غير كافٍ، فثمّة مزايا عظيمة قوامها الإخلاص لفرسانها، وقيامها بما يُطلب منها في الأزمات.

(٢) لحى: دعا. يدعو الشاعر على الدنيا ويذم حالها؛ فإنها لا يدوم صفاؤها للبشر في رحلة الحياة، والإنسان كراكب يُنيخ راحلته، ثم يرحل مخلفاً وراءه أحلامه التي لم يُحقق منها إلّا النزر اليسير، وخصوصاً من كانت آمالهم عظيمة كبيرة.

(٣) يتمنى الشاعر لو يتخلّى عن شكواه من الدهر وذمّه في شعره، فقد أصبح ذلك ديدنه في كل ما ينشد؛ إنه يرغب في أن يبلّغه آماله وأحلامه ليرضى فيتوقّف عن هذه العادة.

(٤) يذود: يمنع ويدفع. قلبي قلّب: خبير بتغيّر الأحوال. لقد نزل بساحة الشاعر من المصائب والويلات ما يحول بينه وبين قول النزر من الشعر، ورغم ذلك لا يمنع قلبه المتفتح من قول الشعر رغم العثرات؛ إنها عابرة في حياة العظماء.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٥١. بعد هذه المقدمة المفعمة بالتشاؤم ولوم الدهر يتخلّص الشاعر إلى مدح كافور؛ فأخلاقه ومزاياه تقتضي من الشاعر وتلزمه أن يذكر محاسنه، فمن معينه يستلهم أفكاره، لذا فهو يمدحه بما هو فيه، شاء ذلك أو لم يشأ.

إِذَا تَـــرَكَ الإِنْــســانُ أَهْــلاً وَرَاءَهُ
وَيَــمَّــمَ كَــافُــوراً فَــمَــا يَــتَــغَــرَّبُ[١]
فَــتًــى يَــمْــلأُ الأَفْــعَــالَ رَأْيــاً وَحِــكْــمَــةً
وَنَــادِرَةً أَحْــيَــانَ يَــرْضَــى وَيَــغْــضَــبُ[٢]
إِذَا ضَــرَبَــتْ فِــي الْــحَــرْبِ بِــالــسَّــيْــفِ كَــفُّــهُ
تَــبَــيَّــنْــتَ أَنَّ الــسَّــيْــفَ بِــالْــكَــفِّ يَــضْــرِبُ[٣]
تَــزِيــدُ عَــطَــايَــاهُ عَــلَــى الــلَّــبْــثِ كَــثْــرَةً
وَتَــلْــبَــثُ أَمْــوَاهُ الــسَّــحَــابِ فَــتَــنْــضُــبُ[٤]
أَبَــا الــمِــسْــكِ هَــلْ فِــي الْــكَــأْسِ فَــضْــلٌ أَنَــالُــهُ
فَــإِنِّــي أُغَــنِّــي مُــنْــذُ حِــيــنٍ وَتَــشْــرَبُ[٥]
وَهَــبْــتَ عَــلَــى مِــقْــدَارِ كَــفَّــيْ زَمَــانِــنَــا
وَنَــفْــسِــي عَــلَــى مِــقْــدَارِ كَــفَّــيْــكَ تَــطْــلُــبُ[٦]

---

(١) يمّم: توجّه، قصد. لم يشعر الشاعر بالغربة في كنف كافور، فقد ترك الأهل والأحباب، فإذا به يجد نفسه بين أحبّة، أحسنوا استقباله فكأنه لم يغترب.

(٢) النادر: الغريب، شرع الشاعر يمدح كافوراً، إنه فتى كامل الفتوّة، قوامها عقل راجح ورأي سديد وفعل رزين، ويرشده عقله إلى مكارم الأخلاق فلا يتسرّع بالحكم ولا يغضب؛ فالعفو ملكة لديه رغم قدرته.

(٣) إن كافوراً قوي الساعد، فالسيف يعمل بإرادته حتى ولو كان غير ماض، وبقوّته يستظهر ويقوى على الفتك، فمهما كان السيف ماضياً وحامله ضعيف، فإنه لا يعمل بذاته بل بقوّة حامله.

(٤) اللبث: البقاء. نضب الماء: جفّ وذهب في الأرض. ومن صفات كافور أنه كريم معطاء تتوالى هباته فلا تنفد. بينما تمطر السحب الماء الذي سرعان ما يغور بالأرض ويذهب جفاءً، فيموت الزرع ويجفّ.

(٥) و (٦) يخاطب الشاعر كافوراً؛ إنه أبو المسك، الطيب العبق، منوّهاً بما قدّمه لممدوحه فقد تغنّى بفضائله فأطربه ورواه من فيض نبع شعره، وكأسه مترعة، ويسأله إذا كان لديه فضلة شربها، وهو لا يزال ينتظر ما حمله على المجيء إليه من توليه ولاية، ولقد حصل الشاعر على مقدار ما جاد به الزمن، ولكن الشاعر يأمل أن =

إذا لَـمْ تَـنُـطْ بِـي ضَـيْـعَـةً أَوْ وِلَايَـةً
فَـجُـودُكَ يَـكْـسُـونِـي وَشُـغْـلُـكَ يَـسْـلُـبُ (١)

يُـضَـاحِـكُ فِـي ذَا الْـعِـيـدِ كُـلٌّ حَـبِـيـبَـهُ
حِـذَائِـي وَأَبْـكِـي مَـنْ أُحِـبُّ وَأنْـدُبُ (٢)

أَحِـنُّ إِلَـى أهْـلِـي وَأهْـوَى لِـقَـاءَهُـمْ
وَأيْـنَ مِـنَ الْـمُـشْـتَـاقِ عَـنْـقَـاءُ مُـغْـرِبُ (٣)

فَـإِنْ لَـمْ يَـكُـنْ إِلَّا أَبُـو الْـمِـسْـكِ أَوْ هُـمُ
فَـإِنَّـكَ أَحْـلَـى فِـي فُـؤَادِي وَأَعْـذَبُ (٤)

وَكُـلُّ امْـرِئٍ يُـولِـي الْـجَـمِـيـلَ مُـحَـبَّـبٌ
وَكُـلُّ مَـكَـانٍ يُـنْـبِـتُ الْـعِـزَّ طَـيِّـبُ (٥)

يُـرِيـدُ بِـكَ الْـحُـسَّـادُ مَـا الـلَّـهُ دَافِـعٌ
وَسُـمْـرُ الْـعَـوَالِـي وَالْـحَـدِيـدُ الْـمُـذَرَّبُ (٦)

= يحصل على مقدار كرم ممدوحه، وذلك بيده، وهو سهل عليه.

(١) تنط: تفوّض. دفع الإلحاح الشاعر إلى التصريح بما يبغيه من كافور؛ إنها الولاية، فإن لم يستجب لرجائه، فقد سبق جوده أن أغناه، ومن جميل الفضل أن يتمّ، وإلّا فإن ذلك يعني أن كافوراً بإهماله يسلبه كل ما قدّم وتضيع آماله وتذهب سدى.

(٢) ينظر الشاعر حواليه، فيرى الناس فرحين مسرورين، إنه العيد يحمل المسرّة والبشرى للبشر، أما الشاعر فإنه يشعر بالغربة، فلا قريب ولا حبيب. وما يخفف عنه شدّة وطأة هذا الإحساس ولاية تدخل عليه سعادة تنسيه أحزانه وتُعيد البسمة إليه، فلا يبكي غربته.

(٣) العنقاء: طائر خرافي. ما يثير الشفقة أن الشاعر يذكر غربته وشدّة حنينه إلى أهله، وهو يودّ لقاءهم. وفي ذلك تحذير مبطّن من أن الشاعر قد يرحل عن كافور في حال خيبة أمله، ولكن عدم تحقيق أمنيّته وبعده عن أهله يحملانه على الإحساس بالمرارة.

(٤) يعلن الشاعر عن أمنيّته الاجتماع بأهله إلى جانب كنف كافور، وذلك بعيد المنال، لذا فهو يرى قربه من ممدوحه عذباً ولقاءه أجدى وأنفع ممّا يخفف عنه وحشة الغربة.

(٥) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٠٠. ويردف الشاعر أن ما حصل عليه من أفضال كافور محبب إلى نفسه، لذا فهو يُعول على الإقامة عنده؛ فكلّ بيت ينبت العزّ تطيب الإقامة فيه.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. إنها رعاية اللّه تعالى تحميك =

وَدُونَ الَّـذِي يَـبْـغُـونَ مَـا لَـوْ تَـخَـلَّـصُـوا
إِلَى الـمَوْتِ مِنْهُ عِشْتَ وَالطِّفْلُ أَشْيَبُ[(١)]
إِذَا طَـلَـبُـوا جَـدْوَاكَ أُعْـطُـوا وَحُـكِّـمُـوا
وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ خُيِّبُوا[(٢)]
وَلَـوْ جَـازَ أَنْ يَـحْـوُوا عُـلَاكَ وَهَـبْـتَـهَـا
وَلٰكِـنْ مِـنَ الأَشْـيَـاءِ مَـا لَـيْـسَ يُـوهَـبُ[(٣)]
وَأَظْـلَـمُ أَهْـلِ الـظُّـلْـمِ مَـنْ بَـاتَ حَـاسِـداً
لِـمَـنْ بَـاتَ فِـي نَـعْـمَـائِـهِ يَـتَـقَـلَّـبُ[(٤)]
وَأَنْـتَ الَّـذِي رَبَّـيْـتَ ذَا الـمُـلْـكِ مُـرْضَـعـاً
وَلَـيْـسَ لَـهُ أُمٌّ سِـوَاكَ وَلَا أَبُ[(٥)]
وَكُـنْـتَ لَـهُ لَـيْـثَ الْـعَـرِيـنِ لِـشِـبْـلِـهِ
وَمَـا لَـكَ إِلَّا الْـهِـنْـدُوَانِـيُّ مِـخْـلَـبُ[(٦)]

= رغم كيد الحسّاد الذين يريدون بك سوءًا، وما يحول دون مقصدهم همتك وجندك المدجّجون بالسلاح المحدّد والمثقّف.

(١) ويُعقب الشاعر بأن الراغبين بزوال ملك كافور لن يُفلحوا في مبتغاهم فدون ما يريدون أهوال تودي بهم إلى الهلكة، والملك سيبقى سليماً معافىً، وهذا ما يجعل أطفالهم شيباً لما يرون من حسن بلائك بأعدائك.

(٢) و (٣) وردت الأبيات التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. جدواك: عطاياك. خيّبوا: خسروا. ينوّه الشاعر بحلم كافور وكرمه، فإنه لا يبخل في حال طلب الحسّاد عطاءً فإنهم يحصلون عليه دون توانٍ وتسويف، وهو يجعل لهم الحكم في ما يطلبون بطواعية، أما أن يطمعوا في فضل آثره اللّٰه تعالى به دونهم، فهذا لن يتأتى لهم، فذلك لا يكون بالسعي لبلوغه، وإنما يتمّ ذلك برغبة إلهية، ولو عاد الأمر إليك لما توانيت، والحقيقة أن اللّٰه تعالى يهب الملك لمن يشاء.

(٤) ومن شيم ضعاف النفوس الذين تملّكت في نفوسهم نقيصة الحسد والظلم لمن ينعمون بفضله ويرتعون في نعمائه، فذلك من لؤم طباعهم وخسّة نفوسهم.

(٥) و (٦) ذو الملك: إنه علي بن الأخشيد صاحب مصر، فقد عني به الأخشيد بعد أبيه. ينوّه الشاعر بما فعله كافور، فقد كان لولد الأخشيد بعد وفاة والده بمثابة الأم والأب، فقد حماه وحمى مصر، فكان أسداً يدفع البلاء عن بلاده ويصونه بسيفه =

لَـقِـيـتَ الْـقَـنَـا عَـنْـهُ بِـنَـفْـسٍ كَـرِيـمَـةٍ
إِلَى الْمَوْتِ فِي الْهَيْجَا مِنَ الْعَارِ تَهْرُبُ (١)
وَقَـدْ يَـتْـرُكُ الـنَّـفْـسَ الَّـتِـي لاَ تَـهَـابُـهُ
وَيَـخْـتَـرِمُ الـنَّـفْـسَ الَّـتِـي تَـتَـهَـيَّـبُ (٢)
وَمَـا عَـدِمَ الـلاَّقُـوكَ بَـأْسـاً وشِـدَّةً
وَلٰـكِـنَّ مَـنْ لاَقَـوْا أَشَـدُّ وَأَنْـجَـبُ (٣)
ثَـنـاهُـمْ وَبَـرْقُ الْـبِـيضِ فِـي الْـبَـيْـضِ صَادِقٌ
عَلَيْهِمْ وَبَرْقُ الْبَيْضِ فِي الْبِيضِ خُلَّبُ (٤)
سَـلَـلْـتَ سُـيُـوفـاً عَـلَّـمَـتْ كـلَّ خَـاطِـبٍ
عَـلَـى كـلِّ عُـودٍ كَـيـفَ يَـدْعُـو ويَـخْـطُـبُ (٥)
ويُـغْـنِـيـكَ عَـمَّـا يَـنْـسُـبُ الـنَّـاسُ أَنَّـهُ
إِلَـيْـكَ تَـنَـاهَـى الـمَـكْـرُمَـاتُ وتُـنْـسَـبُ (٦)

= المصنوع في بلاد الهند. والعرين: بيت الأسد. الشبل: ولد الأسد.

(١) و (٢) القنا: الرماح. الهيجا، بتخفيف الهمزة: الحرب. ولقد حامى كافور عن طفل سيده فلقي رماح الأعداء بشجاعة نادرة المثال مؤثراً الموت في سبيل الأمانة التي وُكّل بحمايتها ورعايتها، فلم يفرَّ مخافة الهلاك، لذا فقد يتنحّى الموت عن طريق من لا يهابه، ويصطفي من يخافه لجبنه فيودي به إلى التهلكة.

(٣) وفي الحقّ أن من تصدّى لهم كافور أقوياء شجعان، ولكن كافوراً أشدّ بأساً منهم، ولذلك فتك بهم وأودى بهم إلى التهلكة.

(٤) البيض: السيوف. البرق الخلّب: الخادع الذي لا يحمل ماءً. لقد عاد أعداء كافور مهزومين؛ فقد كانت سيوفه صادقة الوعد، تسدّدها العزائم، ولم تمنعها عن إتمام مقاصدها الخوذ التي احتمى بها أعداؤه، فإنها لا تمنع من قدر، إنها برق خُلّب كاذب لا رواء فيه ولا ماء.

(٥) لقد كانت سيوف كافور بأعدائه ملهمة لخطباء المساجد أن يدعوا له بالنصر والظفر المؤيّد على منابرهم مثنين على فعاله.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. يخاطب الشاعر كافوراً بأنه وصل إلى ما وصل إليه بهمة عالية، فحقّق من الأمجاد ما لم يستطع تحقيقه من كان أجداده تنسب إليهم المعالي؛ إنه أصل وإنهم فروع لا قيمة لهم.

وَأَيُّ قَـبِـيـلٍ يَـسْـتَـحِـقُّـكَ قَـدْرُهُ
مَـعَـدُّ بْـنُ عَـدْنَـانٍ فِـدَاكَ ويَـعْـرُبُ (١)
وَمَـا طَـرَبِـي لَـمَّـا رَأَيْـتُـكَ بِـدْعَـةً
لَـقَـدْ كُـنْـتُ أَرْجُـو أَنْ أَرَاكَ فَـأَطْـرَبُ (٢)
وتَـعْـذُلُـنِـي فِـيـكَ الْـقَـوَافِـي وهِـمَّـتـي
كَـأَنِّـي بِـمَـدْحٍ قَـبْـلَ مَـدْحِـكَ مُـذْنِـبُ (٣)
وَلٰـكِـنَّـهُ طَـالَ الـطَّـرِيـقُ وَلَـمْ أَزَلْ
أُفَـتِّـشُ عَـنْ هَـذَا الْـكَـلامِ وَيُـنْـهَـبُ (٤)
فَـشَـرَّقَ حَـتَّـى لَـيْـسَ لِـلـشَّـرْقِ مَـشْـرِقٌ
وَغَـرَّبَ حَـتَّـى لَـيْـسَ لِـلْـغَـرْبِ مَـغْـرِبُ (٥)
إِذَا قُـلْـتُـهُ لَـمْ يَـمْـتَـنِـعْ مِـنْ وُصُـولِـهِ
جِـدَارٌ مُـعَـلًّـى أَوْ خِـبَـاءٌ مُـطَـنَّـبُ (٦)

---

(١) ومن زيف كذب الشاعر أنه يرفع قدر كافور؛ فإذا بقدر معد بن عدنان دون قدر ممدوحه، ولذا يدعو له أن يكون سيد العرب فداءه.

(٢) يستشفّ من بين كلمات هذا البيت المرارة التي يُحسّها المتنبي في نفسه ومدى كرهه لكافور، يفرح الشاعر أن يرى في كافور بدعة ومدعاة للسخرية ولقد كانت أمنيّته أن يرى هذا المثال من البشر حتى يفرح ويطرب.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. عذل: لام. يخاطب الشاعر كافوراً أن شعره وهمته قد لاماه لأنه قد مدح غيره قبل مدحه؛ فقد كان الأوجب أن يكون ملهمه دون سائر الناس، ولذا فإنه يشعر بالذنب لذلك.

(٤) ومما يدعو الشاعر إلى الاعتذار لكافور لأنه مدح غيره قبل مثوله بين يديه أنه أطال الترحال، وامتدّت الطريق، فكان لا بدّ له من مدح من يمرّ بهم حتى وصل بلاط كافور أخيراً؛ إنها تجارة الكلام ولا بدّ لها من سوق، ولا بدّ له من تزويق الكلام لكي يغتني به.

(٥) و (٦) يفخر الشاعر أن شعره طبّق الآفاق شرقاً وغرباً، فطارت شهرته وانتشر شعره، فتناولته الأسماع، واخترق كلّ الموانع واجتاز الجدران العالية وحتى وصل إلى أسماع الأعراب وهم الذوّاقة العالمون بشتّى فنون القول.

خير جليس كتاب

يمدحه وأنشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاث مئة (٩٦٠م) وهي آخر ما أنشده ولم يلقه بعدها:

[الطويل]

مُـنًـى كُـنَّ لِـي أَنَّ الْـبَـيَـاضَ خِـضَـابُ
فَـيَـخْـفَـى بِـتَـبْـيِـيضِ الْـقُـرُونِ شَـبَـابُ (١)

لَـيَـالِـيَ عِـنْـدَ الْـبِـيـضِ فَـوْدَايَ فِـتْـنَـةٌ
وَفَـخْـرٌ وَذَاكَ الْـفَـخْـرُ عِـنْـدِيَ عَـابُ (٢)

فَـكَـيْـفَ أَذُمُّ الْـيَـوْمَ مَـا كُـنْـتُ أَشْـتَـهِـي
وَأَدْعُـو بِـمَـا أَشْـكُـوهُ حِـيـنَ أُجَـابُ (٣)

جَـلَا الـلَّـوْنُ عَـنْ لَـوْنٍ هـدَى كـلَّ مَـسْـلَـكٍ
كَـمَـا ٱنْـجَـابَ عَـنْ ضَـوْءِ الـنَّـهَـارِ ضَـبَـابُ (٤)

وَفِـي الْـجِـسْـمِ نَـفْـسٌ لَا تَـشِـيـبُ بِـشَـيْـبِـهِ
وَلَـوْ أَنَّ مـا فِـي الْـوَجْـهِ مِـنْـهُ حِـرَابُ (٥)

---

(١) لقد اشتعل رأس الشاعر شيباً، فكان بمثابة الخضاب الذي غطّى به سواد شعره؛ ففي الشيب وقار وعلامة على أن المرء عاش تجارب الحياة، فاكتملت تجاربه واختمرت شخصيته؛ وتلك كانت أمنيته في ريعان شبابه.

(٢) البيض: النسوة. الفودان: جانبا الرأس. العاب: لغة في العيب. كان لسواد فودي الشاعر حظوة لدى النساء، وذلك لجمال شعره وسواد لمّته، فكنّ يعملن على استمالته، ولكنه لم يكن ليعبأ بهن، لذا عفّ عن الوقوع في شركهن وتجنبهن، لأن ذلك عيب بنظره.

(٣) يجيب الشاعر عن سؤال السائل أنه لن يشكو المشيب وقد كان يتمنّاه ويشتهيه في ما مضى، وها هو يرحب به، فقد كان معه على موعد، واستجابة لرغبة.

(٤) جلا: انكشف وانجاب. الضباب، الواحدة ضبابة: السحابة تغشى الأرض كالدخان. لقد انهزم سواد شعر الشاعر، فإذا بالشيب يغزو رأسه، فينجلي عن امرئ عصمه شيبه عن الأخطاء، يتميّز بالتعقّل والرشاد، فكان ذلك بمثابة ضباب انزاح ليترك خلفه شعاعاً يهتدي به الساري.

(٥) لا ريب أن الشيب مفتاح الضعف والشيخوخة، إن ذلك لا يعني أن همّة =

لَــهَــا ظُــفْــرٌ إنْ كَــلَّ ظُــفْــرٌ أُعِــدُّهُ
وَنَــابٌ إِذَا لَــمْ يَــبْــقَ فِــي الْــفَــمِ نَــابُ[(١)]

يُــغَــيِّــرُ مِــنِّــي الــدَّهْــرُ مَــا شَــاءَ غَــيْــرَهَــا
وَأَبْــلُــغُ أَقْــصَــى الْــعُــمْــرِ وَهْــيَ كَــعَــابُ[(٢)]

وَإِنِّــي لَــنَــجْــمٌ تَــهْــتَــدِي بِــي صُــحْــبَــتِــي
إِذَا حَــالَ مِــنْ دُونِ الــنُّــجُــومِ سَــحَــابُ[(٣)]

غَــنِــيٌّ عَــنِ الْأَوْطَــانِ لَا يَــسْــتَــفِــزُّنِــي
إِلَــى بَــلَــدٍ سَــافَــرْتُ عَــنْــهُ إِيَــابُ[(٤)]

وَعَــنْ ذَمَــلَانِ الْــعِــيــسِ إِنْ سَــامَــحَــتْ بِــهِ
وَإِلَّا فَــفِــي أَكْــوَارِهِــنَّ عُــقَــابُ[(٥)]

= الشاعر تلاشت قواها، ولو كانت تلك الشعرات التي دبّ فيها الشيب في وجهه حِراباً.

(١) يرى الشاعر أن قوّته لا تزال قويّة، وهي خلاف كلّ ظفر أحنى عليه الدهر فحرمه من قوّته، وهي كذلك ناب قاطع يفلّ الحديد، حتى في حال خلا فمه من أنيابه. والظفر والناب هما مصدر القوّة لدى بني الإنسان والوحوش.

(٢) الكعاب: الجارية نهد ثدياها. لقد استطاع الدهر أن يحفر في ذات الشاعر علائم الزمان، ولكنه لم يُفلح في تغيير شباب نفسه المتوثبة إلى المجد وتحقيق الأماني.

(٣) يروى «تهتدي صحبتي به» بدلاً من «تهتدي بي صحبتي». يفخر الشاعر بمعرفته بالدروب لذا ففي حال جنّ عليهم الأمر، وظلمة الليل سدّت الطرق، سطع نجمه فاهتدى به أصحابه وسلموا من المخاطر.

(٤) يستفزّني: يُثيرني ويدفعني. يذكر الشاعر أن من صفاته عدم الاستقرار في مكان واحد، فهو دائم الترحال، لا يكلّ ولا يحلّ، يسعى لبلوغ آماله، لذا فهو إذا رحل عن مكان لا يعود إليه.

(٥) الذملان: ضرب من السير السريع. العيس: الإبل. الأكوار، الواحد كور: الرحل. العقاب: ضرب من جوارح الطير. يتابع الشاعر مسلكه في رحلاته، فهو يستغني عن الإبل وسيرها السريع بقدميه، لذا فهو كالعقاب الكاسر، يتنقّل في قمم الجبال بقوّة واحتمال لمشاق الفيافي والقفار بقدرة عجيبة.

وَأَصْدَى فَلَا أُبْدِي إِلَى المَاءِ حَاجَةً
وَلِلشَّمْسِ فَوْقَ الْيَعْمَلَاتِ لُعَابُ[(١)]

وَلِلسِّرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لَا يَنَالُهُ
نَدِيمٌ وَلَا يُفْضِي إِلَيْهِ شَرَابُ[(٢)]

وَلِلْخَوْدِ مِنِّي سَاعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنَا
فَلَاةٌ إِلَى غَيْرِ اللِّقَاءِ تُجَابُ[(٣)]

وَمَا الْعِشْقُ إِلَّا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ
يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ[(٤)]

وَغَيْرُ فُؤَادِي لِلْغَوَانِي رَمِيَّةٌ
وَغَيْرُ بَنَانِي لِلزُّجَاجِ رِكَابُ[(٥)]

تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ
فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بِهِنَّ لِعَابُ[(٦)]

---

(١) أصدى: أعطش. اليعملات: النجيب من الإبل. لعاب الشمس: السراب. ومن صفات الشاعر شدّة الاحتمال في كلّ الحالات، فالعطش لا يؤثر عليه ويُضعفه، والشمس تُذيب بلهيب حرّها كلّ شيء فيسيل لُعابها فوق الإبل، وهو مُتماسِك صابر لا يُبدي رغبة ليروي عطشه رغم ما هو عليه من جهد.

(٢) النديم: الرفيق على الشراب. ومن صفات الشاعر المحبّبة إلى النفس الكتمان وحفظ السرّ، لذا فإنه لا يُطلع على سرّه حتى أصحابه الأقربين، فهو لا يكشف سرًّا لنديمه، وهو متماسك في حال سكره الذي يُسدل على المخمور ستاره فيكشف أسراره دون وعي منه.

(٣) الخود: الشابة الناعمة من النساء. تجاب: تقطع. وحتى الفتاة الجميلة الرقيقة التي تسبي عقول الرجال لا محل لها في قلب الشاعر، ولا تستحوذ عليه وعلى عقله إلّا ساعة ثم يكون بينهما فراق لا رجعة فيه.

(٤) و (٥) الغِرّة: الغرور. يُعقّب الشاعر على ذلك أن العشق داء الضعفاء من الرجال الذين يسعَوْن وراء من عشقوا، فإذا بقلوبهم وقد قيّدها الحبّ فتنساق الإرادة لديهم إلى ما لا تُحمد عُقباه. وإرادة الشاعر حائلة دون الوقوع بحبائل النساء مهما حاولْن الإغراء وإظهار الدلال والغنج فلن تُصيبه سهام عيونهن، وهو كذلك لا رغبة له بالخمور فإنها مهلكة للعقل مضيعة للوقت، لذا فهو لا يحمل كأسها بيده.

(٦) اللعاب: الملاعبة. لخّص الشاعر طبيعة اهتماماته في حياته، فثمّة شهوة واحدة =

نُـصَـرِّفُـهُ لِـلـطَّـعْـنِ فَـوْقَ حَـوَادِرٍ
قَـدِ ٱنْـقَـصَـفَـتْ فِـيـهِـنَّ مِـنْـهُ كِـعَـابُ(١)

أَعَـزُّ مَـكَـانٍ فِـي الـدُّنَـى سَـرْجُ سَـابِـحٍ
وَخَـيْـرُ جَـلِـيـسٍ فِـي الـزَّمَـانِ كِـتَـابُ(٢)

وَبَـحـرُ أَبـي الـمِـسْـكِ الْـخِـضَـمُّ الَّـذِي لَـهُ
عَـلَـى كُـلِّ بَـحْـرٍ زَخْـرَةٌ وَعُـبَـابُ(٣)

تَـجَـاوَزَ قَـدرَ الـمَـدْحِ حَـتَّـى كَـأَنَّـهُ
بِـأَحْـسَـنِ مَـا يُـثْـنَـى عَـلَـيْـهِ يُـعَـابُ(٤)

= فقط، وهي ملاعبة الرماح واستعمالها في قتال الأعداء. فليس في حياته مجال آخر للهو.

(١) يروى «خوادر» و«حواذر» بدلاً من «حوادر» والحوادر من الخيول: السمان الغِلاظ. الكعاب، الواحد كعب: العقد من أنابيب الرمح. يصف الشاعر القتال بالرماح، لقد أتقن هذا الفنّ، إنه يوجّه الرمح في كلّ اتجاه بمهارة عالية وكيف شاء، وهو يعلو من الجياد السمين الغليظ الذي اعتاد على الجلاد وتلقي كعاب القنا. ويلاحظ أنه يتحدّث بنا الجماعة للتعظيم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. الدنى: الواحدة دنيا. السابح من الجياد: السريع العدو وكأنه يسبح. يُطلع الشاعر الوجود على مفهومه للحياة، فالعزّة بركوب السابح من الخيول السريعة العدو، إنها السبيل الوحيد لمواجهة الأعداء وبلوغ المعالي، كما أنها في الخوف والضيق السبيل الأسهل للفرار. وكذلك ثمّة صديق لا يخون ولا يكشف سِرًّا ولا يملّ صاحباً، إنه الكتاب الممتلئ علماً وأدباً، ففيه وبي غنى النفوس وراحة القلوب.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. أبو المسك: كافور. الخضم: الممتلئ. الزخرة: الامتلاء، الفيض. العُباب: الموج العاتي المرتفع. ينتقل الشاعر إلى مدح كافور بالرابط اللفظي «الواو» دون تمهيد لذلك. إنه البحر الزاخر الشديد الهيجان.

(٤) تجاوز: تخطّى. لقد تخطى العقول من المدح لمآثره المترجمة في الكرم والفضائل؛ إنه فوق كلّ مدح حتى بات ذكر ذلك كأنه عيب لعدم استيعاب المعنى مضمون صفات الممدوح.

وَغَـالَـبَـهُ الْأَعْـدَاءُ ثُـمَّ عَـنَـوْا لَـهُ
كَـمَـا غَـالَـبَـتْ بِـيضَ الـسُّـيُـوفِ رِقَـابُ (١)

وَأَكْـثَـرُ مَـا تَـلْـقَـى أَبَـا الـمِـسْـكِ بِـذْلَـةً
إذَا لَـمْ تَـصُـنْ إلَّا الْـحَـدِيـدَ ثِـيَـابُ (٢)

وَأَوْسَـعُ مَـا تَـلْـقَـاهُ صَـدْراً وَخَـلْـفَـهُ
رِمَـاءٌ وَطَـعْـنٌ وَالْأَمَـامَ ضِـرَابُ (٣)

وَأَنْـفَـذُ مَـا تَـلْـقَـاهُ حُـكْـمـاً إذَا قَـضَـى
قَـضَـاءً مُـلُـوكُ الأَرْضِ مِـنْـهُ غِـضَـابُ (٤)

يَـقُـودُ إلَـيْـهِ طَـاعَـةَ الـنَّـاسِ فَـضْـلُـهُ
وَلَـوْ لَـمْ يَـقُـدْهَـا نَـائِـلٌ وَعِـقَـابُ (٥)

أَيَـا أَسَـداً فِـي جِـسْـمِـهِ رُوحُ ضَـيْـغَـمٍ
وَكَـمْ أُسُـدٍ أَرْوَاحُـهُـنَّ كِـلَابُ (٦)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. غالب: صارع. عَنَوْا: ذلّوا واستكانوا. وما يدلّ على قوّة كافور أنه ناضل أعداءه فهزمهم وأذلّهم فاستكانوا وأذعنوا لإرادته، وكان ذلك بمثابة رقاب غالبت السيوف البيض، فإذا بالرؤوس تتهاوى متخلّية عن أصحابها.

(٢) و (٣) وليؤكّد على شجاعة كافور، فإنه لا يتدرّع ولا يحتمي بالحديد، ثقة بقدرته وشجاعته على مجابهة الأعداء، واستصغاراً لشأنهم، بل إنه يلبس ثياباً عادية أثناء المعركة واحتدامها، فتبدو عليه علائم الصبر، وهو بين الصفوف. فالرماة من الأعداء، والعدوّ يحيط به من كلّ مكان يُجالدهم، وبأسه بيّن فيهم شديد، يفرّقهم ويشتت شملهم.

(٤) ومن صفات كافور أنه نافذ الحكم، يقضي بين الملوك فيقبلون حكمه راضين، وإن لم يرضوا فإنهم يرضون مرغمين، لأنهم استقادوا لأمره وغلبته.

(٥) النائل: العطاء. لقد استطاع كافور أن يستميل قلوب رعيته بإحسانه إليهم فحصل على محبتهم وتعظيمهم لشخصه؛ وتلك هبة إلٰهية اختصّ بها ممدوحه، حتى لو لم يخافوا نِقمته وبطشه ولم يأملوا بنواله.

(٦) يخاطب المتنبي كافوراً؛ إنه أسد اكتملت فيه كلّ عناصر القوّة والرهبة والجبروت والمهابة والحرص على الأرض والعرض؛ إنها روح افتقدها كثيرون ممّن يدّعون أنهم أسود، ولكن الحقيقة أن تلك الأرواح أرواح كلاب نزلت بهم أرواحهم إلى الحضيض.

وَيَــا آخِــذاً مِــنْ دَهْــرِهِ حَــقَّ نَــفْـسِــهِ
وَمِــثْــلُــكَ يُــعْــطَــى حَــقَّــهُ وَيُــهَــابُ(١)
لَــنَــا عِــنْــدَ هٰــذَا الــدَّهْــرِ حَــقٌّ يَــلُــطُّــهُ
وَقَــدْ قَــلَّ إعْــتَــابٌ وَطَــالَ عِــتَــابُ(٢)
وَقَــدْ تُــحْــدِثُ الْأَيَّــامُ عِــنْــدَكَ شِــيــمَــةً
وَتَــنْــعَــمِــرُ الْأَوْقَــاتُ وَهْــيَ يَــبَــابُ(٣)
وَلَا مُــلْــكَ إلَّا أَنْــتَ وَٱلْــمُــلْــكُ فَــضْــلَــةٌ
كَــأَنَّــكَ سَــيْــفٌ فِــيــهِ وهْــوَ قِــرابُ(٤)
أَرَى لِــي بِــقُــرْبِــي مِــنْــكَ عَــيْــنــاً قَــرِيــرَةً
وإنْ كَــانَ قُــرْبــاً بــالــبِــعَــادِ يُــشَــابُ(٥)
وَهَــلْ نَــافِــعِــي أَنْ تُــرْفَــعَ الْــحُــجْــبُ بَــيْــنَــنَــا
ودُونَ الَّــذِي أَمَّــلْــتُ مِــنْــكَ حِــجَــابُ(٦)

---

(١) يخاطب الشاعر كافوراً بأنه قادر على تحصيل حقوقه حتى من الدهر؛ فإذا بالدهر يتخلّى عن تلك الحقوق راغماً لأنه يخاف مجابهة ممدوحه ويهابه. وتلك مغالاة، فصراع البشر مع الدهر خاسر إنه يسترسل بتأملاته.

(٢) يلطه: ينكره. الإعتاب: العتبى، الرضى. وما يثير ألم الشاعر أنه يرى أن الدهر ينكر عليه حقّه ويماطله في حصوله على مبتغاه وبلوغ المجد المادي، وهذا يجعله دائم العتب على الدهر، لأنه لم يفه حقه كما يزعم.

(٣) الشيمة: الخلق. تنعمر: تؤهل. اليباب: الخالية. يلمّح الشاعر إلى مطلبه أمام كافور؛ فمن عادة الأيام ألّا تُعين البشر على تحقيق مبتغاهم، وها هو أمام من بيده تحقيق المعجزات؛ فقد انقادت الأيام له وحقّقت مبتغاه رهبة له وإذعاناً لإرادته، فمن المعقول أن تبدي الأيام خلاف ما هي عليه عادة من شيم التنكر للشاعر فتتحقّق أمنياته على أيدي ممدوحه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. قراب، بكسر القاف: غمده. يروى «كأنك نصل» بدلاً من «كأنك سيف». يخاطب الشاعر ممدوحه أنه الملك حقًّا، ومظاهر الملك من السؤدد والسيطرة والأمر والنهي التي ينعم بها، فقد حصلت بفضل دأبه وبعد همته وسداد رأيه، فتلك المظاهر تعتبر نافلة وفضلة، وهو كالسيف القاطع الذي يحتويه قِراب لا قيمة له إلّا بوجود السيف.

(٥) و (٦) يشاب: يمزج. يخاطب الشاعر كافوراً أن قربه منه جعله يشعر بالأمن والطمأنينة؛ إنه =

أُقِـلُّ سَـلَامِـي حُـبَّ مَـا خَـفَّ عَـنْـكُـمُ
وَأَسْـكُـتُ كَـيْـمَـا لَا يَـكُـونَ جَـوَابُ[(١)]

وَفِـي الـنَّـفْـسِ حَـاجَـاتٌ وَفِـيـكَ فَـطَـانَـةٌ
سُـكُـوتِـي بَـيَـانٌ عِـنْـدَهَـا وخِـطَـابُ[(٢)]

وَمَـا أَنَـا بِـالْـبَـاغِـي عَـلَـى الْـحُـبِّ رِشْـوَةً
ضَـعِـيـفٌ هَـوًى يُـبْـغَـى عَـلَـيْـهِ ثَـوَابُ[(٣)]

وَمَـا شِـئْـتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَـوَاذِلِـي
عَـلَـى أَنَّ رَأْيِـي فِـي هَـوَاكَ صَـوَابُ[(٤)]

وَأُعْـلِـمَ قَـوْمـاً خَـالَـفُـونِـي فَـشَـرَّقُـوا
وَغَـرَّبْـتُ أَنِّـي قَـدْ ظَـفِـرْتُ وخَـابُـوا[(٥)]

جَـرَى ٱلْـخُـلْـفُ إِلَّا فِـيـكَ أَنَّـكَ وَاحِـدٌ
وأَنَّـكَ لَـيْـثٌ وَالْـمُـلُـوكُ ذِئَـابُ[(٦)]

وأَنَّـكَ إِنْ قُـويِـسْـتَ صَـحَّـفَ قَـارِئٌ
ذِئَـابـاً وَلَـمْ يُـخْـطِـئْ فَـقَـالَ ذُبَـابُ[(٧)]

= قرير العين، ورغم ذلك فثمَّة ما يعكّر هذا الصفو إنه حجاب يبعد الشاعر عن ممدوحه؛ وهو يأمل بتحقيق ما يرجوه من كافور ليكون القرب ألصق وأكثر اندماجاً بينهما.

(١) و (٢) يذكر الشاعر أنه قليل الحضور بين يدي كافور، لذا فسلامه قليل وسكونه عن طلب ما يريد التصريح به كي لا يحمل الملك على الإجابة، ذلك أن عدم الإفصاح عمّا يجول في خاطره لا يخفى على الملك لذكائه الحادّ، ولا شكّ أنه عليم بحال الشاعر، وسكون الشاعر ينوب عن التصريح برغبته.

(٣) و (٤) الباغي: الراغب. يستدرك الشاعر كي لا يُثير ريبة الملك؛ فحبّه له صادق، وهو لا يرغب برشوة لِما يكنّه من حبّ لممدوحه، فطلب الجزاء على الحبّ ينمّ عن ضعف المحبّ لحبيبه. ولكنه الردّ الأمثل على كلّ لائم في حال نُفّذت رغبته؛ فرأيه في محبّة الملك عين الصواب، في حال حصوله على ما يرغب ويتمنّى.

(٥) وثمة شيء آخر أن أناساً مخالفين الرأي فيك قد قصدوا ملوكاً آخرين فعادوا بالخسران المبين ولم يحقّقوا آمالهم، وما يزيد من حسرتهم أني قصدت من بيده الأمر والنهي والقدرة على تحقيق أملي وظفرت بما طلبت.

(٦) و (٧) لقد اختلف الناس في أحكامهم على الموجودات، ورغم ذلك فإنهم لم يختلفوا =

وَإِنَّ مَـدِيـحَ الـنَّـاسِ حَـقٌّ وَبَـاطِـلٌ
وَمَـدْحُـكَ حَـقٌّ لَـيْـسَ فِـيـهِ كِـذَابُ(١)
إِذَا نِـلْـتُ مِـنْـكَ الْـوُدَّ فـالْـمَـالُ هَـيِّـنٌ
وَكُـلُّ الَّـذِي فَـوْقَ الـتُّـرَابِ تُـرَابُ(٢)
وَمَـا كُـنْـتُ لَـوْلَا أَنْـتَ إِلَّا مُـهَـاجِـراً
لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ بَـلْـدَةٌ وَصِـحَـابُ(٣)
وَلٰـكِـنَّـكَ الـدُّنْـيَـا إِلَـيَّ حَـبِـيـبَـةً
فَـمَـا عَـنْـكَ لـي إِلَّا إِلَـيْـكَ ذَهَـابُ(٤)

قلب ضيق وبطن رحيب

وقال يهجوه:

[الطويل]

وَأَسْـوَدَ أَمَّـا الـقَـلْـبُ مِـنْـهُ فَـضَـيِّـقٌ
نَـخِـيـبٌ وَأَمَّـا بَـطْـنُـهُ فَـرَحِـيـبُ(٥)

= أنك واحد عصره وأسد فيه المهابة والقوّة والشجاعة والحكمة خلاف غيرك ممن يسمّوْن ملوكاً، فهم في الحقيقة ذئاب يتكالبون على الاستئثار بمصير البشر، وتتحكّمهم أنانية بغيضة، وعليه فلو أن قارئاً أخطأ عند المقايسة لفظ الذئاب بدلاً من الذئاب لكان حرياً وجديراً بالتقدير، فإنه لم يخطئ الحكم ولنطق بالصواب، بأنك ليث ضارٍ وغيرك من الملوك ذباب.

(١) سوق المديح سوق رائجة، والشعراء قد تعوّدوا وعوّدوا ممدوحيهم على سرد صفات قد تصدق على ممدوحيهم وقد تكذب، لكن مدح الشاعر لممدوحه مدح صادق يعبّر عن لغة القلب المحبّ.

(٢) إلحاح الشاعر على طلبه أمنيته الغالية في هذا الوجود بينما جمع المال هيّن وهو يأتي ويذهب وهذا مآله إلى الضياع، وكلّ ما في الكون تراب يعود إلى التراب.

(٣) و (٤) يخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه مقصوده، فقد هاجر إليه طلباً للاستقرار والأمن وإلّا فإنه لن يستقرّ بمكان؛ فالبلاد كلها دار هجرته والناس كلّهم سواء بالنسبة إليه. ولقد ضاقت الدنيا حتى اختصرت بشخص ممدوحه ولا غنى عنه وهو غايته التي يسعى إليها وفيها أمله.

(٥) وردت الأبيات الثلاثة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. نخيب: خاوٍ، =

يَـمُـوتُ بـهِ غَـيـظـاً عـلـى الـدهـرِ أهْـلُـهُ
كـمَـا مَـاتَ غَـيـظـاً فـاتـكٌ وَشَـبِـيـبُ (١)

إذا مـا عَـدِمـتَ الأصْـلَ وَالـعـقـلَ والـنّـدى
فَـمَـا لـحَـيَـاةٍ فـي جَـنَـابِـكَ طِـيـبُ (٢)

لا بدَّ للإنسان من ضجعة

توفيت عمة عضد الدولة ببغداد فقال يرثيها ويعزيه بها:

[السريع]

آخِـــرُ مَـــا الـــمَـــلْـــكُ مُـــعَـــزًّى بِـــهِ
هَـــذَا الَّـــذِي أَثَّـــرَ فـــي قـــلْـــبِـــهِ (٣)

= جبان. الرحيب: الواسع. انقلبت الموازين، والهجاء كهف مظلم، تنكشف فيه العورات، وتستحيل فيه الفضائل إلى رَذائل فالآن كافور أسود يجرّ عبوديته معه حيثما حلّ، عبوديّة ممقوتة مرذولة، ولقد تقلّص قلبه وانكمش على ذاته وأغلق على جهل وحماقة وجبن، واتسع بطنه ليستوعب جهلاً وجشعاً لا حدود له.

(١) إنه مقياس غير عادل؛ فالدهر مخطئ، إذ جعل كافوراً ملكاً على سادة قتلهم الغيظ وسوء حظوظهم تماماً كما مات فاتك وهو فاتك الرومي، الملقب بالمجنون لشجاعته، ويقال له فاتك الكبير: ممدوح المتنبي. أخذ من بلاد الروم صغيراً، وتعلم الخط في فلسطين. وكان في خدمة الإخشيد فأعتقه وأقطعه «الفيوم» وأعمالها، فأقام بها. توفي سنة ٣٥٠هـ = ٩٦١م. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٤٠٦. وشبيب هو: شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني، أبو الضحاك: من أبطال العالم، وأحد كبار الثائرين على بني أمية. التقاه الحجاج بن يوسف، وخبر موته أنه مرّ بجسر دجيل (في نواحي الأهواز) فنفر به فرسه، وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفرة وغيرهما، فألقاه في الماء فغرق سنة ٧٧هـ = ٦٩٦م. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٢٢٣، البيان والتبيين ١: ٧١.

(٢) يخاطب الشاعر مهجوه وقد جرّده من كلّ فضيلة؛ إنه لا أصل له، ضائع النسب، فاقد العقل يتساوى مع البهائم والحيوانات، ينساق بغرائزه، بخيل نتن، تشنَّجت يداه عن كلّ مكرمة، لذا فالحياة إلى جانبه جحيم، لا رواء فيها، دائمة الجفاف.

(٣) يدعو الشاعر للملك أن يجعل اللّه تعالى موت عمته آخر حادث أليم يعزّى به فلا تنزل الأحزان بساحته بعد ذلك.

لَا جَـــزَعَـــاً بَـــلْ أَنَـــفَـــاً شَـــابَـــهُ
أَنْ يَـــقْـــدِرَ الـــدَّهْـــرُ عَـــلَـــى غَـــضْـــبِـــهِ[١]
لَـــوْ دَرَتِ الـــدُّنْـــيَـــا بِـــمَـــا عِـــنْـــدَهُ
لَاسْـتَـحْـيَـتِ الأَيَّـــامُ مِـــنْ عَـــتْـــبِـــهِ[٢]
لَـــعَـــلَّـــهَـــا تَـــحْـــسَـــبُ أَنَّ الَّـــذِي
لَـــيْـــسَ لَـــدَيْـــهِ لَـــيْـــسَ مِـــنْ حِـــزْبِـــهِ[٣]
وَأَنَّ مَـــــــنْ بَـــــــغْـــــــدَادُ دَارٌ لَـــــــهُ
لَـــيْـــسَ مُـــقِـــيـــمـــاً فِـــي ذُرَى عَـــضْـــبِـــهِ[٤]
وَأَنَّ جَـــــدَّ الـــــمَـــــرْءِ أَوْطَـــــانُـــــهُ
مَـــنْ لَـــيْـــسَ مِـــنْـــهَـــا لَـــيْـــسَ مِـــنْ صُـــلْـــبِـــهِ[٥]
أَخَـــــافُ أَنْ تَـــــفْـــــطَـــــنَ أَعْـــــدَاؤُهُ
فَـــيُـــجْـــفِـــلُـــوا خَـــوْفـــاً إِلَـــى قُـــرْبِـــهِ[٦]

---

(١) جزعاً: خوفاً. الأنف: الحميّة. شابه: مازجه. لقد ألمّ به ما يؤلم فحزن ولم يجزع؛ فهو شجاع لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، ولكنها الحميّة، كيف استطاع الموت أن يخترم إحدى قريباته وينتزعها من بين يديه. وهو الحامي لحريمه.

(٢) و (٣) يعلّل الشاعر ما حدث بأن الدنيا تجهل مدى صلة الملك بالمتوفاة، ولو علمت ذلك لتركت عمته حياءً منه واجتناباً لعتبه وسخطه، ولكن ما حصل إنما كان سوء ظن الدنيا، فعمّة الملك كانت في بغداد بعيدة عن حماه، لذا استسهلت الدنيا انتزاعها، ولم تكن ضمن حريمه.

(٤) الذرى: الكتف. العضب: السيف البتّار، يتابع الشاعر تعليله أن بَغداد لم تكن دار حماه، وإنما ساعد على ذلك بُعد المتوفاة عن سلطة الملك، فسيفه قادر على حماية من يرعاه في دياره.

(٥) يروى «حدّ» بدلاً من «جد». وقد يظن الدهر أن أبناء البلد الواحد أبناء جد واحد، فمن لم يكن كذلك، فلا رابط بينه وبين جدّه. وعليه فإن الأيام قد اعتقدت أن المتوفاة ليست من أهل بيته فانتزعتها ولم ترع قرابته.

(٦) أجفل: سارع في الهرب. يخاف الشاعر أن ينتبه أعداء الملك أن حماه لا يجرؤ الموت وزبانيته من الاقتراب منه، فيلوذون إلى حماه، فيشملهم بحمايته ورعايته وينعمون بالسلام.

لا بُـدَّ لِـلإِنْـسَـانِ مِـنْ ضَـجْـعَـةٍ
لَا تَـقْـلِـبُ الـمُـضْـجَـعَ عَـنْ جَـنْـبِـهِ[١]

يَـنْـسَـى بِـهَـا مَـا كَـانَ مِـنْ عُـجْـبِـهِ
وَمَـا أَذَاقَ الـمَـوْتُ مِـنْ كَـرْبِـهِ[٢]

نَـحْـنُ بَـنُـو الـمَـوْتَـى فَـمَـا بَـالُـنَـا
نَـعَـافُ مَـا لَا بُـدَّ مِـنْ شُـرْبِـهِ[٣]

تَـبْـخَـلُ أَيْـدِيـنَـا بِـأَرْوَاحِـنَـا
عَـلَـى زَمـانٍ هِـيَ مِـنْ كَـسْـبِـهِ[٤]

فَـهٰـذِهِ ٱلْأَرْوَاحُ مِـنْ جَـوِّهِ
وَهٰـذِهِ ٱلْأَجْـسَـامُ مِـنْ تُـرْبِـهِ[٥]

لَـوْ فَـكَّـرَ الْـعَـاشِـقُ فِـي مُـنْـتَـهَـى
حُـسْـنِ الَّـذِي يَـسْـبِـيـهِ لَـمْ يَـسْـبِـهِ[٦]

---

(١) و (٢) إنها الحياة، والموت آتٍ لا محالةَ، وكلّ شيء يتبخّر إذا نزل الموت بالمرء فيذهب ما قدّمه وحصّله وينسى بموت صاحبه؛ فإذا بكلّ مظاهر الكبرياء والزيف تتبخّر، وكأنّ المرء ما عاش ليتجرّع غصّة ما بعدها غصّة، وهو في النزع الأخير.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. وبنظرة تشاؤمية، يقرّ الشاعر ما لا بدّ منه؛ فالإنكار لا ينفع، وموج البشر يتلاحق أمام أعينهم، لقد رحل الأجداد، والدائرة تدور، ولا بدّ من يوم المعاد إلى خالق العباد، مهما امتدّ العمر في بني الإنسان.

(٤) وردت الأبيات الخمسة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٨. من طبيعة البشر الحفاظ على الحياة، وكلهم يضنّ بنفسه، والحقيقة أن المرء ضيف على هذه الحياة، ولم يكن بمقدور الإنسان أن يمتنع عن القانون الأزلي لهذا الوجود، ولا بدّ من ردّ الأمانة إلى واهبها؛ فالموت مقدّر محتّم.

(٥) يعرّج الشاعر على مفهوم فلسفي للطبيعة البشرية، فالروح عالم شفاف لطيف حلّت بالجسد المادة الكثيفة الترابية، فكان آدم دماً وجسداً وروحاً ونفساً؛ إذاً فالمادة الأولى ترابية.

(٦) ما يترك في النفس أن الجمال يعشقه البشر، وأجمل ما فيه أنه سرعان ما يزول، =

لَـمْ يُـرَ قَـرْنُ الـشَّـمْـسِ فِـي شَـرْقِـهِ
فَـشَـكَّـتِ ٱلْأَنْـفُـسُ فِـي غَـرْبِـهِ[(١)]

يَـمُـوتُ رَاعِـي الـضَّـأنِ فِـي جَـهْـلِـهِ
مَـوْتَـةَ جَـالِـيـنُـوسَ فِـي طِـبِّـهِ[(٢)]

وَرُبَّـمَـا زَادَ عَـلَـى عُـمْـرِهِ
وَزَادَ فِـي ٱلْأَمْـنِ عَـلَـى سِـرْبِـهِ[(٣)]

وَغَـايَـةُ الـمُـفْـرِطِ فِـي سِـلْـمِـهِ
كَـغَـايَـةِ الـمُـفْـرِطِ فِـي حَـرْبِـهِ[(٤)]

فَـلَا قَـضَـى حَـاجَـتَـهُ طَـالِـبٌ
فُـؤَادُهُ يَـخْـفِـقُ مِـنْ رُعْـبِـهِ[(٥)]

= والنفس نزّاعة إلى الجمال، فتحسّ ألم الفقد؛ ولو استمرّ الجمال لفقد الإحساس به مع طول المعاشرة والألفة؛ لذا لو فكر العاشق أن جمال محبوبته زائل لتنكّب عن طريق يسلكه بدافع الشوق وحبّ التملّك، ولو تيقّن أن ذلك مرهون بوقت محدّد لفجعته الحقيقة.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز: ٩٢، أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٥٥. انبثاق الحياة في كلّ شيء إيذان بحتمية فناء الوجود، فالفجر الضاحك بدء المساء الحالك السواد.

(٢) الموت لغة يقرأها كل مخلوق، سواء أكان جاهلاً لا يعرف شيئاً أم كان طبيباً بارعاً، يعمل على شفاء المرض، ومن المضحك المبكي أن الطبيب يداوي مرضاه وقد يموت مريضاً.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. ومن الجائز أن يعيش الراعي أكثر من الطبيب، ويستزيد في رعيته، بينما يموت الطبيب قبل الراعي؛ ذلك أن مشاغله واهتماماته المتعدّدة وقلقه الدائم تُودي به إلى التهلكة بسرعة.

(٤) والمبالغة في الحرص والخوف من الموت من المرء لا تدفع عنه الموت تماماً كإنسان يخاطر بنفسه ويندفع في حروبه غير هيَّاب، وخوف متوقع الموت. فكلاهما لا محالة زائلان ومصيرهما واحد؛ إنه الموت.

(٥) إن الجبان لا يمكن أن يحقّق آماله في هذا الوجود؛ ذلك أن خوفه من كلّ ما يرعبه يشلُّ إرادته ويفلّ عزيمته، ولذا فعلى المرء ألّا يخاف من الموت الآتي حتماً وأن يخوض بحر الحياة بعزم وقوّة لينتصر على الموت المادي ويبقى صيته يملأ الدنيا طالما أن الحياة على الأرض تمور بالبشر.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِشَخْصٍ مَضَى
كَانَ نَدَاهُ مُنْتَهَى ذَنْبِهِ (١)
وَكَانَ مَنْ عَدَّدَ إِحْسَانَهُ
كَأَنَّهُ أَفْرَطَ فِي سَبِّهِ (٢)
يُرِيدُ مِنْ حُبِّ الْعُلَى عَيْشَهُ
وَلَا يُرِيدُ الْعَيْشَ مِنْ حُبِّهِ (٣)
يَحْسَبُهُ دَافِنُهُ وَحْدَهُ
وَمَجْدُهُ فِي الْقَبْرِ مِنْ صَحْبِهِ (٤)
وَيُظْهِرُ التَّذْكِيرُ فِي ذِكْرِهِ
وَيُسْتَرُ التَّأْنِيثُ فِي حُجْبِهِ (٥)
أُخْتُ أَبِي خَيْرِ أَمِيرٍ دَعَا
فَقَالَ جَيْشٌ لِلْقَنَا لَبِّهِ (٦)
يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَنْ رُكْنُهَا
أَبُوهُ وَالْقَلْبُ أَبُو لُبِّهِ (٧)

---

(١) و (٢) يطلب الشاعر غفران اللّه تعالى للمتوفاة التي كان نداها ذنبها الوحيد، والكرم من الفضائل التي لا تُذمُّ بل إنها تُحمد في المرء. لذا فقد كانت تعمل على تناسي المعروف ولا تفاخر أو تتظاهر به، لأنه ملكة نفسية فيها، ولهذا فتعداد إحسانها، في نظرها، كالإسراف في شتمها.

(٣) لقد كان همّ المتوفاة حبّ العيش، لا للعيش ذاته، بل لأنه درب يودي بالمرء إلى المعالي والسؤدد، وهي لا ترغب العيش حبًّا بالحياة التي يتشارك بها كلّ المخلوقات من بشر عاديين وحيوانات.

(٤) لقد ظنّ الدافن أنه يدفن جسداً تعطّلت فيه كلّ القوى، والحقيقة أن المتوفاة حملت معها إلى آخرتها تقًى وعفافاً ومجداً وبراً وكلّ ما توفّر فيها من فضائل أخلاقية عالية.

(٥) لقد جمعت المتوفاة على السواء صفات الرجال التي يفتخرون بها كالسعي في طلب المعالي، ومساعدة الفقراء وحماية الضعفاء، فضلاً عن عفاف النسوة ورقة طباعهن ودماثة أخلاقهن.

(٦) لبّه: أجبه: إنها أخت ركن الدولة وعمّة عضد الدولة النافذ الكلمة والدّاعي لنفسه، يأتمر بأمره جيش من المحاربين، ويلبّونه عند الحاجة للقتال.

(٧) يفاضل الشاعر بين الأب والابن، ولقد فاق الابن عضد الدولة أباه ركن الدولة، =

وَمَــــنْ بَــــنُــــوهُ زَيْــــنُ آبَــــائِــــهِ
كَــأَنَّــهَــا الــنَّــوْرُ عَــلَــى قُــضْــبِــهِ (١)
فَــخْــراً لِــدَهْــرٍ أَنْــتَ مِــنْ أَهْــلِــهِ
وَمُــنْــجِــبٍ أَصْــبَــحْــتَ مِــنْ عَــقْــبِــهِ (٢)
إِنَّ الأَسَــى الْــقِــرْنُ فَــلَا تُــحْــيِــهِ
وَسَــيْــفُــكَ الــصَّــبْــرُ فَــلَا تُــنْــبِــهِ (٣)
مَــا كَــانَ عِــنْــدِي أَنَّ بَــدْرَ الــدُّجَــى
يُــوحِــشُــهُ الــمَــفْــقُــودُ مِــنْ شُــهْــبِــهِ (٤)
حَــاشَــاكَ أَنْ تَــضْــعُــفَ عَــنْ حَــمْــلِ مَــا
تَــحَــمَّــلَ الــسَّــائِــرُ فِــي كُــتْــبِــهِ (٥)

= وكلاهما لا غنى عنه؛ فعضد الدولة العقل المفكّر للدولة وركن الدولة بمثابة القلب النابض للدولة. وكلاهما لا بدّ منه لقيام الدولة.

(١) النّوْر: ضرب من الزهور، القضب: الواحد قضيب. يجعل الشاعر أبناء عضد الدولة مفخرة آبائه لما هم عليه من فضائل خلقية ومَلَكات نفسية، ولكنهم لا يفضلون أباهم، فهو الأصل وهم الفرع، منه يأخذون وبه يقتدرون.

(٢) المنجب: من يلد النجباء المتفوّقين. العقب: الأبناء. إن عضد الدولة مفخرة ذلك الزمن، فهو من نجباء عصره، وهو فخر أبيه، وبه يفخر. لأنه من عقبه.

(٣) الأسى: الحزن. القرن: المماثل في الصفات والعمر. نبا السيف: كلّ فلم يقطع. يخاطب الشاعر عضد الدولة على أمل أن يخفّف من وقع الحدث الأليم عليه، وهو من هو في عالم الأزمات والأحداث الجِسام؛ فالحزن لا بدّ منه، ولكن أيضاً لا بدّ من مغالبته وقهره بالصبر وتقبل الأمر، فليس بيد المرء حلّ آخر سواه.

(٤) يجعل الشاعر ممدوحه بدراً ينير ظلمات الحياة بضوئه، إنه يطل على الشهب وهم أقرباؤه بحمايته ورعايته، فليس من الضروري أن يُثقل كاهله فقد أحد أفراد أسرته.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٩. حاشا: استثنى. يثير الشاعر بممدوحه القدرة على تحمّل النبأ، لذا فهو يستثني أن يضعف وتنهار قوّته لدى سماع الخبر، ولقد احتمله ناقله رغم شدّة وقعه عليه، فالأوجب أن يكون ممدوحه أقدر على ذلك من غيره لما يتمتّع به من سمات الرجولة الحقّة.

وَقَدْ حَمَلْتَ الثِّقْلَ مِنْ قَبْلِهِ
فَأَغْنَتِ الشِّدَّةُ عَنْ سَحْبِهِ(١)
يَدْخُلُ صَبْرُ المَرْءِ فِي مَدْحِهِ
وَيَدْخُلُ ٱلإشْفَاقُ فِي ثَلْبِهِ(٢)
مِثْلُكَ يَثْنِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ
وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ(٣)
إيمَا لإِبْقَاءٍ عَلَى فَضْلِهِ
إيمَا لِتَسْلِيمٍ إِلَى رَبِّهِ(٤)
وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ
سِوَاكَ يَا فَرْدَاً بِلَا مُشْبِهِ(٥)

ما أنصف القوم ضبه

[المجتث]

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمُ ضَبَّهْ
وَأُمَّهُ الطُّرْطُبَّهْ(٦)

---

(١) يذكر الشاعر ممدوحه بأنّه ذو تجربة مع المصائب والويلات؛ فقد تحمّل أثقالاً أشدّ وطأة ممّا أثاره هذا الحادث، وهو محتمل الوقوع في كل وقت وزمان، ولقد كان شديداً فلم يعجز عن حمله لصبره.

(٢) الإشفاق: الخوف. الثلب: ذكر المساوئ والذمّ. يرى الشاعر أن الصبر من علائم الرجولة التي يمدح من أجلها البشر لجلدهم وامتصاصهم الصدمات، وأما الجزع والخوف فمن مساوئ ضعاف الرجال، ولذا يُعاب ذلك فيهم.

(٣) الصوب: الناحية. الغرب: مجرى الدمع. يثير الشاعر في ممدوحه إحساس الرجولة، فهو قادر على التغلّب على حزنه، ودواء ذلك الصبر، لذا يطلب أن يمسك نفسه ويمنعها عن البكاء.

(٤) إيما: لغة في إمّا. والمعول على بقاء الفضل في تماسك المرء أمام المصائب واحتمالها، وفي ذلك تسليم لإرادة خالقه ممَّا يدلّ على الورع والتقوى، فيوفى على ذلك الجزاء الأوفى.

(٥) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٩٢. إن الشاعر يقصد ممدوحه دون سواه، فيعزيه لعلمه أنه الرجل الذي يتمتّع بخاصية الرجولة الحقة.
ـ ملاحظة: يتّضح أن المتنبي لا يُحسن المراثي، لغلبة العقل على المشاعر لديه، ويبدو المدح أكثر دلالة على ملكة المدح لديه من الرثاء.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. الطرطبة: القصيرة الضخمة. =

وَإِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْـ
ـتُ رَحْمَةً لَا مَحَبَّهْ[١]
وَحِيلَةً لَكَ حَتَّى
عُذِرْتُ لَوْ كُنْتَ تَأْبَهْ[٢]
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْقَتْـ
ـلِ إِنَّمَا هِيَ ضَرْبَهْ[٣]
وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْغَدْ
رِ إِنَّمَا هُوَ سُبَّهْ[٤]
يَا قَاتِلاً كُلَّ ضَيْفٍ
غَنَاهُ ضَيْحٌ وَعُلْبَهْ[٥]
وَخَوْفَ كُلِّ رَفِيقٍ
أَبَاتَكَ ٱللَّيْلُ جَنْبَهْ[٦]

= لقد أساء القوم الحكم على ضبّة فلم ينصفوه للإساءة إليه وإلى أمه الضخمة القصيرة.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥، يعلّل الشاعر السبب الذي من أجله رحمه أن الناس لم يُنصفوا ضبة وقد ظلموه، لا محبة له ولا غيرة عليه، ذلك أنه وصل إلى حالة يُرثى لها، ولهذا فهو يستحق الشفقة لا الشماتة.

(٢) تأبه: تنتبه. وتمادياً بالسخرية وإمعاناً بلؤم الشاعر أنه قال ذلك لأنه يعلم أن الناس سيتندّرون بما ألمّ بضبّة من مهانة، وأن الشاعر ظلمه ولكنه يحاول أن يجد له عذراً.

(٣) وبلؤم يسخر الشاعر من المهجو ويدعوه ألّا يبالي بما حلّ بأبيه من قتل، وقد صرعته ضربة واحدة، ممّا يدلّ على وعيه وشدّة خوفه، فقد مات قبل أن تنزل به تلك الضربة.

(٤) السبّة: الشتيمة، ويدعو الشاعر ضبّة أن ما حلّ به من المهانة شتيمة فعليه أن يتقبّلها بصدر رحب، وهذا من طبع الأذلاء الذين يرضون بما حلّ بهم.

(٥) غناه: يكفيه. الضيح: اللبن الممزوج بالماء. العلبة: قدح من جلد يتخذ لشرب اللبن. ينعى الشاعر على ضبّة شدة بخله. إنه يقتل ضيفه ليتخلّص من تبعة القِرى، وقد يكون ضيفه شديد الفقر يكفيه القليل.

(٦) يلصق الشاعر بمهجوّه صفة الغدر، فإذا ما نزل رفيق فحالما يستسلم إلى نوم عميق يقفز ضبة ويقتله غدراً.

كَـــذَا خُـــلِـــقْـــتَ وَمَـــنْ ذَا الَّـــ
ـذِي يُـــغَـــالِـــبُ رَبَّـــهْ[١]

وَمَـــنْ يُـــبَـــالِـــي بِـــذَمٍّ
إِذَا تَـــعَـــوَّدَ كَـــسْـــبَـــهْ[٢]

فَـــسَـــلْ فُـــؤَادَكَ يَـــا ضَـــبْـــ
ـبَ أَيْـــنَ خَـــلَّـــفَ عُـــجْـــبَـــهْ[٣]

وَإِنْ يَـــخُـــنْـــكَ لَـــعَـــمْـــرِي
لَـــطَـــالَـــمَـــا خَـــانَ صَـــحْـــبَـــهْ[٤]

وَكَـــيْـــفَ تَـــرْغَـــبُ فِـــيـــهِ
وَقَـــدْ تَـــبَـــيَّـــنْـــتَ رُغْـــبَـــهْ[٥]

مَـــا كُـــنْـــتَ إِلَّا ذُبَـــابـــاً
نَـــفَـــتْـــكَ عَـــنَّـــا مِـــذَبَّـــهْ[٦]

وَإِنْ بَـــعُـــدْنَـــا قَـــلِـــيـــلاً
حَـــمَـــلْـــتَ رُمْـــحـــاً وَحَـــرْبَـــهْ[٧]

---

(١) إنها إرادة اللّه تعالى أن جعل ضبّة غدّاراً، ولا مردّ لإرادة اللّه عزّ وجلّ ولو حاول ضبّة التخلص من عادة الغدر لما استطاع، لأن ذلك مقدّر لا يد له فيه.

(٢) إنه لا يهتم لما ينزل به من سخرية وسباب فقد اعتاد ذلك بسبب طول المؤالفة والمعايشة، ذلك أنه كسب سماوي.

(٣) ضبّ: ترخيم ضبّة، فحذف التاء. خلّف: ترك. يطلب الشاعر من ضبّة أن يسأل قلبه الذي انغلق على خِسّة أين كبرياؤه، فلم ينتفض لكرامته، ولجبنه فقد اختفى وراء جدران حصنه والشتائم تنهمر عليه من كل صوب ومكان.

(٤) يقسم الشاعر أن قلب ضبة قد ماتت فيه عزّة النفس وألف الخيانة، فإذا به يخون كل الناس، لذا فلا عجب إذا خان صاحبه.

(٥) يخاطب الشاعر ضبة طالباً منه التخلي عن قلبه الذي امتلأ جبناً وخبثاً، فليتحرر من نقيصته لعلّ الكرامة تعود إلى صاحبه.

(٦) و (٧) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٥. المذبة: شيء يطرد به الذباب. يتمادى الشاعر فيجعل ضبة ذباباً لا قيمة له، ولجبنه وشدّة خوفه يطرد =

وَقُلْتَ لَيْتَ بِكَفِّي
عِنَانَ جَرْدَاءَ شَطْبَهْ[١]
إِنْ أَوْحَشَتْكَ الْمَعَالِي
فَإِنَّهَا دَارُ غُرْبَهْ[٢]
أَوْ آنَسَتْكَ الْمَخَازي
فَإِنَّهَا لَكَ نِسْبَهْ[٣]
وَإِنْ عَرَفْتَ مُرَادِي
تَكَشَّفَتْ عَنْكَ كُرْبَهْ[٤]
وَإِنْ جَهِلْتَ مُرَادِي
فَإِنَّهُ بِكَ أَشْبَهْ[٥]

= بالمذبّة التي يهوّل بها على تلك الحشرة البغيضة حتى تبعد. وفي حال أن ابتعد الشاعر ومن معه حتى يسارع ضبة إلى حمل السلاح، وكأن السلاح للزينة.

(١) العنان: سير اللجام. الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. الشاطبة: الطويلة. ومن شدّة جبن ضبّة أنه يرسف في مكانه متمنياً لو أنه يملك فرساً جرداء شطباً حتى يبادر إلى الكرّ على من تركه سخرية واحتقاراً لشأنه.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. أوحشت: أقفرت وذهبت. يخاطب الشاعر ضبّة ألّا يحسّ بالغربة إن تخلت عنه المعالي فهي فيه بدار غربة تودّ اللحاق بمن يعرف قيمتها ويعمل على تكريمها بالقيام بما تتطلّبه.

(٣) المخازي، الواحدة مخزية: القبيح من الأفعال التي تسيء لفاعلها. ويتابع الشاعر أن ضبة قد ألف المخازي وأصبحت جزءاً منه فلا يتخلّى كلاهما عن الآخر، لذا فإنه ينتسب إليها.

(٤) و (٥) ينعى الشاعر على ضبّة جهله؛ ذلك في حال معرفة الغاية التي رمى إليها الشاعر فقد يكون ضبة قد تحرّر من واحدة من أحزانه، وإلّا إن جهل الغاية من ذلك، فهو لا يزال يرسف في جهل مطبق، وهو بذلك أشبه.

ـ ملاحظة: ثمة أبيات في القصيدة وصل بها الشاعر إلى حدّ الإسفاف فلم نذكرها لذلك.

رويّ التاء

كن أهلاً لما شئت

وقال عند وداعه بعض الأمراء:

[البسيط]

أُنْـصُـرْ بِـجُـودِكَ أَلْـفَـاظـاً تَـرَكْـتُ بِـهَـا
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مَنْ عَادَاكَ مَكْبُوتَا(١)

فَـقَـدْ نَـظَـرْتُـكَ حَـتَّـى حَـانَ مُـرْتَـحَـلِـي
وَذَا الـوَدَاعُ فَـكُـنْ أَهْـلاً لِـمَـا شِـيـتَـا(٢)

فدتك الخيل

وقال مرتجلاً يَمدح بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي:

[الوافر]

فَـدَتْـكَ ٱلْـخَـيْـلُ وَهْـيَ مُـسَـوَّمَـاتُ
وَبِـيـضُ الـهِـنْـدِ وَهْـيَ مُـجَـرَّدَاتُ(٣)

---

(١) الجود: الكرم. يقصد بالألفاظ: القصائد المدحيَّة. المكبوت: الذليل، يبدأ الشاعر قصيدته متكسّباً؛ فهو يطلب من ممدوحه النصر المؤزّر بالمال والكرم الفيّاض، فقد جعل مدحه لممدوحه يُغرس أعداءه في الشرق والغرب، وقد أصابهم عِيّ وذِلّة بما وجّه إليهم من هجاء فأكبتهم.

(٢) نظرتك: استمهلتك. مرتحلي: ذهابي، وما يدعو إلى الاستغراب إلحاح الشاعر على تحصيل المال، فقد استمهل ممدوحه وأعطاه فسحة من الوقت، وإن لم يحظ بالمال قبل رحيله عنه، فسوف يكيل له من الهجاء ما يستحقّه بعد ما كال له من مديح؛ فهو يمارس الابتزاز المهجّن وهو من يدّعي العظمة.

(٣) مسوّمات: معلمات تعرف بها. يخاطب الشاعر متمنياً لممدوحه البقاء سالماً من كلّ أذًى؛ فالخيل المسوّمات والسيوف وحاملوها فدًى للممدوح، فبقاؤه يحمل الخير للناس لكرمه وشجاعته.

وَصَفْتُكَ فِي قَوَافٍ سَائِرَاتٍ
وَقَدْ بَقِيَتْ وَإِنْ كَثُرَتْ صِفَاتُ[(١)]

أَفَاعِيلُ الْوَرَى مِنْ قَبْلُ دُهْمٌ
وَفِعْلُكَ فِي فِعَالِهِمِ شِيَاتُ[(٢)]

ولدوا على صهواتها

وقال يمدح أبا أيوبَ أحمدَ بن عمران:

[الكامل]

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا
دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا[(٣)]

أَوْفَى فَكُنْتُ إِذَا رَمَيْتُ بِمُقْلَتِي
بَشَراً رَأَيْتُ أَرَقَّ مِنْ عَبَرَاتِهَا[(٤)]

---

(١) يذكر الشاعر أنه قد أفاض في مدح ممدوحه ذاكراً الكثير من مزاياه وصفاته العديدة، ومع ذلك لم يلمّ بكل ما أوتي من صفات لعدم إحاطته بكل ما يتوفّر لديه من جميل الفضائل.

(٢) الدهم: السود. الشيات، الواحدة شية: اللون المغاير لسائر ألوان الجلد في الجواد كالتحجيل والغرّة. يُقارن الشاعر بين عطايا الأجداد وعطاء ممدوحه إنها مهما كثرت سوداء بالمنّ وما يكدرها من الغايات من ورائها بينما تبدو عطايا ممدوحه كالغرّة في جبين الكرم، إنها نتيجة صفات متأصّلة في صاحبها من حبّ وشعور بنعمة العطاء.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. السرب: القطيع من الظباء والقطا وما إليهما. ذواتها: صاحباتها. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزلي. جماعة من نسوة حِسانٍ، يفتقد إلى رؤيتهن، فصفاتهن تَختزن في ذاكرته ومخيّلته ولكن ذوات أصحابهن قد رحلن بعيداً عنه.

(٤) أوفى: أطلّ من العلاء. البشر: ظاهر جلد بني آدم. إنها لحظة الفراق، والركب يبتعد قليلاً قليلاً والظاعنات يُصعّدْن في جبل، ونظراتهن تودّع الأطلال من علٍ، وقد بدت عبراتهن تغطّي وجوههن الرقيقة.

يَسْتَاقُ عِيسَهُمُ أَنِينِي خَلْفَهَا
تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ زَجْرَ حُدَاتِهَا[١]
وَكَأَنَّهَا شَجَرٌ بَدَتْ لٰكِنَّهَا
شَجَرٌ جَنَيْتُ المَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا[٢]
لَا سِرْتِ مِنْ إِبِلٍ لَوَ ٱنِّي فَوْقَهَا
لَمَحَتْ حَرَارَةُ مَدْمَعَيَّ سِمَاتِهَا[٣]
وَحَمَلْتُ مَا حُمِّلْتِ مِنْ هٰذِي المَهَا
وَحَمَلْتِ مَا حُمِّلْتُ مِنْ حَسَرَاتِهَا[٤]
إِنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا
لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَابِيلَاتِهَا[٥]

---

(١) يستاق: يقود. العيس: الإبل. الحداة، الواحد حادٍ: سائق الإبل والمغني لها. وما يجعل الإبل تسرع في مسيرها بكاء الشاعر، فأنينه يتلاحق وزفراته حرّة كأنها آهات تتعالى ممَّا يجعل النياق تستجيب لغناء الحداة تستحثها بأصواتها الشجية فتندفع مسرعة.

(٢) لقد بدت تلك الإبل في لحظة الفراق أشجاراً تتطاول في الأفق وتتمايل فتتساقط ثمراتها ألماً في طياته الموت للشاعر لفراق الأحبة.

(٣) السمات، الواحدة سمة: العلامة. يدعو الشاعر على الإبل الراحلة بالتسمّر في مكانها، لأنها تُبعد عنه أحبته وتستدرّ دموعه، فلو كان يُشارك الركب رحلتهم لكانت دموعه تلك تمحو آثار وسم تلك الإبل.

(٤) المها، الواحدة مهاة: البقرة الوحشية. ويقصد بالمها: النسوة. يدعو الشاعر أن يُحَمّل ما كانت تحمل الإبل من النساء ذوات العيون الجميلة، وأن تحمل الإبل ما كان يرزع تحت عبئه من الحزن لفراق أحبّته.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. ويروى «سَرَاويلاتها» بدلاً من «سَرَابيلاتها». الشغف: شدّة العشق. الخُمُر، الواحد خِمار: غطاء رأس المرأة. الحجاب: السرابيل، الواحد سربال: ضرب من القمصان، والسراويل، المفرد سروال، فارسي معرّب: لباس يستر النصف الأسفل من أجسام النساء. لقد أحبّ الشاعر في النساء الخمر، فهي تكشف عن جمال ستر بالخمر، ممّا يفتح للخيال مجال التخيّل عمّا يُخفيه الخمار، والوهم في هذه الحالة يحمل على الحبّ، خلاف ما تخفيه السراويل من أسفل جسد المرأة، والعربي بطبعه يحب جمال العيون.

وَتَــرى الْــفُــتُــوَّةَ وَالْــمُــرُوَّةَ وَالأْبُــوَّ
ةَ فِــيَّ كُــلُّ مَــلِــيــحَــةٍ ضَــرَّاتِــهَــا(١)
هُــنَّ الــثَّــلاَثُ الــمَــانِــعَــاتِــي لَــذَّتِــي
فِــي خَــلْــوَتِــي لاَ الْــخَــوْفُ مِــنْ تَــبِــعَــاتِــهَــا(٢)
وَمَــطَــالِــبٍ فِــيــهَــا الْــهَــلاَكُ أَتَــيْــتُــهَــا
ثَــبْــتَ الْــجَــنَــانِ كَــأَنَّــنِــي لَــمْ آتِــهَــا(٣)
وَمَــقَــانِــبٍ بِــمَــقَــانِــبٍ غَــادَرْتُــهَــا
أَقْــوَاتَ وَحْــشٍ كُــنَّ مِــنْ أَقْــوَاتِــهَــا(٤)
أَقْــبَــلْــتُــهَــا غُــرَرَ الْــجِــيَــادِ كَــأَنَّــمَــا
أَيْــدِي بَــنِــي عِــمْــرَانَ فِــي جَــبَــهَــاتِــهَــا(٥)

---

(١) و(٢) يسرد الشاعر الأسباب المانعة من الخلوة بالنساء؛ فالمروءة تمنعه من ذلك، وهي صفة رجولية، يتمتع بها الأقوياء الأخلاق من الرجال في مواضيع العلاقة بالنساء، والفتوَّة بمدلولها العربي، مفادها الغيرة على الأعراض وحمايتها ممَّا يَشينها ويُلحق بها الأذى، والأبوّة وهي سمة يرعاها حبّ الأب لأولاده، وبخاصة البنات منهم، والغيرة عليهم، وتلك سمة متأصّلة في المفهوم الإسلامي والعربي للأخلاق، لتلك الأسباب يتحاشى الشاعر الخلوة بالنسوة، وليس مرد ذلك الخوف من فتنة النساء.

(٣) الجنان: القلب، يتنقل الشاعر للحديث عن شجاعته بعد ما مهّد لذلك بعدم خوفه من الخلوة بالنساء؛ إنه دائم البحث عمَّا يُظهر شجاعته، فهو يطلب مكامن الأخطار غير هيَّاب، وقلبه ثابت في صلابته وقوته، وكأنه لم يفعل شيئاً خطيراً.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٣. المقانب، الواحدة مقنب: الكوكبة من الخيول. غادرتها: تركتها. ثمة كوكبة من الفرسان واجهها الشاعر بمثيلتها فترك أفرادها صرعى تنهشها الوحوش التي كانت من طرائدها ذات يوم.

(٥) أقبلتها: واجهتها. الغرر، الواحدة غرّة: مقدمة الوجه من الخيول البيضاء. الأيدي: كناية عن الكرم. ينتقل الشاعر من وصف إنجازاته الحربية إلى وصف ممدوحيه من بني عمران. لقد واجه الشاعر أعداءه بالمحجل من الخيول ذوات الغرر البيضاء فجعلها تقبل غرر جيادهم التي أوصلها إلى أعدائهم فشفى صدورهم بها منهم فبدت كأيدي ممدوحيه من بني عمران المعتادة التقبيل.

أَلْــثَّــابِــتِــيــنَ فُــرُوسَــةً كَــجُــلُــودِهَــا
فِـي ظَـهْـرِهَـا وَالـطَّـعْـنُ فِـي لَـبَّـاتِـهَـا (١)

أَلْـعَـارِفِـيـنَ بِـهَـا كَـمـا عَـرَفَـتْـهُـمُ
وَالـرَّاكِـبِـيـنَ جُـدُودُهُـمْ أُمَّـاتِـهَـا (٢)

فَـكَـأَنَّـهَـا نُـتِـجَـتْ قِـيَـامـاً تَـحْـتَـهُـمْ
وَكَـأَنَّـهُـمْ وُلِـدُوا عَـلَـى صَـهَـوَاتِـهَـا (٣)

إِنَّ الْـكِـرَامَ بِـلَا كِـرَام مِـنْـهُـمُ
مِـثْـلُ الْـقُـلُـوبِ بِـلَا سُـوَيْـدَاوَاتِـهَـا (٤)

تِـلْـكَ الـنُّـفُـوسُ الْـغَـالِـبَـاتُ عَـلَـى الْـعُـلَـى
وَالـمَـجْـدُ يَـغْـلِـبُـهَـا عَـلَـى شَـهَـوَاتِـهَـا (٥)

سُـقِـيَـتْ مَـنَـابِـتُـهَـا الَّـتِـي سَـقَـتِ الْـوَرَى
بِـيَـدَيْ أَبِـي أَيُّـوبَ خَـيْـرِ نَـبَـاتِـهَـا (٦)

---

(١) اللبات، الواحدة لبة: النحور. ينوّه الشاعر بشجاعة ممدوحيه، إنهم فرسان جِلاد يثبتون في ميادين القتال على متون جيادهم كجلودها ويطعنون أعداءهم في نحورهم فيتركونهم صرعى يتخبّطون بدمائهم ومعفّرين بالتراب.

(٢) الأمات: جمع لأمهات ما لا يعقل من البهائم. إن هؤلاء القوم قد اعتادوا ركوب الخيل، وثمّة معرفة تربطهم بخيولهم الموروثة أماتها عن آبائهم الفرسان، فهم من أصلاب رجال فوارس شجعان.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. ولتأكيد الصلة الحميمة بين هؤلاء القوم وبين خيولهم، يعجب الشاعر بمهارتهم فكأن خيولهم نتجت وهم يعتلونها وكأنهم ولدوا وهم يعتلون متونها.

(٤) السويداوات، الواحدة سويداء: حبة القلب. فكرة تلازم وجود هؤلاء القوم الكرام بخيول كريمة، وإن لم تكن العلاقة كذلك، فهم كقلب افتقد إلى سويدائه.

(٥) إنهم ذوات نفوس تسعى دائماً إلى المعالي فيتبوّؤون قمم المجد دون سواهم، والمجد يغلبهم فيحول دونهم ودون شهوات الضعفاء من البشر كالخبث والجبن والبخل و....

(٦) الورى: البشر. الندى: الكرم. إنهم ينتسبون إلى أحساب عريقة نبتوا في شجرة أبي أيوب وهو خير من نبغ في هذه الدوحة الكريمة.

لَـيْـسَ الـتَّـعَـجُّـبُ مِـنْ مَـوَاهِـبِ مَـالِـهِ
بَـلْ مِـنْ سَـلاَمَـتِـهَـا إِلَـى أَوْقَـاتِـهَـا(١)

عَـجَـبـاً لَـهُ حَـفِـظَ الْـعِـنَـانَ بِـأَنْـمُـلٍ
مـا حِـفْـظُـهـا الأَشْـيَـاءَ مِـنْ عـادَاتِـهَـا(٢)

لَـوْ مَـرَّ يَـرْكُـضُ فِـي سُـطُـورِ كِـتَـابَـةٍ
أَحْـصَـى بِـحَـافِـرِ مُـهْـرِهِ مِـيـمَـاتِـهَـا(٣)

يَـضَـعُ الـسِّـنَـانَ بِـحَـيْـثُ شَـاءَ مُـجَـاوِلاً
حَـتَّـى مِـنَ الآذَانِ فِـي أَخْـرَاتِـهَـا(٤)

تَـكْـبُـو وَرَاءَكَ يَـا ٱبْـنَ أحـمَـدَ قُـرَّحٌ
لَـيْـسَـتْ قَـوَائِـمُـهُـنَّ مِـنْ آلاَتِـهَـا(٥)

رِعَـدُ الْـفَـوَارِسِ مِـنْـكَ فِـي أَبْـدَانِـهَـا
أَجْـرَى مِـنَ الْـعَـسَـلاَنِ فِـي قَـنَـوَاتِـهَـا(٦)

---

(١) وما يدهش أن أبا أيوب رغم كرمه المفرط فإن خزائنه تبقى مليئة بالكنوز، التي تفيض من رزق اللّٰه تعالى، ممّا يعني حسن الرعاية الإلهية له.

(٢) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٤٦. ويُردف الشاعر موضحاً الفكرة التي بدأها، إنه يُحسن الإمساك بعنان فرسه بأنمله، ممّا يعني أنه فارس مغوار لا يُشقّ له غبار وأنه في غاية الكرم فهو لا يُحسن الاحتفاظ بما له يفرّقه بين المحتاجين من الفقراء وبين أصحابه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. وما يدلّ على حذق وفروسيَّة ممدوحه أن تحكّمه في فرسه يكاد يكون حسب مشيئته، فلا يخطو ويضع حافره إلّا حيث يشاء، ولقد ذكر الميم في هذا المجال لأنها تشبه حافر الفرس.

(٤) مجاولاً: مصاولاً في الميدان. ويروى «محاولاً» بدلاً من «مجاولاً». الأخرات، الواحد خرت، الثقب. ومهارة الممدوح باستعمال رمحه فإنه يستطيع تسديده إلى ثقب الأذن بدقّة فائقة.

(٥) القرّح من الخيول: البالغ خمس سنوات من عمره. ينوّه الشاعر بسبق ممدوحه إلى المكرمات وبلوغ أعلى مراتب المجد أن الكثيرين ممن يمتازون بالإرادات القوية والعزائم الشديدة يعتبرون دون ممدوحه فلا يستطيعون اللّحاق به لعلو شأوه وعظم همّته.

(٦) الرعد، الواحد رعدة: الخوف والرعب. العسلان: الاهتزاز. القنوات، الواحدة =

لَا خَلْقَ أَسْمَحُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ
بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا[١]
غَلِتَ الَّذِي حَسَبَ الْعُشُورَ بِآيَةٍ
تَرْتِيلُكَ السُّورَاتِ مِنْ آيَاتِهَا[٢]
كَرَمٌ تَبَيَّنَ فِي كَلَامِكَ مَاثِلاً
وَيَبِينُ عِتْقُ الْخَيْلِ فِي أَصْوَاتِهَا[٣]
أَعْيَا زَوَالُكَ عَنْ مَحَلٍّ نِلْتَهُ
لَا تَخْرُجُ الْأَقْمَارُ عَنْ هَالَاتِهَا[٤]

= قناة: الرمح. ينوّه الشاعر بشجاعة ممدوحه، ولقد سبقت مآثره إلى آذان أعدائه، فإذا بالفارس منهم يرتجف خوفاً فتسري في أعضائه حُمّى الرعب أسرع من اهتزاز رمحه، ممّا يجعله مهزوماً نفسياً قبل لقاء ممدوحه.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥، أسمح: أكرم. راء: لغة في رأى. هاتها: اسم فعل أمر بمعنى أعطنيها. يفضل الشاعر ممدوحه، إنه أكرم الخلق، فلو أن أحدهم سأله نفسه لوهبه إياها بسماحة نفس، لذا فرحمة به لا يسأله أحد ذلك لعلمه مسبقاً أنه على استعداد بتقديم ذلك طوعاً.

(٢) غلت: لغة في غلط، يختص ذلك في الحساب. العشور: الواحد عَشر بفتح العين والعشر أصغر من الجزء في القرآن الكريم. الترتيل: ضرب من القراءة القرآنية عماده التبيين. وللمرة الأولى نجد شاعراً يمدح ممدوحه بإجادته القراءة القرآنية، ولقد بلغ الممدوح في هذا المجال الإتقان؛ وذلك إعجاز بحدّ ذاته، وقد غلط من لم يذكر تلك الآية مضافة إلى آيات القرآن الكريم.

(٣) ماثلاً: بادياً. العتق: الكرم. لقد ارتبط قول الممدوح بفعله، فإذا وعد وفى، فكرمه أصيل في نفسه كما أن عتق الفرس يُكتشف من صهيله. لذا فمعظم قالة الممدوح يدور حول الكرم والعطاء والوعد به، ممّا يدلّ على حبّ عظيم للكرم لديه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. أعيا: أتعب وأعجز. الهالة: الدائرة حول القمر. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بالمدى الذي حلّ به، لقد بلغ من العلياء كلّ مكان، وسما شرفاً؛ فإذا به كالقمر علوًّا وجمالاً وأنساً وسحراً، وهو لا يتخلّى عن مكانته العالية الرفيعة، يشرق ضوؤه نوراً وفخاراً في أبهى هالاته.

لَا تَـعْـذُلُ الْـمَـرَضَ الَّـذِي بِـكَ شَـائِـقٌ
أَنْـتَ الـرِّجَـالَ وَشَـائِـقُ عِـلَّاتِـهَـا[١]
فَـإِذَا نَـوَتْ سَـفَـراً إِلَـيْـكَ سَـبَـقْـنَـهَـا
فَـأَضَـفْـتَ قَـبْـلَ مُـضَـافِـهَـا حَـالاتِـهَـا[٢]
وَمَـنَـازِلُ الْـحُـمَّـى الْـجُـسُـومُ فَـقُـلْ لَـنَـا
مَـا عُـذْرُهَـا فِـي تَـرْكِـهَـا خَـيْـرَاتِـهَـا[٣]
أَعْـجَـبْـتَـهَـا شَـرَفـاً فَـطَـالَ وُقُـوفُـهَـا
لِـتَـأَمُّـلِ الأَعْـضَـاءِ لَا لِأَذَاتِـهَـا[٤]
وَبَـذَلْـتَ مَـا عَـشِـقَـتْـهُ نَـفْـسُـكَ كُـلَّـهُ
حَـتَّـى بَـذَلْـتَ لِـهٰـذِهِ صِـحَّـاتِـهَـا[٥]
حَـقُّ الْـكَـوَاكِـبِ أَنْ تَـزُورَكَ مِـنْ عَـلٍ
وَتَـعُـودَكَ الآسَـادُ مِـنْ غَـابَـاتِـهَـا[٦]

---

(١) شاقه: جعله في حالة شوق. العلات، الواحدة علّة: المرض، الداء... يخاطب الشاعر ممدوحه طالباً ألّا يلوم الذي حلّ به، وذلك لشوق الداء أن ينزل ضيفاً على كريم، ففي الرجال شوق دائم للاقتراب من الممدوح، ولذلك لا يُستغرب أن يعشق الداء من كانت هذه صفاته.

(٢) ومن ألمعية الممدوح أنه دائماً في حالة توقّع للمسرّات، وذلك بتهيئة ما يسرّ الضيوف الذين يقصدون الممدوح من أمكنة بعيدة، من تكريم وحسن ضيافة ونوال لمعرفته بما عليه القصّاد من حاجة وزاد.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٢١. يذكر الشاعر حال سائر البشر؛ فالأمراض تُحالف بعضهم فإذا بها تعتاد النزول في حمى الأجساد، فلا عذر لها في حال تخليها عن الخير حيث ضيافة غير مكلفة في أجساد مضيافة.

(٤) لقد حلّت تلك الحمّى في جسد الممدوح لما وجدت عنده من خصال الكرم وشرف النسب وعلو الهمة، فتوقّفت تستشرف تلك الفضائل وتلتذّ، وهي لا تنوي الأذية لصاحب صفات نادرة في البشر.

(٥) بذلت: قدّمت، ومن كرم الممدوح أنه لا يبخل بشيء مهما غلا لذا فقد بذل النفس لديه بسخاء للحمّى وهي أغلى ما لديه، حتى الصحّة والعافية جاد بها.

(٦) ينوّه الشاعر بكرامة ممدوحه لدى رموز القوة والعلو في هذا الوجود، فكون الممدوح =

وَالْـجِــنُّ مِــنْ سُـتَـرَاتِـهَــا وَالْـوَحْـشُ مِــنْ
فَـلَــوَاتِـهَــا وَالـطَّـيْـرُ مِــنْ وُكَـنَــاتِـهَــا[١]
ذُكِــرَ الأنــامُ لَـنَــا فَـكَــانَ قَـصِـيـدَةً
كُـنْـتَ الْـبَـدِيـعَ الْـفَـرْدَ مِـنْ أَبْـيَـاتِـهَــا[٢]
فِــي الـنَّــاسِ أَمـثِـلَــةٌ تَـدُورُ حَـيَـاتُـهَــا
كَـمَـمَـاتِـهَـا وَمَـمَـاتُـهَـا كَـحَـيَـاتِـهَـا[٣]
فَــالْـيَــوْمَ صِــرْتُ إِلَــى الَّــذِي لَــوْ أَنَّــهُ
مَـلَـكَ الْـبَـرِيَّـةَ لَاسْـتَـقَـلَّ هِـبَـاتِـهَـا[٤]

= ماجداً سرياً يحقّ للكواكب أن تعوده في مرضه للتشابه الظاهر بينها وبينه، وكذلك يحقّ للآساد أن تعوده، وإنما هي تعود من يتمتّع بصفات الشجاعة والقوّة والمهابة والسلطان.

(١) الوكنات، الواحدة وكنة: أعشاش الطيور. والوكر: بيت الطائر. ويضيف الشاعر إلى كوكبة المعيدين لممدوحه الجنّ، عالم الخفاء ولا بدّ من مظاهر التشابه بين الممدوح وهذه الكوكبة من المخلوقات فهي من عالم الأسرار وغوامض الوجود، وحتى الوحوش بما ترمز إليه من الشراسة والقوّة هي تودّ بدورها عيادة الممدوح ويلحق بها الطير، رمز العلوّ والتفوّق؛ علّ الجميع يتنسّم فضائل الممدوح.

(٢) الأنام: البشر. ما يلفت نظر النابه أن البشر يسيرون في موكب الحياة، والنادر أن تقع العيون على من اكتملت لديه عناصر الكمال، ولهذا كان الممدوح بيتاً بديعاً في قصيدة اكتملت عناصرها الجمالية.

(٣) إنها نظرة مستعلية، حيث يرى الشاعر أن البشرية تعمر بأناس لا قيمة لهم، وحياتهم ومماتهم سيان؛ فلا غناء فيهم ولا نفع يُرتجى منهم، ورغم أعدادهم العظيمة ليس فيهم ما يلفت نظره، وهو لا يعوّل عليهم في أمر.

(٤) ثمة بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:
هِبْتُ الـنِّـكَاحَ حِـذارَ نَـسْـلٍ مِـثْـلِـهـا حـتّـى وَفَـرْتُ عـلـى الـنـسـاءِ بَـنَـاتِـهـا
يقصد الشاعر أنه لم يتزوّج مخافة أن يُرزق أمثال من لم يملأ عينيه ولهذا ترك البنات لدى أمهاتهن.
البرية: الخلق. لقد حلّ الشاعر ضيفاً على أكرم الخلق، ومن عظيم كرمه بإمكانه أن يقوم باكتفاء البشر جميعاً من فيض كرمه.

مُـسْـتَـرْخَـصٌ نَـظَـرٌ إِلَـيْـهِ بِـمَـا بِـهِ
نَـظَـرَتْ وَعَـثْـرَةُ رِجْـلِـهِ بِـدِيـاتِـهَـا (١)

أرى مرهفاً

وعرض عليه سيفاً فأشار به إلى بعض من حضر وقال :

[المتقارب]

أَرَى مُـرْهَـفـاً مُـدهِـشَ الـصَّـيـقَـلِـيـنَ
وبَـابَـةَ كُـلِّ غُـلامٍ عَـتَـا (٢)
أَتَـأْذَنُ لِـي ولَـكَ الـسَّـابِـقَـاتُ
أُجَـرِّبُـهُ لَـكَ فِـي ذا الـفَـتَـى؟ (٣)

خلتي قذى عينيه

وردّ عليه رسول سيف الدولة برقعة فيها هذا البيت :

[الطويل]

رَأَى خَـلَّـتِـي مِـنْ حَـيْـث يَـخْـفَـى مَـكَـانُـهـا
فَـكَـانَـتْ قَـذَى عَـيْـنَـيْـهِ حَـتَّـى تَـجَـلَّـتِ (٤)

---

(١) العثرة : الكبوة . الديات ، الواحدة دية : الفدية تدفع ثمن القتيل ، ومن مغالاة الشاعر لو أن البشرية رغبت برؤيته على أن تراه لكانت عيونها رخيصة مقابل ذلك ، وحتى لو عثرت رجله فأثمان جميع البشر لا تساوي دياتها لرخص ديات البشر جميعاً .

(٢) المرهف من السيوف : الرقيق . الصيقل : السيف القاطع . عتا : تجبّر . البابة : الصالح . إنه سيف رقيق يصلح لبري الطاغي من الغلمان لطغيانه وجبروته ولفصل رأسه عن جسده .

(٣) ورد البيت في : مجالس ثعلب ٢ : ٤٤ ، همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، للسيوطي ٢ : ٢٠٥ ، الدرر اللوامع ٢ : ٢٣٢ ، لسان العرب مادة (شمل).
يطلب الشاعر ممن عرض عليه السيف أن يجرّبه في الفتى الماثل أمامه ، ولسوف يقرّ له بتلك النعمة السابقة .

(٤) الخلّة : الحاجة والفقر . القذى : ما يسقط في العين والشراب . تجلّت : انكشفت . ينوّه بشدّة ملاحظته من علم بثاقب نظره ما عليه الشاعر من فقر مُدقع ، وقد ظهرت علائم ذلك بادية في عينيه رغم محاولته إخفاء ذلك ، والبيت لعبد اللّه بن الزبير الأسدي .

ممات لحي وحياة لميت

وسأله إجازته فكتب تحته ورسوله واقف:

[الطويل]

لَـنَـا مَـلِـكٌ لَا يَـطْـعَـمُ الـنَّـوْمَ هَـمُّـهُ
مَـمَـاتٌ لِـحَـيٍّ أَوْ حَـيَـاةٌ لِـمَـيِّـتِ (١)

وَيَـكْـبُـرُ أَنْ تَـقْـذَى بِـشَـيْءٍ جُـفُـونُـهُ
إِذَا مَـا رَأَتْـهُ خَـلَّـةٌ بِـكَ فَـرَّتِ (٢)

جَـزَى الـلَّـهُ عَـنِّـي سَـيْـفَ دَوْلَـةِ هَـاشِـمٍ
فَـإِنَّ نَـدَاهُ الْـغَـمْـرَ سَـيْـفِـي وَدَوْلَـتِـي (٣)

---

(١) يطعم: يذوق. يمدح الشاعر سيف الدولة إنه ملك لا يذوق طعم النوم لكثرة اهتماماته، ولأنه لا يهتم باللهو شأن غيره من الملوك، إنما الهموم تتعلّق بمداومته الحروب ضدّ أعدائه وبالكرم ومستلزماته، لذا فهو يقتل أعداءه في ميادين القتال ويكفي بجوده الأصحاب والأحباب.

(٢) يرد الشاعر على قائل بأن سيف الدولة لا يكدره قذًى بل إنه ينظر إلى أحوال صحبه بعين الخبير بأحوال العباد، فإذا شعر بأن أحدهم بحاجة بادر إلى نجدته بما هو يحتاج إليه، لذا تفرّ الحاجة إذا رأته.

(٣) الندى: الجود. الغمر: الكثير. يدعو الشاعر لسيف الدولة بالجزاء العميم، فقد غمر الشاعر نداه، لذا فهو سيفه الذي يقاتل به الفقر والعوز ودولته التي بها يقوى ويمتنع عن أعدائه.

رويّ الجيم

عرفتك والصفوف معبَّآت

قال وقد صف سيف الدولة الجيش في منزل يعرف بالسنبوس:

[الوافر]

لِهَذَا الْيَوْم بَعْدَ غَدٍ أَرِيجُ
وَنَارٌ فِي الْعَدُوِّ لَهَا أجِيجُ(١)

تبِيتُ بِهَا الْحَوَاضِنُ آمِنَاتٍ
وَتَسْلَمُ فِي مَسَالِكِهَا الْحَجِيجُ(٢)

فَلَا زَالَتْ عُدَاتُكَ حَيْثُ كَانَتْ
فَرَائِسَ أَيُّهَا الأَسَدُ الْمَهِيجُ(٣)

عَرَفْتُكَ وَالصُّفُوفُ مُعَبَّآتٌ
وَأَنْتَ بِغَيْرِ سَيْفِكَ لَا تَعِيجُ(٤)

---

(١) الأريج: النشر الطيب المعطر. الأجيج: اضطرام النار واشتعالها. استبشر الشاعر لما شاهد سيف الدولة يستعدّ للحرب بأن النصر يلوح بالأفق ونشر طيبه سوف يعمّ الآفاق ويُفرح الأصحاب والأحباب، وفي المقابل ستتصاعد النيران في ديار الأعداء فتشوي جلودهم وقلوبهم ويولّون الأدبار مهزومين.

(٢) الحواضن: المربيات. وتروى «الحواصن» و«الحواضر» بدلاً من «الحواضن» والحواصن: العفيفات. المسالك: الطرقات. ينتج عن هذه الحروب أن المسلمات يأمنّ على أنفسهن في ديارهن، فلا سبي ولا تشتت ولا حرمان من صغارهن. وكذلك يطمئن الحجيج وهم يقصدون البيت الحرام فلا يُفاجأون من قبل الروم الأعداء.

(٣) يدعو الشاعر لسيف الدولة بالتوفيق وأن يجعل اللّه تعالى أعداءه فرائس له، وهو أسد ضارٍ، قادر على إرهاب عدوّه.

(٤) تعيج: تهتمّ. وما يدلّ على شجاعة سيف الدولة أنه لا يهتم للسلاح، ونظرة عجلى =

وَوَجْهُ الْبَحْرِ يُعْرَفُ مِنْ بَعِيدٍ
إِذَا يَسْجُو فَكَيْفَ إِذَا يَمُوجُ[(١)]

بِأَرْضٍ تَهْلِكُ الْأَشْوَاطُ فِيهَا
إِذَا مُلِئَتْ مِنَ الرَّكْضِ الْفُرُوجُ[(٢)]

تُحَاوِلُ نَفْسَ مَلْكِ الرُّومِ فِيهَا
فَتَفْدِيهِ رَعِيَّتُهُ الْعُلُوجُ[(٣)]

أَبِالْغَمَرَاتِ تُوعِدُنَا النَّصَارَى
وَنَحْنُ نُجُومُهَا وَهِيَ الْبُرُوجُ[(٤)]

وَفِينَا السَّيْفُ حَمْلَتُهُ صَدُوقٌ
إِذَا لَاقَى وَغَارَتُهُ لَجُوجُ[(٥)]

= يرمي بها الشاعر على جند الأمير المنظم والمعدّ خير إعداد، وعلى رأس هذا قائد لا يحمل سلاحاً لأنه في منتهى الشجاعة لذا فهو ليس بحاجة للسلاح.

(١) يسجو: يهدأ. البحر في حال سكونه جميل يحمل على الطمأنينة، فالأمير بحر ساكن يبدو من بعيد ثابت الجأش مطمئناً إلى جيشه واثقاً به، ولكن ما إن تتدافع الجموع إلى الأمام حتى يتغيّر الحال، فإذا بالبحر يبدو عاصفاً مدمّراً.

(٢) الشوط: الطلق، الاندفاع. الفروج: الفتحة بين قوائم الجواد. يبدو سيف الدولة يعدو به فرسه منطلقاً كالبرق كأنه صاعقة سوف تنزل بأعدائه الموت الزعاف، ورغم رحابة الميدان واتساعه يتقلّص بعدو فرسه المندفع وكأنه في مباراة سباق وليس في معركة ممّا يدل على سرعة تهاوي جنود الأعداء أمامه.

(٣) العلوح، الواحد عِلج: كفار العجم. إنها حركة غايتها إدراك ملك الروم، سيف الدولة يشقّ الصفوف ويفرّق جموعها ليدرك ملك الروم فيُطيح برأسه، ولكن رعيته تحول دون ذلك فتترامى بين يدي سيف الدولة مضحية بأنفسها حفاظاً على ملكهم.

(٤) يستنكر الشاعر على النصارى تهديدهم بأنهم سوف ينزلون بجند سيف الدولة الهزائم الشنيعة، ولقد فات هؤلاء أن جند سيف الدولة نجوم الحروب بهم تُضاء سماؤها وبهم تخمد نيران الأعداء، وهم يتربّعون بروج تلك السماء.

(٥) اللجوج: الملحّ في الطلب. يفخر الشاعر أن سيف الدولة قائد جند بطل مغوار، صادق الحملة لا يتوانى ولا يتراجع بل إنه يُوغل في جيوش الأعداء تقتيلاً وأسراً وتجريحاً، حتى يستأصل شأفتهم.

نُـعَـوِّذُهُ مِـنَ الأعْـيـانِ بَـأْسـاً
وَيَـكْـثُـرُ بِـالـدُّعَـاءِ لَـهُ الـضَّـجِـيـجُ [(١)]

رَضِـيـنَـا وَالـدُّمُـسْـتُـقُ غَـيْـرُ رَاضٍ
بِـمَـا حَـكَـمَ الْـقَـوَاضِـبُ وَالْـوَشِـيـجُ [(٢)]

فَـإِنْ يُـقْـدِمْ فَـقَـدْ زُرْنَـا سَـمَـنْـدُو
وَإِنْ يُـحْـجِـمْ فَـمَـوْعِـدُهُ الْـخَـلِـيـجُ [(٣)]

---

(١) يتمحور خوف الشاعر على سيف الدولة من عيون الحاسدين لذا فإنه يستعيذ باللّه تعالى ليحميه من تلك العيون القاتلة، وهذا يكفي لأن الأمير يكفيه ما عليه من شجاعة وبطولة.

(٢) الدمستق: قائد جيش الروم، القواضب، الواحد قاضب: السيف البتّار. الوشيج: عيدان الرماح. يبدي الشاعر فرحه فقد رضي بأفعال سيف الدولة وسُرّ لذلك وهذا ما يزعج الدمستق، لأن السيوف والرماح عملت عملها في جيشه فباء بالهزيمة الشنيعة.

(٣) سمندو: قلعة في بلاد الروم تعرف اليوم ببلغراد. الخليج: خليج القسطنطينية. يحمل قول الشاعر تهديداً لقائد الروم، فقد وصلت جيوش سيف الدولة إلى سمندو، وهي عقر دياره لمواجهته فإن أقدم فالقتال على وشك هبوب عواصفه، وإن فرّ فلا بدّ من لقائه في خليج القسطنطينية.

رويّ الحاء

أنا عين المسوَّد

وقال في صباه وقد بُلِّغَ عن قوْمٍ كلاماً : [الخفيف]

أَنَـا عَـيْـنُ الـمُـسَـوَّدِ الـجَـحْـجَـاحِ
هَـيَّـجَـتْـنِـي كِـلَابُـكُـمْ بِـالـنُّـبَـاحِ [1]

أَيَـكُـونُ الْـهِـجَـانُ غَـيْـرَ هِـجَـانٍ
أَمْ يَـكُـونُ الـصُّـرَاحُ غَـيْـرَ صُـرَاحِ [2]

جَـهِـلُـونِـي وَإِنْ عَـمَـرْتُ قَـلِـيـلاً
نَـسَـبَـتْـنِـي لَـهُـمْ رُؤُوسُ الـرِّمَـاحِ [3]

نفديك من سيل ندى

يمدح مساور بن محمد الرومي : [الكامل]

جَـلَـلاً كَـمَـا بِـي فَـلْـيَـكُ الـتَّـبْـرِيـحُ
أَغِـذَاءُ ذَا الـرَّشَـإِ الأَغَـنِّ الـشِّـيـحُ [4]

---

(١) المسوّد : هو من جعله قومه سيداً عليهم . الجحجاح : السيد الكريم . يفخر الشاعر أنه مسوّد في قومه وسيد كريم ثار لكرامته لمقالة كلاب نابحة لئام تقوّلوا عليه ما يشينه ونعتوه بما هو ليس فيه .

(٢) الهجان : الرجل الأصيل النسب . الصراح : الخالص النسب . يستنكر الشاعر أن تنقلب المقاييس الإنسانية ، فالصريح النسب لا يمكن إلّا أن يبقى على أصالته قولاً وعملاً وخلقاً ، وما ذكر من سيّئ الكلام لا يُعيره التفاتة ، والهجاء لا يؤثر عليه فهو صريح النسب الرفيع .

(٣) ينعى الشاعر على القوم جهلهم به ، وهو يتهدّدهم أنه إذا التقاهم في ساحات القتال سيعرفون من هو عندما يستعمل الرماح التي تكشف عن نبل محتده وعراقة أصله .

(٤) الجلل : كلّ أمر عظيم . التبريح : الأذى . الرشأ : ولد الظبية إذا قوي واستغنى عن أمه =

لَـعِـبَـتْ بِـمِـشْـيَـتِـهِ الـشَّـمُـولُ وَغَـادَرَتْ
صَـنَـمـاً مِـنَ الْأَصْـنَـامِ لَـوْلَا الـرُّوحُ[١]
مَـا بَـالُـهُ لَاحَـظْـتُـهُ فَـتَـضَـرَّجَـتْ
وَجَـنَـاتُـهُ وَفُـؤَادِيَ الـمَـجْـرُوحُ[٢]
وَرَمَـى وَمَـا رَمَـتَـا يَـدَاهُ فَـصَـابَـنِـي
سَـهْـمٌ يُـعَـذِّبُ وَالـسِّـهَـامُ تُـرِيـحُ[٣]
قَـرُبَ الـمَـزَارُ وَلَا مَـزَارَ وَإِنَّـمَـا
يَـغْـدُو الْـجَـنَـانُ فَـنَـلْـتَـقِـي وَيَـرُوحُ[٤]
وَفَـشَـتْ سَـرَائِـرُنَـا إِلَـيْـكَ وَشَـفَّـنَـا
تَـعْـرِيـضُـنَـا فَـبَـدَا لَـكَ الـتَّـصْـرِيـحُ[٥]

= ونبت له قرنان. الأغن: ذو الصوت الجميل. الشيح: من النباتات الطيبة الرائحة، يبدأ الشاعر قصيدته بالغزل شأن الجاهليين. لقد ألمّ به أمر عظيم، إنه متيّم ولقد برّح به الشوق إلى غزال، صوته عذب وموسيقى تنساب في الأذن، غذاؤه طيب المنبت والرائحة العبقة تغسل الهموم، ويسأل الشاعر عن محبوبته التي تتغذّى بقلبه وتنهش به بلطف فيُحسّ رعشة الجسد ونحوله وتلوّح به تباريح العشق.

(١) الشمول: من أسماء الخمرة. يصف الشاعر خُطى حبيبته، لقد لعبت الخمرة بها فإذا بها تميس ميلاء، ممّا حوّلها إلى صنم اكتملت فيه عناصر الفنّ والتناسق البديع، فضلاً عن روحها التي تنمّ عن حياة وحركة الشباب الغض.

(٢) تضرّجت بالدم: احمرّت. فؤادي: قلبي. تتلاقى النظرات فترسم علائم الشوق على الخدود حمراء عنوان الخفر والحياء، وذلك أجمل ما في المرأة؛ وهذا ما جعل فؤاد الشاعر يتألّم وتتسارع دقات قلبه معلنة عن جراح مؤلمة.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٣٣، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٣٧١، إنها نظرات فاتنة وسهام قاتلة صوّبتها عينان جميلتان تخترق الحجب وتعذب ولكنها غير قاتلة لأنها ليست كسهام المقاتلين التي تميت وتريح.

(٤) الجنان: القلب. ثمّة قرب مكاني بين الشاعر وحبيبته حيث لا لقاء، فخوف الشاعر من عيون الرقباء الذين يُحصون عليه حركاته ولفتاته يحتم عليه ألّا يزور محبوبته، وبالطبع فهناك لقاء وِجداني يجمع بينهما، إنه لقاء القلوب وقد تخطّت الحجب، فالتقت على الحبّ.

(٥) فشت: انتشرت. السرائر: مخبئات القلوب. شفّه: أضناه، إنها نظرات تكشف ما في =

لَـمَّـا تَـقَـطَّـعَـتِ الْـحُـمُـولُ تَـقَـطَّـعَـتْ
نَـفْـسِـي أَسًـى وَكَـأَنَّـهُـنَّ طُـلُـوحُ (١)

وَجَـلَا الْـوَدَاعُ مِـنَ الْـحَـبِـيـبِ مَـحَـاسِـناً
حُـسْـنُ الْـعَـزَاءِ وَقَـدْ جُـلِـيـنَ قَـبِـيـحُ (٢)

فَـيَـدٌ مُـسَـلِّـمَـةٌ وَطَـرْفٌ شَـاخِـصٌ
وَحَـشًـى يَـذُوبُ وَمَـدْمَـعٌ مَـسْـفُـوحُ (٣)

يَـجِـدُ الْـحَـمَـامُ وَلَـوْ كَـوَجْـدِي لَانْـبَـرَى
شَـجَـرُ الْأَرَاكِ مَـعَ الْـحَـمَـامِ يَـنُـوحُ (٤)

وَأَمَـقَّ لَـوْ خَـدَتِ الـشَّـمَـالُ بِـرَاكِـبٍ
فِـي عَـرْضِـهِ لَأَنَـاخَ وَهْـيَ طَـلِـيـحُ (٥)

= القلوب التي عذّبها الحبّ وأضناها البعد، فإذا بالسرائر تُعلن عمّا تُضمره القلوب وتفضح المكنون، فيطلّ التصريح من بينها.

(١) الحمول: ما تحمله الإبل من هوادج. الطلح: ضرب من الشجر الضخم العظيم. يصف الشاعر ساعة الفراق، في إحدى زوايا المشهد الحزين يقف الشاعر ينظر إلى الظاعنين، ومن بينهم حبيبته، إنها في هودج كأنه شجر الطلح يظللها بظلّ وافر حيث تنعم لا مبالية، وفي المقابل عاشق تتقطّع نفسه ألماً وحزناً على فراق قد لا يكون بعده لقاء.

(٢) لقد كانت الحبيبة في أجمل حالاتها وأتمّ صورها وأبهى مظاهرها وهذا أفقد الشاعر الصبر، فاستحال الصبر مشوه الصورة في غاية القبح، فقد نفذت ذخيرته.

(٣) يصف الشاعر الحالة التي كان عليها لحظة الوداع، إتماماً للمشهد، إنه يلوّح بيده مُسلِّماً علّها تراه فيرقّ قلبها لحالته، وعيناه قد تسمّرت بهودجها وكأنه غاب عن سائر المشهد للظاعنين، وقلبه هائم حزين، ودمعه يُغطي وجنتيه لفراق حبيبته.

(٤) يجد: يهيم حبًّا وحزناً. انبرى: اندفع. الأراك: ضرب من الشجر. الحمام رمز الوداعة والحبّ، فلو كان يُحبّ كما أحبّ الشاعر لاندفع يبكي إلفه على أحد الأغصان في تلك الشجرة التي تعانق السماء.

(٥) الأفق: الدرب الطويل. الوخد: ضرب من سير الإبل السريع. الطليح: المجهد عياءً من شدّة السير. يصف الشاعر بعد الشّقة وطول الطريق، فلو أن ريح الشمال العنيفة هبّت في عرض تلك الطريق لأجبرت راكب الناقة على النزول والاحتماء منها وقد تلاشت قوّتها وضعفت، فكيف حال الإنسان في طريق كهذه؟

نَـــازَعْـــتُـــهُ قُـــلُـــصَ الـــرِّكَـــابِ وَرَكْـــبُـــهَـــا
خَـــوْفَ الْـــهَـــلَاكِ حُـــدَاهُـــمُ الـــتَّـــسْـــبِـــيـــحُ[(١)]

لَـــوْلَا الْأَمِـــيـــرُ مُـــسَـــاوِرُ بْـــنُ مُـــحَـــمَّـــدٍ
مَـــا جُـــشِّـــمَـــتْ خَـــطَـــراً وَرُدَّ نَـــصِـــيـــحُ[(٢)]

وَمَـــتَـــى وَنَـــتْ وَأَبُـــو الْـــمُـــظَـــفَّـــرِ أَمُّـــهَـــا
فَـــأَتَـــاحَ لِـــي وَلَـــهَـــا الْـــحِـــمَـــامَ مُـــتِـــيـــحُ[(٣)]

شِـــمْـــنَـــا وَمَـــا حُـــجِـــبَ الـــسَّـــمَـــاءُ بُـــرُوقَـــهُ
وَحَـــرًى يَـــجُـــودُ وَمَـــا مَـــرَتْـــهُ الـــرِّيـــحُ[(٤)]

مَـــرْجُـــوُّ مَـــنْـــفَـــعَـــةٍ مَـــخُـــوفُ أَذِيَّـــةٍ
مَـــغْـــبُـــوقُ كَـــأْسِ مَـــحَـــامِـــدٍ مَـــصْـــبُـــوحُ[(٥)]

---

(١) نازعته: خاصمته. القلص، الواحدة قلوص: النياق الفتية. الركب، الواحد راكب: الظاعنون. الحداء: سوق الإبل والغناء لها. يصف الشاعر حالة الأجواء التي أحاطت برحلته للوصول إلى ممدوحه؛ إنه الجهد العظيم في جوّ، تهبّ فيه رياح هوجاء، والركب يتحرّك ببطء شديد والخوف قد استولى على القلوب، ونزاع بين الشاعر وناقته؛ فهو يُجبرها على السير، والأمر عسير، وأصوات تتصاعد، في ساعة العسرة مستنجدة بربّ السمٰوات والأرض؛ وهذا ما حمل الإبل على المسير، فإذا بنداء الاستغاثة والتسبيح يحلّان محلّ الحِداء.

(٢) جشمت: كلفت مشقة. ثمّة عوائق تحول دون السفر إلى الأمير مساور بن محمد، بعد الشقّة وخطورة الطريق، فضلاً عن نصح من نبّه من مغبّة الأمر، ورغم ذلك ورغبة في المثول بين يدي الأمير فقد تجشم الشاعر المشقة وحمل ناقته على خوض تلك المجازفة.

(٣) وَنَت: ضعفت وفترت همتها. الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يعلن الشاعر عن رغبته الصادقة بالمجيء إلى بلاط الأمير، رغم الإرهاق الشديد الذي حلّ به وبناقته، ولن يثنيه عن ذلك سوى الموت الذي قد يحلّ به وبناقته.

(٤) شام البرق: نظر إليه يتوقّع مطره. الحري: الجدير، المستحقّ. يجود: يمطر. مرته الريح: استمطرته. يعلن الشاعر عن سبب مجيئه إلى بلاط ممدوحه، إنه يأمل منه الجود والنوال، فأفقه يُؤذن بخير يعمّه فيضه، وثمّة فرق بين مطر السماء، فإنه يحجب جمالها، بينما يكشف كرمه عن جمال طبعه وإشراقة نفسه فتبدو سماؤه في أجلى صورها وأجملها.

(٥) المغبوق: الذي يسقي في المساء. المصبوح: الذي يسقي في الصباح. يصف الشاعر =

حَـنِـقٌ عَـلَـى بِـدَرِ الـلُّـجَـيْـنِ وَمَـا أَتَـتْ
بِـإِسَـاءَةٍ وَعَـنِ الـمُـسِـيءِ صَـفُـوحُ (١)
لَـوْ فُـرِّقَ الْـكَـرَمُ الـمُـفَـرِّقُ مَـالَـهُ
فِي النَّاسِ لَمْ يَكُ فِي الزَّمَانِ شَحِيحُ (٢)
أَلْـغَـتْ مَـسَـامِـعُـهُ الـمَـلَامَ وَغَـادَرَتْ
سِـمَـةً عَـلَـى أَنْـفِ الـلِّـئَـامِ تَـلُـوحُ (٣)
هٰـذَا الَّـذِي خَـلَـتِ الْـقُـرُونُ وَذِكْـرُهُ
وَحَـدِيـثُـهُ فِـي كُـتْـبِـهَـا مَـشْـرُوحُ (٤)
أَلْـبَـابُـنَـا بِـجَـمَـالِـهِ مَـبْـهُـورَةٌ
وَسَـحَـابُـنَـا بِـنَـوَالِـهِ مَـفْـضُـوحُ (٥)
يَـغْـشَـى الـطِّـعَـانَ فَـلَا يَـرُدُّ قَـنَـاتَـهُ
مَـكْـسُـورَةً وَمِـنَ الْـكُـمَـاةِ صَـحِـيـحُ (٦)

= ممدوحه، إنه أمل المحتاج ومقصده، ومن حلّ في دياره لن يصيبه ضرر، فهو مسالم، وجوده لا يرتبط بزمان، بل إنه يُنفق ليل نهار، وكرمه يُحيي الصديان ويرويه في كلّ زمان.

(١) البدر، الواحدة بدرة: كيس المال المليء بعشرة آلاف درهم. اللّجين: الفضة. ومن طبع الممدوح أنه غضوب على المال، فهو ينفقه ليتخلّص من غضبه، وهو يمتاز بالحلم، فلا يغضب على المسيء بل إنه يُحسن إليه، لبعد همّته وحِلمه.

(٢) الشحيح: البخيل. وما يدلّ على غناه العظيم، لو أن الممدوح وزّع ماله في الخلق لما بقي بخيل اقتداءً به، ولكانوا كرماء.

(٣) يصف الشاعر ممدوحه بأنه لا يهتم بقول القائلين اللائمين له المحذّرين من إتلافه أمواله وإنفاقها على المادحين، فتلك صفة اللئام من البخلاء الذين أطاعوا للاحين وعملوا بنصحهم.

(٤) خلت القرون: مضت. يُعقّب الشاعر على ذلك أن ذكر الكرماء يُدوّن في الكتب، وللكرم تاريخ طويل مجيد وقد ورد ذكرهم في أسفار الماضين.

(٥) الألباب، الواحد لبّ: العقول والقلوب. النوال: العطاء. لقد افتتن الشاعر وكلّ من كان على شاكلته. سحرته وفتنته أخبار الممدوح في فنون الكرم لديه، وما يدلّ على ذلك أن الشاعر ينعم بفيوض عطائه البادية عليه.

(٦) الكماة، الواحد كمي: الشجاع المدجج بالسلاح. يعرّج الشاعر على شجاعة =

وَعَلَى التُّرَابِ مِنَ الدِّمَاءِ مَجَاسِدٌ
وَعَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْعَجَاجِ مُسُوحُ (١)

يَخْطُو الْقَتِيلَ إِلى الْقَتِيلِ أَمَامَهُ
رَبُّ الْجَوَادِ وَخَلْفَهُ الْمَبْطُوحُ (٢)

فَمَقِيلُ حُبِّ مُحِبِّهِ فَرِحٌ بِهِ
وَمَقِيلُ غَيْظِ عَدُوِّهِ مَقْرُوحُ (٣)

يُخْفِي الْعَدَاوَةَ وَهْيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ
نَظَرُ الْعَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ (٤)

يَا ٱبْنَ الَّذِي مَا ضَمَّ بُرْدٌ كَابْنِهِ
شَرَفاً وَلَا كَالْجَدِّ ضَمَّ ضَرِيحُ (٥)

= ممدوحه بعدما أفاض في الحديث عن كرمه؛ إنه يرمي نفسه بين صفوف المقاتلين وقد جرّد رمحه فلا يرد إلّا بعدما يشرب من دماء الأبطال الذين يحتمون بالدروع التي لم تغنِ عنهم شيئاً أمام بطل همام.

(١) المجاسد: الواحد مجسد، وهو المصبوغ بالزعفران. العجاج: الغبار. المسوح، مسح: ما ينسج من الأردية السوداء. يصف الشاعر أعمال ممدوحه في أثناء المعركة، لقد ترك أرض المعركة وقد تغطّت بالدماء فبدت وكأنها ارتدت رداءً أصفر، فجثث القتلى تبعثرت وغطّت المكان، والغبار تصاعد في جوّ المعركة، فبدت السماء كأنها قد لفّها مسوح أسود.

(٢) يصف الشاعر ممدوحه وقد راح يتفقّد القتلى، إنه يمتطي جواده الذي يتنقّل بين جثث القتلى، وقد تمزّقت أشلاؤها وتبعثرت في كل مكان من ساحة المعركة، وقد تبعثرت بالتراب.

(٣) و (٤) انقسم الناس في الممدوح قسمين: فالمحبّ قد اطمأنّ لسلامته فهو مستريح البال، والعدوّ بات مجروح الفؤاد يملأه غيظ وحنق وغضب وحسد يعمي القلوب والعيون، ورغم ذلك فإنه يتصنّع الودّ وحسن الاستقبال يبديه، ولكن نظره يفضحه، فلا يُحسن الروغان.

(٥) البرد: ضرب من الأثواب. الضريح: القبر. يخاطب الشاعر ممدوحه، فقد ورث الشرف ورفعة الحسب من جَدّه الذي ضمّه قبر، وللوراثة أثر في الأحفاد.

نَفْدِيكَ مِنْ سَيْلٍ إِذَا سُئِلَ النَّدَى
هَوْلٍ إِذَا ٱخْتَلَطَا دَمٌ وَمَسِيحُ(١)

لَوْ كُنْتَ بَحْراً لَمْ يَكُنْ لَكَ سَاحِلٌ
أَوْ كُنْتَ غَيْثاً ضَاقَ عَنْكَ اللُّوحُ(٢)

وَخَشِيتُ مِنْكَ عَلَى الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا
مَا كَانَ أَنْذَرَ قَوْمَ نُوحٍ نُوحُ(٣)

عَجْزٌ بِحُرٍّ فَاقَةٌ وَوَرَاءَهُ
رِزْقُ الْإِلٰهِ وَبَابُكَ الْمَفْتُوحُ(٤)

إِنَّ الْقَرِيضَ شَجٍ بِعِطْفِي عَائِذٌ
مِنْ أَنْ يَكُونَ سَوَاءَكَ الْمَمْدُوحُ(٥)

وَذَكِيُّ رَائِحَةِ الرِّيَاضِ كَلَامُهَا
تَبْغِي الثَّنَاءَ عَلَى الْحَيَا فَتَفُوحُ(٦)

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٣٣. السيل: المطر، كناية عن شدّة هطوله. المسيح: ما يسحّ كالعرق ونحوه. يُبدي الشاعر استعداده للتضحية بنفسه لمن يتمثّل فيه الكرم فيّاضاً بنداه وكثرته، وشجاعته وبطولته عندما تندفق الدماء حرّى من أجساد قتلاه، فيبدو هول أفعاله فيهم على حقيقته.

(٢) و (٣) الغيث: السحاب الممطر. اللوح: الهواء بين السماء والأرض. يصوّر الشاعر عظمة كرم الممدوح، إنه بحر زاخر بغناه وعطائه ولا حدود له لاتساع آفاقه، وهو سحب مترعة بالخير، فإذا بالسماء تضيق به لامتداد مداه، وهذا يثير في الشاعر خوفاً عظيماً لئلّا يعمّ البلاد طوفان كطوفان نوح عليه السلام، وقد أنذر قومه، ولكنهم لم يستمعوا له.

(٤) ينعى الشاعر على من لا يقصد ممدوحه لمساعدته بعجزه وتكاسله، فقد رزق اللّٰه تعالى ممدوحه رزقاً يُوزّعه في خلقه، فهو مُوكلٌ وواسطة بين الرازق والمرزوق.

(٥) القريض: الشعر. شج: حزين. العِطف، بكسر العين: الجانب. عائذ: لاجئ. يخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بأن الشعر يحزن إذا مدح الشاعر غير ممدوحه وأشار به، فإن غيره لا يستحقّ المدح والتنويه بفضائله ومزاياه.

(٦) الحيا: المطر. يذكر الشاعر أن المديح بمثابة روضة تفوح عبقاً وطيباً وقد أحياها =

جُـهْـدُ الـمُـقِـلِّ فَـكَـيْـفَ بِـٱبْـنِ كَـرِيـمَـةٍ
تُـولِـيـهِ خَـيْـراً وَالـلِّـسَـانُ فَـصِـيـحُ (١)

جارية بلا روح

وأديرت فوقفت حذاء أبي الطيب، فقال:

[المنسرح]

جَــارِيَــةٌ مَــا لِــجِـسْــمِـهَــا رُوحُ
بِـالْـقَـلْـبِ مِـنْ حُـبِّـهَـا تَـبَـارِيـحُ (٢)
فِــي كَـفِّـهَـا طَـاقَـةٌ تُـشِـيـرُ بِـهَـا
لِـكُـلِّ طِـيـبٍ مِـنْ طِـيـبِـهَـا رِيـحُ (٣)
سَــأَشْــرَبُ الْـكَـأْسَ عَـنْ إِشَـارَتِـهَـا
وَدَمْـعُ عَـيْـنِـي فِـي الْـخَـدِّ مَـسْـفُـوحُ (٤)

يقاتلني الليل عليك

ثم أراد الانصراف فقال:

[الوافر]

يُـقَـاتِـلُـنِـي عَـلَـيْـكَ الـلَّـيْـلُ جِـدًّا
وَمُـنْـصَـرَفِـي لَـهُ أَمْـضَـى الـسِّـلَاحِ (٥)

= المطر، فكذلك المديح يُعتبر كأنه تذكير بالكريم من كرماء الزمن فتبدو حديقته غنَّاء باستمرار، وتبقى على الزمن فوّاحة عطرة.

(١) المقلّ: من قلت ذات يده. الجهد: القدرة والوسع. يذكر الشاعر أن عبق الروضة جهد نزر، ولكن ثناء الشاعر عظيم لا ينقطع، وذلك في حال انهمرت أعطيات الممدوح عليه فلسان الشاعر فصيح يُجيد المديح وفنونه.

(٢) التباريح، الواحد تبريح: الشدائد. يتغزّل الشاعر بالجارية، إنها آية جمالية، خُلِقت لابتلاء القلوب وتطويعها فتأتمر بأمرها وتوقعها بالشدائد والحسرات، فالكلّ من الرجال يودّ الاحتفاظ بها ويتمنّى رضاها.

(٣) الطاقة: القوة. إنها مصدر طاقة، ومنها يستمدّ كلّ طيب رائحته، فهي نبع طيب لا ينقطع.

(٤) مسفوح: سائل. يُعلن الشاعر أنه طوع لإرادة الجارية، فإذا قدمت إليه كأس خمر، فهو مستعدٌ لشربها، وحينئذٍ سوف تدرّ عيناه دمعاً على خديه لاشمئزازه من الخمرة التي لا يرغب في تعاطيها رغم امتثاله لإرادتها.

(٥) يُعلن الشاعر حبّه للأمير، فهو يرغب بمجالسته ومنادمته، ولكن الليل وتقدمه يحولان بينه وبين الأمير، ولذا فهو أمضى سلاح يُفرّق بينهما.

لِأَنِّـي كُـلَّـمَـا فَـارَقْـتُ طَـرْفِـي
بَـعِـيـدٌ بَـيْـنَ جَـفْـنِـي وَالـصَّـبَـاحِ[١]

سقاني اللّه دم الأعداء

وجَرَى حديث وقعة أبي الساج مع أبي طاهر صاحب الأحساء، فذكر أبو الطيب ما كان فيها من القتل فهال بعض الجلساء ذلك وجزع منه فقال أبو الطيب لأبي محمد بن طغج ارتجالاً:

[الوافر]

أَبَـاعِـثَ كُـلِّ مَـكْـرُمَـةٍ طَـمُـوحِ
وَفَـارِسَ كُـلِّ سَـلْـهَـبَـةٍ سَـبُـوحِ[٢]
وَطَـاعِـنَ كُـلِّ نَـجْـلَاءٍ غَـمُـوسٍ
وَعَـاصِـيَ كُـلِّ عَـذَّالٍ نَـصِـيـحِ[٣]
سَـقَـانِـي الـلَّـهُ قَـبْـلَ الـمَـوْتِ يَـومـاً
دَمَ الأَعْـدَاءِ مِـنْ جَـوْفِ الْـجُـرُوحِ[٤]

---

(١) يُعلّل سرّ أرقه بعد مُفارقته الأمير أن الأرق الناتج عن حبّه للأمير يحول دونه ودون نومه فلا يعرف للنوم طعماً، ولذا فإن الفجر يطول بعده ولا تلوح تباشيره ليسارع إلى قصر الأمير لشدّة تعلّقه بمن يُحبّ.

(٢) الباعث: المحيي. الطموح: الجموح. السلهبة: الفرس الطويلة. يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مصدر الفضائل والكرم العظيم الذي لا يدرك شأوه أحد سواه، وبأنه فارس لا يُشاق غباره، فهو يعتلي متن فرس سلهب يقاتل عليه أعداءه وينتصر عليهم لشجاعته وقوّته.

(٣) النجلاء: الواسعة. الغموس: التي تجعل المطعون مبللاً دماً. العذّال: اللائمين. ومن صفات الممدوح أنه يحمل رمحاً يخترق الأجساد وينغمس في الأكباد، فيخرج وهو يقطر دماً من دماء الأعداء، ومن صفاته أيضاً أنه لا يهتم للوم اللائمين الذين يعملون على ثنيه عن التفضّل بالمكارم، فهو كريم ينفق أمواله في سبيل عزّته ورفعة شأنه وبُعد صيته بين الورى.

(٤) يدعو الشاعر اللّه تعالى أن يُعينه على الفتك بأعدائه قبل موته لكي يقضي أربه منهم ويفنيهم على يديه.

لكل حي يوم سوء

وأرسل أبو العشائر بازياً عَلَى حَجَلة فأخذها فقال أبو الطيب:

[الوافر]

وَطَـائِـرَةٍ تَـتَـبَّـعُـهَـا الـمَـنَـايَـا
عَـلَـى آثَـارِهَـا زَجِـلُ الْـجَـنَـاحِ[١]

كَـأَنَّ الـرِّيـشَ مِـنْـهُ فِـي سِـهَـام
عَـلَـى جَـسَـدٍ تَـجَـسَّـمَ مِـنْ رِيَـاحِ[٢]

كَـأَنَّ رُؤُوسَ أَقْـلَامٍ غِـلَاظٍ
مُـسِـحْـنَ بِـرِيشِ جُـؤْجُـؤَةِ الـصِّـحَـاحِ[٣]

فَـأَقْـعَـصَـهَـا بِـحُـجْـنٍ تَـحْـتَ صُـفْـرٍ
لَـهَـا فِـعْـلُ الأَسِـنَّـةِ وَالـصِّـفَـاحِ[٤]

فَـقُـلْـتُ لِـكُـلِّ حَـيٍّ يَـوْمُ سُـوءٍ
وَإِنْ حَـرَصَ الـنُّـفُـوسُ عَـلَـى الْـفَـلَاحِ[٥]

---

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. يقصد الشاعر بالطائرة: الحجلة: ضرب من الطير يُصاد للحمه الطيب. المنايا، الواحدة منية: الموت. الزجل: الصوت. يذكر الشاعر أن حجلة يُطاردها نسر يبغي افتراسها، وهو يُسرع في طيرانه خلفها وخفق جناحيه يصدر صوتاً يؤذن بموت سريع لطير يرمز إلى الوداعة فتبدو ريش جناحيه سهاماً قاتلة لسرعة حركته وانقضاضه، وتلك حال الكون، فالقوّة تتحكم بمصائر الضعفاء.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة الباقية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٨. الجؤجؤ: الصدر. يشبّه الشاعر سواد صدر النسر برؤوس أقلام سوداء تركت أثرها على ثوب أبيض.

(٤) أقعصها: قتلها بسرعة. الحُجن: الواحد أحجن: المعقوف، والمقصود بذلك المخلب. الأسنة: الرماح. يصف الشاعر سرعة انقضاض النسر على طريدته، فقد أعمل فيها مخالبه وكأنها رماح وسيوف مزّقت الحجلة المسكينة فوقعت لا حِراك لها، ذلك هو أسرع موت.

(٥) لقد استخلص الشاعر درساً ممّا حدث أمامه أن الموت آتٍ لا محالة عندما يحين، فلا مفرّ منه، وإن اجتهد الإنسان في الهرب من مقدوره فلا مناص من ذلك.

تقصر عن وصف الأمير المدائح

وقال يعتذر إليه وقد تأخر مدحه عنه فظن أنه عاتب عليه :

[الطويل]

بِـأَدْنَـى ٱبْـتِـسَـامٍ مِـنْـكَ تَـحْـيَـا الْـقَـرَائِـحُ
وَتَقْوَى مِنَ الْجِسْمِ الضَّعِيفِ الْجَوَارِحُ (١)

وَمَـنْ ذَا الَّـذِي يَـقْـضِـي حُـقُـوقَـكَ كُـلَّـهَـا
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُرْضِي سِوَى مَنْ تُسَامِحُ (٢)

وَقَـدْ تَـقْـبَـلُ الْـعُـذْرَ الْـخَـفِـيَّ تَـكَـرُّمـاً
فَـمَـا بَـالُ عُـذْرِي وَاقِـفـاً وَهْـوَ وَاضِـحُ (٣)

وَإِنَّ مُـحَـالاً ـ إِذْ بِـكَ الْـعَـيْـشُ ـ أَنْ أَرَى
وَجِـسْـمُـكَ مُـعْـتَـلٌّ وَجِـسْـمِـيَ صَـالِـحُ (٤)

وَمَـا كَـانَ تَـرْكِـي الـشِّـعْـرَ إِلَّا لِأَنَّـهُ
تُـقَـصِّـرُ عَـنْ وَصْـفِ الأَمِـيـرِ الـمَـدَائِـحُ (٥)

---

(١) القرائح : المواهب. الجوارح : الأعضاء. يخاطب الشاعر ممدوحه : إنه مصدر الإلهام، فمواهبه الشعرية يكفي لتنبيهها ابتسامة الممدوح، مهما يفرحه فتهبّ فيه قوّة الحياة ويعود إليه نشاطه، وإلى قلبه حرارة الحبّ، فينطلق لسانه بجيّد الكلام، وبذلك يكون عذره لتوقّف قريحته عن الشعر.

(٢) يسأل الشاعر ممدوحه منوّهاً بما عليه من تقديم حقوق وجبت عليه لممدوحه لتعدّد فضائله التي لا تُحصى، ومن البديهي أن غفران الأخطاء والذنوب من قبل الأمير ترضي الخاطئين بحقه.

(٣) ومن طبع الأمير الحِلم وسمو الأخلاق، إنه يقبل العذر تكرّماً منه، وهو يسأله عن سرّ عدم قبول عذره رغم بساطة الأمر ووضوحه.

(٤) وليعبر الشاعر عن شدّة ارتباطه وحبّه لممدوحه، فإنه يرى أنه من رابع المستحيلات أن يرى ممدوحه مريضاً وهو ينعم بصحّة جيدة، لذا فمن الطبيعي أن يمرض لمرض ممدوحه، ممَّا يدلّ على مشاركته الوجدانية لممدوحه.

(٥) يعتذر الشاعر أن قريحته ضعُفت لأن صفات الممدوح قد أربت على المعهود في شعر التكسب من صفات ومزايا، فبالتالي توقّف عن إنشاد مدائحه.

رويّ الدال

قفا قليلاً بها عليّ!

قال أيضاً في صباه يمدح محمد بن عبيد الله العلوي المشطب:

[المنسرح]

أَهْـــلاً بِـــدَارٍ سَـــبَـــاكَ أَغْـــيَـــدُهَـــا
أَبْـــعَـــدُ مَـــا بَـــانَ عَـــنْـــكَ خُـــرَّدُهَـــا(١)

ظِـــلْـــتَ بِـــهَـــا تَـــنْـــطَـــوِي عَـــلَـــى كَـــبِـــدٍ
نَـــضِـــيـــجَـــةٍ فَـــوْقَ خِـــلْـــبِـــهَـــا يَـــدُهَـــا(٢)

يَـــا حَـــادِيَـــيْ عِـــيـــسِـــهَـــا وَأَحْـــسَـــبُـــنِـــي
أُوجَـــدُ مَـــيْـــتـــاً قُـــبَـــيْـــلَ أَفْـــقِـــدُهَـــا(٣)

قِـــفَـــا قَـــلِـــيـــلاً بِـــهَـــا عَـــلَـــيَّ فَـــلَا
أَقَـــلَّ مِـــنْ نَـــظْـــرَةٍ أُزَوَّدُهَـــا(٤)

---

(١) أهلاً: منصوب بمضمر، مفاده «جعل اللّه تعالى الدار آهلة بساكنيها». سباه: أسره بحبه. الخرَّد، الواحدة خريدة: البكر والحييّة من النساء.

(٢) ورد البيت في: مغني اللبيب، لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٤٤٤، ظلت: لغة في ظللت، خلبها: غشاء الكبد.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٨٣، مغني اللبيب، لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٣٩٨. ويروى «عيرها» بدلاً من «عيسها» العير: الإبل التي تحمل الميرة عليها. العيس: كرام الإبل. قُبيل أفقدُها حذف أن المصدرية فرفع الفعل.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٢٣٣، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٣٨، ٣٩٨. يخاطب الشاعر الحاديين اللذين يحدوان بها عيرها: أبقياها عليّ قليلاً لأراها وأتزوّد منها بنظرة أخيرة، فلا شيء أقلّ من ذلك.

فَـفِـي فُـؤَادِ الـمُـحِـبِّ نَـارُ جَـوًى
أَحَـرُّ نَـارِ الْـجَـحِـيـمِ أَبْـرَدُهَـا[١]
شَـابَ مِـنَ الْـهَـجْـرِ فَـرْقُ لِـمَّـتِـهِ
فَـصَـارَ مِـثْـلَ الـدِّمَـقْـسِ أَسْـوَدُهَـا[٢]
بَـانُـوا بِـخُـرْعُـوبَـةٍ لَـهَـا كَـفَـلٌ
يَـكَـادُ عِـنْـدَ الْـقِـيَـامِ يُـقْـعِـدُهَـا[٣]
رِبَـحْـلَـةٍ أَسْـمَـرٍ مُـقَـبَّـلُـهَـا
سِـبَـحْـلَـةٍ أَبْـيَـضٍ مُـجَـرَّدُهَـا[٤]
يَـا عَـاذِلَ الْـعَـاشِـقِـيـنَ دَعْ فِـئَـةً
أَضَـلَّـهَـا ٱلـلَّـهُ كَـيْـفَ تُـرْشِـدُهَـا[٥]
لَـيْـسَ يُـحِـيـكُ الـمَـلَامُ فِـي هِـمَـمٍ
أَقْـرَبُـهَـا مِـنْـكَ عَـنْـكَ أَبْـعَـدُهَـا[٦]

---

(١) يقصد الشاعر بالمحبّ نفسه. الجوى: شدّة الشوق من عشق أو حزن. الجحيم: النار الشديدة الاشتعال واللهب.

(٢) اللمَّة: ما اجتمع من شعر في المنكب وجاوز شحمة الأذن. الدمقس: الحرير الدمشقي الأبيض. يقصد الشاعر من البيت أن هجر الحبيبة جعل لمّته السوداء بيضاء لشدّة حزنه وشعوره بالهجر والحرمان.

(٣) الخُرعوبة: الشابَّة اللينة الطرية. يقصد الشاعر أنهم رحلوا ومعهم امرأة ناعمة، وإذا نهضت منتصبة يكاد ردفها يقعدها لكثرة اكتنازه لحماً.

(٤) الربحلة والسبحلة: ما يُستحبّ في النساء من الجسامة وعظم الطول. المقبل: موضع القُبل، وهو الشفة، وتحبّ فيها السمرة. المجرّد: ما كشف عليه الثوب من الأطراف، وضعها بسمرة الشفة وبياض سائر البدن الذي لا تصل إليه الشمس والريح، فهو بالأحرى أشدّ بياضاً.

(٥) الفئة: الجماعة من الناس. وهو يقصد العشاق بذلك. العاذل: اللائم. يخاطب الشاعر اللائم بقوله لا تلم من أضلّه اللّه تعالى فعشقوا وهاموا وقد استحوذ الحبّ على قلوبهم حتى تملّكهم، فكيف تُرشدهم بعد ذلك؟

(٦) يحيك: يُؤثر. يوجّه الشاعر كلامه للائم بأن لومه لن يردّ الملوم ويردعه ويفتّ من عزمه، لذا فلن ينجح في محاولته، ولومه سيذهب أدراج الرياح.

بِـئْـسَ الـلَّـيَـالِـي سَـهِـدْتُ مِـنْ طَـرَبٍ
شَـوْقـاً إِلَـى مَـنْ يَـبِـيـتُ يَـرْقُـدُهَـا(١)

أَحْـيَـيْـتُـهَـا وَالـدُّمُـوعُ تُـنْـجِـدُنِـي
شُـؤُونُـهَـا وَالـظَّـلَامُ يُـنْـجِـدُهَـا(٢)

لا نَـاقَـتِـي تَـقْـبَـلُ الـرَّدِيـفَ وَلَا
بِـالـسَّـوْطِ يَـوْمَ الـرِّهَـانِ أُجْـهِـدُهَـا(٣)

شِـرَاكُـهَـا كُـورُهَـا وَمِـشْـفَـرُهَـا
زِمَـامُـهَـا وَالـشُّـسُـوعُ مِـقْـوَدُهَـا(٤)

أَشَـدُّ عَـصْـفِ الـرِّيَـاحِ يَـسْـبِـقُـهُ
تَـحْـتِـيَ مِـنْ خَـطْـوِهَـا تَـأَوُّدُهَـا(٥)

فِـي مِـثْـلِ ظَـهْـرِ الْـمِـجَـنِّ مُـتَّـصِـلٍ
بِـمِـثْـلِ بَـطْـنِ الـمِـجَـنِّ قَـرْدَدُهَـا(٦)

---

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز للجرجاني: ٣٠٤، خزانة الأدب، للبغدادي ٢: ٦٢٥. سهدت: سهرت، يذمّ الشاعر تلك الليالي التي بات فيها مؤرّقاً ولم يعرف طعم النوم، والحبّ شغل كيانه ووجدانه، بينما من شغلت فكره تنام ملء جفونها ولا تجد ما يجده من ألم الهجر والحرمان.

(٢) أحييتها: سهرتها. تُنجدني: تُعينني. الشؤون: مجاري الدموع من الرأس إلى العينين. يقصد الشاعر أن الدموع تمدّها الشؤون والليالي المظلمة تساعدها على البكاء أيضاً.

(٣) الرهان: السباق، الرديف: الراكب خلف الراكب. أجهد الناقة: حملها وأجبرها على السير فوق طاقتها. يقصد الشاعر أن نعله لا يسعه به الإسراع، وهو يعني به الناقة.

(٤) الشراك: سير النعل. الكور: رحل الناقة. المشفر من الناقة: بمثابة الشفة للإنسان. زمام النعل: ما تُشدّ إليها شسُوعها، وهي السيور التي تكون بين خلال الأصابع. المقود: الزمام الذي تقاد به الدابة. جعل الشاعر شراك نعله بمثابة الرجل للناقة، وزمامها بمثابة المشفر لها، والشسُوع بمثابة المقود.

(٥) تأوّدها: تمايلها. عصف الرياح: شدّة هبوبها. يمدح الشاعر نفسه بالقوّة وشدّة الاحتمال والسرعة في نفس الوقت: فهو يسبق الرياح الشديدة بسيره وعدوه منتعلاً.

(٦) المجنّ: الترس. القردد: الأرض المرتفعة الغليظة أو أرض فيها نجاد ووهاد. قال =

مُـرْتَـمِـيَـاتٌ بِـنَـا إلـى ٱبْـنِ عُـبَـيْـ
ـدِ ٱللَّـهِ غِـيـطَـانُـهَـا وَفَـدْفَـدُهَـا [(١)]

إلَـى فَـتًـى يُـصْـدِرُ الـرِّمَـاحَ وَقَـدْ
أنْـهَـلَـهَـا فـي الْـقُـلُـوبِ مُـورِدُهَـا [(٢)]

لَـهُ أيَـادٍ إلَـيَّ سَـابِـقَـةٌ
أُعَـدُّ مِـنْـهَـا وَلا أُعَـدِّدُهَـا [(٣)]

يُـعْـطِـي فَـلاَ مَـطْـلَـةٌ يُـكَـدِّرُهَـا
بِـهَـا وَلَا مَـنَّـةٌ يُـنَـكِّـدُهَـا [(٤)]

خَـيْـرُ قُـرَيْـشٍ أبـاً وَأمْـجَـدُهَـا
أكْـثَـرُهَـا نَـائِـلاً وَأجْـوَدُهَـا [(٥)]

أطْـعَـنُـهَـا بـالْـقَـنَـاةِ أضْـرَبُـهَـا
بـالـسَّـيْـفِ جَـحْـجَـاحُـهَـا مُـسَـوَّدُهَـا [(٦)]

= ابن جني: شبّه الشاعر الأرض بظهر المجنّ لما كانت خالية من النبات، وظهر المجنّ ناتئ، وبطنه لاطئ فهو كالصعود والحدور، أي أن هذه المفاوز محدَبّة مثل ظهر المجنّ يتّصل ما ارتفع منها بأماكن منخفضة مثل بطن المجن يعني أنها ذات جبال ووهاد.

(١) مرتميات: موصولات. الغيطان، مفردها غائط: المطمئنّ من الأرض. الفدفد: الأرض الغليظة المرتفعة. يصف الشاعر الطريق الموصلة إلى ممدوحه، فهي مفاوز، غيطانها وفدفدها مؤدّية إلى الممدوح سيراً، فكأنها تُوصله إليه.

(٢) يصدر الرماح: ينزعها من المطعون. أنهلها: رواها. يقصد الشاعر أن ممدوحه شجاع ينزع بقوّة الرمح من عدوّه وقد رواه من قلب عدوّه.

(٣) الأيادي: كناية عن الفضائل والكرم. يقصد الشاعر أن ممدوحه له يد الخير، وهو صنيعه بكلّ ما يقدّمه له من أعطيات.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ١٩٢. المماطلة: التسويف. يُنكّدها: يُنغّصها. يقصد الشاعر أن ممدوحه سريع الاستجابة للكرم؛ فإذا وعد لم يُخلف وعده بالمماطلة، وهو لا يُمنّن في حال العطاء.

(٥) النائل: العطاء، يمدح الشاعر ممدوحه بانتسابه إلى خير قريش، فأبوه في مرتبة عليا في السؤدد والشرف، وهو ماجد شريف كريم.

(٦) الجحجاح: السيد الشريف. المسوّد: الذي جعله قومه سيّدهم. يصف الشاعر =

أفْـــرَسُـــهَـــا فَـــارِســـاً وَأطْـــوَلُـــهَـــا
بَـــاعـــاً وَمِـــغْـــوَارُهَـــا وَسَـــيِّـــدُهَـــا[١]
تَـــاجُ لُـــؤَيِّ بْـــنِ غَـــالِـــبٍ وَبِـــهِ
سَـمَـا لَـهَـا فَـرْعُـهَـا وَمَـحْـتِـدُهَـا[٢]
شَـمْـسُ ضُـحَـاهَـا هِـلَالُ لَـيْـلَـتِـهَـا
دُرُّ تَـقَـاصِـيـرِهَـا زَبَـرْجَـدُهَـا[٣]
يَـا لَـيْـتَ بِـي ضَـرْبَـةً أُتِـيـحَ لَـهَـا
كَـمَـا أُتِـيـحَـتْ لَـهُ مُـحَـمَّـدُهَـا[٤]
أثَّـرَ فِـيـهَـا وَفِـي الْـحَـدِيـدِ وَمَـا
أثَّـرَ فِـي وَجْـهِـهِ مُـهَـنَّـدُهَـا[٥]
فَـاغْـتَـبَـطَـتْ إذْ رَأتْ تَـزَيُّـنَـهَـا
بِـمِـثْـلِـهِ وَالْـجِـرَاحُ تَـحْـسُـدُهَـا[٦]

= ممدوحه بالقوّة، فهو يطعن عدوّه برمحه ويضربه بسيفه، لذا انتخبه قومه سيداً عليهم.

(١) أطولها باعاً: كناية عن كرمه، يصف الشاعر ممدوحه بالفروسية الحقّة حالما يركب فرسه للحرب، إنه شديد الغارة يعود غانماً ظافراً، هو سيد الميدان بلا منازع.

(٢) لؤي: أبو قريش. المحتد: الأصل. يمدح الشاعر ممدوحه؛ فهو خير قريش منزلة في زمانه، وهم يتشرّفون به ويفتخرون بإنجازاته، فيه سما فرعهم الأثيل حتى وصل لؤي بن غالب.

(٣) التقاصير، واحدها تقصار وتقصارة: أصل العنق: القلائد التي تُعلّق على القصرة. يصف الشاعر ممدوحه، فهو بمثابة الشمس في ضحاها لحسن نورها في الضحى والهلال في الليل، والدرّ والزبرجد في القِلادة، لأهميّته عند قومه.

(٤) أتيح: أتته الفرصة. تمنّى الشاعر لو أنه يُصاب بمثل تلك الضربة، إنها وسام شجاعة وعلو منزلة كما كست ممدوحه فزادته جمالاً في وجهه.

(٥) المهنّد: السيف المطبوع من حديد الهند. كان القصد من تلك الضربة إهلاك الممدوح، فاستطاع ردّها خائبة عن هدفها، فإذا بتلك الضربة تبدو شعار شجاعة ووسام فخر لديه.

(٦) اغتبطت: سرّت. إن تلك الضربة تسرّ وتفتخر بأنها زيّنت ذلك الوجه حتى حسدتها =

وَأيْـــقَـــنَ الـــنَّـــاسُ أنَّ زَارِعَـــهَـــا
بِـالـمَـكْـرِ فِـي قَـلْـبِـهِ سَـيَـحْـصِـدُهَـا(١)
أصْـــبَـــحَ حُـــسَّـــادُهُ وَأنْـــفُـــسُـــهُـــمْ
يُـــحْـــدِرُهَـــا خَـــوْفُـــهُ وَيُـــصْـــعِـــدُهَـــا(٢)
تَـبْـكِـي عَـلَـى الأنْـصُـلِ الْـغُـمُـودُ إذَا
أنْـــذَرَهَـــا أنَّـــهُ يُـــجَـــرِّدُهَـــا(٣)
لِـعِـلْـمِـهَـا أنَّـهَـا تَـصِـيـرُ دَمـاً
وَأنَّـــهُ فِـــي الـــرِّقَـــابِ يُـــغْـــمِـــدُهَـــا(٤)
أَطْـــلَـــقَـــهَـــا فَـــالْـــعَـــدُوُّ مِـــنْ جَـــزَع
يَـــذُمُّـــهَـــا وَالـــصَّـــدِيـــقُ يَـــحْـــمَـــدُهَـــا(٥)
تَـــنْـــقَـــدِحُ الـــنَّـــارُ مِـــنْ مَـــضَـــارِبِـــهَـــا
وَصَـــبُّ مَـــاءِ الـــرِّقَـــابِ يُـــخْـــمِـــدُهَـــا(٦)

= سائر الجرحات لكلّ البشر لما زادت ممدوحه جمالاً على جماله.

(١) الناس على يقين أن سبب هذه الضربة المكر الممزوج بالجبن سيلاقي جزاء فعلته في الممدوح.

(٢) إنّ حسّاد الممدوح في خوف دائم لا يقرّ لهم قرار ولا يعرفون للطمأنينة سبيلاً لذعرهم وخوفهم منه.

(٣) و (٤) الأنصل، مفردها نصل: حدّ السيف وشفرته. الغمود، مفردها غمد: بيت السيف. أنذرها: نبّهها. يُجرّدها: يُخرجها من أغمادها. بدافع الغيرة تبكي الأغماد في حال تجريدها من نصالها لعلمها أن تلك النصال ستغمد في صدور الأعداء ورقابهم وتغطيها دماؤها الحمراء، فتبدو كأنها أغماد جديدة لها.

(٥) الجزع: الخوف. يذمّها: يقدح فيها. لتلك الأنصال صدًى في النفوس، فالأصدقاء يفرحون إذا أطلق الممدوح لها حرّية الحركة، والأعداء يذمّونها لأنها نذير شؤم ينذرهم بموت مؤكّد.

(٦) المضارب، مفردها مضرَب: حدّ السيف. لشدّة فتك الممدوح في أعدائه إذا بضرباته تنزل بعنف على رقابهم بحيث تقدح شرراً كأنها حوت على صخر، ولكن سرعان ما يختفي الشرر وتبرد نارها؛ فقد ارتوت بدمائهم.

إذَا أَضَلَّ الْهُمَامُ مُهْجَتَهُ
يَوْماً فَأَطْرَافُهُنَّ تَنْشُدُهَا[١]
قَدْ أَجْمَعَتْ هٰذِهِ الْخَلِيقَةُ لِي
أَنَّكَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدُهَا[٢]
وَأَنَّكَ بِالأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِماً
شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرَدُهَا[٣]
فَكَمْ وَكَمْ نِعْمَةٍ مُجَلِّلَةٍ
رَبَّيْتَهَا كَانَ مِنْكَ مَوْلِدُهَا[٤]
وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٍ سَمَحْتَ بِهَا
أَقْرَبُ مِنِّي إلَيَّ مَوْعِدُهَا[٥]
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْبِـ
ـرِّ إلَى مَنْزِلِي تُرَدِّدُهَا[٦]
أَقَرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَيَّ فَلَا
أَقْدِرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجْحَدُهَا[٧]

---

(١) أضلّ: أضاع. الهمام: السيد الشجاع والبطل، ويقصد بذلك الملك، نشد الضالّة: طلبها وبحث عنها. لو أن ملكاً قُتِل وأضاع مهجته، بلا أدنى ريب، فطالب ذلك الملك سيوف ممدوحه أودت به إلى التهلكة.

(٢) الخليقة: البشر، الخلائق. أقرّت البشرية جمعاء أن ممدوحه أفضل الخلق طرًّا، وقد اجتمعت لديه فضائل النسب والشجاعة والكرم، يكفي أن يكون ابن النبي ﷺ.

(٣) وأنك: مخفّفة من أنّك للضرورة الشعرية. المحتلم: الغلام وقد بلغ مبلغ الرجال. يمدح الشاعر خممدوحه بوفرة العقل ورجاحته. فقد كان بالأمس مرجع القوم وقد بلغ الحلم، وها هو ذا قد نضج وقد اكتملت لديه عناصر الكمال من رجولة ونسب ورجاحة عقل وتجربة في الحياة.

(٤) مجلّلة: شاملة. ولطالما توالت النعم منك فشملتني بإحسانك المتجدّد الذي لا يُنسى أبد الدهر.

(٥) سمحت: تكرّمت وقضيتها. يقصد أن ممدوحه يُبادر بإنجاز وعده حالما يعد.

(٦) و (٧) المكرمة: العطاء. من عطايا الممدوح للشاعر أنه أرسل إليه ثياباً لبسها مفتخراً =

فَـعُـدْ بِـهَـا لَا عَـدِمْـتُـهَـا أَبَـداً
خَـيْـرُ صِـلَاتِ الْـكَـرِيـمِ أَعْـوَدُهَـا[١]

نهى كهل في سن أمرد

قال في صباه:

[البسيط]

وَشَـادِنٍ رُوحُ مَـنْ يَـهْـوَاهُ فِـي يَـدِهِ
سَـيْـفُ الـصُّـدُودِ عَـلَـى أعـلـى مُـقَـلَّـدِهِ[٢]

مَـا ٱهْـتَـزَّ مِـنْـهُ عَـلَـى عُـضْـوٍ لِـيَـبْـتُـرَهُ
إِلَّا ٱتَّـقَـاهُ بِـتُـرْسٍ مِـنْ تَـجَـلُّـدِهِ[٣]

ذَمَّ الـزَّمَـانُ إِلَـيْـهِ مِـنْ أَحِـبَّـتِـهِ
مَـا ذَمَّ مِـنْ بَـدْرِهِ فِـي حَـمْـدِ أَحْـمَـدِهِ[٤]

شَـمْـسٌ إِذَا الـشَّـمْـسُ لاقَـتْـهُ عَـلَـى فَـرَسٍ
تَـرَدَّدَ الـنُّـورُ فِـيـهَـا مِـنْ تَـرَدُّدِهِ[٥]

= بها، مزهوًّا بما ترمز به من تكريم، مقرًّا بفضله العميم.

(١) يطلب الشاعر من ممدوحه أن يُعيد المكرمة ويُرسل إليه عطايا أمثال ما تكرّم به عليه.

(٢) الشادن: الظبي إذا كبر واستغنى عن أمه، وبرز قرناه. المقلّد، في الأصل موضع القلادة، يقصد بذلك موضع نجاد السيف من المنكبين. يتغزل الشاعر بفتاة كأنها ظبي اكتمل نموّه، لذا تمكّنت من عاشقيها تقتلهم بعينين ملؤهما صدود كسيف لا يرحم.

(٣) يبتره: يقطعه. اتّقاه: احتمى منه. تجلّده: تصبّره. نظرات تلك الغانية فتّاكة قاتلة، ومن قصدته بنظراتها كان عليه أن يحتمي ويلوذ بالصبر. وإلّا فلا بدّ من وقوعه في شباكها.

(٤) الذمّ: ذكر النقائص لدى المرء. يقصد الشاعر أن ممدوحه. فضح الزمان من ظنّ الشاعر أن لديه حبًّا نحوه، فإذا به يكشف عُواره وخداعه، إنها حقيقة إذا مدح من اسمه أحمد، فإذا بأخلاقه تكشف سوء طبعه.

(٥) يصف الشاعر ممدوحه بأنه شمس ذات إشعاع في حال ركوبه فرسه فإذا ما انعكس ضوؤه على الشمس تولّدت الأضواء والإشعاعات ولهذا استفادت الشمس من نور طلعته.

إنْ يَـقْـبُـحُ الْـحُـسْـنُ إلّا عِـنْـدَ طَـلْـعَـتِـهِ
فَـالْـعَـبْـدُ يَـقْـبُـحُ إلّا عِـنْـدَ سَـيِّـدِهِ (١)

قَـالَـتْ عَـنِ الـرِّفْـدِ طِـبْ نَـفْـساً فَـقُـلْـتُ لَـهَـا
لا يَـصْـدُرُ ٱلْـحُـرُّ إلّا بَـعْـدَ مَـوْرِدِهِ (٢)

لَـمْ أَعْـرِفِ الْـخَـيْـرَ إلّا مُـذْ عَـرَفْـتُ فَـتًـى
لَـمْ يُـولَـدِ الْـجُـودُ إلّا عِـنْـدَ مَـوْلِـدِهِ

نَـفْـسٌ تُـصَـغِّـرُ نَـفْـسَ الـدَّهْـرِ مِـنْ كِـبَـرٍ
لَـهَـا نُـهَـى كَـهْـلِـهِ فِـي سِـنِّ أَمْـرَدِهِ (٣)

غريب كصالح في ثمود

وقال أيضاً في صباه:

[الخفيف]

كَـمْ قَـتِـيـلٍ كَـمَـا قُـتِـلْـتُ شَـهِـيـدِ
لِـبَـيَـاضِ الـطُّـلَـى وَوَرْدِ الْـخُـدُودِ (٤)

وَعُـيُـونِ الْـمَـهَـا وَلَا كَـعُـيُـونٍ
فَـتَـكَـتْ بِـالْـمُـتَـيَّـمِ الْـمَـعْـمُـودِ (٥)

---

(١) إن: نافية، وعليه فالمعنى أن طلعته جميلة، فإذا ما بدا الجمال في غيره سرعان ما يبدو قبيحاً حالما يُطلّ ببهاء وجهه، فيبدو غيره دونه جمالاً. والعبد نظرة الآخرين له يملؤها الازدراء، ولكن نظرة سيّده إليه جميلة لاستفادته منه.

(٢) الرفد: العطاء والإنعام. يصدر: يعود. طِبْ نفساً: دعه وشأنه ولا تسع في الحصول عليه. حوار بين الشاعر والعاذلة؛ فهي تحاول ردعه لكي لا يطلب الهبة؛ فإنه ميئوس منه غير مبذولة، فيردّ عليها لا بدّ من المحاولة، ولن يرجع إلّا بعد بلوغه حاجته والحصول على مطلبه.

(٣) النهى، واحدتها نُهية: العقول. يمدح الشاعر ممدوحه؛ فنفسه كبيرة تتضاءل أمامها نفس الدهر الذي يأتي بالخير والشرّ للبشر، بينما ممدوحه لا يأتي إلّا بالخير.

(٤) الطُّلى: الأعناق، يبدأ الشاعر مطلع قصيدته بالغزل؛ فكثيرون ماتوا عشقاً، لذا فهم شهداء لحبهم لذوات الأعناق البيضاء، والخدود الحمراء.

(٥) المها، واحدتها مهاة: البقرة الوحشية. فتكت: قتلت على حين غرّة. المتيّم: =

دَرَّ دَرُّ الصِّبَا أَأَيَّامَ تَجْرِيـ
ـرِ ذُيُولِي بِدَارِ أَثْلَةَ عُودِي[١]

عَمْرَكَ ٱللَّهُ هَلْ رَأَيْتَ بُدُوراً
طَلَعَتْ فِي بَرَاقِعٍ وَعُقُودِ[٢]

رَامِيَاتٍ بِأَسْهُمٍ رِيشُهَا الْهُدْ
بُ تَشُقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ[٣]

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ
هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ[٤]

كُلُّ خُمْصَانَةٍ أَرَقُّ مِنَ الْخَمْرِ
بِقَلْبٍ أَقْسَى مِنَ الْجُلْمُودِ[٥]

= العاشق الولهان. المعمود: من أتعبه الحبّ وآلمه. يصف الشاعر عيني من أحبّ فقتلته، إنها تفوق جمالاً عيني المهاة بسعتها وجمالها وبشدّة صفاء بياضها وسوادها.

(١) الدرّ: اللبن، ويتمثّل الخير بكثرة اللبن. تجرير الذيول: كناية عن المرح والفخر. دار أثلة: موضع بظهر الكوفة. يدعو الشاعر متمنّياً عودة أيام اللهو والمرح يوم كان في مطلع شبابه في دار أثلة؛ تلك هي أيام خير.

(٢) و (٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٣٥٢. يدعو الشاعر لصاحبه متمنّياً له الخير، سائلاً إياه هل رأى حسناوات يحتجبْن بالبراقع ويتحلّيْن بالعقود، وقد تسلّحْن بعيون ترمي سهاماً قاتلة تخترق قلوب من يقع أسير حبّهن قبل جلودهم.

(٤) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٦٩. يروى «حلاوة التوحيد» بدلاً من «أحلى من التوحيد». يلذّ لتلك الحسناوات ارتشاف رحيق فم الشاعر لشِدّة حبّهن له، فإذا بطعم ذلك يبدو ألذّ من كلمة التوحيد، وهي لا إله إلّا اللّه. وفي ذلك مغالاة وخروج عن روح الإسلام.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣١٣. الخمصانة: الضامرة البطن. الجلمود: الصخر. يصف الشاعر هؤلاء الحسناوات بجمال أجسادهن ورقّتها؛ فهن ضامرات البطون، رقيقات الجلود أرقّ من الخمر، ولكنهن ذوات قلوب أقسى من الصوان.

ذَاتِ فَـرْعٍ كَـأَنَّـمَـا ضُـرِبَ الْـعَـنْـبَـرُ
فِـيـهِ بِـمَـاءِ وَرْدٍ وَعُـودِ[(١)]

حَـالِـكٍ كَـالْـغُـدَافِ جَـثْـلٍ دَجُـو
جِـيٍّ أثـيـثٍ جَـعْـدٍ بِـلَا تَـجْـعِـيـدِ[(٢)]

تَـحْـمِـلُ الـمِـسْـكَ عَـنْ غَـدَائِـرِهَـا الـرِّيـ
ـحُ وَتَـفْـتَـرُّ عَـنْ شَـنِـيـبٍ بَـرُودِ[(٣)]

جَـمَـعَـتْ بَـيْـنَ جِـسْـمِ أحْـمَـدَ وَالـسُّـقْـ
ـمِ وَبَـيْـنَ الْـجُـفُـونِ وَالـتَّـسْـهِـيـدِ[(٤)]

هٰـذِهِ مُـهْـجَـتِـي لَـدَيْـكِ لِـحَـيْـنِـي
فَـانْـقُـصِـي مِـنْ عَـذَابِـهَـا أَوْ فَـزِيـدِي[(٥)]

أَهْـلُ مَـا بِـي مِـنَ الـضَّـنَـى بَـطَـلٌ صِـيـ
ـدَ بِـتَـصْـفِـيـفِ طُـرَّةٍ وَبِـجِـيـدِ[(٦)]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢ : ٣٢٢. الفرع: شعر الرأس. ضُرب: مُزج. وما يدلّ على غنى ورفاهية تلك الحسناء أنها ذات شعر أسود فاحم، طيبه مزيج من العنبر وماء الورد وعبق العود.

(٢) إنه شعر حالك السواد كلون الغراب الأسود، جثل: كثير ملتفّ، دجوجي: شديد الظلمة، أثيث: كثيف لم تمسّه يد التصنيع، فتجعيده هبة إلهية.

(٣) يروى «عن شتيت» بدلاً من «عن شنيب». غدائرها: ذوائبها. تفترّ: تبتسم. شنيب: عذب أبيض محزّز أطراف الأسنان. برود: بارد. تدغدغ الريح ذوائبها فتطير بها ويعبق الجوّ بريح يجعل المرء في حلم، وتبتسم بلطف فتبدي أسناناً لؤلئية ناصعة البياض، تبرّد الظامئ.

(٤) أحمد: الشاعر نفسه. السقم: المرض. التسهيد: السهر. أفلحت تلك الحسناء بجعل الشاعر يأرق، فلا يعرف للنوم طعماً ممّا جعله يمرض.

(٥) المهجة: الروح. الحَيْن: الأجل. يُخاطب الشاعر حبيبته بأنه قد ارتضى بقضائها واستسلم لمشيئتها، فقدّم مهجته، فإما أن تُسعِدها بوصلها وإما أن تزيد من عذابها له بهجرها.

(٦) الضنى: المرض العضال المزمن. الطرّة: شعر الجبهة، يُتابع الشاعر استرساله =

كُــلُّ شَــيْءٍ مِــنَ الــدِّمَــاءِ حَــرَامٌ
شُــرْبُــهُ مَــا خَــلَا دَمَ الْــعُــنْــقُــودِ[(١)]

فَـاسْـقِـنـيـهَـا فِـدًى لِـعَـيْـنَـيْـكَ نَـفْـسِـي
مِــنْ غَــزَالٍ وَطَــارِفِــي وَتَــلِــيــدِي[(٢)]

شَــيْــبُ رَأْسِــي وَذِلَّــتِــي وَنُــحُــولِــي
وَدُمُــوعِــي عَــلَــى هَــوَاكَ شُــهُــودِي[(٣)]

أيَّ يَــوْمٍ سَــرَرْتَــنِــي بِــوِصَــالٍ
لَــمْ تَــرُعْــنِــي ثَــلَاثَــةً بِــصُــدُودِ[(٤)]

مَــا مُــقَــامِــي بِــأَرْضِ نَــخْــلَــةَ إلَّا
كَــمُــقَــامِ الــمَــسِــيــحِ بَــيْــنَ الْــيَــهُــودِ[(٥)]

مَــفْــرَشِــي صَــهْــوَةُ ٱلْــحِــصَــانِ وَلٰــكِــ
ــنَّ قَــمِــيــصِــي مَــسْــرُودَةٌ مِــنْ حَــدِيــدِ[(٦)]

= بوصف ما حلّ به؛ فقد صادت بطلاً بتصفيفها طرتها وجمال عنقها، فحقّ لها أن تفعل به ما تشاء.

(١) و (٢) ابنة العنقود: الخمرة. يُعرّج الشاعر على موضوع خمري، فكلّ ما كان أحمر حرام سوى الخمرة، فإنها تحلّ إذا قدّمتها فتاة كالغزال رقّة وجمالاً ولطفاً؛ وذلك في سبيل رضى عينيها؛ هنا يرخص كلّ غالٍ، سواء أكان موروثاً أم مالاً حديثاً.

(٣) ما ألمّ بالشاعر من شيب كلّل رأسه ومعاناة ذلّ ونحول جسم ودموع لا تريم تسيل على خدّيه، شاهدة على حبّه لها.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ :٧٧، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٧٩، ٥١٤. ترُعني: تُخيفني. ومن مكر حبيبة الشاعر أنها إذا وصلته ذات يوم جعلته يُعاني آلام الصدّ والحرمان أياماً ثلاثة.

(٥) نخلة: إحدى قرى بعلبك يمتلكها بنو كلب. يبدو أن علاقة الشاعر بأهل قرية نخلة كانت سيّئة وليست تحلو له، فكأنه فيها يُقاسي غربة ووحشة كما كان المسيح عليه السلام بين اليهود.

(٦) المفرش: موضع الفراش. الصهوة: مكان اعتلاء الفارس على فرسه. القميص المسرودة: الدرع. ينوّه الشاعر بفروسيّته؛ إنه يفترش صهوة جواد ويرتدي درعاً حديدية، حذراً واستعداداً لما يطرأ من مفاجاءات من قبل أعدائه.

لَأْمَــــةٌ فَــــاضَـــــةٌ أَضَـــــاةٌ دِلَاصٌ
أَحْـكَـمَـتْ نَـسْـجَـهَـا يَـدَا دَاوُدِ(١)

أَيْـنَ فَـضْـلِـي إذَا قَـنِـعْـتُ مِـنَ الـدَّهْـرِ
بِـعَـيْـشٍ مُـعَـجَّـلِ الـتَّـنْـكِـيـدِ(٢)

ضَـاقَ صَـدْرِي وَطَـالَ فِـي طَـلَـبِ الـرِّزْ
قِ قِـيَـامِـي وَقَـلَّ عَـنْـهُ قُـعُـودِي(٣)

أَبَـداً أَقْـطَـعُ الْـبِـلَادَ وَنَـجْـمِـي
فِـي نُـحُـوسٍ وَهِـمَّـتِـي فِـي سُـعُـودِ(٤)

وَلَـعَـلِّـي مُـؤَمِّـلٌ بَـعْـضَ مَـا أَبْـ
ـلُـغُ بِـالـلُّـطْـفِ مِـنْ عَـزِيـزٍ حَـمِـيـدِ(٥)

لِـسَـرِيٍّ لِـبَـاسُـهُ خَـشِـنُ الْـقُـطْـ
ـنِ وَمَـرْوِيُّ مَـرْوَ لِـبْـسُ الْـقُـرُودِ(٦)

---

(١) اللأمة: درع محكمة الصنع. فاضة: فضفاضة. دلاصة: برّاقة ليّنة الملمس. نسج: حاك. إنها درع محكمة الصنعة، صيغت على مقاس الشاعر فضفاضة ليّنة الملمس برّاقة من صنع سيّدنا داود عليه السلام، قديمة العهد.

(٢) يستعجل الشاعر طلب الغنى والسؤدد، فليس له فضل لو رضخ لما قسم له، فقد حصّل فقراً رغم محاولاته، لذا فلا فضل له.

(٣) و (٤) نكد العيش وسوء التوفيق في الحصول على الثروة لازم الشاعر فلم تفتر له همّة ولم يستسلم ولم يتوان في طلب ما يصبو إليه. لذا فهو يتنقّل من مكان إلى آخر، رغم الفشل المتكرّر وطالعه النحس، فعزيمته لم تفتر بل ازداد إصراراً لتحقيق ما يصبو إليه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٣. لم يقنط الشاعر؛ فالأمل يدغدغ أحلامه، وما التوفيق إلّا من عند اللّه العزيز الحميد.

(٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ١٩٥، الوساطة: ٩٣. السري: السيد الماجد الشريف. مروي مَرْوَ: ثياب رقاق تنسج بها. مَرْو: بلد بفارس. يروى «بسريّ» بدلاً من «لسريّ»، يأمل الشاعر بلوغ ما يتمنّاه من خشن الملبس والمطعم دلالة على قوّة شخصيّته، ويأنف من لبس رقيق القطن الليّن، فهو لباس القرود.

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفْقِ الْبُنُودِ (١)
فَرُؤُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْـ
ـظِ وَأَشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ (٢)
لَا كَمَا قَدْ حَيِيتَ غَيْرَ حَمِيدٍ
وَإِذَا مُتَّ غَيْرَ فَقِيدِ (٣)
فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَدَعِ الذُّ
لَّ ولَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ (٤)
يُقْتَلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانُ وَقَدْ يَعْـ
ـجِزُ عَنْ قَطْعِ بُخْنُقِ الْمَوْلُودِ (٥)
وَيُوَقَّى الْفَتَى الْمِخَشُّ وَقَدْ خَوَّ
ضَ فِي مَاءِ لَبَّةِ الصِّنْدِيدِ (٦)

(١) و (٢) البنود، الواحد بنْد: الأعلام الكبيرة. خفق البنود: تحركها مع الرياح. يُخاطب الشاعر نفسه مستثيراً فيها روح المغامرة، طالباً منها عيشاً كريماً عزيزاً، وإن لم يُحقق ذلك، فالموت بكرامة مناه في ميادين القتال حيث تشتجر الرماح وتلتقي لقاء الموت، وتخفق الرايات، رايات النصر والفخار. وما يشفي غيظ الأبطال رؤوس الرماح المشرّعة ويشفي الحقود ضربة تُصوّب إلى جسده فيخرّ صريعاً مضرّجاً بدمائه.

(٣) ينفض الشاعر عن نفسه غبار الذّلّ في حياة التراخي ويحثّ نفسه على النضال، فالقدر واحد والعمر واحد، ولا يذكر المرء إلّا بأعظم الأعمال التي يتركها بعد مماته؛ فسرعان ما ينسى الناس الضعفاء الذين لا يتركون ما يُحمدون عليه ولأجله.

(٤) يروى «ذرْ» بدلاً من «ودع». لظى: لهب جهنم. على المرء أن يحمل شُعلة النار عزيزاً حتى ولو كان طلبها في جهنم خير له من الاستكانة ولو كان ذلك في الجنَّة.

(٥) البخنق: خرقة تقنع بها الرأس وتُشدّ تحت الحنك. وقد يُقتل الجبان رغم شدّة احتراسه، فالقضاء جارٍ في النفوس، وشدّة الحرص ليست من أسباب الخلود.

(٦) المخشّ: الشجاع الذي يتصدّى لمواجهة الشدائد والحروب. خوّض: سبح. اللبّة: أعلى الصدر. الصنديد: البطل الشجاع. يُتابع الشاعر مقالته أن الشديد البأس الجريء على مواجهة الأخطار يخوض عبابها ويبطش بالصناديد.

لَا بِـقَـوْمِـي شَـرُفْـتُ بَـلْ شَـرُفُـوا بِـي
وَبِـنَـفْـسِـي فَـخَـرْتُ لَا بِـجُـدُودِي(١)

وَبِـهِـمْ فَـخْـرُ كُـلِّ مَـنْ نَـطَـقَ الـضَّـا
دَ وَعَـوْذُ ٱلْـجَـانِـي وَغَـوْثُ الـطَّـرِيـدِ(٢)

إِنْ أَكُـنْ مُـعْـجَـبـاً فَـعُـجْـبُ عَـجِـيـبٍ
لَـمْ يَـجِـدْ فَـوْقَ نَـفْـسِـهِ مِـنْ مَـزِيـدِ(٣)

أَنَـا تِـرْبُ الـنَّـدَى وَرَبُّ الْـقَـوَافِـي
وَسِـمَـامُ الْـعِـدَا وَغَـيْـظُ الْـحَـسُـودِ(٤)

أَنَـا فِـي أُمَّـةٍ تَـدَارَكَـهَـا الـلَّـ
ـهُ غَـرِيـبٌ كَـصَـالِـحٍ فِـي ثَـمُـودِ(٥)

الخلائق الشريفة

وأرسل إليه جامَة فيها حلوى فردها وكتب فيها بالزعفران: [الكامل]

أَقْـصِـرْ فَـلَـسْـتَ بِـزَائِـدِي وُدَّا
بَـلَـغَ الـمَـدَى وَتَـجَـاوَزَ الْـحَـدَّا(٦)

أَرْسَـلْـتَـهَـا مَـمْـلُـوءَةً كَـرَمـاً
فَـرَدَدْتُـهَـا مَـمْـلُـوءَةً حَـمْـدَا(٧)

---

(١) و(٢) إن الشاعر لا يهتمّ بميراث الأمجاد لجدوده، بل إنه يعتبر نفسه مصدر اعتزازهم، لذا فإنه يفخر بنفسه. وهم مصدر فخر العرب، وإليهم يلجأ كلّ من كان بحاجة للحماية حتى الجُناة، فإنهم يأمنون على أنفسهم من عثرات الزمن، وكذلك المشرّدون بهم يستغيثون وإليهم يرجعون لمساعدتهم.

(٣) ومن مغالاة الشاعر أنه شديد الإعجاب بنفسه، والناس يُعجبون به لأنه مصدر الإعجاب، وهو يعلو على سائر البشر.

(٤) ترب الندى: أي أنه ولد مع الكرم. الندى: الكرم. سِمام، الواحد سمّ: يُحدّد الشاعر صفاته؛ إنه كريم وُلد توأماً للندى، وهو شاعر مفلّق مبدع، وكذلك هو سمّ زُعاف قاتلٍ لأعدائه، والحسود يموت غيظاً منه.

(٥) تداركها اللّه: سارع إلى رحمتها ورعايتها. يرى الشاعر نفسه منقِذاً لأمته خلقه اللّه تعالى رحمة لها، كما أرسل صالحاً النبيّ لهداية بني قومه ثمود.

(٦) و(٧) أقصر: توقّف عن القيام بعمل ما مع القدرة عليه. الودّ: الحبّ والصداقة. =

جَـاءَتْـكَ تَـطْـفَـحُ وَهْـيَ فَـارِغَـةٌ
مَـثْـنَـى بِـهِ وَتَـظُـنُّـهَـا فَـرْدَا[١]
تَـأْبَـى خَـلَائِـقُـكَ الَّـتِـي شَـرُفَـتْ
أَنْ لَا تَـحِـنَّ وتَـذْكُـرَ الْـعَـهْـدَا[٢]
لَـوْ كُـنْـتَ عَـصْـراً مُـنْـبِـتـاً زَهَـراً
كُـنْـتَ الـرَّبِـيـعَ وَكَـانَـتِ الْـوَرْدَا[٣]

قواف كالمرقد

نام أبو بكر الطائي وهو ينشد، فقال:

[الكامل]

إنَّ الـقَـوَافِـيَ لـم تُـنِـمْـكَ وإنَّـمـا
مَـحَـقَـتْـكَ حَـتَّـى صِـرْتَ مـا لا يُـوجَـدُ[٤]
فَـكَـأنَّ أُذْنَـكَ فُـوكَ حِـيـنَ سَـمِـعْـتَـهَـا
وكـأنَّـهَـا مِـمَّـا سَـكِـرْتَ الـمُـرْقِـدُ[٥]

= يطلب الشاعر من ممدوحه الكفّ عن إرسال الهدايا، فحبّه ملك عليه وجدانه، وهو يُجاريه على ذلك آيات من الحمد والشكر التي كتبها تعبيراً عمَّا يكنّه له من صدق المشاعر.

(١) و (٢) تطفح: تمتلئ. كان ردّ الشاعر تعبيراً عن عرفان، فرغم فراغ الجامة، فقد امتلأت على جوانبها شعراً خالداً، إذ بها شيئان رغم فراغ ما فيها من قبل الممدوح؛ ومن صفات الممدوح أنه لا ينسى العهود.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٣. العصر: الدهر. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه لو كان زمان ينبت الزهر، فهو ربيع وأخلاقه ورد ينشر عبيره في الآفاق.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ١٢٤. من مماحكات المتنبي مع بعض الشعراء المعاصرين له هذان البيتان؛ فهو ينعى على أبي بكر الطائي نومه؛ فلم يكن شعره سبب نومه، بل حسده للمتنبي حمله على النوم، فكان أن سحقه وأبطل وجوده فبات عدماً.

(٥) المُرْقد: المنوّم. يُشبّه الشاعر بمنوّم، لذا ما إن سمعه أبو بكر حتى راح يغطّ في نومه كأنه شرب دواءً منوّماً.

قطعتهم حسداً

يمدحه أيضاً:

[الكامل]

أَلْـيَـوْمَ عَـهْـدُكُـمُ فَـأَيْـنَ الـمَـوْعِـدُ
هَـيْـهَـاتَ لَـيْـسَ لِـيَـوْمِ عَـهْـدِكُـمُ غَـدُ (١)

أَلْـمَـوْتُ أَقْـرَبُ مِـخْـلَـبـاً مِـنْ بَـيْـنِـكُـمْ
وَالْـعَـيْـشُ أَبْـعَـدُ مِـنْـكُـم لَا تَـبْـعُـدُوا (٢)

إِنَّ الَّـتـي سَـفَـكَـتْ دَمِـي بِـجُـفُـونِـهَـا
لَـمْ تَـدْرِ أَنَّ دَمِـي الَّـذِي تَـتَـقَـلَّـدُ (٣)

قَـالَـتْ وَقَـدْ رَأَتِ اصْـفِـرارِي مَـنْ بِـهِ
وَتَـنَـهَّـدَتْ فَـأَجَـبْـتُـهـا الـمُـتَـنَـهِّـدُ (٤)

فَـمَـضَـتْ وَقَـدْ صَـبَـغَ ٱلْـحَـيَـاءُ بَـيَـاضَـهَـا
لَـوْنِـي كَـمَـا صَـبَـغَ الـلُّـجَـيْـنَ الـعَـسْـجَـدُ (٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. هيهات: اسم فعل ماض بمعنى بعُد. يخاطب الشاعر أحبّته، إنها لحظة الفراق والوداع، وفي القلب غصّةٌ، إنها رحلة قد لا يكون بعدها لقاء والقلب لا يحتمل لوعة الفراق، ومن المستبعد لقاء في الغد؛ فإحساس الشاعر إحساس تشاؤمي، وهو لا يرجو عيشاً بعد هذا اليوم، هكذا يبدأ الشاعر قصيدته المدحية.

(٢) المخلب: آلة القتل للوحوش من الحيوانات والطيور المفترسة. البين: الفراق. إنه ينعي نفسه قبل فراق أحبّته؛ ذلك أنه على وشك الموت في حال ارتحال من يُحبّ والحياة لا قيمة لها بدون حبيب في حال بعده، لذا يرجو منهم ألّا يبعدوا.

(٣) تقلدت دمه: أي لزمت تبعته. سفكت: سفحت، أهدرت. يتغزّل الشاعر بذات عينين قاتلتين لسحرهما، فقد سفكت دمه، لذا فهي تحمل وزر تلك الجريمة.

(٤) الاصفرار حالة نفسية نتيجة حالة مرضية مفاجئة؛ إنها التفاتة اطلعت عليها حبيبة الشاعر لحظة الفراق، وكان حوار تستعلم فيه عن سبب ما آل إليه أمر الشاعر، فردّ عليها أنها السبب رغم تنهّدها ورغم انزعاجها بسبب حالته.

(٥) اللجين: الفضة. العسجد: الذهب. لقد رحلت وقد اختلّ توازنها النفسي؛ فإذا بالحياء يصبغ وجهها بصفرة خوفاً من نتيجة ما سمعت؛ وقد يُشاع الخبر، فيستغلّ =

فَـرَأَيْـتُ قَـرْنَ الـشَّـمْـسِ فـي قَـمـرِ الـدُّجَـى
مُـتَـأَوِّداً غُـصْـنٌ بِـهِ يَـتَـأَوَّدُ(١)

عَـدَوِيَّـةٌ بَـدَوِيَّـةٌ مِـنْ دُونِـهَـا
سَـلْـبُ الـنُّـفُـوسِ وَنَـارُ حَـرْبٍ تُـوقَـدُ(٢)

وَهَـوَاجِـلٌ وَصَـوَاهِـلٌ وَمَـنَـاصِـلٌ
وَذَوَابِـلٌ وَتَـوَعُّـدٌ وَتَـهَـدُّدُ(٣)

أَبْـلَـتْ مَـوَدَّتَـهَـا ٱلـلَّـيَـالِـي بَـعْـدَهَـا
وَمَـشَـى عَـلَـيْـهَـا الـدَّهْـرُ وَهْـوَ مُـقَـيَّـدُ(٤)

بَـرَّحْـتَ يَـا مَـرَضَ الْـجُـفُـونِ بِـمُـمْـرَضٍ
مَـرِضَ الـطَّـبِـيـبُ لَـهُ وَعِـيـدَ الـعُـوَّدُ(٥)

= ذلك كاشح يُمزّق سمعتها، أو قد تخاف على نفسها من مطالبتها بالقود لقتلها من أحبّها.

(١) قرن الشمس: الشعاع الأصفر عند الفجر. متأوّداً: متمايلاً، مائساً: إنها نظرة المُحبّ إلى حبيبته، لقد انسلّت والحياء والخوف يزيدها جمالاً؛ فإذا بها كالقمر بنوره وروعته وجماله، وقد انعكس عليه ضوء رقيق من أشعة شمس تُؤذن بفجر جديد، إنها غصن بانٍ يميس برقته فيعتدل تارة ويميل طوراً وينثني برقَّة مرّة أخرى.

(٢) يصف الشاعر حبيبته؛ إنها من بني عديّ سُكناها البادية مصونة تحميها سيوف قومها، ويهبون للدفاع عنها، فهي عصيّة المنال، يصعب الوصول إليها.

(٣) الهواجل، الواحدة هوجل: المفازات لا أعلام لها. الصواهل: الخيول. المناصل: السيوف. الذوابل: الرماح. ويتابع الشاعر معدّداً الموانع التي تحول الوصول إلى حبيبته، إنها بعيدة مكانياً، فثمّة مفازات وفلوات يصعب الاهتداء إليها، فضلاً عن بني قومها المحاربين، إنهم يمتطون متون الخيل وقد استعدوا بسلاح قوامه سيوف بتّارة ورماح تنذر بموت محتّم، وفيها الوعد والوعيد.

(٤) أبلى: أضعف. إنه الزمن الكفيل بتغير الأحوال، لقد نسيت حبيبة الشاعر مودتها للشاعر، وتوالت الأيام بطيئة وتقادم العهد، وأنبتت علاقتهما.

(٥) برّح به الأمر: اشتدت وطأته. يخاطب الشاعر حبيبته، إنها حييّة مريضة الجفنين ممّا أدّى إلى مرضه، ولشدّة ألمه مرض طبيبه المعالج لسوء حالته ولحقه العوّاد في ذلك.

فَلَهُ بَنُو عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ الرِّضَا
وَلِكُلِّ رَكْبٍ عِيسُهُمْ وَالفَدْفَدُ(١)

مَنْ فِي الأَنَامِ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا تَقُلْ
مَنْ فِيكَ شَأْمُ سِوَى شُجَاعٍ يُقْصَدُ(٢)

أَعْطَى فَقُلْتُ لِجُودِهِ مَا يُقْتَنَى
وَسَطَا فَقُلْتُ لِسَيْفِهِ مَا يُولَدُ(٣)

وَتَحَيَّرَتْ فِيهِ الصِّفَاتُ لأَنَّهَا
أَلْفَتْ طَرَائِقَهُ عَلَيْهَا تَبْعُدُ(٤)

فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ كُلًى مَفْرِيَّةٌ
يَذْمُمْنَ مِنْهُ مَا الأَسِنَّةُ تَحْمَدُ(٥)

---

(١) العيس: كرام الإبل. الفدفد: الفلاة. يتخلّص الشاعر إلى المدح، وهو مريض، لا بدّ له من طبيب ماهر، بيده الدواء الناجع والشفاء العاجل؛ إنهم بنو عبد العزيز بن الرضا مقصده وأمله ومن لم يتوجّه إليهم، فإنهم يتوهون في صحراء مترامية الأطراف لا يحصلون على مبتغاهم.

(٢) الأنام: الناس. بدأ الشاعر يكيل الصفات المحبّبة للممدوحين؛ فشجاع ليس فقط أكرم من في الشام بل إنه أكرم الخلق في هذا الوجود، ومن الطبيعي أن يُقصد لبعد صيته وذيوع خبره في مضمار الكرم.

(٣) الجود: الكرم. يُقْتنى: يُدّخر. سطا: بطش بعدوه بعنف. يصف الشاعر ممدوحه بشدّة الكرم، فإنه متلاف لماله يوزّعه بين محبّيه فلا يحتاجون بعد عطائه أحداً، وهم لا يفتقرون، وهو في حال بطشه بأعدائه لا يرحم، فسيفه يهلك العِباد إلّا من عفا عنه رغم قدرته عليه، فتكتب له حياة جديدة.

(٤) ألفت: وجدت. الطرائق: الحالات. ومن مغالاة الشاعر أنه جعل ممدوحه فوق كلّ وصف؛ فقد اجتمعت لديه الفضائل بحيث لا يمكن حصرها وتعدادها، فحار المادحون في أمره وعجزوا عن الإلمام بكلّ أوصافه.

(٥) المعترك: ميدان المعركة. المفرية: الممزّقة. الأسنة: نصال السيوف والرماح. يصور الشاعر ممدوحه بطلاً مغواراً يفتك بأعدائه، فيطرحهم أرضاً أشلاءً، وقد تمزّقت كلاهم تنعى عليه الغلظة وافتقاد قلبه للرحمة، بينما تحمد فعاله أسنته العطشى لدماء أعدائه.

نِقَمٌ عَلَى نِقَمِ الزَّمَانِ يَصُبُّهَا
نِعَمٌ عَلَى النِّعَمِ الَّتي لَا تُجْحَدُ(١)

فِي شَانِهِ وَلِسَانِهِ وَبَنَانِهِ
وَجَنَانِهِ عَجَبٌ لِمَنْ يَتَفَقَّدُ(٢)

أَسَدٌ دَمُ الأَسَدِ الْهِزَبْرِ خِضَابُهُ
مَوْتٌ فَرِيصُ المَوْتِ مِنْهُ يُرْعَدُ(٣)

مَا مَنْبِجٌ مُذْ غِبْتَ إلا مُقْلَةٌ
سَهِدَتْ وَوَجْهُكَ نَوْمُهَا وَٱلإِثْمِدُ(٤)

فَاللَّيْلُ حِينَ قَدِمْتَ فِيهَا أَبْيَضٌ
وَالصُّبْحُ مُنْذُ رَحَلْتَ عَنْهَا أَسْوَدُ(٥)

---

(١) تجحد: تنكر. يفرّق الممدوح عمله بين أعدائه، وقد اجتمعت نقمتان عليهم، إحداهما نقمته وغضبه وتسلّطه إضافة إلى نقمة الأقدار، فكان مصير هؤلاء موتاً ومذلّة ودماراً، وبالمقابل كرم لا حدّ له فلا ينكر أحد عليه فعله في هذا الميدان الإنساني النبيل.

(٢) الشأن: الحال. البنان: الأنامل. الجنان: القلب. يتفقّد: يُفتش، وما يُثير الإعجاب بالممدوح مظاهر إنسانية نادراً ما تجتمع في رجل واحد، فكيفما بحث المرء في أحواله لوجد العجب العُجاب، إنه صادق اللهجة، مفوّه، فصيح المنطق، كريم في غاية الكرم، يفيض كرمه على الناس، شجاع ثابت الجنان في الملمات، لا يُرهبه شيء، بطل لا يُشقّ غُباره في ميادين القتال.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٧٤. الهزبر: من أسماء الأسد. الخضاب: الصباغ بلون الحِنَّاء. الفريص، الواحدة فريصة: لحمة في الكتف تضطرب من الخوف. ومن مبالغات الشاعر أن جعل ممدوحه قوياً بحيث يصطاد الأسد ويُخضّب يديه بدمه رغم شراسة ذلك الأسد، إنه سبب موت أعدائه، وحتى الموت فإنه يرتجف إذا تصدّى له خوفاً ورعباً.

(٤) و (٥) منبج: من بلاد الشام. الإثمد: الكحل. سهدت: سهرت. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه مصدر أمن لموطنه، وغيابه عنها جعل منها مقلة مسهّدة أرقة لا تعرف للاستقرار طعماً، ويتمثل شعورها بالأمن في حال وجوده بها، لذا فقد انقلبت قوانين الوجود في حال رجوعه، فما عاد الليل ليلاً بل أشرقت علائم الأفراح بمقدمه، بعدما كانت تلفّها غلالة سوداء في حال غيابه.

مَـا زِلْـتَ تَـدْنُـو وَهْـيَ تَـعْـلُـو عِـزَّةً
حَـتَّـى تَـوَارَى فِـي ثَـرَاهَـا الْـفَـرْقَـدُ[١]
أَرْضٌ لَـهَـا شَـرَفٌ سِـوَاهَـا مِـثْـلُـهَـا
لَـوْ كَـانَ مِـثْـلُـكَ فِـي سِـوَاهَـا يُـوجَـدُ[٢]
أَبْـدَى الْـعُـدَاةُ بِـكَ الـسُّـرُورَ كَـأَنَّـهُـمْ
فَـرِحُـوا وَعِـنْـدَهُـمُ الـمُـقِـيمُ الـمُـقْـعِـدُ[٣]
قَـطَّـعْـتَـهُـمْ حَـسَـداً أَرَاهُـمْ مَـا بِـهِـمْ
فَـتَـقَـطَّـعُـوا حَـسَـداً لِـمَـنْ لَا يَـحْـسُـدُ[٤]
حَـتَّـى ٱنْـثَـنَـوْا وَلَـوَ ٱنَّ حَـرَّ قُـلُـوبِـهِـمْ
فِـي قَـلْـبِ هَـاجِـرَةٍ لَـذَابَ الـجَـلْـمَـدُ[٥]
نَـظَـرَ الْـعُـلُـوجُ فَـلَـمْ يَـرَوْا مِـنْ حَـوْلِـهِـمْ
لَـمَّـا رَأَوْكَ وَقِـيـلَ هٰـذَا الـسَّـيِّـدُ[٦]
بَـقِـيَـتْ جُـمُـوعُـهُـمْ كَـأَنَّـكَ كُـلُّـهَـا
وَبَـقِـيـتَ بَـيْـنَـهُـمُ كَـأَنَّـكَ مُـفْـرَدُ[٧]

---

(١) توارى: اختفى. الفرقد: نجم. لقد كانت لعودة الممدوح إلى موطنه حسنات فقد عرفت العزّة وفخرت على غيرها من المدن وسمت فوق الفرقد وجعلته يغور ويختفي في ترابها.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢ : ١٢٤. يخاطب الشاعر ممدوحه بأن بلده كسائر البلدان، وشرفها يتمثّل بالممدوح، فلهذا سمت على غيرها وفاقت بعزّها المتمثل بالممدوح، ولو توفر من هو مثله في غيرها لعلا سواها بدوره على غيرها من البلدان.

(٣) و (٤) يذكر الشاعر أعداء ممدوحه، فقد تظاهروا بأنهم مبتهجون لرجوعه، وهم في حقيقة الأمر يُبدون خلاف ما يُضمرون من حسد وحنق وكراهية له. إنّهم يتمزّقون حسداً، لعلمهم يقيناً أنك تفوقهم في كلّ شيء ولا طائل عندهم، ولإيمانهم أنك لا تحمل غِلّاً وقلبك خالٍ من الحسد، لثقتك أنك تفضلهم جميعاً.

(٥) انثنوا: عادوا. الهاجرة: حرّ الظهيرة في الصيف. الجلمد: الصخر. لقد رجع الحاسدون، وفي قلوبهم غصّة لحسدهم وما آلت إليه أحوالهم بسبب رجوع الممدوح، ولشدّة ما في قلوبهم من حرارة غيظهم وحنق، لو صبّ ذلك على صخر لأذابه وجعله هباءً منثوراً.

(٦) و (٧) العلوج، الواحد عِلج: قوّاد الكفار من الروم. قواد الروم يبحثون عن سيّد يملأ =

لَـهْـفَـانَ يَـسْـتَـوْبِـي بِـكَ الْـغَـضَـبَ الْـوَرَى
لَـوْ لَـمْ يُـنَـهْـنِـهْـكَ ٱلْـحِـجَـى وَالـسُّـؤْدُدُ (١)

كُـنْ حَـيْـثُ شِـئْـتَ تَـسِـرْ إِلَـيْـكَ رِكَـابُـنَـا
فَـــالأرْضُ وَاحِـــدَةٌ وَأَنْـــتَ الأوْحَـــدُ (٢)

وَصُـــنِ الْـــحُـــسَـــامَ وَلَا تُـــذِلْـــهُ فَـــإِنَّـــهُ
يَـشْـكُـو يَـمِـيـنَـكَ وَالْـجَـمَـاجِـمُ تَـشْـهَـدُ (٣)

يَـبِـسَ الـنَّـجِـيـعُ عَـلَـيْـهِ وَهْـوَ مُـجَـرَّدٌ
مِـنْ غِـمْـدِهِ وكَـأَنَّـمَـا هُـوَ مُـغْـمَـدُ (٤)

رَيَّـــانَ لَـــوْ قَـــذَفَ الَّـــذِي أَسْـــقَـــيْـــتَـــهُ
لَـجَـرَى مِـنَ الـمُـهَـجَـاتِ بَـحْـرٌ مُـزْبِـدُ (٥)

= عقولهم بعظمة شخصيّته، فلم يجدوا لديهم ضالتهم، وما إن وقعت عيونهم حتى نطقوا بكلمة حق، مجمعين فيها على مكانة ممدوحه أنه السيد حقًّا لما عليه من فضائل تؤهله لمنصب السيادة؛ ولذا تقلّصت جموعهم كلها حتى تساوَوْا بك وحدك، فبدت جموعهم شبه العدم لا وجود لهم، فإذا بنجمك يسطع وحيداً لا منازع لك.

(١) اللهفان: الممتلئ حسرة وحنقاً. يستوبئ: يُحسّ مرضاً. الورى: الخلق. نهنه: كفّه وردّه، الحجى: العقل. السؤدد: المجد والسيادة. يذكر الشاعر الحالة التي كان عليها ممدوحه؛ إنه يتميّز غضباً مما يُثير أعداءه ولشدّة خوفهم من ثورة غضبه ونتيجتها، ورغم ذلك فلدى الممدوح عقل يدفعه للحلم وسيادة تحول بينه وبين غضبه الذي يكاد يقتلهم حتى قبل مبادرته والقيام بأي عمل ضدّهم.

(٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن وجهته حيثما كان ممدوحه، وإنه يسير بسيره ويسعى للمثول بين يديه، ذلك أنه أوحد عصره في هذه الأرض حيثما حلّ وارتحل.

(٣) الحسام: السيف. تذله: تبذله. صنه: احفظه. الجماجم، الواحدة جمجمة: قحف الرأس. يطلب الشاعر من ممدوحه أن يكفّ سيفه عن قتل أعدائه ويحفظه من دماء نجسة لطّخته، لذنوبها وعصيانها، حتى إن يده كلّت من كثرة ضحاياه فشكت إليه تعبها، وقد غطّت الجماجم الأرض من أعدائه.

(٤) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢:١٣٨. النجيع: الدم القاني. ولكثرة قتلى الممدوح، فقد تجمّد الدم، ولا يزال السيف مجرّداً، فبدا وكأنه مغمد.

(٥) لقد ارتوى السيف من دماء أعداء ممدوحه، فعليه ذهبت أرواح الكثير، فلو مجّ ما ارتوى به لكان بحراً طامياً يجرف كلّ ما قابله في وجهه.

مَـا شَـارَكَـتْـهُ مَـنِـيَّـةٌ فـي مُـهْـجَـةٍ
إلّا وَشَـفْـرَتُـهُ عَـلَـى يَـدِهَـا يَـدُ[(١)]

إنَّ الـرَّزَايَـا وَالْـعَـطَـايَـا وَالْـقَـنَـا
حُـلَـفَـاءُ طَـيٍّ غَـوَّروا أوْ أنْـجَـدُوا[(٢)]

صِـحْ يَـا لَـجُـلْـهُـمَـةٍ تُـجِـبْـكَ وَإنَّـمَـا
أشْـفَـارُ عَـيْـنِـكَ ذَابِـلٌ وَمُـهَـنَّـدُ[(٣)]

مِـنْ كـلِّ أكْـبَـرَ مِـنْ جِـبَـالِ تِـهَـامَـةٍ
قَـلْـبـاً وَمِـنْ جَـوْدِ الْـغَـوَادِي أجْـوَدُ[(٤)]

يَـلْـقَـاكَ مُـرْتَـدِيـاً بِـأحْـمَـرَ مِـنْ دَمٍ
ذَهَـبَـتْ بِـخُـضْـرَتِـهِ الـطُّـلَـى وَالأكْـبُـدُ[(٥)]

حَـتَّـى يُـشَـارَ إلَـيْـكَ ذَا مَـوْلَاهُـمُ
وَهُـمُ الـمَـوَالِـي وَالْـخَـلِـيـقَـةُ أعْـبُـدُ[(٦)]

---

(١) المنية : الموت . المهجة : الروح . شفرة السيف : حدّه . لقد تحالف الموت مع سيف الممدوح ، فإذا بشفرته وقد أصبحت يد الموت تنتزع أرواح الأعداء وتحصدهم حصداً .

(٢) الرزايا ، الواحدة رزية : المصائب والويلات . القنا : الرماح . الحلفاء ، الواحد حليف : الصديق المرافق في الحرب . غوّروا : نزلوا الغور . أنجدوا : نزلوا النجد . ينوّه الشاعر بقبيلة الممدوح ، فالطائيّون هم مصائب تنزل بأعدائهم حيثما حلوا ، سواءٌ أنزلوا الغور أم نزلوا النجد ، وهم أيضاً خير لأصدقائهم يُفيضون عليهم من كرمهم وفضائلهم .

(٣) جُلهمة : اسم طيّئ ، وطيّئ لقب له . أشفار العين : منابت الأهداب . الذابل : الرمح . المهند : السيف صنع في الهند . يكفي الممدوح أنه يصيح بالنفير حتى تتكاتف قبيلته معه ، عمادها أبطال سلاحهم سيوف هندية ورماح سمهرية فيملأون عينيه عزّة وثقة بالنصر .

(٤) الجَوْد : الأمطار الغزيرة . الغوادي : السحب المنتشرة في الصباح . إنهم يلبّون دعوة أميرهم بقلوب ثابتة ثبات الجبال التي نشأوا فيها ، جبال تهامة العالية ، ينحدرون كسيل عنيف إلى ميدان المعركة فيبذلون نفوسهم في سبيل نصرته ، يدفعهم في ذلك حبهم وولاؤهم .

(٥) و (٦) ورد البيت في : مغني اللبيب وشرح شواهد ، للسيوطي : ٥٤٣. الطُّلى : الأعناق . سيوف مشرّعة وقد اكتست لوناً قانياً أحمر ، علامة نصر بني قوم الممدوح ، حتى فرند كلّ منها تخلّى عن لونه ، فإذا بالخضرة تتحوّل إلى لون النصر ، لون الدم =

أَنَّـى يَكُـونُ أَبَـا الْبَـرِيَّـةِ آدَمٌ
وَأَبُـوكَ وَالثَّقَـلَانِ أَنْـتَ مُحَمَّـدُ[١]
يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِفَضْلِكُمْ
أَيُحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ[٢]

تعجل فيَّ وجوب الحدود

وقال وقد وشى به قوم إلى السلطان فحبسه فكتب إليه من الحبس:

[المتقارب]

أيَـا خَـدَّدَ ٱللَّـهُ وَرْدَ ٱلْخُـدودِ
وقَـدَّ قُـدُودَ الْحِسَـانِ الْقُـدُودِ[٣]
فَهُـنَّ أَسَلْـنَ دَمـاً مُقْلَتِـي
وَعَـذَّبْـنَ قَلْبِـي بِطُـولِ الصُّـدُودِ[٤]
وَكَـمْ لِلْهَـوَى مِـنْ فَتًـى مُـدْنَـفٍ
وَكَـمْ لِلنَّـوَى مِـنْ قَتِيـلٍ شَهِيـدِ[٥]

= القاني، وقد غاصت في الطُّلى والكبد، وينتج عن ذلك أمجاد طيّئ، فإذا بالناس يشيرون بإعجاب إلى الطائيين وإلى أميرهم بأنه سيّدهم، وبأنهم سادة الناس إليهم مرجعهم، لأنهم عبيدهم.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. البرية: الخلق. الثقلان: الإنس والجنّ. يُخاطب الشاعر الممدوح كيف أنّ اللّه تعالى جعل آدم أبا البشرية كما جعل أباه محمداً الطائيّ وجعله يحمل مزايا الثقلين من البشر والجنّة، فكان كاملاً في مزاياه وأخلاقه وكرم أفضاله.

(٢) يعتذر الشاعر عن التقصير في ذكر فضائل ممدوحه، فالكلام يفنى ويعجز عن إيفاء الممدوح حقّه من المدح وذكر فضائله.

(٣) خدّد: شقّق. قدّ: قطع طولاً. القدّ: الطول. يدعو الشاعر دعاء استحسان ليجعل الجميلات ممشوقات القوام، صورهن برسم إلهي بديع وصنعة متقنة بيد خالق السماوات والأرض.

(٤) ورغم ذلك فإنهن جعلن الشاعر يبكي دماً لصدهنّ؛ فقلبه ملأه العذاب ألماً وحزناً لهجرهن الذي لا نهاية له وصدهن الطويل.

(٥) المدنف: المريض مرضاً مزمناً. النوى: البعد. رحلة الحبّ شاقّة طويلة، ولطالما =

فَـــوَاحَـــسْـــرَتَـــا مَـــا أَمَـــرَّ الْـــفِـــرَاقَ
وأعْـــلَـــقَ نِـــيـــرَانَـــهُ بِـــٱلْـــكُـــبُـــودِ[(١)]

وأغْـــرَى الـــصَّـــبَـــابَـــةَ بِـــالْـــعَـــاشِـــقِـــيـــنَ
وأقْـــتَـــلَـــهَـــا لِـــلْـــمُـــحِـــبِّ الـــعَـــمِـــيـــدِ[(٢)]

وألْـــهَـــجَ نَـــفْـــسِـــي لِـــغَـــيْـــرِ ٱلْـــخَـــنَـــا
بِـــحُـــبِّ ذَوَاتِ الـــلَّـــمَـــى والـــنُّـــهُـــودِ[(٣)]

فَـــكَـــانَـــتْ وَكُـــنَّ فِـــدَاءَ الأمِـــيـــرِ
ولا زَالَ مِـــنْ نِـــعْـــمَـــةٍ فـــي مَـــزِيـــدِ[(٤)]

لَـــقَـــدْ حَـــالَ بِـــالـــسَّـــيْـــفِ دُونَ الْـــوَعِـــيـــدِ
وَحَـــالَـــتْ عَـــطَـــايَـــاهُ دُونَ الْـــوُعُـــودِ[(٥)]

فَـــأَنْـــجُـــمُ أمْـــوَالِـــهِ فـــي الـــنُّـــحُـــوسِ
وأنْـــجُـــمُ سُـــؤالِـــهِ فـــي الـــسُّـــعُـــودِ[(٦)]

= عذّبت المحبّ العِفّ، فذاق مرارة الهجر والنسيان ولم يحتمل ما حلّ به فمات شهيداً، وهو يسعى لمرضاة من أحبّ علّه يحظى بالقبول ولكن دون جدوى فكان نصيبه الحرمان.

(١) الكبود، الواحد كبد. يعبّر الشاعر عن ألمه لما حلّ به من حرمان، فإذا بكبده تنتابه نيران حراقة، تأكل ما لديه من صبر، فلم يحتمل الفراق والهجر.

(٢) أغرى: أثار. الصبابة: العشق والميل. العميد: المتيّم. والفراق يُثير في النفس لواعج حبّ يطوّح بالعاشقين فيصبو الواحد منهم حيث حبيبه، وإذا ما استمرّ الهجر سبب ذلك قتل مضني عذّبه الشوق إلى لقاء بعد هجر.

(٣) ألهج: أولع واستمسك. الخنا: الفاحشة. اللمى: سمرة في الشفة السفلى. النهود، الواحد نهد: الثدي. يعبّر الشاعر عن حبّه للنسوة، وميله لهنّ لا تُمليه عليه دوافع خبيثة فاحشة، إنّه الشعور بالجمال والتقدير للجمال المتمثل بجمال سمرة الشفاه السفلى والنهود التي تنمّ عن مثال كامل لجمال المرأة.

(٤) يتخلّص الشاعر إلى وصف ممدوحه؛ فالفداء لنفس الأمير نفس الشاعر والحسناوات اللواتي أحبّهن الشاعر، متمنياً له دوام النعم والمزيد منها.

(٥) و (٦) الوعيد: التهديد. يذكر الشاعر شجاعة ممدوحه، إنه لا يهدّد ولكنه يتصدّى =

وَلَـــوْ لَـــمْ أخَـــفْ غَـــيْـــرَ أعْـــدَائِـــهِ
عَـــلَـــيْـــهِ لَـــبَـــشَّـــرْتُـــهُ بِـــالْـــخُـــلُـــودِ (١)

رَمَـــى حَـــلَـــبـــاً بِـــنَـــوَاصِـــي الْـــخُـــيـــولِ
وَسُـــمْـــرٍ يُـــرِقْـــنَ دَمـــاً فِـــي الـــصَّـــعِـــيـــدِ (٢)

وَبِـــيـــضٍ مُـــسَـــافِـــرَةٍ مَـــا يُـــقِـــمْـــ
ـــنَ لا فـــي الـــرِّقَـــابِ وَلَا فـــي الْـــغُـــمـــودِ (٣)

يَـــقُـــدْنَ الْـــفَـــنَـــاءَ غَـــدَاةَ الـــلِّـــقَـــاءِ
إلـــى كـــلِّ جَـــيْـــشٍ كَـــثِـــيـــرِ الْـــعَـــدِيـــدِ (٤)

فَـــوَلَّـــى بِـــأَشْـــيَـــاعِـــهِ الْـــخَـــرْشَـــنِـــيُّ
كَـــشـــاءٍ أَحَـــسَّ بِـــزَأْرِ الأُسُـــودِ (٥)

يَـــرَوْنَ مِـــنَ الـــذُّعْـــرِ صَـــوْتَ الـــرِّيَـــاحِ
صَـــهِـــيـــلَ الـــجِـــيَـــادِ وَخَـــفْـــقَ الْـــبُـــنُـــودِ (٦)

= لأعدائه بسيفه الذي يُمعن فيهم تقتيلاً ونكاية وإذلالاً، ومن شدّة كرمه أنه لا يعد بعطاء ولكنه يُسارع إلى إظهار كرمه فينثر عطاياه في رعيته ومُحبيه، لذلك فهي كوكب نحس فلا يبقى منها شيء، وفي المقابل فحظوظ سائليه في برج سعد لحصولهم على نواله.

(١) يُعلن الشاعر عن خوفه من أعداء الأمير على الأمير، وهو مطمئن أنه قادر على حماية نفسه، وهو يحمل له بشارة البقاء سالماً من الردى.

(٢) و (٣) النواصي، الواحدة ناصية: شعر مقدم رأس الفرس. السمر: الرماح. أراق: أهرق. الصعيد: وجه الأرض. فاجأ الأمير حلب بفرسانه الذين كانوا يتسلّحون بالرماح، وقد سالت دماء الأعداء فغطّت وجه الأرض لكثرة قتلى عدو الأمير، أما سيوف جنده، فإنها عاملة في رقاب عدوه مسافرة بين ضرب وفتك، وما إن تعود إلى أغمادها حتى تعود إلى عادتها في ضرب رقاب الأعداء، ممَّا يدل على مداومة الأمير وجيشه على مقاتلة أعدائه حيثما كانوا.

(٤) إن مسير الجيش بجنوده وسلاحه وخيوله مقدمة للفتك بكلّ جيش عرمرم كثير الجند، منذر بالموت المحتّم الذي لا مفرّ منه.

(٥) و (٦) ولّى: فرّ. أشياعه: أتباعه المؤتمرين بأمره. الخرشني نسبة إلى خرشنة من بلاد الروم، وهو بدر الخرشني، أحد قواد الدولة العباسية ووالي مدينة حلب. زأر الأسد: =

فَـمَـنْ كـالأَمِـيـرِ ابْـنِ بِـنْـتِ الأمـ
ـيـرِ أَوْ مَـنْ كَـآبَـائِـهِ وَالْـجُـدُودِ(١)

سَـعَـوْا لِـلْـمَـعَـالِـي وَهُـمْ صِـبْـيَـةٌ
وَسَـادُوا وَجَـادُوا وَهُـمْ فـي الـمُـهُـودِ(٢)

أَمَـالِـكَ رِقِّـي وَمَـنْ شَـأْنُـهُ
هِـبَـاتُ الـلُّـجَـيْـنِ وَعِـتْـقُ الْـعَـبِـيـدِ(٣)

دَعَـوْتُـكَ عِـنْـدَ ٱنْـقِـطَـاعِ الـرَّجَـا
ءِ والـمَـوْتُ مِـنِّـي كَـحَـبْـلِ الْـوَرِيـدِ(٤)

دَعَـوْتُـكَ لَـمَّـا بَـرَانِـي الْـبَـلَاءُ
وَأَوْهَـنَ رِجْـلَـيَّ ثِـقْـلُ ٱلْـحَـدِيـدِ(٥)

وَقَـدْ كَـانَ مَـشْـيُـهُـمَـا فـي الـنِّـعَـالِ
فَـقَـدْ صَـارَ مَـشْـيُـهُـمَـا في الْـقُـيُـودِ(٦)

= صوته. لقد فرّ والي حلب يتبعه أتباعه المؤتمرون بأمره حالما علم بمقدم الممدوح كالأغنام وقد سمعت زئير الأسد، حتى كأنهم لشدّة فزعهم يظنون أن هبوب الرياح صهيل الخيول تتبعهم بقيادة الممدوح، وقد رفرفت أعلام النصر مؤذنة بانتصاره وهزيمتهم.

(١) و (٢) يستفهم الشاعر مستنكراً أن أحداً ما يُساوي ممدوحه، وقد انحدر من أمير ابن بنت أمير، ولقد ورث أمجاد جدود نبلاء يتبوّأون سدّة الإمارة بالوراثة فمنذ طفولة أحدهم يعتلي المراكز الرفيعة في الدولة حتى إنهم مُقدر لهم أن يسودوا الناس وهم رُضّع لا يزالون في المهود.

(٣) الرِّق: العبودية. الهبات: النوافل، اللجين: الفضة. العتق: الحرية. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مستعبد، طالباً منه أن يفكّ قيده ويُعتقه، وهو كريم يهب الفضّة لمادحه حتى يتحرّر من الحاجة فيغتني بعطائه. أين نفس المتنبي الأبية؟ وقد أقرّ بعبوديته للممدوح!!

(٤) الوريد: عرق في العنق يمثل به عن شدّة القرب. يُخاطب الشاعر ممدوحه معلناً عن سوء حاله وعدم أمله بمن كان يأمل منه العون، وقد بلغ منه اليأس كلّ مبلغ، وهو على وشك الموت لشدّة قربه منه.

(٥) و (٦) البلاء: الشدّة والضيق. براه: هزله. يستجير الشاعر بممدوحه ليرفع عنه ما حلّ =

وَكُــنْــتُ مِــنَ الــنَّــاسِ فــي مَــحْــفِــلٍ
فَــهَــا أَنَــا فــي مَــحْــفِــلٍ مِــنْ قُــرُودِ(١)

تُــعَــجِّــلُ فِــيَّ وُجُــوبَ الْــحُــدُودِ
وَحَــدِّي قُــبَــيْــلَ وُجُــوبِ الــسُّــجُــودِ(٢)

وقِــيــلَ عَــدَوْتَ عَــلــى الْــعَــالَــمِــيــ
ــنَ بَــيْــنَ وِلَادِي وَبَــيْــنَ الــقُــعُــودِ(٣)

فَــمَــا لَــكَ تَــقْــبَــلُ زُورَ الْــكَــلَام
وَقَــدْرُ الــشَّــهَــادَةِ قَــدْرُ الــشُّــهُــودِ(٤)

فَــلَا تَــسْــمَــعَــنَّ مِــنَ الْــكَــاشِــحِــيــنَ
وَلَا تَــعْــبَــأَنَّ بِــعِــجْــلِ الــيَــهُــودِ(٥)

= به من مصائب أنحلت جسمه وأنهكت قواه حتى إنه لم يعد باستطاعته الحركة بسبب قيد الفقر والحاجة المعنوي وقيد السلاسل الحديدية المادي في رجليه الذي أقعده بلا حراك؛ إنه حديد ثقيل يجرّه معه حيثما ذهب، ولقد كان حاله في ما سبق أهون الشرور، ذلك أنه كان يستعين بنعليه، حيثما ينتقل.

(١) المحفل: الجمع من الناس. يُخبر الشاعر ممدوحه عن حاله قبل اعتقاله؛ فقد كان يشارك أناساً محترمين مجالسهم، ولقد تبدّلت أحواله فإذا به يشارك قروداً، معظمهم من اللصوص وقطاع الطرق من أوباش البشر.

(٢) الحدود، الواحد حدّ: العقوبات. يستنكر الشاعر أن يقيم الأمير الحدّ عليه، لأنّ العقوبة لا تقام إلّا على البالغ العاقل المرتكب إحدى الكبائر، بينما لا يزال الشاعر دون سنّ البلوغ، فكيف تُقام عليه الحدود؟

(٣) و (٤) عدوْت: تخطيت حدّك وبغيت. يُحاول الشاعر تبرئة ساحته من العدوان، إنه لا يزال حدثاً وقد ظلمه الناس بادّعائهم أنه ارتكب ما يستوجب العقاب، وهو لا يزال دون سنّ الرشد، ولقد شهدوا شهادة زور وبُهتان، وهؤلاء لا تُقبل شهادتهم لأنهم سِفلة كاذبون، إنما تُقبل شهادة العدول الذين لم يُعرف عنهم الكذب.

(٥) الكاشح: العدو المبغض. يروى «بمحك» بدلاً من «بعجل». يطلب الشاعر من ممدوحه ألّا يُصغي لأقوال الوشاة المبغضين الذين يُضمرون الشرّ له ليُوقعوا به عند الوالي، وألّا يهتمّ لأقوالهم، لأنهم يهود مطبوعون على الكيد للناس.

وَكُـــنْ فَـــارِقـــاً بَـــيْـــنَ دَعْـــوَى أَرَدْتُ
وَدَعْـــوَى فَـــعَـــلْـــتُ بِـــشَـــأْوٍ بَـــعِـــيـــدِ(١)
وَفِـــي جُـــودِ كَـــفَّـــيْـــكَ مَـــا جُـــدْتَ لِـــي
بِـــنَـــفْـــسِـــي وَلَـــوْ كُـــنْـــتُ أَشْـــقَـــى ثَـــمُـــودِ(٢)

وابلها يغرق البلد

يمدحه أيضاً:

[البسيط]

مُـــحَـــمَّـــدَ بْـــنَ زُرَيْـــقٍ مَـــا نَـــرَى أَحَـــدَا
إذا فَـــقَـــدْنَـــاكَ يُـــعْـــطِـــي قَـــبْـــلَ أَنْ يَـــعِـــدَا(٣)
وقـــد قَـــصَـــدْتُـــكَ والـــتَّـــرْحَـــالُ مُـــقْـــتَـــرِبٌ
وَالـــدَّارُ شَـــاسِـــعَـــةٌ وَالـــزَّادُ قَـــدْ نَـــفِـــدَا(٤)
فَـــخَـــلِّ كَـــفَّـــكَ تَـــهْـــمِـــي وَاثْـــنِ وَابِـــلَـــهَـــا
إذَا اكْـــتَـــفَـــيْـــتُ وَإِلَّا أَغْـــرَقَ الْـــبَـــلَـــدَا(٥)

---

(١) يطلب الشاعر من ممدوحه التروّي في الأمر وألّا يُسرع في الحكم عليه؛ وإنما القضيّة تتعلّق بمفردات، فثمّة فارق كبير بين أردت أن أفعل ولم أفعل وبين فعلت، وهم في حقيقة الأمر لم يقولوا: إني فعلت، ممّا يستوجب العفو وعدم التسرّع.

(٢) يُخاطب الشاعر الأمير بأن العفو عند المقدرة من كريم الخصال ومكارم الأخلاق، لذا يطلب منه أن يُطلق سراحه ويهبه نفسه وحرّيته، حتى لو كان عاقر ناقة قوم صالح عليه السلام في ثمود، وذلك منّ منه ونعمة.

(٣) يشيد الشاعر بعطاء ممدوحه؛ إن محمد بن زريق لفيض كرمه فإنه يبادر إلى العطاء قبل وعده؛ فهو سبّاق سائر الناس، حتى إنه يُباري نيته، فيسبق وعده.

(٤) الترحال: الرحيل. والشسوع: البعد. نفد: انتهى، لقد قصد الشاعر ممدوحه وهو على وشك الرحيل، وهو يودّ التزوّد لرحلة بعيدة، وقد نفد منه الزاد.

(٥) تهمي: تسيل. اثنِ: ردّ. الوابل: المطر الغزير. يطلب الشاعر من ممدوحه أن يمدّه بالعطاء. فيكفيه القليل دون وابله الذي يُغرق البلد.

أي الأكف تباري الغيث

يمدح أخاه أبا عبادة:

[البسيط]

مَـا الـشَّـوْقُ مُـقْـتَـنِـعـاً مِـنِّـي بِـذا الـكَـمَـدِ
حَـتَّـى أكُـونَ بِـلَا قَـلْـبٍ وَلَا كَـبِـدِ[١]

وَلا الـدِّيَـارُ الَّـتِـي كَـانَ الْـحَـبِـيـبُ بِـهَـا
تَـشْـكُـو إِلَـيَّ وَلا أَشْـكُـو إِلَـى أَحَـدِ[٢]

مَـا زالَ كُـلُّ هَـزِيـمِ الـوَدْقِ يُـنْـحِـلُـهَـا
وَالسُّقْمُ يُنْحِلُنِي حَتَّى حَكَتْ جَسَدِي[٣]

وكُـلَّـمَـا فـاضَ دَمْـعِـي غَـاضَ مُـصْـطَـبَـرِي
كَـأَنَّ مَـا سَـالَ مِـنْ جَـفْـنَـيَّ مِـنْ جَـلَـدِي[٤]

فَـأَيْـنَ مِـنْ زَفَـرَاتِـي مَـنْ كَـلِـفْـتُ بِـهِ
وَأَيْـنَ مِـنْـكَ ابْـنَ يَـحْـيَـى صَـوْلَـةُ الأَسَـدِ[٥]

---

(١) الكمد: الحزن المكتوم. يُعاني الشاعر شوقاً عظيماً إلى أحبَّته، ومع ذلك فإنه لا يكفيه بما هو عليه بل إنه يودّ لو يُحرق كبده ويسلب منه عقله حتى يذهب به إلى حالة من الجنون.

(٢) لقد توقّفت لغة الكلام؛ فالديار صمّاء خرساء لا تُحسن نطقاً ولا تعي جواباً لما يُخاطبها به، وما يزيد ألم الشاعر أنه يُخفي ألمه وشوقه فلا يبيح لأحد بسرّ قلبه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. هزيم الرعد: صوته. الودق: المطر المنهمر. نحل: أهزل. المشاركة الوجدانية بين ديار الحبيبة وبين الشاعر، فقد أحالتها الأمطار العنيفة عن عهدها، فبدت تعاني الهزال والضعف كما حلّ بالشاعر من سوء الحال حتى نزل بجسده الهزال والضعف.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٥. فاض: زاد وطمى. غاض: نقص. المصطبر: الصبر. الجلد: الاحتمال. ولقد ارتبط عدم صبر الشاعر بفيضان دموعه التي تغطّي وجنتيه فتقضي على ما بقي من قوة الاحتمال لديه فينتشي شوقه.

(٥) الزفرات: الأنفاس الحارَّة. كلف: تعلّق قلبه. أين تفيد الاستبعاد. لقد بعُدت الشُّقّة بين الشاعر وبين من هام بها، فتركت في نفسه ألماً يعصر قلبه، فهي لا تسمع ولا تُجيب نداءه، ثم يتخلص إلى مدح ممدوحه فجولته على أعدائه تفوق صولة الأسد في غِيله.

لَـمَّـا وَزَنْـتُ بِـكَ الـدُّنْـيَـا فَـمِـلْـتَ بِـهَـا
وَبِـالْـوَرَى قَـلَّ عِـنْـدِي كَـثْـرَةُ الْـعَـدَدِ (١)

مَـا دَارَ فـي خَـلَـدِ الأَيَّـامِ لِـي فَـرَحٌ
أبـا عُـبَـادَةَ حـتـى دُرْتَ فـي خَـلَـدِي (٢)

مَـلْـكٌ إذَا امْـتَـلأَتْ مـالاً خَـزَائِـنُـهُ
أذَاقَـهَـا طَـعْـمَ ثُـكْـلِ الأمِّ لِـلْـوَلَـدِ (٣)

مَـاضِـي الْـجَـنَـانِ يُـرِيـهِ الْـحَـزْمُ قَـبْـلَ غَـدٍ
بِـقَـلْـبِـهِ مَـا تَـرَى عَـيْـنَـاهُ بَـعْـدَ غَـدِ (٤)

مَـا ذَا الْـبَـهَـاءُ وَلَا ذَا الـنُّـورُ مِـنْ بَـشَـرٍ
وَلا الـسَّـمَـاحُ الَّـذِي فِـيـهِ سَـمَـاحُ يَـدِ (٥)

أَيُّ الأَكُـفِّ تُـبَـارِي الـغَـيْـثَ مَـا اتَّـفَـقَـا
حـتـى إذَا ٱفْـتَـرَقَـا عَـادَتْ وَلَـمْ يَـعُـدِ (٦)

---

(١) الورى: البشر. لقد راح الشاعر يزين فضل ممدوحه ورجاحة عقله وسمو خلقه في كفّه ثم وضع سائر البشر في الكفّة الأخرى فرجحت كفّة الممدوح، ممّا يكشف على أن العدد لا يُقاس بكثرته قياساً على رجاحة الفرد المميّز.

(٢) الخلد: القلب والروع والبال. يروي الشاعر قصته مع الزمن المعاند وهو دائم البحث عن إبعاد شبح الفقر وسوء الطالع حتى عثر على من بيده السرور والسعادة إنه أبو عبادة ممدوحه.

(٣) الثكل: فقد الأم ولدها. إن الممدوح ملك يقسو قلبه على أمواله فينفقها في سبيل رفعة شأنه، فإذا بأمواله كأم فقدت ولدها، والفارق بينهما أن الأم تبكي ولدها بألم، بينما يعطي الممدوح من أمواله وهو في غاية الرضى والسرور يطفح في قلبه وأساريره.

(٤) الماضي: النافذ. الجنان: القلب. الحزم: ضبط الرجل أمره وأخذه بالثقة. يصف الشاعر ممدوحه، إنه ثابت القلب في الملمات يأخذ الأمور بجدّ فلا يتوانى ويهمل أمور دولته، وهو يتمتّع بحدْس وإلهام وبعد نظر فيستبق الأحداث بالتصدّي لها قبل وقوعها؛ وذلك من أسباب نجاحه في إدارة شؤون مملكته.

(٥) ومن مغالاة الشاعر أن جعل جمال خلْق وخُلُق ممدوحه لا يُوجد في البشر، وحتى كرمه ليس كرماً عادياً وإنما هو بحر طام وغيث عميم يُفيضه على مريديه وأتباعه.

(٦) تُباري: تُجاريه وتُسابقه. من خلال سؤال الشاعر يريد أن يُعلن عن حقيقة ممدوحه، =

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ المَجْدَ مِنْ مُضَرٍ
حَتَّى تَبَحْتَرَ فَهْوَ اليَوْمَ مِنْ أُدَدِ(١)

قَوْمٌ إذَا أَمْطَرَتْ مَوْتاً سُيُوفُهُمُ
حَسِبْتَهَا سُحُباً جادَتْ عَلَى بَلَدِ(٢)

لَمْ أُجْرِ غايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ
إلَّا وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ الأبَدِ(٣)

كن كالموت لا يرثي لباك

يمدحه أيضاً:

[الوافر]

أُحَادٌ أَمْ سُدَاسٌ فِي أُحَادِ
لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بالتَّنَادِي(٤)

= فالغيث لا يقدر على مجاراة ممدوحه، ذلك أن فيض الأمطار مرتبط بزمن محدّد ثم ينقطع لتدور دورة الزمن، بينما غيث ممدوحه لا يرتبط بزمن معين أو بظرف محدّد، بل إنه لا ينقطع أصلاً باستمرار.

(١) هو مضر بن نزار بن معد بن عدنان: جدّ جاهلي، من سلسلة النسب النبوي. تبحتر: انتسب إلى بُحتر، أحد أفخاذ طيّئ من عرب اليمن. أدد هو أدد بن زيد بن يشجب بن عريب الكهلاني، من قحطان؛ جدّ جاهلي، بنوه طيّئ والأشعريّون ومذحج ومرّة. ينوّه الشاعر بمكانة الملك في بني قومه، إنه سبب علوّ شأنهم، فأدد موئل الأمجاد بفضل ابنها البارّ سادت قبائل قحطان، حتى إنها انتزعت المجد من مضر سيادتها.

(٢) يمدح الشاعر قبيلة الملك فيهم أبطال مغاوير سيوف تمطر دماء أعدائهم، فإذا ببلد عدوهم تغطّيه سحابة الموت لكثرة إمعانهم بأعدائهم تقتيلاً.

(٣) ومن مغالاة الشاعر في مخاطبته ممدوحه، أنه يُديم البحث في مزاياه وفضائله، فلم يقع لديه إلّا وجد الغاية في أكمل صورها وأبعد مداها.

(٤) ورد البيت في: مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٤٧، ٦٥٤، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١، ٩٨، ١٥٦. المنوطة: المرتبطة. التنادي: يوم القيامة والحشر. يلجأ الشاعر في مطلع قصيدته إلى الإبهام والغموض للفت نظر ممدوحه إلى عبقريته لدى ذكره الأعداد، والليلة هذه تذكر بيوم الحشر، فثمّة أحداث عظام ستحدث.

كَــأنَّ بَــنــاتِ نَــعْــشٍ فــي دُجَــاهــا
خَــرائِــدُ سَــافِــرَاتٌ فِــي حِــدَادِ[١]
أُفَــكِّــرُ فِــي مُــعَــاقَــرَةِ الــمَــنَــايَــا
وَقَــوْدِ الْــخَــيْــلِ مُــشْــرِفَــةَ الــهَــوَادِي[٢]
زَعِــيــمٌ لِــلْــقَــنَــا الْــخَــطِّــيِّ عَــزْمِــي
بِــسَــفْــكِ دَم الْــحَــوَاضِــرِ وَالــبَــوَادي[٣]
إلَــى كَــمْ ذَا الــتَّــخَــلُّــفُ وَالــتَّــوَانِــي
وَكَــمْ هٰــذَا الــتَّــمَــادِي فِــي الــتَّــمَــادِي[٤]
وَشُــغْــلُ الــنَّــفْــسِ عَــنْ طَــلَــب الــمَــعَــالــي
بِــبَــيْــعِ الــشِّــعْــرِ فِــي سُــوقِ الْــكَــسَــادِ[٥]
وَمَــا مَــاضِــي الــشَّــبَــابِ بِــمُــسْــتَــرَدٍّ
وَلَا يَــوْمٌ يَــمُــرُّ بِــمُــسْــتَــعَــادِ[٦]

---

(١) بنات نعش: كواكب في السماء. الدجى: الظلمة. الخرائد، الواحدة خريدة: الأبكار من الفتيات أو النساء الحيّات الدائمات السكون. سافرات: كاشفات عن وجوههن. يصف الشاعر تلك الليلة التي لفّها الحزن برداء أسود، فالظلمة تسيطر على الكون، وبنات نعش ترسل أنوارها خافتة تنمّ عن حزن، وكأنهن فتيات كاشفات عن وجوههن لفّهنّ بنقاب الحزن.

(٢) معاقرة: ملازمة. المنايا: الموت، ويقصد بذلك الحرب. مشرفة الهوادي: طوال الأعناق. لقد أرّق الشاعر أمر جلل، إنه يُفكّر بالحروب وأهوالها وقصد الأعداء في ميادين القتال بجياد لديها شوق إلى خوض المنايا.

(٣) زعيم: كفيل. الخطي: الرمح المصنوع في خط هجر، موضع في اليمامة. الحواضر، المفرد حاضرة: سُكنى الحضر. البوادي: الصحاري. يتمثل في قول الشاعر حقد دفين ولؤم طبع؛ إنه كفيل بقتل ساكني المدن والقرى والصحاري، إنها رعونة الادعاء الممقوت والكاذب.

(٤) يلوم الشاعر نفسه عن التقصير بالمبادرة إلى تنفيذ عزمه، ويستحثها على النهوض إلى المجد، فالتواني مرض المتردّدين، والتمادي في ذلك عين الجبن والضعف.

(٥) و (٦) الكساد: عدم رواج السلع المعروضة للبيع. يرى الشاعر أن طلب المعالي ميدانه =

مَتَى لَحَظَتْ بَيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي
فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا في السَّوَادِ (١)

مَتَى مَا ازْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التَّنَاهِي
فَقَدْ وَقَعَ ٱنْتِقَاصِي في ٱزْدِيَادِي (٢)

أَأَرْضَى أَنْ أَعِيشَ وَلَا أُكَافِي
عَلَى مَا لِلأَمِيرِ مِنَ الأَيَادِي (٣)

جَزَى ٱللَّهُ المَسِيرَ إِلَيْهِ خَيْراً
وإنْ تَرَكَ المَطَايَا كَالمَزَادِ (٤)

فَلَمْ تَلْقَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ عَنْسِي
وَفِيهَا قُوتُ يَوْمٍ لِلْقُرَادِ (٥)

= لا يكون في تجارة الشعر، فكساده مضمون لدى الممدوحين، وذلك مضيعة للوقت والعمر، وميدانه الحقيقي ساحات الحروب. ومهما امتدّ بالمرء العمر فلا بدّ من الهلاك ذات يوم، والشباب سرعان ما يمضي والأيام لا تُستعاد؛ فالشباب سانحة القوّة والعزم فإذا رحل عن صاحبه حلّت مكانه شيخوخة مملّة وضعف قاتل.

(١) و (٢) الشيب مقدّمة الضعف والأفول، والشاعر دائم النظر إلى حاله، والعمر خطواته سريعة، إنها المفاجأة شُعيرات بيضاء تبشّر بمستقبل بغيض وضعف في القوى يُصاحبها ضعف في البصر، فرغم أن البياض لون محبّب للنفس، فإذا به كريه يُحيل السواد إلى بياض مقيت، وإذا بالنظر يضعف وتستكين قوى المرء؛ إنها رحلة عسيرة، فكلما تقدم الإنسان في العمر تناهى في الضعف والتلاشي.

(٣) يتخلّص الشاعر إلى مدح الأمير، إنه لا يقبل على نفسه أن يكون جحوداً ناكراً للجميل وقد نعم بعطاياه وكرمه وقد أسدى إليه سالف النعم وجزيل الكرم.

(٤) و (٥) المزاد، الواحدة مزادة: قربة الماء، يدعو الشاعر لممدوحه بعميم الخير، ورغم بعد المسافة التي تفصلهما عن بعضهما، فقد أدّى ذلك إلى ضعف المطايا التي تحمله إلى ممدوحه؛ فقد نفد الماء والزاد ودبّ الهزال بمطيّته فبدت كقُربة الماء الفارغة بسبب الضنك والهزال اللذين حلّا بها فلم يعد ما يُقيم أودها فيها من دماء للقُراد الطّفيلي يمتصّه منها، وأخيراً حطّت رحالها في كنف الأمير رغم ما هي عليه من إرهاق.

أَلَـــمْ يَـــكُ بَـــيْـــنَـــنَـــا بَـــلَـــدٌ بَـــعِـــيـــدٌ
فَـــصَـــيَّـــرَ طُـــولَـــهُ عَـــرْضَ الـــنِّـــجَـــادِ[١]
وَأَبْـــعْـــدَ بُـــعْـــدَنَـــا بُـــعْـــدَ الـــتَّـــدَانِـــي
وَقَـــرَّبَ قُـــرْبَـــنَـــا قُـــرْبَ الْـــبِـــعَـــادِ[٢]
فَـــلَـــمَّـــا جِـــئْـــتُـــهُ أَعْـــلَـــى مَـــحَـــلِّـــي
وَأَجْـــلَـــسَـــنِـــي عـــلـــى الـــسَّـــبْـــعِ الـــشِّـــدَادِ[٣]
تَـــهَـــلَّـــلَ قَـــبْـــلَ تَـــسْـــلِـــيـــمِـــي عَـــلَـــيْـــهِ
وأَلْـــقَـــى مَـــالَـــهُ قَـــبْـــلَ الْـــوِسَـــادِ[٤]
نَـــلُـــومُـــكَ يَـــا عَـــلِـــيُّ لِـــغَـــيْـــرِ ذَنْـــبٍ
لأَنَّـــكَ قَـــدْ زَرَيْـــتَ عَـــلَـــى الـــعِـــبَـــادِ[٥]
وَأَنَّـــكَ لَا تَـــجُـــودُ عَـــلَـــى جَـــوَادٍ
هِـــبَـــاتُـــكَ أَنْ يُـــلَـــقَّـــبَ بِـــالْـــجَـــوَادِ[٦]

---

(١) النجاد: حمائل السيف. لقد تقلّصت المسافات الشّاسعة التي تفصل الشاعر عن ممدوحه، فإذا به أمامه لم يفصل بينهما إلّا حمائل السيف لشدّة قربهما.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. لقد تلاشت المسافات التي تفصل الشاعر عن ممدوحه؛ فإذا بالبعد يتحوّل قرباً مكانياً وجدانياً، فالرؤية تُقرّب بين القلوب.

(٣) السبع الشدّاد: السماوات السبع المحكمة الصنع. ومن عظيم تكريم الممدوح للشاعر أنه أحسن وفادته وحلّه في المكان الأسمى إذ بوّأه السبع الشداد زيادة في تكريمه.

(٤) تهلّل: أشرق وجهه بِشراً وسعادة. الوساد، الواحدة وِسادة: ما يُتّكأ عليه من محشو الطنافس. ومن كرم ضيافة الممدوح البِشر فإذا بوجهه يتلألأ ضياءً وابتساماً بمقدم الشاعر، فقرّبه منه مجلساً ووفّر له متّكأً.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٣٠٣. زريت: حقّرت. ومن أسباب لوم الشاعر لممدوحه أنه حقّر أفعال غيره بحسن أفعاله وسموّ أخلاقه، ففاقهم في كلّ شيء ممّا يجعله يستحقّ مديحاً يسمو به على معاصريه.

(٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٠٣، دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٣١. جاد: تكرّم. الهبات: العطايا. إنه السباق في الفضائل؛ فالمباراة بين الممدوح وغيره، أنه يُعطي بغير حساب، فحتى من يُلقّب بالجواد يعجز عن اللحاق بالممدوح لتقصيره عن ذلك. فيقعد وقد أنهكته المحاولة.

كَـأَنَّ سَـخَـاءَكَ ٱلْإِسْـلَامُ تَـخْـشَـى
إِذَا مَـا حُـلْـتَ عَـاقِـبَـةَ ارْتِـدَادِ (١)

كـأَنَّ الـهَـامَ فـي الـهَـيْـجَـا عُـيُـونٌ
وَقَـدْ طُـبِـعَـتْ سُـيُـوفُـكَ مِـنْ رُقَـادِ (٢)

وَقَـدْ صُـغْـتَ الأسِـنَّـةَ مِـنْ هُـمُـوم
فَـمَـا يَـخْـطُـرْنَ إِلَّا فِـي فُـؤَادِ (٣)

وَيَـوْمَ جَـلَـبْـتَـهَـا شُـعْـثَ الـنَّـوَاصِـي
مُـعَـقَّـدَةَ الـسَّـبَـاسِـبِ لِـلـطِّـرَادِ (٤)

وَحَـامَ بِـهَـا الـهَـلَاكُ عَـلـى أُنَـاسٍ
لَـهُـمْ بِـالـلَّاذِقِـيَّـةِ بَـغْـيُ عَـادِ (٥)

فَـكَـانَ الـغَـرْبُ بَـحْـراً مِـنْ مِـيَـاهٍ
وَكَـانَ الـشَّـرْقُ بَـحْـراً مِـنْ جِـيَـادِ (٦)

---

(١) السخاء: الكرم. الارتداد: العودة إلى الكفر بعد الإسلام. يُشبّه الشاعر كرم ممدوحه بأنه لا يرتدّ عنه؛ هو مسلم حقًّا وصدقاً لهذا لا يرتدّ عن دينه إلى الكفر بعد الإيمان، وكذلك لا يُخلف وعداً إذا وعد ولا يتراجع عنه.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٤. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الهيجاء: الحرب. الرقاد: النوم. يُشبّه الشاعر سيوف ممدوحه بالرقاد ورؤوس أعدائه بالعيون التي يُحتّم عليهم بإغماضة أبدية تودي بهم إلى موت مؤكّد.

(٣) الأسنّة: الحراب. ويُردف الشاعر واصفاً فِعال ممدوحه؛ إنه صانع ماهر يصوغ الأسنة من مادة خارقة للحواجز؛ إنها هموم تحطّ الرحال في قلوب أعدائه، فتميتهم كمداً وحسرة وحرقة حسداً وغيرة.

(٤) جلبتها: جئت بها أي بالخيل. شُعْث: مغبرّة. النواصي، الواحدة ناصية: مقدّمة شعر الرأس. السباسب: شعر العرف والذنب. يُذكر الشاعر بانتصاره وقد أعدّ له عدّته؛ خيولاً مجرّبة بالحروب، وقد كلّلت الأغبرة رؤوسها وعُقِدت سباسبها لتسهل حركتها في ميدان القتال في صولتها وجولتها فتواصل مواصلة الاندفاع إلى حيث يوجّهها.

(٥) و (٦) حام: جال. البغي: الظلم والعدوان. عاد: من قبائل العرب البائدة قبل الإسلام، ورد ذكرها في القرآن الكريم. يصوّر الشاعر جوّ المعركة ومكانها، هي =

وَقَـدْ خَـفَـقَـتْ لَـكَ الـرَّايَـاتُ فِـيـهِ
فَـظَـلَّ يَـمُـوجُ بِـٱلْـبِـيـضِ الْـحِـدَادِ[١]
لَـقُـوكَ بِـأَكْـبُـدِ الإِبِـلِ الأَبَـايَـا
فَـسُـقْـتَـهُـمُ وَحَـدُّ الـسَّـيْـفِ حَـادِ[٢]
وَقَـدْ مَـزَّقْـتَ ثَـوْبَ الْـغَـيِّ عَـنْـهُـمْ
وَقَـدْ أَلْـبَـسْـتَـهُـمْ ثَـوْبَ الـرَّشَـادِ[٣]
فَـمَـا تَـرَكُـوا الإِمَـارَةَ لاِخْـتِـيَـارٍ
وَلَا انْـتَـحَـلُـوا وِدَادَكَ مِـنْ وِدَادِ[٤]
وَلَا اسْـتَـفَـلُـوا لِـزُهْـدٍ فـي الـتَّـعَـالِـي
وَلَا انْـقَـادُوا سُـرُوراً بِـانْـقِـيَـادِ[٥]
وَلَـكِـنْ هَـبَّ خَـوْفُـكَ فـي حَـشَـاهُـمْ
هُـبُـوبَ الـرِّيـحِ فِـي رِجْـلِ الْـجَـرَادِ[٦]

= اللاذقية إحدى مدن بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. لقد نزل بسكّان المدينة بحر طام من جند الأمير بأسلحتهم وخيولهم، فبدا جيش كالبحر من شرق المدينة يُطيف بالناس هلاكاً ودماراً يُعاضده بحر مائي يحمل الموت لمن لا يقدر على السباحة إن حاول الفرار إلى الأعماق؛ ذلك جزاء البغاة الظلمة على عصيانهم وبغيهم.

(١) خفقت: رفرفت. الرايات، الواحدة راية: الأعلام، البنود. البيض: السيوف. الحداد: الرقاق. لقد ارتفعت الرايات مرفرفة شامخة معلنة عن انتصار ساحق يعاضدها سيوف تقطع الرقاد جادّة لا تعرف الرحمة؛ إنه بحر مضطرب يتحرّك ويموج بعنف.

(٢) و (٣) الأبايا: الممتنعة التي تركب رأسها عِناداً. لم يكن جيش العصاة سهل المنال، فقد عزموا على القتال بقلوب قاسية وأكباد جافية، ورغم ذلك فقد قدر الممدوح على قهرهم وجرّهم إلى الطاعة بفضل سيوف تقطع الرقاب وتقصف الأعمار بعد ما كانوا قد شقُّوا عصا الطاعة، فإذا بهم يلوذون بالطاعة له مرغمين.

(٤) إن أعداء الأمير لم يخضعوا له راغبين، ولكنهم أذعنوا لإرادته مرغمين فتنازلوا له عن الإمارة، وقد ادّعوا حبّه، وفي الحقيقة أنهم كاذبون لا يُخلصون لك الحبّ.

(٥) و (٦) استفلوا: انحطّوا من مكانتهم العالية إلى حضيض الطاعة. لقد تنازل القوم عن غلوائهم وتخلَّوْا عن مكانتهم ورفعتهم، فلم ينقادوا طائعين ومؤثرين السلامة ولكنهم =

وَمَاتُوا قَبْلَ مَوْتِهِم فَلَمَّا
مَنَنْتَ أَعَدْتَهُمْ قَبْلَ المَعَادِ(١)
غَمَدْتَ صَوَارِماً لَوْ لَمْ يَتُوبُوا
مَحَوْتَهُمُ بِهَا مَحْوَ المِدَادِ(٢)
وَمَا الْغَضَبُ الطَّرِيفُ وَإنْ تَقَوَّى
بِمُنْتَصِفٍ مِنَ الْكَرَمِ التِّلَادِ(٣)
فَلَا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوَالٍ
تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أعَادِي(٤)
وكُنْ كَالمَوْتِ لَا يَرْثِي لِبَاكٍ
بَكَى مِنْهُ وَيَرْوَى وَهْوَ صَادِ(٥)
فَإنَّ الْجُرْحَ يَنْفِرُ بَعْدَ حِينٍ
إذَا كَانَ الْبِنَاءُ عَلَى فَسَادِ(٦)

= انحططت بهم هممهم فذلوا وقد امتلأت قلوبهم ونفوسهم خوفاً ورعباً فتشتتت جموعهم وتفرّق شملهم كما يفعل الريح العاتي بالجراد فيبعثره في كلّ مكان.

(١) نتج عن هذا الانتصار موت نفسي، فانكسرت شوكتهم، ولقد عمل الممدوح على بعثهم من جديد فمنّ عليهم بالحياة من جديد قبل الممات العدمي والبعث من رِقدة الموت.

(٢) غمد السيف: وضعه في غمده. الصوارم، الواحد صارم: السيف القاطع. المداد: الحبر. لقد عفا الممدوح عن مناوئيه عفوَ القادر مقابل توبتهم وإذعانهم فأعاد السيوف إلى أغمادها، ولو لم يتوبوا ويعف عنهم لقضى عليهم بسهولة وسرعة كما يُمحى المداد.

(٣) الطريف: المستحدث. انتصف: استرد واستوفى حقّه. التلاد: الموروث. يعلّل الشاعر موقف كلا المعسكرين؛ فالهزيمة تُبقي صداها في النفوس تحثّهم على الانتقام ممن عفا عنهم يتحيّنون الفرص للانقضاض عليه إن استطاعوا وهم يودّون الاقتصاص والانتصاف من كاسر شوكتهم. ومعسكر الممدوح حليم قادر يعفو ويغفر.

(٤) الموالي: الصاحب والصديق. يُحذّر الشاعر ممدوحه من أعداء الأمس؛ إنهم يتقرّبون منه بحلو الحديث والتظاهر بالإذعان مرغمين، وفي قلوبهم أضغان وحسد يُحرق الأخضر واليابس.

(٥) و (٦) يرثي: يرحم. يروى: يرتوي. الصادي: العطشان. ينبّه الشاعر ممدوحه من أعدائه أن يبقى حذراً وألّا يعرف قلبه الرحمة بهؤلاء تماماً كالموت الذي يصطفي =

وَإِنَّ الـــمَـــاءَ يَـــجْـــرِي مِـــنْ جَـــمَـــادٍ
وَإِنَّ الـــنَّـــارَ تَـــخْـــرُجُ مِـــنْ زِنَـــادِ(١)
وَكَـيْـفَ يَـبِـيـتُ مُـضْـطَـجِـعاً جَـبَـانٌ
فَـرَشْـتَ لِـجَـنْـبِـهِ شَـوْكَ الْـقَـتَـادِ(٢)
يَـرَى فِـي الـنَّـوْمِ رُمْـحَـكَ فِـي كُـلاَهُ
وَيَـخْـشَـى أَنْ يَـرَاهُ فِـي الـسُّـهَـادِ(٣)
أَشَـرْتُ أَبَـا الْـحُـسَـيْـنِ بِـمَـدْحِ قَـوْمٍ
نَـزَلْـتُ بِـهِـمْ فَـسِـرْتُ بِـغَـيْـرِ زَادِ(٤)
وَظَـنُّـونِـي مَـدَحْـتُـهُـمْ قَـدِيـمـاً
وَأَنْـتَ بِـمَـا مَـدَحْـتُـهُـمْ مُـرَادِي(٥)

= الخلائق ولا تأخذه بأحدهم رحمة، لأن في ذلك فساد قانون صارم لا يحيد ولا يتوقّف عن عمله الذي من أجله كان، فالعطش الدائم يفجع البشر بأحبابهم ديدنه، ومن الحقائق أن الكراهية لا تنمحي من قلوب البشر، وبخاصة أن النفوس مبنية على غش وفساد في طبيعتها.

(١) الجماد: الصخر. الزناد، الواحد زند: العود الذي تُقدح به النار. يعبّر الشاعر عن حقيقة مفادها أن الأشياء تختبئ وراء مظاهر مصطنعة يتوهّم المرء أنها موانع لا تكشف عنها حقائق الأشياء، فالصخور مهما كانت قوية لا بدّ للمياه من أسباب تفجّرها من بين تلك الصخور الصمّاء الصلبة، فإذا ما توفّرت تفجّرت مياه عذبة، وكذلك النيران فإن مبعثها الزناد الضعيف الصغير، فيقضي على غابة غنّاء بلحظات.

(٢) و (٣) القتاد: ضرب من شجر شوكي. يضرب الشاعر لممدوحه الأمثال تلو الأمثال ليحذر عدوّه، لذا عليه أن يتنبّه من نوم الثعالب، إنها تتغافل وتتناوم بعين وتفتح عيناً علّها تنتهز فرصة لتنقضّ وتنفض عن نفسها ما ألمّ بها من أشواك الهزيمة، ولا يزال يُحسّ ألم أسلحته في كلاه وجراحه، ومن شدّة خوفه يتصوّر ذلك في أحلامه المصبوغة بلون الدمّ، فإذا ما سنحت له فرصة انقضّ انقضاض الصاعقة ففتك وانتصف لنفسه من عدوّه.

(٤) و (٥) أشرت: فرحت. يُخبر الشاعر ممدوحه أبا الحسين أنه مدح قوماً نزولاً عند رغبة ممدوحه، فما جازَوْه وأكرموه بما يستحقّه من إكرام، فعاد لا يحمل من عطاياهم، وذلك إمّا لأنّهم لا يقدّرون الشعر ويتذوقونه وإما لغفلتهم أو بخلهم، والحقيقة أنه كان يمدحهم وكان يعني بذلك المدح ممدوحه.

وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَغَادٍ
وَقَلْبِي عَنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِ[(١)]
مُحِبُّكَ حَيْثُمَا اتَّجَهَتْ رِكَابِي
وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ[(٢)]

وحيد بني آدم

يمدح أبا الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني وهو يومئذٍ يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨هـ ٩٣٩م:

[المتقارب]

أَحُلْماً نَرَى أَمْ زَمَاناً جَدِيدَا
أَمِ الْخَلْقُ فِي شَخْصِ حَيٍّ أُعِيدَا[(٣)]
تَجَلَّى لَنَا فَأَضَأْنَا بِهِ
كَأَنَّا نُجُومٌ لَقِينَا سُعُودَا[(٤)]
رَأَيْنَا بِبَدْرٍ وَآبَائِهِ
لِبَدْرٍ وَلُوداً وَبَدْراً وَلِيدَا[(٥)]

---

(١) و (٢) غادٍ: ذاهب في الغداة. الفِناء، بكسر الفاء: ما امتدّ من جوانب الدار. يُعلن الشاعر عن عزمه على الارتحال عن الأمير في صباح اليوم التالي، مؤكداً على أنه حيثما ذهب وحلّ في مكان أنه يُحبّ ممدوحه ويُخلص له الودّ ومهما نأت به الديار فإنه في ضيافته وبلاده.

(٣) و (٤) يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة مقرّراً أنه يرى شيئاً لم يكن معهوداً في ما مضى، أهو حلم أم زمن جديد وعهد لم يعرفوا مثله في الماضي؟ أو أن الأموات قد بُعِثوا شخصاً جديداً يجمع كلّ الفضائل الحميدة لأجيال مضت، إنه شخص ماثل بلحمه ودمه، قد استضاء به قومه، فإذا بموكب من نور وطالع سعد قد تولّدت أنواره كأنها نجوم سعد تُنير السماء.

(٥) ولوداً: والداً. وليداً: مولوداً. البدر: القمر عند اكتماله. بدأ الشاعر مدحه لبدر، إنه قمر في عليائه وسموه وأنسه وبهائه ورقّته وحنانه يُنير ظلمة حياة مواطنيه بكرم أخلاقه وكرم ذات يده، وهو ابن أبيه، ولا يُولد قمر إلّا من قمر صفة وفضلاً.

طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرْكِ الَّذِي
رَضِينَا لَهُ فَتَرَكْنَا السُّجُودَا[١]
أَمِيرٌ أمِيرٌ عَلَيْهِ النَّدَى
جَوَادٌ بَخِيلٌ بِأَنْ لا يَجُودَا[٢]
يُحَدَّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهاً
كأنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْباً حَسُودا[٣]
وَيُقْدِمُ إلَّا عَلَى أَنْ يَفِرَّ
وَيَقْدِرُ إلَّا عَلَى أَنْ يَزِيدَا[٤]
كأَنَّ نَوَالَكَ بَعْضُ الْقَضَاءِ
فَمَا تُعْطِ مِنْهُ نَجِدْهُ جُدُودَا[٥]
وَرُبَّتَمَا حَمْلَةٍ فِي الْوَغَى
رَدَدْتَ بِهَا الذُّبَّلَ السُّمْرَ سُودَا[٦]

---

(١) لا يكون السجود إلّا عن خضوع بالإكراه أو بالمحبّة، لم يرض الممدوح أن يسجد الشاعر له لذا تخلّى عن عزمه ذلك لقاء محبَّة له وطلباً لرضاه.

(٢) الندى: الكرم. جواد: كريم. إن الممدوح أمير بحقّ، فيه تتجلّى الإمارة بأجلى صورها مهابة وقوّة وكرماً، إنه كريم جواد مِعطاء، وهو يكره أن يكون بخيلاً في ميدان الكرم.

(٣) ومن مزايا الممدوح أنه يكره أن يسمع المديح الصادق في شخصه مخافة أن يحسده قلبه على ما يتمتّع به من الفضائل الحميدة.

(٤) ومن كريم طباع الممدوح أنه شجاع يُقدم على فعل كل ما يرفع من شأنه وقدره باستثناء الفرار من المعركة. ومن شأنه ميله إلى التواضع، وتلك أجمل مزايا القوّاد في الأمم، إنه عالي الهمّة يُقدم بقلب ملؤه العزم والقوّة ليبلغ أعلى مراتب الحياة في شتّى مظاهرها، وهو لا يبغي وراء ذلك شيئاً.

(٥) النوال: العطاء. الجدود، الواحد جَدّ، بفتح الجيم: الحظوظ. يُشبه الشاعر عطاء ممدوحه بأنه جزء من القضاء الإلهي، فعطاؤه مقدّر لمن كُتب له السعد وحسن التوفيق.

(٦) الوغى: الحرب. الذبل السمر: الرماح. يصف الشاعر ممدوحه بالقوّة والشجاعة؛ إنه كثير الغارة على أعدائه؛ فكثيراً ما أصدر رمحه إلى قلوب أعدائه ثم استرده وقد غطّته دماؤهم التي جفّت فبدا أسود كأنه تدثر برداء أسود.

وَهَــوْلٍ كَــشَــفْــتَ وَنَــصْــلٍ قَــصَــفْــتَ
وَرُمْــحٍ تَــرَكْــتَ مُــبَــاداً مُــبِــيــدَا[١]
وَمَــالٍ وَهَــبْــتَ بِــلَا مَــوْعِــدٍ
وَقِــرْنٍ سَبَــقْــتَ إلَــيْــهِ الْــوَعِــيــدَا[٢]
بِــهَــجْــرِ سُــيُــوفِــكَ أغْــمَــادَهَــا
تَــمَــنَّــى الــطُّــلَــى أنْ تَــكُــونَ الْــغُــمُــودَا[٣]
إلَــى الْــهَــامِ تَــصْــدُرُ عَــنْ مِــثْــلِــهِ
تَــرَى صَــدَراً عَــنْ وُرُودٍ وُرُودَا[٤]
قَــتَــلْــتَ نُــفُــوسَ الْــعِــدى بِــالْــحَــدِيــ
ــدِ حَــتَّــى قَــتَــلْــتَ بِــهِــنَّ الْــحَــدِيــدَا[٥]
فَــأَنْــفَــدْتَ مِــنْ عَــيْــشِــهِــنَّ الْــبَــقَــاءَ
وَأَبْــقَــيْــتَ مِــمَّــا مَــلَــكْــتَ الــنُّــفُــودَا[٦]
كَــأَنَّــكَ بِــالْــفَــقْــرِ تَــبْــغِــي الــغِــنَــى
وَبِــالْــمَــوْتِ في الْــحَــرْبِ تَــبْــغِــي الْــخُــلُــودَا[٧]

---

(١) الهول: الفزع الأكبر، مباداً: مهلكاً. يُتابع الشاعر مشيداً بشجاعة ممدوحه إنه سبب من أسباب النصر، فهو يكشف عن أصحابه الضيق وهم يتعرّضون للهزيمة في حال نجدتهم، فلطالما كسر سيفاً وهو يضرب به بقوّة ساعده، ولطالما طوّح برمح بطعنة جبّارة اخترقت صدر عدوّه فأودت بهما معاً.

(٢) يُنوّه الشاعر بكرم ممدوحه؛ إنه وهّاب لماله بلا وعد، لأنه يستبق المحتاج موفّراً عليه الاستجداء وكسر نفسه، وهو لا يهدّد مثيله بالشجاعة بل إنه يُسارع إلى قتاله، فيكون ذلك إيذاناً بموت محتم لعدوّه.

(٣) و (٤) الطلى: الأعناق. الغمود، الواحد غمد: جفن السيف. ومن مظاهر قوّة الممدوح أن سيوفه قد هجرت أغمادها إلى الأبد، وقد وجدت بديلاً لها رؤوس أعدائه التي ترغب أن تكون أغماداً لها بدلاً من أغمادها الحقيقية، وهي تتداول الرؤوس تباعاً من رأس إلى آخر.

(٥) إن شأن الممدوح دوام القتل بأعدائه وهذا ما جعل الحديد يضعف وينبري وتفتك به أمراض الشيخوخة فيموت بدوره لكثرة استعماله.

(٦) و (٧) وتبذير الممدوح يأخذ منحيين، فعلى صعيد الشجاعة، فقد أهلك أعداءه، =

خـــلَائِـــقُ تَـــهْـــدِي إلَـــى ربِّـــهَـــا
وآيَـــةُ مَـــجْـــدٍ أَرَاهَـــا الْـــعَـــبِـــيـــدَا[١]
مُـــهَـــذَّبَـــةٌ حُـــلْـــوَةٌ مُـــرَّةٌ
حَـــقَـــرْنَـــا الْـــبِـــحَـــارَ بِـــهَـــا وَالْأُسُـــودَا[٢]
بَـــعِـــيـــدٌ عَـــلَـــى قُـــرْبِـــهَـــا وَصْـــفُـــهَـــا
تـــغـــولُ الـــظُّـــنُـــونَ وَتُـــنْـــضِـــي الْـــقَـــصِـــيـــدَا[٣]
فَـــأَنْـــتَ وَحِـــيـــدُ بَـــنِـــي آدَم
وَلَـــسْـــتَ لِـــفَـــقْـــدِ نَـــظِـــيـــرٍ وَحِـــيـــدَا[٤]

وجعل قوم يستعظمون ما قاله في آخر هذه القصيدة فقال:

[البسيط]

يَـسْـتَـعْـظِـمُـونَ أُبَـيّـاتـاً نَـأمْـتُ بِـهَـا
لا تَـحْـسُـدُنّ عـلـى أنْ يَـنْـأمَ الأسَـدَا

= فوافوا آجالهم بقتله لهم، كما أبقى خزائنه فارغة وقد أفنى ما فيها من أموال بعثرها في أتباعه وفقراء بلده. وما يدهش الشاعر أن ممدوحه يقصد ذلك عن تصميم وسبق إصرار؛ إنه يقصد غنى الصيت الحسن مدى الدهور بالتخلّي عن الأموال وإنه بخوضه غمار الحروب وقتل الصناديد من أعدائه يرغب بخلود ذكره كبطل صنديد يقهر البغاة والجبابرة لتصحيح مسار الحياة على يديه.

(١) و(٢) ينوّه الشاعر بمزايا ممدوحه؛ إنها أخلاق تدلّ على صاحبها في كرمه وحسن بلائه في الحروب، فيستلهم العبيد من السيد الحرّ فضائل يحتذون بها، وهي حُلوة تخلو من عيوب تشوّهها في عيون المحبين والذين يُقدّرون معاني البطولة الحقّة للإنسان، وهي مرّة في حلوق الجبناء والأعداء لتقصيرهم عن اللحاق بالممدوح حتى البحار تعجز عن مباراة الممدوح في كرمه والأسود في شجاعته.

(٣) تغول: تهلك. تنضي: تهزل. يعبّر الشاعر عن ضعف الشعر بالإلمام بكلّ خلال الممدوح الحميدة؛ فرغم جلائها وتلمّسها فإن الظنون تغيب عنها مدلولاتها وغايات الممدوح السامية من ورائها تخفى على الشعراء مضامينها فيحارون في وصفها.

(٤) ومن مبالغات الشاعر أن ممدوحه واحد في كلّ زمان، فلم يلد آدم سواه بعلوّ همته وطيب صفاته ولن تلد الأمهات شبيهاً له مدى الدهر.

لَـوْ أنّ ثَـمَّ قُـلُـوبـاً يَـعْـقِـلُـونَ بِـهَـا[١]
أنْسَاهُـمُ الـذُّعْـرُ مِـمّـا تَـحْـتَـهَـا الـحَـسَـدَا[٢]

ومن نكد الدنيا على الحرّ

وقال يمدحه:

[الطويل]

أَقَـلُّ فَـعَـالِـي بَـلْـهَ أكْـثَـرَهُ مَـجْـدُ
وَذَا الْـجِـدُّ فـيـهِ نِـلْـتُ أَمْ لَـمْ أَنَـلْ جَـدُّ[٣]

سَـأَطْـلُـبُ حَـقّـي بِـالْـقَـنَـا وَمَـشَـايِـخٍ
كَـأَنَّـهُـمْ مِـنْ طُـولِ مَـا الْـتَـثَـمُـوا مُـرْدُ[٤]

ثِـقَـالٍ إذَا لاَقَـوْا خِـفَـافٍ إذَا دُعُـوا
كَـثِـيـرٍ إذَا شَـدُّوا قَـلِـيـلٍ إذَا عُـدُّوا[٥]

---

(١) نأم الأسد: زأر. يردّ الشاعر على ناقديه أنهم انتقدوه مستعظمين ما صدر عنه من شعر في مرثية جدّته؛ إنها زفرة نفس قد آلمها ما حدث فإذا بها تستحيل إلى زئير أسد مجرّح الفؤاد.

(٢) ثَمَّ: ظرف مكان بفتح الثاء. ينعى الشاعر على منتقدي قِلَّة الفهم، إنهم لا يُقدّرون الشعر ولا يفهمونه، ولو عقلوه وعلموا ما يحتويه من تهديد لارتعبوا ونسوا حسدهم له.

(٣) بله: اسم فعل بمعنى دَعْ. الجِدّ، بكسر الجيم: الاجتهاد وبالفتح الحظّ. يبدأ الشاعر مدحيته بحديثه عن نفسه، إنه لا يتوانى في أمر ما فكلّ أعماله سببها أنه لا يهتمّ بالحظوظ ولا يعتمد عليها إنما يأخذ نفسه بالعزم والقوة سواء أوصل لتحقيق مبتغاه أم لم يصل، وإذا وافق الحظ مسعاه فنعمّا هو.

(٤) و (٥) اللثام: ما يوضع على الوجه من فضل العِمامة. يرسم الشاعر مسلكه في سبيل تحقيقه مبتغاه؛ وحقّه وعماده في ذلك عزمه واعتماده على نفسه في الحروب التي سيخوضها بالسلاح وإلى جانبه المجرّبون في الحروب القادرون على النصر ولا يُفارقهم اللثام فيبدو الواحد منهم أمرد لا تبدو لحيته رغم طول حقبة النضال؛ وإنهم شديدو الوطأة على عدوّهم، يثبون لدى لقاء الأعداء، صادقو الحملة، يستجيبون لداعي الجهاد؛ ورغم قلّة عددهم، فإنهم يتكاثرون إذا دعت الحاجة، فيسدّ بعضهم مسدّ كلّهم.

وَطَـعْـنٍ كـأَنَّ الـطَّـعْـنَ لَا طَـعْـنَ عِـنْـدَهُ
وَضَـرْبٍ كـأَنَّ الـنَّـارَ مِـنْ حَـرِّهِ بَـرْدُ[١]

إِذَا شِـئْـتُ حَـفَّـتْ بِـي عَـلَـى كُـلِّ سابِـحٍ
رِجَـالٌ كَـأَنَّ الـمَـوْتَ فِـي فَـمِـهَـا شَـهْـدُ[٢]

أَذُمُّ إِلَـى هٰـذَا الـزَّمَـانِ أُهَـيْـلَـهُ
فـأَعْـلَـمُـهُـمْ فَـدْمٌ وَأَحْـزَمُـهُـمْ وَغْـدُ[٣]

وَأَكْـرَمُـهُـمْ كَـلْـبٌ وَأَبْـصَـرُهُـمْ عَـمٍ
وَأَسْـهَـدُهُـمْ فَـهْـدٌ وَأَشْـجَـعُـهُـمْ قِـرْدُ[٤]

وَمِـنْ نَـكَـدِ الـدُّنْـيَـا عَـلَـى الْـحُـرِّ أَنْ يَـرَى
عَـدُوًّا لَـهُ مَـا مِـنْ صَـدَاقَـتِـهِ بُـدُّ[٥]

---

(١) ومن مبالغات الشاعر أنه يوجّه إلى أعدائه طعناً قاتلاً لا يُشبهه الطعن المعروف في الحروب العادية، وكذلك فالضرب الذي يوجهه إلى أعدائه لاهب ناري بحيث تصبح النار باردة بالنسبة لضربه.

(٢) حفّت: أحاطت. السابح: الفرس يسبح بعدوه المتّسع. الشهد: العسل. إن الشاعر لو أراد القتال لجمع الجموع فأحاطت به وهم يمتطون الجياد السريعة العدو، ويحلو لهم الموت في سبيل قضيّته. يتّضح للمرء أن الشاعر لم يذكر قضيّته التي سيقاتل ويُناضل من أجلها ويجمع الجموع. والحقيقة أن الجموع لا تبذل أرواحها إلّا في سبيل قضية عادلة تهمّهم بالدرجة الأولى أو في سبيل تحصيل المال، وكلا الحالتين لا تتوفّر للشاعر، فكيف يهدّد؟ ومن يهدّد؟ ولماذا يهدّد؟

(٣) و (٤) يتفجّر غضب الشاعر وكراهيته للزمن الذي وُجِد فيه، وينعى عليه أهل زمانه؛ إنهم أقزام لا يستحقّون الرثاء لحالهم، فالعالم فيهم غبي مَدّع عييٌّ عن الكلام لا يكاد يُفصح عمّا يجول في خاطره، حتى من يتّسم بالحزم فإنّه يُخفي تحت جلده حمقاً وخِسَّة، والكريم فيهم خسيس بخيل يدّعي الكرم وهو يخاف أن يتنفّس مخافة أن يسقط منه شيء، وحتى البصير الذي يزين الأمور بميزان الحقّ والعدل ذو القلب الكبير أعمى في نظره، وحتى من اتّصف بأنّه يسهر ويُفكر بمصالح الناس يغفل ويتناوم كالفهد الغافل المتكاسل، وحتى من يتّصف ويشتهر بالشجاعة فإنه يبدو كالقرد الذي يتّصف بالجبن وشدّة الحذر، ولا يعرف للنوم طعماً هنيئاً وقد أكل قلبه الخوف الشديد. إنه قرمطيّ بحقّ.

(٥) النكد: الحظّ السَّيّئ وسوء الطالع. لقد حكم الشاعر على الوجود بنظرة سوداوية، =

بِقَلْبِي وَإنْ لَمْ أَرْوَ مِنْهَا مَلالَةٌ
وَبِي عَنْ غَوانِيهَا وَإنْ وَصَلَتْ صَدُّ(١)

خَلِيلايَ دُونَ النَّاسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ
عَلَى فَقْدِ مَنْ أَحْبَبْتُ مَا لَهُمَا فَقْدُ(٢)

تَلَجُّ دُمُوعِي بِالْجُفُونِ كَأَنَّمَا
جُفُونِي لِعَيْنَيْ كُلِّ بَاكِيَةٍ خَدُّ(٣)

وَإنِّي لَتُغْنِينِي مِنَ المَاءِ نُغْبَةٌ
وَأَصْبِرُ عَنْهُ مِثْلَمَا تَصْبِرُ الرُّبْدُ(٤)

وَأَمْضِي كَمَا يَمْضِي السِّنَانُ لِطِيَّتِي
وَأَطْوَى كَمَا تَطْوَى المُجَلِّحَةُ العُقْدُ(٥)

= فحظّه السّيّئ وسوء طالعه أن كان في هذا الوجود وكان عليه أن يُخالط أهل زمانه ويُقيم علاقات معهم رغماً عنه، وفي نفسه ما فيها من كراهية لهم. ولقد شمل الناس جميعاً بنظر تحقير وكره وسوداوية لا ترحم.

(١) وبنظره تشاؤمية يُعبّر عمّا يعمر قلبه من كراهية للحياة ومله وما فيها من متع تحلو في عيون الكثيرين، فالغواني من النساء اللواتي اغتنين بجمالهن ويُغرين الرجال بطلب المتع يرغب الشاعر عنهن، وحتى لو رغبن بوصاله لامتنع عنهن وصدّ أبواب عواطفه وقلبه دونهن.

(٢) و (٣) الخليل: الصاحب والصديق. العَبرة، بفتح العين: الدمعة. لقد آلم الشاعر أن يفقد أحبته، ولم يصرّح عنهم، لذا حلّ محلهم الحزن والدموع بعيداً عن الناس الذين لا يُقدّرون لدمعه قيمة ولا يتأثرون لحاله لأنهم سبب عزلته فلم يفتحوا له قلوبهم؛ فإذا بدموعه تلازم جفونه كأن دموعه دائمة، كما أن الدنيا تجود بالدموع على كلّ باكية ثكلى حُرمت فِلْذة كبدها.

(٤) النغبة: الجرعة من الماء. الربد: النعام يُضرب بها المثل في الصبر على العطش. إن الشاعر يفخر بأنه صبور في الملمات، لذا تكفيه جرعة ماء رغم عطشه الشديد وهو يظمأ ويصبر على ذلك صبر النعام على شِدّة عطشه.

(٥) الطيّة: المكان المقصود. أطوي: أجوع. المجلّحة: الذئاب المصمّمة. العقد: الواحد أعقد: الملتوي الذنب. يفخر الشاعر أنه يُسارع لتحقيق رغبته كالسنان لا يلوي على شيء، كما أنه يتحمّل الجوع كذئب أنهكه الجوع، فإذا به لا يُبالي بالنتائج في هذه الحالة إذا هاجم؛ فالمهم أن يحصل على بُغيته ليسدّ جوعه.

وَأُكْـبِـرُ نَـفْـسِـي عَـنْ جَـزَاءٍ بِـغِـيـبَـةٍ
وَكـلُّ ٱغْـتِـيَـابٍ جُـهْـدُ مَـنْ مَـا لَـهُ جُـهْـدُ[١]

وَأَرْحَـمُ أَقْـوَامـاً مِـنَ الْـعِـيِّ وَالْـغَـبَـا،
وَأَعْـذِرُ فِـي بُـغْـضِـي لأَنَّـهُـمُ ضِـدُّ[٢]

وَيَـمْـنَـعُـنِـي مِـمَّـنْ سِـوَى ٱبْـنِ مُـحَـمَّـدٍ
أَيَـادٍ لَـهُ عِـنْـدِي تَـضِـيـقُ بِـهَـا عِـنْـدُ[٣]

تَـوَالَـى بِـلَا وَعْـدٍ وَلٰـكِـنَّ قَـبْـلَـهَـا
شَـمَـائِـلَـهُ مِـنْ غَـيْـرِ وَعْـدٍ بِـهَـا وَعْـدُ[٤]

سَرَى الـسَّـيْـفُ مِـمَّـا تَـطْـبَـعُ الْـهِـنْـدُ صَاحِـبِي
إلـى الـسَّـيْـفِ مِـمَّـا يَـطْـبَـعُ ٱللَّـهُ لَا الـهِـنْـدُ[٥]

---

(١) الغيبة: الوقوع في أعراض الناس. الجهد: القدرة والاحتمال. يفخر الشاعر أنه لا يتعرّض لاغتياب عدوّه لرفعته عن تلك الرذيلة، وهو قادر على مجابهته ومحاربته إذا لزم الأمر، والاغتياب طبيعة الجبناء الضعفاء.

(٢) العيّ: الحصر والعجز عن النطق. الغبا، بتخفيف الهمز: الغباء، قلّة الفطنة. ينوّه الشاعر بسعة صدره وحلمه، إنه يرحم الضعفاء الذين أعياهم مرض العي، وسمّم عقولهم الجهل والغباء، إنهم على نقيض ما عليه الشاعر من شدّة الذكاء والفطنة وقوّة الحجة وبلاغة المنطق.

(٣) الأيادي البيضاء: النعم. يتخلّص الشاعر إلى ممدوحه بعد مقدمة قد لا يقبلها ممدوح. فالذي يمنعه من التوجّه إلى غير الممدوح عطاياه الكثيرة وأياديه البيضاء التي يعجز عن حصرها القلم لكثرتها إذ لا يحيط بها اللفظ مهما اتّسعت مدلولاته وتوفّرت أساليب حصره.

(٤) يروى «توالت» بدلاً من «توالى». الشمائل: الأخلاق. ولشدّة كرم الممدوح فإنه يُسارع إلى إرسال النعم إلى الشاعر في شتّى المناسبات دون وعود مسبقة؛ وهذا ما عُرف عنه من شمائل رفيعة تنمّ عن كرم أصيل فيه ونبل خلق رفيع يتمتّع به.

(٥) سرى: مشى ليلاً. يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه؛ فقد صاحب السيف المطبوع في الهند قاصداً سيفاً من صناعة إلهيّة ترعاه عناية اللّه لا من قناعة البشر.

فَلَمَّا رَآنِي مُقْبِلاً هَزَّ نَفْسَهُ
إِلَيَّ حُسَامٌ كُلُّ صَفْحٍ لَهُ حَدُّ(١)

فَلَمْ أَرَ قبْلِي مَنْ مَشَى الْبَحْرُ نَحْوَهُ
وَلَا رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأُسْدُ(٢)

كَأَنَّ الْقِسِيَّ الْعَاصِيَاتِ تُطِيعُهُ
هَوًى أَوْ بِهَا فِي غَيْرِ أُنمُلِهِ زُهْدُ(٣)

يَكَادُ يُصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمْيِهِ
وَيُمْكِنُهُ في سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرَّدُّ(٤)

وَيُنْفِذُهُ في الْعَقْدِ وَهْوَ مُضَيَّقٌ
مِنَ الشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ(٥)

بِنَفْسِي الَّذِي لَا يُزْدَهَى بِخَدِيعَةٍ،
وَإِنْ كَثُرَتْ فِيهَا الذَّرَائِعُ وَالْقَصْدُ(٦)

---

(١) يصف الشاعر لقاء الممدوح، لقد سارع ما إن رأى الشاعر مرحباً فاهتزت أعطافه وانفرجت سرائره مرحباً وفرحاً بمقدم الشاعر ولشدّة تأثّر الشاعر فإنه أحسّ بالفرح يغمر كيانه لحسن اللقاء.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٤٧. يعبّر الشاعر عن شدّة تأثره من اللقاء؛ فالبحر بكرمه وسعته وهدوئه تلقّى الشاعر معانقاً رجلاً نزل ضيفاً على أسد شجاع يحمي عرينه من عاديات اللؤماء.

(٣) و (٤) العاصيات: الممتنعات لصلابتها. يصف الشاعر مهارة ممدوحه باستعمال القسي الممتنعة الصلبة على غيره فلا يستطيع تطويعها وشدّها بينما هو لقوّته فإنها تلين بين يديه فيجذبها جذباً سهلاً وتطيعه لحبّها له ولهذا فإنه سرعان ما تسبق إصابته الهدف قبل تصويبها، وبسرعة تعود إليه لو أراد ذلك.

(٥) العقد: العقدة، ومن مبالغات الشاعر أن ممدوحه يستطيع إصابة الهدف مهما كان ضيّقاً حتى في الليل المظلم فإنه يوجّه سهمه إلى عقدة شعرة فيخترقها.

(٦) ازدهاه: استخفّه المديح. الذرائع، الواحدة ذريعة: الوسيلة. يُعلن الشاعر استعداده لبذل نفسه فدًى لحماية من لا يغترّ بأقوال الأعداء الذين يتقرّبون من الممدوح بحلو الكلام وإظهار الوداد، وقلوبهم يملأها غِش وخداع وكراهية، فالممدوح ذكي أريب فطين لا يغتر بمعسول الكلام وهو يميّز بين التزلّف والخداع وبين صدق القول والحبّ.

وَمَــنْ بُــعْــدُهُ فَــقْــرٌ وَمَــنْ قُــرْبُــهُ غِــنًــى،
وَمَــنْ عِــرْضُــهُ حُــرٌّ وَمَــنْ مَــالُــهُ عَــبْــدُ(١)

وَيَــصْــطَــنِــعُ الــمَــعْــرُوفَ مُــبْــتَــدِئــاً بِــهِ
وَيَــمْــنَــعُــهُ مِــنْ كُــلِّ مَــنْ ذَمُّــهُ حَــمْــدُ(٢)

وَيَــحْــتَــقِــرُ الْــحُــسَّــادَ عَــنْ ذِكْــرِهِ لَــهُــمْ
كَــأَنَّــهُــمُ فِــي الْــخَــلْــقِ مَــا خُــلِــقُــوا بَــعْــدُ(٣)

وَتَــأْمَــنُــهُ الأعْــدَاءُ مِــنْ غَــيْــرِ ذِلَّــةٍ،
وَلٰــكِــنْ عَــلَــى قَــدْرِ الَّــذِي يُــذْنِــبُ الْــحِــقْــدُ(٤)

فَــإِنْ يَــكُ سَــيَّــارُ بْــنُ مُــكْــرَمٍ ٱنْــقَــضَــى
فَــإِنَّــكَ مَــاءُ الْــوَرْدِ إنْ ذَهَــبَ الْــوَرْدُ(٥)

مَــضَــى وَبَــنُــوهُ وَٱنْــفَــرَدْتَ بِــفَــضْــلِــهِــمْ
وَأَلْــفٌ إِذَا مَــا جُــمِّــعَــتْ وَاحِــدٌ فَــرْدُ(٦)

---

(١) والممدوح عميم الفائدة لمن تقرّب منه يُرفده بالعطايا الوفيرة، ومن بَعد عنه يرسف في قاع الفقر والعوز، وهو ذو عرض وافر لا مغمز فيه، عزيز النفس، ذو أنفة يرفض الضيم، وهو كريم يتحكّم بماله كيف يشاء.

(٢) و (٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ٢١٣. إن الممدوح يُسارع إلى بذل العطاء قبل أن يُسأل ليصطنع أعوانه ومريديه، وهو في المقابل لا يبذل عطاءه للئيم الطبع خسيس النفس يذمّ غيره وذلك مدح للمذموم، فلا يُؤثر عليه ذلك أبداً. وفي المقابل فإن الممدوح يحتقر الحساد لقصور نظرهم وغيرتهم منه؛ فقد أدرك ذرى المجد بجدّه واجتهاده، وهم كُسالى وطفيليون، وهو لا يذكرهم استصغاراً لهم واحتقاراً لشأنهم، وهو لا يعتبرهم قد خُلقوا وعاشوا.

(٤) وما يدلّ على حِلم الممدوح أن أعداءه يأمنون جانبه وليس معنى ذلك أنه ضعيف يُستهان به، بل على العكس من ذلك فإنه قوي يعفو عن قدرة أخطاء الصغار، وذلك من طباعهم، وإذا كان ذنبهم عظيماً فإنه لا يتوانى عن زجرهم وإنزال القصاص العنيف بهم.

(٥) و (٦) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ٢٣٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. سيار بن مكرم جدّ الممدوح. بلا شكّ أن عامل الوراثة يبقى في الأحفاد، يُنوّه الشاعر بما كان عليه جدّ الممدوح من مزايا وصفات تركها ميراثاً لحفيده، وهي الآن =

لَـهُـمْ أَوْجُـهٌ غُـرٌّ وَأَيْـدٍ كَـرِيـمَـةٌ
وَمَـعْـرِفَـةٌ عِـدٌّ وَأَلْـسِـنَـةٌ لُـدُّ (١)

وَأَرْدِيَـةٌ خُـضْـرٌ ومُـلْـكٌ مُـطَـاعَـةٌ،
وَمَـرْكُـوزَةٌ سُـمْـرٌ وَمُـقْـرَبَـةٌ جُـرْدُ (٢)

وَمَـا عِـشْـتَ مَـا مَـاتُـوا ولَا أَبَـوَاهُـمُ
تَـمِـيـمُ بْـنُ مُـرٍّ وَٱبْـنُ طَـابِـخَـةٍ أُدُّ (٣)

فَـبَـعْـضُ الَّـذِي يَـبْـدُو الَّـذِي أَنَـا ذَاكِـرٌ
وَبَـعْـضُ الّـذِي يَـخْـفَـى عَـلَـيَّ الّـذِي يَـبْـدُو (٤)

= عبير عابق يفوح بالطيب والعطر الذكي من خلق وصيت حسن كالورد تبقى رائحته بعد ذبوله. ولقد مضى الجدّ بسبيله ولحقه بنوه تاركين خلفهم من يرفع من ذكرهم فيذكر الناس فضائلهم بفضل واحد فرد يُساوي في الأبناء ألوفاً.

(١) يمدح الشاعر أجداد الممدوح، لقد كانوا مفخرة قومهم لجليل أعمالهم، غرّ الوجوه، أحراراً أعزّاء، كرماء يُنفقون بسخاء أموالهم على الرعية والحواشي بحيث لا تنقطع مجاريهم عن مستحقّيها، وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يمتازون بفصاحة وبلاغة، وهم شديدو الخصومة على أعدائهم يُنزلون بهم النكبات.

(٢) الأردية، الواحد رداء: الأثواب. ويقصد بالأردية الخضر السيادة. مركوزة سمر: الرماح التي تركّز في الأرض. المقربة: الخيل تربط قريباً من الديار. الجرد، الواحد أجرد: القصير الشعر. ويتابع الشاعر مدح آل ممدوحه؛ إنهم سادة وملوك يأمرون فيُطاعون، وهم دائمو الاستعداد لكلّ طارئ، فأسلحتهم في متناول أيديهم وجيادهم لا تسرّح في المراعي بل إنها تُعلف وتربط في ديارهم، فإذا نادى النفير هبوا إلى أسلحتهم وخيولهم للقيام بواجبهم.

(٣) يخاطب الشاعر ممدوحه بأنه طالما أنه على قيد الحياة معنى ذلك أن أجداده ما ماتوا لأنه امتداد لهم يُضيف إلى أمجادهم من أمجاده، وكيف لا فتميم بن مرّ وأدّ بن طابخة من مفاخر العرب آباء نُجب للممدوح.

(٤) رجع الشاعر إلى مدح ممدوحه؛ فضائل الممدوح كثيرة لا تُحصى؛ فبعضها معلوم للشاعر، ذكر بعضه وسكت عن بعضه، وبعضها الآخر لا يعلمه وإن بدا في سلوك الممدوح جلياً.

أَلُـــومُ بِـــهِ مَـــنْ لَامَـــنـــي فِـــي وِدَادِهِ
وَحُـقَّ لِـخَـيْـرِ الْـخَـلْقِ مِـنْ خَـيْـرِهِ الْـوُدُّ[١]
كَـذَا فَـتَـنَـحَّـوْا عَـنْ عَـلِـيٍّ وَطُـرْقِـهِ
بَنِي اللُّؤْم حَتَّى يَعْبُرَ المَلِكُ الْجَعْدُ[٢]
فَـمَـا فِـي سَـجَـايَـاكُـمْ مُـنَـازَعَـةُ الْـعُـلَـى
وَلَا فِـي طِـبَـاعِ الـتُّـرْبَـةِ الـمِـسْـكُ وَالـنَّـدُّ[٣]

ليس في الدهر شيء يحمد

أراد سفراً وودعه صديق له فقال ارتجالاً:

[الكامل]

أَمَّـــا الْـــفِـــرَاقُ فَـــإِنَّـــهُ مَـــا أَعْـــهَـــدُ
هُـــوَ تَـــوْأَمِـــي لَـــوْ أَنَّ بَـــيْـــنـــاً يُـــولَـــدُ[٤]
وَلَـــقَـــدْ عَـــلِـــمْـــنَـــا أَنَّـــنَـــا سَـــنُـــطِـــيـــعُـــهُ
لَـــمَّـــا عَـــلِـــمْـــنَـــا أَنَّـــنَـــا لَا نَـــخْـــلُـــدُ[٥]

---

(١) يردّ الشاعر على لائميه لمحبته الممدوح وتقديره له؛ فأولو الفضل يعرفون لأولي الفضل أقدارهم، ولهذا كان مدح الشاعر ردًّا على لائميه، وأفضل ضروب تقدير لخيرة الناس أن يتحابّوا في ما بينهم.

(٢) و (٣) الجعد: الكريم. يخاطب الشاعر العذّال طالباً منهم أن يتنحوا عن طريق ممدوحه، إنه يسعى لبلوغ أعلى مراتب المجد، وهؤلاء يرسفون في القاع، ومن طبعهم الحسد والخنوع، فإذا ما رأوا الملك الكريم نشبت عقارب الحسد في قلوبهم والحقد في نفوسهم، إنهم عاجزون عن اللحاق بالمتفوّقين، وطباعهم ترابية أرضية خلاف من كانت طباعه تفوح طيباً وعرف مسك.

(٤) يُعاني الشاعر من عدم الاستقرار في مكان واحد، إنه دائم الترحال بحثاً عن مجد يتبوّأ ذُراه، ويردّ على صاحبه لو أن الفراق مولود لكان توأمه، فمنذ مولد الشاعر لديه نزوع إلى طلب العُلى.

(٥) لقد استقرّ في خلد الشاعر فكرة الزوال؛ فالموت آتٍ لا محالة، ففراق الأحبّة في الحياة فراق مؤقّت أما الفراق الأبدي فلا اعتراض عليه لأن الخلود في الوجود لن يكون.

وَإذَا الْـجِـيَـادُ أَبَـا الْـبَـهِـيِّ نَـقَـلْـنَـنَـا
عَـنْـكُـمْ فَـأَرْدَأُ مَـا رَكِـبْـتُ الأجْـوَدُ(١)
مَــنْ خَــصّ بِــالــذَّمِّ الْـفِـرَاقَ فَـإِنَّــنِــي
مَـنْ لَا يَـرَى فـي الـدَّهْـرِ شَـيْـئاً يُـحْـمَـدُ(٢)

في عنق الحسناء يستحسن العقد

يمدح الحسين بن علي الهمذاني:

[الطويل]

لَـقَـدْ حَـازَنِـي وَجْـدٌ بِـمَـنْ حَـازَهُ بُـعْـدُ
فَـيَـا لَـيْـتَـنِـي بُـعْـدٌ وَيَـا لَـيْـتَـهُ وَجْـدُ(٣)
أُسَـرُّ بِـتَـجْـدِيـدِ الْـهَـوَى ذِكْـرَ مَـا مَـضَـى
وَإنْ كَـانَ لَا يَـبْـقَـى لَـهُ الْـحَـجَـرُ الـصَّـلْـدُ(٤)
سُـهَـادٌ أَتَـانَـا مِـنْـكَ فِـي الْـعَـيْـنِ عِـنْـدَنَـا
رُقَـادٌ وَقُـلَّامٌ رَعَـى سَـرْبُـكُـمْ وَرْدُ(٥)

---

(١) يُخاطب الشاعر صديقه أبا البهيّ بأن أسرع الخيول التي تبعده عن صاحبه هي أردأها بسبب سرعتها في إبعاده عن خليليه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. يرى الشاعر أن كلّ ما في هذا الوجود مذموم، وتلك نظرة تشاؤميَّة، فهو لا يعني الفراق دون سواه بل يشمل كلّ مظاهر الحياة.

(٣) الوجْد: التعلّق وأثر الحزن بسبب الحبّ وشدّته. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني غزلي، فقد استولى عليه الحزن وسيطر عليه الوجد وسبب ذلك هجر حبيبته له، لذا فهو يتمنّى لو أن الأمر قد انقلب رأساً على عقب، فبعد واستولى الوجد على حبيبته.

(٤) الصلد: القاسي الشديد. الذكريات الحلوة جميلة وبخاصّة ذكريات الحبّ وما فيها من تجاذب وتعاطف بين الأحبَّة؛ إنها الرصيد الوجداني تتجدّد ذكراها إذا ألمّت بالمرء المكاره وتوالت عليه السنون تنتزع من شبابه الغضّ، عندئذٍ تذوب عواطفه وقد تُبكيه بحيث لا يقوى عليها إلّا حجر الصوّان الأشدّ صلابة.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٣٥. السهاد: السهر. القُلّام: ضرب من النبت حامض الطعم ترعاه الإبل. السرب: المال من النعم الراعي والقطيع. يلذّ =

مُـمَـثَّـلَـةٌ حَـتَّـى كَـأَنْ لَـمْ تُـفَـارِقِـي،
وَحَتَّـى كَـأَنَّ الْـيَـأْسَ مِـنْ وَصْـلِكِ الْـوَعْـدُ[(١)]

وَحَـتَّـى تَـكَـادِي تَـمْـسَـحِـيـنَ مَـدَامِـعِـي،
وَيَـعْـبَـقُ فـي ثَـوْبَـيَّ مِـنْ رِيـحِـكِ الـنَّـدُّ[(٢)]

إِذَا غَـدَرَتْ حَـسْـنَـاءُ وَفَّـتْ بِـعَـهْـدِهَـا
فَـمِـنْ عَـهْـدِهَـا أَنْ لَا يَـدُومَ لَـهَـا عَـهْـدُ[(٣)]

وَإِنْ عَـشِـقَـتْ كَـانَـتْ أَشَـدَّ صَـبَـابَـةً،
وَإِنْ فَـرِكَـتْ فَـاذْهَـبْ فَـمَـا فِـرْكُـهَـا قَـصْـدُ[(٤)]

وَإِنْ حَـقَـدَتْ لَـمْ يَـبْـقَ فِـي قَـلْـبِـهَـا رِضًـى
وَإِنْ رَضِـيَـتْ لَـمْ يَـبْـقَ فِـي قَـلْـبِـهَـا حِـقْـدُ[(٥)]

كَــذٰلِــكَ أَخْــلَاقُ الــنِّــسَــاءِ وَرُبَّــمَــا
يَـضِـلُّ بِـهَـا الْـهَـادِي وَيَـخْـفَـى بِـهَـا الـرُّشْـدُ[(٦)]

= للشاعر السهر وهو يحلم بطيف الحبيب لذا فهو كالرقاد عندما يُغمض عينيه، وكلّ ما تراه الحبيبة من النعم التي ترعى القُلّام بين السهول يلذّ للشاعر أن تقع عليه عيناه.

(١) و (٢) إن قوّة التخيّل صوّرت له حبيبته حتى لقد بدأ يتلمس شكلها يتحرّك أمام عينيه، وتوهّم أن يأسه من عدم اللقاء قد اختفى وأنها على وشك أن تعده بلقاء حقيقي، وتتمّ عملية فكأنها تحاول التخفيف عن آلامه، فتبادر إلى تجفيف دموعه بمنديلها، وهنا يفعل السحر فعله فإذا بعبق الأريج المنبثق من ثوبه الذي لامسته بيديها يملأ إحساسه فتبعث فيه النشوة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٨. ينعى الشاعر على من اتّصفت بالجمال بأنها غادرة لا تخلص الودّ لمن يهواها، فهي لا تصدق الوعد، بل إنها تُخلفه ممتحنة في ذلك من أخلص لها الودّ، وهي إن وفت كان وفاؤها غدراً.

(٤) و (٥) الصبابة: شدّة الشوق. فركت: كرهت. شأن المرأة عجيب غريب فإذا أحبّت أخلصت وضحت بكلّ نفيس لتحافظ على حبّها لها دون سواها، وإذا هي أبغضت احتالت لتدمّر من استحوذ على بُغضها؛ فقلبها دائماً تملأه مشاعر فياضة بما فيه لشدّة إحساسها وقوّة مشاعرها فتغلبها وتتصرّف بما تمليه عليها، فليس للعقل لديها مجال التفكير؛ فلا يجتمع في قلبها المتناقضات في موضوع الحبّ.

(٦) خلق اللّه تعالى المرأة هكذا واختصها بمزايا تحيّر الألباب؛ إنها ساحرة تجذب برقتها =

وَلٰكِنَّ حُبًّا خَامَرَ الْقَلْبَ فِي الصِّبَا
يَزِيدُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ (١)

سَقَى ٱبْنُ عَلِيٍّ كُلَّ مُزْنٍ سَقَتْكُمُ
مُكَافَأَةً يَغْدُو إِلَيْهَا كَمَا تَغْدُو (٢)

لِتَرْوَى كَمَا تُرْوِي بِلَاداً سَكَنْتَهَا
وَيَنْبُتَ فِيهَا فَوْقَكَ الْفَخْرُ وَالمَجْدُ (٣)

بِمَنْ تَشْخَصُ الأَبْصَارُ يومَ رُكُوبِهِ
وَيُخْرَقُ مِنْ زَحْمٍ عَلَى الرَّجُلِ الْبُرْدُ (٤)

وَتُلْقِي وَمَا تَدْرِي الْبَنَانُ سِلَاحَهَا
لِكَثْرَةِ إِيمَاءٍ إِلَيْهِ إِذَا يَبْدُو (٥)

= وتقتل بها أيضاً، والويل لمن التقته في طريقها يتيه في حقل رماياتها فتصطاده بفتنة عينها، حتى العاقل لا ينجو من أحابيلها سرعان ما يقع أسير فتنتها.

(١) إنها الحقيقة، فالحبّ يشق طريقه إلى قلب الفتى في ريعان شبابه ويتملك منه وهو بعد غضّ طريّ العود، غِرّ لم يختبر الحياة حتى لا يقع في شباك فاتنة سحرته بعسل كلماتها وابتسامتها، ويمرّ الزمن ويزداد المرء تعلقاً بالحياة وتعود به الذكرى إلى الوراء فيجد قلبه لا يزال ينبض بحبّ مضى ولكن الأحداث والأزمات تجدّد الرغبة والتعلّق فيه.

(٢) و (٣) المزن، الواحدة مزنة: السحابة البيضاء الماطرة. يدعو الشاعر بالسقيا لقوم المحبوبة بأن يسقيها جود الممدوح مكافأة لها على فعلها معه لأن الممدوح أكرم من السحب وأسرع استجابة لحاجات كلّ محتاج، فتروي السحب بكرم فيّاض بلاد المحبوبة، وفي المقابل يستنبت كرم الممدوح مجداً وفخراً يزين البلاد، لعموم السحب تلك البلاد من كرم لا تنضب ينابيعه.

(٤) و (٥) البُرد: الثوب. زحم وازدحم: تجمهر القوم وتكاثروا. يصف الشاعر مسير الممدوح، وهو يمتطي جواده والجموع تزدحم، كلّ يودّ رؤية أميره لينعّم بإطلالة وجهه النير البهيّ، وجمال طلعته، ولشدّة الزحام تتمزق أثواب الحاضرين فالكلّ يتشوّفون لرؤيته بفرح وسرور. وفي جوّ كهذا لا يدري المرء ما يحدث وينسى نفسه لجلال الموقف ويقع من يده ما يحمله دون وعي منه، والأيدي ترتفع بالدعاء للأمير أو للتصفيق.

ضَـرُوبٌ لِـهَـامِ الـضَّـارِبِـي الـهَـامِ فِـي الْـوَغَـى
خَـفِـيـفٌ إذَا مَـا أَثْـقَـلَ الْـفَـرَسَ الـلِّـبْـدُ[(١)]

بَـصِـيـرٌ بَـأَخْـذِ الْـحَـمْـدِ مِـنْ كُـلِّ مَـوْضِـعٍ
وَلَـوْ خَـبَـأَتْـهُ بَـيْـنَ أَنْـيَـابِـهَـا الأُسْـدُ[(٢)]

بِـتَـأْمِـيـلِـهِ يَـغْـنَـى الْـفَـتَـى قَـبْـلَ نَـيْـلِـهِ
وَبِـالـذُّعْـرِ مِـنْ قَـبْـلِ الـمُـهَـنَّـدِ يَـنْـقَـدُّ[(٣)]

وَسَـيْـفِـي لأَنْـتَ الـسَّـيْـفُ لَا مَـا تَـسُـلُّـهُ
لِـضَـرْبٍ وَمِـمَّـا الـسَّـيْـفُ مِـنْـهُ لَـكَ الْـغِـمْـدُ[(٤)]

وَرُمْـحِـي لأَنْـتَ الـرُّمْـحُ لَا مَـا تَـبُـلُّـهُ
نَـجِـيـعـاً وَلَـوْلَا الْـقَـدْحُ لَـمْ يُـثْـقِـبِ الـزَّنْـدُ[(٥)]

---

(١) الوغى: الحرب. يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة، الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. اللبد: هو ما تحت السرج يمتاز الممدوح بالشجاعة وقوة جلاده، فيدحرج الرؤوس، وتتهاوى الأبطال صرعى تحت ضرباته بقوّة وعنف وتتساقط إلى الأرض فتعانق التراب، إنه سريع الحركة بخفّة عجيبة يُطاوعه فرس في تجواله وصولاته، حتى الفرس فإنه لا يشعر به رغم أنه قد أحسّ بثقل اللبد تحت سرجه.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة: ٣٤٧. يصف الشاعر ممدوحه بأنه دائم السعي لكسب الحمد يسعى وراءه بما أوتي من إمكانيات، كالغنى والقوّة والسؤدد ومحبَّة الناس له، بينما يُوجد كثيرون من معاصريه يتقاعسون عن اكتساب المحامد وشكر الناس لهم، وهو إن علم المحامد في شقي أسد لقصده لينتزعها من أنيابه.

(٣) النيل والنوال: العطاء. المهنّد: السيف الهندي. إنه مطمع كلّ من أمل بنواله يكفيه أن بعطاياه حتى تنهال عليه قبل أن يُفكر بالحيلة التي توصله إليه، وبنفس الطريقة فإن الممدوح يُثير الخوف في قلوب أعدائه، وقبل مبادرته إلى قتالهم بموت موتاً فجائياً لشدّة خوفهم من سيفه الذي لم يجرّده بعد.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. يُقسم الشاعر بسيفه أن ممدوحه سيف حقيقي بفعله وأثر فعله في نفوس أعدائه، لا السيف المصنوع من الحديد، فلا قيمة للسيف إلّا باستعماله بيد قوي جبار يقطع به رؤوس الأعداء، والممدوح مرهوب الجانب يُثير الرعب في قلوب أعدائه حتى قبل نزوله إلى ميدان المعركة، فإذا ما تدرّع كان درعه بمثابة غمده.

(٥) النجيع: الدم الأحمر القاني. القدح: الإشعال. الزند: ما يُقتدح به للإشعال. ويُقسم =

مِنَ الْقَاسِمِينَ الشُّكْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ
لأَنَّهُمُ يُسْدَى إِلَيْهِمْ بَأَنْ يُسْدُوا (١)

فَشُكْرِي لَهُمْ شُكْرَانِ شُكْرٌ عَلَى النَّدَى
وَشُكْرٌ عَلَى الشُّكْرِ الَّذِي وَهَبُوا بَعْدُ (٢)

صِيَامٌ بِأَبْوَابِ الْقِبَابِ جِيَادُهُمْ
وَأَشْخَاصُهَا فِي قَلْبِ خَائِفِهِمْ تَعْدُو (٣)

وَأَنْفُسُهُمْ مَبْذُولَةٌ لِوُفُودِهِمْ،
وَأَمْوَالُهُمْ فِي دَارِ مَنْ لَمْ يَفِدْ وَفْدُ (٤)

كَأَنَّ عَطِيَّاتِ الْحُسَيْنِ عَسَاكِرٌ
فَفِيهَا الْعِبِدَّى وَالْمُطَهَّمَةُ الْجُرْدُ (٥)

= الشاعر برمحه أن ممدوحه رمح قاتل لأعدائه وليس الرمح الحديدي الذي يخترق به قلوب أعدائه ويستردّه وقد غطّته دماؤهم، يفعل فعله لولا قوّة زنده التي تضرب بعنف وقوّة، فكذلك لا تشتعل النار إلّا بفضل الذي يقدح الزند.

(١) و (٢) لا ينسى الشاعر نفسه في زحمة مدحه، فلا بدّ له من إطلالة، إنه يُبادل ممدوحه الشكر فكلاهما يشكر صاحبه؛ الشاعر يُكيل من المدح لممدوحه ويُسْبغ عليه من الفضائل أحسنها والممدوح يشاركه عطاياه كما يشاركه إحساسه بروعة الشعر وجمال معانيه، إنه شكر يرتدي رداءين، أحدهما يغطّي ساحة حاجته إلى المال والآخر شكر على تقدير الشاعر؛ إنهم هم الذين أوحَوْا إليه تلك الأفكار لتوفّر عناصرها الأولية فيهم، لذا فالشاعر لم يأتِ بشيء من عنده، إنما هو ترجم ما رآه في ممدوحيه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٩٦. صيام: واقفة. ومن أخذ الممدوحين الأمور بجدّ أن خيولهم تقف بأبوابهم، وحالما يُنادي المنادي إلى النفير حتى يعتلوا متونها لتلبية النداء، وهذا سرّ خوف أعدائهم منهم، فقبل الشروع بعدْوها تكون قد اخترقت قلوبهم لما تملّكهم من الرعب.

(٤) يصوّر الشاعر مدى كرم القوم، إنما يُسارعون إلى البذل والعطاء، تأتي الوفود إليهم لا يملكون شيئاً ويعودون محمّلين بالأموال؛ وليس هذا فقط بل إن أموالهم تصل إلى من لم يقصدهم ليحصل على عطاياهم، وهذا أسمى العطاء.

(٥) العبدى، الواحد عبد. الخيول المطهّمة: التامة الخلق. الجرد، الواحد أجرد: القصار الشعر. يذكر الشاعر أن أعطيات الحسين لا تختص بنوع من الأموال بل =

أَرَى الْقَمَرَ ٱبْنَ الشَّمسِ قَدْ لَبِسَ الْعُلَا
رُوَيْدَكَ حَتَّى يَلْبَسَ الشَّعَرَ الْخَدُّ[١]
وَغَالَ فُضُولَ الدِّرْعِ مِنْ جَنَبَاتِهَا
عَلَى بَدَنٍ قَدُّ الْقَنَاةِ لَهُ قَدُّ[٢]
وبَاشَرَ أَبْكَارَ المَكَارِمِ أَمْرَداً،
وَكَانَ كَذَا آبَاؤُهُ وَهُمُ مُرْدُ[٣]
مَدَحْتَ أَبَاهُ قَبْلَهُ فَشَفَى يَدِي
مِنَ الْعُدْمِ مَنْ تُشْفَى بِهِ الأَعْيُنُ الرُّمْدُ[٤]
حَبَانِي بِأَثْمَانِ السَّوَابِقِ دُونَهَا
مَخَافَةَ سَيْرِي إِنَّهَا لِلنَّوَى جُنْدُ[٥]

= تشمل العبيد والخيول الجياد المطهّمة الجرد، وهي أفضل أنواع الخيول المحبّبة إلى النفوس.

(١) يركّز الشاعر دائماً على العامل الوراثي للنجباء، فالممدوح قمر، فيه الأنس والرقّة واللطف، إنه ابن الشمس، القوّة والدفء والعطاء، والقمر يستمدّ من الشمس عظمتها وعلوّها وكبرياءها، ولقد ولي ممدوحه الإمارة عن أبيه وكان طفلاً لم يبلغ الحلم بعد، ولم ينبت له شعر خدّه بعد.

(٢) غال فضول: ذهب بالزائد. القناة: عود الرمح. يصف الشاعر ممدوحه بالطول والاستواء بحيث لا يكون درعه رغم اتساعه وكبره إلّا على مقاسه، وهو ينتصب بقامته المديدة الحسنة الاستقامة، يملأه شباب وعافية.

(٣) يمدح الشاعر ممدوحه بسبقه إلى مكارم الأخلاق التي لم يضطلع بها غيره دلالة رشده وتعقّله، وهو في ذلك كان يقتدي بفعل أجداده، والشاعر بذلك آباء ممدوحه.

(٤) للشاعر معرفة بوالد ممدوحه الذي كان طبيباً ماهراً، فقد شفى الشاعر من فقره وعوزه برفده وعطاياه، ولقد كان بمثابة الدواء الشافي لمن به رمد، فإذا بعينيه تسترجعان الشفاء لقاء النظر إليه.

(٥) حباني: أعطاني. السوابق: الخيول السبّاقة. النوى: البعد. يُعدّد الشاعر فضائل والد الممدوح، لقد تكرّم عليه فمنحه أثمان سوابق الخيل، فأراحه من الترحال ماشياً؛ وتلك جند تحارب المسافات بتقريبها وتُريح راكبها.

وَشَــهْــوَةَ عَــوْدٍ إنَّ جُــودَ يَــمِــيــنِــهِ
ثُــنَــاءٌ ثُــنَــاءٌ وَالْــجَــوَادُ بِــهَــا فَــرْدُ[(١)]

فَـلَا زِلْـتُ أَلْـقَـى الْـحَـاسِـدِيـنَ بـمـثْـلـهـا،
وفـي يَـدِهِـمْ غَـيْـضٌ وَفِـي يَـدِيَ الـرِّفْـدُ[(٢)]

وَعِــنْــدِي قَــبَــاطِــيُّ الْــهُــمَــام وَمَــالُــهُ
وَعِــنْــدَهُــمُ مِــمَّــا ظَــفِــرْتُ بِــهِ الْــجَــحْــدُ[(٣)]

يَــرُومُــونَ شَــأْوِي فــي الْــكَــلَام وَإِنَّــمَــا
يُحَاكِي الْفَتَى فِي مَا خَلَا الْمَنْطِقَ الْقِرْدُ[(٤)]

فَــهُــمْ فــي جُــمُــوعٍ لا يَــرَاهَــا ٱبْــنُ دَأْيَــةٍ،
وَهُمْ في ضَجِيجٍ لا يُحِسُّ بِهَا الْخُلْدُ[(٥)]

وَمِــنِّــي ٱسْــتَــفَــادَ الــنَّــاسُ كُــلَّ غَــرِيــبَــةٍ؛
فَـجَـازُوا بِـتَـرْكِ الـذَّمِّ إنْ لَـمْ يَـكُـنْ حَـمْـدُ[(٦)]

---

(١) ومن عظيم كرم والد الممدوح أنه لم يكتف بعطاء الشاعر مرَّة واحدة وإنما ألحق عطاءه عطاءً آخر فثنى رغم أنه فرد بين أقرانه كرماً وخلقاً.

(٢) الغيض: النقص، ويروى «غيظ» بدلاً من «غيض». الرفد: العطاء. يدعو الشاعر لوالد الممدوح بعميم الخير ليحصل على رفده ويغيظ حسّاده بذلك ويستزيد ثراءً ويشتري مزيداً من الخيول.

(٣) القباطي، الواحدة قبطية؛ ضرب من الثياب المصنوعة في مصر. يفخر الشاعر بما حصّله من رفد والد الممدوح، إنها أثواب قباطية وأموال تثير في نفوس حسَّاد الشاعر غرائز الحسد والإنكار بأن الممدوح لم يقدم للشاعر شيئاً، وبذلك يعني الممدوح أنه يفضل الشاعر على غيره من الشعراء.

(٤) يرومون: يقصدون. الشأو: المدى. يهجو الشاعر غيره من الشعراء الذين يقصدون بلوغ مداه دون جدوى، إنهم يُقصّرون فلا يستطيعون بلوغ مداه، فقد سبقهم أشواطاً بعيدة، فهم يُقلّدون كما يفعل القرد بحركاتهم المضحكة، والفرق بينهم وبين القرد أنهم ينطقون.

(٥) ابن دأية: الغراب. الخلد: ضرب من الفئران أعمى يحفر في الأرض شديد السمع. يُتابع الشاعر هجاء خصومه من الشعراء، فهم رغم كثرتهم لا يراهم الغراب رغم قوّة نظره، وهم لا صوت لهم حتى إن الخلد لا يسمع حسيسهم مهما كان خافتاً.

(٦) يتّهم الشاعر غيره من الشعراء بأنهم ينتحلون شعره وينسبونه إليهم؛ إنه شعر بديع، =

وَجَدْتُ عَلِيًّا وَابْنَهُ خَيْرَ قَوْمِهِ
وَهُمْ خَيْرُ قَوْمٍ وَٱسْتَوَى الْحُرُّ وَالْعَبْدُ(١)

وأصْبَحَ شِعْرِي مِنْهُمَا فِي مَكَانِهِ
وفِي عُنُقِ الْحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْدُ(٢)

زيارة عن غير موعد

وسايره وهو لا يدري أين يريد به؛ فلما دخل كفرديس قال:

[مجزوء الكامل]

وَزِيَارَةٍ عَنْ غَيْرِ مَوْعِدْ
كَالْغُمْضِ فِي الْجِفْنِ الْمُسَهَّدْ(٣)

مَعَجَتْ بِنَا فِيهَا الْجِيَا
دُ مَعَ الأمِيرِ أبِي مُحَمَّدْ(٤)

حَتَّى دَخَلْنَا جَنَّةً
لَوْ أَنَّ سَاكِنَهَا مُخَلَّدْ(٥)

= غرائبه لا يأتي بها إلّا عبقري أوتي فصل الخطاب وإلهام كبار الشعراء، لذا فإنه يطلب منهم التوقّف عن انتقاصه وعدم ذمّه، في حال عدم مدحه.

(١) ورغم تجوال الشاعر على ممدوحيه لم يجد خيراً من الممدوح ووالده؛ إنهما خير البشر، وما سواهما يتساوَوْن سواء أكانوا أحراراً أم عبيداً.

(٢) ينوّه الشاعر بما قدّمه لعلي وابنه من شعر رفعهما به وأشاد بمآثرهما، فكان شعره بمثابة العقد الجميل في جيد حسناء، فازدادت به جمالاً وازداد بجمالها إشراقاً وألقاً.

(٣) المسهّد: الذي أرّقه هم فلم يستطع النوم. إنها زيارة لم تخطر على بال لتلك القرية فكانت بمثابة إغماضة عين لم تعرف النوم لأرقها وكثرة همومها.

(٤) معجت: مرّت بسرعة. لحظات السرور تمرّ سريعة وبخاصة إذا التقى الأصحاب على الودّ والحبّ، والشاعر إلى جانب الأمير أبي محمد، يتبادلان حديث القلوب وينعمان بجمال الطبيعة.

(٥) ها هما يدخلان بستاناً رسمه اللّه تعالى بيد القدرة جمالاً وغنى، وما يكدّر الشاعر أن ذلك لن يدوم لصاحبه؛ فالموت آتٍ، ليحرمه نعمة التلذّذ بنعم الخالق سبحانه وتعالى.

خَضْرَاءَ حَمْرَاءَ التُرَا
بِ كَأَنَّهَا فِي خَدِّ أَغْيَدْ(١)
أَحْبَبْتُ تَشْبِيهاً لَهَا
فَوَجَدْتُهُ مَا لَيْسَ يُوجَدْ(٢)
وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْحَقَا
ئِقِ فَهْيَ وَاحِدَةٌ لِأَوْحَدْ(٣)

أنت للمكرمات أهدى

وهمّ بالنهوض فأقعده أبو محمد فقال:

[مخلّع البسيط]

يَا مَنْ رَأَيْتُ الْحَلِيمَ وَغْدَا
بِهِ وَحُرَّ الْمُلُوكِ عَبْدَا(٤)
مَالَ عَلَيَّ الشَّرَابُ جِدًّا
وَأَنْتَ لِلْمَكْرُمَاتِ أَهْدَى(٥)
فَإِنْ تَفَضَّلْتَ بِانْصِرَافِي
عَدَدْتُهُ مِنْ لَدُنْكَ رِفْداً(٦)

---

(١) الأغيد: الليّن الأعطاف المائل العنق. يُشبه الشاعر طبيعة البستان بعذار غلام لم يبلغ الحلم وهو على وشك أن ينبت عذاره، وقد علت وجهه حمرة دلالة على وفور الصحة لديه واكتمال جماله.

(٢) و (٣) وما يدلّ على أن الجنينة في غاية الروعة أن الشاعر حاول أن يجد لها شبيهاً يقربها إلى المحسوسات الجميلة فلم يعثر على مثيل لها، ولذا فهي واحدة نادرة الوجود كصاحبها فهو واحد لا نظير له.

(٤) الوغد: الجبان الدنيء. ينظر الشاعر إلى معاصريه نظرة احتقار تفتقد إلى اللياقات الإنسانية؛ إنهم أوغاد جبناء، حتى العقلاء فيهم يقطر الغباء من عيونهم، وملوك الناس فيهم عبيد لا يستحقّون أن يُلحقوا بالأحرار لأنه لا يوجد أحرار أصلاً في رأي الشاعر.

(٥) و (٦) يخاطب الشاعر نديمه بأنه أخذت منه الخمرة كلّ مأخذ فأسكرته، حتى إنه حاول النهوض فلم يستطع، فإذا به ينوّه بمعرفته رأي الشاعر بالناس وتأفّفه حتى من مجالسة نديمه الذي طلب منه مبارحته، وقد اعتبر أن عمله هذا عطاءً محموداً لو سمح له بذلك.

شأوت العباد

وأطلق الباشق على سُماناة فأخذها فقال :

[المتقارب]

أَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ الْمُرَادَا
وَفِي كُلِّ شَأْوٍ شَأَوْتَ الْعِبَادَا[١]

فَمَاذَا تَرَكْتَ لِمَنْ لَمْ يَسُدْ،
وَمَاذَا تَرَكْتَ لِمَنْ كَانَ سَادَا[٢]

كَأَنَّ السُّمَانَى إذَا مَا رَأَتْكَ
تَصَيَّدُهَا تَشْتَهِي أَنْ تُصَادَا[٣]

قانص الأبطال

واجتاز أبو محمد ببعض الجبال فأثارت الغلمان خَشْفاً فتلقَّفتْهُ الكلاب فقال أبو الطيب مرتجلاً :

[الرجز]

وَشَامِخٍ مِنَ الْجِبَالِ أَقْوَدِ
فَرْدٍ كَيَافُوخِ الْبَعِيرِ الأَصْيَدِ[٤]

---

(١) الشأو: الغاية. شأوت: سبقت. يُخاطب الشاعر ممدوحه مشيداً بإنجازاته؛ فما يميزه متعدّد المناحي عن غيره، فقد بلغ أعلى أمانيه وحقّق ما يطمح له فسبق أقرانه وتفوّق عليهم في ميادين تفوّقهم.

(٢) يسأل الشاعر ممدوحه عمّا لم يتعاطه من الأمور، فلم يترك من أمور السيادة شيئاً لمن لم يسد، وحتى من ساد لم يترك شيئاً إلّا سبقه فيه.

(٣) السُّمانى: ضرب من الطير يُصاد للحمه. يعجب الشاعر كيف أن السمانى قد سمحت للباشق أن يصطادها، فكأنها تحب أن تقع بين يديك لتتكرم بلمس يديه.

(٤) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٥. الشامخ: العالي. الأقود: المرتفع طولاً. يافوخ البعير: رأسه. الأصيد: الملتوي العنق. يصف الشاعر جبلاً شامخاً تطاول بين جبال، وقد تعرّجت فيه طرقه صعوداً كأنه رأس بعير أصيب بداء أدّى إلى اعوجاجه.

يُسَارُ مِنْ مَضِيقِهِ وَالْجَلْمَدِ
فِي مِثْلِ مَتْنِ الْمَسَدِ الْمُعَقَّدِ (١)
زُرْنَاهُ لِلأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُعْهَدِ
لِلصَّيْدِ وَالنُّزْهَةِ وَالتَّمَرُّدِ (٢)
بِكُلِّ مَسْقِيِّ الدِّمَاءِ أَسْوَدِ
مُعَاوِدٍ مُقَوَّدٍ مُقَلَّدِ (٣)
بِكُلِّ نَابٍ ذَرِبٍ مُحَدَّدِ
عَلَى حِفَافَيْ حَنَكٍ كَالْمِبْرَدِ (٤)
كَطَالِبِ الثَّأْرِ وَإِنْ لَمْ يَحْقِدِ
يَقْتُلُ مَا يَقْتُلُهُ وَلَا يَدِي (٥)
يَنْشُدُ مِنْ ذَا الْخِشْفِ مَا لَمْ يَفْقِدِ
فَثَارَ مِنْ أَخْضَرَ مَمْطُورٍ نَدِ (٦)

---

(١) الجلمد: الصخر. المسد: الحبل المصنوع من الليف. يرسم الشاعر الجبل ومضايقه؛ فالصاعد فيه يواجه طرقاً ضيّقة صخرية تتعرَّج بمنعطفات خطرة متشابكة كأنها عقد حبل من مسد لوجود نتوءات فيها.

(٢) إنها زيارة ونزهة ليختلي المرء بصافي الودّ من الأصحاب والتلهّي بالصيد واستنشاق الهواء العليل الذي لم تُفسده الحضارة بمفاسدها وملاهيها، والبشر بريادته لعلوه وصعوبة مرتقاه ومنحدراته.

(٣) و (٤) وإلى جانب الشاعر والأمير وعبيده كلاب مدرّبة على الصيد تستقي دماء فرائسها، سوداء منظرها يثير الرعب يقوم على رعايتها قوّاد يحرصون على حمايتها، وبأيديهم سلاسل أطواقها فيُرسلونها خلف الطرائد فتنشب أنيابها في ضحاياها حادّة بحيث لا تستطيع منها فكاكاً لقوّة فكّين كأنهما مبردان يسحقان ما وقع تحتهما.

(٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٥. يدي: يدفع القاتل دية ليتخلّص من تبعة فعلته. تبدو كلاب الصيد بضراوتها وشدّتها في قتل فرائسها كأنها تعمل على الفتك بها وتتطلب ثأراً لها على الفريسة دون أن تحقد عليها، فقتلها لفرائسها لا دية عليها فيه.

(٦) ورد الشطر الأخير من البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٥. ينشد: يطلب. الخشف: ولد الظبية الذي استغنى عن أمه وبرز قرناه. يصف الشاعر طريقة =

كَــــأَنَّـــــهُ بَـــــدْءُ عِـــــذَارِ الأمْـــــرَدِ
فَـلَـمْ يَـكَـدْ إلَّا لِـحَـتْـفٍ يَـهْـتَـدِي[١]
وَلَـــمْ يَـــقَـــعْ إلَّا عَـــلَـــى بَـــطْـــنِ يَـــدِ
وَلَـمْ يَـدَعْ لِـلـشَّـاعِـرِ الـمُـجَـوِّدِ[٢]
وَصْـــفـــاً لَـــهُ عِـــنْـــدَ الأمِـــيـــرِ الأمْـــجَـــدِ
الـمَـلِـكِ الْـقَـرْمِ أَبِـي مُـحَـمَّـدِ[٣]
الْـــقَـــانِـــصِ الأبْـــطَـــالَ بِـــالـــمُـــهَـــنَّـــدِ
ذِي الـنِّـعَـمِ الْـغُـرِّ الْـبَـوَادِي الْـعُـوَّدِ[٤]
إذا أَرَدْتُ عَـــــدَّهَـــــا لَـــــمْ تُـــــعْـــــدَدِ
وَإنْ ذَكَـرْتُ فَـضْـلَـهُ لَـمْ يَـنْـفَـدِ[٥]

= صيد الكلاب لذلك الخشف، فرغم قوته وشدّة عدوه فقد وقع في فخ محكم الخطة؛ إنه يختبئ بين الأعشاب الخضراء التي استطالت حتى لم يعد يظهر بينها ورغم ذلك فقد وقع في كمين محكم.

(١) رود البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٥. يصف الشاعر العشب الذي كان يُغطي المكان، إنه أخضر نديّ لدِن شبيه بعذار فتًى لم يدرك مبلغ الرجال بعد يميل مع النسيم الرقيق، ورغم محاولات الفرار فإن الظبي قد أنهكته المحاولة، فراح يرتمي بين فكي الكلب مستسلماً لمصير بائس.

(٢) ورد الشطر الأول من البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٦. يتابع الشاعر وصف مصير الظبي لقد أذعن للأمر ووقع في قبضة لا ترحم على بطن يد الكلب الذي قام بعمله أحسن قيام.

(٣) لقد أتى الشاعر على وصف صيد الكلب، فلم يترك شاردة ولا واردة إلّا ذكرها كما وقعت للملك السيد العظيم أبي محمد.

(٤) و (٥) القنص: الصيد أصلاً ولكن الشاعر قصد فتك ممدوحه بأعدائه. الغرّ: البيض. يمدح الشاعر الملك بأنه يقتنص الأبطال في ميادين القتال بسيفه المصنوع في بلاد الهند ويصفه أيضاً بالكرم فأياديه غرّاء بيضاء تغرف الأموال وتوزّعها على مستحقّيها وتعيد الكرّة مرّة بعد مرّة، ولو حاول عدّها لما استطاع لتكرار الحركة، ذلك أن فضل عدائه لا يتوقّف عند حدّ.

وداع الروح للجسد

وقال يودعه :

[البسيط]

مَاذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الْوَامِقِ الْكَمِدِ
هٰذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ[١]
إذَا السَّحَابُ زَفَتْهُ الرِّيحُ مُرْتَفِعاً
فَلَا عَدَا الرَّمْلَةَ الْبَيْضَاءَ مِنْ بَلَدِ[٢]
وَيَا فِرَاقَ الأمِيرِ الرَّحْبِ مَنْزِلُهُ
إنْ أنْتَ فَارَقْتَنَا يَوْماً فَلَا تَعُدِ[٣]

زبد على شراب أسود

ودخل عليه يوماً فوجده على الشراب، وفي يده بطيخة من الندّ في غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها فحياه بها وقال: أي شيء تشبه هذه؟ فقال ارتجالاً:

[الكامل]

وَبَنِيَّةٍ مِنْ خَيْزُرَانٍ ضُمِّنَتْ
بِطِّيخَةً نَبَتَتْ بِنَارٍ فِي يَدِ[٤]

---

(١) الوامق: العاشق المتيّم. الكمد: الحزين. الوداع انفصال أحبّة اجتمعوا على تمازج روحي وقلبي، فإذا بالفراق يُمزّق علاقة بألم؛ ذلك أن ظروف الحياة القاسية تضطر المحبين إلى التفرّق، وقد لا يكون لقاء بعد ذلك مما يُؤلم المحبين، فإذا بالهجر يستحيل إلى فراق روحي يترك أثره في النفوس كلما تقادم العهد به.

(٢) زفته: ساقته. الرملة: موضع في فلسطين، موطن الممدوح، يدعو الشاعر بالخير العميم الذي تسحبه الرياح إلى تلك الديار حيث تمطر ولا تتعدى الرملة البيضاء إكراماً للأمير الأبيض السيد الكريم المعطاء.

(٣) يُخاطب الشاعر الفراق ألّا يعمل على تفريق بين الشاعر والأمير مرّة ثانية ليكون القرب دائماً بحيث يدوم الودّ بينهما ولا يفترقان أبداً.

(٤) يقصد الشاعر بالبنيّة الوعاء الذي جعل من خيزران وعاء للبطيخة. يصف الشاعر الكأس المحتوية على الخمرة، لونها لون البطيخة الخضراء يتلألأ ضياءً، ولقد أحسن الصانع صنعها بواسطة النيران، فبدت مشعة بما حوته من الخمر.

نَـظَـمَ الأمــيــرُ لَــهَــا قِــلَادَةَ لُـؤْلُـؤٍ
كَـفِـعَـالِـهِ وَكَـلَامِـهِ فـي الـمَـشْـهَـدِ(١)
كَـالْـكَـأسِ بَـاشَـرَهَـا الـمِـزَاجُ فَـأَبْـرَزَتْ
زَبَـداً يَـدُورُ عَـلَـى شَـرَابٍ أسْـوَدِ(٢)

رواعي الشيب

وقال فيها ارتجالاً أيضاً:

[الطويل]

وَسَــوْدَاءَ مَـنْـظُـوم عَـلَـيْـهَـا لآلِـىءٌ
لَـهَـا صُـورَةُ الْـبِـطِّـيخِ وَهْـيَ مِـنَ الـنَّـدِّ(٣)
كَـأَنَّ بَـقَـايَـا عَـنْـبَـرٍ فَـوْقَ رَأْسِـهَـا
طُلُوعُ رَوَاعِي الشَّيْبِ في الشَّعَرِ الْجَعْدِ(٤)

ليس بمنكر سبق الجياد

فقال: أوفي وقتك قلت هذا؟ فقال:

[الوافر]

أَتُـنْـكِـرُ مَـا نَـطَـقْـتُ بِـهِ بَـدِيـهـاً،
وَلَـيْـسَ بِـمُـنْـكَـرٍ سَـبْـقُ الْـجَـوَادِ(٥)

(١) لقد أحاط الأمير البنيّة بعمل فنّي ينمّ عن ذوق رفيع وإحساس رفيع بقيمة الفن الراقي، فلقد طوّق عنقها بقلادة لؤلؤ نظمت حبَّاتها بعناية فائقة كفعل الأمير وكلامه المنمق الذي يقع في الأذن موقع الموسيقى التي تنساب معها الأحاسيس والوجدان الرقيق.

(٢) المزاج: الخلط. الزبد: ما يطفو على سطح الكأس من زبد الخمرة. يصف الشاعر كأس الخمرة، فقد علا سطحها زبد أبيض غطّى ما في الكأس من خمرة لونها أسود، فإذا بالألوان تؤلّف عملاً فنيًّا بديعاً.

(٣) و (٤) الرواعي: الواحدة راعية: أول طلائع الشعر شيباً. يصف الشاعر البطيخة السوداء التي حُلّيت باللآلئ، فبدا ما عليها من العنبر كأنه أول طلائع الشيب يغزوها فيحلّ محل السواد اللون البغيض في هذه الحالة، يتّضح أن الشاعر كان يكره الشيب لما يُوحيه من عجز واقتراب الآجال.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه مسائلاً إيّاه عن موهبته الشعرية وسرعة بديهته، فباستطاعته =

أُرَاكِضُ مُعْوِصَاتِ الشِّعْرِ قَسْراً
فَأَقْتُلُهَا وَغَيْرِي فِي الطِّرَادِ[١]

الموت أصدق المواعيد

يمدحه أيضاً، ويرثي أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان وقد توفي في حمص سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٩م):

[المنسرح]

مَا سَدِكَتْ عِلَّةٌ بِمَوْرُودِ
أَكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ دَاوُدِ[٢]

يَأْنَفُ مِنْ مِيتَةِ الْفِرَاشِ وَقَدْ
حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ الْمَوَاعِيدِ[٣]

وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتَ عَلَى
غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ[٤]

= الإنشاد دون تحضير وإجادة ما يقوله؛ إنه سبق جواد يسبق سواه في مضمار الشعر الجيد المعجز.

(١) أراكض: أطارد. معوصات الشعر: الذي يصعب على الضعفاء من الشعراء الإتيان به. ينوّه الشاعر مفتخراً بما يأتيه من القصيد بسهولة ودون إعمال رأي رغم صعوبة معانيه التي نادراً ما يلتقطها سواه ورغم ما يبذل من جهد فإنه يضيع هباءً، بينما يستطيع المتنبي اصطياد عويص الشعر باقتدار عجيب ويبدع فيه.

(٢) سدك: لزم. المورود: المحموم. يبدأ الشاعر قصيدته بمدح الممدوح مباشرة دون مقدّمات تقليدية، معزّياً إياه بادئاً برثاء عمه تغلب بن داود، لقد حلّت الحمى ولازمت أكرم الرجال، إنها لم تجد أكرم من تغلب بن داود المضياف فنزلت حضرته تتنعم بمكارم أخلاقه، وتستحوذ عليه.

(٣) يأنف: يرفض. أصدق المواعيد: الموت. وكون تغلب بن داود شجاعاً فإنه يرفض موت الضعفاء على فراش الموت كالجبناء، بل إنه كان يتمنّى ميتة الأبطال في ميادين الكفاح.

(٤) السوابح من الخيول: التي تعدو كأنها تسبح لسرعة ركضها. القود: الطوال من الخيول. إن تغلب ابن داود مثال البطل الذي كان يعتلي ظهور الخيول السابحة التي تصول وتجول في ميدان المعركة، لذا يرفض أن يموت ميتة الجبناء والضعفاء.

بَــعْــدَ عِــثَــارِ الْــقَــنَــا بِــلَــبَّــتِــهِ
وَضَــرْبِــهِ أَرْؤُسَ الــصَّــنَــادِيــدِ[١]
وَخَــوْضِــهِ غَــمْــرَ كُــلِّ مَــهْــلَــكَــةٍ
لِــلــذِّمْــرِ فِــيــهَــا فُــؤَادُ رِعْــدِيــدِ[٢]
فَــإِنْ صَــبَــرْنَــا فَــإِنَّــنَــا صُــبُــرٌ
وَإِنْ بَــكَــيْــنَــا فَــغَــيْــرُ مَــرْدُودِ[٣]
وَإِنْ جَــزِعْــنَــا لَــهُ فَــلَا عَــجَــبٌ
ذَا الْــجَــزْرُ فِــي الْــبَــحْــرِ غَــيْــرُ مَــعْــهُــودِ[٤]
أَيْــنَ الْــهِــبَــاتُ الَّــتِــي يُــفَــرِّقُــهَــا
عَــلَــى الــزَّرَافَــاتِ وَالْــمَــوَاحِــيــدِ[٥]

---

(١) عثار القنا: إصابتها صدر المحارب وتلقّيه لها، اللبّة: وسط الصدر. الصناديد، الواحد صنديد: السيد الشجاع. لقد كان في حياته بطلاً لشجاعته يُقابل البطل الصنديد الذي يخاف بطشه مستعيناً برمحه فيتلقى الرمح بصدره ويقضي عليه بسيفه ثقة بشجاعته وعدم خوفه من الموت.

(٢) خاض المعركة: رمى بنفسه وسطها. الغمر: الماء الطامي. المهلكة: المعركة الطاحنة. الذمر: الشجاع. الرعديد: الجبان. وللدلالة على قوّته وشجاعته فإنه كان يخوض أشرس المعارك ويسبح في لججها ويخرج منها منتصراً مظفراً بينما يفرّ الشجاع من المخاطرة حذر الموت المحدق به فيعرّي نفسه ويبدو جبنه على حقيقته.

(٣) يخاطب الشاعر ممدوحه داعياً إياه إلى الصبر وهو من المعروفين بالصبر في الملمات والأزمات، والبكاء لا يرجع من رحل عن هذا الوجود؛ لذا فمن طبيعة الرجولة الحقّة التسليم بالقضاء؛ فالأمر ليس بأيدي البشر.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. يروى «بكينا» بدلاً من «جزعنا». إن من طبيعة البشر أن يحزنوا في حال فقد أعزاء لهم، وذلك طبيعي لا غرابة فيه، ولكن الأمر أن الفقيد بحر كريم يفيض بالخيرات والجزر أضعف من البحر، ومع ذلك فقد فاجأ الجزر البحر حتى نضب فيه دفق الحياة، ولا عودة له.

(٥) أين: تفيد الاستبعاد. الزرافات: الجماعات. لقد ضاع كلّ شيء، فلا هبات ولا عطايا ينثرها الفقيد بين الناس الوافدين إلى حماه يبتغون الحصول على رفده؛ فقد توقّف كلّ شيء وهؤلاء هم بأمسّ الحاجة لكرمه فإذا بهم يفقدون مصدراً هاماً يُعينهم على حياتهم.

سَالِمُ أَهْلِ الْوِدَادِ بَعْدَهُمُ
يَسْلَمُ لِلْحُزْنِ لَا لِتَخْلِيدِ (١)

فَمَا تُرَجِّي النُّفُوسُ مِنْ زَمَنٍ
أَحْمَدُ حَالَيْهِ غَيْرُ مَحْمُودِ (٢)

إِنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفُنِي
أَنَا الَّذِي طَالَ عَجْمُهَا عُودِي (٣)

وَفِيَّ مَا قَارَعَ الْخُطُوبَ وَمَا
آنَسَنِي بِالْمَصَائِبِ السُّودِ (٤)

مَا كُنْتَ عَنْهُ إِذِ ٱسْتَغَاثَكَ يَا
سَيْفَ بَنِي هَاشِمٍ بِمَغْمُودِ (٥)

يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ يَا مَلِكَ الْأَمْـ
ـلَاكِ طُرًّا يَا أَصْيَدَ الصِّيدِ (٦)

---

(١) إنها غصّة يتركها المتوفّون في قلوب أهل ودادهم؛ همّ وحزن وبعد ذلك فإنهم يلقَوْن نفس المصير المحتوم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٧. الرجاء بما يُمكن تحقيقه مرغوب فيه محبّب للقلوب، ولكن يتعلّق بالقضاء الذي لا مفرّ منه، لذا فلا يُحمد زمن مهما امتدت الحياة بالمرء، فلا بدّ من رحيل يترك في النفوس حسرات.

(٣) النيوب: المصائب. عجم العود: عضّه ليكتشف صلابته. يعبّر الشاعر عن ألمه وتبرّمه ممّا لاقاه في حياته من مصائب وعثرات توالت عليه فجعلته قوياً عاصياً على المحن، صلب العود لا تهزه رياح الزمن العاتية.

(٤) قارع: صارع. الخطوب، الواحد خطب: المصائب. وينوّه الشاعر بفضل تلك المصائب والويلات التي صادفته في حياته فآلفها وأنس بها فصارت جزءاً من حياته، ورغم ذلك فإنها لم تتوقف عن المكيدة له.

(٥) استغاث: طلب يد العون والمساعدة. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بما كان منه إذ استغاثه المتوفى، وكان قد أسرته بنو كلاب، فاستنقذه من أسرهم، وكان سيفاً لم يتوان في نجدته.

(٦) يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه ملك الملوك بلا منازع، فيه أنفة وكبرياء فهو أصيد الصيد.

قَــدْ مَــاتَ مِــنْ قَــبْــلِــهَــا فَــأَنْــشَــرَهُ
وَقْــعُ قَــنَــا الْــخَــطِّ فِــي الــلَّــغَــادِيــدِ[(١)]

وَرَمْــيُــكَ الــلَّــيْــلَ بِــالْــجُــنُــودِ وَقَــدْ
رَمَــيْــتَ أَجْــفَــانَــهُــمْ بِــتَــسْــهِــيــدِ[(٢)]

فَــصَــبَّــحَــتْــهُــمْ رِعَــالُــهَــا شُــزَّبــاً
بَــيْــنَ ثُــبَــاتٍ إِلَــى عَــبَــادِيــدِ[(٣)]

تَــحْــمِــلُ أَغْــمَــادُهَــا الْــفِــدَاءَ لَــهُــمْ
فَــانْــتَــقَــدُوا الــضَّــرْبَ كَــالأَخَــادِيــدِ[(٤)]

مَــوْقِــعُــهُ فِــي فَــرَاشِ هَــامِــهِــمْ
وَرِيــحُــهُ فِــي مَــنَــاخِــرِ الــسِّــيــدِ[(٥)]

أَفْــنَــى الْــحَــيَــاةَ الَّــتِــي وَهَــبْــتَ لَــهُ
فِــي شَــرَفٍ شَــاكِــراً وَتَــسْــوِيــدِ[(٦)]

---

(١) و (٢) اللغاديد: لحمات بين الحنك وصفحة العنق. أنشره: بعث فيه الحياة. يعود الشاعر إلى المتوفى، لقد مات عندما أُسر، فأنقذه الممدوح بقوة رمحه الذي أصاب من الأعداء مقاتلهم بين الحنك وصفحة العنق، وقد كانوا يخافون مفاجأتهم من قبل الممدوح، فجلا النوم عن عيونهم، وما إن هبط الليل حتى هبطت عليهم جنود الممدوح تستنقذ المتوفى من أيديهم.

(٣) الرعال، جمع رعلة: القطعة من الخيل. الشزب: الواحد شازب، الضامر من الخيول. الثبات، الواحدة ثُبة: الجماعة. العباديد: الفرق. أنهك الأعداء السهر، وكانت المفاجأة مع الفجر فإذا بالجند الفرسان يتدفّقون زرافات ووحداناً.

(٤) انتقدوا: قبضوا. الأخاديد، الواحد أخدود: الشقّ في الأرض. يصف الشاعر الهجوم الصاعق؛ سيوف مشرّعة لمن طلب الفداء بدل الأسر فإذا بالأعداء يحصلون على فداء، محتواه موت وتدمير وخراب وجراحات.

(٥) فَراش هامهم: عظام رقيقة تلي قحف رؤوسهم. السيد: الذئب. ولعظم ما نزل في رؤوس القوم من ضرب السيوف وكثرة ضحاياهم، إذ برائحة جثث القتلى تنتشر وتستدعي الذئاب لتنهش لحومهم.

(٦) لقد كان ردّ المتوفى بعد تحريره من أسر بني كلاب أن حفظ الجميل، فكان سيّداً مشكوراً يقوم بعظائم الأمور في سبيل ردّ ذلك الجميل لمن أعاد إليه حياة الحرّية، فعمل على تدعيم سيادته في إمارته.

سَـقِـيـمَ جِـسْـمٍ صَـحِـيـحَ مَـكْـرُمَـةٍ
مَـنْـجُـودَ كَـرْبٍ غِـيَـاثَ مَـنْـجُـودِ[١]

ثُـمَّ غَـدَا قَـيْـدُهُ الْـحِـمَـامَ وَمَـا
تَـخْـلُـصُ مِـنْـهُ يَـمِـيـنُ مَـصْـفُـودِ[٢]

لَا يَـنْـقُـصُ الْـهَـالِـكُـونَ مِـنْ عَـدَدٍ
مِـنْـهُ عَـلِـيٌّ مُـضَـيِّـقُ الْـبِـيـدِ[٣]

تَـهُـبُّ فِـي ظَـهْـرِهَـا كَـتَـائِـبُـهُ
هُـبُـوبَ أَرْوَاحِـهَـا الْـمَـرَاوِيـدِ[٤]

أَوَّلَ حَـرْفٍ مِـنِ ٱسْـمِـهِ كَـتَـبَـتْ
سَـنَـابِـكُ الْـخَـيْـلِ فِـي الْـجَـلَامِـيـدِ[٥]

مَـهْـمَـا يُـعَـزَّ الْـفَـتَـى الْأَمِـيـرَ بِـهِ
فَـلَا بِـإِقْـدَامِـهِ وَلَا الْـجُـودِ[٦]

---

(١) السقيم: المريض. المنجود: الحزين. المنجود: طالب العون. يذكر الشاعر أن المتوفى كان قد أصيب بجراح قاتلة، فلم يشف وأدّى ذلك إلى وفاته، رغم كلّ محاولات شفائه، ولكن دون طائل.

(٢) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. المصفود: المقيّد بالأصفاد والسلاسل. إنه القدر، والإنسان يقوم بما يتوجّب عليه من عمل، ولكن من كُتب عليه الموت توفّرت دواعيه فسلبته رمقه الأخير، وكان الموت.

(٣) و (٤) ومن العزاء أن موت عضو من أسرة كثيرة العدد تضيق برجالها العظام الصحاري لا يُؤثر كثيراً بمصير سيادة أميرها وسيدها، فالباقي من رجالها فيهم الخير وهم عماد مجدها، فإذا ما دعت الدواعي كانوا أسوداً ينتشرون في البوادي كرياح هوجاء تهبّ بعنف مدمّر. والأرواح: الرياح. المراويد: الرياح الهوجاء تهبّ في كل اتّجاه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. السنبك: طرف حافر الفرس. الجلاميد، الواحد جلمود: الصخور. ولشدّة اندفاع خيول جيشه، فإن سنابك خيله طبعت الحرف الأول على الصخور، والصخور طويلة الأعمار، ممّا يعني خلود العين، وهي أول حرف من اسم علي، لسيف الدولة.

(٦) يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن العزاء لا يُسلي؛ فالموت طوى المتوفى، ولكن =

وَمِـــنْ مُـنَـانَــا بَــقَــاؤُهُ أَبَــداً
حَــتَّــى يُـعَـزَّى بِـكُــلِّ مَـوْلُــودِ(١)

مصائب قوم عند قوم فوائد

قال وقد أراد سيف الدولة قصد خرشنة فعاقه الثلج عن ذلك:

[الطويل]

عَــوَاذِلُ ذَاتِ الْــخَــالِ فِــيّ حَــوَاسِــدُ
وَإِنَّ ضَجِيعَ الْـخَـوْدِ مِـنِّـي لَـمَـاجِـدُ(٢)

يَــرُدُّ يَــداً عَــنْ ثَــوْبِـهَــا وَهْــوَ قَــادِرٌ
وَيَـعْـصِي الْـهَـوَى فِي طَيْـفِـهَا وَهْوَ رَاقِـدُ(٣)

مَتَى يَشْتَفِي مِنْ لاعِجِ الشَّوْقِ فِي الْحَشَى
مُـحِـبٌّ لَـهَـا فِـي قُـرْبِـهِ مُـتَـبَـاعِـدُ(٤)

إِذَا كُـنْـتَ تَـخْـشَـى الْـعَارَ فِي كلِّ خَـلْـوَةٍ
فَـلِـمْ تَـتَـصَـبَّـاكَ الْـحِـسَـانُ الْـخَـرَائِـدُ(٥)

= العزاء أن أعماله سوف تبقى بالذاكرة حيّة لشدّة كرمه وشجاعته الفائقة التي استخدمهما لإعلاء شأن الأمير.

(١) يدعو الشاعر معبّراً عن أمانيه لو يبقى المتوفى حيًا ليعزّى بكل مولود.

(٢) الخَوْد: المرأة الحسناء الناعمة. العواذل، الواحد عذول: اللائم. الضجيع: المشارك في الفراش. ثمة من يحسد ذات الخال، الحسناء الجميلة، يلومها على أنها أحبّت الشاعر الماجد النبيل، وهي تشاركه الفراش.

(٣) يصف الشاعر نفسه بالعفاف، فهو لا يقربها فلا يُدنّس عفافها مع أنه قادر على ذلك، ذلك أنه يكره الفاحشة، وكذلك نفسه لا تحدثه بوسواس الشياطين حتى في حال نومه العميق وطيفُها يمثل أمامه.

(٤) اللاعج: المحرق. الحشا: ما اضطمّت عليه الضلوع. يُعاني الشاعر حبًا عظيماً في ضلوعه، واللهب يكاد يُحرق ما في قلبه لشدّة شوقه، ورغم ذلك فهو لا يرضى بأن يُقدم على ما يُسيء إلى حبيبته رغم قربه بدنياً إلّا أنه يبعد عنها وجدانياً.

(٥) تتصبّاك: تستميلك. الخرائد الواحدة خريدة: الحييّة الخفيضة الصوت من النساء. يصوّر الشاعر صراعه النفسي؛ إنه بين أمرين؛ إنه يخاف من تجربة تُودي به إلى الندم =

أَلَحَّ عَلَيَّ السُّقْمُ حَتَّى أَلِفْتُهُ
وَمَلَّ طَبِيبِي جَانِبِي وَالْعَوَائِدُ[(١)]

مَرَرْتُ عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَحَمْحَمَتْ
جَوَادِي وَهَلْ تَشْجُو الْجِيَادَ المعاهِدُ[(٢)]

وَمَا تُنْكِرُ الدَّهْمَاءُ مِنْ رَسْمِ مَنْزِلٍ
سَقَتْهَا ضَرِيبَ الشَّوْلِ فِيهِ الْوَلَائِدُ[(٣)]

أَهُمُّ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا
تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ[(٤)]

= وعذاب الضمير، ذلك أنه يخاف من الاختلاء بالحسان الخرائد، ومع ذلك فثمة نزوع لديه جارف نحو الحسان من النسوة فيستملنه بجمالهن ورقتهن وسحرهن.

(١) ألحّ: لجّ في ملازمته. السقم: المرض. ألفته: اعتدت عليه. العوائد، الواحد عائد: زائرو المريض. ثمة معاناة لم يستطع الشاعر أن يتملّص منها، إنها تُلازمه؛ مرض مزمن لا فكاك من براثنه رغم المحاولات، فالطبيب عجز وداخله الملل من تلك الحالة فلا شفاء، كلّ المحاولات باءت بالفشل، حتى عوائده نفضوا أيديهم من حالته.

(٢) حمحمت الفرس: أصدرت هذا الصوت إذا طلبت العلف. الجواد: الفرس. تشجي: تحزن. المعاهد، الواحد معهد: الديار. في محاولة الشاعر تصوير شوقه لديار الحبيبة جعل جواده يُعبر عن ذلك الحبّ الجارف، فأصدر صوتاً دلّ على ما يربطه بذلك المكان من علاقة حميمة، ممَّا أثار دهشة صاحبه فسأل نفسه عن سرّ ذلك.

(٣) يقصد بالدهماء: فرسه السوداء. الضريب: المزيج من ألبان شتّى. الشول: الناقة التي جفّ ضرعها من زمن بعيد. الولائد، الواحدة وليدة: الخادم من الجواري. يقرّ الشاعر بأن فرسه من الإخلاص على قدر كبير فقد اعتادت لزمن طويل أن ترتوي بألبان النياق التي جفّت ضروعها، فضلاً عن معرفتها بالخادمات اللواتي كنّ يقمن على العناية بها من الجواري؛ فكان من الطبيعي أنها تقدّر حسن الصنيع لهن.

(٤) أهمّ بأمر: أريد أن أنهض به. ثمّة أمر جلل يودّ الشاعر النهوض به، ولكنّ ظروفاً تحول بينه وبين تحقيق رغبته، فالزمن يمرّ مرّ السحاب وأسباب نجاحه لا تتوفّر يلزمها المال والعتاد والرجال، وهو لا يملك من كلّ ذلك ما يقوم بحاجته. فضلاً عن مطاردة لا هوادة فيها بينه وبين الزمن.

وَحِـيـدٌ مِـنَ الْـخُـلّانِ فِـي كُـلِّ بَـلْـدَةٍ
إِذَا عَـظُـمَ الـمَـطْـلُوبُ قَـلَّ الـمُـسَـاعِـدُ[(١)]
وَتُـسْـعِـدُنـي فِـي غَـمْـرَةٍ بَـعْـدَ غَـمْـرَةٍ
سَـبُوحٌ لَـهَـا مِـنْـهَـا عَـلَـيْـهَـا شَـوَاهِـدُ[(٢)]
تَـثَـنَّـى عَـلَـى قَـدْرِ الـطِّـعَـانِ كَـأَنَّـمَـا
مَـفَـاصِـلُـهَـا تَـحْـتَ الـرِّمَـاحِ مَـرَاوِدُ[(٣)]
وَأُورِدُ نَـفْـسِـي وَالـمُـهَـنَّـدُ فِـي يَـدِي
مَـوَارِدَ لا يُـصْـدِرْنَ مَـنْ لا يُـجَـالِـدُ[(٤)]
وَلٰـكِـنْ إِذَا لَـمْ يَـحْـمِـلِ الْـقَـلْـبُ كَـفَّـهُ
عَـلَـى حَـالَـةٍ لَـمْ يَـحْـمِـلِ الْـكَـفَّ سَـاعِـدُ[(٥)]

---

(١) الخلّان، الواحد خليل: الأصحاب. لدى الشاعر معرفة تامّة بمشكلته تتمحور حول وضعه؛ إنه وحيد حيثما رحل وحلّ، فلا صاحب ولا يعرف كيف يصطنع الأصحاب لتكبّره، وهو لا يحسن المصانعة، فكان أن وقف منه الناس موقف الحذر والريبة والشّكّ، وكذلك فالمطلوب صعب المنال في مجتمع قلّما قدّر المواهب وسعى إلى تحقيق ما تصبو إليه.

(٢) و (٣) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ١ :٢١. الغمرة: الضيق والشدّة. السبوح من الخيل التي كأنها تسبح في عدوها المسرع. شواهد: دلائل، من دواعي سرور الشاعر أن يعتلي متن فرس سبوح في المعارك التي يخوض غمارها، دالّة في ذلك على كرم أصلها، فتنثني بفارسها لتفادي طعن رماح الأعداء بسهولة ويسر حتى كأن مفاصلها مراود تدور كيفما شاء فارسها أن تدور لطواعيتها قائدها.
- ثمة بيت لم يرد في الديوان، وهو على النحو التالي خلف البيت السابق:
مُـحَـرَّمَـةٌ أكـفـالُ خـيـلـي عـلـى الـقـنـا مُـحَـلَّـلَـةٌ لَـبَّـاتُـهـا والـقَـلائِـدُ
واللبّات: أعالي الصدور. محلّلة القلائد: أي مواضع القلائد من الأعناق. يفخر الشاعر بشجاعته، فهو لا يفرّ من المعركة، لذا فإنه يُواجه خصومه في المعركة، فإذا بخيوله تستقبل طعنات رماح أعدائه بصدورها، ولا تنال أعجازها؛ إنها على شاكلته.

(٤) و (٥) أورد نفسي: أعرّضها للمهالك. المهنّد: السيف المصنوع في الهند. يُجالد: يُقاتل بصبر. يُشيد الشاعر بشجاعته مفاخراً أنه لا يهاب الموت فيرمي بنفسه في =

خَلِيلَيَّ إنِّي لا أرَى غَيْرَ شَاعِرٍ
فَلِمْ مِنْهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ[(١)]

فَلَا تَعْجَبَا إنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ
وَلٰكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدُ[(٢)]

لَهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّبْعِ فِي الْحَرْبِ مُنْتَضٍ
وَمِنْ عَادَةِ الْإحْسَانِ وَالصَّفْحِ غَامِدُ[(٣)]

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ
تَيَقَّنْتُ أنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدُ[(٤)]

أحَقُّهُمُ بِالسَّيْفِ مَنْ ضَرَبَ الطُّلَى
وَبالْأمْنِ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدائِدُ[(٥)]

= المعمعة مستعملاً سيفه الهندي مقابل رماح أعدائه ليتفادَوْا ضرباته القاتلة، وفي جوّ رهيب لا يصبر فيه إلّا الأقوياء من الأبطال في المعارك. هناك تنكشف حقائق الرجال ذوات القلوب الواثقة بقدراتها القتالية، فاليد وسيلة تنفيذ ما تمليه القلوب على أصحابها، والسواعد القوية إنّما تأتمر بقلوب أصحابها.

(١) و (٢) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. يُخاطب الشاعر صاحبيه على طريقة السالف من الشعر معلناً أنه الحقّ والحقّ، فالاسم يوافق مسمّاه مصطلحاً وعملاً، وما بقي من الشعراء يدّعون أنهم كذلك وهم ليسوا كذلك؛ فهم يسطون على شعره وينحلونه أنفسهم، وأيضاً السيوف كثيرة وأصحابها كثيرون ولكن واحداً يلقّب بسيف الدولة واحد فرد تنطبق عليه التسمية دون غيره تماماً كالشاعر. وبذلك يتخلّص الشاعر إلى المدح.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٨. انتضى السيف: جرّده من غمده. يمدح الشاعر سيف الدولة مفضّلاً إياه على سائر السيوف الحديدية، إنها لا تتحرّك بإرادتها وإنما بإرادة حامليها بينما يُحرّك سيف الدولة طبع كريم فينهض إلى الحرب ليقضي على أعدائه مستعيناً على ذلك بشجاعته وحسن بلائه وتوفيق خالقه عزّ وجلّ، ومن طبيعته الحِلم والصفح الجميل.

(٤) يُفضل الشاعر سيف الدولة فيجعله في أرفع مكان، وذلك أن حسن التوفيق حليفه دون غيره، فإذا بسائر الناس يسعون لبلوغ مكانته ولكن الدهر حرمهم لقصور سعيهم وضعف ملكاتهم.

(٥) الطُّلى، الواحدة طُلية: العُنُق. يرى الشاعر أن ممدوحه وصل إلى ما وصل إليه =

وَأَشْقَى بِلَادِ اللَّهِ مَا الرُّومُ أَهْلُهَا
بِهٰذَا وَمَا فِيهَا لِمَجْدِكَ جَاحِدُ[١]

شَنَنْتَ بِهَا الْغَارَاتِ حَتَّى تَرَكْتَهَا
وَجَفْنُ الَّذِي خَلْفَ الْفِرَنْجَةَ سَاهِدُ[٢]

مُخَضَّبَةٌ وَالْقَوْمُ صَرْعَى كَأَنَّهَا
وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا سَاجِدِينَ مَسَاجِدُ[٣]

تُنَكِّسُهُمْ وَالسَّابِقَاتُ جِبَالُهُمْ
وَتَطْعَنُ فِيهِمْ وَالرِّمَاحُ الْمَكَايِدُ[٤]

وَتَضْرِبُهُمْ هَبْراً وَقَدْ سَكَنُوا الْكُدَى
كَمَا سَكَنَتْ بَطْنَ التُّرَابِ الأَسَاوِدُ[٥]

= بشجاعته وحسن بلائه في الحروب، لذا فهو أحقّ بلقبه لأنه يُحسن ضرب الرقاب بسيفه وبنفسه، وهو بالأمن أحقّ، فهو يصنع الأمن لقومه فيخوض الغمرات دفاعاً عن إمارته ومن فيها من بشر وكائنات.

(١) لقد كان سيف الدولة سبب شقاء بلاد الروم لما أنزل بهم من الخسف والهوان، فأدخل في قلوبهم الرعب بأفعال ممّا حملهم على الاعتراف بشجاعته وبطولته؛ فهم لا يُنكرون فِعاله فيهم، وعلو مكانته في بني قومه.

(٢) شنّ الغارة: هاجم بجنده من كل مكان. ساهد: ساهر. الفرنجة: قرية في أقصى بلاد الروم. يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأنه سبب رعب شديد لبلاد الروم، حتى من كان في أقصاها يعيش في خوف دائم لا يعرف للنوم طعماً بسبب توالي غارات الأمير على بلادهم التي عمّها الموت والخراب.

(٣) يروى «والخيل صرعى» بدلاً من «والقوم صرعى». الخلوق: الطيب. يرسم الشاعر ما فعله سيف الدولة بالقوم؛ إنهم أجساد لا حِراك فيهم تناثرت أجسادهم على الصعيد وقد تغطّت بدمائهم كأنها طيب تفوح منها رائحة نصر الأمير، وهم على حالتهم هذه كأنهم يسجدون إذعاناً لمشيئته، مقرّين بهزائمهم.

(٤) تنكّسهم: تقلبهم. السابقات: الخيول. يصف الشاعر أفاعيل سيف الدولة بأعدائه الذين يتهاوَوْن عن جيادهم مجندلين إلى الأرض، وكانوا يحتمون بها، إما فِراراً وإما استسلاماً لموت مقدّر برماح جند الأمير؛ وذلك أعنف كيد ينزل بهم.

(٥) الهبر: تقطيع اللحوم. الكدى، الواحدة كدية: الأراضي الصلبة. الأساود: الحيات =

وَتُضْحِي الْحُصُونُ الْمُشْمَخِرَّاتُ في الذُّرَى
وَخَيْلُكَ فِي أَعْنَاقِهِنَّ قَلَائِدُ[١]
عَصَفْنَ بِهِمْ يَوْمَ اللُّقَانِ وَسُقْنَهُمْ
بِهِنْرِيطَ حَتَّى ٱبْيَضَّ بِالسَّبْيِ آمِدُ[٢]
وَأَلْحَقْنَ بِالصَّفْصَافِ سَابُورَ فَانْهَوَى
وَذَاقَ الرَّدَى أَهْلَاهُمَا وَالْجَلَامِدُ[٣]
وَغَلَّسَ فِي الْوَادِي بِهِنَّ مُشَيَّعٌ
مُبَارَكُ مَا تَحْتَ اللِّثَامَيْنِ عَابِدُ[٤]
فَتىً يَشْتَهِي طُولَ الْبِلَادَ وَوَقْتُهُ
تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتُهُ وَالْمَقَاصِدُ[٥]

= العظيمة. يصف الشاعر ملاحقة جند الأمير لأعدائهم الفارّين المهزومين، وقد أكثروا فيهم قتلاً وكأنهم جزّارون يبرون رؤوسهم ولم تنفع محاولات الفرار وهم في أظهرهم حيثما حلّوا ولو اختبأوا في قعر البئر كما تختفي في بطن الأرض الحيّات العظيمة.

(١) المشمخرّات: المرتفعة. الذرى، الواحدة ذروة: قمم الجبال. يصف الشاعر حصون الأعداء التي تتخذ من قمم البلاد ملجأً لها لتحمي نفسها من غارات سيف الدولة، ولكن دون جدوى فخيوله تتسلق تلك الجبال وتحيط بتلك الحصون بقدرة عجيبة كأنها قلائد تتزين بها غادة حسناء.

(٢) عصفت بهم الحرب: أودت بهم ودمّرتهم. اللُّقان وهِنريط: من بلاد الروم. آمد: إحدى مدن المسلمين من بلاد الشام من مدن الثغور. يذكر الشاعر يوماً من أيام النصر المؤزّر، فقد اكتسح سيف الدولة بجيشه اللقان وهنريط؛ فإذا بخيوله تزرع في تلك المدن الدمار، وقد استشرى فيهم القتل وكثر السبي في نسائهم وأولادهم حتى غطّت مدينة آمد غيمة بيضاء منهم.

(٣) الصفصاف وسابور: من حصونهم المنيعة. انهوى: انهار. إنها رحلة النصر، والزمن يكتسح حصونهم المنيعة الصفصاف سرعان ما سقط بأيدي فرسان الأمير وتبعه سابور، فكانا طعماً للنيران، فأكلت كلّ شيء، البشر والشجر والأحجار، فإذا الصخور تستحيل رماداً كأنها لم تكن.

(٤) و (٥) غلّس: سار غلساً، والليل يلفظ أنفاسه الأخيرة. المشيع: الشجاع الذي لا يرهب الموت. يقصد بما تحت اللثام: الوجه. إن سيف الدولة قائد شجاع قد اقتحم =

أَخُــو غَــزَواتٍ مَــا تُــغِــبُّ سُــيُــوفُــهُ
رِقَــابَــهُــمُ إِلَّا وَسَــيْــحَــانُ جَــامِــدُ[(١)]

فَــلَــمْ يَــبْــقَ إِلَّا مَــنْ حَــمَــاهَــا مِــنَ الــظُّــبَــى
لَــمَــى شَــفَــتَــيْــهَــا وَالــثُّــدِيُّ الــنَّــوَاهِــدُ[(٢)]

تُــبَــكِّــي عَــلَــيْــهِــنَّ الْــبَــطَــارِيــقُ فِــي الــدُّجَــى
وَهُــنَّ لَــدَيْــنَــا مُــلْــقَــيَــاتٌ كَــوَاسِــدُ[(٣)]

بِــذَا قَــضَــتِ الأَيَّــامُ مَــا بَــيْــنَ أَهْــلِــهَــا
مَــصَــائِــبُ قَــوْمٍ عِــنْــدَ قَــوْمٍ فَــوَائِــدُ[(٤)]

وَمِــنْ شَــرَفِ الْإِقْــدَامِ أَنَّــكَ فِــيــهِــمِ
عَــلَــى الْــقَــتْــلِ مَــوْمُــوقٌ كَــأَنَّــكَ شَــاكِــدُ[(٥)]

= وادي الأعداء والليل يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومن صفاته أنه مباركة خطواته وموفّق بإرادة اللّٰه تعالى، يعبده وهو يعمر قلبه طموح عظيم لتشمل سيطرته بلاداً أوسع من إمارته، ولكن ممّا يحول دون ذلك ضيق الوقت وعدد جنده.

(١) غبّ المرء القوم: زارهم يوماً وغاب عنهم يوماً آخر. سيحان: نهر في بلاد الروم. يذكر الشاعر الأسباب التي تحول دون استمرار سيف الدولة في الحروب؛ إنه يغزوهم يوماً ليتوقّف عن ذلك يوماً آخر ثم ليعود بعد ذلك، ومن أسباب ذلك أن فصل الشتاء يعمل على حمايتهم فتكلّل بلادهم الثلوج، والعربي لم يعتد القتال في جوّ كهذا.

(٢) الظبى، الواحدة ظُبة: شفرة السيف، اللمى: سمرة الشفة السفلى للمرأة، وذلك من مظاهر الجمال عند العرب. النواهد، الواحد نهد: الأثداء. ولكثرة ما أنزل في رجالهم من قتل فلم يبق فيهم سوى النسوة، ولولا ذلك ما ترك في بلادهم من بشر.

(٣) و (٤) البطاريق، الواحد بطريق: قواد الروم. كواسد: لم يتزوّجن. إنهنّ يرسفن في الأسر والبطارقة يبكون بناتهم وزوجاتهم ولا حيلة لهم في ردّ حريتهن؛ إنه القدر الذي حتّم عليهن هذا المصير البئيس في ديار الإسلام، وما من أحد يرغب فيهن. وذلك من مصائب القوم وفوائد العرب نصر، وذلّ لأعدائهم.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. مومِوق من المقة: المحبَّة أي محبوب. الشاكد: المنعم. الإقدام: الشجاعة. يخاطب الشاعر سيف الدولة أنه محبوب لدى أعدائه وذلك بسبب قتلهم بأيدي شجاع مقدام، وفي ذلك تكريم لهم فلم يُقتلوا بأيدي الغدّارين والجبناء، وتلك نعمة تمنّها عليهم.

وَأَنَّ دَمـــاً أَجْـــرَيْــتَـــهُ بِـــكَ فَـــاخِـــرٌ
وَأَنَّ فُـــؤَاداً رُعْـــتَـــهُ لَـــكَ حَـــامِـــدُ(١)
وَكُـلٌّ يَـرَى طُـرْقَ الـشَّـجَـاعَـةِ وَالـنَّـدَى
وَلٰكِـنَّ طَـبْـعَ النَّـفْـسِ لِلنَّـفْسِ قَـائِـدُ(٢)
نَـهَـبْـتَ مِـنَ الأَعْـمَـارِ مَـا لَـوْ حَـوَيْـتَـهُ
لَـهُـنِّـئَـتِ الـدُّنْـيَـا بِـأَنَّـكَ خَـالِـدُ(٣)
فَـأَنْـتَ حُـسَـامُ الـمُـلْـكِ وَٱلـلَّـهُ ضَـارِبٌ
وَأَنْـتَ لِـوَاءُ الـدِّيـنِ وَالـلَّـهُ عَـاقِـدُ(٤)
وَأَنْـتَ أَبُـو الـهَـيْـجَـا ٱبْـنُ حَـمْـدَانَ يَـا ٱبْـنَـهُ
تَـشَـابَـهَ مَـوْلُـودٌ كَـرِيـمٌ وَوَالِـدُ(٥)
وَحَـمْـدَانُ حَـمْـدُونٌ وَحَـمْـدُونُ حَـارِثٌ
وَحَـارِثُ لُـقْـمَـانٌ وَلُـقْـمَـانُ رَاشِـدُ(٦)

---

(١) و (٢) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. يخاطب الشاعر سيف الدولة بأن الدماء التي تُسفك على يديه تفخر بأنها سالت بسيوفه، حتى القلوب التي زرع فيها الخوف تحمد فعله لشجاعته وهؤلاء يقدّرون من يتّسم بها، لأن قلّة من القادة من أُلهموا طموحاً وكرماً تدفعهم نفوسهم إلى سلوك طريق المجد بالتضحيات بسفاسف الأمور، ومن هنا يكتب لهم الخلود وذكرهم لن يموت.

(٣) ورد البيت في: معاهد التنصيص، للعباسي ٢: ٣٩. ويقول الشاعر لسيف الدولة أنه قضى على أعمار الكثير من أعدائه لشجاعته وقوّة ساعده حتى لو أنه استأثر بتلك الأعمار لنفسه لعاش خالداً أبد الدهر ولفرحت به الدنيا وبخلوده وزهت أيامها ببقائه حيًّا سالماً ليزداد في نهب أعمار الأعداء.

(٤) يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأنه بمثابة حامي الملك وهو السيف الرادع للأعداء وحامي السلطان ورعيّته، وهو إرادة اللّه تعالى التي يضرب بها أعداءه من غير المسلمين، وكذلك هو راية بها يأتمُّ المسلمون عقدها وعضدها بإرادته سبحانه وتعالى.

(٥) و (٦) يُشيد الشاعر بممدوحه وبأجداده، إنه والد أبيه أبي الهيجا، وكلاهما متشابهان في كلّ شيء، في الكرم والشجاعة وسماحة النفس والحِلم، ثم يعدّد سلسلة توارث الخلف من السلف مزاياه وخصائصه الخلقية والأخلاقية.

أُولَـئِـكَ أَنْـيَـابُ الْـخِـلافَـةِ كُـلُّـهَـا
وَسَـائِـرُ أَمْـلَاكِ الْـبِـلَادِ الـزَّوَائِـدُ[١]
أُحِـبُّـكَ يَـا شَـمْـسَ الـزَّمَـانِ وَبَـدْرَهُ
وَإِنْ لَامَـنِـي فِـيكَ الـسُّـهَـى وَالْـفَـرَاقِـدُ[٢]
وَذَاكَ لِأَنَّ الْـفَـضْـلَ عِـنْـدَكَ بَـاهِـرٌ
وَلَـيْـسَ لِأَنَّ الْـعَـيْـشَ عِـنْـدَكَ بَـارِدُ[٣]
فَـإِنَّ قَـلِـيـلَ الْـحُـبِّ بِـالْـعَـقْـلِ صَـالِـحٌ
وَإِنَّ كَـثِـيـرَ الْـحُـبِّ بِـالْـجَـهْـلِ فَـاسِـدُ[٤]

لكل امرىء ما تعوّد

يمدحه ويهنئه بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة (٩٥٣م)، أنشده إياها في ميدانه بحلب وهما على فرسيهما:

[الطويل]

لِـكُـلِّ ٱمْـرِىءٍ مِـنْ دَهْـرِهِ مَـا تَـعَـوَّدَا
وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ في الْعِدَى[٥]

---

(١) يُنوّه الشاعر بمكانة أسلاف سيف الدولة وبه لقد كانوا أنياب الخلافة، فبهم تقوى وبهم تستمرّ عزيزة منيعة، فهم حُماتها وفرسانها، وما تبقى من الأمراء والملوك أعداد فقط لا يزيد بأسهم إلّا على أنفسهم فلا يمنعون أعداءهم عنهم فكيف بهم أمام مصير الخلافة؟

(٢) و (٣) السهى: نجم صغير خفي من بنات نعش الصغرى، الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به. يُعلن الشاعر عن محبّته سيف الدولة، ذلك أنه شمس الزمان، تتمثل صفاتها عن قوّة ونور وعطاء واشتمال لكمال الكون، وهو أيضاً بدر يتمثل فيه الأنس والصفاء والجمال والحبّ، وهو لا يهتم بشيء غير ذلك من موجودات هذا الكون الفسيح لأنها لا تؤثر بمصائر البشر. وسبب ذلك أنه صاحب فضل لا يُنكر يسطع سطوع الحق الجليّ ولسبب آخر لشعور الشاعر بالأمن في ظل أمير يمنحه الدفء والحنان والحبّ والتقدير.

(٤) الجهل: الحمق. يلمّح الشاعر أن حبّه لسيف الدولة بني على علم بما يمتاز به من صفات تجعله يتربّع في قلبه بصدق، وذلك خلاف الكثيرين الأغبياء الذين يُحبّونه حبّ الحمقى والجهلة، وفي ذلك مطعن بخصوم الشاعر وحسّاده كما يعتقد.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع =

وَأَنْ يُكْذِبَ الإرْجَافَ عَنْهُ بِضِدِّهِ
وَيُمْسِي بِمَا تَنْوِي أَعَادِيهِ أَسْعَدَا (١)

وَرُبَّ مُرِيدٍ ضَرَّهُ ضَرَّ نَفْسَهُ
وَهَادٍ إِلَيْهِ الْجَيْشَ أَهْدَى وَمَا هَدَى (٢)

وَمُسْتَكْبِرٍ لَمْ يَعْرِفِ ٱللَّهَ سَاعَةً
رَأَى سَيْفَهُ فِي كَفِّهِ فَتَشَهَّدَا (٣)

هُوَ الْبَحْرُ غُصْ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِناً
عَلَى الدُّرِّ وَٱحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا (٤)

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْبَحْرَ يَعْثُرُ بِالْفَتَى
وَهٰذَا الَّذِي يَأْتِي الْفَتَى مُتَعَمِّدَا (٥)

= حكميّ، مفاده أن المرء يعمل طوال حياته بحسب ما اعتاد عليه، ذلك أن العادة تتأصل منذ الصغر وتُلازم الإنسان طوال حياته، لذا فعادة سيف الدولة مهاجمة أعدائه وإعمال سيفه فيهم تقتيلاً ورمحه تجريحاً.

(١) الإرجاف: إشاعة الأكاذيب. من الممدوح الردّ على أعدائه بضدّ ما يزعمون، فهم يُشيعون الأقاويل الفاسدة ويُحاولون تأنيب النفوس ضدّه فيردّ عليهم بالتنكيل بهم ممَّا يجعل نجم سعده يعلو على حظوظهم وتهبط بهم حظوظهم إلى درك أسفل ممَّا كانوا عليه في سابق عهدهم.

(٢) ومن حسن سعده أن عدوًّا أراد الغدر بسيف الدولة فدارت عليه الدوائر وبدل أن يُوقع به وقع فريسة سهلة هو وجيشه وانقلب سحر الساحر عليه وبالاً وخسارة.

(٣) ومن إشراقات التوفيق أن الكافر الذي أنكر وجود اللّٰه عزّ وجلّ ما إن شاهد سيف الدولة يهمّ بالفتك به حتى خرّ مذعناً يعلن إسلامه بنطق الشهادة، إمّا خوفاً من سيفه وإمّا إيماناً صادقاً لما رأى نور وجهه يتلألأ بإشراقة الإيمان.

(٤) و (٥) يصف الشاعر سيف الدولة في كلا حالتيه؛ إنه بحر عميق الغور، ففي سكونه جمال وروعة وغنًى يسهل الغوص فيه وحصول ما يحبّ المرء من حالة الهدوء لديه، ولكن على المرء أن يحذر ركوبه في حالة اضطرابه، موج عنيف يتدافع عنيفاً فيسحق كلّ شيء ويبتلع ما يُصادف أمامه بلا رحمة، وثمّة فرق بين البحر الذي قد ينكب المرء ولم يقصد ذلك، وإنما حظّ شيء ساق ذلك، بينما سيف الدولة يقصد ذلك عن سابق تصميم.

تَــظَــلُّ مُــلُــوكُ الأرْضِ خَــاشِــعَــةً لَــهُ
تُــفَــارِقُــهُ هَــلْــكَــى وَتَــلْــقَــاهُ سُــجَّــدَا[١]
وَتُــحْــيِــي لَــهُ الــمَــالَ الــصَّــوَارِمُ وَالْــقَــنَــا
وَيَــقْــتُــلُ مَــا تُــحْــيِــي الــتَّــبَــسُّــمُ وَالْــجَــدَا[٢]
ذَكِــيٌّ تَــظَــنِّــيــهِ طَــلِــيــعَــةُ عَــيْــنِــهِ
يَــرَى قَــلْــبُــهُ فــي يَــوْمِــهِ مَــا تَــرَى غَــدَا[٣]
وَصُــولٌ إلــى الــمُــسْــتَــصْــعَــبَــاتِ بِــخَــيْــلِــهِ
فَــلَــوْ كَــانَ قَــرْنُ الــشَّــمْــسِ مَــاءً لأَوْرَدَا[٤]
لِــذٰلِــكَ سَــمَّــى ٱبْــنُ الــدُّمُــسْــتُــقِ يَــوْمَــهُ
مَــمَــاتــاً وَسَــمَّــاهُ الــدُّمُــسْــتُــقُ مَــوْلِــدَا[٥]

---

(١) يرفع الشاعر سيف الدولة فوق معاصريه من الملوك، فهم يخضعون إمّا مكرهين رغماً عنهم، يُكرههم على ذلك بحدّ سيفه، وإما مذعنين مستسلمين لإرادته موافقين على سيطرته عليهم.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة للجرجاني: ٤١٨. الصوارم، الواحد صارم: السيف البتّار. القنا: الرماح. الجدا: الكرم. وسيلة الغنى عند سيف الدولة مصدرها واحد إنه القتال ضدّ الأعداء يسلبهم أموالهم وأعمارهم بسيوفه ورماحه، وهو يقتل تلك الأموال بتوزيعها لقاء ابتسامة من أحبائه وأتباعه، لشدّة كرمه وحبّه لمن ينعم بدفء عطائه.

(٣) يصف الشاعر ممدوحه بأن حدسه قوي بحيث يتوقّع ما يحدث له قبل تحققه في الغدّ، فإذا به يقع لأنه ذو همَّة عالية عمل بما كان يتوقّع حدوثه، فكان ظنّه باعثاً على تحقيق رؤاه.

(٤) وصول: من صيغ المبالغة. إنه طمّوح بعيد وإرادة قويّة بحيث يدرك مراميه ولو كانت مستحيلة، فخيله ترقى به إلى كل ما هو صعب، وإنه ليرد الماء ولو كانت مصادرها عند قرن الشمس لأوردها خيله لشجاعته وبسالته.

(٥) يرجع الشاعر إلى معركة انتصر فيها سيف الدولة، وكان من نتائج هذا النصر أن الدمستق فرّ مؤثراً النجاة بنفسه رغم جراحه، فاعتبر ذلك ولادة جديدة، وقد ترك ابنه ليقع أسيراً بأيدى سيف الدولة، فأيقن هذا بأن الموت سيجرفه إلى أحضانه في ذلك اليوم.

سَرَيْتَ إلى جَيْحَانَ مِنْ أَرْضِ آمِدٍ
ثَلاثاً لَقَدْ أَدْنَاكَ رَكْضٌ وَأَبْعَدَا[(١)]

فَوَلَّى وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجُيُوشَهُ
جَمِيعاً وَلَمْ يُعْطِ الْجَمِيعَ لِيُحْمَدَا[(٢)]

عَرَضْتَ لَهُ دُونَ الْحَيَاةِ وَطَرْفِهِ
وَأَبْصَرَ سَيْفَ اللَّهِ مِنْكَ مُجَرَّدَا[(٣)]

وَمَا طَلَبَتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ غَيْرَهُ
وَلٰكِنَّ قُسْطَنْطِينَ كَانَ لَهُ الْفِدَا[(٤)]

فَأَصْبَحَ يَجْتَابُ الْمُسُوحَ مَخَافَةً
وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الدِّلَاصَ الْمُسَرَّدَا[(٥)]

---

(١) جيحان: نهر في بلاد الروم. آمد: إحدى مدن الثغور الساحلية القريبة من بلاد الروم. يصف الشاعر سير جيش سيف الدولة كان ذلك ليلاً فسرى بجنده للتعتيم على وجهة سيره خداعاً للأعداء وتمويهاً عن العيون المدسوسة، من آمد حتى بلغ نهر جيحان بسرعة زحف، فاقترب من عدوّه وبعد عن بلده في ثلاث ليال.

(٢) ولّى: فرّ. لقد فرّ الدمستق تاركاً ابنه وجيشه لمصير بئيس، أفضل الفرص فيه الأسر وعار لا يُحمد الدمستق عليه يسطّر مدى الدهر فيسجل حياته على أنه جبان رعديد وخائن لبني قومه فأودى بهم إلى التهلكة وكان في غنًى عن ذلك لو سالم الأمير.

(٣) و (٤) عرضت: بدوْت، ظهرت. الطرْف، بسكون الراء: النظر. إنها مواجهة غير متكافئة؛ الدمستق نظر حواليه فإذا بالخوف يستولي عليه وتنهار قواه، فقد أبصر شيئاً لم يعهده من قبل، إنه سيف إلهيّ يتلألأ نوره مشعًّا ممَّا أعمى بصره وبصيرته فآثر السلامة على الموت وفرّ هارباً وقد نجا بعدما كان هدفاً للرماح، فإذا بولده قسطنطين يفدي أباه بنفسه مؤثراً التضحية علّ جيش الأمير يشتغل بأسره وأسر الجيش فينجو الوالد من المصير الحزين.

(٥) يجتاب: يرتدي. المسوح: لباس الصوفية وكهنة النصارى. الدلاص: الدروع البراقة. المسرّد: المنسوج بإتقان بعضه فوق بعض. لقد تبدلت أحوال الدمستق، فإذا به يدخل في سلك الرهبنة تكفيراً عمَّا ارتكبه من ذنوب، وقد أيقن أنه لا يستطيع الانتصار على سيف الدولة.

وَيَـمْـشِـي بِـهِ الْـعُـكَّـازُ فِي الـدَّيْـرِ تَـائِـبـاً
وَمَـا كَـانَ يَـرْضَـى مَـشْـيَ أَشْـقَـرَ أَجْـرَدَا[١]
وَمَـا تَـابَ حَـتَّـى غَـادَرَ الْـكَـرُّ وَجْـهَـهُ
جَـرِيـحـاً وَخَـلَّـى جَـفْـنَـهُ الـنَّـقْـعُ أَرْمَـدَا[٢]
فَـلَـوْ كَـانَ يُـنْـجِـي مِـنْ عَـلِـيٍّ تَـرَهُّـبٌ
تَـرَهَّـبَـتِ الأَمْـلَاكُ مَـثْـنَـى وَمَـوْحَـدَا[٣]
وكُـلُّ ٱمْـرِيءٍ فِـي الـشَّـرْقِ وَالْـغَـرْبِ بَـعْـدَهُ
يُـعِـدُّ لَـهُ ثَـوْبـاً مِـنَ الـشَّـعْـرِ أَسْـوَدَا[٤]
هَـنِـيـئـاً لَـكَ الْـعِـيـدُ الَّـذِي أَنْـتَ عِـيـدُهُ
وَعِـيـدٌ لِـمَـنْ سَـمَّـى وَضَـحَّـى وَعَـيَّـدَا[٥]

---

(١) العكاز عصا يستعين بها لتقدّمه في السنّ. الأشقر من الخيل: الأسرع. الأجرد: القصير الشعر. لقد كان للصدمة التي تلاحقت نتائجها أن أحنت ظهر الدمستق وفتّت من قوّته، فإذا به يتخلّى عن حياة حافلة بالحركة وركوب الخيل، فإذا به يتنحّى عن حياة الجدّ إلى حياة الدعة والانزواء في دير بمصاحبة عكاز قد ألف حياة البساطة.

(٢) و (٣) الكرّ: عطف المحارب على قرنه في ميدان المعركة. النقع: الغبار. إن ما حلّ بالدمستق محزن حقاً، فقد تخلّى عن النزال والجولان في الحروب، وممّا يُؤسف له أنه تشوّه وجهه وقد رسمت الجراح عليه جغرافية هزائمه، وممّا زاد الطين بلّة أن غبار المعارك ألحق بنظره أكبر الأذى فما عاد يُبصر جيّداً. ورغم ما ألمّ به فإن ترهبه لن يُنجيه من خصمه اللدود، فسيف الدولة له بالمرصاد، وحتى الملوك بدورهم إذا استعدَوا الأمير فلن يحميهم ترهبهم من غضبه، ولو دخلوا في ذلك اثنين اثنين أو واحداً واحداً.

(٤) يُعقب الشاعر على ذلك لو أن ما فعله الدمستق يُنجي من قبضة سيف الدولة لحمل ذلك سائر أعدائه على الاقتداء بالدمستق وترهّبوا مؤثرين السلامة باتخاذهم المسوح الأسود في زاوية مظلمة من الحياة.

(٥) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٦٥، ٣٤٦. يتمنّى الشاعر للأمير السعادة ودوام الهناء بالعيد الزمني، والعيد الزمني يُعيّد بعيد أضاءت أنوار انتصاراته وهو عيد أيضاً لفرح الناس بدوامه في إمارته وقيامه بما يتوجّب عليه من أضحيات وأعطيات لمستحقّيها.

وَلَا زَالَـتِ الأَعْـيَـادُ لُـبْـسَـكَ بَـعْـدَهُ
تُـسَـلِّـمُ مَـخْـرُوقـاً وَتُـعْـطَـى مُـجَـدَّدَا[١]

فَـذَا الْـيَـوْمُ فـي الأَيَّـام مِـثْـلُـكَ فـي الْـوَرَى
كـمَـا كُـنْـتَ فِـيـهِـمْ أَوْحَـدَاً كَـانَ أَوْحَـدَا[٢]

هُـوَ الْـجَـدُّ حَـتَّـى تَـفْـضُـلُ الْـعَـيْـنُ أُخْـتَـهَـا
وَحَـتَّـى يَـكُـونُ الْـيَـوْمُ لِـلْـيَـوْمِ سَـيِّـدَا[٣]

فَـيَـا عَـجَـبَـاً مِـنْ دَائِـلٍ أَنْـتَ سَـيْـفُـهُ
أَمَـا يَـتَـوَقَّـى شَـفْـرَتَـيْ مَـا تَـقَـلَّـدَا؟[٤]

وَمَـنْ يَـجْـعَـلِ الـضِّـرْغَـامَ بَـازاً لِـصَـيْـدِهِ
تَـصَـيَّـدَهُ الـضِّـرْغَـامُ فِـي مـا تَـصَـيَّـدَا[٥]

رَأَيْـتُـكَ مَـحْـضَ الْـحِـلْـمِ فِـي مَـحْـضِ قُـدْرَةٍ
وَلَـوْ شِـئْـتَ كَـانَ الْـحِـلْـمُ مِـنْـكَ الـمُـهَـنَّـدَا[٦]

---

(١) و (٢) اللبس: ما يُرتدى. يتمنّى الشاعر دوام تجدّد المناسبات السعيدة، فالأعياد حالة فرحة تتجدّد بدوام العمر؛ يمضي عيد ويتوالى بعده أعياد جديدة ويمتدّ عمر سيف الدولة الأوحد في الناس بفعاله العظيمة وبكرمه الفيّاض، ولهذا العيد قيمة عظيمة لما حمل معه من انتصارات عظيمة، لذا فهو أوحد بمدلوله تماماً كسيف الدولة.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. إنه يوم ليس كسائر الأيام، فهو يوم سعد وفرح تماماً كعين صحيحة لدى إنسان وأختها سقيمة وكذلك يمرّ يوم ويأتي آخر خير منه يحمل البشرى والسعادة.

(٤) الدائل: القائم بأمر الدولة، رأسها، يقصد بذلك الخليفة. شفرتا السيف: حدّاه. يحمل هذا البيت تحريضاً على الخليفة في بغداد، إنه اتّخذ سيف الدولة سيفاً لضرب أعدائه، كما ينمّ على كراهية الشاعر للخليفة، أفلا يخاف ثورة سيف الدولة عليه كعادة القرامطة آنذاك؟!

(٥) الضرغام: من أسماء الأسد. الباز: ضرب من جوارح الطير. ويُردف الشاعر كلامه تفسيراً لما سبق من القول أن الخليفة قد جعل سيف الدولة بازاً يستعين به لاصطياد أعدائه، فإذا به ينقلب عليه ليكون ضحيّته.

(٦) الحلم: العفو عند المقدرة. المهنّد: السيف المصنوع في الهند. يرى الشاعر أن =

وَمَـا قَـتْـلَ الأحْـرَارَ كَـالْـعَـفْـوِ عَـنْـهُـمُ
وَمَـنْ لَـكَ بِـالْـحُـرِّ الَّـذِي يَـحْـفَـظُ الْـيَـدَا؟(١)

إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ الْـكَـرِيـمَ مَـلَـكْـتَـهُ
وَإِنْ أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ الـلَّـئِـيـمَ تَـمَـرَّدَا(٢)

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَى
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى(٣)

وَلٰـكِـنْ تَـفُـوقُ الـنَّـاسَ رَأْيـاً وَحِـكْـمَـةً
كـمـا فُـقْـتَـهُـمْ حَـالاً وَنَـفْـسـاً وَمَـحْـتِـدَا(٤)

يَـدِقُّ عَـلَـى الأفْـكَـارِ مَـا أَنْـتَ فَـاعِـلٌ
فَـيُـتْـرَكُ مَـا يَـخْـفَـى وَيُـؤْخَـذُ مَـا بَـدَا(٥)

= ممدوحه صورة متجسّدة للعفو، فهو قادر على الانتقام، ومع ذلك فالعفو يغلب عليه، وباستطاعته بأن يسلّط سيفه على الضعفاء من أعدائه فينتقم منهم.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. الأحرار: الكرام. حفظ اليد: كناية عن حفظ الجميل. إن ثمة فارقاً بين قتل الكرماء وبين العفو عنهم، ففي العفو صيانة لهم في مجتمع اختلّت فيه القيم لذا وجب الحِفاظ عليهم حتى لا يتسلّط على المجتمع السفلة فيه، ومن طبع الأحرار حفظ جميل كهذا.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٠١، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. يُردف الشاعر تأكيداً لما سبق أن إكرام الكريم طوق وقيد يفتح قلبه وعقله بحيث تنقلب عداوته لمن منّ عليه بالحياة إلى صديق ودود، بينما يجعل تكريم اللئيم متمرّداً على من أكرمه وهماً منه أنه قد أكرمه لضعف فيه.

(٣) الندى: الكرم. ومن عجيب أمر الشاعر أنه يأتي بحكمة ينصح فيها ممدوحه بأنه يجب أن يعامل كلّاً بما يستحقّ، فمن كان كريماً وجب إكرامه بتقريبه أكثر لأنه رفع من مكانته؛ وهذا ما فعله الخليفة مع سيف الدولة، فقد رفع مكانته وقرّبه منه، فبماذا يُكافأ؟ أما من قلب الموازين واستحق القتل فلا يُمكن أن يقرّب بالعطاء.

(٤) يرفع الشاعر شأن ممدوحه فوق سائر الناس؛ فرأيه صائب، وهو حكيم يضع كلّ شيء في موضعه، فضلاً عن أنه يفوقهم بسائر أحواله كرماً وشجاعة وعلوّ همّة ونفس وأصل.

(٥) بدا: بان. ولشدّة نباهة الممدوح يصعب على المفكّرين تعليل جدوى ما يقوم به من =

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ
فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدَا (١)

إذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمِ
ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدَا (٢)

وَمَا أَنَا إلَّا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ
فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا (٣)

وَمَا الدَّهْرُ إلَّا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي
إذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا (٤)

فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ مُشَمِّرَا
وَغَنَّى بِهِ مَنْ لا يُغَنِّي مُغَرِّدَا (٥)

= أعمال لخفاء مقاصدها على هؤلاء، لذا فإنهم يأخذون ما يعلمون أنه المقصود لضعف مداركهم أما ما خفي عن فهمهم فينكرون البحث به لقصورهم.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. الكبت: الإذلال. لطالما تشكى الشاعر من الحسّاد وهماً وحقيقة. يخاطب ممدوحه بأنه رفع منزلته وبالغ في إكرامه حتى فتّح عيوناً ملؤها الحسد والغيرة، لذا فهو يطلب منه إهانتهم وإذلالهم، وهو من دعاه إلى الحلم ومجازاة الضعفاء الجزاء الحسن.

(٢) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يُحرّض الشاعر ممدوحه على حسّاده ليُهملهم ويُعرض عنهم، كما يطلب منه تأييده، ممَّا يقوّي عضده ويجرّئه عليهم فيأتيه بشعره البديع ويزيد النكاية فيهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. السمهري: الرمح الصلب. المسدّد: الموجّه إلى المطعون. يفخر الشاعر بأنه رمح يدفع عن ممدوحه أعداءه بهجائه لهم ويُشيد بانتصاره عليهم في السلم وكذلك يُقاتل إلى جنبه في حروبه.

(٤) و (٥) يروى «قلائدي» بدلاً من «قصائدي». يفخر الشاعر بأن الدهر يُنشد قصائده وما دونه من الشعراء سوف يُهملهم الزمان في زوايا النسيان، والدهر سيصبح منشداً أبد الدهر لها، ولكونه يُثير الحماس في النفوس، فإذا بمن شلّت إرادة المشي لديه ينتفض كالعملاق وقد استوى على ساقيه منشداً بأعلى صوته قصائد الشاعر، وحتى من لا يُحسن الغناء إذا ما سمع بشعره عادت إليه حاسّة السمع والتلذّذ بالغناء، فإذا به ينطلق مغنياً بصوت عذب في الآذان.

أَجِـزْنِـي إِذَا أُنْـشِـدْتَ شِـعْـراً فَـإِنَّـمَـا
بِـشِـعْـرِي أَتَـاكَ الـمَـادِحُـونَ مُـرَدَّدَا(١)

وَدَعْ كُـلَّ صَـوْتٍ غَـيْـرَ صَـوْتِـي فَـإِنَّـنِـي
أَنَـا الـطَّـائِـرُ الـمَـحْـكِـيُّ وَالآخَـرُ الـصَّـدَى(٢)

تَـرَكْـتُ الـسُّـرَى خَـلْـفِـي لِـمَـنْ قَـلَّ مَـالُـهُ
وَأَنْـعَـلْـتُ أَفْـرَاسِـي بِـنُـعْـمَـاكَ عَـسْـجَـدَا(٣)

وَقَـيَّـدْتُ نَـفْـسِـي فِـي ذَرَاكَ مَـحَـبَّـةً
وَمَـنْ وَجَـدَ الإِحْـسَـانَ قَـيْـداً تَـقَـيَّـدَا(٤)

إِذَا سَـأَلَ الإِنْـسَـانُ أَيَّـامَـهُ الْـغِـنَـى
وَكُـنْـتَ عَـلَـى بُـعْـدٍ جَـعَـلْـنَـكَ مَـوْعِـدَا(٥)

---

(١) وردت الأبيات الباقية من القصيدة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. يطلب الشاعر من ممدوحه أن يجزيه عطاءً لقاء ما يمدح به؛ فهو يُشيد به وبمآثره؛ وحتى من مدحه من سائر الشعراء إنما يسرقون شعره أو يقيسون منه، فهو أحقّ بالجوائز منهم.

(٢) دع: اترك. الصدى: ترديد الصوت الذي يرتد إلى القائل من جبل وغيره. يطلب الشاعر من ممدوحه ألّا يقبل مدحاً من سواه، فإنه الصوت المدوّي المشيد بفعاله ومزاياه بينما ما يسمع من غيره صدى ما يردّده.

(٣) السُّرى: السير ليلاً. النعمى: العطاء. العسجد: الذهب. يُقرّ الشاعر بأن ما بحوزته من نعم فمن عطايا ممدوحه، لذا فقد استقرّ إلى جانب ممدوحه وترك السعي الدؤوب لغيره فلم يعد يسري في الليل طالباً رزقه، ذلك أنه أنعل أفراسه بالذهب، ممّا يعني الاكتفاء والرضى.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٧٣، ٣٠٥، ٣٧٤. لقد اتخذ الشاعر قيداً طواعية إلى جانب ممدوحه بدافع الحبّ الصادق وذلك بسبب ما حصله في كنف سيف الدولة، والمحصّلة أن من قدّر الإحسان فعليه أن يرتبط بفاعله.

(٥) إن الممدوح محطّ رحال طالب الغنى، فمن رغب به فعليه أن يسعى للوصول إلى سيف الدولة فسوف يجد مبتغاه، حينئذٍ يكون على موعد مع يوم سعده.

لا مجد في الدنيا لمن قلَّ ماله

يمدحه في شهر ذي الحجة من هذه السنة:

[الطويل]

أَوَدُّ مِنَ الأيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ،
وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ[1]

يُبَاعِدْنَ حِبًّا يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ
فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ[2]

أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ
فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ[3]

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً
تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ[4]

رَعَى اللَّهُ عِيساً فَارَقَتْنَا وَفَوْقَهَا
مَهاً كُلُّهَا يُولَى بِجَفْنَيْهِ خَدُّهُ[5]

---

(١) و (٢) البين: البعد. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني غزلي، إنه يَشكو الزمن المفرّق بينه وبين حبيبته، فهو دهر معاند مباعد، ومن نكده أن الأيام جنده بها يُحارب، ودائماً هو المنتصر وبنو البشر مهزومون في معركة ركنها الأساسي الدهر، إنه يُباعد بين الأحبَّة، والغربة مرّة في طلب الرزق، فضلاً عن أن المحبوبة عنيدة تصدّ وتجفو.

(٣) و (٤) إن من طبع الدنيا أن تفرّق بين الأحبَّة، إذاً فمن غير الطبيعيّ أن تعيد حبيباً إلى حبيبه، وقد سَهُل عليها التفريق فكيف تلم شملهما من جديد، وكان بالأحرى ألّا تفرّق بينهما. وبإحساس ملؤه الأسى يُعلّل الشاعر سبب عدم دوام الدنيا على حال بين الأحبَّة إنها بُنيت على التنكر للبشر، فإذا ما جمعت حبيبين سرعان ما عملت على تفريقهما، وهذا من طبعها، والطبع غلّاب دائماً فلا يُمكن أن تتنكّر لما هو من طباعها وتُعيد اللحمة بين الأحبة.

(٥) العيس: الإبل البيض. المها، الواحدة مهاة: البقرات الوحشية. تُشبّه بها النساء لجمال عيونهن. يُولى، من الولي: المطر الذي يلي أول مطر. يدعو الشاعر بالرعاية والحماية الإلهية لتلك النياق التي حملت الأحبة، وقد تبللت خدودهن بالدموع من عيونهن كعيون البقرات الوحشية الجميلة الواسعة الشديدة السواد حزناً على فراق أحبَّة، وديار عزيزة.

بِـــوَادٍ بِـــهِ مَـــا بِـــالْــقُــلُــوبِ كَـــأَنَّـــهُ
وَقَـــدْ رَحَـــلُـــوا جِـــيـــدٌ تَـــنَـــاثَـــرَ عِـــقْـــدُهُ[١]

إِذَا سَـــــرَتِ الأَحْــــدَاجُ فَـــوْقَ نَـــبَـــاتِـــهِ
تَـــفَـــاوَحَ مِـــسْـــكُ الْـــغَـــانِـــيَـــاتِ وَرَنْـــدُهُ[٢]

وَحَـــالٍ كَـــإِحْـــدَاهُـــنَّ رُمْـــتُ بُـــلُـــوغَـــهَـــا
وَمِـــنْ دُونِـــهَـــا غَـــوْلُ الـــطَّـــرِيـــقِ وَبُـــعْـــدُهُ[٣]

وَأَتْـــعَـــبُ خَـــلْـــقِ ٱلـــلَّـــهِ مَـــنْ زَادَ هَـــمُّـــهُ،
وَقَـــصَّـــرَ عَـــمَّـــا تَـــشْـــتَـــهِـــي الـــنَّـــفْـــسُ وَجْـــدُهُ[٤]

فَـــلَا يَـــنْـــحَـــلِـــلْ فـــي الـــمَـــجْـــدِ مَـــالُـــكَ كُـــلُّـــهُ
فَـــيَـــنْـــحَـــلَّ مَـــجْـــدٌ كَـــانَ بِـــالـــمَـــالِ عَـــقْـــدُهُ[٥]

وَدَبِّـــرْهُ تَـــدْبِـــيـــرَ الّـــذِي الـــمَـــجْـــدُ كَـــفُّـــهُ
إِذَا حَـــارَبَ الأَعْـــدَاءَ وَالـــمَـــالُ زَنْـــدُهُ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. الجيد: العنق. تناثر: تفرّق. يرسم الشاعر موطن الأحبَّة، إنه وادٍ يشعر بشعور بشريّ يتألم لرحيل الأحبة، وقد ألف وجودهم، فإذا بالألفة والحبّ بين البشر والديار ينفرط عقدها كعقد تقطّعت أوصاله وتناثرت حبَّاته في متّسع من الأرض فلا يمكن إعادة لحمته من جديد.

(٢) الأحداج، الواحد حدج: مراكب النسوة فوق الإبل كالهوادج. الغانيات، الواحدة غانية: التي اغتنت بزوجها أو التي اغتنت بجمالها. الرند: نبات طيب الرائحة. يصف الشاعر الرحيل في ذلك الوادي الخصيب في يوم ربيعيّ، وقد فاحت أزهار الرند واختلطت بطيب النسوة من المسك، فكأنهما في موكب وداع.

(٣) الغَوْل: المهلكة. يُعبّر الشاعر عن استحالة اللحاق بمن أحبّ فالمفازة وعرة خطرة تُودي بمن حاول عبورها إلى الهلاك، وهو يسعى إلى اللحاق بغانية تبدي تمنّعاً وصدًّا؛ إنها حالة مستعصية، لذا إدراكها مستحيل، وبذلك يتوانى عن المحاولة.

(٤) الوُجْد، بضم الواو: السعة. يسوّغ الشاعر لنفسه القبول بالأمر الواقع والتراخي عن اللحاق بالحبيبة، فثمة هموم غيرها تُثقل كاهله، وليس بوسعه تحقيق كلّ ما يتمنّاه، فطاقته محدودة وأتعب الناس من يركض وراء سراب يريد الإمساك به.

(٥) و (٦) يُحذر الشاعر من تضييع المال في ما لا يفيد من تبذير وإسراف. فللمال دور عظيم في بلوغ المجد؛ فينفق في مكانه، لأنّ المجد في مجتمعات فسدت فيها القيم =

فَلَا مَجْدَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ،
وَلَا مَالَ في الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ(١)

وَفي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ
وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ(٢)

وَلَكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبيَّ مَا لَهُ
مَدًى يَنْتَهِي بي في مُرَادٍ أَحُدُّهُ(٣)

يَرَى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفُوفاً تَرُبُّهُ
فَيَخْتَارُ أَنْ يُكْسَى دُرُوعاً تَهُدُّهُ(٤)

يُكَلِّفُنِي التَّهْجِيرَ في كُلِّ مَهْمَهٍ
عَلِيقِي مَرَاعِيهِ وَزَادِيَ رُبْدُهُ(٥)

= الأخلاقية لا بدّ له من وسيلة تُساعد على بلوغ الغاية المرجوّة منه، والمال أسهل طريقة، وله سحر عجيب. وتوظيفه في قيادة الجيوش التي تُعين على بلوغ المجد أنجع الوسائل وأنجحها، لذا فالمال باب المجد ومفتاحه العجيب.

(١) خلاصة الأمر فثمّة ترابط بين المال والمجد، فكل منهما يتمّم الآخر، وفي حال اختفاء أحدهما ينعدم الآخر تلقائياً.

(٢) ثمّة من مات فيه الطموح وتبلّدت همته وقبل بالدون من العيش، يستوي بذلك مع من أهملته الحياة، فيرضى بما يكفي أوده وبما يستره من اللباس، فلا يسعى ليغتني ليقوى بغناه ويحقّق أحلامه.

(٣) إن معاناة الشاعر تكمن في قلبه الذي لا يقبل بالقليل، فالمدى بعيد يطول أبعاداً تطال النجوم، فلا مجال لقناعته بما دون ذلك، ولا بدّ من مجاراته واللحاق به.

(٤) الشفوف: الرقيق من الثياب. تربّه: تنعّمه. إنها ضريبة المجد، فقلب الشاعر لا يرضى له بالرفاهية المصطنعة بل بالخشونة في الملبس والمسلك، فرغم الدروع الثقيلة التي تتعب كاهله فإنه يدعوه إلى المغامرة وركوب المخاطر ليدرك ما يتمناه في هذه الحياة من عظمة وخلود.

(٥) التهجير: السير في الهاجرة عند الظهيرة واشتداد الحرّ. المهمه: المفازة. الربد: النعام. يتوجّب على الشاعر أن يدفع في سبيل تحقيق أمانيه ثمناً باهظاً من نفسه وراحة جسده وأن يتعرّض للأخطار من قساوة حرّ الهاجرة والسير في المواطن الخطرة المرعبة، فينفذ زاده ويستعيض عنه باصطياد النعام ليقتات ممّا يدلّ على =

وَأَمْـضَـى سِـلاحٍ قَـلَّـدَ الـمَـرْءُ نَـفْـسَـهُ
رَجَـاءُ أَبـي الـمِـسْـكِ الْـكَـريـمِ وَقَـصْـدُهُ[١]

هُـمَـا نَـاصِـرَا مَـنْ خـانَـهُ كُـلُّ نَـاصِـرٍ
وَأُسْـرَةُ مَـنْ لَـمْ يُـكْـثِـرِ الـنَّـسْـلَ جَـدُّهُ[٢]

أَنَـا الْـيَـوْمَ مِـنْ غِـلْـمَـانِـهِ فـي عَـشِـيـرَةٍ
لَـنَـا وَالِـدٌ مِـنْـهُ يُـفَـدِّيـهِ وُلْـدُهُ[٣]

فَـمِـنْ مَـالِـهِ مـالُ الْـكَـبِـيـرِ وَنَـفْـسُـهُ،
وَمِـنْ مَـالِـهِ دَرُّ الـصَّـغِـيـرِ وَمَـهْـدُهُ[٤]

نَـجُـرُّ الْـقَـنَـا الْـخَـطِّـيَّ حَـوْلَ قِـبَـابِـهِ،
وَتَـرْدِي بِـنَـا قُـبُّ الـرِّبَـاطِ وَجُـرْدُهُ[٥]

= مهارته في الصيد وملاحقة أسرع الطيور عدواً، وهو يترك فرسه يرعى العشب لنفاد علفه.

(١) و (٢) ينتقل الشاعر من وصف رحلة العذاب إلى المقصود برحلته إنه أبو المسك كافور، فلقد واجه الأخطار بعزيمة لا تلين وتجشّم مخاطر الطريق ليحطَّ رحاله ورجاءه في رحاب الملك والأمل يحدوه بتحقيق ما يتمنّى، وبهما يكون الناصر حيثما يعزّ وجود المعين في الملمات والأزمات، وهما أيضاً عشيرة من لا أهل له.

(٣) يُقرّ الشاعر بفضل كافور، فقد وهبه من الغلمان ما جعله يُحسّ أنه بين أهله وعشيرته بما لاقاه منهم من الأنس والتعاطف والودّ وحسن الاستقبال والقيام بواجبه أحسن قيام، والكلّ يكنفهم كافور برعايته وحمايته كالوالد الرحيم بعياله، وجميعهم يفدونه بأنفسهم، ومنهم بطبيعة الحال الشاعر.

(٤) يمدح الشاعر كافوراً بكرم فيَّاض غمر به كبير القوم وصغيرهم؛ فمال الكبير ونفسه التي بين جوانبه من الملك لحسن رعايته لأهل مملكته، ومن حسن رعايته لصغارهم أنه أمّن لهم اللبان التي فيها نماؤهم حتى مهادهم يحصلون عليها من ماله؛ وتلك سياسة حكيمة تشدّ عامة الناس للقائم على أمورهم.

(٥) القنا: الرماح، القباب: الخيام. القبّ: الضامر من الخيول. الرباط: اسم لجماعة الخيل. الجرد من الخيل: قصار الشعر. ينوّه الشاعر بمشاركته في راحة كافور، فالقوم يرحلون معه حيثما رحل ويحلّون حيثما حلّ ويقومون بحراسته، وهم يمتطون الجياد السريعة يصحبونه في مسيره.

وَنَـمْـتَـحِـنُ الـنُّـشَّـابَ فـي كُـلِّ وَابِـلٍ
دَوِيُّ الْـقِـسِـيِّ الْـفَـارِسِـيَّـةِ رَعْـدُهُ[١]

فَـإِلَّا تَـكُـنْ مِـصْـرُ الـشَّـرَى أَوْ عَـرِيـنَـهُ
فَـإِنَّ الَّـذِي فِـيـهَـا مِـنَ الـنَّـاسِ أُسْـدُهُ[٢]

سَـبَـائِـكُ كَـافُـورٍ وَعِـقْـيَـانُـهُ الَّـذِي
بِـصُـمِّ الْـقَـنـا لا بِـالأَصَـابِـعِ نَـقْـدُهُ[٣]

بَـلاهَـا حَـوَالَـيْـهِ الْـعَـدُوُّ وَغَـيْـرُهُ
وَجَـرَّبَـهَـا هَـزْلُ الـطِّـرَادِ وَجِـدُّهُ[٤]

أَبُـو الـمِـسْـكِ لا يَـفْـنَـى بِـذَنْـبِـكَ عَـفْـوُهُ
وَلَـكِـنَّـهُ يَـفْـنَـى بِـعُـذْرِكَ حِـقْـدُهُ[٥]

---

(١) نمتحن: نختبر. النشاب: السهام التركية. الوابل: المطر الشديد. دويّ: صوت. يصف الشاعر نمط عيش حاشية الملك ومن بينهم الشاعر: إنهم دائمو التدريب على السلاح، فهم يستعملون النشَّاب بين يديه، فتبدو لكثرتها كالمطر المنهمر بغزارة ترافقها قعقعة الأسلحة، والجميع في سباق لتنمية قدراتهم القتالية ومعرفة أفضلهم باستعمال السلاح في الحروب.

(٢) و (٣) الشرى: مأسدة في جبل سلمى من بلاط طيّئ. العرين: الأجمة التي يتخذها الأسد بيتاً له. يمدح الشاعر أبطال المصريين بأنهم أسود يقومون بحماية بلادهم وملكهم، وإن لم يكونوا قد نشأوا في جبل سلمى من بلاد طيّئ، ولكنهم وحدة متماسكة صِيغت سبائِك من ذهب خالص، نادر بطبيعته وجودته، ولم يكن اختياره لهم عبثاً، وإنما امتحن رجاله منهم بميادين القتال، فلما تبيّن له ما هم عليه من شدّة وقوّة اختارهم لنفسه.

(٤) بلاها، اختبرها: لقد كانت التجارب قاسية، خرج منها هؤلاء وقد كبّدوا أعداءهم خسائر فادحة فهابوهم، ولقد كان هؤلاء في اللهو مجلّين حين كانوا يمتطون الجياد فيطاردون بعضهم بعضاً، فيدخلون السرور على قلوب النظارة، فينالون إعجابهم وتصفيقهم.

(٥) يمدح الشاعر كافوراً بأنه يعفو عفوَ القادر، وسرعان ما يزول حقده في حال الاعتذار من قبل المسيء؛ وذلك من حسن سياسة الحكم لرعيّته.

فَـيَـا أَيُّـهَـا الـمَـنْـصُـورُ بِـالْـجَـدِّ سَـعْـيُـهُ
وَيَـا أَيُّـهَـا الـمَـنْـصُـورُ بـالـسَّـعْـي جَـدُّهُ[١]

تَـوَلَّـى الـصِّـبَـا عَـنِّـي فَـأَخْـلَـفْـتَ طِـيـبَـهُ،
وَمَـا ضَـرَّنِـي لَـمَّـا رَأَيْـتُـكَ فَـقْـدُهُ[٢]

لَـقَـدْ شَـبَّ فِـي هٰـذَا الـزَّمَـانِ كُـهُـولُـهُ
لَـدَيْـكَ وَشَـابَـتْ عِـنْـدَ غَـيْـرِكَ مُـرْدُهُ[٣]

أَلَا لَـيْـتَ يَـوْمَ الـسَّـيْـرِ يُـخْـبِـرُ حَـرُّهُ
فَـتَـسْـأَلَـهُ وَٱلـلَّـيْـلَ يُـخْـبِـرُ بَـرْدُهُ[٤]

وَلَـيْـتَـكَ تَـرْعَـانِـي وَحَـيْـرَانُ مُـعْـرِضٌ
فَـتَـعْـلَـمَ أَنِّـي مِـنْ حُـسَـامِـكَ حَـدُّهُ[٥]

وَأَنِّـي إذَا بَـاشَـرْتُ أَمْـراً أُرِيـدُهُ
تَـدَانَـتْ أَقَـاصِـيـهِ وَهَـانَ أَشَـدُّهُ[٦]

---

(١) يُخاطب الشاعر كافوراً بأن الحظّ يُؤاتيه ويكون عوناً له في الملمات العظام، وهو يعاضده الحظ بسعيه الدؤوب، فيتوافق الحظ مع السعي، فيكون الفلاح وحسن التوفيق.

(٢) و (٣) إن عمر الشاعر طار كالهباءة ممَّا ترك في نفسه حسرة، ولكن سرعان ما انقلبت إلى إحساس بالفرح لدى رؤية الشاعر كافوراً، فإذا بالصبا يعود بثوب جديد يرتديه مزهوًّا مفتخراً به. حتى إن الشباب قد حلّ في نفوس الكهول في كنفك وفي ظلّ عدلك وحكمتك وكرمك، وبالمقابل سرعان ما انقلب المرد من الشباب كهولاً لظلم القائمين عليهم من الحكّام والأمراء، وبؤس العيش وشقائه في ظلالهم.

(٤) يُعبّر الشاعر عن تمنيه لو أن كافوراً سأل عمَّا قاساه الشاعر من سوء الأحوال الجوية أثناء رحلته إليه؛ فالهاجرة تذيب رؤوس البشر نهاراً وتجمّدها ليلاً لشدّة البرد في صحراء واسعة تتحرّك الرياح فيها بحريّة لا يحول دونها حائل.

(٥) ترعاني: تراقبني. حيران: اسم ماء في بلاد الشام على طريق سلمية. يتمنَّى الشاعر على كافور لو أنه نظر إليه وهو عند حيران ليتيقّن بأنه كان جادًّا في المسير إليه يحدوه صبر وتصميم ليمثل بين يديه

(٦) باشر: شارع. تدانت: تقاربت. أقاصيه: أبعاده. يقصد الشاعر تشجيع كافور على =

وَمَــا زَالَ أَهْــلُ الــدَّهْــرِ يَـشْـتَـبِـهُــونَ لِــي
إِلَــيْــكَ فَــلَــمَّــا لُــحْــتَ لِــي لاحَ فَــرْدُهُ(١)
يُــقَــالُ إِذَا أَبْــصَــرْتُ جَــيْــشــاً وَرَبَّــهُ
أَمَــامَــكَ رَبٌّ رَبُّ ذَا ٱلْــجَــيْــشِ عَــبْــدُهُ(٢)
وَأَلْــقَــى الْــفَــمَ الــضَّــحَّــاكَ أَعْــلَــمُ أَنَّــهُ
قَــرِيــبٌ بِــذِي الْــكَــفِّ الْــمُــفَــدَّاةِ عَــهْــدُهُ(٣)
فَــزَارَكَ مِــنِّــي مَــنْ إِلَــيْــكَ اشْــتِــيَــاقُــهُ
وفِــي الــنَّــاسِ إِلَّا فِــيــكَ وَحْــدَكَ زُهْــدُهُ(٤)
يُــخَــلِّــفُ مَــنْ لَــمْ يَــأْتِ دَارَكَ غَــايَــةً،
وَيَــأْتِــي فَــيَــدْرِي أَنَّ ذٰلِــكَ جُــهْــدُهُ(٥)

= اتّخاذه عاملاً له؛ إذا صمّم على أمر فإنه لا يحول دون تحقيقه عائق لبعد همته ومضائه في ما ندب نفسه له، لذا تتدانى الأبعاد وتتقلّص المسافات ويحصل مبتغاه.

(١) و (٢) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٦ـ ١١٧. لقد أجال الشاعر نظره في الناس، فإذا بهم لا يختلفون عن بعضهم بشيء، وهو يبحث عن شيء مميّز حتى بدا من بعيد إنسان وحيد مميّز بصفات نادراً ما تتوفّر في شخص من البشر. وللوهلة الأولى إذا ما بدا له ملك يتقدّم جيشه يسأل عمّا رأى، فيُشار إليه أن من ترى هو ملك قويّ قادر يحكم بالعدل والحبّ حتى كأنه عبد لرعيّته لتواضعه وحبّه لهم.

(٣) يذكر الشاعر الأثر السحري الذي يُحدثه عطاء كافور في القلوب، وهو في حال رؤيته أحداً ما يضحك يتبادر إلى ذهنه أنه قد نال عطاء من الملك أو قبّل يده، وهو قريب العهد بذلك.

(٤) و (٥) يعبر الشاعر عن شدّة شوقه لزيارة كافور والمثول بين يديه، وهو في نفس الوقت زاهد بكلّ الناس لأنه لا يرى فيهم خيراً ولا يرتجي منهم نفعاً، لذا فقد ترك خلفه دياراً وقصد كافوراً، وكلّ من لا يتوجّه شطر تلك الدار، فقد باء بالفشل وفاته خير كثير، ولكن إذا قصدها فقد حالفه التوفيق وحصل على مراده وبُغيته.

فَـإِنْ نِـلْـتُ مَـا أَمَّـلْـتُ مِـنْـكَ فَـرُبَّـمَـا
شَـرِبْـتُ بِـمَـاءٍ يُـعْـجِـزُ الـطَّـيْـرَ وِرْدُهُ(١)

وَوَعْــدُكَ فِــعْــلٌ قَــبْــلَ وَعْــدٍ لأَنَّــهُ
نَـظِـيـرُ فَـعَـالِ الـصَّـادِقِ الْـقَـوْلِ وَعْـدُهُ(٢)

فَكُـنْ فـي ٱصْطِنَاعِـي مُـحْـسِـناً كَـمُـجَـرِّبٍ
يَـبِـنْ لَـكَ تَـقْـرِيـبُ ٱلْـجَـوَادِ وَشَـدُّهُ(٣)

إِذَا كُـنْـتَ فـي شَـكٍّ مِـنَ الـسَّـيْـفِ فَابْـلُـهُ
فَــإِمَّــا تُــنَــفِّــيــهِ وَإِمَّــا تُــعِــدُّهُ(٤)

وَمَــا الــصَّــارِمُ الــهِـنْـدِيُّ إِلَّا كَـغَـيْـرِهِ
إِذَا لَــمْ يُــفَــارِقْــهُ الــنِّـجَـادُ وَغِـمْـدُهُ(٥)

---

(١) و (٢) الورد: المجيء إلى الماء. يلمّح الشاعر إلى مبتغاه من كافور أنه في حال حصوله على ما كان يرجو حصوله، فقد ارتوى وانتعش بما يعجز عنه ولا يستطيع الطائر وروده لصعوبة مناله، وهو إنما يلمّح ويُذكر كافوراً بوعده، بتوليته ولاية. ووعده نافذ لا محالة لصدقه، وسرعة تنفيذه، فإذا وعد كأنه قد حصل ما وعد؛ وفي ذلك حضّ وحثّ للإسراع في ذلك.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. اصطنع: اختار. التقريب والشدّ: من أنواع العدو عند الخيول، يُصرّح الشاعر بنيّته طالباً من كافور أن يُجرّبه في العمل، فإن ظهر له أنه جدير بما أوكل إليه من أمر فليبقِه حيث ولي وإلّا فليعزله، فبالتجربة برهان طبيعة الأشياء تماماً كما يعرف الفرس الشديد العدو من المتراخي في جريه.

(٤) فابله: فاختبره. يُردف الشاعر مؤكداً ما ذكره سابقاً بمثال آخر، فمن الضروري اختبار السيف، فإن كان قاطعاً فليعمله، وإن كان كهاماً فليلقِه بإهمال بعيداً عنه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. الصارم: السيف القاطع. الهندي: المصنوع في الهند. النجاد: حمالة السيف. ويُردف الشاعر مثالاً آخر لتأكيد مدعاه من أن السيف الهندي القاطع لا تعرف صلاحيته من غيره من السيوف إلّا إذا جُرّد وفارق غمده واستعمل، ساعتئذ إمّا يُستمسك به وإما يُركن جانباً.

وَإِنَّكَ لَلْمَشْكُورُ في كلِّ حَالَةٍ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إلّا الْبَشَاشَةَ رِفْدُهُ[١]
فَكُلُّ نَوَالٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ
فَلَحْظَةُ طَرْفٍ مِنْكَ عِنْدِيَ نِدُّهُ[٢]
وَإِنِّي لَفِي بَحْرٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ أَصْلُهُ
عَطَايَاكَ أَرْجُو مَدَّهَا وَهْيَ مَدُّهُ[٣]
وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ
وَلَكِنَّهَا في مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ[٤]
يَجُودُ بِهِ مَنْ يَفْضَحُ ٱلْجُودَ جُودُهُ
وَيَحْمَدُهُ مَنْ يَفْضَحُ الْحَمْدَ حَمْدُهُ[٥]
فَإِنَّكَ مَا مَرَّ النُّحُوسُ بِكَوْكَبٍ،
وَقَابَلْتَهُ إلَّا وَوَجْهُكَ سَعْدُهُ[٦]

---

(١) و (٢) الرفد: العطاء. يُخاطب الشاعر ممدوحه معبراً عن شكره كيفما دارت الأحوال، فيكفيه منه حسن الاستقبال والابتسامة تعبيراً عن الرضى والودّ، لذا فإنه تكفيه نظرة عطف هي بمثابة عطاء حصل عليه أو سيحصل عليه في ما بعد.

(٣) المدّ: زيادة الماء. يُقرّ الشاعر أنه في بحر كرم ممدوحه، فالصلات تتوالى عليه، وهو يطلب الكثير منها، ممَّا يُغنيه أكثر برفده الدائم.

(٤) و (٥) العسجد: الذهب. يعود الشاعر إلى الحديث عن رغبته المرجوّة من كافور، فرغبته تتخطّى الذهب والاستزادة منه، ولكنه يسعى إلى مجد وفخر جديدين، يتمثلان بولاية، والقرار بيد كريم جواد يتخطّى جود غيره ممن يدّعون الكرم لأن الأمر يتجاوز عطاء المال إلى توزيع الولايات، وهو أعلى مجالات العطاء ممّا يستوجب الحمد والشكر من جهة الشاعر بشعر فوق كل مدح.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٧. ينوّه الشاعر بحسن الطالع المستوحى من طلعة كافور، فيها يزول النحس ويحلّ محلها السعد ويزول نكد الطالع عن كلّ منحوس.

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي

جرت وحشة بين الأستاذ كافور والأمير أبي القاسم مدة ثم اصطلحا فقال: [الخفيف]

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا ٱشْتَهَتْهُ الأعَادِي
وَأَذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الْحُسَّادِ (١)

وَأَرَادَتْهُ أَنفُسٌ حَالَ تَدْبِيرُ
كَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ المُرَادِ (٢)

صَارَ مَا أَوْضَعَ المُخِبُّونَ فِيهِ
مِنْ عِتَابٍ زِيَادَةً فِي الْوِدَادِ (٣)

وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَحْـ
ـبَابِ سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلْأَضْدَادِ (٤)

إِنَّمَا تُنْجِحُ المَقَالَةُ فِي المَرْ
ءِ إِذَا صَادَفَتْ هَوًى فِي الْفُؤَادِ (٥)

وَلَعَمْرِي لَقَدْ هُزِزْتَ بِمَا قِيـ
ـلَ فَأُلْفِيتَ أَوْثَقَ ٱلأَطْوَادِ (٦)

---

(١) و (٢) الصلح سيد الأحكام، بعد غسل القلوب من الضغائن والتصافي والتلاقي على الودّ، ووأد الفتنة وقمع الشرّ وإكبات ألسن السوء وقد راحوا يلوكون ويذيعون أكاذيب لِيُشعلوا فتنة بين كافور والأمير أبي القاسم، ولقد كانت لردة الفعل من قبل كافور السريعة سحرها أن تدارك الأمر وتصرّف بحكمة أخمدت نار فتنة كادت أن تقضي على الكلّ.

(٣) و (٤) أوضع الراكب راحلته: حملها على الإسراع في سيرها. المخبّون: هم من يحمل مطاياهم على الخبب، وهو ضرب من السير السريع. لقد انقلب السحر على الساحر؛ فبدل اشتعال الفتنة بين الأمير وكافور إذ بألسنة السوء تجمع بينهما سريعاً ممّا سهّل القضاء على من كان سبباً في إثارة الخلاف.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. المرء تبع لهواه، فإن سمع ما يسرّه فرح وأذاع به، وإن لم يكن كذلك لم يهتمّ للأمر أصلاً؛ وفي هذا القول دفع التهمة عن الأمير أبي القاسم ممّا تناولته الوشاة من أكاذيب.

(٦) ألفيت: وجدت. الأطواد، الواحد طود: الجبال الشاهقة يُخاطب الشاعر كافوراً أن =

وَأَشَـارَتْ بِـمَـا أَبَـيْـتَ رِجَـالٌ
كُـنْـتَ أَهْـدَى مِـنْـهَـا إلـى الإرْشَـادِ(١)
قَـدْ يُـصِـيـبُ الْـفَـتَـى الْـمُـشِـيـرُ وَلَـمْ يَـجْـ
ـهَـدْ وَيُـشْـوِي الـصَّـوَابَ بَـعْـدَ اجْـتِـهَـادِ(٢)
نِـلْـتَ مَـا لا يُـنَـالُ بـالْـبِـيـضِ وَالـسُّـمْـ
ـرِ وَصُـنْـتَ الأرْوَاحَ فـي الأجْـسَـادِ(٣)
وَقَـنَـا الْـخَـطِّ فـي مَـرَاكِـزِهَـا حَـوْ
لَـكَ وَالـمُـرْهَـفَـاتُ فـي الأغْـمَـادِ(٤)
مَـا دَرَوْا إذْ رَأَوْا فُـؤَادَكَ فِـيـهِـمْ
سَـاكِـنـاً أنَّ رَأْيَـهُ فـي الـطِّـرَادِ(٥)

= سماع الإشاعات لم تُثره بحيث يغضب فيظلم من وُشي به دون التأكد من براءته، فكان كالجبل الشامخ الذي لا يهزه ريح مهما عنُف ذلك أن من نمّ يريد الفساد بين طرفي المشكلة.

(١) لم يتقبّل كافور قول هؤلاء الوشاة وإنما كان على وعي كبير بحيث أعمل عقله ومال إلى المصالحة في صبر وأناة، ممّا أكد أنه متفتّح العقل ولم يقبل بنصحهم، فقام بما هو أوجب وأصلح ودلّ على أنه أرشد منهم.

(٢) يشوي: يُخطئ. يُبدي الشاعر النصح بوعي المجرّب للأمور؛ فقد يُصيب المشير برأي لم يُخلص مشورته ولم يجتهد، وقد يُخطئ من اجتهد برأيه رغم إخلاصه. لم يستمع كافور لمن أشاروا عليه بالاقتصاص، بل بادر إلى الصفح والمسالمة فأصاب كبد الحقّ والفلاح، فكان رأيه رشيداً يدلّ على حسن التدبير وذكاء التصرّف.

(٣) البيض: السيوف. السمر: الرماح الصلبة. لقد أفلح كافور وحصل على مبتغاه دون إراقة الدماء وصان أرواحاً بريئة، فكان بين الأمير وبين كافور صلح على إثره سلّم الأمير الوشاة والساعين إلى إثارة الفتنة فقتلهم كافور.

(٤) القنا: الرماح. والخطّ: موضع تثقّف فيه الرماح، فتنسب إليه. المرهفات: السيوف المحدّدة. يُخاطب الشاعر كافوراً أنه قد أفلحت سياسته دون استعمال السلاح، فقد بقيت الرماح مركوزة في أمكنتها لم تستعمل وكذلك السيوف لم تُغادر أغمدتها.

(٥) لقد جرى كلّ شيء بهدوء دون إثارة القلاقل وارتفاع الضجيج بحيث لم يسمع أحد =

فَـــفَـــدَى رَأْيَـــكَ الَّـــذِي لَـــمْ تُـــفَـــدْهُ
كُـــلُّ رَأْيٍ مُـــعَـــلَّـــمٍ مُـــسْـــتَـــفَـــادِ[(١)]

وَإِذَا الْـــحِـــلْـــمُ لَـــمْ يَـــكُـــنْ فِـــي طِـــبَـــاعٍ
لَـــمْ يُـــحَـــلِّـــمْ تَـــقَـــادُمُ الْـــمِـــيـــلَادِ[(٢)]

فَـــبِـــهَـــذَا وَمِـــثْـــلِـــهِ سُـــدْتَ يَـــا كَـــا
فُـــورُ وَاقْـــتَـــدْتَ كُـــلَّ صَـــعْـــبِ الْـــقِـــيَـــادِ[(٣)]

وأَطَـــاعَ الَّـــذِي أَطَـــاعَـــكَ وَالـــطَّـــا
عَـــةُ لَـــيْـــسَـــتْ خَـــلَائِـــقَ الآسَـــادِ[(٤)]

إِنَّـــمَـــا أَنْـــتَ وَالِـــدٌ وَالأَبُ الْـــقَـــا
طِـــعُ أَحْـــنَـــى مِـــنْ وَاصِـــلِ الأَوْلَادِ[(٥)]

= من العامة ما يدور، فلا يبدو على كافور أمارات الضيق والانزعاج فقد أعمل عقله وأفلح بتحقيق رغبته.

(١) يدعو الشاعر لكافور أن يُصان رأيه الذي لم يستشر فيه أحداً وإنّما توصّل إليه بثاقب رأيه وحِكمته وعدم تسرّعه في الحكم فحالفه التوفيق.

(٢) و (٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. الحلم: حسن التصرّف. الحلم ملكة في النفس مغروزة في عقول الأقوياء الذين يملكون نفوسهم عند الغضب منذ طفولتهم، والطيش لا يستكين في النفوس مهما امتدّ بالمرء العمر إذا نشأ وهذه العاهة متمكّنة في نفسه ومتأصلة في طباعه. ولقد حالف التوفيق كافوراً لسداد رأيه وحسن تصرّفه دون التسرّع في الأحكام والتهوّر في التصرّف، فانقادت له الدنيا مطواعة بخلاف غيره ممن لم يملكوا نفوسهم عند الغضب، بل انقادوا فكانوا وقوداً لثورات غضبهم.

(٤) وبمثل رجاحة عقل كافور أمكنه تطويع النفور من الآساد، فإذا بهم طوع أمره يأتمرون به.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٢١٦. يُثير الشاعر في كافور إحساساً إنسانياً رفيع النبل، لقد ربى ورعى ابن الأخشيد فكان له بمثابة الأب النصوح الشفوق ورعاه يوم كان بحاجة لمن يُعوّضه حنان الأب في طفولته، ومن الجائز أن يكون الأب دماً ونسباً يفتقد إلى الرحمة والرأفة بولده.

لَا عَدَا الشَّرُّ مَنْ بَغَى لَكُمَا الشَّرَّ
وَخَصَّ الْفَسَادُ أَهْلَ الْفَسَادِ(١)

أَنْتُمَا مَا اتَّفَقْتُمَا الْجِسْمُ وَالرُّو
حُ فَلَا ٱحْتَجْتُمَا إِلَى الْعُوَّادِ(٢)

وَإِذَا كَانَ فِي الأَنَابِيبِ خُلْفٌ
وَقَعَ الطَّيْشُ فِي صُدُورِ الصِّعَادِ(٣)

أَشْمَتَ ٱلْخُلْفُ بِالشُّرَاةِ عِدَاهَا،
وَشَفَى رَبَّ فَارِسٍ مِنْ إِيَادِ(٤)

وَتَوَلَّى بَنِي الْيَزِيدِيِّ بِالْبَصْـ
ـرَةِ حَتَّى تَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ(٥)

---

(١) و (٢) عدا: جاوز. بغى: طلب. يدعو الشاعر بالويل والثبور على بغاة الشرّ لكافور والأمير، فلينزل بهم ما يتمنون لهما من شرور وفساد آملاً ألّا يزول الفساد في ديار المفسدين. إنهما متلازمان تلازم الروح للجسد فاتّحادهما صون لهما واختلافهما ضعف لدولتهما، وهو يتمنّى لهما الصحة والعافية على الدوام.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. يقصد الشاعر بالأنابيب الأتباع. الطيش: الاضطراب. الصعاد، الواحدة صعدة: قناة الرمح. جاء الشاعر بمثل غايته الاتّحاد والاجتماع. واختلاف الحاشية ينتقل إلى القادة، فلكل منهم مؤيّد ومعارض، يستثير كل منهم صاحبه على خصمه فتكون دماء ودسائس، واتحاد الكلّ يقوّي الجسم تماماً كالرمح لا يصلح للطعن إلّا إذا اتّحدت عناصره والتحمت أجزاؤه.

(٤) أشمت: فرّح. الشراة: الخوارج. ربّ فارس: كسرى الفرس سابور ذو الأكتاف. وإياد إحدى قبائل العرب ذات الشوكة. يذكر الشاعر كلاً من كافور والأمير من أن اتحادهما يمنع الأعداء من الاستفراد بكلّ منهما على حدة، ويستشهد بالتاريخ فالشراة من الخوارج أنزل بهم المهلب بن أبي صفرة في العصر الأموي هزيمة نكراء كادت تقضي عليهم وهذا ما فعله أيضاً سابور كسرى الفرس بإياد تلك القبيلة القوية، فلم يستطع الإيقاع بهم إلّا بعدما زرع الشقاق بينهم فنكّل بهم وشرّدهم في آفاق الجزيرة بعيداً عن حدوده.

(٥) ويستشهد الشاعر بحدث تاريخي قريب العهد من كافور والأمير، وهما على علم به، =

وَمُـلُـوكـاً كـأمْـسِ فـي الْـقُـرْبِ مِـنَّـا
وَكَـطَـسْـم وَأُخْـتِـهَـا فـي الْـبِـعَـادِ (١)
بِـكُـمَـا بِـتُّ عَـائِـذاً فِـيـكُـمَـا مِـنْــ
ــهُ وَمِــنْ كَـيْـدِ كُـلِّ بَـاغٍ وَعَـادِ (٢)
وَبِـلُـبَّـيْـكُـمَـا الأصِـيـلَـيْـنِ أنْ تَـفْــ
ـرُقَ صُـمُّ الـرِّمَـاحِ بَـيْـنَ الْـجِـيَـادِ (٣)
أوْ يَـكُـونَ الْـوَلِـيُّ أشْـقَـى عَـدُوٍّ
بِـالَّـذِي تَـذْخُـرَانِـهِ مِـنْ عَـتَـادِ (٤)
هَـلْ يَـسُـرَّنَّ بَـاقِـيـاً بَـعْـدَ مَـاضٍ
مَـا تَـقُـولُ الْـعُـدَاةُ فـي كُـلِّ نَـادِ (٥)

= لقد تمكّن بنو اليزيدي من طرد والي البصرة في خلافة المنصور ولكن الشر ذرّ قرنه بين الأخوة الثلاثة، فقتل الأخ الأكبر أخاه الأوسط فضعف شأنهم وانتهى بهم الأمر إلى الهلاك.

(١) ومن مآسي الخلاف في كل زمان شواهد حفرت ذكراها في التاريخ، ولقد تطاحنت جديس وطسم تلكما القبيلتان العربيتان فأبادتا بعضهما وأصبحتا أمثولة للتاريخ، وهكذا يفني الملوك بعضهم بعضاً في كل زمان ومكان.

(٢) ومن صدق النصح أن الشاعر يطلب منهما ترك الخلاف وعدم سماع من يبغي الشقاق بينهما، إنه يُخفي كيداً ويُضمر شراً لهما ليُوقع بهما معاً، فهو العدوّ فليحذرا مكره وليتجنّبا كيده.

(٣) اللبّ: العقل. الأصيلين: الجيدين. صمّ الرماح: الصلبة القاسية، الجياد: الخيول. يستصرخ الشاعر بما يميّزهما من عقول راسخة، فخلافهما شرخ لا يلتحم فينقسم الجيش ويقتتل الفريقان فيعمّ الخراب ويسهل على عدوّهما كسر شوكتهما والقضاء عليهما.

(٤) الولي: الصديق الحميم. العتاد: السلاح. يبيّن الشاعر سوء المصير في حال انسياقهما في طريق الخلاف، فالسلاح الذي اتخذاه للدفاع عن الأرض والعرض سيكون في تلك الحالة آلة تدمير، فيقتل الأخ أخاه والصديق صديقه، ذلك أن الصداقة في حال انقلابها إلى عداوة سوف تكون أشدّ بلاءً من العدوّ على عدوّه.

(٥) يذكر الشاعر ركني الخلاف بما سيذكر عنهما في منتديات الأعداء، إنهم يتفكّهون فرحين بأن القوم قد اقتتلوا وتفانوا، فرحين بما آل إليه أمرهما.

مَـنَـعَ الْـوُدُّ وَالـرِّعَـايَـةُ وَالـسُّـؤ
دُدُ أَنْ تَـبْـلُـغَـا إِلَـى الأَحْـقَـادِ (١)
وَحُـقُـوقٌ تُـرَقِّـقُ الْـقَـلْـبَ لِـلْـقَـلْـ
ـبِ وَلَـوْ ضُـمِّـنَـتْ قُـلُـوبَ الْـجَـمَـادِ (٢)
فَـغَـدَا الـمُـلْـكُ بَـاهِـراً مَـنْ رَآهُ
شَـاكِـراً مَـا أَتَـيْـتُـمَـا مِـنْ سَـدَادِ (٣)
فِـيـهِ أَيْـدِيـكُـمَـا عَـلَـى الـظَّـفَـرِ الْـحُـلْـ
ـوِ وأَيْـدِي قَـوْمٍ عَـلَـى الأَكْـبَـادِ (٤)
هَـٰـذِهِ دَوْلَـةُ الـمَـكَـارِمِ وَالـرَّأْ
فَـةِ وَالـمَـجْـدِ والـنَّـدَى والأَيَـادِي (٥)
كَـسَـفَـتْ سَـاعَـةً كَـمَـا تَـكْـسِـفُ الـشَّـمْـ
ـسُ، وَعَـادَتْ ونُـورُهَـا فِـي ٱزْدِيَـادِ (٦)

---

(١) و (٢) الودّ: الصداقة. الرعاية: حفظ الودّ. السؤدد: السيادة. يذكر الشاعر ركني الخلاف أن ما يجمعهما أكثر ممّا يفرّقهما؛ صداقة قديمة العهد ورعاية مربٍّ لصغير فقد أباه وحاميه فوجد في حضن وليه حناناً وحباً ورعاية فلا بدّ من تذكر ذلك، وكلاهما ينعمان بالسيادة في حال توافقهما وانسجامهما وفي حال حلّ بينهما الحقد فسوف يقضي كلّ منهما على الآخر ويعمّ الخراب إلى جانب الحقد. وهو يذكرهما بأن لكلّ منهما حقاً على الآخر وواجباً بحفظ المودة وصون الآخر من الهلاك المحقّق في حال الخلاف.

(٣) و (٤) يشكر الشاعر سعيهما بالحفاظ على الملك، فقد حلّ مكان الجفاء الودّ وصفت القلوب من الإحن والضغائن فعاد إلى الملك هالته مشعّة؛ إنه رأي سديد أن يتوقّف المرء عن الانجراف وراء غضبه، فالغضب يعمي القلب والبصيرة قبل البصر. ولقد نتج من ذلك الصلح تقارب القلوب ممّا أثار لوعة في قلوب من حاول إثارة الفتن بين ركني الخلاف.

(٥) و (٦) الندى: الكرم. الأيادي: العطاء. وبفرح يمدح الشاعر الدولة بركنيها، إنها دولة الكرم والمكارم، منها حسن الخلق والأفعال الحميدة، والتوادّ والرحمة والعطاء وبذل اليد، والأهمّ من كلّ ذلك، أنها دولة مجيدة عظيم مجدها بركنيها الكبيرين لقد مرّت =

يَــزْحَــمُ الــدَّهْــرَ رُكْــنُــهَــا عَــنْ أَذَاهَــا
بِــفَــتًــى مَــارِدٍ عَــلَــى الــمُــرَّادِ[(١)]

مُــتْــلِــفٍ مُــخْــلِــفٍ وَفِــيٍّ أَبِــيٍّ
عَــالِــمٍ حَــازِمٍ شُــجَــاعٍ جَــوَادِ[(٢)]

أَجْـفَـلَ الـنَّـاسُ عَـنْ طَـرِيـقِ أَبِـي الـمِـسْـ
ـكِ وَذَلَّــتْ لَــه رِقَــابُ الْــعِــبَــادِ[(٣)]

كَــيْــفَ لَا يُــتْــرَكُ الــطَّــرِيــقُ لِــسَــيْــلٍ
ضَــيِّــقٍ عَــنْ أَتِــيِّــهِ كُــلُّ وَادِ[(٤)]

= غيمة عابرة حالت دون شمس الحقيقة، فإذا بالنور يسطع من جديد بقوّة تزداد بالطّراد لزوال أسباب الوحشة عن أفقها باتّفاق كافور والأمير.

(١) يمدح الشاعر كافوراً، فهو الركن المتين على عاتقيه يدوم مجد هذه الدولة، إنه الفتى القادر على إبعاد الأخطار عنها، فهو مارد جبار يخضع سائر المردة في سبيل الحفاظ عليها ودوامها. وهذا حقّ ما أشار إليه الشاعر، فلم تسقط مصر في أيدي الفاطميين إلّا بعد هلاكه.

(٢) يعدّد الشاعر فضائل كافور، إنه كريم يُتلف الأموال بتوزيعها على مستحقيها، وسرعان ما يُخلف غيرها بحروبه مع الأعداء، وهو عزيز النفس يأبى الضيم والذل على نفسه وبلده، يمتاز بعلم واسع في تدبير أمور الدولة وقيادتها في السلم والحرب، ومن صفاته الحزم في الأمور وعدم التردّد وذلك سبيل النجاح في السياسة، وليكون قائداً ناجحاً لا بدّ من شجاعة قد تصل إلى حدّ المغامرة، وفي ذلك يكون النصر، وهو لا يعدم الكرم في سائر أوقاته.

(٣) أجفل: خاف وأسرع في الهرب. ذلّت: خضعت. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ذو مهابة بحيث لا يستطيع الناس تمالك أنفسهم، فيفرّون خشية منه واحتراماً، ولذا فقد تمكّن ذلك من قلوبهم فخضعوا له طائعين فملك رقابهم.

(٤) الأتي: السيل المنهمر من بعيد. يُنهي الشاعر قصيدته منوّهاً بفيض كرم الممدوح إنه سيل جارف فحيثما حل عمّ الخير، وطريقه يتّسع وينفسح ليشمل حتى الأودية فتستوعب خيراته.

لا تشتر العبد!

وقال عند خروجه من مصر:

[البسيط]

عِـيـدٌ بِـأَيَّـةِ حَـالٍ عُـدْتَ يَـا عِـيـدُ
بِـمَـا مَـضَـى أَمْ لِأَمْـرٍ فِـيـكَ تَـجْـدِيـدُ؟(١)

أَمَّـا الأَحِـبَّـةُ فَـالْـبَـيْـدَاءُ دُونَـهُـمُ
فَـلَـيْـتَ دُونَـكَ بِـيـداً دُونَـهَـا بِـيـدُ(٢)

لَـوْلَا الْـعُـلَـى لَـمْ تَـجُـبْ بِي مـا أَجُوبُ بِـهَـا
وَجْـنَـاءُ حَـرْفٌ وَلَا جَـرْدَاءُ قَـيْـدُودُ(٣)

وَكَـانَ أَطْـيَـبَ مِـنْ سَـيْـفِـي مُـعَـانَـقَـةً
أَشْـبَـاهُ رَوْنَـقِـهِ الْـغِـيـدُ الأَمَـالِـيـدُ(٤)

---

(١) العيد مناسبة فرح وسرور بعد عبادة يقوم بها المؤمنون، كأنه جائزة ومكافأة لقاء ذلك، ولكن الشاعر يُعاني من الأسى، فقد سبق أن حلّ عيد وحمل معه آلاماً ولوعة للشاعر، فهل يمكن أن يحمل معه أملاً وفرحاً أم أنه سيكون كسالفه؟

(٢) البيداء: المفازة. يحلو العيد في حال المشاركة بين الأقرباء والأحباب، لذا يتمنّى الشاعر لو كان بين أحبّته وصحبه لينعم بذلك ولكن يفصله عنهم بعد مكان يمتدّ ويمتدّ، ولذلك فإنه يتمنّى أيضاً لو أن العيد يتأخّر عن موعده، والإحساس التشاؤمي يحمل في طيّاته الخوف من قرب الأجل.

(٣) جاب المكان: قطعه. الوجناء: الناقة القوية. الجرداء: الفرس القصيرة الشعر. القيدود: الطويلة. ثمة سبب وجيه حمل الشاعر على ترك أحبّته؛ طلب المجد والرفعة، فإذا به ينهب المسافات مستعيناً بناقة صلبة قوية أو فرس جرداء تخبّ به الأبعاد.

(٤) الغيد، الواحدة غيداء: الشابّة التي تميس في مشيتها للينها ورقّة فيها. الأماليد: الناعمات الممشوقات القامات. يروى «مضاجعة» بدلاً من «معانقة». لقد اختار الشاعر معانقة سيفه تاركاً معانقة الغيد الفاتنات الشابات ورغد العيش مفضلاً عليهن طلباً لطالما عمل جاهداً على تحقيقه، ولم يتحقق؛ وهذا ما يُحزن الشاعر.

لَـمْ يَـتْـرُكِ الـدَّهْـرُ مِـنْ قَـلْـبِـي وَلَا كَـبِـدِي
شَـيْـئـاً تُـتَـيِّـمُـهُ عَـيْـنٌ وَلَا جِـيـدُ(١)

يَـا سَـاقِـيَـيَّ أَخْـمَـرٌ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا
أَمْ فـي كُـؤُوسِـكُـمَـا هَـمٌّ وَتَـسْـهِـيـدُ(٢)

أَصَـخْـرَةٌ أَنَـا؟ مَـا لِـي لا تُـحَـرِّكُـنِـي
هَـذِي الـمُـدَامُ وَلَا هَـذِي الأَغَـارِيـدُ؟(٣)

إِذَا أَرَدْتُ كُـمَـيْـتَ الـلَّـوْنِ صَـافِـيَـةً
وَجَـدْتُـهَـا وَحَـبِـيـبُ الـنَّـفْـسِ مَـفْـقُـودُ(٤)

مَـاذَا لَـقِـيـتُ مِـنَ الـدُّنْـيَـا وَأَعْـجَـبُـهُ
أَنِّـي بِـمَـا أَنَـا شَـاكٍ مِـنْـهُ مَـحْـسُـودُ؟(٥)

أَمْـسَـيْـتُ أَرْوَحَ مُـثْـرٍ خَـازِنـاً وَيَـداً
أَنَـا الْـغَـنِـيُّ وأَمْـوَالِـي الـمَـوَاعِـيـدُ(٦)

---

(١) تيّمه الحبّ: ذلّله واستعبده. لقد زهد الشاعر بمتع الحياة، فالقضاء حتّم عليه أن يسير في طريق وعر فيه دموع وأحزان، فخلا قلبه من نشوة الفرح، وغاب عن عالم المرأة وما تمثله من إغراء.

(٢) التسهيد: السهر والأرق. يُخاطب الشاعر ساقييه على طريقة شعراء الجاهلية، إنه ظامئ ولكنه أشكل عليه الأمر، فماذا يشرب؟ الخمر طعمه معلوم لديه، ولكنه الآن يستطعم شيئاً غريباً إنه الهمّ يشربه مترعاً ممزوجاً بالسهر والأرق.

(٣) المدام: من أسماء الخمرة. الأغاريد: الأغاني. لقد فقد الشاعر الإحساس بكلّ ما يحيطه من كائنات وموجودات، وتجمّد فيه كلّ شيء حتى توهّم أنه صخرة استقرّت جماداً أصمّ، فلم يعد يُحسّ بشيء حتى الخمرة فقدت فاعليتها في نفسه، وتوقّفت حاسّة الذوق لديه ولحقتها حاسّة السمع فلم يعد يفهم ماذا يدور حوله.

(٤) و (٥) الكميت: اللون الأحمر القاني المائل إلى سوادٍ، تحلو الخمرة لشاربها أن يكون إلى جانب نديم يمتزج معه روحاً وعقلاً وشعوراً، ومن السهل إيجادها، ولكن الشاعر يفتقد إلى حبيب النفس، العشير والقريب والأهل، فثمّة بون شاسع يفصله عنهم في وحشة الانفراد.

(٦) يشكو الشاعر حظه العاثر الذي قاده إلى كافور ولقي منه ما لقي من فشل ذريع، مثل =

إِنِّـي نَـزَلْـتُ بِـكَـذَّابِـيـنَ ضَـيْـفُـهُـمُ
عَـنِ الْـقِـرَى وَعَـنِ الـتَّـرْحَـالِ مَـحْـدُودُ[١]

جُـودُ الـرِّجَـالِ مِـنَ الأَيْـدِي وَجُـودُهُـمُ
مِـنَ الـلِّـسَـانِ فَـلَا كَـانُـوا وَلَا الْـجُـودُ[٢]

مَـا يَـقْـبِـضُ الـمَـوْتُ نَـفْـساً مِـنْ نُـفُـوسِـهِـمِ
إِلَّا وَفِـي يَـدِهِ مِـنْ نَـتْـنِـهَـا عُـودُ[٣]

مِـنْ كُـلِّ رِخْـوِ وِكَـاءِ الْـبَـطْـنِ مُـنْـفَـتِـقٍ
لا فِـي الـرِّجَـالِ وَلَا الـنِّـسْـوَانِ مَـعْـدُودُ[٤]

أَكُـلَّـمَـا ٱغْـتَـالَ عَـبْـدُ الـسَّـوءِ سَـيِّـدَهُ
أَوْ خَـانَـهُ فَـلَـهُ فِـي مِـصْـرَ تَـمْـهِـيـدُ؟![٥]

= بين يديه وراح يكيل له المديح على أمل أن ينال منه المراد، فإذا به يفرّ منه خالي الوفاض، ومع ذلك فقد كان الحسد يلاحقه حيثما حلّ وارتحل، وهو مصدر شكاته وألمه.

(١) أروح: مستريح البال. المثري: الغنيّ. لقد عبّر الشاعر عن سخرية أليمة أنه اغتنى، ومع ذلك فخزائنه فارغة ويداه لا تملكان شيئاً، فارغتان إلّا من المواعيد الكثيرة التي لا تُجدي نفعاً.

(٢) القرى: الضيافة. محدود: محجوز وممنوع. لقد أساء الشاعر الاختيار على أمل أن ينزل في ضيافة من يُحسن الضيافة ويُكرمه، ولكنه اكتشف كذب القوم، فلا هم أكرموا وفادته ولا هم تركوه حرًّا طليقاً يعود من حيث أتى بل إنهم تمسّكوا به ليُقال عنهم إنهم كرماء وفد عليهم الشاعر العظيم.

(٣) يردف الشاعر مفنّداً مسلك القوم معه، إنهم ليسوا كرماء البتّة، لأن الجود ممارسة وفعل، ولكن هؤلاء يقولون ويكذبون، لذا يدعو عليهم بالموت فلا كانوا ولا كان الجود الذي يتغنّون به.

(٤) يصوّر الشاعر مدى اشمئزازه من القوم حتى إنّ الموت يشمئزّ من النتن الذي انتشر في الأجواء لشدّة زخمه يأنف أن يستلّ أرواحهم بيده، فإذا به يستعين بعود لا قيمة له ليُخلّص الأرض ممّا يُشوهها.

(٥) اغتال: قتل غيلة. يتّهم الشاعر كافوراً بقتل الإخشيد غدراً طمعاً بالملك، وكذلك يتّهمه بخيانته، ورغم ذلك فقد انقاد المصريون له وخضعوا لحكمه ولم يثوروا عليه =

صَـارَ الْـخَـصِـيُّ إمَـامَ الآبِـقِـيـنَ بِـهَـا
فَـالْـحُـرُّ مُـسْـتَـعْـبَـدٌ وَالْـعَـبْـدُ مَـعْـبُـودُ[١]

نَـامَـتْ نَـوَاطِـيـرُ مِـصْـرٍ عَـنْ ثَـعَـالِـبِـهَـا
فَـقَـدْ بَـشِـمْـنَ وَمَـا تَـفْـنَـى الْـعَـنَـاقِـيـدُ[٢]

أَلْـعَـبْـدُ لَـيْـسَ لِـحُـرٍّ صَـالِـح بِـأَخ
لَـوْ أَنَّـهُ فِـي ثِـيَـابِ الْـحُـرِّ مَـوْلُـودُ[٣]

= وهذا من غريب الأمور، والشاعر يستنكر استسلام المصريين لسلطة كافور.
ـ والإخشيد هو: محمد بن طُغج بن جفّ، أبو بكر: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس. تركي الأصل، مستعرب من أبناء المماليك. ولي الديار المصرية سنة ٣٢٣هـ. توفي بدمشق ودفن في بيت المقدس سنة ٣٣٤هـ = ٩٤٦م. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢: ٤١، النجوم الزاهرة: المجلد الثالث.
ـ وكافور هو: كافور بن عبد اللّه الإخشيدي، أبو المسك. كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيديّ ملك مصر (سنة ٣١٢هـ) فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده. تملك مصر (سنة ٣٥٥هـ) وكان فطناً ذكياً حسن السياسة، توفي سنة ٣٥٧هـ = ٩٦٨م. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ١: ٤٣١، النجوم الزاهرة ٤: ١ـ ١٠.

(١) الآبقين، الواحد آبق: الفارّ من سيّده، المستعبد: المذلّل. المعبود: المطاع. الإمام: القائد يُؤتمّ به ويُقتدى به. يصف الشاعر كافوراً بفاقد رجولته فضلاً عن عبوديّته، وبتلك الصفات المرذولة تمكّن من أن يكون محطّ أمثاله من العبيد الفارّين من أسيادهم يأتمون به ويحتمون بظلّه، ولذا انقلبت المقاييس الإنسانية، فإذا بالعبد يُسيّد على الأحرار فيستعبدهم ويتحكّم بأمورهم.

(٢) النواطير، الواحد ناطور: القيّم على حماية الأراضي والزروع. ويقصد بذلك السادة. كما يقصد بالثعالب: العبيد، بشم: أتخم لكثرة مأكله. ويقصد بالعناقيد الأموال. السادة في مصر في غفلة وتكاسل يغطّون في نوم عميق غافلين عن اللصوص وقد اغتنى هؤلاء ورغم ذلك فإنهم يستزيدون فلا يشبعون لكثرة ما في تلك البلاد من غنًى، والأبواب مشرّعة لهم، فلا يكتفون.

(٣) ثمّة مفارقة بين الحرّ والعبد، لذا لا يمكن أن يكونا على قدم المساواة حتى لو أن العبد ولد في ديار الأحرار، فإنه سيبقى عبداً في طباعه ومشاعره وعلمه وعمله وفعله. ويُلمح مغمز تحريضيّ ليثور ابن الإخشيد ضدّ كافور، علّه يُعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه في ما سبق.

لا تَـشْـتَـرِ الْـعَـبْـدَ إلَّا وَالْـعَـصَـا مَـعَـهُ
إنَّ الْـعَـبِـيـدَ لأَنْـجَـاسٌ مَـنَـاكِـيـدُ(١)

مَـا كُـنْـتُ أحْـسَـبُـنِـي أَحْـيَـا إلَـى زَمَـنٍ
يُـسـيءُ بِـي فـيـهِ عَـبْـدٌ وَهْـوَ مَـحْـمُـودُ!(٢)

وَلَا تَـوَهَّـمْـتُ أَنَّ الـنَّـاسَ قَـدْ فُـقِـدُوا
وَأنَّ مِـثْـلَ أبِـي الْـبَـيْـضَـاءِ مَـوْجُـودُ(٣)

وَأنَّ ذَا الأسْـوَدَ الـمَـثْـقُـوبَ مِـشْـفَـرُهُ
تُـطِـيـعُـهُ ذِي الْـعَـضَـارِيـطُ الـرَّعَـادِيـدُ(٤)

جَـوْعَـانُ يَـأْكُـلُ مِـنْ زَادِي وَيُـمْـسِـكُـنِـي
لِـكَـيْ يُـقَـالَ عَـظِـيـمُ الْـقَـدْرِ مَـقْـصُـودُ(٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. المناكيد، الواحد منكود: من لا خير فيه. لقد وصل الحنق والغضب بالشاعر إلى أن يُبدي نصحاً لمن يرغب بشراء العبيد أن يشتري مع عبده عصاً لكي يقوّمه كلما دعت الحاجة بالضرب والتعنيف، ففي هذه الحالة يستقيم أمره ويصلح شأنه ومسلكه.

(٢) أحسبني: أظنّ. ويروى «كلب» بدلاً من «عبد». يستنكر الشاعر على نفسه كيف أنه قبل إساءة عبد له وسخريته به، ومع ذلك يُشيد به ويكيل له المديح، وكأنه لا يُصدّق نفسه أنه هو من فعل ذلك رغم أنفته وتكبّره.

(٣) الوهم حالة نفسية بين الشكّ واليقين، والشاعر كأنه لم يستفق على واقع وحقيقة، فهل هناك بشر يُحسّون ويُفكّرون ويقبلون أن يحكمهم أمثال أبي البيضاء من عبيد. وإمعاناً بسخريته من كافور نعته بأبي البيضاء، فكل ما فيه يمثل السواد في الخلقة والسلوك.

(٤) المشفر للجمل بمثابة الشفة للإنسان، ويُثقب المشفر لجعل الزمام فيه، العضاريط، الواحد عضروط: من يعمل لدى الآخرين لقاء طعامه. الرعاديد، الواحد رعديد: الجبان. يُردف الشاعر لومه للقدر ولنفسه كيف أنه عاش حتى رأى المقاييس الإنسانية تنقلب رأساً على عقب، فإذا بعبد أسود ضخم الجثّة كجمل؛ المفروض أن يُسخّر ويُذلل ليحمل الأثقال، فإذا به يتسيّد أناساً همهم الأكل والخضوع لإرادته؛ لقد استسلموا له لجبنهم وضعتهم.

(٥) إنه ادّعاء فارغ أن يدّعي كافور أن شاعراً عظيماً كالمتنبي يمدحه ويتبجّح بذلك مما =

إنَّ ٱمْـرَأً أَمَـةٌ حُـبْـلَـى تُـدَبِّـرُهُ
لَـمُـسْـتَـضَـامٌ سَـخِـينُ الْـعَـيْـنِ مَـفْـؤُودُ(١)

وَيْـلُـمِّـهَـا خُـطَّـةً وَيْـلُـمِّ قَـابِـلِـهَـا
لِـمِـثْـلِـهَـا خُـلِـقَ الـمَـهْـرِيَّـةُ الْـقُـودُ(٢)

وَعِـنْـدَهَـا لَـذَّ طَـعْـمَ الـمَـوْتِ شَـارِبُـهُ
إنَّ الـمَـنِـيَّـةَ عِـنْـدَ الـذُّلِّ قِـنْـدِيـدُ(٣)

مَـنْ عَـلَّـمَ الأسْـوَدَ الـمَـخْـصِـيَّ مَـكْـرُمَـةً
أَقَـوْمُـهُ الْـبِـيـضُ أَمْ آبَـاؤُهُ الـصِّـيـدُ؟!(٤)

أَمْ أُذْنُـهُ فِـي يَـدِي الـنَّـخَّـاسِ دَامِـيَـةً
أَمْ قَـدْرُهُ وَهْـوَ بِـالْـفَـلْـسَـيْـنِ مَـرْدُودُ(٥)

= يُوهم بأنه كريم وذو فضل وهو جائع يحبس الشاعر ويأكل من ماله وهو لا يتركه يرحل ويُصرّ على ذلك.

(١) و (٢) ورد بيت قبل هذا البيت؛ بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:

إنّ ٱمْـرَأً أَمَـةٌ حُـبْـلـى تُـدَبِّـرُهُ لَـمُـسْـتَـضـامٌ سَـخـيـنُ العيـنِ مَـفْـؤُودُ

والمستضام: المظلوم. المفؤود: الجبان الضعيف الرأي. سخين العين: الحزين. ويلمّها، كلمة تعجب تتألّف من كلمتين وي لأمها. الخطّة: الشأن. المهرية: إبل تنسب إلى قبيلة مهرة، فرع من قُضاعة. القود: طوال الأعناق من الإبل. يعجب الشاعر من الحال التي وصل إليها، وليس من طبعه التخاذل وقبول الخضوع لمن هو دونه، فكيف حصل ذلك؟ وما هي نتائج ذلك؟

(٣) المنيّة: الموت. القنديد: عصارة قصب السكر إذا جمد. يثور الشاعر على نفسه وعلى الحالة التي آل إليها أمره، إنها حالة يُرثى لها، فلا بدّ من خلاص له من هذه الحالة أهون منها موت في حرّية وكرامة لذيذ الطعم كحلاوة السكر في حلق شاربه.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥١. يستغرب الشاعر حالة كافور أن يكون قد تلقّى إلهام الكرم في الأخلاق والسلوك وفضائل الأمور، وهو لم يكن حرًّا ولم يكن آباؤه ملوكاً سادة، ولذا فهو لا يمكن أن يكون على شيء من ذلك.

(٥) النخاس: بائع الرقيق من العبيد. الفلس: قطعة نقد تصنع من النحاس. يهجو الشاعر كافوراً بأنه مملوك بِيع في سوق النخاسة، وصاحبه يُنادي عليه، ومن اشتراه كان به =

أَوْلَى اللِّئَامِ كُوَيْفِيرٌ بِمَعْذِرَةٍ
فِي كُلِّ لُؤْمٍ وَبَعْضُ الْعُذْرِ تَفْنِيدُ(١)
وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبِيضَ عَاجِزَةٌ
عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةُ السُّودُ؟!(٢)

إذا تذكرت!

قال بمصر وهو يريد سيف الدولة:

[البسيط]

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمُ
قَبْلَ الْفِرَاقِ أَذًى بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ(٣)
إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ
أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ(٤)

= من الزاهدين، فلم يزد فلسين عليه لعدم رغبته باقتنائه، وإنما اشتراه لحاجته لمن يحمل عليه.

(١) و (٢) التفنيد: التعذير واللوم. كُوَيْفير، تصغير كافور، للتحقير. يرى الشاعر أن كافوراً يستحقّ المعذرة، فهو أولى لئيم حقير يستحق المعذرة، فهو لم يتعوّد على المآثر والفضائل لدناءة أصله وحقارة عنصر العبودية فيه، وهذا أخبث هجاء وجّه لكافور. ذلك أن الأحرار يعجزون عن الإيفاء بكلّ ما تتطلّبه محاسن الأخلاق منهم فكيف بمن لم يعتد على ذلك من العبيد الذين يفقدون علائم الرجولة الحقّة في كلّ معانيها.

(٣) لقد كان فراق الشاعر لكافور نعمة، فقد أحسّ طعم الحرية وتفتّحت نفسه، فاستنشق نسيماً له طعم ورائحة، بعدما كان يُفضّل البقاء في كنف كافور رغم معاناته وآلامه، وتغير الحال أفضل من البقاء على حال واحد.

(٤) وتذكّر الآلام والمعاناة يدفع بالمرء إلى التخلّص من أسبابهما رغم مغالبة الشوق في بعض الأحيان، وهنا يتغلّب العنصر الأقوى.

عظمته ممالك الفرس

يمدحه ويهنئه بالنيروز ويصف سيفاً قلده إياه وفرساً حمله عليه وجائزة وصله بها وكان قد عاب القصيدة الرائية الآتية عليه:

[الخفيف]

جَـــاءَ نَـــيْـــرُوزُنَـــا وَأنْـــتَ مُـــرَادُهْ،
وَوَرَتْ بِـــالَّـــذِي أرَادَ زِنَـــادُهْ(١)

هـــذِهِ الـــنَّـــظْـــرَةُ الَّـــتِـــي نَـــالَـــهَـــا مِـــنْـــ
ـــكَ إلَـــى مِـــثْـــلِـــهَـــا مِـــنَ الْـــحَـــوْلِ زَادُهْ(٢)

يَـــنْـــثَـــنِـــي عَـــنْـــكَ آخِـــرَ الْـــيَـــوْمِ مِـــنْـــهُ
نَـــاظِـــرٌ أنْـــتَ طَـــرْفُـــهُ وَرُقَـــادُهْ(٣)

نَـــحْـــنُ فِـــي أرْضِ فَـــارِسٍ فِـــي سُـــرُورٍ
ذَا الـــصَّـــبَـــاحُ الَّـــذِي نَـــرَى مِـــيـــلَادُهْ(٤)

عَـــظَّـــمَـــتْـــهُ مَـــمَـــالِـــكُ الْـــفُـــرْسِ حَـــتَّـــى
كُـــلُّ أيَّـــامِ عَـــامِـــهِ حُـــسَّـــادُهْ(٥)

---

(١) و(٢) النيروز من أعياد الفرس المجوس قبل الإسلام، وهو أول يوم من سنتهم. الزنادة، الواحد زند: الحجر تقدح به النار. يربط الشاعر بين جلالة ذلك العيد في مطلع عام جديد، تتفتح معه الطبيعة وتُشرق معه بسمة الربيع، وكلّ شيء يهمّ بالنهوض والإشراق، لاستقبال طلعة الممدوح، وذلك أن المناسبة هذه تطلّ كلما حال الحول تتزوّد من الممدوح بمدد من طلعته.

(٣) الطرْف، بسكون الراء: النظر. الرقاد: النوم. للزمن إحساس الحسرة، ذلك اليوم يلفظ لحظاته الأخيرة وفي نفسه حسرة، يعتصره الألم، فلا يعرف للنوم طعماً ولا يُحسّ بطعم السعادة في حال طلع على غيره حتى يُشرق الممدوح بجميل طلعته.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. يتحدث الشاعر بلسان الجماعة، فالكلّ ينعمون بلحظة فرح والسعادة تطفح بها الوجوه، والعيد بشائره تنعكس في شتى ظواهر الوجود، وممالك الفرس.

(٥) يحتفلون بذلك اليوم ويفضلونه على سائر أيام السنة، ممّا جعل تلك الأيام تغار منه وتحسده لما فيه من نعم.

مَـا لَـبِـسْـنَـا فـيـهِ الأكَـالِـيـلَ حَـتَّـى
لَـبِـسَـتْـهـا تِـلَاعُـهُ وَوِهَـادُهْ[١]

عِـنْـدَ مَـنْ لَا يُـقَـاسُ كِـسْـرَى أبُـو سَـا
سَـانَ مُـلْـكـاً بِـهِ وَلَا أوْلَادُهْ[٢]

عَـرَبِـيٌّ لِـسَـانُـهُ، فَـلْـسَـفِـيٌّ
رَأْيُـهُ، فَـارِسِـيَّـةٌ أعْـيَـادُهْ[٣]

كُـلَّـمَـا قَـالَ نَـائِـلٌ أنَـا مِـنْـهُ
سَـرَفٌ، قَـالَ آخَـرٌ: ذَا ٱقْـتِـصَـادُهْ[٤]

كَـيْـفَ يَـرْتَـدُّ مَـنْـكِـبِـي عَـنْ سَـمَـاءٍ
وَالـنِّـجَـادُ الَّـذِي عَـلَـيْـهِ نِـجَـادُهْ[٥]

---

(١) التلاع، الواحدة تلعة: المرتفع من الأرض. الوهاد، الواحدة وهدة: المنخفض من الأرض. في ذلك اليوم يتزيّن البشر احتفاءً بتلك المناسبة، فيلبسون أجمل الحُلل والثياب الفاخرة، حتى معالم الطبيعة من تلاع ووهاد شاركت في الفرحة فخلعت على نفسها أجمل مظاهر الجمال الطبيعي الخلاب، وارتدت المرزكش من الألوان فبدت وكأنها في عرس.

(٢) شرع الشاعر بمدح ممدوحه الفارسي الذي فاق ملكه ملك كسرى مؤسس الملك السّاساني.

(٣) يمدح الشاعر ممدوحه إنه يجمع شتات معارف عصره، فلسانه عربي مبين ومطّلع على آثار العرب في شتّى معارفهم، فضلاً عن أنه متضلّع بالفلسفة الإسلامية واليونانية، وذو رأي حكيم، وأعياده أعياد الفرس؛ النيروز والمهرجان. نسي الشاعر الأعياد الإسلامية، وهذا ما يدعو إلى الاستغراب.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٦. النائل: العطاء. السرف: التبذير. يمدح الشاعر ممدوحه بالكرم، فإذا أعطى عطاءً أوليًا كثيراً بإسراف أتبعه بعطاء آخر أكثر منه بحيث يُعتبر العطاء الأول عطاء اقتصاد.

(٥) النجاد: حمالة السيف. يفخر الشاعر بسيف قلّده إيّاه الممدوح، وبهذا السيف يفخر ويعتزّ وكأنه بلغ أعلى السماكين. ولذا فإنه يُفاخر كلّ الناس بما احتواه من فخر.

قَـلَّـدَتْـنِـي يَـمِـيـنُـهُ بِـحُـسَـامِ
أعْـقَـبَـتْ مِـنْـهُ وَاحِـداً أجْـدَادُهْ[(١)]

كُـلَّـمَـا ٱسْـتَـلَّ ضَـاحَـكَـتْـهُ إيَـاةٌ
تَـزْعُـمُ الـشَّـمْـسُ أنَّـهَـا أرْآدُهْ[(٢)]

مَـثَّـلُـوهُ فـي جَـفْـنِـهِ خَـشْـيَـةَ الْـفَـقْـدِ
فَـفِـي مِـثْـلِ أثْـرِهِ إغْـمَـادُهْ[(٣)]

مُـنْـعَـلٌ لَا مِـنَ الْـحَـفَـا ذَهَـباً يَـحْـ
ـمِـلُ بَـحْـراً فِـرِنْـدُهُ إزْبَـادُهْ[(٤)]

يَـقْـسِـمُ الْـفَـارِسَ الـمُـدَجَّـجَ لَا يَـسْـ
ـلَـمُ مِـنْ شَـفْـرَتَـيْـهِ إلَّا بِـدَادُهْ[(٥)]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. قلّد: أعطى. لقد تكرّم الممدوح ومنح الشاعر هذا السيف، إنه سيف مميّز صنع من أفضل أنواع الحديد، فلم يُطبع مثيل له.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. إياة الشمس: ضوءها. الأرْآد، الواحد رأد: ارتفاع الضحى ورونقه. يصف الشاعر توارد الأضواء وانعكاساتها، فإذا استلّ السيف من غمده تولّدت الأنوار وانعكست الأضواء، فإذا بالشمس يلتمع مقابلها نور يخطف الأبصار ويُضاهي شعاعها فتعترف بأن ذلك الضوء كضوئها.

(٣) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. مثّلوه: قلّدوا مثيلاً له. الأثر: الفرند، والفرند جوهر السيف. يصف الشاعر غمد السيف وجفنه، فقد حلّيا بنقوش متشابهة ليكون ذلك مدعاة إثارة إعجاب من رآه ثابتاً لا تتغير حالة الإعجاب في كلا الحالين، في سلّه ووضعه في غمده.

(٤) منعل: أي ينتعل نعلاً. لا يزال الشاعر يصف السيف ومستلزماته، لقد جعل نعله ذهباً كأنه بحر تموج موجاته فيطفو على وجهه زبد أي يشعّ ضياءً ونوراً تماماً كموج البحر في حال انعكاس الشمس على سطحه وإزباده.

(٥) المدجج: تام السلاح لباساً وعتاداً. البِداد: حشية تجعل في جانب السرج. يصف الشاعر أثر السيف لدى استعماله، إنه إذا ضرب به البطل القويّ شطر الكميَّ المدجج =

جَـمَـعَ الـدَّهْـرُ حَـدَّهُ وَيَـدَيْـهِ
وَثَـنـائِـي فَـاسْـتَـجْـمَـعَـتْ آحَـادُهْ[١]

وَتَـقَـلَّـدْتُ شَـامَـةً فـي نَـدَاهُ
جِـلْـدُهَـا مُـنْـفِـسَـاتُـهُ وَعَـتَـادُهْ[٢]

فَـرَّسَـتْـنَـا سَـوَابِـقٌ كُـنَّ فِـيـهِ
فَـارَقَـتْ لِـبْـدَهُ وَفِـيـهَـا طِـرَادُهْ[٣]

وَرَجَـتْ رَاحَـةً بِـنَـا لا تَـرَاهَـا
وَبِـلَادٌ تَـسِـيـرُ فـيـهـا بِـلَادُهْ[٤]

هَـلْ لِـعُـذْرِي عِـنْـدَ الْـهُـمَـامَ أَبِـي الْـفَـضْـلِ
قَـبُـولٌ سَـوَادُ عَـيْـنِـي مِـدَادُهْ[٥]

= بالسلاح شطرين، ومن عظم الضربة فإنها تهوي لتصل الفرس فينشطر بدوره مع صاحبه، فلا يبقى سوى جانبي السرج، ويحدث ذلك في أيّ شفرتي السيف كان الضرب.

(١) ينتقل الشاعر إلى مدح ممدوحه إضافة إلى تنويهه بقيمة شعره. وسيف تلك مواصفاته لا بدّ له من يد قوية تستعمله؛ إنها يد الممدوح وما يجعل المشهد مكتملاً فلا بدّ من شاعر عظيم يصف ما عليه من جمال وقوّة كلّ منهما.

(٢) الشامة: الخال. الندى: الكرم. المنفسات: النفيس من كلّ شيء ما هو ذات قيمة عالية. العتاد: عدّة الحرب. يتحدّث الشاعر عن كرم ممدوحه؛ فقد أهداه من المال الشيء الكثير، فبدا السيف كالشامة في وجه عطاياه من مال وعتاد وجياد وغيرها ممّا لدى الممدوح وباستطاعته تقديمه عن رضى.

(٣) فرّستنا: جعلت منا فرساناً. السوابق من الخيول: السريعة. الندى: الكرم. اللبد: ما يوضع تحت السرج. الطراد: المطاردة في السباق والصيد. يتحدّث الشاعر واصفاً تلك الخيول بأنها أصيلة ومدرّبة أحسن تدريب في القتال والصيد؛ وهذا ما جعل من الشاعر فارساً يُحسن ركوب الخيل وقيادتها.

(٤) لقد أملت تلك الخيول أن ترتاح في حال انتقال ملكيتها إلى الشاعر، ولكن خاب أملها لأنه شجاع يُقاتل إلى جانب ممدوحه في حروبه أو في طراده، لذا لم يطرأ على حياة تلك الجياد أي جديد.

(٥) المداد: الحبر. الهمام: البطل الشجاع الكريم. يُقدّم الشاعر اعتذاره لممدوحه، فقد =

أنَـا مِـنْ شِـدَّةِ الْـحَـيَـاءِ عَـلِـيلٌ
مَـكْـرُمَـاتُ الـمُـعِـلِّـهِ عُـوَّادُهْ[١]
مـا كَـفَـانِـي تَـقْـصِـيرُ مـا قُـلْـتُ فِـيـهِ
عَـنْ عُـلَاهُ حَـتَّـى ثَـنَـاهُ ٱنْـتِـقَـادُهْ[٢]
إنَّـنـي أصْـيَـدُ الْـبُـزَاةِ وَلَـكِـنَّ
أَجَـلَّ الـنُّـجُـوم لَا أصْـطَـادُهْ[٣]
رُبَّ مـا لَا يُـعَـبِّـرُ الـلَّـفْـظُ عَـنْـهُ
وَالَّـذِي يُـضْـمِـرُ الْـفُـؤَادُ ٱعْـتِـقَـادُهْ[٤]
مَـا تَـعَـوَّدْتُ أنْ أرَى كَـأَبِـي الْـفَـضْـلِ
وَهٰـذَا الَّـذِي أتَـاهُ ٱعْـتِـيَـادُهْ[٥]

= مدحه بشعر دون ما عُرف عن المتنبي من شعر فصيح عالي الرتبة في أشعاره لبدر بن عمار وللحمدانيّين، وبالأخصّ لسيف الدولة ولكافور. وهذا ما يُلاحظ حتى في هذه القصيدة، ولعلّ الفيض الشعري بدأ يجفّ آنئذٍ في عبقرية المتنبي العظيمة إضافة إلى فقدان حماسه المعهود في مطالع قصائده. إنه على استعداد ليقدّم سواد عينيه مِداداً لمدح أبي الفضل.

(١) العوّاد: الواحد عائد: زائر المريض، يُعبّر الشاعر عن حيائه، فالهدايا تنهال عليه كلّ يوم من قبل الممدوح، وهو يشعر بالمرض وتلك الهدايا بمثابة العوّاد، وهو يقدّم اعتذاره لإحساسه بالقصور، فلم يُكافِئ الممدوح بمدحه، وهو الخبير بجيّد الشعر، وقد انتقده لقصور شعره بين يديه.

(٢) يُفنّد الشاعر أسباب اعتذاره من ممدوحه أنه لم يفهِ حقّه من المدح، ولعلّه لم يجد في الممدوح ما وجده في غيره ممن مدح في السابق، ولقد أرجع الممدوح في نقده للشاعر عجزه عن وصفه؛ وهذا ما جعل الشاعر يستحيي.

(٣) يعترف الشاعر بأنه أشعر الشعراء ويستطيع اصطياد أفصح المعاني وأجودها، ومهما ارتفع في سماء الشعر فإنه لن يدرك ويُسامي ما كان عليه ابن العميد من سؤدد وعظمة، فإذا به يقصّر في مدحه إياه.

(٤) يلجأ الشاعر إلى معادلة منطقية مفادها أن القلب مكمن المشاعر الفيَّاضة فلا تبدو لعجز اللسان عن التعبير عنها، حتى وإن وجد الإخلاص في صدق المشاعر.

(٥) ومن خلال اعتذار الشاعر لابن العميد أنه لم يُصادف أن مدح من هو بوزنه، وذلك =

إنَّ في المَوْجِ لِلْغَرِيقِ لَعُذْراً
وَاضِحاً أنْ يَفُوتَهُ تَعْدَادُهْ[(١)]
لِلنَّدَى الْغَلْبُ إنَّهُ فَاضَ وَالشِّعْـ
ـرُ عِمَادِي وَٱبْنُ الْعَمِيدِ عِمَادُهْ[(٢)]
نَالَ ظَنِّي الأُمُورَ إلّا كَرِيماً
لَيْسَ لِي نُطْقُهُ وَلَا فِيَّ آدُهْ[(٣)]
ظَالِمُ الْجُودِ كُلَّمَا حَلَّ رَكْبٌ
سِيمَ أَنْ تَحْمِلَ الْبِحَارَ مَزَادُهْ[(٤)]

= تفضيل للممدوح على من مدح المتنبي من الرجال، وهذا عذر في غير محلّه، فلو كان صحيحاً ما قال كان لا بدَّ له أن يعلو في شعره بقدر مستوى الممدوح الذي فضله على سائر ممدوحيه، ويردّ الشاعر نقد شعره أن ممدوحه أريب وعالم بفنون الشعر، وهذا ليس صحيحاً، فسيف الدولة شاعر عربي مثقف وبلا أدنى شكّ أنه أكثر دراية من ابن العميد بالشعر، فضلاً عن حاشيته من الشعراء والعلماء الكبار في العصر.

(١) يُردف الشاعر قوله أنه بمثابة غريق في بحر لُجيّ تتدافع أمواجه بقوّة وعنف، فلا يستطيع عدّ تلك الأمواج، ولقد غرق الشاعر بما لدى ممدوحه من صفات لا يُمكن حصرها وعدّها لمفاجأته بها دفعة واحدة دون سابق إنذار، وهذا من أسباب تقصيره.

(٢) الندى: الكرم. لقد طمر ابن العميد للشاعر بفيض هداياه وكرمه فكانت الغلبة للممدوح فضلاً عن أنه نقادة للشعر، لذا فلا يمكن للشاعر مغالبته. ويبدو الأمر خلاف ذلك فقد كان الشاعر في ما سبق يستثير كرم ممدوحه ليحصل على ماله، لأنه كان بحاجة إلى المال، أما في هذه الحالة فالمال وفير لديه والحافز غير متوفّر لبذل أقصى الجهد، ثم إن ابن العميد يتلهّف ليمدحه المتنبي، وتلك هي الحقيقة.

(٣) يروى «طبّي» بدلاً من «ظنّي». الآد: القوّة. يُقرّ الشاعر بعجزه وقصوره عن إيفاء ممدوحه حقّه من جيّد المديح، رغم تقليبه الأمور على سائر وجوهها فضلاً عن كرمه الفيّاض؛ فسبب ذلك فصاحة الممدوح ومعرفته بنقد الشعر وتمييزه بين الجيد والرّديء منه.

(٤) سِيم: كلف. المزاد، الواحدة مزادة: القِربة. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه العظيم؛ إنه ظالم الجود بفيض منه بلا حساب على من يقصده بحيث لا يستطيع حمل ما يحصل عليه كمن يحمل قِربة لا تقدر على استيعاب مياه البحر.

غَـمَـرَتْـنِـي فَـوَائِـدُ شَـاءَ فِـيـهَـا
أَنْ يَـكُـونَ الْـكَـلَامُ مِـمَّـا أَفَـادَهْ[١]

مَـا سَـمِـعْـنَـا بِـمَـنْ أَحَـبَّ الْـعَـطَـايَـا
فَـاشْـتَـهَـى أَنْ يَـكُـونَ فِـيـهَـا فُـؤَادُهْ[٢]

خَـلَـقَ الـلَّـهُ أَفْـصَـحَ الـنَّـاسِ طُـرًّا
فِـي مَـكَـانٍ أَعْـرَابُـهُ أَكْـرَادُهْ[٣]

وَأَحَـقُّ الْـغُـيُـوثِ نَـفْـسـاً بِـحَـمْـدٍ
فِـي زَمَـانٍ كُـلُّ الـنُّـفُـوسِ جَـرَادُهْ[٤]

مِـثْـلَـمَـا أَحْـدَثَ الـنُّـبُـوَّةَ فِـي الْـعَـا
لَـمِ وَالْـبَـعْـثَ حِـيـنَ شَـاعَ فَـسَـادُهْ[٥]

---

(١) يُحاول الشاعر التخلّص من شعوره بالحرج والاعتذار، فالممدوح لم يترك لمادحه حجّة يحتجّ بها إلّا ولجها؛ فقد أفاض عليه كرماً عظيماً كما يقول ثم إنه فتح له باباً جديداً بنقده لشعره حتى يُصلحه، وذلك أيضاً باب جديد من مكارم الممدوح.

(٢) الممدوح نموذج جديد من الكرماء، فالمال الناس فيه شركاء، كلّ يُعطي حسب مقدرته وألمعيته، وللمرّة الأولى وجد الشاعر أن ممدوحاً يتكرّم بقلبه وعقله وعلمه ليكشف عمّا لديه من معارف قلّما تتوفّر لغيره، وهو يقدمها بحبّ ورغبة بلا مَنٍّ.

(٣) طرًّا: جميعاً. يفضّل الشاعر ممدوحه، إنه عطاء إلهيٌّ أن خلق أفضل الناس لساناً عربياً، ففاق العرب في علومهم ولغتهم، في مكان بعيد عن مواطنهم، في فارس بين قوم لا يُحسنون من العربية شيئاً، وهذا سرّ إعجاب الشاعر بممدوحه.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه مفضلاً إيّاه على سائر الكرماء، إنه غيث، والغيث تعمّ فائدته سائر الكون، أرسله اللّه عزّ وجلّ فاستحقّ الحمد في وقت عمّ الجدب الأرض وانتشر البشر كالجراد، همهم نهب الخيرات والاستئثار بها خلاف الممدوح.

(٥) إن الله تعالى بعث النبيين والمرسلين للبشر في حالات تخبّط البشريّة في أتون الأنانية والإلحاد، فإذا ببعثهم أفضل حالات إعادة الأمور إلى نصابها الحقيقي، حيث العدالة والإخاء الإنساني، والممدوح بمثابة نبيّ أرسله اللّه تعالى ليُعيد للإنسان كرامته ويُعمّ الثراء بين البشر.

زَانَتِ اللَّيْلَ غُرَّةُ الْقَمَرِ الطَّا
لِعِ فِيهِ وَلَمْ يَشِنْهُ سَوَادُهْ (١)

كَثُرَ الْفِكْرُ كَيْفَ نُهْدِي كما أَهْـ
ـدَتْ إِلَى رَبِّهَا الرَّئِيسِ عِبَادُهْ (٢)

وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ الْمَالِ وَالْخَيْـ
ـلِ فَمِنْهُ هِبَاتُهُ وَقِيَادُهْ (٣)

فَبَعَثْنَا بِأَرْبَعِينَ مِهَاراً
كُلُّ مُهْرٍ مَيْدَانُهُ إنْشَادُهْ (٤)

عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرَى الْجِسْمُ فيهِ
أرَباً لا يَرَاهُ فِي مَا يُزَادُهْ (٥)

فَارْتَبِطْهَا فَإِنَّ قَلْباً نَمَاهَا
مَرْبِطٌ تَسْبِقُ الْجِيَادَ جِيَادُهْ (٦)

---

(١) غرّة القمر : طلعته وضوءه. شان : عاب. عمّ الفساد في الأرض واختلطت المقاييس وتبدّلت الأحوال، والناس في هرج ومرج، والممدوح صامد في عرش كماله، فكان بمثابة القمر الذي ينشر الأنس والحبّ والحنان بين البشر، فلم تدنّسه ظلمة الليل الدامس.

(٢) و (٣) إن الشاعر في حيرة من أمره، فهو يرغب في تقديم شيء ممَّا يملك، ينظر حواليه، فإذا بكلّ ما لديه من عطاء الممدوح، ومن غير اللائق ردّ الهدية لمن أعطاها، ففي ذلك إهانة للسيد لا تعدلها إهانة، ولقد وجّه للشاعر من المال والخيل الكثير.

(٤) المهر، ولد الفرس، يقصد الشاعر بذلك الأبيات من الشعر. اهتدى الشاعر أخيراً إلى جزاء أوفى يُرضي الممدوح، إنها قصيدة مؤلّفة من أربعين بيتاً من الشعر تنشد بين يدي الممدوح.

(٥) يدعو الشاعر لممدوحه أن يعيش من السنين بعدد أبيات القصيدة الأربعين، ويتمنّى له دوام الصحة والعافية زيادة عمّا عاشه من العمر.

(٦) يُنهي الشاعر قصيدته متمنياً على ممدوحه أن يحتفظ بها، إنها فيض قلب تنسب إليه، ذلك أن جياده سبّاقة، فلا يستطيع جواد اللحاق بجياده، وهو في ذلك يفخر على سائر الشعراء.

الأسد ابن الأسد

قال عند قراءة كتاب ورد عليه من أبي الفتح ابن العميد:

[المتقارب]

بِـــكُـــتْـــبِ الأَنَـــامِ كِـــتَـــابٌ وَرَدْ
فَـــدَتْ يَـــدَ كَـــاتِـــبِـــهِ كُـــلُّ يَـــدْ [١]

يُـــعَـــبِّـــرُ عَـــمَّـــا لَـــهُ عِـــنْـــدَنَـــا،
وَيَـــذْكُـــرُ مِـــنْ شَـــوْقِـــهِ مَـــا نَـــجِـــدْ [٢]

فَـــأَخْـــرَقَ رَائِـــيَـــهُ مَـــا رَأَى،
وَأَبْـــرَقَ نَـــاقِـــدَهُ مَـــا انْـــتَـــقَـــدْ [٣]

إِذَا سَـــمِـــعَ الـــنَّـــاسُ أَلْـــفَـــاظَـــهُ
خَـــلَـــقْـــنَ لَـــهُ فـــي الْـــقُـــلُـــوبِ الْـــحَـــسَـــدْ [٤]

فَـــقُـــلْـــتُ، وَقَـــدْ فَـــرَسَ الـــنَّـــاطِـــقِـــيـــنَ
كَـــذَا يَـــفْـــعَـــلُ الأَسَـــدُ ٱبْـــنُ الأَسَـــدْ [٥]

---

(١) فاداه: أعطى فِداءه فأنقذه. إنها دعوة كريمة تلقّاها الشاعر؛ كتاب خير من كلّ كتاب، ويدعو الشاعر بسلامة كاتب الرسالة ودوام حياته.

(٢) في الكتاب أشواق وتمنٍّ بلقاء الشاعر والشاعر بدوره يختزن لكاتب الكتاب مشاعر وأشواقاً صادقة وأمنيات بلقاء وديّ حميم.

(٣) أخرق: أدهش. أبرق: حيّر. لقد أثار الكتاب ومحتواه حيرة القارئ ودهشته، لجمال خطّه وفصاحة مضمونه بحيث لم يجد الناقد فيه إلّا ما يُثير إعجابه بكاتبه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. ولروعة ما في الكتاب فإذا سمع السامعون محتواه دبّت بهم الغيرة وأشعل الحسد قلوبهم لجمال عبارته وحسن جرسها ووقعها في الآذان فضلاً عن القلوب.

(٥) فرس: افترس. يصف الشاعر ما ترك الكتاب في النفوس، فقد استولى على الأفئدة وافترسها، وذلك شأن الأسد ابن الأسد؛ فليس من المستغرب أن يُثير في النفوس هذا الإحساس.

الهدى ذا، فما المهدي

ورد عليه كتاب عضد الدولة يستزيره فقال عند مسيره مودعاً ابن العميد سنة أربع وخمسين وثلاث مئة (٩٦٥م):

[الطويل]

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَاباً عَلَى الصَّدِّ
وَلَا خَفَراً زَادَتْ بِهِ حُمْرَةُ الْخَدِّ(١)

وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصِيرَةٍ
أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ(٢)

وَمَنْ لِي بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ
قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ(٣)

وَأَنْ لَا يَخُصَّ ٱلْفَقْدُ شَيْئاً فَإِنَّنِي
فَقَدْتُ فَلَمْ أَفْقِدْ دُمُوعِي وَلَا وَجْدِي(٤)

تَمَنٍّ يَلَذُّ الْمُسْتَهَامُ بِذِكْرِهِ،
وَإِنْ كَانَ لَا يُغْنِي فَتِيلاً وَلَا يُجْدِي(٥)

---

(١) الخفر: الحياء. إنها لحظة الفراق، فلقد انتهى كلّ شيء كان بين الشاعر وممدوحه إلّا ما كان بينهما من صدّ وعتاب، والعتاب يغسل القلوب ويُجدّد الودّ ويغسل إحن القلوب، ولقد نسي الشاعر كلّ ذلك سوى ما غشيه من الحياء حتى إنه قد غزاه الخفر واحمرّت وجنتاه بسبب ما كان بينهما.

(٢) القصورة: المرأة المحبوسة في مخدعها فلا تغادره. يُردف الشاعر حديثه أنه لم ينس كيف أنه قصّر ليلة قضاها إلى جانب امرأة لا تغادر مخدعها من المصونات، وقد تغلغلت يده في أنحاء صدرها، وكأن يده عقد يُطوّق جيدها، وكان عناق طويل.

(٣) يتمنّى الشاعر أن يكون له يوم آخر يودّع فيه ممدوحه، رغم كرهه لذلك اليوم وما يمثّله من فراق، وقد يكون لقاء آخر، والبشر من المحبين يتمنّون لحظة الوداع لما فيها من نظرات متبادلة ذات دلالة على مدى معاناة المحبين ممزوجة بالتسليم للقضاء الذي عليهم الفراق.

(٤) الوجد: شدّة الشوق. يتمنّى الشاعر لو ينتهي كلّ شيء في هذه اللحظة، فقد أحبّته ولكنه لم يفقد إحساس الألم فبكى حزيناً، وهو في الواقع يتمنّى لو يفقد بكاءه وشدّة شوقه أيضاً، ولعلّ في ذلك راحة نفسه.

(٥) المستهام: العاشق الولهان. الفتيل: هو ما على شقّ نواة التمر. تلك أمنية بعيدة =

وَغَـيْـظٌ عَـلَـى الأَيَّـام كَـالـنَّـارِ فِـي ٱلْـحَـشَـا
وَلَـكِـنَّـهُ غَـيْـظُ ٱلأسِـيـرِ عَـلَـى الْـقِـدِّ[(١)]

فَــإمَّــا تَــرَيْــنِــي لَا أُقِــيــمُ بِــبَــلْــدَةٍ
فَـآفَـةُ غِـمْـدِي فـي دُلُـوقِـي وَفـي حَـدِّي[(٢)]

يَـحِـلُّ ٱلْـقَـنَـا يَـوْمَ الـطِّـعَـانِ بِـعَـقْـوَتِـي
فَـأَحْـرِمُـهُ عِـرْضِـي وَأُطْـعِـمُـهُ جِـلْـدِي[(٣)]

تُــبَــدِّلُ أَيَّــامِــي وَعَــيْــشِــي وَمَــنْــزِلِــي
نَـجَـائِـبُ لَا يَـفْـكُـرْنَ في النَّـحْسِ وَالسَّـعْـدِ[(٤)]

وَأَوْجُــهُ فِــتْــيَــانٍ حَــيَــاءً تَــلَــثَّــمُــوا
عَـلَـيْـهِـنَّ لَا خَـوْفـاً مِـنَ ٱلْـحـرِّ وَٱلْـبَـرْدِ[(٥)]

= المنال ولا تُجدي نفعاً، وهي محض أمنية لا أقلّ ولا أكثر. وليس للعاشق إلّا التمنّي، وتمنّي المحال محال فلا ينفع في مثل هذا الوقف.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. الحشا: ما اضطمَّت عليه الضلوع. القِدّ، بكسر القاف: القيد يُقيّد به الأسير. عتب الشاعر على الدهر لا يتوقّف يتكرّر في معظم قصائده، وغيظه يُلهب أحشاءه فيُحرق كلّ بصيص أمل في سعادته في هذه الدنيا، والمشكلة أن غيظه يعود عليه بالحسرات فلا من يُحسّ بآلامه ليخفف من أساه، والأيام لا تهتم لآلام البشر؛ إنه القضاء الذي لا يرحم، ينفذ في مصير البشر كالسهم المارق، والبشر أسرى لديه فلا فكاك من براثنه.

(٢) الدلوق: خروج السيف من غمده دون أن يُسل. يصعب على المتنبي الاستقرار في مكان واحد، وذلك شأن من يفتش عن شيء ضاع منه في محيط لا حدود له، لذا يُرى دائم السعي عن شيء لا يستطيع إمساكه بيده كالهواء تماماً ينساب بغمضة عين، لذا فهو يعتذر لحبيبته عن سرعة الرحيل، إنه سيف جرّده الزمن، ما إن يوضع في غمده حتى ينزلق منه ليجدّد العذاب في مكان آخر.

(٣) عقوتي: ساحتي. وممّا يدلّ على شجاعة الشاعر وأنفته أنه لا يفرّ في المعركة بل إنه يواجه الموت ببسالة وشجاعة، ها هو ذا جلده عرضة للتمزق، ولكنه يرفض أن يمزّق عِرضه فتلوك الألسنة سيرته ويطعنون بمصداقيّته فيتهمونه بالادعاء؛ وهذا ما سبب مقتله في ما بعد.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. النجائب، =

وَلَـيْـسَ حَـيَـاءُ ٱلْـوَجْـهِ فِـي ٱلـذِّئْـبِ شِـيـمَـةً
وَلَـكِـنَّـهُ مِـنْ شِـيـمَـةِ الأَسَـدِ الْـوَرْدِ (١)

إذَا لَـمْ تُـجِـزْهُـمْ دَارَ قَـوم مَـوَدَّةٌ
أَجَـازَ الْـقَـنَـا وَٱلْـخَـوْفُ خَـيْـرٌ مِـنَ الْـوُدِّ (٢)

يَـحِـيـدُونَ عَـنْ هَـزْلِ الـمُـلُـوكِ إلَـى ٱلَّـذِي
تَـوَفَّـرَ مِـنْ بَـيْـنِ الـمُـلُـوكِ عَـلَـى ٱلْـجِـدِّ (٣)

وَمَـنْ يَـصْـحَـبِ ٱسْـمَ ٱبْـنِ ٱلْـعَـمِـيـدِ مُـحَـمَّـدٍ
يَـسِـرْ بَـيْـنَ أَنْـيَـابِ الأَسَـاوِدِ وَٱلأُسْـدِ (٤)

= الواحدة نجيبة: الكريمة من النياق. لا يستقرّ الشاعر في مكان بعينه، فكلّ الأمكنة نُزوله وعيشه متحوّل متغير تبعاً لأجواء البلاد التي يحلّ بها، ووسيلته في التنقل الدائم نجائب لا يفكرْن بتقلّب الدهر من نحس وسعد، بل إنهنّ ساعيات دائماً بجدّ واجتهاد، شأنهن كشأن الشاعر في ما رسمه لنفسه وغلمانه الذين يُشاركونه قدره فيرتحلون برحيله وينزلون حيثما نزل، ويتعرّضون لما يتعرّض له، وحالهم أنهم يتلثّمون لشدّة حيائهم، وليس اتّقاءً من حرّ أو برد، إنهم فتية كرماء شرفاء.

(١) الشيمة: الصفة الخلقية. الأسد الورد: الذي في لونه حمرة، يمدح الشاعر غلمانه، فحياؤهم ملكة نفسيّة كحياء الأسد الورد، حياء الأقوياء الكرماء الشجعان، وليس كحياء الذئب المطبوع على الجبن والخبث والغدر.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. يصف الشاعر مسلك غلمانه، وهو قائدهم؛ إنهم يجوزون كيفما كانت الحال، فلو لم يكن مرورهم بأرض قوم طواعية وبترحاب من أهلها، مرّوا بها رغماً عنهم وقاتلوهم على ذلك.

(٣) يتخلّص الشاعر إلى مدح ابن العميد، يصف الشاعر غلمانه بأنهم لا يرغبون باللهو المتمثل بملوك همهم الصيد واللهو وتوابعهما دون من يشتهر من الملوك ذوي الهمم والجِدّ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. الأساود: أخبث الحيات. للأسماء إيحاءات عند بعض الناس، واسم ابن العميد محمد يُوحي لمن انتسب إليه بالأمان والطمأنينة، وهؤلاء ينسبون إليه، لذلك فهم لا يهابون ولا يخافون السير حيث تكثر الحيات والأسود لعلم تلك المخلوقات بقوّة وشجاعة من ينتسب إليه أولئك الغلمان.

يَــمُــرُّ مِــنَ الــسُّــمِّ ٱلْــوَحِــيِّ بِــعَــاجِــزٍ،
وَيَــعْــبُــرُ مِــنْ أَفْــوَاهِــهِــنَّ عَــلَــى دُرْدِ[1]

كَــفَــانَــا الــرَّبِــيــعُ ٱلْــعِــيــسَ مِــنْ بَــرَكَــاتِــهِ
فَــجَــاءَتْــهُ لَــمْ تَــسْــمَــعْ حُــدَاءً سِــوَى الــرَّعْــدِ[2]

إِذَا مَــا ٱسْــتَــجَــبْــنَ الــمَــاءَ يَــعْــرِضُ نَــفْــسَــهُ
كَــرِعْــنَ بِــسِــبْــتٍ فــي إِنَــاءٍ مِــنَ الْــوَرْدِ[3]

كَــأَنَّــا أَرَادَتْ شُــكْــرَنَــا الأَرْضُ عِــنْــدَهُ
فَــلَــمْ يُــخْــلِــنَــا جَــوٌّ هَــبَــطْــنَــاهُ مِــنْ رِفْــدِ[4]

لَــنَــا مَــذْهَــبُ ٱلْــعُــبَّــادِ فِــي تَــرْكِ غَــيْــرِهِ
وَإِتْــيَــانِــهِ نَــبْــغِــي الــرَّغَــائِــبَ بــالــزهْــدِ[5]

---

(١) السمّ الوحيّ: القاتل السريع. الدرد، الواحد أدرد: من ذهبت أسنانه. ولاسم الممدوح سحر عجيب، فحتى في حال مرور هؤلاء المنتسبين إلى ابن العميد على ذلك المكان وحدث أن إحدى الحيات لدغت أحدهم فإنه لن يموت، فاسمه بمثابة تعويذة وبلسم يُبطل فعل السمّ الزعاف، وحتى إنه يبطل فعل أنياب الأسود فكأنها درد.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. العيس: كرائم الإبل. الحِداء: الغناء مع سوق الإبل. يصف الشاعر ممدوحه بأنه موفّق من ربّه؛ فببركته كان المطر وأخصبت الأرض ونشر الربيع رايته على الأرض وغنّت السماء أغنية الرعد، فإذا بالإبل تسبح في الأرض مكتفية بذلك عن الحداء.

(٣) كرعن: شربن الماء غبًّا بسرعة. السبت: جلود البقر. يروى «استحين» بدلاً من «استجبن». واستحين من الحياء. يصف الشاعر طريقة شرب الإبل، وهي تمرّ بالأراضي وقد أترعت بالماء ونبت الزهر خلالها ألواناً متعدّدة، وكأنّها كؤوس مزخرفة بشتى الألوان امتلأت بالماء يروي الظمأ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. الرفد: العطاء. الطبيعة كريمة، تُعطي فقط طبعها اللّه تعالى بفضل كرمه، لذا حيثما مرّ الركب كانت المياه تفيض وتغطي الأعشاب الأرض، فلم يُعوز الشاعر وصحبه ما تعتلف به حيواناتهم وكأنها تطلب منهم شكرها بذكر ما حصل لهم عند الممدوح.

(٥) يُعلن الشاعر عزمه أنه يرغب في المثول بين يدي ابن العميد دون سواه؛ فقد زهد بالملوك لأن ممدوحه أفضلهم وخيرهم وأكرمهم.

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ
بِأَرْجَانَ حَتَّى مَا يَئِسْنَا مِنَ ٱلْخُلْدِ[١]
تَعَرَّضُ لِلزُّوَّارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ
تَعَرُّضَ وَحْشٍ خَائِفَاتٍ مِنَ الطَّرْدِ[٢]
وَتَلْقَى نَوَاصِيهَا المَنَايَا مُشِيحَةً
وُرُودَ قَطاً صُمٍّ تَشَايَحْنَ فِي وِرْدِ[٣]
وَتَنْسُبُ أَفْعَالُ السُّيُوفِ نُفُوسَهَا
إِلَيْهِ وَيَنْسُبْنَ السُّيُوفَ إِلَى الهِنْدِ[٤]
إِذَا الشُّرَفَاءُ ٱلْبِيضُ مَتُّوا بِقَتْوِهِ
أَتَى نَسَبٌ أَعْلَى مِنَ الأَبِ وَٱلْجَدِّ[٥]

---

(١) أرجان: من بلاد فارس. تمنّى الشاعر الخلود والبقاء في أرّجان حيث يتولّى ابن العميد الحكم، إنها جنّة على الأرض بما يتوفّر من أسباب الطمأنينة والأمن فيها، تماماً كما يتمنّى البشر الخلود في الجنّة لما فيها من نعيم حيث يسعد المؤمنون بنعيم أبديّ.

(٢) وخيل الممدوح تتعرّض لزوّاره، فإذا ما أعجبتهم سألوا الممدوح بأن يهبها لهم لأنها تعلم مسبقاً مدى كرمه فهو لن يتأخر وفي ذلك راحتها من مخاطر حروبه وطراده فتنعم بالراحة في حال انتقالها إلى أيديهم.

(٣) شاح بوجهه: مال معرضاً. الورود: الإتيان إلى مواضع الماء. القطا: ضرب من الطيور شبيه بالحمام. يصف الشاعر فعل خيول الممدوح؛ إنها تواجه الموت ببسالة، فنواصيها تتلقى الرماح، وتُشيح بوجوهها طواعية لفرسانها ممّا يدلّ على أنها متمرّسة بالقتال، فضلاً عن شجاعة فرسانها.

(٤) من المؤكد أن السيف مهما يكن ماضياً وقوياً، فقوّته ومضاؤه مستمدّتان من قوّة الساعد الذي يضرب به. يمدح الشاعر ممدوحه بأن ضربات السيوف جيدة الصنع والمصنوعة في الهند تنتسب إليه، لأنه لا يوجد في الأبطال من يضرب ضرباته؛ إنه البطل الأوحد.

(٥) البيض: الأحرار، السادة. متّوا: ارتبطوا وانتسبوا. القتو: الخدمة. وممّا يدلّ على عظم شأن الممدوح أن السادة من الأحرار إذا تشرّفوا بخدمته انتسبوا إليه فعلا شأنهم لعلو شأنه، وتفوّقوا على أنساب آبائهم وأجدادهم، فكان ذلك شرفاً لا يُدانيه سواه.

فَـتًـى فَـاتَـتِ ٱلْـعَـدْوى مِـنَ الـنَّـاسِ عَـيْـنُـه
فَـمَـا أَرْمَـدَتْ أَجْـفَـانَـهُ كَـثْـرَةُ الـرُّمْـدِ[١]

وَخَـالَـفَـهُـمْ خَـلْـقـاً وَخُـلْـقـاً وَمَـوْضِـعـاً
فَـقَـدْ جَـلَّ أَنْ يُـعْـدَى بِـشَـيْءٍ وَأَنْ يُـعْـدِي[٢]

يُـغَـيِّـرُ أَلْـوَانَ الـلَّـيَـالِـي عَـلَـى الْـعِـدَى
بِـمَـنْـشُـورَةِ الـرَّايَـاتِ مَـنْـصُـورَةِ الْـجُـنْـدِ[٣]

إِذَا ٱرْتَـقَـبُـوا صُـبْـحـاً رَأَوْا قَـبْـلَ ضَـوْئِـهِ
كَـتَـائِـبَ لَا يَـرْدِي الـصَّـبَـاحُ كَـمَـا تَـرْدِي[٤]

وَمَـبْـثُـوثَـةً لَا تُـتَّـقَـى بِـطَـلِـيـعَـةٍ
وَلَا يُـحْـتَـمَـى مِـنْـهَـا بِـغَـوْرٍ وَلَا نَـجْـدِ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. فاتت: تخطّت. أرمدت: أصيبت عيناه بمرض الرمد، وهو احمرار يغزو العينين في أوقات محدّدة من فصول السنة. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ذو مناعة من العدوى التي تنتقل بين البشر، ولعلّ المرض الخلقي أكثر انتشاراً وأسرعه، إذاً فالممدوح خالٍ من سيّئ الأخلاق ورديئها.

(٢) ولذا فالممدوح يُخالف سائر الناس بطباعهم وأخلاقهم نُبلاً وكرماً وعلماً وشجاعة وأصالة نسب وعلوّ همّة ما وهذا ما سمح له أن يتخطّى مسافات بعيدة ويسبقهم في تلك الميادين ممّا صعّب عليهم اللحاق به وبلوغ شأوه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨١٢٥. الرايات: الأعلام. يصف الشاعر جيش الممدوح، إنه جيش النصر، راياته خفّاقة دائماً، تحمل لأعدائه دماراً وخراباً، فإذا بلياليهم يتبدّل حالها، فإذا ما حلّ جيشه في أراضي أولئك ليلاً تحوّل إلى شُعلة ضِياء ونار، فأكلت الأخضر واليابس والحجر والبشر، فاستحال كلّ شيء رماداً.

(٤) الكتائب، الواحدة كتيبة من الجند الخيّالة. الرديان: ضرب من عدو الخيول السريع. يذكر الشاعر هجوم جيش ممدوحه السريع، وهم يمتطون خيولهم تسابق الريح؛ إنهم يُفاجئون أعداءهم، وهم لا يزالون نياماً قبل أن يسحب الليل أذياله، فتكون مباغتة مميتة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٥. مبثوثة: منتشرة في كلّ مكان. الغور من الأرض: المنخفض منها. والنجد من الأرض: المرتفع منها. يصف =

يَـغُـصْـنَ إذَا مَـا عُـدْنَ فـي مُـتَـفَـاقِـدِ
مِنَ الْكُثْرِ غَـانٍ بِـالْعَـبِـيدِ عَنِ الْحَشْـدِ (١)
حَـثَـتْ كُـلُّ أَرْضٍ تُـرْبَـةً فـي غُـبَـارِهِ
فَـهُـنَّ عَـلَـيْـهِ كَـالـطَّـرائِـقِ فـي الْـبُـرْدِ (٢)
فَـإنْ يَـكُـنِ الْـمَـهْـدِيُّ مَـنْ بَـانَ هَـدْيُـهُ
فَـهَـذَا وَإلَّا فـالْـهُـدَى ذَا فَـمَـا الْـمَـهْـدِي (٣)
يُـعَـلِّـلُـنَـا هٰـذَا الـزَّمَـانُ بِـذَا الْـوَعْـدِ
وَيَـخْـدَعُ عَـمَّـا فـي يَـدَيْـهِ مِـنَ الـنَّـقْـدِ (٤)

= الشاعر الخطط التي يعتمدها ممدوحه بقيادة جيشه؛ إنه ينشر فرقه في كلّ مكان بحيث يحيط بأعدائه، فلا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم، لقد فات الأوان، فإحكام القبضة على الأعداء، حتى طلائع القوم قد فقدت فاعليتها لسرعة الانقضاض من قبل جيش الممدوح وحسن الانتشار فيهم.

(١) يروى «يغضْن» بدلاً من «يَغُصْن»، ويروى «غِرْن» بدلاً من «عُدْن». يغصن: يدخلن في اليمّ، وهنا بمعنى يختلطن، غانٍ: مكتفٍ. الحشد: الجمهور. يصف الشاعر عودة جيش الممدوح إلى ثكناته، والمفاجأة الكبرى أن من في تلك المعسكرات يفوق كثيراً من شارك في القتال، فإذا بالعائدين يختلطون بزملائهم فيضيعون لدخولهم مع سواهم من عبيد الممدوح؛ إنه لا يستعين بالمرتزقة من المقاتلين، بل بما يملك منهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٦. حثا التراب: ذرّاه بيده. الطرائق: الخطوط: البرد: ضرب من الأردية المخططة. ومن مآثر الممدوح أنه يجوز الأرض غازياً ومحارباً، فيمرّ بالقطع منها مختلفة الألوان، فإذا بالغبار المتساقط منه يرسم خط مسيره فيها لكثرة أسفاره وغزواته، فيبدو كأنه خطوط ثوب حمراء أو سوداء أو بيضاء أو صفراء.

(٣) و (٤) ورد البيتان المتواليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٧. المهدي من آل البيت، يقول بعضهم: إنه سيظهر آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً ويُزيل الظلم عن المسلمين. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه اجتمعت فيه مآثر المهدي الأخلاقية والخلقية فإن لم يكن كذلك، فمن يمكن أن يكون كذلك؟ وقد اجتمعت فيه كل صفاته. والظلم قد عمّ وتباشير ظهور المهدي تبدو واضحة والناس يلهجون بذلك، وهم على =

هَلِ الْخَيْرُ شَيْءٌ لَيْسَ بِالْخَيْرِ غَائِبٌ
أَمِ الرُّشْدُ شَيْءٌ غَائِبٌ لَيْسَ بِالرُّشْدِ(١)

أَأَحْزَمَ ذِي لُبٍّ وَأَكْرَمَ ذِي يَدٍ
وَأَشْجَعَ ذِي قَلْبٍ وَأَرحَمَ ذِي كِبْدِ(٢)

وَأَحْسَنَ مُعْتَمٍّ جُلُوساً وَرِكْبَةً
عَلَى المِنْبَرِ الْعَالِي أَوِ الْفَرَسِ النَّهْدِ(٣)

تَفَضَّلَتِ الأَيَّامُ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا
فَلَمَّا حَمِدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَى الْحَمْدِ(٤)

جَعَلْنَ وَدَاعِي وَاحِداً لِثَلاَثَةٍ
جَمَالِكَ وَالْعِلْمِ المُبَرِّحِ وَالمَجْدِ(٥)

= موعد للخلاص ممّا هم فيه، وتباشير ظهوره تبدو جليّة، وإن لم يكن المهدي، فمن هذا الإنسان الذي تجشّمت فيه كلّ سمات المهدي؟

(١) يستنكر الشاعر ألّا يكون ممدوحه المهديّ حقاً، وقد تمثل فيه العقل والرشد والصلاح والتقى، ولذا فإنه يُنكر أن ما بدا من مزاياه الحميدة إلّا أنه المهدي، فلم لا يكون كذلك؟

(٢) و (٣) الحزم: حسن التصرّف بجدّ. اللبّ: العقل. يعدّد الشاعر مزايا ممدوحه مخاطباً إياه؛ إنه يمتاز بعقل راجح يزين الأمور بميزان دقيق عادل، وإنه كريم ينفق بغير حساب ولا يخشى فقراً، فضلاً عن شجاعة وبطولة يُحسب لهما كلّ حساب وقت الشدائد والحروب، ولذا فرحمته بالمساكين والضعفاء من حسناته رغم قوّته وشجاعته، وأنه أحسن مَن تعمّم من الرجال، تقىً وورعاً، وأنه سيّد المنابر، مفوّه خطيب لَسِن، يعتلي المنابر ويُشرف على المستمعين، وكلهم يستمع إليه بشغف وحبّ وإعجاب.

(٤) و (٥) إنها الأيام والأقدار قد جمعت بين الشاعر وممدوحه، ولكلّ بداية نهاية، فحمدا الصحبة، ولكن لم تدم طويلاً حتى كان الفراق؛ إنه الوداع شأن كلّ شيء. وما يؤلم الشاعر أنه ودّع في ممدوحه ثلاثة أشياء تندر أن تكون في الكبار من الرجال: جمال الخلقة وهذا شيء محبّب للعيون والقلوب، ووفور العلم والذكاء، رائده، والمجد المؤثل، وهذا ما يؤسف له.

وَقَـدْ كُـنْـتُ أَدْرَكْـتُ الـمُـنَـى غَـيْـرَ أَنَّـنـي
يُـعَـيِّـرُنـي أهْـلِـي بِـإدْرَاكِـهَـا وَحْـدِي[١]

وَكُـلُّ شَـرِيـكٍ فـي الـسُّـرُورِ بِـمُـصْـبَـحِـي
أرَى بَـعْـدَهُ مَـنْ لَا يَـرَى مِـثْـلَـهُ بَـعْـدِي[٢]

فَـجُـدْ لِـي بِـقَـلْـبٍ إنْ رَحَـلْـتُ فَـإنَّـنـي
مُـخَـلِّـفُ قَـلْـبِـي عِـنْـدَ مَـنْ فَـضْـلُـهُ عِـنْـدِي[٣]

وَلَـوْ فَـارَقَـتْ نَـفْـسـي إلَـيْـكَ حَـيَـاتَـهَـا
لَـقُـلْـتُ أصَـابَـتْ غـيـرَ مَـذْمُـومَـةِ الـعَـهْـدِ[٤]

الحرب غاية الكائد

يمدحه ويذكر هزيمة وهشُوذانَ:

[المنسرح]

أزَائِـــرٌ يَـــا خَـــيَـــالُ أمْ عَـــائِـــدْ
أمْ عِـــنْـــدَ مَـــوْلاكَ أنَّـــنِـــي رَاقِـــدْ[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٥. يُعلن الشاعر رضاه وامتنانه، فقد حصّل ما تمنّاه من مجيئه إلى ديار ممدوحه، مالاً وغنًى وسعادة بقربه؛ فهذا يُفرحه ولا بدّ له من أن يشارك أهله به، وإلّا اعتبر أنانياً لو استأثر بكلّ ذلك لنفسه دونهم.

(٢) يعبّر الشاعر عن مدى تأثره بفراق ممدوحه ابن العميد؛ فأهله وصحبه سوف يفرحون بعودته سالماً يحمل لهم أموالاً وعطايا، وهو سيفرح حتماً بلقائهم، ولكنه يحمل معه شيئاً عزيزاً عليه لا يُشاركونه به أنه رأى وجهاً محبّباً إليه وعرفه على حقيقته.

(٣) يطلب الشاعر المزيد من العطاء، إنه راحل ولكنه سوف يترك قلبه عند ممدوحه لما كان منه من حسن الضيافة والكرم، فقد أسر قلبه واستحوذ عليه.

(٤) ويُردف الشاعر قوله مؤكداً إحساس الامتنان لما وجده لدى ممدوحه، فحتى لو فارقته نفسه وفضّلت عليه ممدوحه ما لامها على ذلك، ولا نسبها إلى النكران وسوء العهد، بل على العكس لعلم أنها بارة كشأن الشاعر، فهو لن ينسى ما لاقاه في كنف ممدوحه.

(٥) يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزليّ، يُخاطب فيه خيال حبيبته وقد زاره في منامه سائلاً =

لَـيْـسَ كـمـا ظَـنَّ غَـشْـيَـةٌ عَـرَضَـتْ
فَـجِـئْـتَـنِـي فـي خِـلاَلِـهَـا قـاصِـدْ[١]

عُــدْ وَأعِــدْهَــا فَــحَــبَّــذَا تَــلَــفٌ
أَلْـصَـقَ ثَـدْيِـي بِـثَـدْيِـكَ الـنَّـاهِـدْ[٢]

وَجُــدْتَ فِــيــهِ بِــمَــا يَــشِــحُ بِــهِ
مِـنَ الـشَّـتـيـتِ الـمـؤشَّـرِ الـبَـارِدْ[٣]

إذَا خَــيَــالاَتُــهُ أطَــفْــنَ بِــنَــا
أَضْـحَـكَـهُ أَنَّـنِـي لَـهَـا حَـامِـدْ[٤]

لاَ أجْـحَـدُ الـفَـضْـلَ رُبَّـمَـا فَـعَـلَـتْ
مَـا لَـمْ يَـكُـنْ فَـاعِـلاً وَلاَ وَاعِـدْ[٥]

= إيَّاه إذا كان مجيئه إليه ليبقى إلى جانبه أم أنه سيتركه كشأنه معه في كلّ مرّة أم أنه جاءه يعوده وقد أدّى هجر صاحبته إلى مرض الشاعر، وقد أرسلته لهذا السبب.

(١) يبيّن الشاعر ما كانت عليه حاله إنها غشية، وهو لم يكن غافلاً يحلم إنها شبه ذلك وليست نوماً، لذا فليس الأمر كما ظنّ أنه يغطّ بنوم عميق بل إنه إرهاق فأدركته تلك الغشية، لذا رأى ما ظنّه خيالاً.

(٢) التلف: الموت، الهلاك. يطلب الشاعر من الخيال العودة، وهو بدوره يُمثّل أن الغاشية عاودته ليكون بينهما عناق ويلتصق الجسد بالجسد، وإن يكن في ذلك هلاكه، فهذا من أمانيه أن يعيش لحظة وهم.

(٣) يشحّ: يبخل. الثغر الشتيت: الفم المفرّق الأسنان، وهو محبّب عند العرب. المؤشّر: المحزّز. يُردف الشاعر حالة ما يمكن أن يحدث في اللقاء الوهمي، فصاحبة الخيال بخيلة لا تجود بلقاء، ناب عنها خيالها، والشاعر يطلب منه أن يجود بقبلات من ثغرها الجميل المفلّج الأسنان فينعم ببرد رضابه، وذلك أبعد ما يتمنّاه الشاعر في حالة كهذه.

(٤) يُعقّب الشاعر عمّا قد يحدث في تلك الحالة الوهمية، فخيالات الحبيبة تُرضيه وهو يحمد ذلك لصاحبتها التي تسرّها وتضحكها ممّا ينمّ عن عدم اهتمامها بما يحدث، وقد تكون لا تكترث بمن زارته خيالاتها ولا تعلم بذلك، فيكون الحبّ من طرف واحد.

(٥) ورد قبل هذا البيت بيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:

وقــال: إنْ كــانَ قــد قَــضَــى أربــاً   مِــنَّــا فــمــا بــالُ شَــوْقِــهِ زَائــدْ؟ =

مَـا تَـعْـرِفُ الْـعَـيْـنُ فَرْقَ بَـيْـنِـهِـمَـا
كُـلٌّ خَـيَـالٌ وِصَـالُـهُ نَـافِـدْ[١]
يَـا طَـفْـلَـةَ الْـكَـفِّ عَـبْـلَـةَ السَّـاعِـدْ
عَـلَـى الْـبَـعِـيـرِ الْـمُـقَـلَّـدِ الْـوَاخِـدْ[٢]
زِيـدِي أذَى مُـهْـجَـتِـي أَزِدْكِ هَـوًى
فَـأَجْـهَـلُ الـنَّـاسِ عَـاشِـقٌ حَـاقِـدْ[٣]
حَـكَـيْـتَ يَـا لَـيْـلُ فَـرْعَـهَـا الْـوَارِدْ
فَـاحْـكِ نَـوَاهَـا لِـجَـفْـنِـيَ الـسَّـاهِـدْ[٤]
طَـالَ بُـكَـائِـي عَـلَـى تَـذَكُّـرِهَـا
وَطُـلْـتَ حَـتَّـى كِـلَاكُـمَـا وَاحِـدْ[٥]

= ـ جحد: أنكر. ورغم ما حدث فإن الشاعر يكفيه ذلك ولا يُنكره، بل إنه يعتبر تلك الزيارة من حسنات الخيال. فالحبيبة لا تهتمّ لذلك؛ فهي لا تفعل ذلك أصلاً ولا تعد حتى بزيارة.

(١) يروى «لا تعرف» بدلاً من «ما تعرف». نافد: زائل. يعمل الشاعر عقله في هذه المسألة، فلا فرق بين الخيال وصاحبته، فكلاهما زائل فانٍ، فالوصال وهميّ واللقاء مستحيل، فلا يشغلَنّ باله بما لا يُفيد.

(٢) الطفلة: الناعمة الرخصة من النساء. العبلة: الممتلئة الجسم. البعير المقلّد: الذي زيّن بالقلائد من الصوف. الواخد: المسرع في سيره. يُخاطب الشاعر حبيبته، وهي على وشك الرحيل، إنها في ميعة الصبا رخصة ناعمة، ممتلئة الجسم تركب جملاً زُيّن بالقلائد ممَّا يدلّ على غناها ورفاهيتها، لم يتملَّ الشاعر بالنظر إلى حبيبته، فالجمل يُسرع السير إلى حيث المجهول حيث لا عودة ولا لقاء.

(٣) إنها مبادلة عجيبة، يطلب الشاعر من محبوبته أن تزيد من إهمالها له، وهذا في الحقيقة يُؤذي الحبيب، ولكن الشاعر لن يبادلها جحوداً بجحود بل على العكس من ذلك فسوف يُبادل جحودها بحبّ لا حقد فيه ولا أسىً وإنما سيزيده عشقاً، فالمحب لا يُمكن أن يُقدّم إلى من يُحبُّ إلّا الحبّ أغلى ما يُقدّم.

(٤) و (٥) حكيت: أشبهت. فرعها: شعرها. الوارد: المسترسل الطويل. النوى: البعد. الساهد: الساهر. يُخاطب الشاعر الليل بأنه يشترك مع حبيبته بسواد شعرها المسترسل الطويل طالباً أن يُقلّد حبيبته ببعدها، فيبعد عنه ويتركه يستسلم للنوم علّه يستريح. =

مَـــا بَـــالُ هَـــذِي الـــنُّـجُـــوم حَـــائِـــرَةً
كَـــأَنَّـــهَـــا الْـــعُـــمْـــيُ مَـــا لَـــهَـــا قَـــائِـــدْ(١)
أوْ عُـــصْـــبَـــةٌ مِـــنْ مُـــلُـــوكِ نَـــاحِـــيَـــةٍ
أبُـــو شُـــجَـــاع عَـــلَـــيْـــهِـــمُ وَاجِـــدْ(٢)
إنْ هَـــرَبُـــوا أُدْرِكُـــوا وَإنْ وَقَـــفُـــوا
خَـــشُـــوا ذَهَـــاب الـــطَّـــرِيـــفِ وَالـــتَّـــالِـــدْ(٣)
فَـــهُـــمْ يُـــرَجُّـــونَ عَـــفْـــوَ مُـــقْـــتَـــدِرٍ
مُـــبَـــارَكِ الْـــوَجْـــهِ جَـــائِـــدٍ مَـــاجِـــدْ(٤)
أبْـــلَـــجَ لَـــوْ عَـــاذَتِ الْـــحَـــمَـــامُ بِـــهِ
مَـــا خَـــشِـــيَـــتْ رَامِـــيـــاً وَلَا صَـــائِـــدْ(٥)
أوْ رَعَـــتِ الْـــوَحْـــشُ وَهْـــيَ تَـــذْكُـــرُهُ
مَـــا رَاعَـــهَـــا حَـــابِـــلٌ وَلَا طَـــارِدْ(٦)

= ولقد تمطّى الليل وطال، وبكاء الشاعر لا نهاية له كلّما تذكّر حبيبته، ممّا جعل الليل وبعد حبيبته كأنهما شيء واحد.

(١) و (٢) يسأل الشاعر مستغرباً كيف أن النجوم لا تختفي، وكأنّ الحيرة أمسكت بمقاليدها وقد تخلّى عنها القائد وتشبّثت في مكانها لا تُبرحه كالأعمى لا يهتدي إلى مستقرّه في متاهة الضياع أو كأنّ تلك النجوم ملوك ينتشرون في بقاع من الأرض قد أغضبوا أبا شجاع وقد تملكهم الخوف والرهبة من سطوته فمكثوا حيارى لا يدرون ما يفعلون، وبذلك تخلّص الشاعر إلى مدح ممدوحه.

(٣) الطريف: ما اكتسبه المرء بجهده. التالد: ما ورثه عن آبائه. يُصوّر الشاعر حالة الإرباك التي سيطرت على هؤلاء الملوك، إنهم لا يُحسنون صنعاً، والخوف تملّك إراداتهم، فالملك لا بدّ مدركهم في حالة فرارهم من سطوته، وفي حال بقائهم في ديارهم فهم يخافون على ما لديهم من أموال حصلوها بجهودهم أو ورثوها من آبائهم.

(٤) جائد: كريم. إن هؤلاء الملوك في نواحيهم يتمنّوْن عفو الممدوح القادر على كلّ شيء، إنه مبارك الوجه مسحته السماء بمسحة النور والتوفيق، فضلاً عن أنه كريم اليد والنسب، فقد ورث الأمجاد عن آبائه.

(٥) و (٦) الأبلج: الوضّاح. عاذت: لجأت. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه وضّاح الجبين ذو =

تُهْدِي لَهُ كُلُّ سَاعَةٍ خَبَراً
عَنْ جَحْفَلٍ تَحْتَ سَيْفِهِ بَائِدْ[(١)]
وَمُوضِعاً في فِتَانِ نَاجِيَةٍ
يَحْمِلُ في التَّاجِ هَامَةَ الْعَاقِدْ[(٢)]
يَا عَضُداً رَبُّهُ بِهِ الْعَاضِدْ
وَسَارِياً يَبْعَثُ الْقَطَا الهَاجِدْ[(٣)]
وَمُمْطِرَ المَوْتِ وَالْحَيَاةِ مَعاً
وَأنْتَ لَا بَارِقٌ وَلَا رَاعِدْ[(٤)]
نِلْتَ وَمَا نِلْتَ مِنْ مَضَرَّةِ وَهْـ
ـشُوذَانَ مَا نَالَ رَأْيُهُ الْفَاسِدْ[(٥)]

= طلعة بهيَّة، لذا فلو أن الحمام التجأت إليه لكانت في حماه فلا يستطيع أحد من مساسها بأذًى لا صائد يجرؤ على ذاك، وكذلك الشأن بالنسبة للمتوحّش من الحيوانات التي تُصاد، فإذا تذكرت سطوة الممدوح أمنت على أنفسها، فلا يقربها مخلوق من صيادي الشرك أو المطاردين لها، فإذا بها تسرح مطمئنة في مراعيها.

(١) الجحفل: الجيش العظيم. البائد: الهالك. وممّا يدلّ على سطوة الممدوح أن الأخبار تتوارد تباعاً إليه في كلّ ساعة بأن سراياه قد سحقت جيشاً عرمرماً من جيوش أعدائه، فكان النصر حليفاً لجنده حيثما توجّهوا.

(٢) الموضع: المسرع في سيره. الفتان: غشاء الرحل من أدم. الناجية: الناقة السريعة. العاقد: المتوّج. ينوّه الشاعر بانتصار جيش عضد الدولة العظيم على عدوّه اللدود وهشوذان، فقد حمل إليه الخبر بواسطة مبشر يمتطي ظهر ناقة سريعة، وبيده رأس ملك متوّج هديّة النصر.

(٣) و (٤) العاضد: المعين. الساري: السائر ليلاً. يبعث: يُثير. الهاجد: النائم. يُخاطب الشاعر ممدوحه بلقبه وبأنه ترعاه عناية اللّه تعالى وحسن توفيقه، وهو دائم الغارات على أعدائه، يباغت أعداءه ليلاً، بل إنه يُثير القطا عن أفاحيصها، وهي نائمة في غمرة الليل البهيم. ويمدحه بأن يُمطر الموت على أعدائه وهو لا يحتفل بانتصاره عليهم، وفي المقابل فإنه يُمطر صحبه ورعيته بفيض كرمه وعطاياه العظيمة.

(٥) وهشوذان: ملك الديلم. لقد جنى وهشوذان على نفسه، فقد غرّر بنفسه بمعاداة =

يَــبْــدَأُ مِـــنْ كَــيْـــدِهِ بِـــغَـــايَـــتِـــهِ،
وَإِنَّـــمَـــا الْـــحَـــرْبُ غَـــايَـــةُ الْـــكَـــائِـــدْ(١)

مَـــاذَا عَـــلَـــى مَـــنْ أَتَـــى يُـــحَـــارِبُـــكُـــمْ
فَـــذَمَّ مَـــا ٱخْـــتَـــارَ لَـــوْ أَتَـــى وَافِـــدْ(٢)

بِـــلَا سِـــلَاحٍ سِـــوَى رَجَـــائِـــكُـــمُ
فَـــفَـــازَ بِـــالـــنَّـــصْـــرِ، وَٱنْـــثَـــنَـــى رَاشِـــدْ(٣)

يُـــقَـــارِعُ الـــدَّهْـــرَ مَـــنْ يُـــقَـــارِعُـــكُـــمْ
عَـــلَـــى مَـــكَـــانِ الْـــمَـــسُـــودِ وَالـــسَّـــائِـــدْ(٤)

وَلَـــيْـــتَ يَـــوْمَـــيْ فَـــنَـــاءِ عَـــسْـــكَـــرِهِ،
وَلَـــمْ تَـــكُـــنْ دَانِـــيـــاً وَلَا شَـــاهِـــدْ(٥)

وَلَـــمْ يَـــغِـــبْ غَـــائِـــبٌ خَـــلِـــيـــفَـــتُـــهُ
جَـــيْـــشُ أَبِـــيـــهِ وَجَـــدُّهُ الـــصَّـــاعِـــدْ(٦)

= عضد الدولة الذي وجّه إليه ركن الدولة فقضى عليه، وبذلك فقد كاد لنفسه قبل أن يكيد له الممدوح.

(١) لقد جرّ عدوّ الممدوح إلى نفسه كيداً اكتوى بناره لأنه جاهر بالعداء وسارع إليه فاكتوى بناره، وكان عليه ألّا يُبادر إلى الحرب وأن يُفكّر بنتائجها الوخيمة التي توصّل بإرادته.

(٢) و (٣) يسأل الشاعر لو أن من ابتغى العداء والحرب وفد طالباً الصلح والمهادنة لكان ذلك أنجع وأنجح لمسعاه ولفاز بالقربى والرضى فعاد إلى دياره غانماً رابحاً، وبذلك يكون قد حصل على السلام والوئام مع ممدوحه.

(٤) يُقارع: يُحارب بالسلاح. المسود: اسم مفعول: من ساده غيره. السائد اسم فاعل: من ساد غيره. من حسن هؤلاء الممدوحين أن الدهر إلى جانبهم فمتى حاربوا كان الدهر ناصرهم على عدوّهم سواء أكان سيداً أم كان مسوداً.

(٥) وليت: توليت. دانياً: قريباً. الشاهد: الحاضر. ومن حسن سعد الممدوح أن أتاه النصر دون تعب على عدوّه وهشوذان، رغم دوام القتال يومين؛ فقد انهزم فيهما شرّ هزيمة نكراء.

(٦) الجَدّ، بفتح الجيم الحظ. لم يكن غياب الممدوح عن المعركة، فقد كان حسن حظه =

وَكُـــلُّ خَـــطِّـــيَّـــةٍ مُـــثَـــقَّـــفَـــةٍ
يَـــهُـــزُّهَـــا مَـــارِدٌ عَـــلَـــى مَـــارِدْ(١)

سَـــوَافِـــكٌ مَـــا يَـــدَعْـــنَ فَـــاصِـــلَـــةً
بَـــيْـــنَ طَـــرِيِّ الـــدِّمَـــاءِ وَالْـــجَـــاسِـــدْ(٢)

إذَا الـــمَـــنَـــايَـــا بَـــدَتْ فَـــدعَـــوْتُـــهَـــا
أُبْـــدِلَ نُـــونـــاً بِـــدَالِـــهِ ٱلْـــحَـــائِـــدْ(٣)

إذَا دَرَى ٱلْـــحِـــصْـــنُ مَـــنْ رَمَـــاهُ بِـــهَـــا
خَـــرَّ لَـــهَـــا فـــي أَسَـــاسِـــهِ سَـــاجِـــدْ(٤)

مَـــا كَـــانَـــتِ الـــطِّـــرْمُ فـــي عَـــجَـــاجَـــتِـــهَـــا
إلَّا بَـــعِـــيـــراً أَضَـــلَّـــهُ نَـــاشِـــدْ(٥)

= وجيش أبيه من وسائل النصر، فقد نابا عنك، فكأنك كنت تُقاتل بنفسك.

(١) و(٢) الخطيّة المثقّفة: الرماح المقوّمة المستقيمة. المارد: الجبَّار العاتي الذي لا يُطاق. يصف الشاعر أفعال جند الممدوح؛ إنهم مردة جبابرة عُتاة يستعملون رماحاً سمهرية في أسنتها الموت الزعاف، وهم يسفكون دماء أعدائهم بضربات متتالية؛ فما إن يجف دم ضحيتهم على أسنتها حتى ترتوي بدماء أخرى فكأن المارد عندما يقضي على عدوّه يسقي سنانه دماً ليرتوي، وقد اعتاد على ذلك.

(٣) المنايا، الواحدة منية: الموت. الحائد: الذي يتجنّب الموت. يصف الشاعر حال جند عضد الدولة، فإذا اشتدّ وطيس المعركة، واشتبكت الجيوش والتحمت دعوا اللّه تعالى أن يهلك أعداءهم بأيديهم، وبخاصة من يعتزم تجنّب القتال، فينزلق إلى المعركة بدافع لا يدري سببه فيكون من ضحاياهم.

(٤) درى: علم. المحتمون بالحصن لا يدرون إلّا وعسكر عضد الدولة قد أحاطوا بهم من كلّ جانب فخارت قواهم واستولى عليهم الرعب. فإذا بهم يستسلمون ويسجدون مُذعنين لقضاء لا مردّ له.

(٥) الطرْم: قلاع وهشوذان. العجاجة، الواحدة عجاج: الغبار. نشد الضالّة: طلبها وبحث عنها. ولكثرة الفرسان الذين حاصروا الطرم، فقد اختفت ولم تعد تبدو لما غطّى ما حولها من الغبار فكأنها جمل شارد ضيعه صاحبه، لا يدري أين المصير.

تَــســـأَلُ أَهْــلَ الْــقِــلَاعِ عَــنْ مَــلِــكٍ
قَــدْ مَــسَــخَــتْــهُ نَــعَــامَــةً شَــارِدْ[١]
تَــسْــتَــوْحِــشُ الأَرْضُ أَنْ تُــقِــرَّ بِــهِ
فَــكُــلُّــهَــا مُــنْــكِــرٌ لَــهُ جَــاحِــدْ[٢]
فَــلَا مُــشَــادٌ وَلَا مُــشِــيــدٌ حَــمَــى
وَلَا مَــشِــيــدٌ أَغْــنَــى وَلَا شَــائِــدْ[٣]
فَــاغْــتَــظْ بِــقَــوْمٍ وَهــشُــوذَ مَــا خُــلِــقُــوا
إِلَّا لِــغَــيْــظِ ٱلْــعَــدُوِّ وَٱلْــحَــاسِــدْ[٤]
رَأَوْكَ لَــمَّــا بَــلَــوْكَ نَــابِــتَــةً
يَــأْكُــلُــهَــا قَــبْــلَ أَهْــلِــهِ الــرَّائِــدْ[٥]

---

(١) و(٢) مسخ: حوّل. إنه سحر عجيب، فالخيل تبحث عن العدوّ المطلوب ولكن الطبيعة مسخت ملك قلاع وهشوذان من ملك مارد تمرّد على سلطان عضد الدولة إلى أجبن الطيور، إلى نعامة تضع رأسها في التراب مُتوهّمة أنها لا تُرى. والعجب أن الأرض قد أنكرت وجوده في جنباتها مخافة أن تطأها خيل عضد الدولة، وحيثما حلّ كان الخوف يتبعه لعلم الطبيعة بشتّى أشكالها علماً يقيناً أن جند عضد الدولة لا بدّ سيصلون إليه.

(٣) المشاد: الصرح الشامخ. المشيد: المطليّ بالشيد أي الجصّ. ولسوء حظّ وهشوذان أن قلعته رغم بنيانها الشامخ ومناعتها لم تغنِ عنه من غضب جند عضد الدولة شيئاً، فإذا به يُلاقي مصرعه، وحتى جنوده ما كان باستطاعتهم ردّ القضاء عنه وحمايته.

(٤) يمدح الشاعر جند عضد الدولة، إنهم غيظ العدى، وبأيديهم ثارت حوافظ وهشوذان، ويخاطبه الشاعر طالباً منه أن يزداد غيظاً على غيظه ليموت حسرة ولوعة من أناس خلقوا ليكونوا مصدر الغيظ والحسد لأعدائهم.

(٥) بلوك: اختبروك. الرائد: هو أول من يكتشف الأرض ليتعرّف إلى طبيعتها وما فيها. يسخر الشاعر من وهشوذان، إنه بمثابة نبتة تافهة تأكلها راحلة من أرسل لاكتشاف حقيقة أمرها ومكانها، فكان جيش عضد الدولة كفيلاً بسحقها والظفر بها فقد اكتشفوا حقيقة أمره، ولم يكلف عضد الدولة نفسه القيام بأمرها لصغر شأنها وحقارته.

وَخَــلِّ زِيًّـا لِـمَـنْ يُـحَـقِّـقُـهُ
مَـا كُـلُّ دَامٍ جَـبِـيـنُـهُ عَـابِـدْ[١]

إنْ كَـانَ لَـمْ يَـعْـمِـدِ الأمِـيـرُ لِـمَـا
لَـقِـيـتَ مِـنْـهُ فَـيُـمْـنُـهُ عَـامِـدْ[٢]

يُـقْـلِـقُـهُ الـصُّـبْـحُ لَا يَـرَى مَـعَـهُ
بُـشْـرَى بِـفَـتْـحٍ كَـأنَّـهُ فَـاقِـدْ[٣]

وَالأمْـرُ لِـلَّـهِ رُبَّ مُـجْـتَـهِـدٍ
مَـا خَـابَ إلَّا لأنَّـهُ جَـاهِـدْ[٤]

وَمُـتَّـقٍ وَالـسِّـهَـامُ مُـرْسَـلَـةٌ
يَـحِـيـدُ عَـنْ حَـابِـضٍ إلَـى صَـارِدْ[٥]

فَـلَا يُـبَـلْ قَـاتِـلٌ أعَـادِيَـهُ
أقَـائِـمـاً نَـالَ ذَاكَ أمْ قَـاعِـدْ[٦]

---

(١) الزيّ: اللباس. يتمادى الشاعر بالسخرية بوهشوذان مخاطباً إيَّاه داعياً له أن يترك زيّ الملوك، فإنه لا يستحقّه، فهو دونهم في كلّ شيء وليست المسألة باللباس ولكن المسألة بمن يرتدي زيّهم، وكذلك الأمر بمن يصلّي، فالصلاة حالة وجدانية، وليس معنى ذلك أن كلّ من دمي جبينه تصلح صلاته فضلاً عن أنه يُصلّي أصلاً.

(٢) و (٣) يعمد: يلجأ. اليمن: الحظّ السعيد. لا يزال الشاعر يخاطب وهشوذان لقد حلّ به سوء المصير رغم أن الأمير لم يقصده بنفسه، ولكن حظّه الميمون هو من قصده ممثلاً بجيش موفّق يُحالفه النصر المبين الموفق، ومع يقينه بالنصر فإنه يظلّ قلقاً لا تعرف عيناه طعم النوم ليطمئن على مصير جيشه، وليعرف ما آل إليه مصير عدوّه، ممَّا يدلّ على شدّة اهتمامه وحرصه على دولته.

(٤) ومن الحكم الإلهية أن المرء يسعى ويبذل قُصارى جهده ليُحقّق ما يصبو إليه ويجتهد اجتهاداً عظيماً، ولكن إرادة اللّه تعالى لا تُريد فيذهب عمله بلا نتيجة، وهذا ما حصل لوهشوذان، فقد طلب الملك وتعرّض للموفّقين فكان أن باء بالفشل وهلك، وهؤلاء بدورهم لم يسعَوْا لبلوغ المعالي فانقادت إليهم بتوفيق إلهيّ.

(٥) و (٦) المتّقي: المجتنب، الحريص، الحبض: أن يقع السهم بين يدي الرامي إذا رمى. الصّرد: الطعن النافذ. ومن مقادير الأقدار أن المرء قد يحيد عن مواقع =

لَـيْـتَ ثَـنَـائِـي الَّـذِي أصُـوغُ فِـدَى
مَـنْ صِـيـغَ فِـيـهِ فَـإنَّـهُ خَـالِـدْ[(١)]
لَـوَيْـتُـهُ دُمْـلُـجـاً عَـلَـى عَـضُـدٍ
لِـدَوْلَـةٍ رُكْـنُـهَـا لَـهُ وَالِـدْ[(٢)]

= السهام، ورغم ذلك فإنها تقع في مقاتله، لذا فلا مفرّ من القضاء مهما حاول الإنسان اجتنابه، ويُعلّل الشاعر ما كان في نيّة عضد الدولة أن يقتل عدوّه، وهذا ما حصل بالفعل سواء أكان ذلك بيده أم بأيدي جنوده، فالأمر واحد، والمقصود التخلّص من الأعداء.

(١) الثناء: المدح. يتمنّى الشاعر لو أن شعره الذي سيخلّد ذكرى صاحبه يفنى ويبقى صاحبه حيًّا معافى خالداً لا ينتزعه الموت من بين محبيه.

(٢) الدملج: ما تلبسه المرأة من الحليّ بعضدها، ضرب من الأساور. يُنهي الشاعر قصيدته المدحية بما قدّمه لممدوحه من قصيد يُعتبر دملجاً جميلاً يُزيّن به عضد الدولة عضده، فهو عضد الدولة وركنها، وعلى أكتافه يقوم وجودها، وبه يكتمل وجودها وبقاؤها.

رويّ الذال

في موقف وقف الحمام عليهم

وقال يمدح مساور بن محمد الروميّ:

[الكامل]

أَمُسَاوِرٌ أَمْ قَرْنُ شَمْسٍ هٰذَا
أَمْ لَيْثُ غَابٍ يَقْدُمُ الأَسْتَاذَا(١)

شِمْ مَا ٱنْتَضَيْتَ فَقَدْ تَرَكْتَ ذُبَابَهُ
قِطَعاً، وَقَدْ تَرَكَ الْعِبَادَ جُذَاذا(٢)

هَبْكَ ٱبْنَ يَزْدَاذٍ حَطَمْتَ وَصَحْبَهُ
أَتَرى ٱلْوَرَى أَضْحَوْا بَنِي يَزْدَاذَا(٣)

غَادَرْتَ أَوْجُهَهُمْ بِحَيْثُ لَقِيتَهُمْ
أَقْفَاءَهُمْ وَكُبُودَهُمْ أَفْلَاذَا(٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٦. شرع الشاعر يمدح مساوراً دون مقدّمات، أمام ظلّ يشعّ نوراً وبهاءً، فيعمد الشاعر إلى الاستفهام التقريري، إنه يرى أمراً يقدم الوزير، ولشدّة إعجابه بشخصه هل القادم مساور أو قرن الشمس، بإطلالتها الأولى اللطيفة المأنوسة أم أن القادم أسد مهول تبدو مخايل المهابة منه والشجاعة والقوّة، إنه الملك الحقيقي.

(٢) شم: فعل أمر من شام السيف: أغمده. انتضى السيف: سلّه من غمده. ذباب السيف: حدّه وشفرته. الجُذاذ، الواحدة جُذاذة: القطعة المكسورة. يخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه أن يُغمد سيفه الذي أصابه خلل لكثرة استعماله، فقد أهلك الكثير من البشر باستعماله وجعلهم جُذاذاً تنتشر على الصعيد، ممّا يدلّ على بطولته وشجاعته وقوّته.

(٣) و (٤) هبك: أحسبت نفسك. أترى: أتظنّ. يُخاطب الشاعر ممدوحه لقد فتك بابن =

فِـي مَـوْقِـفٍ ٱلْـحِـمَـامُ عَـلَـيْـهِـمُ
فـي ضَـنْـكِـهِ وَٱسْـتَـحْـوَذَ ٱسْـتِـحْـوَاذَا[١]

جَـمَـدَتْ نُـفُـوسُـهُـمُ فَـلَـمَّـا جِـئْـتَـهَـا
أَجْـرَيْـتَـهَـا وَسَـقَـيْـتَـهَـا ٱلْـفُـولاذَا[٢]

لَـمَّـا رَأَوْكَ رَأَوْا أَبَـاكَ مُـحَـمَّـداً
فِـي جَـوْشَـنٍ وَأَخَـا أَبِـيـكَ مُـعَـاذَا[٣]

أَعْـجَـلْـتَ أَلْـسُـنَـهُـمْ بِـضَـرْبِ رِقَـابِـهِـمْ
عَـنْ قَـوْلِـهِـمْ: لَا فَـارِسٌ إِلَّا ذَا؟[٤]

= يزداذ وأتباعه فأفناهم بنقمته وسيفه، ويسأله هل يظن أن سائر الناس أتباع لعدوّه ليُعاملهم كما عامله وعامل أتباعه فيغنيهم؟ ولقد أنزلت بهم هزيمة نكراء حيث التقاهم وتركهم لا تُعرف وجوههم من أقفائهم لما ألمّ بهم من تجريح وتقتيل كيفما اتّفق له يضرب يميناً وشمالاً وقد تملّكه الغضب، فإذا بهم أشلاء مبعثرة وأكباد ممزّقة تغطّي الأرض.

(١) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الضنك: الضيق. استحوذ: استولى. إنه منظر تقشعرّ له الأبدان، لقد سيطر الموت عليهم وشلّ حركتهم لضيق المكان، ولقوّة الفتك بهم، فاستسلموا لمصيرهم المحتوم الحزين فقضوا عن بِكْرَة أبيهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. لقد صمّم القوم على القتال وشدّوا عزائمهم، ولكن المفاجأة كانت قاسية فإذا بمساور وسط القوم يُمعن فيهم تقتيلاً ويسقي سيفه الفولاذي من دمائهم ليشتدّ ويقوى، فكلما أمعن تقتيلاً بهم زاد قوَّة.

(٣) الجوشن: الدرع. وحالما طلع الممدوح على أعدائه تمثل لهم أبوه وعمه، وهذا يعني أنهم قد لاقوا منهما ما يلاقونه من الابن قتلاً وفتكاً؛ فكان الابن صورة حيَّة لأبيه تتمثل فيه الشجاعة والإقدام والكرم وأشرف الفضائل وأنبلها.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. إنها إطلالة تُوحي بأن صاحبها من الطراز الأول، وكاد القوم يُقرّون للممدوح ببطولته وشجاعته وفروسيّته ولكنه لم يُمهلهم ليُبدوا إعجابهم فإذا بسيفه يُمعن فيهم تقتيلاً، ولذا فلم يتمكّنوا من ذلك.

غِـرٌّ طَـلَـعْـتَ عَـلَـيْـهِ طِـلْـعَـةَ عَـارِضٍ
مَـطَـرَ الـمَـنَـايَـا وَابِـلاً وَرَذَاذَا (١)

سَـدَّتْ عَـلَـيْـهِ الـمَـشْـرَفِـيَّـةُ طُـرْقَـهُ
فَـانْـصَـاعَ لَا حَـلَـبـاً وَلَا بَـغْـدَاذَا (٢)

طَـلَـبَ ٱلْإِمَـارَةَ فِـي الـثُّـغُـورِ وَنَـشْـؤُهُ
مَـا بَـيْـنَ كَـرْخَـايَـا إلَـى كَـلْـوَاذَا (٣)

فَـكَـأَنَّـهُ حَـسِـبَ ٱلْأَسِـنَّـةَ حُـلْـوَةً
أَوْ ظَـنَّـهَـا ٱلْـبَـرْنِـيَّ وَالآزَاذَا (٤)

لَـمْ يَـلْـقَ قَـبْـلَـكَ مَـنْ إذَا ٱخْـتَـلَـفَ ٱلْـقَـنَـا
جَـعَـلَ الـطِّـعَـانَ مِـنَ الـطِّـعَـانِ مَـلَاذَا (٥)

---

(١) و (٢) الغرّ: الذي لم يجرّب الأمور بعد، يقصد بذلك ابن يزداذ. العارض: السحاب. المنايا: الموت. الوابل: المطر المنهمر. الرذاذ: المطر الخفيف إنها المفاجأة التي لم يحسب لها ابن يزداذ حساباً، فإذا به وجهاً لوجه أمام موت محتّم؛ فالكفتان غير متكافئتين؛ غِرّ لا يُحسن الطعان والضرب وبطل من الطراز الأول النادر. إنه عارض يُمطر موتاً بعنف لا يرحم، ولقد حاول الفرار، فإذا بالأبواب تُغلق عليه دون ذلك وسيف يلتهب بجمر الغضب، ولا ملاذ له في حلب أو بغداد، وثمّة ملجأ واحد إنه الاستسلام إلى قدر محتّم.

(٣) و (٤) ورد البيتان المتواليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. كرخايا وكلواذا من قرى سواد العراق الزراعية. ينعى المتنبي على يزداذ أنه طمع في الإمارة على الثغور، تلك الديار التي يجب أن يتوفّر عليها أقوى الأبطال وأشجع الشجعان ليقفوا في وجوه الأعداء لحماية المسلمين من شرورهم، وهو لا يصلح فقد نشأ في سواد العراق ولم يُحسن قتالاً، وقد تعوّد أكل البرنيّ والآزاذ من الرّطب والتمور وقد تعوّد الزراعة في دياره، والحرب ليس سهلاً، بل له رجاله الميامين.

(٥) القنا: الرماح. الملاذ: الملجأ. يُخاطب الشاعر أيضاً يزداذ أن الانتصار متداول بين الخصمين إذا كانا كفوءين في النزال، ينتصر هذا مرة وينتصر ذاك مرة أخرى. وحقيقة الأمر أن البطل لا يفرّ من المعركة وعليه أن يحمي نفسه بمواجهة مصيره، فحرصه على الحياة يُحتّم عليه مجابهة الموت بشجاعة، عندئذٍ تُوهب له الحياة بانتصاره على عدوه.

مَـنْ لَا تُـوَافِـقُـهُ ٱلْـحَـيَـاةُ وَطِـيـبُـهَـا
حَـتَّـى يُـوَافِـقَ عَـزْمُـهُ الإنْـفَـاذَا[١]
مُـتَـعَـوِّداً لُـبْـسَ الـدُّرُوعِ يَـخَـالُـهَـا
فِـي ٱلْـبَـرْدِ خَـزًّا وَٱلْـهَـوَاجِـرِ لَاذَا[٢]
أَعْـجِـبْ بِـأَخْـذِكَـهُ، وَأَعْـجَـبُ مِـنْـكُـمَـا
أَنْ لَا تَـكُـونَ لِـمِـثْـلِـهِ أَخَّـاذَا[٣]

---

(١) يأتي الشاعر بحكمة مفادها أن لذّة طعم السعادة في الحياة المبادرة إلى إنفاذ المرء رغبته، فالتردّد لا ينفع، والتقهقر إلى الوراء انتكاسة قاتلة، تعني الفشل الذريع، لذا لا ينعم المرء بالمجد إلّا في اقتحام المصاعب والمخاطر.

(٢) الخزّ من الثياب: الغليظ تصنع من الحرير. اللّاذ من الأثواب: الرقيق من الكتان. الهواجر، المفرد هاجرة: الحرّ الشديد عند الظهيرة في الصيف. يُخاطب الشاعر المنكود الحظّ أن لبس الدروع للقتال وليس لحماية الجسد من البرد القارس أو حرّ الهاجرة اللاهب، ومن لم يتعوّد ذلك فخير له أن يتخلّى عن ذلك لمن يستحقّه بجدارة.

(٣) يخاطب الشاعر ممدوحه مؤكداً على أنه مثار إعجابه، فشجاعته سمحت له أن يقضي على خصمه رغم ما أعدّ له من جند وعتاد، وهو يُعجب بهما كليهما لاختلاف حاليهما، ولو لم يفعل ما فعله لكان مثار استغراب ودهشة الشاعر، فهو على يقين وثقة من شجاعة ممدوحه وقوّته.

ـ أورد صاحب الوساطة صفحة ٩٢ بيتاً على نفس الروي والقافية والوزن التالي: لم يرد في الديوان، وهو البيت:

فَـغَـدا أسـيـراً قـد بَـلَـلْـتَ ثِـيـابَـهُ   بِـدَمٍ وبَـلَّ بِـبَـوْلِـهِ الأفـخـاذا

ولقد صوّر الشاعر مدى شدّة خوف يزداد وهو في نزعه، فالدماء تُغطيه، ومن شدّة فزعه وجبنه لم يُمسك نفسه فبال.

رويّ الراء

عصف الرياح قرى سوار

يهجو سواراً الديلمي:

[الطويل]

بَـقِـيَّـةُ قَـوْمٍ آذَنُـوا بِـبَـوَارِ
وأنْـضَـاءُ أسْـفَـارٍ كَـشَـرْبِ عُـقَـارِ[١]

نَـزَلْـنَـا عَـلَـى حُـكْـمِ الـرِّيَـاحِ بِـمَـسْـجِـدٍ
عَـلَـيْـنَـا لَـهَـا ثَـوْبَـا حَـصًـى وَغُـبَـارِ[٢]

خَـلِـيـلَـيَّ مَـا هٰـذَا مُـنَـاخـاً لِـمِـثْـلِـنَـا
فَـشُـدَّا عَـلَـيْـهَـا وَارْحَـلَا بِـنَـهَـارِ[٣]

وَلَا تُـنْـكِـرَا عَـصْـفَ الـرِّيَـاحِ فَـإِنَّـهَـا
قِـرَى كُـلِّ ضَـيْـفٍ بَـاتَ عِـنْـدَ سِـوَارِ[٤]

---

(١) و (٢) البوار: الهلاك، الموت. الأنضاء، الواحد نضو: المهزولون. الشرْب، الواحد شارب. العقار: الخمر. يصف الشاعر ما أصيب به من جهد السفر، وما أصابه من إعياء؛ فالريح عنيفة لسعته بوابل من التراب، وحتى الحصى لم يجد ساتراً يحميه منها.

(٣) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١/ ٦٠. المناخ: المنزل. يُخاطب الشاعر صاحبيه طالباً منهما الرحيل وشدّ رحالهما على إبلهما قبل هبوط المساء.

(٤) يُوصي الشاعر صاحبيه ألّا يُنكرا عصف الرياح، فإنها قِرى لمن ينزل ضيفاً على سوار.

تضيق عن جيشه الدنيا

قال في جعفر بن كيغلغ ولم ينشده إياها:

[البسيط]

حَاشَى الرَّقِيبَ فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ
وَغَيَّضَ الدَّمْعَ فَانْهَلَّتْ بَوَادِرُهُ[١]

وَكَاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ
وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لَا تَخْفَى سَرَائِرُهُ[٢]

لَوْلَا ظِبَاءُ عَدِيٍّ مَا شُغِفْتُ بِهِمْ
وَلَا بِرَبْرَبِهِمْ لَوْلَا جَآذِرُهُ[٣]

مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فِي أَنْيَابِهِ شَنَبٌ
خَمْرٌ يُخَامِرُهَا مِسْكٌ تُخَامِرُهُ[٤]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. حاشاه: توقّاه. غيض الدمع: أنقصه وحبسه. انهلّت: انصبّت. البوادر: السوابق. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني؛ إنّها رحلة الفراق والغربة، لقد حاول جاهداً حبس دموعه، ولكن مشاعره غلبته، فإذا بدموعه تُعلن عن عزيمته ونيّته تتكشّف عن حقيقة أمره، فعلم الرقيب بذلك.

(٢) البين: الفراق. السرائر: خفايا النفس. الحبّ لا تخفى دلائله، فالنظر يكشف عمّا تكِنّ السرائر، لذا فمهما حاول المحبّ إخفاء مشاعره فلا بدّ لها من منفذ فيُفتضح أمره، ولعلّ البكاء أيسر سبيل.

(٣) يقصد بالظباء النسوة. وعديّ: بطن من قريش. الربرب: القطيع من البقر الوحشي. الجآذر، الواحد جؤذر: ولد البقرة الوحشية. يروى «ما شقيت» بدلاً من «ما شُغِفت». شرع الشاعر يتغزّل بعذارى بني عديّ القرشيين؛ إنهن كالظباء، رقّة وأناقة وظرفاً ورشاقة، ولقد تعلّق قلبه بهن حتى بمن رزقن بأطفال صغار لجمال جماعتهن.

(٤) الحوراء: الشديدة سواد عينيها وبياضهما مع اتساعهما. الشنب: الحِدّة في الأسنان، وقيل: برد وعذوبة. يُخامرها: يُخالطها. يُطلعنا الشاعر على سبب حبّه لهؤلاء النسوة؛ إنهن حورٌ، ذوات عيون كعيون المها، يفترن عن أنياب بيضاء يقطرن خمراً مسكراً وريقاً عذباً يبعث على القبل.

نُـعْـجٌ مَـحَـاجِـرُهُ دُعْـجٌ نَـوَاظِـرُهُ
حُـمْـرٌ غَـفَـائِـرُهُ سُـودٌ غَـدَائِـرُهُ(١)

أَعَـارَنِـي سُـقْـمَ عَـيْـنَـيْـهِ وَحَـمَّـلَـنِـي
مِـنَ الـهَـوَى ثِـقْـلَ مَـا تَـحْـوِي مَـآزِرُهُ(٢)

يَـا مَـنْ تَـحَـكَّـمَ فـي نَـفْـسِـي فَـعَـذَّبَـنِـي
وَمَـنْ فُـؤَادِي عَـلَـى قَـتْـلِـي يُـضَـافِـرُهُ(٣)

بِـعَـوْدَةِ الـدَّوْلَـةِ الـغَـرَّاءِ ثَـانِـيَـةً
سَـلَـوْتُ عَـنْـكَ وَنَـامَ ٱلـلَّـيْـلَ سَـاهِـرُهُ(٤)

مِـنْ بَـعْـدِ مَـا كَـانَ لَـيْـلِـي لَا صَـبَـاحَ لَـهُ
كَـأَنَّ أَوَّلَ يَـوْمِ الْـحَـشْـرِ آخِـرُهُ(٥)

---

(١) نعج، الواحد أنعج، والنعج: البياض. المحاجر، الواحد محجر: ما يبدو من النقاب. الدُّعج، الواحدة دعجاء: سواد العين مع سعتها. الغفائر، الواحدة غفارة: الخرقة تضعها المرأة على رأسها لتمنع الدهن من أن يبلّ خمارها. الغدائر، الواحدة غديرة: الضفائر من الشعر. يصف الشاعر رؤوس هؤلاء النسوة، إنهن يمتزن بجمال العيون واتساعها وسوادها مع شدّة بياضها، وهنّ يحتجبن فيضعن الخُمرُ لتزيد من جمالهن ويضعن الغفائر لئلا تبتلّ خمرهن طيباً، فهن يتطيّبن، وقد أسدلن ضفائرهن على صدورهن، فتزيدهن جمالاً على جمال.

(٢) سقم عينيه: عنى بذلك فتور محبوبته لتنعّمها. المآزر، الواحد مئزر: الملحفة تُشدّ على وسط المرأة. انتقل الشاعر من جمع النسوة إلى واحد منهن جعله فتور عينيها صريع هواها، مريضاً مدنفاً، فهو ثقيل الحركة كحركة ردفيها الثقيلين.

(٣) يضافره: يساعده. مصيبة الشاعر أن جفاء حبيبته الوطأة عليه ويُساعده في ذلك قلبه الذي لا ينفك يهيم بمن يُحبّ.

(٤) و(٥) لم يُحسن الشاعر التخلّص إلى الممدوح بعدما انتقل من الغزل بمحبوبته، وتركها معلقة بالهواء لا يدري المرء ماذا حلّ بتلك العلاقة. لقد عاد جعفر بن كيغلغ إلى كرسي الإمارة بعد عزله. وهذا ما جعل الشاعر ينسى حبيبته ويسلو عنها فتعرف عيناه طعم النوم، وقد كان ليله طويل السهاد حتى ليبدو آخره كيوم الحشر، فإذا بفجر جديد يفكّ لغز هذه المشكلة.

غَـابَ الأمِـيـرُ فَـغَـابَ ٱلْـخَـيْـرُ عَـنْ بَـلَـدٍ
كَـادَتْ لِـفَـقْـدِ ٱسْـمِـهِ تَـبْـكِـي مَـنَـابِـرُهُ[(١)]

قَـدِ ٱشْـتَـكَـتْ وَحْـشَـةَ الأحْـيَـاءِ أَرْبُـعُـهُ
وَخَـبَّـرَتْ عَـنْ أَسَـى الـمَـوْتَـى مَـقَـابِـرُهُ[(٢)]

حَـتَّـى إذَا عُـقِـدَتْ فِـيـهِ الْـقِـبَـابُ لَـهُ
أَهَـلَّ لِـلَّـهِ بَـادِيـهِ وَحَـاضِـرُهُ[(٣)]

وَجَـدَّدَتْ فَـرَحـاً لَا الْـغَـمُّ يَـطْـرُدُهُ
وَلَا الـصَّـبَـابَـةُ فـي قَـلْـبٍ تُـجَـاوِرُهُ[(٤)]

إذَا خَـلَـتْ مِـنْـكَ حِـمْـصٌ لَا خَـلَـتْ أَبَـداً
فَـلَا سَـقَـاهَـا مِـنَ الْـوَسْـمِـيِّ بَـاكِـرُهُ[(٥)]

دَخَـلْـتَـهَـا وَشُـعَـاعُ الـشَّـمْـسِ مُـتَّـقِـدٌ
ونُـورُ وَجْـهِـكَ بَـيْـنَ الْـخَـلْـقِ بَـاهِـرُهُ[(٦)]

فـي فَـيْـلَـقٍ مِـنْ حَـدِيـدٍ لَـوْ قَـذَفْـتَ بِـهِ
صَـرْفَ الـزَّمَـانِ لَـمَـا دَارَتْ دَوَائِـرُهُ[(٧)]

---

(١) لقد ارتبط الخير بذلك الأمير، فبغيابه انعدم وجود الكرم، وبالتالي انعدم المشيدون بذكره على المنابر.

(٢) وحشة الأحياء: خلوّها من البهجة والسرور. الأربع، الواحد ربع: المنازل. الأسى: الحزن. عمّ الحزن تلك الربوع بعزل ذلك الأمير فالمنازل وساكنوها ألمّت بهم الأحزان، حتى الأموات شعروا بذلك المصاب فجرفوا في قبورهم.

(٣) و(٤) القباب: السرادقات تقام فيها الزينة في الأفراح، عُقدت: نصبت. أهل للّه تعالى: جأر بالدعاء الناس شكراً للّه عزّ وجلّ. وفجأة أقيمت القباب للأفراح، فإذا بسكّان البوادي والحواضر يجأرون بالدعاء للأمير شكراً للّه تعالى على نعمه، لعلمهم أن حدثاً سعيداً حدث له؛ إنه رجوعه إلى دار الإمارة. ولقد عمّ الفرح الديار فاختفت الأحزان وامتلأت القلوب غبطة، فلا متّسع لسواها من العشق وشدّة الصبابة.

(٥) الوسمي: أول المطر. يرى الشاعر أن سرّ حياة مدينة حمص وجود ذلك الأمير، فإذا خلت منه انعدم وجود المطر، بشرى الخير وحصول مواسم العطاء.

(٦) و(٧) إن دخول الممدوح، مع إطلالة الفجر، الذي يبشّر بعهد ميمون، فإذا بنور =

تَـمْـضِـي الـمَـوَاكِـبُ وَالأَبْـصَـارُ شَـاخِـصَـةٌ
مِـنْـهَـا إلَـى الـمَـلِـكِ الـمَـيْـمُـونِ طَـائِـرُهُ[١]

قَــدْ حِــرْنَ فــي بَــشَــرٍ فــي تَــاجِــهِ قَــمَــرٌ
فــي دِرْعِــهِ أَسَــدٌ تَــدْمَــى أَظَــافِــرُهُ[٢]

حُــلْــوٍ خَــلائِــقُــهُ شُــوسٍ حَــقَــائِــقُــهُ
تُحْصَى الْحَصَى قَبْلَ أَنْ تُحْصَى مَآثِرُهُ[٣]

تَـضِـيـقُ عَـنْ جَـيْـشِـهِ الـدُّنْـيَـا وَلَـوْ رَحُـبَـتْ
كَـصَـدْرِهِ لَـمْ تَـبِـنْ فِـيـهَـا عَـسَـاكِـرُهُ[٤]

إذَا تَــغَــلْــغَــلَ فِــكْــرُ الــمَــرءِ فــي طَــرَفٍ
مِــنْ مَــجْــدِهِ غَــرِقَــتْ فِــيــهِ خَــوَاطِــرُهُ[٥]

= الممدوح يغلب نور الشمس بضياء الفرح، لما يُصاحبه من جند متسربلين بالسلاح لدفع البلاء عن الناس، فإنهم قادرون على ردّ عاديات الزمان وصروفه، لذا فلن يُقهر أحد من رعيَّته.

(١) يتهادى الموكب، وجمهور الرعيَّة ينظرون بدهشة وإعجاب لما يُشاهدون. والدعاء يصحب ذلك الملك الموفّق باليمن والبركات.

(٢) إن الرعية في حيرة لما يرون، إنه من البشر وليس كسائر البشر، فهو جميل بهيّ الطلعة، قمر يشعّ ضياء، وقد ارتدى حُلّة الأسد لما يُوحيه من شجاعة وإقدام، فسيوفه تقطر من دماء أعاديه.

(٣) الشوس، الواحد أشوس: من ينظر بمؤخر عينيه تكبّراً. المآثر: المفاخر. الحقائق: هم من على المرء حفظهم وحمايتهم. إن الممدوح ذو أخلاق حميدة؛ فأبناء بلده وجيرانه يحتمون بمنعته لذا فهم متكبّرون يمتنعون عن الأعداء. ومن مبالغات الشاعر أن الحصى يُمكن عدّه بينما أخلاق ممدوحه كثيرة بحيث لا يُمكن حصرها وعدّها.

(٤) رحبت: اتّسعت، ولكثرة جيش الممدوح ضاقت الأرض رغم اتّساعها بما لديه من عسكر، وصدره يتّسع رحابة وحِلماً لصحبه ورعيَّته.

(٥) تغلغل: دخل في الشيء وأمعن. وممَّا يُحيّر المرء أن مظاهر مجد هذا الممدوح متعدّدة الجوانب يغرق فيها فكره ويتيه فلا يستطيع تحديد معالمها ويعجز عن تسميتها.

تَـحْـمَـى الـسُّـيُـوفُ عـلـى أَعْـدَائِـهِ مَـعَـهُ
كَـأَنَّـهُـنَّ بَـنُـوهُ أَوْ عَـشَـائِـرُهُ(١)

إِذَا ٱنْتَضَاهَا لِحَرْبٍ لَمْ تَدَعْ جَسَداً
إِلَّا وَبَاطِنُهُ لِلْعَيْنِ ظَاهِرُهُ(٢)

فَقَدْ تَيَقَّنَّ أَنَّ ٱلْحَقَّ فِي يَدِهِ
وَقَدْ وَثِقْنَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَاصِرُهُ(٣)

تَرَكْنَ هَامَ بَنِي عَوْفٍ وَثَعْلَبَةٍ
عَلَى رُؤُوسٍ بِلَا نَاسٍ مَغَافِرُهُ(٤)

فَخَاضَ بالسَّيْفِ بَحْرَ المَوْتِ خَلْفَهُمُ
وَكَانَ مِنْهُ إِلى الْكَعْبَيْنِ زَاخِرُهُ(٥)

حَتَّى ٱنتَهَى ٱلْفَرَسُ ٱلْجَارِي وَمَا وَقَعَتْ
فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ جِيَفِ الْقَتْلَى حَوَافِرُهُ(٦)

كَمْ مِنْ دَمٍ رَوِيَتْ مِنْهُ أَسِنَّتُهُ
وَمُهْجَةٍ وَلَغَتْ فِيهَا بَوَاتِرُهُ(٧)

---

(١) و (٢) تحمى: يشتدّها نهارها. العشائر، الواحدة عشيرة: أقرباؤه وذووه. إنه لا يواجه أعداءه خالياً من سلاح ومؤازرين، فإذا بهم بمثابة البنين والعشيرة الأقربين. وإذا جرّد تلك الجماعة لمقاتلة الأعداء عملت تقطيعاً بهم، فلم تترك منهم جارحة إلّا قطعتها إرباً، فإذا بالعيون ترى ما يُرعب.

(٣) إنه على يقين بأنه مؤزّر بنصر اللّه تعالى وأن الحقّ إلى جانبه، ومن كان نصر اللّه تعالى إلى جانبه فلن يُهزم أبداً.

(٤) و (٥) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. ثعلبة وثقلبة من قبائل العرب. المغافر، الواحد مغفر: زردُينج على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة كان من نتيجة تلك المعارك أن الممدوح فتك ببني عَوْف وحنظلة فقطع أوصالهم، وفصل رؤوسهم عن أجسادهم في بحر طام أغرقهم بلجحه، وهو عائم لم تتخطّ قدميه رغم صخبها وعنفها.

(٦) و (٧) يروى «جثث» بدلاً من «جيف». إن الممدوح يمتطي جواداً يطير فوق جثث القتلى لكثرتهم، فقد غطّوا الأرض بأجسادهم، فلم يعد موطئ لقوائمه على الأرض =

وَحَـائِـنٍ لَـعِـبَـتْ شُـمُّ ٱلـرِّمَـاحِ بِـهِ
فَـالْـعَـيْـشُ هَـاجِـرُهُ وَالـنَّـسْـرُ زَائِـرُهُ(١)

مَـنْ قَـالَ لَـسْـتَ بِـخَـيْـرِ الـنَّـاس كُـلِّـهِـم
فَـجَـهْـلُـهُ بِـكَ عِـنْـدَ الـنَّـاسِ عَـاذِرُهُ(٢)

أَوْ شَـكَّ أَنَّـكَ فَـرْدٌ فـي زَمَـانِـهِـم
بِـلَا نَـظِـيـرٍ فَـفِـي رُوحِـي أُخَـاطِـرُهُ(٣)

يَـا مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ فِـيـمَـا أُؤَمِّـلُـهُ
وَمَـنْ أَعُـوذُ بِـهِ مِـمَّـا أُحَـاذِرُهُ(٤)

وَمَـنْ تَـوَهَّـمْـتُ أَنَّ ٱلْـبَـحْـرَ رَاحَـتُـهُ
جُـوداً وَأَنَّ عَـطَـايَـاهُ جَـوَاهِـرُهُ(٥)

لَا يَـجْـبُـرُ الـنَّـاسُ عَـظْـمـاً أَنْـتَ كَـاسِـرُهُ
وَلَا يَـهِـيـضُـونَ عَـظْـمـاً أَنْـتَ جَـابِـرُهُ(٦)

= ولطالما ارتوت رماحه من دماء أعدائه فانتزعت المهج من أصحابها وتركتهم صرعى بلا حِراك ولطالما شربت سيوفه من دمائهم حتى ارتوت.

(١) الحائن: الهالك. يروى «سُمر» بدلاً من «شُمّ»: الطوال. والصورة المرعبة للموت تتمثّل ببطل لقي مصرعه برماح لعبت به، فإذا به يهوي معفراً احتضنته الأرض، وقد فارقته الحياة ولازمته النسور تمزّق جسده.

(٢) فثمَّة من يعتقد أن الممدوح كغيره من البشر وليس بخير الناس، فهو جاهل، ومن كرم أخلاقه، فالممدوح يعذره على جهله.

(٣) أخاطره: أراهنه. ومن مغالاة الشاعر أن جعل ممدوحه فرداً مميَّزاً لا يُوجد سواه في مستواه، فلو شكّ أحد الناس في ذلك، فالشاعر على استعداد لمراهنته ليقينه أنه سيربح الرهان من ذلك الشاكّ.

(٤) و (٥) ألوذ: ألجأ. أؤمّله: أرجوه. أعوذ: ألجأ وأحتمي. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه ملجأ يحتمي بجواره، وهو يأمل منه خير العطاء، والشاعر يحذّر من الفقر والعوز، ولقد حمله الوهم على أن يرى يده بحراً يفيض جوداً فيغوص على الجوهر واللؤلؤ ليغتني بها من معين بحره.

(٦) الجبر: إصلاح الكسر. الهيض: الكسر بعد الجبر إذا كان الجبر غير سليم. ومن =

أهل الدهر دونك والدهر

وقال يمدح أبا أحمد عبيد اللّه بن يحيى البحتريّ المنبجيّ:

[الطويل]

أَرِيقُكِ أَمْ مَاءُ الْغَمَامَةِ أَمْ خَمْرُ
بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فِي كَبِدِي جَمْرُ[(١)]

أَذَا الْغُصْنُ أَمْ ذَا الدِّعْصُ أَمْ أَنْتِ فِتْنَةٌ
وَذَيَّا ٱلَّذِي قَبَّلْتُهُ الْبَرْقُ أَمْ ثَغْرُ[(٢)]

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي
فَقُلْنَ نَرَى شَمْساً وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ[(٣)]

رَأَيْنَ الَّتِي لِلسِّحْرِ فِي لَحَظَاتِهَا
سُيُوفٌ ظُبَاهَا مِنْ دَمِي أَبَداً حُمْرُ[(٤)]

= فضائل ذلك الممدوح أنه إذا كسر عظماً فليس بمقدرة أحد أن يُصلحه، وبالمقابل فإنه لا يقدر أحد على كسر عظم عمل الممدوح على جبره.

(١) يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزليّ. الغمامة: السحابة. يُخاطب الشاعر محبوبته مستفهماً مستفسراً عمَّا يُحسّ طعمه في فمه من قُبلاتها، هل هو ماء سحابة لطيفة أم هل هو خمر يُسكر وهل ريقها يبثّ رُضابه البارد المحيي، فيُلهب كبده ويزيد من جوى قلبه.

(٢) يقصد بالغصن قوام محبوبته. الدعص: كثيب الرمل، ويقصد به ردفها. ذيّا: تصغير ذا. الفتنة السحر، والمرأة سحر بحدّ ذاته تفتن حتى الجبابرة فيخضعون لسلطانها. يسأل الشاعر حبيبته عن سحر وسرّ فتنتها، فكلّ ما فيها جميل، إنها غصن رقيق يتحرّك مع كل نسمة ويميس بلطف عجيب، فيحسر البشر بالنظر إليها دون سواها، ولقد قبّل الشاعر ما يُحيّره فيسأل عن طبيعته هل هو برق صاعق يهزّ كيانه أم هو ثغر حقيقي؟

(٣) و (٤) العواذل، المفرد عذول: اللّائمات. العذول دائم اللوم، وهو مطبوع على الحسد والكره، ومع ذلك فهؤلاء اللائمات رأين شمساً مشرقة تُضيء ظلمة الليل، فإذا بهن يعترفن لها بسلطان جمالها وتأثيره في ليل لم تُشرق شمسه بعد، ولقد سحرتهن بنظرات قاتلة كأنها أطراف سيوف حمراء دامية من دماء الشاعر لشدّة حبّه لها.

تَنَاهَى سُكُونُ الْحُسْنِ في حَرَكَاتِهَا
فَلَيْسَ لِرَاءٍ وَجْهَهَا لَمْ يَمُتْ عُذْرُ [(١)]

إِلَيْكَ ابْنَ يَحْيَى بْنِ ٱلْوَلِيدِ تَجَاوَزَتْ
بِيَ الْبِيدَ عِيسٌ لَحْمُهَا والدَّمُ الشِّعْرُ [(٢)]

نَضَحْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا
فَسَارَتْ وَطُولُ الأَرْضِ في عَيْنِهَا شِبْرُ [(٣)]

إِلى لَيْثِ حَرْبٍ يُلْحِمُ اللَّيْثَ سَيْفُهُ
وَبَحْرِ نَدًى في مَوْجِهِ يَغْرَقُ البَحْرُ [(٤)]

وإِنْ كَانَ يُبْقِي جُودُهُ مِنْ تَلِيدِهِ
شَبِيهاً بِمَا يُبْقِي مِنَ الْعَاشِقِ الهَجْرُ [(٥)]

---

(١) إنها المثال الجمالي النسائي المكتمل في لفتاتها وحركاتها، فكلّ ما فيها أخّاذ، وليس غريباً على من شاهدها أن ينجذب إليها طائعاً، وإن واتته المنية لا يلام، وإن لم يمت لا عذر له.

(٢) و (٣) البيد، الواحدة بيداء: الصحاري. العِيس: الإبل. يروى «العنس» بدلاً من «العيس». تخلص الشاعر إلى ممدوحه، إنه قصيدة على ناقة عبر عليها فلوات شاسعات أضناها كثرة المسير فأكل لحمها ودمها ومن تحمله إلى الممدوح، وفي جعبته شعر ومدح، وهذا ما جعل قلبها ينتعش، رغم شدّة عطشها، فإذا بها تطوي المسافات إليه كأنها شبر لشدّة شوقها إلى ريه.

(٤) الليث: من أسماء الأسد، يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة، فهو يُطعم الليث البطل ضربة سيفه تُودي به إلى الجحيم، ومن باستطاعته قتل نموذج بطولي فهو بلا أدنى شك نادر الوجود في عالم القوّة والشجاعة. ومن صفات الممدوح أيضاً أنه بحر ندىً كريم يغرق فيه البحر العظيم بما فيه من خيرات جسام فيبتلعه وينثر خيراته بين محبيه ورعيته.

(٥) التليد: الموروث من الآباء. ولما يُشتهر به الممدوح من فيض الكرم فإنه لا يُبقي في خزائنه ممّا ورثه عن آبائه إلّا النزر القليل، وهذا لا مطمع فيه لطامع شأنه في ذلك شأن المحبّ الذي أنهكه الحبّ فلم يبق منه إلّا هيكل آدمي قوامه نفسه وعظامه وأنفاسه.

فَـتـىً كُـلَّ يَـوْمِ تَـحْـتَـوِي نَـفْـسَ مَـالِـهِ
رِمَـاحُ الـمَـعَـالِـي لا الـرُّدَيْـنِـيَّـةُ الـسُّـمْـرُ (١)
تَـبَـاعَـدَ مـا بَـيْـنَ الـسَّـحَـابِ وَبَـيْـنَـهُ
فَـنَـائِـلُـهـا قَـطْـرٌ ونَـائِـلُـهُ غَـمْـرُ (٢)
وَلَـوْ تَـنْـزِلُ ٱلـدُّنْـيَـا عَـلـى حُـكْـمِ كَـفِّـهِ
لأَصْـبَـحَـتِ ٱلـدُّنْـيَـا وَأَكْـثَـرُهـا نَـزْرُ (٣)
أَرَاهُ صَـغِـيـراً قَـدْرَهَـا عُـظْـمُ قَـدْرِهِ
فَـمَـا لِـعَـظِـيـمٍ قَـدْرُهُ عِـنْـدَهُ قَـدْرُ (٤)
مَـتَـى مَـا يُـشِـرْ نَـحْـوَ الـسَّـمَـاءِ بَـوجْـهِـهِ
تَـخَـرَّ لـهُ الـشِّـعْـرَى وَيَـنْـخَـسِـفِ الـبَـدْرُ (٥)
تَـرَى الْـقَـمَـرَ الأرْضِـيَّ والـمَـلِـكَ الَّـذِي
لَـهُ الـمُـلْـكُ بَـعْـدَ الـلَّـهِ وَالـمَـجْـدُ والـذِّكْـرُ (٦)

---

(١) تحتوي: تستحوذ. الردينية: رماح تنسب إلى امرأة كانت تقوّم الرماح تسمّى بردينة. ومن شدّة الكرم أن الممدوح يهب ماله ليبلغ أعلى مراتب المجد والشهرة بتلك الفضيلة، وهو أيضاً منيع على أن يُستهدف من قبل أعدائه فلا يصلون إليه بضرر لقوّته وشجاعته وقهره لهم ولذا فلا يقدرون على سلبه شيئاً من أمواله.

(٢) و (٣) يُقيم الشاعر مقارنة بين ممدوحه والأمطار؛ فالقطر هزيل ضعيف لا يكفي لإرواء الأرض والبشر، بينما تجود كفّ الممدوح ببحر طام عظيم يشمل كلّ الوجود، وهو لو تملك الكون بما فيه لفرّقه بين محبيبه ورعيّته، وذلك قليل نادر إذا رجع الأمر إلى نيّته، وهذا يعني أن يبقى من الدنيا النزر اليسير.

(٤) وما يدلّ على عظم قدر الممدوح أنه نظر إلى الدنيا فوجدها لا تستحقّ اهتماماً عظيماً ومن الخير ألّا تقدّر فوق قدرها لحقارة شأنها في ميدان الكرم.

(٥) ومن مغالاة الشاعر أن الممدوح جميل مشرق الوجه وضاؤه، لذا فإذا نظر إلى الشعرى ذلك النجم الساطع بنوره الذي يؤنس الساهرين انكسفت خجلاً من إطلالة وجهه وتبعها القمر وذلك لتحوّله من حال إلى حال على عكس وجه الممدوح الذي يبقى على حاله.

(٦) يخاطب الشاعر البشر أنهم يَرَوْن قمراً أرضياً من لحم ودم، إنه ملك منهم وفيهم يذكر =

كَثِيرُ سُهَادِ ٱلْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ
يُؤرِّقُهُ فِي مَا يُشَرِّفُهُ الْفِكْرُ (١)

لَهُ مِنَنٌ تُفْنِي الثَّنَاءَ كَأَنَّمَا
بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا يُؤَدَّى لَهَا شُكْرُ (٢)

أَبَا أَحْمَدٍ مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِهِ
وَمَا لِامْرِئٍ لَمْ يُمْسِ مِنْ بُحْتُرٍ فَخْرُ (٣)

هُمُ النَّاسُ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ مَكَارِمٍ
يُغَنِّي بِهِمْ حَضْرٌ وَيَحْدُو بِهِمْ سَفْرُ (٤)

بِمَنْ أَضْرِبُ الأَمْثَالَ أَمْ مَنْ أَقِيسُهُ
إِلَيْكَ وَأَهْلُ الدَّهْرِ دُونَكَ وَالدَّهْرُ (٥)

= بعد اللّه عزّ وجلّ على المنابر، وبتوفيق اللّه تعالى نال المجد، إنه يذكر اسمه بعد ذكر ربّ العالمين.

(١) السهاد: السهر. علّة: سبب. ومن طبيعة الممدوح أنه يأرق فلا يعرف للنوم طعماً، لأنه دائم التفكير بما يسمو به إلى سُدّة المعالي، وهذا أكبر همّه الذي يؤرقه.

(٢) المنن، الواحدة مِنّة: الإحسان. الثناء: المدح. إن إحسان الممدوح عظيم يشمل سائر الناس، وهو يستحقّ الثناء العظيم، وهذا الثناء لا يُمكن أن يفي الممدوح حقّه لأن فضائله أعظم من أن تُكافأ بشكر ومديح.

(٣) و (٤) بحتر: قبيلة الممدوح. يُخاطب الشاعر ممدوحه فيُكنّيه بأبي أحمد، إنه أهل لكلّ مدح، وبه افتخرت قبيلته ذات النسب العريق في الكرم الذي ينتهي إلى طيّئ، فالكرم فيها متأصل منذ حاتم. إنهم من عنصر مميّز، من البشر امتازوا بالكرم ومكارم الأخلاق وتناقلت ألسن الناس من حضر وبدو مآثرهم ومفاخرهم، وميّزوهم عن غيرهم.

(٥) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٤٢٧. ويروى «نضرب»؛ بدلاً من «أضرب» ويروى «نقيسه» بدلاً من «أقيسه». يرفع الشاعر من قدر ممدوحه ويجعله فوق سائر الناس، فلم يعثر فيهم على من يُشبهه أو حتى يُقاربه في دهره كرماً وشجاعة ومحتداً.

الكواكب في التراب تغور

يرثي محمد بن إسحاق التنوخي:

[الكامل]

إِنِّـي لأَعْـلَـمُ وَالْـلَّـبِـيـبُ خَـبِـيـرُ
أَنَّ الْـحَـيَـاةَ وَإِنْ حَـرَصْـتَ غُـرُورُ[(١)]

وَرَأَيْـتُ كُـلّاً مَـا يُـعَـلِّـلُ نَـفْـسَـهُ
بِـتَـعِـلَّـةٍ وَإِلَـى الْـفَـنَـاءِ يَـصِـيـرُ[(٢)]

أَمُـجَـاوِرَ الـدِّيـمَـاسِ رَهْـنَ قَـرَارَةٍ
فِـيـهَـا الـضِّـيَـاءُ بِـوَجْـهِـهِ وَالـنـورُ[(٣)]

مَـا كُـنْـتُ أَحْـسَـبُ قَبْلَ دَفْنِكَ في الثَّرَى
أَنَّ الْـكَـوَاكِـبَ فـي الـتُّـرَابِ تَـغُـورُ[(٤)]

مَـا كُـنْـتُ آمـلُ قَـبْـلَ نَـعْـشِـكَ أَنْ أَرَى
رَضْـوَى عَـلَـى أَيْـدِي الـرِّجَـالِ تَـسِـيـرُ[(٥)]

---

(١) و (٢) اللبيب: الأريب، الرزين. يبدأ الشاعر مرثيته منوّهاً بمعرفته أن الحياة زائلة فلن تدوم لمخلوق مهما علا شأنه، فمآله إلى موت محقّق، والحرص على الحياة من الغرور، وإنها خادعة بمتعها تزرع الأمل في النفوس ولكنها تسارع إلى اختطاف الأعمار في غمرة زحمة تحقيق ما يصبو إليه البشر.

(٣) الدِّيماس: القبر المظلم. القرارة: القبر. يخاطب الشاعر الفقيد إنه مجاور قبر ومقيم فيه إلى يوم البعث، والقبر قد تحوّل إلى ضياء احتفاءً بالفقيد بعدما كان ظلاماً دامساً، فانقشعت الظلمة بنور وجهه.

(٤) و (٥) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣. الثرى: التراب. تغور: تختفي من مسلمات الشاعر أن الكواكب لا تدفن في طيات التراب حتى شاهد بأم عينه الفقيد يُدفن لعلمه أنه كوكب شعّ على بلده عطاءً وعظمة وشجاعة وحسن رأي. ولذا فقد شبهه بحبل رضوى من جبال المدينة المنوّرة لعظمته، فإذا به يُحمل في نعشه إلى مثواه الأخير على الأعناق السائرة وقد ألجمتها الفاجعة.

خَـرَجُـوا بِـهِ وَلِـكُـلِّ بَـاكٍ خَـلْـفَـهُ
صَـعَـقَـاتُ مُـوسـى يَـوْمَ دُكَّ الـطُّـورُ(١)
وَالـشَّـمْـسُ فِـي كَـبِـدِ الـسَّـمـاءِ مَـرِيـضَـةٌ
والأَرْضُ واجِـفَـةٌ تَـكَـادُ تَـمُـورُ(٢)
وحَـفِـيـفُ أَجْـنِـحَـةِ الـمـلَائِـكِ حَـوْلَـهُ
وعُـيُـونُ أَهْـلِ الـلَّاذِقِـيَّـةِ صُـورُ(٣)
حَـتَّـى أتَـوْا جَـدَثـاً كـأنَّ ضَـرِيـحَـهُ
فـي قَـلْـبِ كُـلِّ مُـوَحِّـدٍ مَـحْـفُـورُ(٤)
بِـمُـزَوَّدٍ كَـفَـنَ الْـبِـلَـى مِـنْ مُـلْـكِـهِ
مُـغْـفٍ وإثْـمِـدُ عَـيْـنِـهِ الْـكَـافُـورُ(٥)
فِـيـهِ الْـفَـصَـاحَـةُ وَالـسَّـمَـاحَـةُ وَالـتُّـقَـى
وَالْـبـأْسُ أَجْـمَـعُ وَالْـحِـجَـى وَٱلْـخِـيـرُ(٦)

---

(١) الصعقات، الواحدة صعقة: الغشية. دكّ: حطّم. الطور: الجبل. حُمل الفقيد والقلوب يعتصرها الألم يُترجم بالدمع الغزير، وقد غشي النفوس حالة من ذهول كأنها صعقت كما صُعق سيدُنا موسى عليه السلام يوم تجلّى له ربّه في طور سيناء فوقع مغشياً عليه إجلالاً للّه تعالى.

(٢) كبد السماء: وسطها. واجفة: مضطربة. تمور: تتحرّك في كلّ اتّجاه. يصف الشاعر ما حلّ بالكون جرّاء موت المرثي، فالشمس ضوؤها خافت، والأرض كأنها في زلزال عنيف على وشك أن يحدث فيدمّر كلّ شيء بعنف.

(٣) و (٤) حفيف الأجنحة: صوت تحركها. صور: شاخصة. إنه موكب حزين وقد باركته السماء، فاصطحبته الملائكة وهي ترفرف بأجنحتها وتظلّه ببركتها، وجمهور أهل المدينة يتابع المسير، وقد سمّرت عيونهم في النعش وكأنهم لا يُصدّقون ما تراه أعينهم. إنها ساعة الفراق، والقبر ماثل أمام العيون وقد فتح فاه لاستقبال ضيف جديد، فإذا بالقلوب تجأر بالدعاء والتكبير.

(٥) البلى: الموت. المغفي: النائم. الإثمد: الكحل. الكافور: ضرب من الطيب يُضمّخ به الموتى المسلمون. ويُتابع الشاعر إتمام الصورة المحزنة لقد كُفّن بكفن سيبلى وضمّ بالكافور بدل الإثمد؛ إنه حظّه من الدنيا وقد ترك كلّ شيء للأحياء.

(٦) السماحة: الكرم. البأس: القوة. الحجى: العقل. الخِير، بكسر الخاء: النبل =

كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بِرَدِّ حَيَاتِهِ
لَمَّا ٱنْطَوَى فَكَأَنَّهُ مَنْشُورُ[(١)]
وَكَأَنَّمَا عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ذِكْرُهُ
وكأنَّ عَازَرَ شَخْصُهُ الْمَقْبُورُ[(٢)]

إن العظيم على العظيم صبور

واستزاده بنو عم الميت فقال ارتجالاً:

[الكامل]

غَاضَتْ أَنَامِلُهُ وَهُنَّ بُحُورُ
وَخَبَتْ مَكَايِدُهُ وَهُنَّ سَعِيرُ[(٣)]
يُبْكَى عَلَيْهِ وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ
فِي اللَّحْدِ حَتَّى صَافَحَتْهُ الْحُورُ[(٤)]
صَبْراً بَنِي إِسْحَاقَ عَنْهُ تَكَرُّماً
إِنَّ الْعَظِيمَ عَلَى الْعَظِيمِ صَبُورُ[(٥)]
فَلِكُلِّ مَفْجُوعٍ سِوَاكُمْ مُشْبِهٌ
وَلِكُلِّ مَفْقُودٍ سِوَاهُ نَظِيرُ[(٦)]

= والسؤدد. لقد حوى الكفن الصفوة من البشر، وقوام ذلك كرم وفصاحة وتقى وورع وشجاعة ورجاحة عقل ونبل ومجد.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. النشر: البعث. لقد كان مواطنو المرثي حافظي الجميل، يكيلون له الثناء والدعاء ليتقبّله اللّه تعالى في جنان الخلد، فكان ذلك بمثابة بعث جديد له، فيبقى ذكره خالداً في الحياة الدنيا بفضل حسناته وجليل أعماله.

(٢) إنها حالة مشابهة لما فعله سيدنا عيسى عليه السلام من إحياء عازر وكذلك فقد أحيا هذا الميت عمله في الدنيا، فكان الذكر الحسن.

(٣) غاضت: غارت. خبت: خمدت. السعير: اللهب. بموت المرثي تبدّلت أحوال الناس، فقد انقطع المدد وكان كريماً يُنفق بغير حساب فيعم عطاؤه أحباءه ومواطنيه، فكان ذلك ضربة موجعة لهؤلاء كما كان موته لراحة أعدائه. فقد كان يكيد لهم ويقتل فيهم.

(٤) الحشد في بُكاء وحالما أُنزل في مستودعه حتى تلقته الحور العين بالترحاب تكرمة له من ربّه، لذا فمن الواجب ألّا يبكيه الباكون.

(٥) و (٦) يصبّر الشاعر آل الميّت أن يلتزموا بالصبر ويلوذوا به، فمن تكريم العظيم أن =

أَيّـامَ قَـائِـمُ سَـيْـفِـهِ فـي كَـفِّـهِ الْـ
ـيُـمْـنَـى وَبَـاعُ الـمَـوْتِ عَـنْـهُ قَـصِـيـرُ(١)
وَلَـطَـالَـمَـا انْـهَـمَـلَـتْ بِـمَـاءٍ أَحْـمَـرٍ
فـي شَـفْـرَتَـيْـهِ جَـمَـاجِـمٌ وَنُـحُـورُ(٢)
فَـأُعِـيـذُ إِخْـوَتَـهُ بِـرَبِّ مُـحَـمَّـدٍ
أَنْ يَـحْـزَنُـوا وَمُـحَـمَّـدٌ مَـسْـرُورُ(٣)
أَوْ يَـرْغَـبُـوا بِـقُـصُـورِهِـمْ عَـنْ حُـفْـرَةٍ
حَـيَّـاهُ فِـيـهَـا مُـنْـكَـرٌ وَنَـكِـيـرُ(٤)
نَـفَـرٌ إذا غَـابَـتْ غُـمُـودُ سُـيُـوفِـهِـمْ
عَـنْـهـا فـآجَـالُ الْـعِـبَـادِ حُـضُـورُ(٥)
وَإِذَا لَـقُـوا جَـيْـشـاً تَـيَـقَّـنَ أَنَّـهُ
مِـنْ بَـطْـنِ طَـيْـرِ تَـنُـوفَـةٍ مَـحْـشُـورُ(٦)

= يكون الصبر بقدر العظيم عظيماً، ويمدح الشاعر هؤلاء بأنهم من العظماء في مُصابهم لا شبيه لهم وكذلك فلا شبيه للفقيد.

(١) و (٢) يُذكّر الشاعر آل المتوفى يوم كان فقيدهم يُقاتل أعداءه ويبطش بهم أثناء ذلك كان الموت غافلاً عنه ولم ينله أذًى، أما وقد حان أجله فعليهم أن يقبلوا بقضاء اللّه عزّ وجلّ، فلا مردّ لقضائه. وكثيراً ما فتك بأعدائه وسالت دماؤهم على حدي سيفه فإذا بجماجمهم تتطاير من بين أكتافهم ودماؤهم تبلّل سيفه.

(٣) و (٤) أعيذ: أعتصم. يطلب الشاعر من إخوة محمد ألّا يحزنوا لموته فقد أكرمه اللّه تعالى بالسرور والرضوان وجنات النعيم: إنها أفضل من قصورهم وإن كانت موئل راحة ونعيم، فالكرامة التي حصل عليها لا تعدلها كلّ القصور إنها رضوان اللّه فقد تلقّاه الملكان منكر ونكير المولجان باستقبال الموتى من المسلمين بالترحاب وإيذاناً بدخول جنّة الرضوان.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. يمدح الشاعر آل المتوفى إنهم من الرهط الأبطال الذين إذا استلّوا سيوفهم من أغمادها آذنت بموت أعدائهم لشجاعتهم وقوّة بطشهم وحانت آجالهم.

(٦) التنوفة: المفازة. ولشدّة فتك القوم أنهم إذا التقوا جيشاً من الأعداء في مفازة تيقّن هؤلاء أن مصيرهم مشؤوم وسوف تتناوشهم جوارح الطير، ويوم البعث سيحشرون من بطون تلك الطيور.

لَـمْ تُـثْـنَ فـي طَـلَـبٍ أَعِـنَّـةُ خَـيْـلِـهِـمْ
إِلَّا وَعُـمْـرُ طَـرِيـدِهَـا مَـبْـتُـورُ[(١)]

يَـمَّـمْـتُ شَـاسِـعَ دَارِهِـمْ عَـنْ نِـيَّـةٍ
إِنَّ الْـمُـحِـبَّ عَـلَـى الْـبِـعَـادِ يَـزُورُ[(٢)]

وَقَـنِـعْـتُ بِـالـلُّـقْـيَـا وَأَوَّلِ نَـظْـرَةٍ
إِنَّ الْـقَـلِـيـلَ مِـنَ الْـحَـبِـيـبِ كَـثِـيـرُ[(٣)]

حنين دائم وزفير

وسألوه أن ينفي الشماتة عنهم؛ فقال:

[الكامل]

أَلِآلِ إِبْـرَاهِـيـمَ بَـعْـدَ مُـحَـمَّـدٍ
إِلَّا حَـنِـيـنٌ دَائِـمٌ وَزَفِـيـرُ[(٤)]

مَـا شَـكَّ خَـابِـرُ أَمْـرِهِـمْ مِـنْ بَـعْـدِهِ
أَنَّ الْـعَـزَاءَ عَـلَـيْـهِـمِ مَـحْـظُـورُ[(٥)]

تُـدْمِـي خُـدُودَهُـمُ الـدُّمُـوعُ وَتَـنْـقَـضِـي
سَـاعَـاتُ لَـيْـلِـهِـمِ وَهُـنَّ دُهُـورُ[(٦)]

---

(١) الأعنَّة، الواحد عنان: سير اللجام. المبتور: المقطوع. وما يدلّ على قوّة القوم أنهم إذا لَوَوْا أعنة خيولهم وهم يقصدون عدوًّا ويلاحقونه، فلا ريب أنهم سيبترون أصولهم وينقطع بهم الأجل.

(٢) يمّمت: توجّهت. الشاسع: البعيد. النيّة: المقصد. يذكر الشاعر أنه توجّه إلى ديار القوم رغم بعد الشقّة بين دياره وديارهم، وما يربطه بهم حبّ وودّ، وهذا أكبر داعٍ يربط الأصدقاء بعضهم ببعض.

(٣) ولقد كان اللقاء سريعاً وموجزاً؛ إنها نظرة أولى عابرة وهذا يكفي رغم قِلّته، فله دلالة عظيمة.

(٤) الزفير: إخراج النفس من جوف ابن آدم تعبيراً عن ألمه وحزنه. يقول الشاعر إن ألم وحزن آل إبراهيم ينمُّ عن شوق عظيم يستمرّ مع كل نفس يحمل في طيّاته عذاباً وأحزاناً يصعب احتمالها.

(٥) و (٦) الخابر: المطّلع على أحوال الناس وأمورهم. محظور: ممنوع. العزاء: =

أَبْـنَـاءُ عَـمٍّ كُـلُّ ذَنْـبٍ لامْـرِىءٍ
إلَّا السِّعَايَةَ بَيْنَهُمْ مَغْفُورُ[(١)]

طَارَ الْوُشَاةُ عَلَى صَفَاءِ وِدَادِهِمْ
وَكَذَا الذُّبَابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ[(٢)]

وَلَقَدْ مَنَحْتُ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ مَوَدَّةً
جُودِي بِهَا لِعَدُوِّهِ تَبْذِيرُ[(٣)]

مَلِكٌ تَصَوَّرَ كَيْفَ شَاءَ كَأَنَّمَا
يَجْرِي بِفَصْلِ قَضَائِهِ المَقْدُورُ[(٤)]

يسعى على قدم الخضر

وشرب علي بن إبراهيم التنوخيّ تلك الكأس فقال له ارتجالاً: [الطويل]

مَرَتْكَ ٱبْنَ إبْرَاهِيمَ صَافِيَةُ الْخَمْرِ
وَهُنِّئْتَهَا مِنْ شَارِبٍ مُسْكِرِ السُّكْرِ[(٥)]

= السلوان، النسيان. يُنوّه الشاعر بالمدى الذي عليه القوم من الأسى والحزن الذي لا تنمحي آثاره؛ فالخبير بأحوالهم لا يشكّ بأنهم يتألمون كثيراً لهذا فإنهم لا يعرفون للعزاء طريقاً، يترجم ذلك الحزن الدّفين تترجمه دموعهم وقد خدّدت مجاريها في خدودهم، وتمرّ الساعات كأنها أزمان مديدة لشدّة آلامهم وأحزانهم.

(١) إنها رابطة الدم، أبناء العمومة، من أرومة واحدة، وما يُصيب أحدهم يستثيرهم جميعاً لردّ عادية الدهر عنه، وهم يغفرون سائر الذنوب بحقّهم إلّا الإيقاع بينهم بسعاية ساعي التفرقة والخصومة في ما بينهم، فإنهم يأخذونه بذنبه دون إبطاء جميعاً.

(٢) يُخبر الشاعر أن الوشاة سعَوْا للإفساد بين القوم وكأنهم ذباب مثير للاشمئزاز ليفلّوا وحدتهم حسداً وليوقعوا بينهم البغضاء تماماً كما يُفسد الذباب الطعام عندما يحوم عليه.

(٣) ينوّه الشاعر بما لديه من رصيد ودّ لأبي الحسين أحد إخوة الفقيد. إنه حبّ وصداقة حميمة، لو أنه نثره على عدوّ له لعدّ ذلك إسرافاً عظيماً لا يستحقّه ممن امتلأ قلبه حناناً ومحبّة.

(٤) المقدور: القضاء. يمدح الشاعر أبا الحسين بأنه ملك يقضي بالحقّ وقضاؤه نافذ يُوافق ما قضى اللّه عزّ وجلّ وهذا من توفيق اللّه تعالى له.

(٥) مرتك: الأصل فيه الهمز من أمرأتك على الدعاء أي جعلت سائغة فحذف الهمز =

رَأَيْتُ ٱلْحُمَيَّا فِي الزُّجَاجِ بِكَفِّهِ
فَشَبَّهْتُهَا بِالشَّمْسِ فِي البَدْرِ فِي البَحْرِ (١)
إِذَا مَا ذَكَرْنَا جُودَهُ كَانَ حَاضِراً
نَأَى أَوْ دَنَا يَسْعَى عَلَى قَدَمِ الْخِضْرِ (٢)

لست على الحجاب بقادر

دخل على بدر يوماً فوجده خالياً وقد أمر الغلمان أن يحجبوا الناس عنه ليخلو للشرب فقال ارتجالاً:

[الكامل]

أَصْبَحْتَ تَأْمُرُ بِٱلْحِجَابِ لِخَلْوَةٍ
هَيْهَاتَ لَسْتَ عَلَى الْحِجَابِ بِقَادِرِ (٣)
مَنْ كَانَ ضَوءُ جَبِينِهِ وَنَوَالُهُ
لَمْ يُحْجَبَا لَمْ يَحْتَجِبْ عَنْ نَاظِرِ (٤)
فَإِذَا احْتَجَبْتَ فَأَنْتَ غَيْرُ مُحَجَّبٍ
وَإِذَا بَطَنْتَ فَأَنْتَ عَيْنُ الظَّاهِرِ (٥)

= تخفيفاً. يدعو الشاعر لممدوحه أن يشرب الخمرة صافية هنيئاً مريئاً، بحيث لا تُسكره، وهو المتغلّب على سائر الأشياء ومنها الخمرة التي لا تتغلّب على الممدوح.

(١) الحميّا: من أسماء الخمر. عمد الشاعر إلى تصوير ممدوحه، وهو يتناول كأس الخمرة، فبدت شمساً مشعّة بيده، وكأنها تُؤذن بالمغيب في الأفق، واصفرارها في نزعه الأخير.

(٢) نأى: بعد. دنا: قرب. وما يدلّ على سرعة إجابته وألمعية كرمه، فيكفي أن نذكر كرمه مهما يكن بعيداً، فإذا به يمثل أمام الشاعر بسرعة كأنه الخضر عليه السلام ليُنفّذ رغبات الذاكرين.

(٣) هيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد. يخاطب الشاعر ممدوحه وقد خلا بنفسه ليشرب الخمرة دون منادمة أحد، فإذا بالشاعر يُفاجئه ويقول له إنك لن تستطيع الاحتجاب مني.

(٤) و (٥) النوال: العطاء. احتجب: اختبأ، يمدح الشاعر ممدوحه منوّهاً بكرمه وجمال صورته، فمن كان تلك صفاته المحبّبة، فلا يُمكنه الاختباء لأنها فخره وسبب إعجاب =

نال الشراب مني

سقاه بدر ليلة فأخذ الشراب منه ثم أراد الانصراف فلم يقدر على الكلام فقال هذين البيتين وهو لا يدري فأنشده إياهما ابن الخراساني وهما قوله:

[مخلّع البسيط]

نَالَ الَّذِي نِلْتُ مِنْهُ مِنِّي ... لِلَّهِ مَا تَصْنَعُ الْخُمُورُ (١)

وَذَا انْصِرَافِي إِلَى مَحَلِّي ... آآذِنٌ أَيُّهَا الأَمِيرُ (٢)

جارية شعرها شطرها

كان لبدر بن عمار جليس أعور يعرف بابن كروّس، وكان يحسد أبا الطيب لما كان يشاهده من سرعة خاطره لأنه لم يكن في المجلس شيء إلا ارتجل فيه شعراً، فقال لبدر: أظنه يعمل هذا قبل حضوره ويُعدّه، فقال له بدر: مثل هذا لا يجوز أن يكون وأنا أمتحنه بشيء أحضره للوقت. فلما كمل المجلس ودارت الكؤوس أخرج لعبة قد أعدها، لها شعر في طولها تدور على لولب وإحدى رجليها مرفوعة وفي يدها باقة ريحان، وهي تدار على الجلاس فإذا وقفت حذاء الإنسان نقرها فدارت. فقال أبو الطيب فيها ارتجالاً:

[المتقارب]

وَجَارِيَةٍ شَعْرُهَا شَطْرُهَا ... مُحَكَّمَةٍ نَافِذٍ أَمْرُهَا (٣)

تَدُورُ وَفِي كَفِّهَا طَاقَةٌ ... تَضَمَّنَهَا مُكْرَهاً شِبْرُهَا (٤)

= الناس به وحبهم له، وتلك هبة إلهية خصّه بها خالقه دونهم. فالاحتجاب لا يمنع الناس من رؤيته لشهرته، وحتى لو اختفى لما أفلح لكرمه وحسن استقباله للوافدين عليه.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن الخمرة التي سقاه إيّاها فعلت فعلها به فهدّت قواه الجسدية والعقليّة، حتى لم يستطع النهوض على رجليه، فبان له آثار الخمرة السيئة في الإنسان.

(٢) يطلب الشاعر الإذن بالانصراف من الأمير ليعود إلى مخدعه.

(٣) و (٤) يتغزّل الشاعر بجارية استطال شعرها حتى أخفى نصف جسمها الأعلى بجماله وحسن تسريحه، فضلاً عن إشراقه جمال صاحبته، ممّا مكنها أن تأمر في الشرب =

فَـإنْ أسْـكَـرَتْـنَـا فَـفـي جَـهْـلِـهَـا
بِـمَـا فَـعَـلَـتْـهُ بِـنَـا عُـذْرُهَـا(١)

على فرد رجل

وقال يمدح بدراً أيضاً:

[البسيط]

إنَّ الأمِـيـرَ أَدَامَ الـلَّـهُ دَوْلَـتَـهُ
لَـفَـاخِـرٌ كُـسِـيَـتْ فَـخْـراً بِـهِ مُـضَـرُ(٢)
فـي الـشَّـرْبِ جَـارِيَـةٌ مِـنْ تَـحْـتِـهَـا خَـشَـبٌ
مَـا كَـانَ والِـدَهَـا جِـنٌّ وَلَا بَـشَـرُ(٣)
قَـامَـتْ عَـلَـى فَـرْدِ رِجْـلٍ مِـنْ مَـهَـابَـتِـهِ
وَلَـيْـسَ تَـعْـقِـلُ مَـا تَـأْتـي وَمَـا تَـذَرُ(٤)

أنا الذهب

ثم التفت إلى بدر وقال: ما حملك أيها الأمير على ما فعلت؟ فقال: أردت نفي الظنة عن أدبك، فقال:

[البسيط]

زَعَـمْـتَ أَنَّـكَ تَـنْـفِـي الـظَّـنَّ عَـنْ أَدَبِـي
وَأَنْـتَ أَعْـظَـمُ أَهْـلِ الْـعَـصْـرِ مِـقْـدَارا(٥)

= فتطاع، وهي تسقي الواحد منهم تلو الآخر، والكلّ يُلحّ عليها بالطلب؛ وبيدها باقة من الريحان ينتشر أريجها في المكان دون وعي منها، وهي بدورها ثملة سكرى كسائر الشرب.

(١) إنّها تُسكر الشرب خمراً من يدها فضلاً عمَّا تُثيره فيهم من النشوة بحسن قدّها ولفتاتها، ورغم جهلها بما تفعل فعذرها مقبول لعدم علمها بما تفعل.

(٢) يدعو الشاعر للأمير بدوام عزّه وبقائه على رأس دولته، إنه فخر مضر وعزّها، وهو ابنها البارّ.

(٣) و (٤) الشرب: جماعة شاربي الخمرة. إنها جارية تقوم على خدمة الشرب على رجل واحدة مهابة للأمير تطأ الخشب، وهي لا تدري ما تصنع وما تترك من عمل، ولكونها رائعة الجمال، فلا يُعرف إذا ما كان والدها من البشر أم من الجنّ.

(٥) يُعاتب الشاعر ممدوحه لظنّه أن الشاعر غير قادر على ارتجال الشعر وهو العليم بما =

إنِّـي أنَـا الـذَّهَـبُ الـمَـعْـرُوفُ مَـخْـبَـرُهُ
يَـزِيـدُ فـي الـسَّـبْـكِ لِـلـدِّيـنَـارِ دِيـنَـارا[(١)]

جود يطرد الفقر

فقال بدر: بل للدينار قنطارا، فقال:

[الكامل]

بِــرَجَــاءِ جُــودِكَ يُــطْــرَدُ الْــفَــقْــرُ
وَبِــأَنْ تُــعَــادَى يَــنْــفَــدُ الْــعُــمْــرُ[(٢)]

فَــخَــرَ الــزُّجَــاجُ بِــأَنْ شَــرِبْــتَ بِــهِ
وَزَرَتْ عَــلَــى مَــنْ عَــافَــهَــا الْــخَــمْــرُ[(٣)]

وَسَــلِــمْــتَ مِــنْــهَــا وَهْــيَ تُــسْــكِــرُنَــا
حَــتَّــى كَــأَنَّــكَ هَــابَــكَ الــسُّــكْــرُ[(٤)]

مَــا يُــرْتَــجَــى أَحَــدٌ لِــمَــكْــرُمَــةٍ
إلَّا الإِلٰــهُ وَأَنْــتَ يَــا بَــدْرُ[(٥)]

= يمتاز به الشاعر لأنه أعظم أهل العصر وأكثرهم خبرة بالشاعر، فالأحرى به ألّا يُفكّر بهذا الأمر.

(١) يفخر الشاعر بنفسه ويعتزّ بأنه الذهب الخالص لا غشّ فيه، واختباره يكشف حقيقته فالدينار الحقيقي إذا ما امتحن زادت الرغبة فيه فيتضاعف قيمة ويعزّ التفريط به؛ وهذا ما يميزه عن غيره من الشعراء، وبذلك علا نجمه وتغلّب على غيره.

(٢) يمدح الشاعر بدراً بأنه مصدر الجود، وبه يُطرد الفقر، فينزاح عن كاهل الشاعر فيحلّ الغنى في دياره، ومن مفاخر الممدوح أنه بطل لا يُستعدى ففي ذلك هلاك عدوه ونفاد عمره.

(٣) و (٤) زرت: عابت. عافها: كرهها ومن دواعي فرح الخمرة أنها تفخر إذا تعاطاها الممدوح فقد تشرّفت وتاهت على من عافها لأنه لا يستحقّ سرورها وما تُثيره فيه من نشوة، والممدوح لا تُسكره الخمرة مهما شرب منها رغم أنها تُسكر الجميع، وكونه معتاداً على الغلبة والنصر لذا فإنه يغلبها ولا تستطيع التغلّب عليه.

(٥) يُخاطب الشاعر بدراً أنه المقصود وعليه تُعقد الآمال بعد الإله في كلّ نائبة وضيق ينزل بالمحتاج، لكرمه وإغاثة الملهوف.

بليت بحساد أحاربهم

قال فيه وقد أراد الارتحال عن علي بن أحمد الخراساني :

[المنسرح]

لا تُنْكِرَنَّ رَحِيلِي عَنْكَ فِي عَجَلٍ
فَإنَّنِي لِرَحِيلِي غَيْرُ مُخْتَارِ (١)

وَرُبَّمَا فَارَقَ الإنْسَانُ مُهْجَتَهُ
يَوْمَ الْوَغَى غَيْرَ قَالٍ خَشْيَةَ الْعَارِ (٢)

وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَّادٍ أُحَارِبُهُمْ
فَاجْعَلْ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ أَنْصَارِي (٣)

حسدت على حياتي

يصف مسيره في البوادي وما لقي في أسفاره ويذم الأعور بن كروّس :

[الوافر]

عَذِيرِي مِنْ عَذَارَى مِنْ أُمُورِ
سَكَنَّ جَوَانِحِي بَدَلَ الْخُدُورِ (٤)

---

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه معتذراً لرحيله المفاجئ، إنه على عجل، فثمة أمر طارئ اضطرّه إلى الرحيل، لذا يطلب منه ألّا يجد في رحيله ما يحمل على الريبة والشكّ.

(٢) المهجة: الروح. القالي: المبغض، الكاره. خشية: مخافة. يتعلّل الشاعر بأن رحيله عن ممدوحه بالرغم عنه، فالمرء قد يُفارق روحه في ميدان المعركة مكرهاً، ولذلك فالشاعر يترك ممدوحه وهو مجبر على ذلك.

(٣) منيت: ابتليت. الندى: الكرم. الأنصار: المؤيدون والأصحاب. ولطالما شكا المتنبي من الحسّاد حيثما حلّ وارتحل، وقد يكون ثمّة من يحسده، ولكنه يتصوّر أن كلّ الناس يحسدونه على مكانته، يتعلّل بمحاربة الحسّاد له، ولذا فإنه يطلب من ممدوحه أن ينتصر له ويمدّه بعطاياه ليزيد من حسرة حسّاده ويكيد لهم.

(٤) العذير: المسبب للعذر والشكوى. العذارى: الأبكار. الجوانح: الضلوع. الخدور، الواحد خدر: المخدع ومأوى النسوة. لقد ضاقت الأحوال بالشاعر ممّا حمله على التذمّر والشكوى من رجل ضايقه، لذا فإنه في حال هجائه له يُفتش عمّن يلتمس له العذر في ما سيقوله في حقّ ذلك الرجل؛ فثمّة أمور عظام احتلّت واتّخذت من ضلوعه وقلبه مكاناً بدل النسوة الشاغل الحقيقي للرجال.

وَمُبْتَسِمَاتِ هَيْجَاوَاتِ عَصْرٍ
عَنِ الأسْيَافِ لَيْسَ عَنِ الثُّغُورِ (١)
رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمِي إلَيْهَا
وَكُلَّ عُذَافِرٍ قَلِقِ الضُّفُورِ (٢)
أَوَاناً في بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحْلِي
وَآوِنَةً عَلَى قَتَدِ الْبَعِيرِ (٣)
أُعَرِّضُ لِلرِّمَاحِ الصُّمِّ نَحْرِي
وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ (٤)
وَأَسْرِي في ظَلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي
كَأَنِّي مِنْهُ في قَمَرٍ مُنِيرِ (٥)
فَقُلْ في حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْهَا
عَلَى شَغَفِي بِهَا شَرْوَى نَقِيرِ (٦)

---

(١) الهيجاوات، الواحدة هيجاء: الحروب. يهدّد الشاعر بالحرب ويلتمس لنفسه عذراً في ذلك حيث تبتسم السيوف ببريقها بل ابتسام ثغور النسوة الجذّابة خلاف ابتسامة السيوف التي تفترّ عن الموت والدمار.

(٢) يقصد الشاعر بالتشمير الجدّ والمضي في الأمر. العذافر: القوي من النياق. الضفور، الواحد ضفر: الحبال. يفخر الشاعر بأنه قد مارس الحروب بجدّ وعزيمة لا تلين مستعيناً برجليه تارة وبالإبل القوية تارة أخرى.

(٣) أواناً: زماناً. القتاد: خشب الرحل. يصف الشاعر حالة التشرّد والترحال في سبيل ما يصبو إليه، وقد قسّم زمانه بين نزوله ضيفاً على البدو في صحرائهم، وآونة أخرى يستعين ببعير يتّخذه راحلة ومخدعاً له إذا رغب في النوم.

(٤) و (٥) حرّ الوجه: صفحته، الهجير: شدّة حرّ الظهيرة في فصل الصيف. الرماح الصمّ: الصلب منها، يصف الشاعر مغامراته؛ إنه يواجه الموت بشجاعة نادرة ويتصدّى للرماح في الحروب ويتعرّض لحرّ الهاجرة في فصل الصيف ويمشي في وحشة الليل البهيم وحيداً حيث لا أنيس ولا صاحب يتقوّى به كأنه إشعاعة نور تمزّق ظلمته.

(٦) ينعى الشاعر سوء حظّه، فرغم اجتهاده في طلب ما يودّ الحصول عليه، فإنه لا ينال =

وَنَـفْـسٍ لَا تُـجِـيـبُ إِلَـى خَـسِـيـسٍ
وَعَـيْـنٍ لَا تُـدَارُ عَـلَـى نَـظِـيـرِ[(١)]

وَكَـفٍّ لا تُـنَـازِعُ مَـنْ أَتَـانِـي
يُـنَـازِعُـنِـي سِـوَى شَـرَفِـي وَخِـيـرِي[(٢)]

وَقِـلَّـةِ نَـاصِـرٍ جُـوزِيـتَ عَـنِّـي
بِـشَـرٍّ مِـنْـكَ يَـا شَـرَّ الـدُّهُـورِ[(٣)]

عَـدُوِّي كُـلُّ شَـيْءٍ فِـيـكَ حَـتَّـى
لَـخِـلْـتُ ٱلْأُكْـمَ مُـوغَـرَةَ الـصُّـدُورِ[(٤)]

فَـلَـوْ أَنِّـي حُـسِـدْتُ عَـلَـى نَـفِـيـسٍ
لَـجُـدْتُ بِـهِ لِـذِي الْـجَـدِّ الْـعَـثُـورِ[(٥)]

وَلَـكِـنِّـي حُـسِـدْتُ عَـلَـى حَـيَـاتِـي
وَمَـا خَـيْـرُ الْـحَـيَـاةِ بِـلَا سُـرُورِ[(٦)]

= منه ما يسدّ رمقه، حتى ما يبدو في ظهر النواة لحقارته، لذا فعلى المرء أن يقول ما يحلو له ويتصوّر الحال التي وصل إليها الشاعر.

(١) يُدير الشاعر ناظريه بين البشر، فلم يعثر إلّا على خسيس نزلت به همّته إلى الحضيض، همّه الحصول على ما يُريد بشتّى الطرق المشروعة منها والممنوعة منها، ويجول نظره بين الناس فلا يجد له شبيهاً يتمتّع بطموحه وجراءته فلا يجد إلّا الجبناء ورغم ذلك فقد ارتقوا المناصب الرفيعة دونه.

(٢) الخِير: الكرم. ويتحدّث الشاعر عن مزاياه الحميدة؛ إنه لا يُنازع أحداً على شيء مهما عظم أو صغر، وهو بدوره لا يهتمّ بأيّ شيء فلو قبل لتنازل لمنازعه عن كلّ شيء سوى شرفه وكرمه؛ فهما رصيده في الحياة.

(٣) و(٤) يشكو الشاعر قلّة النصير يُعينه على تحقيق أحلامه وآماله، وفي المقابل كثرة حسّاده وأعدائه، وقد ابتلاه بهما دهره العاثر لذا يدعو عليه ليُبتلى بشرّ دهر ممّا هو فيه، وكلّ ما جرّه عليه عدوّ للشاعر حتى صار يتوهم الجماد الذي لا يُحسّ بأنه عدو له، فالتلال أوغرت صدورها فحقدت عليه وحاربته.

(٥) و(٦) النفيس: الغالي الثمن. الجدّ العثور، بكسر الجيم: الحظّ. شعور الشاعر بأنه محسود سيطر عليه طوال حياته، حتى في حال نجاحه؛ إنه على استعداد للتخلّي عن =

فَيَا ابْنَ كَرَوَّسٍ يَا نِصْفَ أَعْمَى
وَإنْ تَفْخَرْ فَيَا نِصْفَ الْبَصِيرِ(١)

تُعَادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكْنٍ
وَتُبْغِضُنَا لِأَنَّا غَيْرُ عُورِ(٢)

فَلَوْ كُنْتَ امْرأً يُهْجَى هَجَوْنَا
وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ(٣)

ما المجد إلا السيف والفتكة البكر

يمدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي:

[الطويل]

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَحِيداً وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ(٤)

= ما هو ذو قيمة ونفاسة لجاد به طواعية دون أدنى تردّد لمن كان ذا حظ عاثر؛ هذا في حال وجوده مقارنة بحالته، ولقد اكتشف الشاعر أنه حُسِد على حياته الخالية من أسباب التوفيق والنجاح، إنها حياة اختفت فيها معالم الفرح والسرور، فبدت محزنة خاوية من حسن التوفيق.

(١) و(٢) يصبّ الشاعر غضبه على ابن كروّس الذي فقد إحدى عينيه، وكان أعور، لذا فهو يُعيّره بأنه نصف أعمى احتقاراً ينمّ عن حقد دفين، والعور ليس بيد الإنسان، فيسأله بماذا تفتخر وأنت ما أنت عليه؟ ولقد تبادل العداء مع ابن كروّس لأنهما على طرفي نقيض، فالعدوّ ألكن لا يُحسن نطقاً فضلاً عن أنه نصف أعمى، بينما يتمتّع الشاعر بالفصاحة والبلاغة وسلامة النظر.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٦. يُخاطب الشاعر مهجوّه أنه لا يستحقّ الهجاء لخساسته، ففي هجائه علو شأنه، وهذا ما يرفع من قدره، والشاعر لا يرغب في الانحطاط إلى مستواه ترفعاً وأنفة.

(٤) إنه صراع بين قوّتين لا تتكافآن، الإنسان في وحدته وضعفه والدهر بخيله وجبروته وفرسانه، أما سلاح الشاعر فهو الصبر، والصبر عتاد سلاحه الاستمرار والمداومة بجدّ ليتمّ للمرء النصر في آخر الأمر إن أراد ذلك.

وَأَشْـجَـعُ مِـنِّـي كُـلَّ يَـوْم سَـلَامَـتـي
وَمَـا ثَـبَـتَـتْ إِلَّا وَفـي نَـفْـسِـهَـا أَمْـرُ[١]
تَـمَـرَّسْـتُ بـالآفَـاتِ حَـتَّـى تَـرَكْـتُـهَـا
تَـقُـولُ أَمَـاتَ الـمَـوْتُ أَمْ ذُعِـرَ الـذُّعْـرُ[٢]
وَأَقْـدَمْـتُ إِقْـدَامَ الأَتِـيِّ كَـأَنَّ لِـي
سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وِتْرُ[٣]
ذَرِ الـنَّـفْـسَ تَـأْخُـذْ وُسْـعَـهَـا قَـبْـلَ بَـيْـنِـهَـا
فَـمُـفْـتَـرِقٌ جَـارَانِ دَارُهُـمَـا الْـعُـمْـرُ[٤]
وَلَا تَـحْـسَـبَـنَّ الـمَـجْـدَ زِقًّـا وَقَـيْـنَـةً
فَمَا المَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ[٥]

---

(١) الشاعر شجاع وما يساعد على ذلك سلامته من الضعف والتخاذل، فقد أمدته الحياة بزعم مؤدّاه أنها أشجع منه، وما ثباتها في ذاتها إلّا لأمر جلل تودّ تحقيقه على يدي الشاعر.

(٢) تمرّست: احتككت. الآفات، الواحدة آفة: الأمراض والعاهات. ذعر: خاف. يفخر الشاعر بأنه عانى الأحداث الجسام في الأسفار البعيدة وقطع المفازات وشارك في الحروب، ممّا جعل الآفات تنطق بلسان الحدثان مندهشة من أنه لا يزال يُناضل على قيد الحياة لم يُصب بأذى، فهل مات الموت أم ارتعب الخوف، فاجتنبا منازلة الشاعر؟

(٣) الأتيّ: السيل الجارف. الوتر: الثأر. إنها شجاعة المغامر من لا يهاب الموت، فإقدامه عاصف جارف لا يحول دونه شيء، وفي زحمة هذا النضال نسي روحه التي بها يحيا حتى كأنه يثأر منها أو كأن له روحاً أخرى يُحارب بها ومن أجلها.

(٤) ذر: دع، اترك. وتروى «دع» بدلاً من «ذر». الوسع: القدرة. يطلب الشاعر من البشر أن يُبيحوا لأنفسهم التمتّع بلذائذ الحياة، كالحبّ، والمال والسلطة، والمجد قدر استطاعتهم وبلا خوف، فالعمر واحد على هذه الأرض، فحين ينتهي بالإنسان العمر فيكون الجسد خامداً وقد فارقته الحياة، ولكن بلا شكّ يكون وفّى الحياة حقها منه وبه.

(٥) الزقّ: وعاء الخمرة. القينة: الجارية المغنّية. الفتكة: البطشة. البكر: ما لم يُسبق نظير له. يحدّد الشاعر معنى المجد بمفهومه الخاص؛ إنه لا يمتّ إلى تعاطي كؤوس الخمرة والاستماع إلى الغناء المطرب بصوت عذب ساحر يحرّك المشاعر ويُثير الأحاسيس بل إنه يتعلّق بالشجاعة والبطولة حيث الفتك بالأعداء وتحطيم سدود الصغار في النفوس.

وَتَضْرِيبُ أعْنَاقِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى
لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ[١]
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا
تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ[٢]
إذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ
عَلَى هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِي مَنْ لَهُ الشُّكْرُ[٣]
وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ
مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ[٤]
عَلَيَّ لأَهْلِ الْجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ
عَلَيْهَا غُلَامٌ مِلءُ حَيْزُومِهِ غِمْرُ[٥]
يُدِيرُ بأَطْرَافِ الرِّمَاحِ عَلَيْهِم
كُؤُوسَ الْمَنَايَا حَيْثُ لا تُشْتَهَى الخمْرُ[٦]

---

(١) و(٢) الهبوات، الواحدة، هبوة: الغبار المتصاعد العظيم. المجر: الجيش العظيم العرمرم. ومن مستلزمات المجد ضرب أعناق الملوك، وموقف الشاعر من الملوك متناقض؛ فهو تارة يرغب بأحوالهم فيمدحهم وطوراً يودّ القضاء عليهم، وهذا مردّه إلى كره دفين وحسد يختزنهما الشاعر في داخله، فضلاً عن قرمطيّته المعمّدة بالدم. ومن متممات المجد الجيوش الجرّارة تأتمر بأمره ويدفع بها لتكيد أعداءه، وهذا ما يُثير ضجيجاً مدوّياً في أرجاء الكون وطوال الزمن حتى يصل ذلك إلى كلّ الآذان ممّا يصمّ الآذان، فيجعل المرء أصابعه في آذانه لشدّة ما يسمع منه.

(٣) المال من الفضائل التي تحول بين المرء والاستجداء، فمن كان عزيز النفس فقد وفّر عنها الشكر لمن لا يستحقّ الشكر؛ لذا فعلى المرء أن يربأ بنفسه وأدبه أن يسف بهما في مجتمع تسود فيه الأميّة والأنانية والتزلّف.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٧. المال قوّة لا شكّ في ذلك، ولكن من الخطأ أن يندفع المرء في تحصيله طوال عمره ليتركه إلى من لا يُحسن استغلاله، بل إنه يعمل على تبذيره، وهو لم يتعب بجمعه، فمن يحسب أن جمع المال بكثرة يوفّر عليه الإحساس بالفقر، الحقيقة أنه الفقر بعينه.

(٥) و(٦) الجَوْر: الظلم. الطِّمْرة من الأفراس: الوثابة نشاطاً وحيوية، الحيزوم: الصدر. =

وَكَـمْ مِـنْ جِبَـالٍ جُبْـتُ تَـشْـهَـدُ أَنَّـنِـي الْـ
ـجِـبَـالُ وَبَـحْـرٍ شَـاهِـدٍ أَنَّـنِـي الْـبَـحْـرُ[1]

وَخَـرْقٍ مَـكَـانُ الْـعِـيـسِ مِـنْـهُ مَـكَـانُـنَـا
مِـنَ الْعِيـسِ فِيـهِ وَاسِطُ الْكُـورِ وَالـظَّـهْـرُ[2]

يَـخِـدْنَ بِـنَـا فـي جَـوْزِهِ وَكَـأَنَّـنَـا
عَـلَـى كُـرَةٍ أَوْ أَرْضُـهُ مَـعَـنَـا سَـفْـرُ[3]

وَيَـوْمٍ وَصَـلْـنَـاهُ بِـلَـيْـلٍ كَـأَنَّـمَـا
عَـلَـى أُفْـقِـهِ مِـنْ بَـرْقِـهِ حُـلَـلٌ حُـمْـرُ[4]

وَلَـيْـلٍ وَصَـلْـنَـاهُ بِـيَـوْمٍ كَـأَنَّـمَـا
عَـلَـى مَـتْـنِـهِ مِـنْ دَجْـنِـهِ حُـلَـلٌ خُـضْـرُ[5]

= الغمر: الحقد. يُعلن الشاعر استعداده على تجييش جيش عظيم لمحاربة الظلمة من الملوك الجائرين، قوامه شباب امتلأت صدورهم غيظاً وحُنقاً يمتطون أفراساً يمرقون بسرعة البرق بين صفوف الأعداء يمزقونها شذر مذر، وبأيديهم رماح مترعة بالغضب فتخترق أجساد الأعداء، إنها كؤوس من نوع مرعب، مخيف قد اصطبغ ما فيه بلون الموت، لا تشتهيه الأنفس، وهو خلاف الخمرة التي تهفو لها النفوس وقت اللهو والمرح.

(١) جبت: سلكت. الجبل رمز الصمود والاستمرار والوقار. لقد قطع الشاعر كثيراً من الجبال التي تشهد له بجلده وقوته على تخطّي المصاعب، والبحر يتمثّل فيه القوّة والغنى والمهابة والجلال، والبحر بدوره يشهد بأن الشاعر بحر تتمثل فيه كلّ سمات البحر من كرم وقوة وثورة وتدمير.

(٢) و (٣) الخرق: المفازة الواسعة بين جبلين. العيس: النياق البيض. واسط الكور: مقدم رحل الناقة. يُصوّر الشاعر الركب وهم وسط مفازة امتدّت أطرافها واتّسعت جنباتها، والإبل تنطلق مسرعة، ومع ذلك فإنها تبدو مسمّرة في مكانها والشاعر وصحبه على متونها كأنهم رُبطوا إلى رحالها وكأنهم يمتطون كرة تسير بسيرهم وتُسافر بسفرهم، لذا فهم لا يزالون في وسط تلك المتاهة.

(٤) إنها رحلة طويلة بعيدة المدى ممّا جعل القوم يصلون ليلهم بنهارهم وهم مجدّون السير، ولا يزال ممسكاً بالظلمة، فلا هو يتخلّى عنها ولا الفجر يلوح في الأفق.

(٥) المتن: الظهر: الدجنة. العتمة. الحلل: الأثواب. أخيراً حلّ النهار، إنه ليس بأفضل =

وَغَـيْـثٍ ظَـنَـنَّـا تَـحْـتَـهُ أَنَّ عَـامِـراً
عَـلَا لَـمْ يَـمُـتْ أَوْ فِـي الـسَّـحَـابِ لَـهُ قَـبْـرُ(١)

أَوِ ٱبْـنَ ابْـنِـهِ الْـبَـاقِـي عَـلِـيَّ بْـنَ أَحْـمَـدٍ
يَـجُـودُ بِـهِ لَـوْ لَـمْ أَجُـزْ وَيَـدِي صِـفْـرُ(٢)

وَإِنَّ سَـحَـابـاً جَـوْدَهُ مِـثْـلُ جُـودِهِ
سَـحَـابٌ عَـلَـى كـلِّ الـسَّـحَـابِ لَـهُ فَـخْـرُ(٣)

فَـتًـى لَا يَـضُـمُّ الْـقَـلْـبُ هِـمَّـاتِ قَـلْـبِـهِ
وَلَـوْ ضَـمَّـهَـا قَـلْـبٌ لَـمَـا ضَـمَّـهُ صَـدْرُ(٤)

وَلَا يَـنْـفَـعُ الإمـكَـانُ لَـوْلَا سَـخَـاؤُهُ
وَهَـلْ نَـافِـعٌ لَـوْلَا الأكُـفُّ الْـقَـنَـا الـسُّـمْـرُ(٥)

= من الليل، فقد ظلّلت سماءه سحابة سوداء فيُوحي ذلك بحزن عميق تعاني منه الطبيعة.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٣. الغيث: المطر. يتخلّص الشاعر إلى مدح ممدوحه بادئاً بجدّه عامر، المطر ينهمر بغزارة لذا راودته فكرة مفادها أن جدّ الشاعر المتوفى قد ارتفع إلى السماء ولم يمت، وها هو ذا يُمطر سحاباً يدلّ على كرمه، ممّا يُوحي بأنه لا يزال حيًّا.

(٢) و (٣) ويُردف الشاعر كلامه أنه يظنّ أن الغيث مبعثه حفيد عامر وهو علي بن أحمد، وحالما عبر مجال السحب ولا تزال يده فارغة تأكّد له أنه المطر حقيقة وهو الجَوْد، بفتح الجيم، ذلك أن من عادة ممدوحه أن يُجزل العطاء لمادحيه. ولهذا فكرم الممدوح يزيد فضلاً وفخراً على كلّ فخر.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه بأنه فتًى، والفتوّة العربية تعني كمال الرجولة شجاعة وأصالة رأي وكرماً وفداءً وحلماً وعلماً، وقلب الممدوح ليس كسائر القلوب، إنه يضطلع بأمور عظام لا تستوعبها سائر القلوب، وذلك لعدم قدرتها على استيعاب مدلولاتها والعمل بما تستوجب تلك المدلولات.

(٥) يقصد الشاعر بالإمكان الغنى واليسار. القنا: الرماح. يقول الشاعر لا قيمة للغنى إذا لم يُتبعه الكرم والجود، فالبخل مرض يُجمّد الحياة ويُفقد الغنى معناه الماديّ والمعنوي تماماً كالرماح فإنها لا تقتل إلّا بأيدٍ قويّة، ولهذا صُنعت وإلّا فلا قيمة لها إن لم تستعمل.

قِـرَانٌ تَـلَاقَـى الـصَّـلْـتُ فِـيـهِ وَعَـامِـرٌ
كَـمَـا يَـتَـلَاقَـى الْـهِـنْـدُوَانِـيُّ وَالـنَّـصْـرُ[١]
فَـجَـاءا بِـهِ صَـلْـتَ ٱلْـجَـبِـيـنِ مُـعَـظَّـمـاً
تَـرَى الـنَّـاسَ قُـلّاً حَـوْلَـهُ وَهُـمُ كُـثْـرُ[٢]
مُـفَـدًّى بِـآبَـاءِ الـرِّجَـالِ سَـمَـيْـذَعـاً
هُـوَ الْـكَـرَمُ الـمَـدُّ الّـذِي مَـا لَـهُ جَـزْرُ[٣]
وَمَـا زِلْـتُ حَـتَّـى قـادَنِـي الـشَّـوْقُ نَـحْـوَهُ
يُـسَـايِـرُنِـي فِـي كُـلِّ رَكْـبٍ لَـهُ ذِكْـرُ[٤]
وَأَسْـتَـكْـبِـرُ الأَخْـبَـارَ قَـبْـلَ لِـقَـائِـهِ
فَـلَـمَّـا الْـتَـقَـيْـنَـا صَـغَّـرَ الْـخَـبَـرَ الْـخُـبْـرُ[٥]

---

(١) و(٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٣. القران: تلاقي كوكبين واجتماعهما. الصلت جدّ الممدوح لأمه، وعامر جدّه لأبيه. عامل الوراثة في البشر لا يُنكر، فقد التقى في دماء وأخلاق الممدوح جدّان له من قبل أبيه وأمه، فكان قِران كوكبين ماجدين تماماً كقران النصر المبين بالسيف الهندي البتّار، لذا فقد كان الممدوح نتاج لقاء وتزاوج عنصرين عظيمين، إنه جميل الطلعة وضّاح الجبين، فإذا ما توسّط الجموع بدا دُرّة، رغم كثرة جموعهم، مشعّة عليهم جميعاً فبدوا قليلين مقابل كثرته رغم أنه واحد.

(٣) السميذع: السيد النبيل. المدّ: زيادة الماء. الجزر: نقصان الماء. ومن مزايا الممدوح أن رعيّته تفديه بآبائهم، لأنه ماجد الآباء كريم النسب. كريم يفيض عطاؤه بلا حدود ذو مدّ لجب لا جزر له.

(٤) و(٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٣. يُساير: يُرافق في المسير والحديث. يصف الشاعر حاله مع ممدوحه، لقد رحل إليه، وطوال الرحلة تتناثر الأخبار حول ممدوحه حتى تمنّى المثول بين يديه، فالكلّ يُطنب بمدحه والإشادة بذكره والشاعر لا تصدّق أذناه ما يسمع حتى كان اللقاء فإذا به يستصغر ما سمعه لقاء ما رآه من ممدوحه.

إِلَـيْـكَ طَـعَـنَّـا فـي مَـدَى كُـلِّ صَـفْـصَـفٍ
بِــكُــلِّ وَآةٍ كُــلُّ مَــا لَــقِــيَــتْ نَــحْــرُ[(١)]

إِذَا وَرِمَــتْ مِــنْ لَـسْـعَـةٍ مَـرِحَـتْ لَـهَـا
كَـأَنَّ نَـوَالاً صَـرَّ فِـي جِـلْـدِهَـا الـنِّـبْـرُ[(٢)]

فَـجِـئْـنَـاكَ دُونَ الـشَّـمْـسِ وَالْـبَـدْرِ فِي الـنَّـوَى
وَدُونَـكَ فـي أَحْـوَالِـكَ الـشَّـمْـسُ وَالْـبَـدْرُ[(٣)]

كَــأَنَّــكَ بَــرْدُ الــمَــاءِ لَا عَــيْــشَ دُونَــهُ
وَلَـوْ كُـنْـتَ بَـرْدَ الـمَـاءِ لَـمْ يَـكُـنِ الْـعِـشْـرُ[(٤)]

دَعَـانِـي إِلَـيْـكَ الْـعِـلْـمُ وَالْـحِـلْـمُ وَالْـحِـجَـى
وَهٰـذَا الْـكَـلَامُ الـنَّـظْـمُ وَالـنَّـائِـلُ الـنَّـثْـرُ[(٥)]

---

(١) و (٢) يصف الشاعر مسيره إلى الممدوح ها هو ذا يمتطي وآة ناقة قويّة على السير، وقد جدّ السير وتوغّل في فلاة مستوية الأطراف، وناقته لا تبالي بما تواجهه من أخطار تتلقّاها بنحرها بعناد رغم مشاق الطريق ووعورتها، فثمّة نبر لسعها ممّا جعل اللسعة ترم، فإذا بها يشتدّ سيرها ويبدو مكان اللسعة كأنه صرة دنانير مكافأة لها على ذلك.

(٣) النوى: البعد. يُخاطب الشاعر ممدوحه، لقد وصل أخيراً ومثل بين يديه، وهو أقرب إلى الشاعر من الشمس والقمر، وهما أقلّ منه كرماً، فكرمه أشمل نفعاً وأقرب منالاً لبعدهما، ونفعهما محدود بالنسبة للشاعر.

(٤) الماء سرّ الحياة، فلا يستغني عنه كائن حيّ، لذلك يُشبه الشاعر ممدوحه بالماء البارد في يوم حارّ، فتكون قيمته أكثر فائدة، ولهذا فلو كان كذلك عطّشت النياق أياماً عشرة، وللازمت الممدوح تنعم برفده وكرمه.

(٥) الحجى: العقل. ويخاطب الشاعر ممدوحه بأنه قصد المثول بين يديه بمزاياه، قوامها علم نافع وحلم واسع قادر وعقل راجح يزن الأمور بميزان المنطق وكذلك ما نظمه الشاعر في التغني بمزايا الممدوح إضافة إلى كرمه الفياض الذي يُغدقه على مادحيه وقاصدي كرمه.

وَمَـا قُـلْـتُ مِـنْ شِـعْـرٍ تَـكَـادُ بُـيُـوتُـهُ
إذَا كُـتِـبَـتْ يَـبْـيَـضُّ مِـنْ نُـورِهَـا الْـحِـبْـرُ[١]
كَـأَنَّ الـمَـعَـانِـي فـي فَـصَـاحَـةِ لَـفْـظِـهَـا
نُـجُـومُ الـثـرَيَّـا أَوْ خَـلَائِـقُـكَ الـزُّهْـرُ[٢]
وَجَـنَّـبَـنِـي قُـرْبَ الـسَّـلَاطِـيـنِ مَـقْـتُـهَـا
وَمَا يَـقْـتَـضِـينِـي مِـنْ جَـمَـاجِـمِـهَـا النَّـسْـرُ[٣]
وإنِّـي رَأَيْـتُ الـضُّـرَّ أَحْـسَـنَ مَـنْـظَـراً
وَأَهْـوَنَ مِـنْ مَـرْأَى صَـغِـيـرٍ بِـهِ كِـبْـرُ[٤]
لِـسَـانِـي وَعَـيْـنِـي وَالْـفُـؤَادُ وَهِـمَّـتِـي
أَوُدُّ الـلَّـوَاتِـي ذَا اسْـمُـهَـا مِـنْـكَ والـشَّـطْـرُ[٥]

---

(١) و (٢) يزاوج الشاعر بين فخره بشعره وبين طيب أخلاق الممدوح. يمدح الشاعر شعره بأنه حسن الديباجة ذات معانٍ لإشراقها يتحوّل فيها الحبر إلى ضياء يشعّ نوراً، لفصاحتها ووضوح معانيها، فتبدو نجوماً متلألئة في عالم الشعر، وقد استلهمت معانيها من أخلاق الممدوح الزاهرة المشرقة ضياءً وشهرة كشهرته بين أبناء بلده وعصره.

(٣) المقت: الاشمئزاز والكراهية. يقتضيني: يُطالبني. ومن رعونة الشاعر أنه يُجاهر بكراهيته ومقته للسلاطين والملوك؛ فهو يودّ لو يتخلّص منهم بالقضاء عليهم وقتلهم، وثمّة علاقة ودّ بين النسور القمامة والشاعر أنه يقدّم لها أجساد أولئك السلاطين طعاماً، وهو يفيها حاجتها من جماجمهم. والغريب أنه يُخاطب أحد السلاطين!!

(٤) ينوّه الشاعر بأنفته وعدم استجداء صغار النفوس من السلاطين المتكبّرين، مفضّلاً سوء حاله وفقره على الدنوّ منهم ومدحهم.

(٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦. يُعدّد الشاعر جوارحه، فلسانه يتمثل حسن المنطق وقول الشعر في محاسن الممدوح، ونظره التمتّع بمحاسن الممدوح والتلذّذ بقربه، وفؤاده مكمن مشاعره وحبه تُجيّره لرضى الممدوح، وهمّتُه قدرته على مواجهة الأخطار والحروب إلى جانب الممدوح، والشاعر يتمنّى على ممدوحه أن يُبادله ويُشاطره أحاسيسه وودّه مخلصاً له كما أن الشاعر يُشاركه أحاسيس جوارحه.

وَمَـا أَنَـا وَحْـدِي قُـلْـتُ ذَا الـشِّـعْـرَ كُـلَّـهُ
وَلَـكِـنْ لِـشِـعْـرِي فِـيكَ مِـنْ نَـفْـسِـهِ شِـعْـرُ(١)

وَمَـاذا الَّـذِي فِـيـهِ مِـنَ الْـحُـسْـنِ رَوْنَـقـاً
وَلَـكِـنْ بَـدَا فـي وَجْـهِـهِ نَـحْـوَكَ الْـبِـشْـرُ(٢)

وَإِنِّـي وَإِنْ نِـلْـتَ الـسَّـمَـاءَ لَـعَـالِـمٌ
بِـأَنَّـكَ مَـا نِـلْـتَ الَّـذِي يُـوجِـبُ الْـقَـدْرُ(٣)

أَزَالَـتْ بِـكَ الأَيَّـامُ عَـتْـبِـي كَـأَنَّـمَـا
بَـنُـوهَـا لَـهَـا ذَنْـبٌ وَأَنْـتَ لَـهَـا عُـذْرُ(٤)

دهري في ذراه دهور

يمدح أبا محمد الحسين بن عبد اللّه بن طغج :

[الطويل]

وَوَقْـتٍ وَفَـى بِـالـدَّهْـرِ لِـي عِـنْـدَ سَـيِّـدٍ
وَفَـى لِـي بِـأَهْـلِـيـهِ وَزَادَ كَـثِـيـرا(٥)

شَـرِبْـتُ عَـلَـى اسْـتِـحْـسَـانِ ضَـوْءِ جَـبِـيـنِـهِ
وَزَهْـرٍ تَـرَى لِـلْـمَـاءِ فِـيـهِ خَـرِيـرَا(٦)

---

(١) ورد البيت في : شرح شواهد الشافية ، للبغدادي : ١١٩ . يُقرّ الشاعر أن ما قاله في مدح ممدوحه مبعثه الشعر الذي سال به قلمه دون إعمال فكر ، فتواردت الأفكار تباعاً وانسالت راغبة في التغنّي بمحاسن الممدوح ومدحه .

(٢) رونق كل شيء : نضرته وجماله . البشر : التفاؤل لدى لقاء وجه جميل . يمدح الشاعر شعره وما فيه من جمال العبارة وفصاحتها ، فضلاً عن معانيه المستفادة من جمال طلعة الممدوح التي تُوحي بالتفاؤل والبشر ، وكل ذلك انعكس إيجاباً فيه فبدا يُجسّد صفات الممدوح .

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه مستقِلّاً ما حقّقه من نجاح وعلوّ مكانة لهو دون ما يستحقّه من مجد لبعد همّته وعظم شأنه رغم أنه أدرك أسمى مراقي المجد .

(٤) ورد البيت في : الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٣٣ ، ودلائل الإعجاز ، للجرجاني : ٣٤٩ . العتب : اللوم . يُنهي الشاعر قصيدته مُنوّهاً بأن الأيّام أصلحت علاقتها معه بعدما أفسد البشر علاقته بها ، فإذا بها تُتيح له لقاء الممدوح الذي أنساه ما آساه من ظلم أهل دهره فكأن الذنب قد انمحى بلقاء الممدوح الذي أحسن إليه ممّا أنساه سيئات معاصريه .

(٥) و (٦) يروى «عند واحد» بدلاً من «عند سيد» . ينوّه الشاعر بفضل ممدوحه ، فقد أزال =

غَـدَا الـنَّـاسُ مِـثْـلَـيْـهِـمْ بِـهِ لَا عَـدِمْـتُـهُ
وَأَصْـبَـحَ دهْـرِي فـي ذَرَاهُ دُهُـورَا(١)

داوِ خماري بالخمرة

قال وقد كره الشرب وكثر البخور وارتفعت رائحة الند بمجلسه :

[المتقارب]

أَنَـشْـرُ الْـكِـبَـاءِ ووجْـهُ الأمِـيـرِ
وَحُـسْـنُ الْـغِـنَـاءِ وَصَـافِـي الْـخُـمُـورِ(٢)
فَـدَاوِ خُـمَـارِي بِـشُـرْبِـي لَـهَـا
فَـإِنِّـي سَـكِـرْتُ بِـشُـرْبِ الـسُّـرُورِ(٣)

= عنه معاناة الزمن لذا فما أمضاه من زمن إلى جانبه قد وفى ما كان من بخس وإهمال وحيف نزل به بل إنه زاد بفضله وتكريمه للشاعر. وقد ارتوى لكثرة ما ناله من إحسانه وتملّى من جمال النظر إليه، فجبينه وضّاء، يبهر نوره الزاهر، حتى كأنه يسمع خرير نهر جارٍ بهدوء يدغدغ مسمعه.

(١) يدعو الشاعر لممدوحه بطول العمر والبقاء الدائم وأن يدوم الشاعر بكنفه ينعم بظله الخيّر العميم لأنه يعادل الناس جميعاً في كرمه وحسن ضيافته بل يزيد عليهم، حتى لقد أصبح دهر الشاعر دهوراً كثيرة لما أحسّ به من الأمن والأمان إلى جانب الممدوح.

(٢) النشر: عبق الطيب. الكِباء، بكسر الباء: عود البخور. يصف الشاعر جوًّا اجتمعت فيه المسرّات، فالبخور تضوّعت رائحته، وفاح عطره، والأمير بحسن وجهه وكرم مجلسه وحلو حديثه، ومغنية تشدو بأعذب الألحان بصوت يذوب لعذوبته فيخترق القلوب والآذان، وخمرة صافية تُثير في النفوس نشوة وإقبالاً على انتهاز المسرّات.

(٣) الخمار: صداع الخمر. يطلب الشاعر دواءً يُخلّصه من دوار أثر الخمرة في نفسه ورأسه بالاستزادة من شرب الخمرة، فقد سكر من اجتماع تلك المسرّات دفعة واحدة، فبلغ به السرور أقصى مداه.

لا تلومنّ اليهودي

وحدث أبو محمد أن أباه استخفى مرة فعرفه رجل يهودي فقال أبو الطيب: [الرمل]

لَا تَــلُــومَــنَّ الْــيَــهُــودِيَّ عَــلَــى
أَنْ يَــرَى الــشَّــمْــسَ فَــلَا يُــنْــكِــرُهَــا[1]
إِنَّــمَــا الــلَّــوْمُ عَــلَــى حَــاسِــبِــهَــا
ظُــلْــمَــةً مِــنْ بَــعْــدِ مَــا يُــبْــصِــرُهَــا[2]

أحفظ المديح بعيني

وسئل عما ارتجله فيه من الشعر فأعاده فتعجب قوم من حفظه إياه فقال: [الخفيف]

إِنَّــمَــا أَحْــفَــظُ الــمَــدِيــحَ بِــعَــيْــنِــي
لا بِــقَــلْــبِــي لِــمَــا أَرَى فِــي الأَمِــيــرِ
مِــنْ خِــصَــالٍ إِذَا نَــظَــرْتُ إِلَــيْــهَــا
نَــظَــمَــتْ لِــي غَــرَائِــبَ الــمَــنْــثُــورِ[3]

قليل لك المديح الكثير

وعاتبه أبو محمد على تركه مديحه فقال: [الخفيف]

تَــرْكُ مَــدْحِــيــكَ كَــالــهِــجَــاءِ لِــنَــفْــسِــي
وَقَــلِــيــلٌ لَــكَ الــمَــدِيــحُ الْــكَــثِــيــرُ[4]
غَــيْــرَ أَنِّــي تَــرَكْــتُ مُــقْــتَــضَــبَ الــشِّــعْــرِ
لِأَمْــرٍ مِــثْــلِــي بِــهِ مَــعْــذُورُ[5]

---

(١) و (٢) يروي الشاعر عن أبي محمد أن يهوديًا قد عرف مكان والده فعرف أنه مشهور كما تعرف الشمس بضيائها، وعلى ذلك لا يُنكر معرفته إلّا من أنكر على الشمس ضياءها، وظنّ أنها مظلمة، ممّا يدلّ على عماه أو جهله فلا يُميز بين الظلمة والنور.

(٣) الخصال: الصفات الحميدة. لقد أوحى الممدوح للشاعر من جميل القول فيه أنه ينظر إليه ليستلهم معانيه من صفاته الحميدة لا ما يحفظه من مقولة الشعر المدحي التكسبيّ عند العرب، لذا فقد نظم فيه من الغرائب المعجزة.

(٤) و (٥) يقصد الشاعر بالمقتضب من الشعر ما كان على البديهة. يقدم الشاعر اعتذاره =

وَسَجَايَاكَ مَادِحَاتُكَ لَا لَفْـ
ـظِي وَجُودٌ عَلَى كَلَامِي يُغِيرُ(١)
فَسَقَى ٱللَّهُ مَنْ أُحِبُّ بِكَفَّيْـ
ـكَ وَأَسْقَاكَ أَيُّهَذَا الأَمِيرُ(٢)

للّه قلبك

يمدح سيف الدولة وقد سأله المسير معه لما سار لنصرة أخيه ناصر الدولة:

[الكامل]

سِرْ حَلَّ حَيْثُ تَحُلُّهُ النُّوَّارُ
وأَرادَ فِيكَ مُرَادَكَ المِقْدَارُ(٣)
وَإِذَا ٱرْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلَامَةٌ
حَيْثُ ٱتَّجَهْتَ وَدِيمَةٌ مِدْرَارُ(٤)

= عن انقطاعه عن مدح الأمير، إنه بالنسبة إليه كالهجاء لنفسه وذكر مناقصها، والمديح مهما كان كثيراً فإنه بالنسبة لما يمتاز به الأمير قليل في حقّه، والسبب في قوله الشعر بالممدوح أن الأمر معلوم لدى الممدوح، لذا فالعذر بيّن لديه واضح.

(١) السجايا: المزايا والصفات. الجود: الكرم. يستلهم الشاعر من فضائل الممدوح ومزاياه الحميدة مدائحه، لذا فالممدوح يمدح نفسه بما فيه، ثم إن جوده متعدّد الجوانب كثير المناحي ممّا يسمح للشاعر الإغارة عليها والإشادة بها.

(٢) يدعو الشاعر بالسقيا لمن أحبّهم من فضل عطاء الممدوح، وكذلك يدعو له بالغيث العميم ليقدر على استجابة المحتاجين لفيض كرمه ودوامه.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧، ١٥٩. النوار: ضرب من الزهر، أبيض الأوراق ورأسه أصفر. حلّ بالمكان: نزل فيه. المقدار: القضاء والقدر. يُخاطب الشاعر سيف الدولة متمنياً له سفراً ميموناً موفّقاً بقضاء اللّه تعالى، وحيثما سار حلّ الخير ونبت الربيع بزهره الجميل وارتدت الأرض زخرفها وازدانت بألوان الجمال الإلهيّ.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. الديمة: المطر الدائم لساعات دون رعد أو برق. المدرار: المنهمر. شيّعتك: صاحبتك. ويُردف الشاعر دعاءه متمنياً للأمير السلامة حيثما ارتحل وحلّ بمصاحبة ديمة هاطلة تنشر الخير العميم، وتبشر بمقدمه ليعلم الناس بمن نزل في ديارهم.

وَأَرَاكَ دَهْـرُكَ مَـا تُـحَـاوِلُ فِـي ٱلْـعِـدَى
حَـتَّـى كَـأَنَّ صُـرُوفَـهُ أَنْـصَـارُ[١]
وَصَـدَرْتَ أَغْـنَـمَ صَـادِرٍ عَـنْ مَـوْرِدٍ
مَـرْفُـوعَـةً لِـقُـدُومِـكَ الأَبْـصَـارُ[٢]
أَنْـتَ الَّـذِي بَـجِـحَ الـزَّمَـانُ بِـذِكْـرِهِ
وَتَـزَيَّـنَـتْ بِـحَـدِيـثِـهِ ٱلأَسْـمَـارُ[٣]
وَإِذَا تَـنَـكَّـرَ فَـالْـفَـنَـاءُ عِـقَـابُـهُ
وَإِذَا عَـفَـا فَـعَـطَـاؤُهُ الأَعْـمَـارُ[٤]
وَلَـهُ وَإِنْ وَهَـبَ الـمُـلُـوكُ مَـوَاهِـبٌ
دَرُّ الـمُـلُـوكِ لِـدَرِّهَـا أَغْـبَـارُ[٥]

---

(١) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. يروى «الفِدى» بدلاً من «العدى». صروف الدهر: مصائبه ونوائبه. ويُردف الشاعر دعاءه متمنياً للأمير أن يكون الدهر إلى جانبه محالفاً إيَّاه وناصراً له على أعدائه، وبدل أن تكون المصائب عليه تنصبّ ببلواها، فلتكن من أسباب نصره وهزيمة أعدائه.

(٢) صدر: رجع، عاد. الورد: موضع الماء حيث يرده الواردون. ويردف الشاعر دعاءه متمنياً للأمير عوداً ميموناً مظفّراً من حيث ورد وقد تعلّقت أبصار مواطنيه، وملأ العيون الفرح بعودته سالماً منتصراً.

(٣) بجح: فرح. الأسمار: أحاديث الليل. يُخاطب الشاعر الأمير أنه مصدر فرحة الزمان بأحد أبنائه لنبوغه وشجاعته وبطولته وكرمه، لذا كان فاكهة الأسمار يُزينون بها أحاديثهم في سهراتهم، فيتحدّثون معجبين بشخص الأمير وبطولاته.

(٤) ومن صفات الممدوح العطاء في كل حال؛ فإذا غضب على قوم استأصل شأفتهم وأفناهم عن بكرة أبيهم، وإذا عفا عنهم فقد وهبهم حياة جديدة يعيشون بفضل حلمه وكريم عفوه.

(٥) الدرّ: اللبن. الأغبار، الواحد غُبر، بضم الغين: بقية اللبن في ضرع الناقة. يُقارن الشاعر بين ندى الملوك وكرم الممدوح؛ فكرمه لا يُساويه كرمهم، إنه يفيض عطاءً وكرماً فيفضل على من سواه منهم.

لِـلَّـهِ قَـلْـبُـكَ مَـا يَـخَـافُ مِـنَ الـرَّدَى،
وَيَـخَـافُ أَنْ يَـدْنُـوَ إِلَـيْـكَ الـعَـارُ[١]
وَتَـحِـيـدُ عَـنْ طَـبْـعِ الْـخَـلائِـقِ كُـلِّـهِ،
وَيَـحِـيـدُ عَـنْـكَ الْـجَـحْـفَـلُ ٱلْـجَـرَّارُ[٢]
يَـا مَـنْ يَـعِـزُّ عَـلَـى الأَعِـزَّةِ جَـارُهُ،
وَيَـذِلُّ مِـنْ سَـطَـوَاتِـهِ الْـجَـبَّـارُ[٣]
كُـنْ حَـيْـثُ شِـئْـتَ فَـمَـا تَـحُـولُ تَـنُـوفَـةٌ
دُونَ ٱلـلِّـقَـاءِ وَلَا يَـشِـطُّ مَـزَارُ[٤]
وَبِـدُونِ مَـا أَنَـا مِـنْ وِدَادِكَ مُـضْـمِـرٌ
يُـنْـضَـى الـمَـطِـيُّ وَيَـقْـرُبُ الـمُـسْـتَـارُ[٥]

---

(١) الردى : الموت ، يدنو : يقرب . يعجب الشاعر كيف أن ممدوحه لا يهاب الموت ، فالموت مقدّر بظروفه وأوقاته ، ومن هنا عفو اللّه تعالى وقضاؤه يحميانه من الرزايا ، ومن صفاته الحميدة أنه يخاف من العار فلا يقرب موجباته مهما تكن ، لذا لا يجلب لنفسه عاراً .

(٢) تحيد : تميل . يقصد بالطبع السيّئ من طبائع البشر . الخلائق : الأخلاق . الجحفل : الجيش اللجب العظيم . يُخاطب الشاعر مشيداً بأخلاقه العظيمة وسلوكه ؛ إنه يتجنّب الوقوع في مفاسد الأخلاق دون استثناء ، وفي المقابل فإن أعداءه مهما كثروا لا يجرؤون على مهاجمته ، بل إنهم يتجنبون محاربته لمعرفتهم المسبقة بأنهم لن ينتصروا عليه مهما كثرت جحافلهم .

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن جاره يستمدّ من عزّته عزًّا فيقوى بها ويتطاول على غيره من القوي الجانب ، وفي المقابل فإن الجبار مهما بلغت به القوّة يُحسّ بالذلّ فلا يجرؤ على مواجهته وحربه ، فيقبع في هوان ذلّه .

(٤) تحول : تمنع . التنوفة : الفلاة الموحشة المتّسعة . يشطّ : يبعد . إن ثقة الشاعر بقدرة ممدوحه على مواجهة الأخطار عظيمة ، ولهذا فإنه يُشجعه على المغامرة ، فمهما بعُد وجال في الآفاق فسوف يعود لا محالة إلى دياره منتصراً مظفراً مكلّلاً بأكاليل الغار .

(٥) بدون : بأقلّ . الوداد : الحبّ . ينضى : يهزل الراحلة . المستار : المسير . المطي : الراحلة . يعبّر الشاعر عن شدّة شوقه للقاء الأمير ؛ إنه يُضمر في قلبه حبًّا عظيماً لممدوحه ، ولن تحول بينهما المسافات مهما بعدت ومهما هزلت المطايا فإنها لا بدّ من نزولها في ديار الممدوح .

إنَّ الَّـذِي خَـلَّـفْـتُ خَـلْـفِـي ضَـائِـعٌ
مـا لِـي عَـلـى قَـلَـقِـي إلَـيْـهِ خِـيَـارُ[١]
وَإذَا صُـحِـبْـتُ فَـكُـلُّ مـاءٍ مَـشْـرَبٌ
لَـوْلَا ٱلْـعِـيَـالُ وَكُـلُّ أرْضٍ دَارُ[٢]
إذْنُ الأمـيـرِ بـأنْ أعُـودَ إلَـيْـهِـم
صِـلَـةٌ تَـسِـيـرُ بِـشُـكْـرِهَـا الأشْـعَـارُ[٣]

مخطىء من يرمي القمر

قال وقد خيره في حجرتين إحداهما دهماء والأخرى كُمَيت:

[المنسرح]

اخْـتَـرْتُ دَهْـمَـاءَ تَـيْـنِ يَـا مَـطَـرُ
وَمَـنْ لَـهُ فـي الْـفَـضَـائِـلِ الْـخِـيَـرُ[٤]
وَرُبَّـمَـا فَـالَـتِ الْـعُـيُـونُ وَقَـدْ
يَـصْـدُقُ فِـيـهَـا وَيَـكْـذِبُ الـنَّـظَـرُ[٥]

---

(١) خلّفت: تركت. قلقي: شدة شوقي وحنيني. الخيار: الاختيار. يذكر الشاعر للأمير معاناة الغربة وبعده عن أهل بيته، ومع ذلك فإنه لن يترك ممدوحه ويتخلّى عنه، فقد وهبه حبّه وامتنانه لما قدّم له من عطاء فمنحه ودّه وإخلاصه لذلك.

(٢) و (٣) يطلب الشاعر الإذن بالرحيل عن الأمير معتلاً بأهله وشدّة شوقه لهم، فصحبته لممدوحه يطيب مساغها كالماء العذب لا يطيب الشرب إلّا بها ولكن مشاعره وعقله مع من خلّفهم من أهل بيته، ولولا ذلك لكانت كلّ أرض وطناً إلى جانب الأمير، ولذا فموافقة الأمير على ترك شاعره يذهب لرؤية بيته تعتبر صلة عظيمة لا تعدلها صلة مهما عظمت، وشكرها شعر يسير وينتشر بين الخلق.

(٤) تين: اسم إشارة من هاتين. الخِير: الاختيار. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مطر عميم الفائدة كريم جواد معطاء، ولقد اختار الدهماء من بين الحجرتين المعروضتين، وفي هذه الحالة لا خيار للمرء إلا ما يستحسنه ويميل إليه قلبه ويميّزه عقله.

(٥) فالت: أخطأت. يُعلّل الشاعر سبب اختياره الدهماء بأن نظره قد استحسنها وقد يكون نظره قد أخطأ أو أحسن الاختيار، وهذا لا تتأتّى معرفته إلّا بالمعايشة، فيتبيّن صدق حدسه أم كذبه.

أَنْـــتَ الَّـــذِي لَــوْ يُـــعَــابُ فِــي مَــلاءٍ
مَــا عِــيــبَ إلَّا بِــأَنَّــهُ بَــشَــرُ[١]

وَأَنَّ إعْــطَــاءَهُ الــصَّــوَارِمُ وَالْــ
ـخَــيْــلُ وَسُــمْــرُ الــرِّمَــاحِ وَالْــعَــكَــرُ[٢]

فَــاضِــحُ أعْــدَائِــهِ كَــأَنَّــهُــمُ
لَــهُ يَــقِــلُّــونَ كُــلَّــمَــا كَــثُــرُوا[٣]

أَعَــاذَكَ ٱلــلَّــهُ مِــنْ سِــهَــامِــهِــمِ،
وَمُــخْــطِــىءٌ مَــنْ رَمِــيُّــهُ الْــقَــمَــرُ[٤]

الحرُّ لا يغدر

جاءه رسول سيف الدولة مستعجلاً ومعه رقعة فيها بيتان يسأله إجازتهما فقال:
[المتقارب]

رِضَــاكَ رِضَــايَ الَّــذِي أُوثِــرُ
وَسِــرُّكَ سِــرِّي فَــمَــا أُظْــهِــرُ[٥]

كَــفَــتْــكَ الْــمُــرُوءَةُ مَــا تَــتَّــقِــي،
وَآمَــنَــكَ الْــوُدُّ مَــا تَــحْــذَرُ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. الملأ: الجماعة من البشر. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه يخلو من كلّ عيب، سوى أنه من البشر، فصفاته صفات ملائكة تسمو به فوق سائر البشر.

(٢) و (٣) العكر: الإبل التي تعد خمسمائة فما فوق ذلك. ويُردف الشاعر أنّ ما يُعاب عليه من قبل البشر أنه كريم مسرف في عطائه، وقوام ذلك سيوف بتّارة وخيل من جياد الخيول ورماح الخطيّ، فضلاً عن قطيع ضخم من الإبل. ومن هنا كان فاضحاً لأعدائه؛ فرغم كثرتهم يُعتبرون قلّة. فإنهم ليسوا سواء، فلو اجتمع سائر أعدائه على العطاء، فإنهم لن يظهروا كرماء، وبهذا فإنه يفضحهم لكرمه الذي لا يُحدّ.

(٤) يدعو الشاعر لممدوحه بحفظ اللّه تعالى له ورعايته وحمايته من سهام أعدائه على تنوّعها واختلاف أشكالها، ومن صغر عقولهم أنهم يعتقدون أنهم يُصيبون القمر السامي العالي بسهامهم، إنهم مخطئون في ما يظنون.

(٥) و (٦) أوثر: أفضل. يدعو الشاعر ممدوحه ليطمئن، فما يُرضيه يُرضي الشاعر وهو ما =

وَسِـــرُّكُـــمُ فـــي الْـــحَـــشَـــا مَـــيِّـــتٌ
إذَا أُنْـــشِـــرَ الـــسِّـــرُّ لا يُـــنْـــشَـــرُ(١)

كـــأنِّـــي عَـــصَـــتْ مُـــقْـــلَـــتِـــي فِـــيـــكُـــمُ
وَكَـــاتَـــمَـــتِ الْـــقَـــلْـــبَ مَـــا تُـــبْـــصِـــرُ(٢)

وَإفْـــشَـــاءُ مَـــا أَنَـــا مُـــسْـــتَـــوْدَعٌ
مِـــنَ الْـــغَـــدْرِ وَالْـــحُـــرُّ لَا يَـــغْـــدِرُ(٣)

إذَا مَـــا قَـــدَرْتُ عَـــلَـــى نَـــطْـــقَـــةٍ
فَـــإنِّـــي عَـــلَـــى تَـــرْكِـــهَـــا أقْـــدَرُ(٤)

أُصَـــرِّفُ نَـــفْـــسِـــي كَـــمَـــا أَشْـــتَـــهِـــي
وَأَمْـــلِـــكُـــهَـــا وَالْـــقَـــنَـــا أَحْـــمَـــرُ(٥)

= يفضّله ويختاره على ما عداه، لذا فإنه يستنكر على نفسه أن يُذيع سرّه أو ينشره على العلن، فالمروءة لدى الشاعر تمنعه من البوح بسرّ عزيز، والشاعر يفخر بمروءته، فضلاً عن أنه يُحبّ ممدوحه، وهذا كافٍ لعدم كشف أسراره، لذا يدعو الشاعر ممدوحه إلى الاطمئنان وراحة البال بأنه لن يفشي له سرًّا.

(١) الحشا: ما اضطمت عليه الضلوع. أنشر: بُعث من عالم الأموات. يُخبر الشاعر ممدوحه بأن سرّه مدفون في أحشائه ولن يطّلع عليه مخلوق حتى ولو بُعث من في القبور أحياءً يوم يُبعثون؛ وذلك مطلق مستحيل.

(٢) و (٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. المقلة: العين. ولشدّة حرص الشاعر على ألّا يُشارك جوارحه بعضها بعضاً؛ فعينه شاهدت شيئاً أخفته على قلبه فلم تُطلعه على ما رأت لحرصه الشديد على سمعة ممدوحه؛ وحفظ الأسرار أمانة، وكشف ذلك وإشاعته يُعدّ غدراً وخيانة، ومن طبيعة الأحرار إذا استودعوا أسراراً لا يُذيعون منها شيئاً، حتى ولو كان الأمر تافهاً، فكيف إذا كان يتعلّق بأمن الدولة أو سرّ الأمير ولي نعمة الشاعر؟!

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. النطقة: المرّة الواحدة من النطق. يُعلن الشاعر أن قدرته على النطق تستوجب فعلاً يتطلّب حركة وجهداً؛ بينما ترك النطق لا يحتاج إلّا إلى إرادة، وذلك أخفّ محملاً من الفعل وأسهل محافظة عليه.

(٥) القنا: الرماح. يفخر الشاعر بأنه قادر على السيطرة على نفسه، ويتحكّم بإرادته، وهو =

دَوَالَيْكَ يَا سَيْفَهَا دَوْلَةً
وَأَمْرَكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَأْمُرُ[١]

أَتَانِي رَسُولُكَ مُسْتَعْجِلاً
فَلَبَّاهُ شِعْرِي الَّذِي أَذْخَرُ[٢]

وَلَوْ كَانَ يَوْمَ وَغًى قَاتِماً
لَلَبَّاهُ سَيْفِي وَالأَشْقَرُ[٣]

فَلاَ غَفَلَ الدَّهْرُ عَنْ أَهْلِهِ
فَإِنَّكَ عَيْنٌ بِهَا يَنْظُرُ[٤]

الناس الظلام وأنت النهار

قال وقد استبطأ سيف الدولة مدحه وتنكر لذلك: [المتقارب]

أَرَى ذٰلِكَ الْقُرْبَ صَارَ ٱزْوِرَارَا
وَصَارَ طَوِيلُ السَّلَامِ ٱخْتِصَارَا[٥]

تَرَكْتَنِي الْيَوْمَ فِي خَجْلَةٍ
أَمُوتُ مِرَاراً وَأَحْيَا مِرَارَا[٦]

= في الحرب أقدر يمتلك زمام أمره ويصبر عند الملمات واشتداد المعركة. وقد اصطبغت الرماح بلون الموت، أفلا يقدر على كتمان سرّ؟!

(١) دالت الدولة: تحوّلت. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن أمور دولته آلت إليه جيلاً بعد جيل، فأمر وأمرك مطاع وبيدك الأمر والنهي، فأنت خير من يأمر وينهى.

(٢) و (٣) أذخر: أدّخر، أخبّئ. يُعلن الشاعر استعداده لتلبية أمر الأمير، ولقد جاءه رسول الأمير، فإذا به يُسارع إلى تلبية مسعاه بشعر يحتفظ به لأجل رضى الأمير ولو كان يدعوه لمرافقته في القتال للبى النداء دون تردّد وبيده سيفه وجواده الأشقر، ممَّا يعني أن الشاعر على استعداد للتضحية في سبيل رضى الآمر، مهما تكن النتائج.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. يدعو الشاعر لممدوحه بدوام العمر والعافية التامة، إنه عين الدهر الساهرة على حماية رعيّته، وهو مصدر غناها لكرمه وجوده، فكل مصير الناس بيده، فإن اللّه تعالى يحميه ليصون من أوكله رعايتهم، وفي حال موته فإنهم سيضيعون.

(٥) و (٦) الازورار: الانحراف. يُعاتب الشاعر ممدوحه أنه ما عاد يهتمّ لأمره، بل إنه مال =

أُسَـــارِقُـــكَ الــلَّــحْــظَ مُــسْــتَــحْــيِــيــاً
وَأزْجُــرُ فــي الْــخَــيْــلِ مُــهْــرِي سِــرَارَا[(١)]

وَأَعْــلَــمُ أَنِّــي إذَا مَــا ٱعْــتَــذَرْتُ
إلَــيْــكَ أرَادَ ٱعْــتِــذَارِي ٱعْــتِــذَارَا[(٢)]

كَــفَــرْتُ مَــكَــارِمَــكَ الْــبَــاهِــرَا
تِ إنْ كَــانَ ذٰلِــكَ مِــنِّــي ٱخْــتِــيَــارَا[(٣)]

وَلَــكِــنْ حَــمَــى الــشِّــعْــرَ إلَّا الْــقَــلِــيــ
ــلَ هَــمٌّ حَــمَــى الــنَّــوْمَ إلَّا غِــرَارَا[(٤)]

وَمَــا أَنَــا أَسْــقَــمْــتُ جِــسْــمِــي بِــهِ،
وَمَــا أنَــا أضْــرَمْــتُ فــي ٱلْــقَــلْــبِ نَــارَا[(٥)]

= مزورًا عنه، حتى باتت علاقتهما سطحية صوريّة، فالسلام يختصر على الشكليات دون الجوهر المعهود من قبل الممدوح، وهذا ما يزعج الشاعر ويُخجله في آن معاً لما يصدر منه ويُنكر عليه، ولقد لاحظ الناس ما هو فيه حتى بات كالميت، فهو يحيا إذا شاهد من ممدوحه أُنساً ولكن سرعان ما يتبدّد ذلك فيموت مرات عديدة تبعاً لمعاناته وعلاقة ممدوحه به.

(١) سارقه اللحظ: اختلسه خلسة. يصف الشاعر معاناته، إنه يُعاني من الحياء من ممدوحه لذلك يختلس النظر إليه دون أن يرفع عينيه ليتملّى من حسن طلعته، وهو يزجر جواده بصوت منخفض في المعركة مخافة استثارة غضب ممدوحه، وذلك أقرب إلى الإسرار منه إلى الزجر بصوت مسموع.

(٢) و (٣) يعتذر الشاعر من ممدوحه عن تأخير مدحه، والمناسبات تتوالى، والأفراح لغتها الشعر، لذلك فإن اعتذار الشاعر عن ذلك ذنب لم يقترفه، ممّا ينكر عليه كي لا يُظن به الكذب الصراح، والحقّ أن الممدوح لم يقصّر، فعطاياه تنهال على الشاعر في كلّ وقت، وهو يعترف بذلك، ولكن الأمر لا يتعلّق به بل بجفاف قدرته الشعرية خلال تلك الفترة، وهذا شيء يمرّ به الشعراء في كلّ مكان وزمان، وليس المتنبي بدعاً في ذلك.

(٤) الغرار: النوم القليل والنقصان. يُبيّن الشاعر سبب جفاف شاعريته في تلك الآونة، إنها هموم نزلت بساحته حالت دونه ودون النوم؛ فنومه غرار، والهموم لا تنزاح عن كاهله، فمن الطبيعي أن يسيل من الشعر على لسانه نزر يسير.

(٥) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٨٤. أضرم: أشعل. ينأى الشاعر بنفسه =

فَـــلَا تُـــلْـــزِمَـــنِّـــي ذُنُـــوبَ الـــزَّمَـــانِ
إلَـــــيَّ أسَـــــاءَ وَإيَّـــــايَ ضَـــــارا[١]

وَعِـــنْـــدِي لَـــكَ الـــشُّـــرُدُ الـــسَّـــائِـــرَا
تُ لَا يَـــخْـــتَـــصِـــصْـــنَ مِـــنَ الأرْضِ دَارَا[٢]

قَـــوَافٍ إذَا سِـــرْنَ عَـــنْ مِـــقْـــوَلِـــي
وَثَـــبْـــنَ الْـــجِـــبَـــالَ وَخُـــضْـــنَ الْـــبِـــحَـــارَا[٣]

وَلِـــي فِـــيـــكَ مَـــا لَـــمْ يَـــقُـــلْ قَـــائِـــلٌ
وَمَـــا لَـــمْ يَـــسِـــرْ قَـــمَـــرٌ حَـــيْـــثُ سَـــارَا[٤]

فَـــلَـــوْ خُـــلِـــقَ الـــنَّـــاسُ مِـــنْ دَهْـــرِهِـــمْ
لَـــكَـــانُـــوا الـــظَّـــلَامَ وَكُـــنْـــتَ الـــنَّـــهَـــارَا[٥]

= عن التقصير بواجبه؛ لقد حلّ بجسمه مرض أقعده عن قول الشعر، فضلاً عن أنه كان يُعاني لهيباً في قلبه حال دون إنشاده الشعر، والأمر ليس بيده.

(١) ينفي الشاعر عن نفسه تبعة ما حصل منه من التقصير غير المقصود، إنه الزمن وذنوبه كثيرة، فقد أساء للشاعر قبل أن يسيء إلى غيره فأنزل بساحته الهموم، وهذا ما حرمه من موهبته، لذا فإنه يلوم الزمن، ويطلب من ممدوحه ألّا يلومه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. الشرد: أي القصائد التي يسير بها الركبان ويتناقلونها إلى كلّ مكان. ولقاء الاعتذار يُعلن الشاعر عن مفاجأته؛ إنها قصائد في مدح ممدوحه سوف يسير بها الركبان وتتناقلها الألسن في كلّ مكان، ممجّدة فضائلة ومشيدة ببطولاته وبكرمه الذي أذاع صيته في البلاد.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. يروى «وكُنّ» بدلاً من «قوافٍ». مقولي: لساني. يفخر الشاعر بشاعريته، فأقواله قمينة بأن تسير بها الركبان فتنتقل خائضة البحار ومتخطية الجبال المرتفعة، ولن تحول دونها عوائق مهما كثرت ومهما صعب تجاوزها.

(٤) إنه التحدّي الأكبر والثقة بالنفس وبقدرته الشعرية العظيمة، فقد قال وسوف يُنشد شعراً لم يقله قائل ولن يقوله في المستقبل شاعر، ولسوف يتخطى شعره كلّ الحواجز حتى يصل إلى أبعد الحدود. وذلك مغالاة المتنبي وهو من نهل من معين من سبقه من كبار الشعراء.

(٥) وردت الأبيات الباقية من القصيدة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. يُفضل =

أَشَـــدُّهُـــمُ فـــي الـــنَّـــدَى هِـــزَّةً
وأبْـــعَـــدُهُـــمْ فـــي عَـــدُوٍّ مُـــغَـــارَا[١]

سَـــمَـــا بِـــكَ هَـــمِّـــيَ فَـــوْقَ الْـــهُـــمُـــوم
فَـــلَـــسْـــتُ أعُـــدُّ يَـــسَـــارَاً يَـــسَـــارَا[٢]

وَمَـــنْ كُـــنْـــتَ بَـــحْـــراً لَـــهُ يَـــا عَـــلِـــيْـــ
ـيُ لَـــمْ يَـــقْـــبَـــلِ الـــدُّرَّ إلَّا كِـــبَـــارَا[٣]

ما الدهر عندك

يهنئ سيف الدولة بعيد الفطر:

[البسيط]

أَلــصَّــوْمُ وَالْــفِــطْــرُ والأعْــيَــادُ وَالْــعُــصُــرُ
مُــنِــيــرَةٌ بِــكَ حَــتَّــى الــشَّــمْــسُ وَالْــقَــمَــرُ[٤]

تُــرِي الأهِــلَّــةَ وَجْــهــاً عَــمَّ نَــائِــلُــهُ
فَــمَــا يُــخَــصُّ بِــهِ مِــنْ دُونِــهَــا الْــبَــشَــرُ[٥]

= الشاعر ممدوحه على سائر الناس؛ إنهم ظلام فقدوا النور، والنور يتمثل بممدوحه، لضيائه وجمال طلعته وكرمه وحسن فعاله وبطولته.

(١) الندى: الكرم. الهزّة: أريحية الكرم. المغار: الإغارة على الأعداء. ومن أسباب تفضيل الشاعر ممدوحه أنه أشدّ الناس كرماً، ذو أريحية لا تتردّد عطاءً، فضلاً عن شجاعة نادرة جعلته يُغير على أعدائه فيحصدهم ويُبديهم عن بكرة أبيهم.

(٢) و (٣) سما: علا. اليسار: الغنى. الهمّ: الهمة. ينوّه الشاعر بأفضال ممدوحه عليه، لقد رفع من قيمة الشاعر حتى طال النجوم بيده رغم تمسكها بالسماء، فضلاً عمّا خصّه به من الإكرام والغنى، وهذا ما جعله يطلب المزيد من الإكرام والغنى، لذا فعلى من ينسب إلى البحر بما فيه من غنًى، فإنه لا يقبل من عليّ أي الممدوح؛ وهو بحر تتّسع أرجاؤه، إلّا الدرر الكبار لقدرته على منحها لمن أحبّ وأشبع فضيلة الإحسان إليه.

(٤) يمدح الشاعر سيف الدولة بمناسبة عيد الفطر؛ فالصوم والفطر والأعصر تستمدّ فرحتها ونورها من الممدوح، حتى الشمس بضوئها ودفئها وسموّها هي الأخرى تستمدّ ضوءها من الممدوح وكذلك القمر، فإنه يقتبس ضياءه الهادئ اللطيف من الممدوح.

(٥) الأهلة، الواحد هلال: مطلع الشهر القمري. النائل: العطاء. يُخاطب الشاعر =

مَـا الـدَّهْـرُ عِـنْـدَكَ إلّا رَوْضَـةٌ أُنُـفٌ
يَـا مَـنْ شَـمَـائِـلُـهُ فـي دَهْـرِهِ زَهَـرُ[١]

مَـا يَـنْـتَـهِـي لَـكَ فـي أيَّـامِـهِ كَـرَمٌ
فَـلَا ٱنْـتَـهَـى لَـكَ فـي أعْـوَامِـهِ عُـمُـرُ[٢]

فَـإنَّ حَـظَّـكَ مِـنْ تَـكْـرَارِهَـا شَـرَفٌ
وَحَـظَّ غَـيْـرِكَ مِـنْـهَـا الـشَّـيْـبُ وَالْـكِـبَـرُ[٣]

الشمس تكسب منك نورها

قال الشاعر يخاطب سيف الدولة وقد دخل عليه رسول ملك الروم سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة (٩٥٤م):

[البسيط]

ظُـلْـمٌ لِـذَا الْـيَـوْمِ وَصْـفٌ قَـبْـلَ رُؤْيَـتِـهِ
لَا يَـصْـدُقُ الْـوَصْـفُ حَـتَّـى يَـصْـدُقَ الـنَّـظَـرُ[٤]

= ممدوحه، فإطلالته تعكس إشعاعاتها مع ولادة الأهلّة فتُستنار بجمال وجهه وكمال عطائه، وبذلك يشمل كمال نوره البشر وسائر الكائنات التي بها قِوام الحياة كالقمر والشمس.

(١) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة في الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. الأنف من الرياض: البكر التي لم يرعها أحد. الشمائل: الأخلاق. يمدح الشاعر ممدوحه، فأخلاقه زهر تشعّ جمالاً وفوحاً عطراً، وقد اكتمل انسجام الكون في فرحته فكان روضة بهيّة بكراً بإطلالة الممدوح على الوجود.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه لكرمه العظيم الدائم أبد الدهر، وإنه باطراد يزداد بمرور الأيام، ولذا فإن الشاعر يدعو له بدوام العمر مدى الأعوام ممّا يزيده شرفاً وعلوّ شأن؛ فالحظ مؤاتٍ له. بينما سائر الناس تدبّ فيهم الشيخوخة ويُكلّل الشيب رؤوسهم، ويميل بهم تقدّم السن إلى النهاية المحتومة.

(٤) يبدأ الشاعر قصيدته دون مقدّمات تقليديّة. إنه يوم عظيم يودّ الشاعر أن يصف أحداثه، ولكن الشاعر قد تأخر فلم يُتح له أن يطّلع على ما جرى فيه، ولذا فالوصف لا يكون تاماً إلّا إذا رأى وسمع ما جرى فيه ليكون الوصف صادقاً، لأن ما جرى فيه يُعدّ من مفاخر سياسة سيف الدولة مع عدوّه اللدود ملك الروم.

تَـزَاحَـمَ الْـجَـيْـشُ حَـتَّـى لَـمْ يَـجِـدْ سَـبَـبـاً
إلَـى بِـسَـاطِـكَ لِـي سَـمْـعٌ وَلَا بَـصَـرُ[(١)]

فَـكُـنْـتُ أَشْـهَـدَ مُـخْـتَـصٍّ وَأَغْـيَـبَـهُ
مُـعَـايِـنـاً وَعِـيَـانِـي كُـلُّـهُ خَـبَـرُ[(٢)]

أَلْـيَـوْمَ يَـرْفَـعُ مَـلْـكُ الـرُّومِ نَـاظِـرَهُ
لأَنَّ عَـفْـوَكَ عَـنْـهُ عِـنْـدَهُ ظَـفَـرُ[(٣)]

وَإِنْ أَجَـبْـتَ بِـشَـيْءٍ عَـنْ رَسَـائِـلِـهِ
فَـمَـا يَـزَالُ عَـلَـى الأَمْـلَاكِ يَـفْـتَـخِـرُ[(٤)]

قَـدِ اسْـتَـرَاحَـتْ إلَـى وَقْـتٍ رِقَـابُـهُـمُ
مِـنَ الـسُّـيُـوفِ وَبَـاقِـي الْـقَـوْمِ يَـنْـتَـظِـرُ[(٥)]

وَقَـدْ تُـبَـدِّلُـهَـا بِـالْـقَـوْمِ غَـيْـرَهُـمُ
لِـكَـيْ تَـجِـمَّ رُؤوسُ الْـقَـوْمِ وَالْـقَـصَـرُ[(٦)]

---

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٢٤. يذكر الشاعر السبب الذي أدّى إلى تأخره، إنه ازدحام الجيش في باب القصر ممَّا حال دون وصوله إلى بلاط الأمير في الوقت المناسب، فلم يسمع ما جرى ولم يَرَ ما حدث، ولكنه استعلم ممن رأى وسمع، فكأنه سمع ورأى؛ ولذا فوصفه للحدث مبنيّ على السماع فقط.

(٣) ناظره: عينيه. إنه يوم حظّ لملك الروم، فرض الممدوح عليه أمدّه بعفو سيف الدولة، وقد كان كسير الخاطر يُطرق نظره إلى الأرض انكساراً وخزياً لعدم رضى سيف الدولة عنه، أما وقد حظي برضاه فقد دخل في حمايته ومهادنته؛ فكان ذلك بمثابة فتح عهد جديد بين العدوّين اللدودين.

(٤) و (٥) ولقد كانت إجابة سيف الدولة على رسائل ملك الروم والموافقة على إعلان الهدنة وإقامة معاهدة السلام بينهما مدعاة فخر الملك الذي راح يتطاول على سائر الملوك الذين لا يزالون على عداء مع سيف الدولة لمغبّة ذلك عليهم، وكان من نتيجة ذلك أن رقاب القوم استراحت، وارتدّت إليهم نفوسهم نتيجة عقد الصلح، بينما من بقي على عداء، فإنهم ينتظرون أن يُفاجئهم سيف الدولة بجنوده في كلّ وقت. وترقّبهم هذا يجعلهم يأملون أن يُصالحوا الأمير فيكتفون شرّ جنوده وضرب سيوفه.

(٦) تجمّ: تكثر. القصر، الواحدة قصرة: أصل العنق. ودائماً للسيوف دور في إهلاك =

تَـشْـبِـيـهُ جُـودِكَ بـالأمْـطَـارِ غَـادِيَـةً
جُـودٌ لِـكَـفِّـكَ ثَـانٍ نَـالَـهُ الْـمَـطَـرُ[١]
تَـكَـسَّـبُ الـشَّـمْـسُ مِـنْـكَ الـنُّـورَ طالِـعَـةً
كَـمَـا تَـكَـسَّـبَ مِـنْـهَـا نُـورَهُ الْـقَـمَـرُ[٢]

الموت اضطرار

يصف إيقاعه بهذه القبائل وكان أبو الطيب لم يحضر الواقعة فشرحها له سيف الدولة:

[الوافر]

طِـوَالُ قَـنـاً تُـطَـاعِـنُـهَـا قِـصَـارُ
وَقَـطْـرُكَ فـي نَـدًى وَوَغًـى بِـحَـارُ[٣]
وَفِـيـكَ إذَا جَـنَـى الـجَـانِـي أَنَـاةٌ
تُـظَـنُّ كَـرَامَـةً وَهِـيَ احْـتِـقَـارُ[٤]

= أعداء الأمير، وهم كثر، لذا لا بدّ من استبدال الروم بغيرهم، وفي حال كثروا بالتوالد وانتهى من أعدائه فيعود ليفنيهم من جديد.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بكرمه، فكفّه مطر ينهمر كما ينهمر الماء غزيراً، وبذلك يعتزّ المطر بتشبيهه بجود الأمير.

(٢) تكسب: تستمدّ. ولوضاءة الممدوح فإن الشمس تستمدّ ضياءها ونورها في حال إشراقها تماماً كما يكتسب منها القمر ضياءه، فإذا ظهر الممدوح اشرأبّت لتكتسب وإلّا فالظلمة تكتنف سائر الكون.

(٣) القنا: الرماح. الندى: الكرم. الوغى: الحرب. يُخاطب الشاعر ممدوحه، منوّهاً بشجاعته، إنها لا تُؤثر الرماح الطويلة بها فتتقاصر أمام شجاعته ويضعف حاملوها، وبكرمه العظيم، فمهما قلّ رفده فإنه بحر زاخر.

(٤) جنى عليه: أن يدّعي عليه ذنباً لم يفعله، اجترم جناية. الأناة: الصبر مع الحلم. يصف الشاعر ممدوحه بالعفو عند المقدرة والحلم والصبر على من اجترم فعلاً سيّئاً بحق الممدوح، ولجهل ذاك يعتقد أن الممدوح يُكرمه لضعف فيه، والحق أنه احتقار من الممدوح لشأنه، والأمر لا يتعلّق بكرامته.

وَأَخْذٌ لِلْحَوَاضِرِ والْبَوَادِي
بِضَبْطٍ لَمْ تُعَوَّدْهُ نِزَارُ[١]

تَشَمَّمُهُ شَمِيمَ الْوَحْشِ إنْساً
وَتُنكِرُهُ فَيَعْرُوهَا نِفَارُ[٢]

وَمَا انْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِي زَمَانٍ
فَتَدْرِي مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّغَارُ[٣]

فَقَرَّحَتِ المَقَاوِدُ ذِفْرَيَيْهَا
وَصَعَّرَ خَدَّهَا هٰذَا العِذَارُ[٤]

وأَطْمَعَ عَامِرَ الْبُقْيَا عَلَيْهَا
وَنَزَقَّهَا احْتِمَالُكَ وَالْوَقَارُ[٥]

---

(١) و (٢) الحواضر، الواحدة حاضرة: المدن. البوادي: الصحاري. ويقصد بنزار العرب. إنها سياسة الحزم، وتلك سياسة لم يعهدها العرب في بواديهم وحواضرهم، إنهم كانوا يعيشون ضمن نظام قبليّ، عماده حرّية التصرّف المعتمدة على القوّة. لذا فالطاعة بمفهومها الضيّق لم يعتادوا على الخضوع التامّ لنظام الدولة بمفهومها السياسي، لذلك سرعان ما ينفرون من الانقياد الأعمى إلى ما يسمّى بالنظام السياسي المعروف لدى الدول، وتتمثل فيهم عادة التوحّش إذا أحسّوا بشيء يُخالف طباعهم المعهودة لديهم.

(٣) المقادة: الانصياع، الانقياد. الصغار: الذل، الانكسار. إنها العادة المتأصّلة في نفوس العرب، فهم لم يعرفوا الانصياع لأحد مهما تكن طبيعته ولم يذلوا، وإنما هم ينسجمون مع ما ألفوه من حرّية واسعة وسع صحرائهم.

(٤) قرّحت: جرّحت. المقاود، الواحد مقود: الرسن. الذفرى: العظم الشاخص خلف الأذن. الصعر: ميل في الخدّ، كناية عن التكبّر. العذار: ما وقع على خدّي الفرس من اللجام. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه أخذ العرب بشدّة فانقادوا إليه رغماً عنهم، وهذا ما جعلهم يُحسّون بفداحة الأمر، فمالوا إلى التأفّف وقد أحسّوا بالإهانة لشدّة تنفيذ سياسة الأمير، فتألّبوا عليه، وتململوا من حزمه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. النزق: الطيش والخفة. ولقد شجّع بني عامر على التمرّد والعصيان تغاضي الأمير وحلمه عن تجاوزاتهم، فتمادَوْا في عصيانهم، وساعدهم على ذلك طيشهم ونزقهم المغروز في طبائعهم.

وَغَـيَّـرَهَـا الـتَّـرَاسُـلُ وَالـتَّـشَـاكِـي
وَأَعْـجَـبَـهَـا الـتَّـلَـبُّـبُ وَالْـمُـغَـارُ[١]
جِـيَـادٌ تَـعْـجِـزُ الأَرْسَـانُ عَـنْـهَـا
وَفُـرْسَـانٌ تَـضِـيـقُ بِـهَـا الـدِّيَـارُ[٢]
وَكَـانَـتْ بِـالـتَّـوَقُّـفِ عَـنْ رَدَاهَـا
نُـفُـوسـاً فِـي رَدَاهَـا تُـسْـتَـشَـارُ[٣]
وَكُـنْـتَ الـسَّـيْـفَ قَـائِـمُـهُ إِلَـيْـهِـمْ
وَفِـي الأَعْـدَاءِ حَـدُّكَ وَالْـغِـرَارُ[٤]
فَـأَمْـسَـتْ بِـالْـبَـدِيَّـةِ شَـفْـرَتَـاهُ
وَأَمْـسَـى خَـلْـفَ قَـائِـمِـهِ الْـحِـيَـارُ[٥]
وَكَـانَ بَـنُـو كِـلَابٍ حَـيْـثُ كَـعْـبٌ
فَـخَـافُـوا أَنْ يَـصِـيـرُوا حَـيْـثُ صَـارُوا[٦]
تَـلَـقَّـوْا عِـزَّ مَـوْلَاهُـمْ بِـذُلٍّ
وَسَـارَ إِلَـى بَـنِـي كَـعْـبٍ وَسَـارُوا[٧]

---

(١) و (٢) التلبّب: الاستعداد للحرب والتشمّر لها. لقد اجتمع القوم على أمر عظيم، فقد غرّهم اتّحادهم وممارستهم القتال، فكان التراسل بينهم واستعدادهم للقتال، إنهم فرسان كثيرون يَغطّون الأرض لكثرتهم، وقد روّضوا جياداً نفورة تمتاز بالقوّة والشدّة، وهذا ما شدّ في عزيمتهم وقوّى بأنفسهم ثقتهم.

(٣) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. الردى: الموت، الهلكة. موقفان متناقضان: موقف الممدوح الحليم الذي يتغاضى عن سيّئات القوم، وموقف هؤلاء بعنادهم وكأنهم يُثيرون الأمير على الفتك بهم، وكأن الموت يدعوهم إلى العصيان، فكانت إرادتان تؤذنان بسحقهم.

(٤) و (٥) قائم السيف: مقبضه. غراره: حدّه. البدية والحِيار: ماءان حيث كانوا ينزلون. شفرتا السيف: حدّاه. يُخاطب الشاعر الأمير بأنه كان سيفاً يُقاتل أعداءهم دونهم يستعينون به في أزماتهم، ولما انقلبوا عليه سار إليهم يبطش بهم في منازلهم في الباديّة واستمرّ يُلاحقهم حتى تخطّى الحِيار فخلّفه وراءه وهو يطاردهم بسيفه فيحصد فيهم قتلاً وسفك دماء.

(٦) و (٧) يذكر الشاعر موقف بني كلاب، وقد شاهدوا ما حلّ بإخوانهم بني كعب، =

فَـأَقْـبَـلَـهَـا الْـمُـرُوجَ مُـسَـوَّمَـاتٍ
ضَـوَامِـرَ لا هُـزَالَ وَلَا شِـيَـارُ[١]
تُـثِـيـرُ عَـلَـى سَـلَـمْـيَـةَ مُـسْـبَـطِـرًّا
تَـنَـاكَـرُ تَـحْـتَـهُ لَـوْلَا الـشِّـعَـارُ[٢]
عَـجَـاجـاً تَـعْـثُـرُ الـعِـقْـبَـانُ فِـيـهِ
كَـأَنَّ الْـجَـوَّ وَعْـثٌ أَوْ خَـبَـارُ[٣]
وَظَـلَّ الـطَّـعْـنُ فـي الْـخَـيْـلَـيْـنِ خَـلْـسـاً
كَـأَنَّ الـمَـوْتَ بَـيْـنَـهُـمَـا اخْـتِـصَـارُ[٤]

= فاتّعظوا بما رأَوْا وداخلهم رعب وخافوا أن يحلّ بهم ما نزل بغيرهم لذا سارعوا إلى لقاء الأمير المنتصر والذلّة والمسكنة تسوقهم لمساعدة الأمير على إخوانهم بني كعب، فكانوا معه عليهم.

(١) و (٢) المروج: إنها مروج سلمية حيث ترعى الدواب، وسلمية: موضع بين الفرات وحلب حيث كانوا ينزلون. المسوّمات: المعلمات بسمات تُعرف بها. الضوامر من الخيل: الخفيفة اللحم، الهزيلة لكثرة مشاركتها في الحروب. الشيار: السمان الحسنة المنظر. المسبطر: الغبار المنتشر. الشعار: العلامة في الحرب. يصف الشاعر نزول الأمير في مروج سلمية، وقد جعل الخيول ترتعي وتأخذ قسطاً من الراحة، وهي تمتاز بأنها ليست نحيلة كما أنها ليست سمينة حسنة المنظر، ولها علامات تمتاز بها عن سائر الخيل، ذلك أنها كثيرة المشاركة في حروب الأمير، ولكثرة انتشارها في ميدان المعركة فإن الغبار يعلوها بحيث لا يعرف جند الأمير بعضهم بعضاً إلّا بعلامات قد اتّفقوا عليها، وإلّا لاشتبكوا في ما بينهم.

(٣) العجاج: الغبار. الوعث من الأرض: اللين الكثير الرمل. الخبار من الأرض: اللين الرخو. ولثقة العقبان بنصر الأمير، فإنها تُصاحب جيشه لتقمّ جيف القتلى، وفي هذا الجوّ الذي غطّته موجات من الغبار تتعالى فإذا بالعقبان تتعثّر حتى كأن جوّ المعركة أرض وعثاء رخوة ليّنة تغوص فيها العقبان.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. الخلس: سرعة اختطاف الأشياء بسرعة. يصف الشاعر عنف القتال، فالطعن يختطف النفوس بسرعة، فإذا بالموت يبدو أقصر الطرق يفتك بالنفوس ويُودي بها إلى هلاك محتم.

فَــلَــزَّهُــمُ الــطِّــرَادُ إلــى قِــتَــالٍ
أَحَــدُّ سِــلاَحِــهِــمْ فــيــهِ الــفِــرَارُ[(١)]

مَــضَــوْا مُــتَــسَــابِــقِــي الأعْــضَــاءِ فــيــهِ
لِأَرْؤسِــهِــم بــأَرْجُــلِــهِــمْ عِــثَــارُ[(٢)]

يَــشُــلُّــهُــمُ بِــكُــلِّ أَقَــبَّ نَــهْــدٍ
لِــفَــارِسِــهِ عَــلَــى الْــخَــيْــلِ الْــخِــيَــارُ[(٣)]

وكُــلِّ أَصَــمَّ يَــعْــسِــلُ جَــانِــبَــاهُ
عَــلَــى الْــكَــعْــبَــيْــنِ مِــنْــهُ دَمٌ مُــمَــارُ[(٤)]

يُــغَــادِرُ كُــلَّ مُــلْــتَــفِــتٍ إلَــيْــهِ
وَلَــبَّــتُــهُ لِــثَــعْــلَــبِــهِ وِجَــارُ[(٥)]

---

(١) لزّه: أجبره وألجأه، ولعنف القتال وشدّة فتكه بالمقاتلين، وحفاظاً على الحياة كان لا بدّ للنفوس اللجوء إلى أسهل سبل النجاة الفرار، فالمعركة غير متكافئة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. يُصوّر الشاعر حالة الإرباك التي كان عليها الفارّون من المعركة مخافة الموت، فإذا بأرجلهم تعثر برؤوس بعضهم وقد وقعوا أرضاً لشدّة الهلع التي سيطرت عليهم، كما أن بعضهم الآخر تعثر، فإذا برؤوسهم تختلط بأرجل بعضهم الآخر.

(٣) يشلّهم: يطردهم. الأقب من الخيول: الضامر. النهد: الضخم العالي. يُصوّر الشاعر حالة المطاردة في وسط المعركة، فيندفع فرسان الأمير على جيادهم الضامرة النهدة، وكأنهم يلهون، فإن شاء بعضهم سبقوا الفارّين ليلقّفوهم بصدورهم وإن شاء بعضهم الآخر أخذوهم من خلفهم.

(٤) و (٥) الأصمّ من الرماح: الصلب القويّ. يعسل: يهتزّ. ممار: مهراق. ويُكمل الشاعر صورة الموت المريع، فالفرسان يغرسون رماحهم الغاضبة المضطربة في ضحاياهم، فتعود وقد غطتها الدماء من جانبيها الأعلى والأسفل؛ وينتزعها بعنف لا رحمة فيه من أعلى صدر ضحيّته، فإذا بسنان الرمح يشخب دماً وقد دخل ثعلبه في نحرها.

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضَّوْءَ عَنْهُمْ
دَجَا لَيْلَانِ لَيْلٌ وَالْغُبَارُ[(١)]
وَإِنْ جُنْحُ الظَّلَامِ انْجَابَ عَنْهُمْ
أَضَاءَ الْمَشْرَفِيَّةُ والنَّهَارُ[(٢)]
ويَبْكِي خَلْفَهُمْ دَثْرٌ بُكَاهُ
رُغَاءٌ أَوْ ثُؤَاجٌ أَوْ يُعَارُ[(٣)]
غَطَا بِالْعِثْيَرِ الْبَيْدَاءَ حَتَّى
تَحَيَّرَتِ الْمَتَالِي وَالعِشَارُ[(٤)]
وَمَرُّوا بِالْجَبَاةِ يَضُمُّ فِيهَا
كِلَا ٱلْجَيْشَيْنِ مِنْ نَقْعٍ إِزَارُ[(٥)]

---

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. دجا: أظلم. جنح الليل: جانبه. انجاب: جلا. المشرفية: السيوف. يرسم الشاعر صورة الظلمة التي سيطرت على ضحايا المعركة؛ إنه الليل وعتمته يتبعه ليل آخر من غبار يُغطّي ساحة المعركة، وإذا انجلت الظلمة أشرق النهار بسيوف تعلو الرؤوس تُؤذن بموت محقّق.

(٣) و (٤) الدثر: المال الجمّ. الرّغاء: صوت الإبل. الثؤاج: صوت الغنم. اليعار: صوت المعز. العثير: الغبار. المتالي، الواحدة متلية: الناقة يتبعها ولدها. العشار، الواحدة عشراء: الناقة على وشك أن تلد. المتالي والعشار: أحبّ أموال البدو إلى نفوسهم. المال يُعادل الحياة. لذا رغم ما نزل بالقوم من هلاك وجراحات، فمن سلم منهم حاول تخليص ما أمكنه من الأموال، وأموال القوم عمادها النعم بأنواعها الثلاثة، ومنها لديهم الكثير، الإبل يتصاعد رغاؤها، والأغنام يشارك ثغاؤها في سمفونية الخوف، والمغر بيعارها، ولكثرة الجلبة وقوة الاندفاع في الهرب يَرتفع الغبار فيغطّي الموكب بسحابة كئيبة في بيداء مترامية الأطراف، وفي آخر موكب الهروب المتالي من النياق وإلى جانبها صغارها، والعشار بدورها أنهكها إسراعها وما في بطونها من أجنّة.

(٥) الجباة: اسم. النقع: الغبار. مطاردة عجيبة، إنها مطاردة الحياة ممثّلة بالأعراب وما معهم من الأموال ومطاردة الموت ممثلة بجيش الأمير، الأعراب يفرّون من مواجهة غير عادلة؛ فإذا بهم يمرّون بماء الجباة أثناء مسير الخوف، فكانت المفاجأة أن جيش =

وَجَاؤُوا الصَّحْصَحَانَ بِلَا سُرُوجٍ
وَقَدْ سَقَطَ الْعِمَامَةُ وَٱلْخِمَارُ[(١)]

وَأُرْهِقَتِ ٱلْعَذَارَى مُرْدَفَاتٍ
وَأُوطِئَتِ الأُصَيْبِيَةُ الصِّغَارُ[(٢)]

وَقَدْ نُزِحَ ٱلْغُوَيْرُ فَلَا غُوَيْرٌ
وَنِهْيَا وَٱلْبُيَيْضَةُ وَٱلْجِفَارُ[(٣)]

وَلَيْسَ بِغَيْرِ تَدْمُرَ مُسْتَغَاثٌ،
وَتَدْمُرُ كَاسْمِهَا لَهُمُ دَمَارُ[(٤)]

أَرَادُوا أَنْ يُدِيرُوا الرَّأْيَ فِيهَا
فَصَبَّحَهُمْ بِرَأْيٍ لا يُدَارُ[(٥)]

= الأمير كان لهم بالمرصاد هناك، فإذا بالغبار يعلو إلى عنان السماء ليغطي جحيم المعركة بمن فيها وما فيها.

(١) و (٢) الصحصحان: اسم موضع بعينه. أرهقت العذارى: أجبرت الأبكار على تحمل مشقة لا تطيقها. مردفات: ركبت خلف الرجال على الخيول. أوطئت: ديست. أخيراً وصل القوم إلى الصحصحان في حالة يُرثى لها، فالرجال امتطوا جياداً لا سروج لها، وقد أردفوا خلفهم نساءهم وعذاراهم، وقد سقطت عمائم الرجال وانكشفت رؤوس النساء، فبدون بلا خمرهن، لإسراعهم في الهرب، وحتى الصغار من الأطفال داستها الخيل بلا رحمة ومراعاة لما تمثله الطفولة من براءة، ولم تجن أيديهم ما جنته أيدي آبائهم.

(٣) نزح: استنفد. الغُوير ونهيا والبييضة والجفار: أسماء مياه وردها الفارّون لشدّة ما لحقهم من العطش. يصف الشاعر حال المطاردين وما لحقهم من سوء الحال، حتى إنهم اشتدّ بهم العطش وبما لديهم من نعم، وحالما وردوا تلك الآبار استهلكوا ما فيها من مياه.

(٤) و (٥) تدمر: مدينة تاريخيَّة دمّرها الرومان، وبقيت منها آثار دالة على عظمتها التاريخية، يُكمل الشاعر مأساة الفارّين من بطش سيف الدولة، فقد ظنّوا أنّ تلك المدينة مانعتهم من سوء المصير، وفجأة أحاط بهم جند الأمير فكانت قاصمة دهرهم في تدمر وكانت شؤماً عليهم كاسمها. ولقد أراد القوم أن يتبادلوا الرأي بما سيفعلون، فكانت المفاجأة مع الفجر إذ أحاط بهم الأمير بالرأي الذي لا يُناقش ولا سبيل لردّه؛ إنه قرار إبادتهم.

وَجَيْشٍ كُلَّمَا حَارُوا بِأَرْضٍ
وَأَقْبَلَ أَقْبَلَتْ فِيهِ تَحَارُ(١)

يَحُفُّ أَغَرَّ لَا قَوَدٌ عَلَيْهِ
وَلَا دِيَةٌ تُسَاقُ وَلَا ٱعْتِذَارُ(٢)

تُرِيقُ سُيُوفُهُ مُهَجَ الأَعَادِي
وَكُلُّ دَمٍ أَرَاقَتْهُ جُبَارُ(٣)

فَكَانُوا ٱلْأُسْدَ لَيْسَ لَهَا مَصَالٌ
عَلَى طَيْرٍ وَلَيْسَ لَهَا مَطَارُ(٤)

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاوَلَتْهُمْ
بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعَطَشِ ٱلْقِفَارُ(٥)

يَرَوْنَ الْمَوْتَ قُدَّاماً وَخَلْفاً
فَيَخْتَارُونَ وَالْمَوْتُ ٱضْطِرَارُ(٦)

---

(١) و(٢) إنها رحلة الفرار، ورغم كثرة عدد تلك القبيلة وما معها من أموال، فكلّما نزلوا بأرض تبدو لهم مترامية الأطراف واسعة، فيزيد إحساسهم بالتشرّد وينمو خوفهم بقدر اتساع تلك الفلاة، وفي وسط ذلك كانت المفاجأة جيش ضاقت الأرض به وما رحبت، فإذا بتلك الأرض تحار بذلك الجيش لكثرة عدده وعُدده، وعلى رأسه قائد يحيط به جنده، إنه سيد شريف لا يُسأل عمَّا يفعل، يقتل كما يحلو له؛ فلا قود عليه ولا دِية لأعدائه، ولا يعتذر عمّا بدر منه لأنه ملك قادر.

(٣) تريق: تهرق. مُهج: أرواح. الجبار: القتل الذي لا دية فيه. سيوف جيش الأمير تزهق حياة أعاديه، وتريق دماءهم التي لا دية فيها لأنها مباحة له، فلا قود عليها.

(٤) المصال: القوّة. المطار: الطيران. شبّه الشاعر الأعراب بالأسود الضارية التي تخلّت عنها قوتها لأنها في مواجهة طيور كاسرة اتخذت السماء لها مجالاً وهذا المجال لا تدركه الأسود، ممَّا يجعل قوتها باطلة لا فائدة منها، لعدم قدرتها على الطيران.

(٥) و(٦) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. إنها رحلة الموت المحتّم، لا مفرّ منه، فإذا استطاع القوم الفرار من رماح جيش سيف الدولة واجهوا موتاً آخر، فالصحراء لا ماء فيها، فالعطش مهلكهم. لذا لا فكاك من براثن الموت لأنه محيط بهم من كلّ مكان قدّاماً وخلفاً؛ إنه الاختيار الصعب.

إذَا سَلَكَ السَّمَاوَةَ غَيْرُ هَادٍ
فَقَتْلَاهُمْ لِعَيْنَيْهِ مَنَارُ[١]

وَلَوْ لَمْ يُبْقِ لَمْ تَعِشِ ٱلْبَقَايَا
وَفي المَاضِي لِمَنْ بَقِيَ ٱعْتِبَارُ[٢]

إذَا لَمْ يُرْعِ سَيِّدُهُم عَلَيْهِمْ
فَمَنْ يُرْعِي عَلَيْهِمْ أَوْ يَغَارُ[٣]

تُفَرِّقُهُمْ وَإيَّاهُ السَّجَايَا
وَيَجْمَعُهُمْ وَإيَّاهُ النِّجَارُ[٤]

وَمَالَ بِهَا عَلَى أَرَكٍ وَعُرْضٍ
وَأَهْلُ الرَّقَّتَيْنِ لَهَا مَزَارُ[٥]

وَأَجْفَلَ بِالْفُرَاتِ بَنُو نُمَيْرٍ
وَزَأْرُهُمُ الَّذِي زَأَرُوا خُوَارُ[٦]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢. المنار: علامات الطريق ويتصوّر المرء مدى ما حلّ من موت بتلك القبيلة التي انتشرت جثث قتلاها في بادية السماوة أن بإمكان من يجهل مسالك تلك الصحراء ولم يجد علامات دالة على سلوك تلك البادية أمكنه ذلك بسهولة لانتشار القتلى في أرجائها.

(٢) و (٣) يروى «تبق» بدلاً من «يُبق». يُنوّه الشاعر مشيداً بما فعله سيف الدولة من إبقاء من بقي على قيد الحياة، ولم يفنهم جميعاً أن في ذلك درساً رادعاً لهم ليتعظوا بما حلّ بأقربائهم، ولا بدّ لهم من راعٍ يرعى شؤونهم ويغار على مصالحهم ويُقيل عثرتهم.

(٤) السجايا: الأخلاق والطباعُ. النجار: الأصل. ومن أسباب إبقاء سيف الدولة للقوم أنهم ينتمون إلى نزار من مضر، فثمّة قرابة بينهم وبين سيف الدولة، ولكن طباع كلّ منهما مختلفة، ففي أولئك لؤم وفي سيف الدولة حلم ورحمة.

(٥) أرك وعرض بلدتان قريبتان من تدمر. الرقتان: بلدتان تقعان على الفرات وهما الرقة والرافقة، وقيل لهما ذلك على التغليب. جعلت رحلة المطاردة سيف الدولة يميل على أرك وعُرْض وهما يبعدانه عن مقصده، فوجهته إلى الرقتين، فحيثما اعتقد بأن بني كعب يفرّون قصدهم فيه.

(٦) أجفل: خاف وفرّ. الزأر: صوت الأسد. الخوار: صوت البقر. حتى بنو نُمير =

فَهُمْ حِزَقٌ عَلَى ٱلْخَابُورِ صَرْعَى
بِهِمْ مِنْ شُرْبِ غَيْرِهِمِ خُمَارُ[١]

فَلَمْ يَسْرَحْ لَهُمْ فِي الصُّبْحِ مَالٌ
وَلَمْ تُوقَدْ لَهُمْ بِٱللَّيْلِ نَارُ[٢]

حِذَارَ فَتًى إذَا لَمْ يَرْضَ عَنْهُمْ
فَلَيْسَ بِنَافِعٍ لَهُمُ الْحِذَارُ[٣]

تَبِيتُ وُفُودُهُمْ تَسْرِي إلَيْهِ
وَجَدْوَاهُ الَّتِي سَأَلُوا ٱغْتِفَارُ[٤]

فَخَلَّفَهُمْ بِرَدِّ ٱلْبِيضِ عَنْهُمْ
وَهَامُهُمُ لَهُ مَعَهُمْ مُعَارُ[٥]

وَهُمْ مِمَّنْ أَذَمَّ لَهُمْ عَلَيْهِ
كَرِيمُ الْعِرْقِ وَٱلْحَسَبُ النُّضَارُ[٦]

= داخلهم الرعب، وكانوا يظنون بأنفسهم الشجاعة والقوّة، كأنهم أسود، سرعان ما ولَّوْا هاربين، واستبدلوا الزئير بخوار البقر.

(١) و(٢) الحزق، الواحدة حزقة: الجماعات. الخابور: من أنهار الفرات. الخمار: بقية السكر. ما حلّ بهؤلاء من سوء الحال حتى بدت عليهم حالة الإعياء كأن بهم بقية سكر، وقد تشتتوا جماعات ظنّهم أنهم مقصودون من قبل سيف وقد مرّ على نهر الخابور، فخافوا وبال أمرهم، فكان ما كان منهم. ولحذرهم الشديد تكتّموا على أنفسهم، فلم يُسرّحوا نعمهم نهاراً، ولم توقد لهم نيران في الليل مخافة اكتشاف أمرهم.

(٣) و (٤) ما قام به هؤلاء ناتج عن حذر بطش فتًى ماجد كريم حليم، فلو قصدهم ما كان ينفعهم الحذر والحيطة لأنه قادر على الفتك بهم، ولكنه لم يفعل لأنهم لم يُذنبوا، وتفادياً للوقوع في المحذور راح القومُ يرسلون إليه الرسل والوفود يطلبون المغفرة لذنب لم يقترفوه.

(٥) و (٦) خلفهم: استبقى عليهم. البيض: السيوف. الهام: الرؤوس. لقد كان ردّ الأمير عليهم ردّ الكريم، فاستبقى عليهم، فردّ عنهم سيوفه، فسلمت أرواحهم وبقيت رؤوسهم بين أكتافهم؛ إنها عارية لديهم لو أراد استردادها لفعل، وزيادة في تكريمهم =

فَـأَصْـبَـحَ بِـالْـعَـوَاصِـمِ مُـسْـتَـقِـرًّا
وَلَـيْـسَ لِـبَـحْـرِ نَـائِـلِـهِ قَـرَارُ[١]

وَأَضْـحَـى ذِكْـرُهُ فـي كُـلِّ أَرْضٍ
تُـدَارُ عَـلَـى ٱلْـغِـنَـاءِ بِـهِ الـعُـقَـارُ[٢]

تَـخِـرُّ لَـهُ الْـقَـبَـائِـلُ سَـاجِـدَاتٍ
وَتَـحْـمَـدُهُ ٱلأَسِـنَّـةُ والـشِّـفَـارُ[٣]

كَـأَنَّ شُـعَـاعَ عَـيْـنِ الـشَّـمْـسِ فِـيـهِ
فَـفِـي أَبْـصَـارِنَـا مِـنْـهُ ٱنْـكِـسَـارُ[٤]

فَـمَـنْ طَـلَـبَ الـطِّـعَـانَ فَـذَا عَـلِـيٌّ
وَخَـيْـلُ الـلَّـهِ والأَسَـلُ الْـحِـرَارُ[٥]

يَـرَاهُ الـنَّـاسُ حَـيْـثُ رَأَتْـهُ كَـعْـبٌ
بِـأَرْضٍ مَـا لِـنَـازِلِـهَـا ٱسْـتِـتَـارُ[٦]

= جعلهم مخفورين في ذمّته، وبذلك برهن الأمير على نبل أصله وحسبه الكريم الذي لا تشوبه شائبة.

(١) العواصم: بلاد حاضرتها إنطاكية. النائل: العطاء. إنها عودة المنتصر إلى دياره في العواصم، حيث مستقرّه وموطنه، بينما كرمه العظيم لا قرار له تماماً كالبحر الزاخر لا يهدأ.

(٢) العقار: الخمرة. لقد طار ذكر الأمير شعراً يُشيد بفعاله الحربية والأخلاقية، فحلقات الشرب والسّامرون يستمعون إلى المغنين يترنمون بفضائله.

(٣) الأسنة: الرماح. الشفار، الواحدة شفرة: حد السيف. لقد خضعت قبائل العرب للأمير واستسلموا طواعية أو كراهية لسلطانه حتى بلغ بهم الأمر إلى السجود في حضرته، وحتى الرماح والسيوف شكرت له حسن فعاله، فقد استخدمها لما صنعت من أجله في القضاء على عناصر الشغب عليه.

(٤) يعبّر الشاعر عن مهابة الأمير وأثر ذلك في نفوس حاشيته، وهم من النخبة في عصره؛ إنهم لا يرفعون إليه أبصارهم لإجلالهم له وتعظيمه فتخشع أبصارهم تماماً كما أنهم لا يُديمون النظر إلى أشعة الشمس ووهجها وموقفهم من الشمس تجنبهم لإزعاجها خلاف موقفهم من الأمير سببه الحبّ والاحترام لشخصه.

(٥) و (٦) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٢ـ١٠٣. الأسل: =

يُوَسِّطُهُ المَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ
طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الانْتِظَارُ(١)

تَصَاهَلُ خَيْلُهُ مُتَجَاوِبَاتٍ
وَمَا مِنْ عَادَةِ الْخَيْلِ السِّرَارُ(٢)

بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَثَّرْتَ فِيهِمْ
يَدٌ لَمْ يُدْمِهَا إِلَّا السِّوَارُ(٣)

بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَنَقْصٌ
وَفِيهَا مِنْ جَلَالَتِهِ ٱفْتِخَارُ(٤)

لَهُمْ حَقٌّ بِشِرْكِكَ فِي نِزَارٍ
وَأَدْنَى الشِّرْكِ فِي أَصْلٍ جِوَارُ(٥)

لَعَلَّ بَنِيهِم لِبَنِيكَ جُنْدٌ
فَأَوَّلُ قُرَّحِ ٱلْخَيْلِ المِهَارُ(٦)

= الرماح. الحرار: العطاش. يُشيد الشاعر بشجاعة علي. وهو سيف الدولة، فمن أراد النزال فليقابل الأمير ومعه جيشه العظيم، وخيل يرعاها اللّه تعالى بحمايته، ويُقاتل فرسانها لرفع كلمة اللّه سبحانه وتعالى، وسلاحهم عطش لدماء الأعداء، يتلهّب ليرتوي من دمائهم. ومن طبيعة الجيش وقائده أنهم يسعوْن للحاق أعدائهم حيثما كانوا، فقد فاجأ قبيلة بني كعب في صحرائهم جهاراً.

(١) و (٢) المفاوز: المهالك الضيقة الواقعة بين جبلين. عادة الأمير أنه طالب لأعدائه حيثما كانوا في كل وقت، وهو لا ينتظر مجيئهم إليه بل إنه يُلاحقهم ولا يتوانى لأخذه الأمور بحزم فيُبادر إلى قطع دابر الفتن في مهدها ولا يعمد إلى المناورة وإخفاء خطّ سير جيشه، فصهيل خيله يتردّد في الآفاق معلناً عن قدومه جهاراً؛ وذلك ثقة بقوّته وشدّة شكيمته وثقته بالنصر.

(٣) و (٤) وردت الأبيات الأربعة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٣. السوار: حلية تلبسها النساء في معاصمهن. يُخاطب الشاعر الأمير بأنه نكّل ببني كعب وأذلّهم وقد تأذّوا بما أصابهم على يدي الأمير وتألّموا، كما يُصيب يد امرأة من جراء تحلّيها بسوار ضيّق عليها، ومع ذلك فبنو كعب يفخرون بأن من أدّبهم بطل لا يُقهر ولا يُهزم، ولم يكن من عامة الناس.

(٥) و (٦) يُحاول الشاعر تهدئة خاطر الأمير منوّهاً بانتسابه إلى نزار جدّ بني كعب الأعلى، =

وَأَنْـتَ أَبَـرُّ مَـنْ لَـوْ عُـقَّ أَفْـنَـى
وَأَعْـفَـى مَـنْ عُـقُـوبَـتُـهُ الْـبَـوَارُ[(١)]

وَأَقْـدَرُ مَـنْ يُـهَـيِّـجُـهُ ٱنْـتِـصَـارٌ
وَأَحْـلَـمُ مَـنْ يُـحَـلِّـمُـهُ ٱقْـتِـدَارُ[(٢)]

وَمَـا فِـي سَـطْـوَةِ الأَرْبَـابِ عَـيْـبٌ
وَلَا فِـي ذِلَّـةِ الْـعُـبْـدَانِ عَـارُ[(٣)]

عيون حيارى

لما بلغ أبو الطيب إلى بسيطة رأى بعض عبيده ثوراً فقال: هذه منارة الجامع، ورأى آخر نعامة فقال: وهذه نخلة؛ فضحك أبو الطيب وقال:

[المتقارب]

بُـسَـيْـطَـةُ مَـهْـلاً سُـقِـيـتِ الْـقِـطَـارَا
تَـرَكْـتِ عُـيُـونَ عَـبِـيـدِي حَـيَـارَى[(٤)]

فَـظَـنُّـوا الـنِّـعَـامَ عَـلَـيْـكِ الـنَّـخِـيـلَ
وَظَـنُّـوا الـصِّـوَارَ عَـلَـيْـكِ الـمَـنَـارَا[(٥)]

= وهذا يعني وحدة النسب بينهما، فضلاً عن الجوار، وللجار حق على جاره في الرعاية والحماية وتبادل المنافع. ويأمل الشاعر أن يكون الخير في ذراريهم وأولادهم فيكونون جنداً وخولاً لأولاده وأحفاده؛ فالمهار من الخيول الجيّدة سوف تكون كباراً يُعتمد عليها.

(١) و(٢) أبرّ: أكثر إحساناً. عُقَّ: عُصي. البوار: الدمار. يُخاطب الشاعر ممدوحه مسترحماً مستنجداً بعفوه؛ إنه أكثر برًّا بالقوم وقد أخطأوا، فالعفو والصفح جزاء لمن أساء أعلى مستويات المغفرة، رغم أنهم يستحقون الهلاك، وقد قدر عليهم فأذلّهم، ومن قدر ولم يصدّق أنه انتصر على عدوّه تملّكه الغرور ونفخ فيه روح الانتقام فنكّل وشرّد بعدوّه. ولكن الأمير أقدر على العفو والصفح، وذلك أعلى مقامات الصفح والحلم.

(٣) يختم الشاعر قصيدته بمعادلة أن قدرة الأرباب العظام حقّ لهم لا عيب فيها إذا غفروا لعبيدهم ذلاتهم، ولا يعتبر ذلك عاراً في نظرهم.

(٤) و(٥) بُسيطة: موضع قرب الكوفة. لقد انتهت رحلة العذاب وعاد الشاعر إلى موطنه، وبسيطة أول محطة واجهته من معالم بلده، فخاطبها متمنياً لها الخير العميم وفيض =

فَـأَمْـسَـكَ صَـحْـبِـي بِـأَكْـوَارِهِـمْ
وَقَـدْ قَـصَـدَ الـضِّـحْـكُ فِـيـهِـمْ وَجَـارَا[١]

أرجانَ أيتها الجياد!

خرج أبو الطيب من الكوفة إلى العراق فراسله ابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة من أرجان فسار إليه وقال يمدحه:

[الكامل]

بَـادٍ هَـوَاكَ صَـبَـرْتَ أَمْ لَـمْ تَـصْـبِـرَا
وَبُـكَـاكَ إِنْ لَـمْ يَـجْـرِ دَمْـعُـكَ أَوْ جَـرَى[٢]

كَـمْ غَـرَّ صَـبْـرُكَ وَٱبْـتِـسَـامُـكَ صَـاحِـبـاً
لَـمَّـا رآكَ وفـي الْـحَـشَـا مَـا لَا يُـرَى[٣]

أَمَـرَ الْـفُـؤَادُ لِـسَـانَـهُ وَجُـفُـونَـهُ
فَـكَـتَـمْـنَـهُ وَكَـفـى بِـجِـسْـمِـكَ مُـخْـبِـرَا[٤]

= مطر غزير؛ فعبيده لم يُصدّقوا أنهم عادوا إلى وطنهم، وهم في حيرة إذ رأوْا طلائع النجاة ممثلة بثور وقطيع من الأبقار تُوحي بالبيئة التي ينتمون إليها ونعاماً كأنهن نخيل؛ إنها عبارة تنم عن الفرحة والسخرية بآن معاً.

(١) الأكوار، الواحد كور: الرحل. جار: مال. ولقد أمسك غلمان الشاعر برحالهم، وهم يضحكون فرحين مسرورين، وبعضهم الآخر اقتصد بضحكه وهم منبهرون بما يُشاهدون.

(٢) بدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع وجداني غزلي، فعلامات العشق بادية عليه، والحبيب لا يكترث لما يُعانيه الشاعر من آلام الفراق والهجران؛ فالصبر وعدمه سيان لا يُفيد، فحتى البكاء لا يُفيد في حال انسكب أو لم ينسكب.

(٣) الحشا: ما اضطمت عليه الضلوع. المظاهر خادعة، فالصبر والبسمات تُخفي وراءها ما تُخفيه، والناظر يُفسّر ما يراه كما يحلو له لأنه لا يعلم ما في القلب من أحزان وآلام؛ فالحزن مغلّف بقناع كاذب خادع.

(٤) الفؤاد مركز القيادة ومكمن المشاعر، وها هو يقوم بدور القائد الآمر متخلياً ظاهرياً عن دوره الطبيعي، إنه ينساق مع رغبات الحبّ، فإذا به يأمر اللسان فيسكت، والجفون فتتوقّف عن التعبير بما يُعانيه القلب من الهيام والعشق، ولكن الجسد لم يُفلح بضبط النفس، فكان أن كشف عن حقيقة الأمر بنحوله وفتوره.

تَـعِـسَ الـمَـهَـارِي غَـيْـرَ مَـهْـرِيٍّ غَـدَا
بِـمُـصَـوَّرٍ لَـبِـسَ الْـحَـرِيـرَ مُـصَـوَّرَا[١]

نَـافَـسْـتُ فِـيـهِ صُـورَةً فِـي سِـتْـرِهِ
لَـوْ كُـنْـتُـهَـا لَـخَـفِـيـتُ حَـتَّـى يَـظْـهَـرَا[٢]

لَا تَـتْـرَبِ الأَيْـدِي الـمُـقِـيـمَـةُ فَـوْقَـهُ
كِـسْـرَى مُـقَـامَ الْـحَـاجِـبَـيْـنِ وَقَـيْـصَـرَا[٣]

يَـقِـيَـانِ فِـي أَحَـدِ الـهَـوَادِجِ مُـقْـلَـةً
رَحَـلَـتْ فَـكَـانَ لَـهَـا فُـؤَادِي مَـحْـجِـرَا[٤]

قَـدْ كُـنْـتُ أَحْـذَرُ بَـيْـنَـهُـمْ مِـنْ قَـبْـلِـهِ
لَـوْ كَـانَ يَـنْـفَـعُ خَـائِـفـاً أَنْ يَـحْـذَرَا[٥]

وَلَـوِ اسْـتَـطَـعْـتُ إِذِ ٱغْـتَـدَتْ رُوَّادُهُـمْ
لَـمَـنَـعْـتُ كُـلَّ سَـحَـابَـةٍ أَنْ تَـقْـطُـرَا[٦]

---

(١) تعس: ذلّ وهان أمره وهلك. المهاري، الواحد مهري وهي إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان، اشتهر بحسن القيام والعناية بالإبل. المصوّر: الشكل. حرص الشاعر على حبيبته جعله يدعو على سائر الإبل ما عدا ركوبة حبيبته التي ارتدت من فاخر الحرير المزركش بجميل التصاوير.

(٢) نافست: فاخرت وباريت. يودّ الشاعر لو استطاع أن يستحيل إلى صورة في ستائر هودج حبيبته ليكون بقربها يرى ما يراه منها، وقد تخلّت عن حِجابها وبدت بطبيعتها وجمالها فضلاً عن احتشامها وحذرها، وتشجيعاً لها حتى تبدو كذلك يعمل على الاختباء، فيُخفي نفسه.

(٣) و(٤) تترب: تفتقر. يدعو الشاعر لمن قام برسم صورة كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم ألّا يفتقر، إذ جعلهما حارسين يقومان على حماية حبيبته ممن يسترق النظر إليها كالحاجبين يحميان نظرها ومهجتها في رحلتها، وهو يتمنّى لو كانت في عينيه وتحتمي مختبئة في هودجها.

(٥) يروى «حائناً» بدلاً من «خائفاً». والحائن: الهالك. البين: البعد. يُطلعنا الشاعر أنه قد تملّكه الخوف من رحيل الأحبّة، ولكن الحذر لا ينفع لأن المقدّر لا بدّ واقع، فالخوف لا يُجدي نفعاً.

(٦) الرواد، الواحد رائد: هو من يُرسله القوم للبحث عن مواقع الماء والكلأ. اغتدت: =

فَــإِذَا الــسَّــحَــابُ أَخُــو غُــرَابِ فِــرَاقِــهِــمْ
جَـعَـلَ الـصِّـيَـاحَ بِـبَـيْـنِـهِـمْ أَنْ يُـمْـطِـرَا(١)
وَإِذَا الْـحَـمَـائِـلُ مَـا يَـخِـدْنَ بِـنَـفْـنَـفٍ
إِلَّا شَـقَـقْـنَ عَـلَـيْـهِ ثَـوْبـاً أَخْـضَـرَا(٢)
يَـحْـمِـلْـنَ مِـثْـلَ الـرَّوْضِ إِلَّا أَنَّـهَـا
أَسْـبَـى مَـهَـاةً لِـلْـقُـلُـوبِ وَجُـؤْذُرَا(٣)
فَـبِـلَـحْـظِـهَـا نَـكِـرَتْ قَـنَـاتِـي رَاحَـتِـي
ضَـعْـفـاً وَأَنْـكَـرَ خَـاتَـمَـايَ الْـخِـنْـصِـرَا(٤)
أَعْـطَـى الـزَّمَـانُ فَـمَـا قَـبِـلْـتُ عَـطَـاءَهُ
وَأَرَادَ لِـي فَـأَرَدْتُ أَنْ أَتَـخَـيَّـرَا(٥)

= ذهبت في الغداة. يتمنّى الشاعر لو أنه قد قدر على جعل السحب تمتنع عن أن تُمطر لجعل الرواد الذين أرسلهم القوم للبحث عن موارد الماء والكلأ لا يعثرون على بُغيتهم فيعودون خائبين؛ وهذا ما يبقي المرتحلين في أمكنتهم.

(١) الغراب: اشتقّت منه الغربة، والسحاب رمز الخير والرزق استحال إلى ما يُتشاءم به لأنه جاء بالمطر والرعود، فكانت بمثابة إيذاناً بالرحيل ومصدراً للتشاؤم مما جعل القوم يرتحلون ابتغاء الرزق، ومن بينهم محبوبة الشاعر.

(٢) الحمائل، الواحدة حمولة: الإبل يحمل عليها ويروى «جمائل» بدلاً من «حمائل» جمع جمالة، الواحد جمل. يخدن: يسرن بسرعة. النفنف: المفازة بين جبلين. يصف الشاعر خطّ سير المرتحلين إنهم عبروا أرضاً في مفازة وقد ارتدت بثوبها الأخضر الجميل وقد كثر الخصب وعمّ الخير في زمن ربيعي، فأثر مسير القوم قد ارتسمت معالمه في تلك الأنحاء.

(٣) أسبى: أكثر أسراً. المهاة: البقرة الوحشية ذات العينين الجميلتين. الجؤذر: ولد المهاة. يصف الشاعر الركب، فهوادج النسوة تزدان بالألوان المزركشة وتتناسق مع جمال الطبيعة بألوانها، وهي تحمل نسوة أجمل من البقر الوحشي تسبي القلوب وتسحر العيون، وإلى جانبهن حبيبة الشاعر.

(٤) لقد شاهد الشاعر تلك الهوادج وفي أحدها حبيبته ممّا أثّر في جسده فانضوى وبات صاحبه هزيلاً، حتى إنه لم يستطع حمل رمحه لشدّة ضعفه وقد أصبح خاتمه أوسع من إصبعه الخنصر، فإذا به يقلق في مكانه لشدّة هزاله.

(٥) يتخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، فقد تقدّم الزمان علّه يستميل الممدوح بعطائه، =

أَرَجَانَ أَيَّتُهَا الْجِيَادُ فَإِنَّهُ
عَزْمِي الَّذِي يَذَرُ الْوَشِيجَ مُكَسَّرَا (١)
لَوْ كُنْتُ أَفْعَلُ مَا اشْتَهَيْتِ فَعَالَهُ
مَا شَقَّ كَوْكَبُكِ الْعَجَاجَ الأَكْدَرَا (٢)
أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمُبِرَّ أَلِيَّتِي
لأُيَمِّمَنَّ أَجَلَّ بَحْرٍ جَوْهَرَا (٣)
أَفْتَى بِرُؤْيَتِهِ الأَنَامُ وَحَاشَ لِي
مِنْ أَنْ أَكُونَ مُقَصِّراً أَوْ مُقْصِرَا (٤)
صُغْتُ السِّوَارَ لِأَيِّ كَفٍّ بَشَّرَتْ
بِٱبْنِ الْعَمِيدِ وَأَيِّ عَبْدٍ كَبَّرَا (٥)
إِنْ لَمْ تُغِثْنِي خَيْلُهُ وَسِلَاحُهُ
فَمَتَى أَقُودُ إِلَى الأَعَادِي عَسْكَرَا (٦)

= فيتّخذه خليلاً وصاحباً ولكن الشاعر رفض ذلك بإباء مفضّلاً ممدوحه لما يأمل منه الخير العميم والتكريم العظيم فيحصل على بغيته بعدما بخل الزمن بتوليته ولاية.

(١) أرجان: من مدن فارس، بلد الممدوح. عزمي: مقصدي. يذر: يترك. الوشيج: ضرب من الشجر تتخذ منه الرماح. يطلب الشاعر من خيله أن تتوجّه إلى أرجان حيث يمكث الممدوح، ولن يصدّه أحد عن الوصول إلى مبتغاه، فعزمه لن يلين ولن يحول دون ذلك شيء مهما عظم.

(٢) و (٣) كوكب الخيل: معظمها مجتمعة. العجاج: الغبار. يُخاطب الشاعر خيوله أنه لم يُوافقها على أخذها قسطاً من الراحة لذا جعلها تخترق الغبار المتصاعد المظلم، رغم إرهاقها بتواصل المسير حتى تصل إلى أبي الفضل قاصدة دياره ليبرّ بيمينه ويمثل بين يديه؛ إنه أجلّ بحر يتمثل به الكرم اللامحدود. والأليّة: القسم.

(٤) الأنام: الناس. حاش: تنزيهاً. أقصر: توقّف عن فعل شيء ما، ثَمَّة إجماع من قبل الناس على إباحة رؤية الممدوح، ولهذا يُنزّه الشاعر نفسه عن التقصير بما استفتى من زيارة ممدوحه.

(٥) لقد أعدّ الشاعر سِواراً ذهبيّة لأي كفّ تبشّره بأنه قد حلّ في ديار ابن العميد حِلية لصاحبها، وأيضاً لأي عبد من عبيده كبّر إعجاباً بالممدوح في حال رؤيته للممدوح.

(٦) أغاث: ساعد، أمدّ. يطلب الشاعر من ممدوحه أن يُمدّه بالسلاح والرجال ليستعين =

بِـأَبِـي وَأُمِّـي نَـاطِـقٌ فِـي لَـفْـظِـهِ
ثَـمَـنٌ تُـبَـاعُ بِـهِ الْـقُـلُـوبُ وَتُـشْـتَـرَى[١]

مَـنْ لَا تُـرِيـهِ الْـحَـرْبُ خَـلْـقـاً مُـقْـبِـلاً
فِـيـهَـا وَلَا خَـلْـقٌ يَـرَاهُ مُـدْبِـرَا[٢]

خَـنْـثَـى الْـفُـحُـولَ مِـنَ ٱلْـكُـمَـاةِ بِـصَـبْـغِـهِ
مَـا يَـلْـبَـسُـونَ مِـنَ الْـحَـدِيـدِ مُـعَـصْـفَـرَا[٣]

يَـتَـكَـسَّـبُ الْـقَـصَـبُ الـضَّـعِـيـفُ بِـكَـفِّـهِ
شَـرَفـاً عَـلَـى صُـمِّ الـرِّمَـاحِ وَمَـفْـخَـرَا[٤]

وَيَـبِـيـنُ فِـي مَـا مَـسَّ مِـنْـهُ بَـنَـانُـهُ
تِـيـهُ الْـمُـدِلِّ فَـلَـوْ مَـشَـى لَـتَـبَـخْـتَـرَا[٥]

يَـا مَـنْ إذَا وَرَدَ ٱلْـبِـلَادَ كِـتَـابُـهُ
قَـبْـلَ الْـجُـيُـوشِ ثَـنَـى الْـجُـيُـوشَ تَـحَـيُّـرَا[٦]

= بهم على طلب الولاية ويُقاتل أعداءه الذين يحولون دون تحقيق أمانيه.

(١) يمدح الشاعر ممدوحه بحلو منطقه وروعة بلاغته، لذا فهو يفدّيه بأبويه؛ إنه يستحوذ على القلوب ويستميلها ويُمكنه التصرّف بها لبلاغته وحسن بيانه.

(٢) يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة العظيمة، فما من كميّ يجرؤ على مواجهته في الميدان خوفاً منه ومهابة له، كما أنه لا يفرّ من معركة جبناً وحبًّا للحياة.

(٣) خنثى الفحول: تشبههم بالنسوة في رقّتهن. الكماة، الواحد كميّ: البطل المدجج بالسلاح. المعصفر: المصبوغ باللون الأصفر. ومن أثر شجاعة الممدوح أنه جعل الكماة من الأبطال يجبنون ويتحوّلون إلى مخنّثين حينما يُقابلهم الممدوح في ميادين القتال وقد صبغت دروعهم باللون الأصفر، لون الخسران والموت.

(٤) و (٥) يروى "بخطّه" بدلاً من "بكفّه". يمدح الشاعر ممدوحه بجمال الخطّ، فالقصب يتيه على الرماح السمراء في حال اتّخذ منها أقلاماً يخطّ بها أدبه وعلمه، إنه يكتب خطوطه بفن مبدع، ممّا يجعل اليراع كمن مسته يد ساحرة فأحيت به روحاً تيّاهة تتبختر باعتزاز وإعجاب بإمساك كفّ الممدوح له.

(٦) يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً ببلاغته؛ إنه يُوجّه كتابه لأعدائه متوعّداً متهدّداً؛ فإذا ما قرأوه راعتهم بلاغته فضلاً عن معرفتهم شجاعته ارتدعوا وآثروا مهادنته بسبب ما شاهدوا من جمال الخط وبلاغة مضمون الكتاب.

أَنْتَ الْوَحِيدُ إذَا ٱرْتَكَبْتَ طَرِيقَةً
وَمَنِ الرَّدِيفُ وَقَدْ رَكِبْتَ غَضَنْفَرَا[١]
قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ
وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا[٢]
فَهُوَ الْمُتَبَّعُ بِالْمَسَامِعِ إنْ مَضَى
وَهُوَ الْمُضَاعَفُ حُسْنُهُ إنْ كُرِّرَا[٣]
وإذَا سَكَتَّ فَإِنَّ أَبْلَغَ خَاطِبٍ
قَلَمٌ لَكَ ٱتَّخَذَ الأَنَامِلَ مِنْبَرَا[٤]
وَرَسَائِلٌ قَطَعَ الْعُدَاةُ سِحَاءَهَا
فَرَأَوْا قَناً وأَسِنَّةً وَسَنَوَّرَا[٥]
فَدَعَاكَ حُسَّدُكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا
وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الأَكْبَرَا[٦]

---

(١) الرديف: الراكب خلف سائق المطيّة. الغضنفر: من أسماء الأسد، يمدح الشاعر ممدوحه بأنه وحيد في بابه في كلّ ما يأتيه من الأعمال متفرّد في مآتيه الفكريّة والعلميّة والحربيّة بحيث لا يُمكن غيره أن يفعل فعاله فيُقصّر ويُفتضح أمره بين الخلق. والحقُّ أن الممدوح يركب الأصعب من الأمور ويفوز فيها محققاً أفضل النتائج كراكب الأسد؛ وذلك من الأمور المستحيلة على البشر.

(٢) و(٣) ومن مفاضلة الممدوح أن غيره ممن يُجيدون القول لتسرعهم يأتون بالأقوال قبل نضجها غير مكتملة فجّة ممّا يجعلها صعبة الفهم خلاف الممدوح فإنه يُعْمل فكره وعبقريته في فنون القول، فإذا بها ناضجة تُوحي بتفوّق قائلها في بلاغتها وحكمتها، لذا فإن المستمع لقوله يلذّ له تكرار ما يسمع لوقعه الحسن في الأذن والقلب معاً، بينما ما قاله غيره يسمج في الآذان في حال تكراره، فتكرهه وتملّه الأذواق السليمة.

(٤) يمدح الشاعر ممدوحه؛ بأنه في حال سكوته عن الكلام ناب عن لسانه قلمه الذي يسيل حكمة وعلماً وظرفاً وفنًّا وأدباً.

(٥) السحاء: ما يُشدّ الكتاب به من أدم. السنور: الدروع. يصف الشاعر قوّة أثر ما يكتبه في نفوس قارئيه؛ فالأعداء يُحسّون رعشة الخوف ما تثيره بلاغته في قوّة تهديده ووعيده فيرتدعون ويستسلمون لإرادته طائعين، وكأن القلم قام بفعل السيف.

(٦) لم يمنع حسّاد الممدوح من الإقرار له بتفوّقه عليهم فدعوه بالرئيس إذعاناً وتقديراً، =

خَـلَـفَـتْ صِـفَـاتُـكَ فـي الْـعُـيُـونِ كَـلاَمَـهُ
كَـالْـخَـطِّ يَـمْـلأُ مِـسْـمَـعَـيْ مَـنْ أَبْـصَـرَا(١)
أَرَأَيْـتَ هِـمَّـةَ نَـاقَـتِـي فـي نَـاقَـةٍ
نَـقَـلَـتْ يَـداً سُـرُحـاً وَخُـفَّـا مُـجْـمَـرَا(٢)
تَـرَكَـتْ دُخَـانَ الـرِّمْـثِ فـي أَوْطَـانِـهَـا
طَـلَـبـاً لِـقَـوْمٍ يُـوقِـدُونَ الْـعَـنْـبَـرَا(٣)
وَتَـكَـرَّمَـتْ رُكَـبَـاتُـهَـا عَـنْ مَـبْـرَكٍ
تَـقَـعَـانِ فِـيـهِ وَلَـيْـسَ مِـسْـكـاً أَذْفَـرَا(٤)
فَـأَتَـتْـكَ دَامِـيَـةَ الأَظَـلِّ كَـأَنَّـمَـا
حُـذِيَـتْ قَـوَائِـمُـهَـا الْـعَـقِـيـقَ الأَحْـمَـرَا(٥)

= وذلك من إيثار اللّه تعالى له وحسن توفيقه أن جعله الرئيس الأكبر.

(١) وممّا يدلّ على تلك المأثرة أن تلك الصفات التي جعلها اللّه عزّ وجلّ في الممدوح تبدو واضحة للعيان وإن لم تنطق بذلك الحكمة الإلهيّة، وذلك كالخطّ المرئيّ الذي حلّ محلّ الكلمة لانقطاع الوحي الإلهيّ.

(٢) و (٣) السرح: السهلة السير. المجمّر: الصلابة الشديدة. يصف الشاعر ناقته التي سعت إلى الممدوح بأنها قويّة، سيرها سريع شديد، حملها على ذلك الشاعر بهمّة وعزيمة حتى تنزل في رحاب الممدوح، وقد تخلّت عن دخان الرمث، ذلك النبت الذي كانت ترعاه في موطنها مفضّلاً عليه الممدوح الذي يُشعل العنبر لرائحته، فمنه تغتذي بدلاً من عشب الرمث.

(٤) تكرّمت: تنزّهت، ترفّعت. الأذفر: الطيّب الرائحة. ومن إحسان الممدوح لناقة الشاعر أن الإكرام لها جعلها تبرك على ركباتها فإذا بها تحطّ على أرض غطّيت بالعنبر، تلك الرائحة الطيبة، وهذا يعني أن الممدوح غنيّ مرفّه تكثر في بلاده نباتات فوّاحة بالعطر النديّ.

(٥) الأظلّ: باطن خفّ البعير. حذيت: اتخذ منها حذاء. يذكر الشاعر أن رحلة الناقة لم تكن سهلة، فقد دميت خفافها لصعوبة ووعورة الطريق ممّا آلمها، فبدت كأنها انتعلت عقيقاً أحمر.

بَــدَرَتْ إِلَــيْــكَ يَــدَ الــزَّمَــانِ كَــأَنَّــهَــا
وَجَــدَتْــهُ مَــشْــغُــولَ الْــيَــدَيْــنِ مُــفَــكِّــرَا(١)

مَــنْ مُــبْــلِــغُ الأعْــرَابِ أَنِّــي بَــعْــدَهَــا
جَــالَــسْــتُ رِسْــطَــالِــيــسَ والإسْــكَــنْــدَرَا(٢)

وَمَــلِــلْــتُ نَــحْــرَ عِــشَــارِهَــا فَــأَضَــافَــنِــي
مَــنْ يَــنْــحَــرُ الْــبِــدَرَ الــنُّــضَــارَ لِــمَــنْ قَــرَى(٣)

وَسَــمِــعْــتُ بَــطْــلِــيْــمُــوسَ دارِسَ كُــتْــبِــهِ
مُــتَــمَــلِّــكــاً مُــتَــبَــدِّيــاً مُــتَــحَــضِّــرا(٤)

---

(١) بدرت: سبقت. إن تلك الناقة في سباق مع الزمن، ممّا جعلها تُسارع كي لا يفوتها قطار الزمن وتحول دون وجهتها النكبات والمصائب، فإذا بها تمرق مروق السهم منتهزة تلك الفرصة، فالزمن غافل في سعيه بالإساءة إلى الخلق.

(٢) يفخر الشاعر بأنه قد جالس ممدوحه المثقّف ثقافة فلسفية واسعة كفيلسوف اليونان أرسطوطاليس، وهو الملك العظيم الذي اتّسع ملكه كالإسكندر المقدوني الذي اكتسح معظم العالم القديم بجيوشه المنتصرة. نلمس تعريضاً مغلّفاً بالمديح بسيف الدولة الأعرابي الذي لم يبلغ شأو أبي الفضل ابن العميد.

(٣) العشار: النياق الحوامل في الشهر العاشر من حملها. البدر، الواحدة بدرة: كيس نقود يحتوي عشرة آلاف دينار. النضار: الذهب. قرى: استضاف. ومن تعريض الشاعر بسيف الدولة الذي يمثّل مثال الأمير الأعرابي، فالضيافة عنده تتمثّل بنحر النياق وإطعام الطعام، أي بمعنى آخر، أن العرب يُشبعون البطون بينما يرى أن ممدوحه يتخم جيوبه بالبدر المليئة ذهباً؛ وهذا قرًى يدوم أثره بدوام غناه.

(٤) بطليموس: هو أعظم فلكيّي اليونان وهو صاحب المجسطي في علوم الفلك عندهم. يُنوّه الشاعر بعلم ممدوحه؛ إنه متعدّد نواحي الثقافة الرائجة في عصره، وهو مضطلع على العلوم الفلكية، وذلك لارتباطها بأمور الدين لدى المسلمين، كتحديد مواقيت الصلاة ومواسم العبادة كالصيام ومواسم الحجّ. وتلك العلوم حضارية لا تعرفها البداوة.

وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا
رَدَّ ٱلإِلٰهُ نُفُوسَهُمْ والأَعْصُرَا(١)

نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ ٱلْحِسَابِ مُقَدَّماً
وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا(٢)

يا لَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِي دَمْعُهَا
نَظَرَتْ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ فَتَعْذِرَا(٣)

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لا تَرُدُّ فَضِيلَةً
أَلشَّمْسَ تُشْرِقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرَا(٤)

أَنَا مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ أَطْيَبُ مَنْزِلاً
وَأَسَرُّ رَاحِلَةً وَأَربَحُ مَتْجَرَا(٥)

زُحَلٌ عَلَى أَنَّ الْكَوَاكِبَ قَوْمُهُ
لَوْ كَانَ مِنْكَ لَكَانَ أَكْرَمَ مَعْشَرَا(٦)

---

(١) و (٢) يمدح الشاعر ممدوحه بعلمه الغزير المتعدّد المناحي، فملاقاة الممدوح كأنها كانت لقاء عظيم الفائدة لمن مضى من كبار علماء العصور الخالية، فكأنما بُعث هؤلاء من ذاكرة التاريخ لدى لقاء الشاعر ممدوحه لتلقيه علومهم، فإذا بهم يبعثون من جديد. ومناحي العلوم لديهم متفرّقة، كلّ حسب ما عُرف عنه، فإذا بتلك العلوم تجمّع بفرد واحد، إنه ممدوح الشاعر.

(٣) و (٤) شجاني: أحزنني. الكنهور: السحاب المتراكم. يتمنّى الشاعر لو أن محبوبته التي تركها قاصداً الممدوح، وقد حزن لفراقها وبكى متأثراً لبكائها ومحاولة منعها إياه من السفر. ترى الممدوح لوجدت له عذراً؛ ذلك أنها عثرت على من تتمثل خير الفضائل فيه، كرماً وعلماً وخلقاً وشجاعة وإنسانية، تلك هي فضائل شمس تمزّق السحب الممطرة فتشع في سماء الوجود ساطعة ملؤها الدفء والحبّ والحنان.

(٥) يفخر الشاعر بما ناله من ممدوحه؛ إنه نزل بكريم سرّه بعطاياه وكانت تجارته أربح تجارة، فقد نال لقاء مدحه مالاً ومنزلة عالية أوصلته إليها ناقته.

(٦) ورد البيت في أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٩. يمدح الشاعر قوم ممدوحه، فهم بمثابة النجوم، وزحل شيخ النجوم فلو كان قوم الشاعر من قوم زحل لفخر بأكرم أهل وأعظم نسب على سائر نجوم السماء.

رويّ الزاي

عقل المجيز عقل المجاز

وقال بدمشق يمدح أبا بكر علي بن صالح الروذباريّ الكاتب:

[الخفيف]

كَفِرِنْدِي فِرِنْدُ سَيْفِي الْجُرَازِ
لَذَّةُ الْعَيْنِ عُدَّةٌ لِلْبِرَازِ(١)

تَحْسَبُ الْمَاءَ خَطَّ فِي لَهَبِ النَّا
رِ أَدَقَّ ٱلْخُطُوطِ فِي الأَحْرَازِ(٢)

كُلَّمَا رُمْتَ لَوْنَهُ مَنَعَ النَّا
ظِرَ مَوْجٌ كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِي(٣)

وَدَقِيقٌ قَذَى ٱلْهَبَاءِ أَنِيقٌ
مُتَوَالٍ فِي مُسْتَوٍ هَزْهَازِ(٤)

---

(١) و (٢) فرند السيف: جوهره. البراز: المبارزة. الأحراز، الواحد حرز: الرقى. يمدح الشاعر نفسه بالمضاء وعلو الهمة والشجاعة، ففرند سيفه شبيه به من حيث أثره ومظهره، إنه خير عدة سلاحه عند مبارزته الأقران، فهو بمثابة حِرز يقيه من عاديات الغدر في الحروب، وبريقه شهاب لاهب قاطع إذا جرّده بدا حدّه بخطوطه كرموز دقيقة في الأحراز.

(٣) هازي خففت همزته من هازئ للقافية. ومن صفات ذلك السيف أنه شديد البياض المتموّج لكثرة استعماله في الحروب وتموّج حدّه يسرق النظر شعاعه، ورغم ذلك لا يستطيع المرء تثبيت نظره لشدّة إشعاعه.

(٤) القذى: ما يسقط في العين والشراب. الهباء: الشيء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس. الأنيق: الجميل والحسن المظهر. المتوالي: المتتابع. المستوي: المستقيم. الهزهاز: المضطرب. يُتابع الشاعر وصف سيفه، ففرنده دقيق تنساب =

وَرَدَ الـــمَـــاءَ فَـــالْـــجَـــوَانِـــبُ قَـــدْراً
شَـــرِبَـــتْ والَّـــتِـــي تَـــلِـــيـــهَـــا جَـــوَازِي[١]

حَـــمَـــلَـــتْـــهُ حَـــمَـــائِـــلُ الـــدَّهْـــرِ حـــتـــى
هِـــيَ مُـــحْـــتَـــاجَـــةٌ إلَـــى خَـــرَّازِ[٢]

وَهْـــوَ لا تَـــلْـــحَـــقُ الـــدِّمَـــاءُ غِـــرَارَيْـــ
ـــهِ وَلَا عِـــرْضَ مُـــنْـــتَـــضِـــيـــهِ الـــمَـــخَـــازِي[٣]

يَـــا مُـــزِيـــلَ الـــظَّـــلَام عَـــنِّـــي وَرَوْضِـــي
يَـــوْمَ شُـــرْبِـــي وَمَـــعْـــقِـــلِـــي فِـــي الْـــبَـــرَازِ[٤]

وَالـــيَـــمَـــانِـــي الَّـــذِي لَـــوِ ٱسْـــطَـــعْـــتُ كَـــانَـــتْ
مُـــقْـــلَـــتِـــي غِـــمْـــدَهُ مِـــنَ الإعْـــزَازِ[٥]

= الخطوط فيه على سمت مستوٍ وهو كثير الاضطراب فتبدو فيه الحركة ممّا يمنع الناظر إليه من تدقيق النظر فيه.

(١) الجوازي مخفّفة الهمز من الجوازئ: الاكتفاء عن غيره به. ولقد تأتي ليونة السيف من جرّاء سقايته خلال صناعته، بينما بقي متنه دون ذلك ليكون ذلك أثبت له عند الضرب فلا يتكسّر.

(٢) الحمائل، الواحد حميلة: ما يحمل به. الخرّاز: الذي يخرّز الحمائل بالسيور ويربطها ببعضها. إنه قديم العهد، فقد تداولت أيد كثيرة ذلك السيف حتى أصبحت حمائله خلقة لقدمه، حتى بدا كأن الدهر حامل له.

(٣) غراريه: حدّيه. العرض: ما يتوجب على المرء حمايته من مال وعرض وأرض. انتضى السيف: سلّه. المخازي: العار. يصف الشاعر سرعة ضربه بسيفه حتى إنه لا يتلطخ دماً لسرعة انقضاضه على ضحيته ولا يلصق بها وإنه مفخرة كاملة فلا تُصيب المخازي منتضيه، فإنه لا يُخيّب ظنّه وقت الحاجة إليه لقيامه بما عليه من واجب.

(٤) المعقل: الحصن. البراز: الخلاء حيث لا ساتر في الصحراء. يُخاطب الشاعر سيفه؛ إنه كاشف الظلمة يوم يشتدّ الزحام ويتعالى الغبار في السماء، فإذا ببريقه يُنير له الطريق إلى اكتشاف مواطن الأعداء فيرتوي من دمائهم، وبه يتحصّن ويزود عن نفسه في مواطن الوحشة في الصحراء حيث لا أنيس فيحتمي به.

(٥) اليماني: السيف المصنوع في اليمن. ولقد نشأت علاقة حميمة بين الشاعر وسيفه؛ فهو مصدر اعتزازه وفخره لذا أبقاه يستعين به، ولو استطاع لجعل من عينيه غمداً له.

إنَّ بَـــرْقِـــي إذَا بَـــرَقْـــتَ فَـــعَـــالِـــي
وَصَـلِـيـلِـي إذَا صَـلَـلْـتَ ٱرْتِـجَـازِي[١]
لَـــمْ أحَـــمِّـــلْـــكَ مُـــعْـــلَـــمـــاً هٰـــكَـــذَا إ
لَّا لِـــضَـــرْبِ الـــرِّقَـــابِ والأجْـــوَازِ[٢]
وَلِـقَـطْـعِـي بِـكَ الْـحَـدِيـدَ عَـلَـيْـهَـا
فَـكِـلَانَـا لِـجِـنْـسِـهِ الْـيَـوْمَ غـازِ[٣]
سَـــلَّـــهُ الـــرَّكْـــضُ بَـــعْـــدَ وهْـــنٍ بِـــنَـــجْـــدٍ
فَـتَـصَـدَّى لِـلْـغَـيْـثِ أَهْـلُ الْـحِـجَـازِ[٤]
وَتَـــمَـــنَّـــيْـــتُ مِـــثْـــلَـــهُ فَـــكَـــأنِّـــي
طَـالِـبٌ لابْـنِ صَـالِـحٍ مَـنْ يُـوَازِي[٥]

---

(١) الفعال: الحسن من الأفعال. الصليل: صوت السيف. الارتجاز: الإنشاد وقول الرجز من الشعر. إنه تلازم انسجامي بين الشاعر وسيفه، فبرق السيف، يُقابله أفعال الشاعر المجيدة، وصوت صليل السيف يُقابله إنشاده الأراجيز وتغنيه بشعره الحماسيّ مفتخراً بأعماله في الحروب وسيفه وسيلته للنصر.

(٢) و (٣) المعلم: هو من اتخذ لنفسه علامة في الحرب دلالة على ثقته بشجاعته. الأجواز، الواحد جوز: أوساط المقاتلين، لا يزال الشاعر يُخاطب سيفه؛ إنه يحمله وهو يتخذ لنفسه علامة تميّزه عن غيره من المقاتلين ثقة بشجاعته، وبها يتميّز فيقصده من يودّ منازلته، ولقد استعان به ليقضم أوساط أعدائه ويبريهم به وليقطع الحديد الذي يحتمون به من تروس ودروع، لذا فكل من الشاعر والسيف يغزو جنسه، فيه يقدّ الحديد وبه يُوقع بالأبطال والشجعان.

(٤) الوهن: الليل، ومنتصف الليل، تعرّض: تصدّى مواجهاً. الغيث: المطر. ومن أثر السيف أنه كان الشاعر يُسرع ركض خيول من معه، ولشدّة ذلك إذ انسلّ السيف من غمده، فإذا ببريق يُضيء السماء في نجد، فإذا بالإشعاعات النورانية تبدو في سماء الحجاز، مما جعل أهل تلك الديار يتوقّعون هطول الأمطار مستبشرين بالخير العميم.

(٥) يُوازي: يُساوي، يُعادل. يتخلّص الشاعر إلى المدح بعد مقدمته الطويلة في حديثه عن سيفه الذي تمنّى أن تقع عينه على شبيه به إذ به يعثر عن ممدوحه ابن صالح مجسداً ما وجده في سيفه من صفات حميدة يُحبّها ويستحسنها.

لَـيْـسَ كُـلُّ الـسَّـرَاةِ بـالـرُّوذَبَـار
يِّ وَلَا كُـلُّ مَـا يَـطِـيـرُ بِـبَـازِ [(١)]

فَـارِسِـيٌّ لَـهُ مِـنَ الـمَـجْـدِ تَـاجٌ
كَـانَ مِـنْ جَـوْهَـرٍ عَـلَـى أَبْـرَوَازِ [(٢)]

نَـفْـسُـهُ فَـوْقَ كُـلِّ أَصْـلٍ شَـرِيـفٍ
وَلَـوَ آنِّـي لَـهُ إِلَـى الـشَّـمْـسِ عَـازِ [(٣)]

شَـغَـلَـتْ قَـلْـبَـهُ حِـسَـانُ الـمَـعَـالِـي
عَـنْ حِـسَـانِ الْـوُجُـوهِ وَالأَعْـجَـازِ [(٤)]

وَكَـأَنَّ الْـفَـرِيـدَ وَالـدُّرَّ وَالْـيَـا
قُـوتَ مِـنْ لَـفْـظِـهِ وَسَـامَ الـرِّكَـازِ [(٥)]

---

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. السراة، الواحد سريّ: الشرفاء والنبلاء. الروذباري: نسبة الممدوح إلى مدينته روذبار. أبرواز: إنه أبرويز أحد أكاسرة الفرس وملوك العجم. يمدح الشاعر ممدوحه بالنبل والسؤدد وعلوّ شرفه في قومه إنه يُحلّق في سماء المجد، ولذا فليس كلّ من زاول الطيران في هذا المجال يُدرك معاليه لأنه ورث المجد عن آبائه الملوك الأكاسرة العظام، وهو ينتمي إلى كسرى أبرويز الذي ترك له تاجاً يذكّر بعظمة أجداده.

(٣) ومن مغالاة الشاعر أنه جعل ممدوحه يسمو فوق سائر البشر حتى الشمس وعظم ارتفاعها، فإذا بها دونه شرفاً ورفعة.

(٤) الأعجاز، الواحد عجز: وعجز المرأة مؤخّرتها. يُنوّه الشاعر بطموح ممدوحه، فقد عمل أقصى جهده للوصول إلى الأمجاد العظيمة ولم تلهه الملذّات بشتى أنواعها، لذا فلم يهتمّ بالنساء وجمالهن ومغازلتهن؛ وهذا خلاف ما يُعرف عن الفرس وميولهم إلى المسرّات على شتى أنواعها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. يروى «فكأن» بدلاً من «وكأن». الفريد: كبار حبات اللؤلؤ. السام: عروق الذهب. الركاز: الذهب في باطن الأرض. يصف الشاعر ممدوحه بالفصاحة والبلاغة، فإذا بحبات اللؤلؤ الكبيرة تنتظم من سلك أقواله، وبالذهب يستمدّ لمعانه من بريق معانيه حتى ما كان منه مدفوناً في باطن الأرض لشدّة تأثيره في ذلك المجال.

تَـقْـضَـمُ الْـجَـمْـرَ وَالْـحَـدِيـدَ الأَعَـادِي
دُونَــهُ قَــضْــمَ سُــكَّــرِ الأَهْــوَازِ (١)
بَـلَّـغَـتْـهُ الْـبَـلاَغَـةُ ٱلْـجَـهْـدَ بِـالْـعَـفْـ
ـوِ وَنَــالَ الإِسْــهَــابَ بِــالإِيــجَــازِ (٢)
حَـامِـلُ ٱلْـحَـرْبِ وَالـدِّيـاتِ عَـنِ الْـقَـوْ
مِ وَثِــقْــلِ الــدُّيُــونِ والإِعْــوَازِ (٣)
كَـيْـفَ لَا يَـشْـتَـكِـي وَكَـيْـفَ تَـشَـكَّـوْا
وَبِــهِ لَا بِــمَــنْ شَــكَــاهَــا الْـمَـرَازِي (٤)
أَيُّــهَــا الْــوَاسِــعُ الْـفِـنَـاءِ وَمَـا فِـيـ
ـهِ مَـبِـيـتٌ لِـمَـالِـكَ الْـمُـجْـتَـازِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. قضم: قطع ما هو يابس بأطراف الأسنان. الأهواز: كور بين البصرة وفارس، يذكر الشاعر أن أعداء ممدوحه يقضمون الجمر الملتهب والحديد الحامي لشدّة حسدهم وغيظهم للممدوح كما يُقضم السكر المنتج في الأهواز.

(٢) العفو: المتوفّر بسهولة. الإسهاب: إطالة القول عكس الإيجاز. يصف الشاعر ممدوحه ببلاغته التي تمتاز بالإيجاز وعدم الإطالة في أقواله عكس غيره ممن يُطيلون القول ولا يُجيدون التعبير عمّا يُريدون.

(٣) الديات، الواحدة دية: ما يُؤخذ عن القاتل من مال ليردّ على ورثة القتيل. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يتعهّد بأداء الديات للأرامل وأولادهنّ عن القتلة وسدّ ديون المعوزين لعجزهم عن سدّ ديونهم؛ وتلك ظاهرة إنسانيّة تنمّ عن نبل صاحبها.

(٤) المرازي، الواحدة مرزئة: المصائب، مخففة الهمز للضرورة الشعرية. وممّا يدل على شدّة احتماله وحلّ مشاكل قومه أنه لا يشكو ذلك بصبر عجيب، وهو يتألم لما ينزل بقومه من مصائب فيعمل على تحملها ليُخفف عنهم ما يُلاقون من البلايا.

(٥) فناء الدار: ما امتدّ من جوانبها، المجتاز: المارّ بديار ولا ينزل بها. يمدح الشاعر ممدوحه بجوده وكثرة عطائه، فرغم سعة ملكه ودوره فالمال لا يحتفظ به، بل إنه يوزّعه ولا يقرّ له قرار في خزائنه فتبقى على حالها فارغة خالية.

بِـكَ أَضْـحَـى شَـبَـا الأسِـنَّـة عِـنْـدِي
كَـشَـبَـا أَسْـوُقِ الْـجَـرَادِ الـنَّـوَازِي(١)

وَانْـثَـنَـى عَـنِّـيَ الـرُّدَيْـنِـيُّ حَـتَّـى
دَارَ دَوْرَ الْـحُـرُوفِ فِـي هَـوَّازِ(٢)

وَبِـآبَـائِـكَ الْـكِـرَامِ الـتَّـأَسِّـي
وَالـتَّـسَـلِّـي عَـمَّـنْ مَـضَـى وَالـتَّـعَـازِي(٣)

تَـرَكُـوا الأرْضَ بَـعْـدَ مَـا ذَلَّـلُـوهَـا
وَمَـشَـتْ تَـحْـتَـهُـمْ بِـلَا مِـهْـمَـازِ(٤)

وَأَطَـاعَـتْـهُـمُ الْـجُـيُـوشُ وَهِـيـبُـوا
فَـكَـلَامُ الْـوَرَى لَـهُـمْ كَـالـنُّـحَـازِ(٥)

---

(١) و (٢) شبا الأسنة: الواحدة شباة: حدّها. أسْوق، الواحد ساق. النوازي: الواثبة. ينوّه الشاعر بمناعة ممدوحه، إنه حالما نزل في دياره أحسّ بالأمن، لأن جوار الممدوح منيع فلا يجرؤ أحد أن ينقضّ عليه، لذا صار سنان رمح الشاعر بمثابة ساق الجرادة لعدم اهتمامه بذلك واطمئنانه في كنف الممدوح. فكان من أثر ذلك أن رمحه انثنى حزناً والتوى على نفسه فبات كالحروف المدوّرة في هوز كالهاء والواو والزاي.

(٣) و (٤) التأسي: التعزّي. التعازي، الواحدة تعزية. المهماز: حديدة تستعمل لحثّ الدابّة على الإسراع. الموت حق على سائر العباد، والمرء إنما يتأسى بذكر العظماء كيف عمروا الأرض وتركوا ما قاموا به، يُخاطب الشاعر ممدوحه أن عزاءه يستمده من موت آباء الممدوح الكرام؛ وهذا ما يجعله يقبل بمصير أقربائه الذين فقدهم، وقد ساد آباء الممدوح الدنيا وانقادت لهم بمقاليدها طائعة دون وسائل راغمة، انقياد الدابة الذلول دون استعمال مهماز يحثّ خطاها.

(٥) هيبوا: هابهم البشر. النحاز: من الأدواء التي تصيب الإبل والغنم في صدورها يُشبه السعال. ولقد سيّر هؤلاء الجيوش وتوالت انتصاراتهم ممّا حمل الناس على الانسياق لإرادتهم والانصياع لحكمهم، ممَّا حملهم على التكبّر فلم يُنصتوا لنداء ورجاء البشر، وكأنهم بنظرهم حيوانات تصدر سُعالاً.

وَهِـجَـانٍ عَـلَـى هِـجَـانٍ تَـآيَـتْـ
ـكَ عَـدِيـدَ الْـحُـبُـوبِ فـي الأقْـوَازِ(١)
صَـفَّـهَـا الـسَّـيْـرُ فِـي الْـعَـرَاءِ فَـكَـانَـتْ
فَـوْقَ مِـثْـلِ الـمُـلَاءِ مِـثْـلَ الـطِّـرَازِ(٢)
وَحَـكَـى فـي الـلُّـحُـوم فِـعْـلَـكَ فـي الـوَفْـ
ـرِ فَـأَوْدَى بِـالْـعَـنْـتَـرِيـسِ الْـكِـنَـازِ(٣)
كُـلَّـمَـا جَـادَتِ الـظُّـنُـونُ بِـوَعْـدٍ
عَـنْـكَ جَـادَتْ يَـدَاكَ بِـالإنْـجَـازِ(٤)
مَـلِـكٌ مُـنْـشِـدُ الْـقَـرِيـضِ لَـدَيْـهِ
وَاضِـعُ الـثَّـوْبِ فـي يَـدَيْ بَـزَّازِ(٥)
وَلَـنَـا الْـقَـوْلُ وَهْـوَ أَدْرَى بِـفَـحْـوَا
هُ وَأَهْـدَى فِـيـهِ إلَـى الإعْـجَـازِ(٦)

---

(١)٢ و (٢) الهجان: كرام الإبل والبشر. الكرام: النبلاء. تآيتك: قصدتك. العراء: الفضاء الرحب. الملاء، الواحدة ملاءة: الريطة ذات لفقين. الطِّراز: النقش في الأثواب. تتوالى الحشود منتظمة قاصدة الممدوح من الأقطار على كرام الإبل لتقدّم الطاعة والولاء؛ إنهم صفوف قد غطّت الأرض على سعتها بانتظام، وكلّ في موضعه لا يُزاحم الآخرين احتراماً وهيبة للممدوح.

(٣) الوافر: المال الفائض الكثير. أودى: أهلك. العنتريس من النياق: القوية الشديدة. الكناز: المكتنزة اللحم. يُخاطب الشاعر ممدوحه، فلطول المسافة بين القوم وقصره هدّ السير من عزيمة تلك الراحلات ممّا أدى إلى إضعافها حتى كادت تفنى تماماً كما يقوم الممدوح بجزر المكتنز من النياق للقيام بواجب الضيافة.

(٤) وممّا يدلّ على ثقة الناس بكرم الممدوح؛ فإذا ظنّ أحدهم بأن الممدوح سيتقدّم منه بعطاء، فإذا بظنّه يتحقّق بمُبادرته إلى تحقيق رجائه.

(٥) و (٦) القريض: الشعر. البزاز: بائع البزّ وصانعه وتاجره. وفي معرض افتخاره بشعره يُثني الشاعر على الممدوح بحسن تذوّق الشعر لمعرفته بالجيّد منه، فمعرفته كمعرفة بائع البزّ وتميّز الجيّد من الرديء منه، وعليه فإنه إذا سمع شعر المتنبي أيقن بأنه هو الموحي بالمعجز منه لتوفر تلك الصفات فيه التي يتناولها الشاعر بالإشادة والمدح.

وَمِـنَ الـنَّـاسِ مَـنْ يَـجُـوزُ عَـلَـيْـهِ
شُـعَـرَاءُ كَـأَنَّـهَـا الْـخَـازِبَـازِ (١)
وَيَـرَى أَنَّـهُ الْـبَـصِـيـرُ بِـهٰـذَا
وَهْـوَ فِـي ٱلْـعُـمْـيِ ضَـائِـعُ ٱلْـعُـكَّـازِ (٢)
كُـلُّ شِـعْـرٍ نَـظِـيـرُ قَـائِـلِـهِ فِـيـ
ـكَ وَعَـقْـلُ الـمُـجِـيـزِ عَـقْـلُ الـمُـجَـازِ (٣)

(١) و (٢) الخازبار: حكاية صوت الذباب. يُتابع الشاعر حديثه بأن بعض الممدوحين تخدعهم عبارات بعض من يتسمّوْن بشعراء، وهم ليسوا كذلك؛ فأصواتهم تحكي صوت الذباب يفتقد إلى عنصر الإعجاز فضلاً عن افتقادها إلى جيد المعنى والمبنى، وممَّا يُدهش له الممدوحين عمي قد افتقدوا وسيلة الهداية إلى المعجز من الشعر الجيد.

(٣) المجيز: الممدوح الذي يمنح الجائزة. المجاز: الشاعر الذي يتلقى الجائزة. ثمّة معادلة صحيحة تقوم بين الشاعر وممدوحه؛ فبقدر تقدير الشاعر من قبل ممدوحه يكون الممدوح؛ فالجيد من الشعراء يلتقي بالجيد من الممدوحين الذين يقدّرون موهبته ويُجازونه عطاءً يتناسب مع مكانتهم ومعرفتهم بفنون القول، والعكس صحيح، فمن ضؤلت معرفته بالشعر الجيد سوف يختار ما يُناسب فهمه وعلمه، فتكون جائزته على قدر معرفته.

رويّ السين

حسد الأرض السماء بهم

وقال يمدحه:

[البسيط]

أَظَبْيَةَ الوَحْشِ لَوْلَا ظَبْيَةُ الأَنَسِ
لَمَا غَدَوْتُ بِجَدٍّ في الهَوَى تَعِسِ (١)

وَلَا سَقَيْتُ الثَّرَى وَالمُزْنُ مُخْلِفَةٌ
دَمْعاً يُنَشِّفُهُ مِنْ لَوْعَةٍ نَفَسِي (٢)

وَلَا وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْيَ ثَالِثَةٍ
ذِي أَرْسُمٍ دُرُسٍ في الأَرْسُمِ الدُّرُسِ (٣)

صَرِيعَ مُقْلَتِهَا سَآّلَ دِمْنَتِهَا
قَتِيلَ تَكْسِيرِ ذَاكَ الجَفْنِ وَاللَّعَسِ (٤)

---

(١) الأنس: البشر. الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. التعس: الشقاء وسوء الحال. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزلي، يُخاطب فيه ظبية الوحش التي ذكرته بظبية، فيها الرقة والجمال في بني البشر، وهي سرّ شقائه، ساقها إليه حظه العاثر.

(٢) الثرى: التراب. المزن: السحاب الأبيض. مخلفة: يتوقع منها أن تمطر فتخلف كلّ التوقّعات. يذكر الشاعر حالته، إنه دامع العينين لشدّة حبّه لتلك الغزالة الإنسيّة، حتى إن شدّة شوقه وسخونة دموعه تجعل الأرض ناشفة إذا تساقطت عليها.

(٣) المسي: المساء، ومسي ثالثة: مساء ليلة ثالثة. الأرسم: الآثار. الدرس: المنطمسة. ولقد وقف الشاعر على أطلال هجرتها تلك الظبية منذ ليالٍ ثلاث، ناحل الجسم حزيناً لفراقها.

(٤) الصريع: من أصيب بالصرع. مقلتها: عينها. سآل: ملحاح في الأسئلة. الدمنة: ما اسودّ من آثار الديار. اللعس: سمرة في الشفة. يصف الشاعر ما ألمّ بتلك الديار من =

خَـرِيـدَةٌ لَـوْ رَأَتْـهَـا الـشَّـمْـسُ مَـا طَـلَـعَـتْ
وَلَـوْ رَآهَـا قَـضِـيـبُ الْـبَـانِ لَـمْ يَـمِـسِ (١)

مَـا ضَـاقَ قَـبْـلَـكِ خَـلْـخَـالٌ عَـلَـى رَشَـإٍ
وَلَا سَـمِـعْـتُ بِـدِيـبَـاجٍ عَـلَـى كُـنُـسِ (٢)

إنْ تَـرْمِـنِـي نَـكَـبَـاتُ الـدَّهْـرِ عَـنْ كَـثَـبٍ
تَـرْمِ ٱمْـرَأً غَـيْـرَ رِعْـدِيـدٍ وَلَا نَـكِـسِ (٣)

يَـفْـدِي بِـنِـيـكَ عُـبَـيْـدَ الـلَّـهِ حَـاسِـدُهُـمْ
بِـجَـبْـهَـةِ الْـعَـيْـرِ يُـفْـدَى حَـافِـرُ الْـفَـرَسِ (٤)

أَبَـا الْـغَـطَـارِفَـةِ الْـحَـامِـيـنَ جَـارَهُـمُ
وَتَـارِكِـي الـلَّـيْـثِ كَـلْـبـاً غَـيْـرَ مُـفْـتَـرِسِ (٥)

= جرّاء هجر حبيبته، إنه لا يُحسن التمييز بين الأشياء لما أصابه من صرع؛ فمقلتاها سحرهما فتّاك، وهو لا يريم يسأل تلك الدمن عن أسباب رحيلها ووجهتها، ولقد أصابه جفناها الغائران بسهام قاتلة، وما في شفتها السمراء من سحر.

(١) الخريدة: الحسناء الحييّة. يميس: يميل ويتثنّى. البان: ضرب من الشجر. إن محبوبة الشاعر حييّة فائقة الجمال لو رأتها الشمس لتوارت خجلاً وحسداً، فحتى لو شاهدها قضيب لم يمل ويتثنَّ لهول ما يرى لشدّة خجله.

(٢) الخلخال: حلية تتزيّن بها النسوة من العرب في أرجلهن. الرشأ: الظبية الصغيرة. الكنس، الواحد كِناس: ملجأ الظباء بين الأشجار. يصف الشاعر ما تضعه تلك الحسناء؛ فقد ضاق الخلخال على رجليها اللاحمتين، خلاف الظبية فقائمتاها ناحلتان. ولقد استترت بالديباج في هودجها.

(٣) كثب: قرب. الرعديد: الجبان. النكس: الخسيس. تخلّص الشاعر من الغزل إلى الفخر بنفسه؛ إنه هدف لسهام المصائب والويلات ولكنه قادر على غدرات الزمان، فهو ليس بالجبان، ولا بالخسيس.

(٤) العير: الحمار. يدعو الشاعر لأولاد عبيد اللّه ممدوحه بالسلامة فهم جياد عزيزة الجانب، وحاسدوهم حمير يفدون حوافر أبنائه بجباههم.

(٥) الغطارفة، الواحد غطريف: السادة. الليث: من أسماء الأسد. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه أب لأسياد يحمون ديارهم وجيرانهم فلا يجرؤ الأبطال على الاقتراب منهم لجبنهم وعدم القدرة على تحدّيهم.

مِـنْ كُـلِّ أَبْـيَـضَ وَضَّـاحٍ عِـمَـامَـتُـهُ
كَـأَنَّـمَـا ٱشْـتَـمَـلَـتْ نُـوراً عَـلَـى قَـبَـسِ[(١)]

دَانٍ بَـعِـيـدٍ مُـحِـبٍّ مُـبْـغِـضٍ بَـهِـجٍ
أَغَـرَّ حُـلْـوٍ مُـمِـرٍّ لَـيِّـنٍ شَـرِسِ[(٢)]

نَـدٍ أَبِـيٍّ غَـرٍ وَافٍ أَخِـي ثِـقَـةٍ
جَـعْـدٍ سَـرِيٍّ نَـهٍ نَـدْبٍ رضٍ نَـدُسِ[(٣)]

لَـوْ كَـانَ فَـيْـضُ يَـدَيْـهِ مَـاءَ غَـادِيَـةٍ
عَزَّ الْقَطَا فِي الْفَيَافِي مَوْضِعُ الْيَبَسِ[(٤)]

أَكَـارِمٌ حَـسَـدَ الأَرْضَ الـسَّـمَـاءُ بِـهِـمْ
وَقَـصَّـرَتْ كُـلُّ مِـصْـرٍ عَـنْ طَـرَابُـلُـسِ[(٥)]

---

(١) الأبيض: السيد الحرّ الكريم. الوضّاح: الجميل. القبس: الشعلة النارية. إنهم فتيان سادة أحرار كرماء يمتازون بجمال الوجوه النيّرة، يعتمّون كأن نوراً ينبعث من وجوههم، فيأتي السراة يقتبسون منهم أنواراً.

(٢) الأغرّ: المشرق الوجه لكرمه. يصف الشاعر ممدوحه بقرب الجانب ممن يُحبّ، وفي نفس الوقت لا يستطيع أعداؤه الاقتراب منه لمنعته، وهو محبّ ودود لصحبه، وكذلك إنه مبغض لأعدائه وهو يُسرّ للقاء أحبّائه يلقاهم بوجه بشوش باسم، وبلسان يقطر حلاوة وعذوبة، وهو مرّ اللسان على عدوّه لقدرته على ذلك، وهو ليّن الجانب متواضع مع قومه وعشيرته، وهو شرس يتصرّف مع عدوّه بقوّة وغلظة حتى ينشر الرعب في قلوب أعدائه.

(٣) ندٍ: كريم. أبيّ: أنوف يكره الضيم. غِرّ: محبّ للمكرمات. وافٍ: يعد فيصدق. أخي ثقة: لا يخون صحبه. الجعد: الكريم، عربي الأصل. سري، شريف. نهٍ: عاقل، الندب: يقوم بأصعب المهام التي ينتدب إليها. الندس: الفطن يتوقّد ذكاءً. يرصف الشاعر صفات محبّبة للممدوحين ليستزيد عطاياهم.

(٤) فيض يديه: ما يزيد من عطاياه. الغادية: السحابة تهلّ بالمطر في الغداة. عزّ: أتعب عدوّه. القطا: ضرب من أنواع الحمام البرّي. الفيافي: القفار. اليبس: الجفاف، يصف الشاعر ممدوحه بفيض كرمه، حتى إن كرمه تجاوز الحدود كسحابة عمّ خيرها الكون بأسره بحيث لا تجد القطاة مكاناً جافاً تلتقط منه حبّاً أو تجد مناماً لها تأوي إليه.

(٥) المصر: البلد. لشدّة كرم آل الممدوح حسدتهم السماء على ذلك، ولقد قصّرت =

أَيُّ الـمُـلُـوكِ - وَهُـمْ قَـصْـدِي - أُحَـاذِرُهُ
وَأَيُّ قِـرْنٍ وَهُـمْ سَـيْـفـي وَهُـمْ تُـرُسِـي؟! (١)

موتي في الوغى عيشي

قال ارتجالاً وقد سأله صديق له يعرف بأبي ضبيس، الشراب معه فامتنع :

[الوافر]

أَلَـذُّ مِـنَ الـمُـدَامِ الْـخَـنْـدرِيـسِ
وَأَحْـلَـى مِـنْ مُـعَـاطَـاةِ الْـكُـؤُوسِ (٢)
مُـعَـاطَـاةُ الـصَّـفَـائِـحِ وَالـعَـوَالِـي
وَإِقْـحَـامِـي خَـمِـيـساً فِـي خَـمِـيـسِ (٣)
فَـمَـوْتِـي فـي الْـوَغَـى أَرَبِـي لأنِّـي
رَأَيْـتُ الْـعَـيْـشَ فـي أَرَبِ الـنُّـفُـوسِ (٤)
وَلَـوْ سُـقِّـيـتُـهَـا بِـيَـدَيْ نَـدِيـم
أُسَـرُّ بِـهِ لَـكَـانَ أَبَـا ضَـبِـيـسِ (٥)

= سائر البلدان على مجاراتهم في ما امتازوا به، فإذا بطرابلس مركز الكون وعين الزمان.

(١) القِرْن: المساوي في الشجاعة. لن يخاف الشاعر من أحد وحتى من الملوك في حال توجهه إلى ذلك الملك، وهو لن يهتمّ طالما أنه يستعين بهم، فهم حماته وسلاحه في هذا الوجود.

(٢) و (٣) المدام: من أسماء الخمرة. الخندريس: الخمرة المعتّقة. الصفائح: السيوف العراض. العوالي: صدور الرماح. الإقحام: تداخل شيئين في بعضهما. الخميس: الجيش خمسون ألفاً. يُقارن الشاعر بين شرب الخمرة وبين مُقارعة الحروب مفضلاً السيوف العريضة والرماح وتداخل الجيوش وتلاحمها، حيث تتعالى صيحات الأبطال وتُسال الدماء على معاقرة الخمرة وتبادل الكؤوس المليئة بالخندريس المعتّقة.

(٤) الوغى: الحرب. الأرب: الحاجة والغاية. أصحاب المثل العليا يعيشون ليحققوا ذواتهم في ما يأملون من عيشهم، فالمتنبي واحد من هؤلاء، إنه يودّ أن يعيش لتحقيق أمانيه في ظلّ السيوف في حرب ضروس، والموت هناك وسام شرف على صدور الشهداء الشجعان؛ وتلك هي أسمى غاية في حياة حافلة بالأحداث الجسام.

(٥) النديم: الجليس المنادم على الشراب. ومن لائق الاعتذار يُقرّ الشاعر أنه لو أراد =

ونطرد باسمه إبليسا

يمدح محمد بن زريق الطرسوسي:

[الكامل]

هٰـذِي بَـرَزْتِ لَـنَـا فَـهِـجْـتِ رَسِـيـسَـا
ثُـمَّ ٱنْـثَـنَـيْـتِ وَمَـا شَـفَـيْـتِ نَـسِـيـسـا (١)

وَجَعَلْتِ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي فِي الكَرَى
وَتَـرَكْـتِـنـي لِـلْـفَـرْقَـدَيْـن جَـلِـيـسَـا (٢)

قَـطَـعْـتِ ذَيَّـاكِ الْـخُـمَـارَ بِـسَـكْـرَةٍ
وَأَدَرْتِ مِـنْ خَـمْـرِ الْـفِـرَاقِ كُـؤُوسَـا (٣)

إنْ كُـنْـتِ ظَـاعِـنَـةً فَـإِنَّ مَـدَامِـعِـي
تَـكْـفِـي مَـزَادَكُـمُ وَتُـرْوِي الْـعِـيـسَـا (٤)

= المنادمة على الشراب لشرب كأساً رويّة من يد صديق حميم، إنه أبو ضبيس، وهو نعم النديم المؤنس.

(١) ورد البيت في: شرح المفصل، لابن يعيش الحلبي ٢ : ١٦، المقرّب، لابن عصفور: ٣٧، مغني اللبيب وشرح شواهده للسيوطي: ٦٤١، شرح شواهد الألفية، للعيني ٤ : ٢٣٣، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ٣ : ١٣٧. حاشية يس على التصريح ١ : ٣٢٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٥. برزت: ظهرت. الرسيس: ما استقرّ في قلب الشاعر من الحبّ. النسيس: آخر ما يتردّد في المرء من الرمق. ويبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجداني غزلي. يُخاطب حبيبته التي لا يعرف اسمها بهذه، وقد أطلّت بطلعتها، فإذا بقلبه ينبض نبضات عاشق، وممّا زاد في لوعته أنها سارعت بالرحيل مودّعة ولم تعمل على شفاء قلبه بوصالها تاركة أنفاسه تتردّد وهو في الرمق الأخير.

(٢) الكرى: النوم. الفرقدين: هما نجمان لا يفترقان. إن الشاعر لا يعرف للنوم طعماً، فإذا بمعشوقته تجعل حظّه السهر والأرق حيث يشارك الفرقدين نجويهما، فيكون بينه وبينهما حوار هامس حيث ينعى الشاعر حظّه ممن يحبّ.

(٣) الخُمار: بقية السكر. يُخاطب الشاعر حبيبته ذاكراً ما كان عليه شأنه في حال قربهما كأنه في شبه خمار لبخلها بالوصال، فإذا بها ترحل عنه بعيداً فتتوالى عليه المصائب تصبّها صَبًّا فتفقده صوابه.

(٤) الظاعنة: الراحلة. المدامع: مجاري الدموع من العينين. المزاد، الواحدة مزادة: =

حَـاشَـى لِـمِـثْـلِـكِ أَنْ تَـكُـونَ بِـخَـيـلَـةً
وَلِـمِـثْـلِ وَجْـهِـكِ أَنْ يَـكُـونَ عَـبُـوسَـا(١)

وَلِـمِـثْـلِ وَصْـلِـكِ أَنْ يَـكُـونَ مُـمَـنَّـعـاً
وَلِـمِـثْـلِ نَـيْـلِـكِ أَنْ يَـكُـونَ خَـسِـيـسَـا(٢)

خَـوْدٌ جَـنَـتْ بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَ عَـوَاذِلِـي
حَـرْبـاً وَغَـادَرَتِ الْـفُـؤَادَ وَطِـيـسَـا(٣)

بَـيْـضَـاءُ يَـمْـنَـعُـهَـا تَـكَـلَّـمَ دَلُّـهَـا
تِـيـهاً وَيَـمْـنَـعُـهَـا الْـحَـيَـاءُ تَـمِـيـسَـا(٤)

لَـمَّـا وَجَـدْتُ دَوَاءَ دَائِـي عِـنْـدَهَـا
هَـانَـتْ عَـلَـيَّ صِـفَـاتُ جَـالِـيـنُـوسَـا(٥)

= القرب. العيس: النياق. يصوّر الشاعر لحبيبته في حال ارتحالها كيف أن دموعه تنهمر بغزارة بحيث تملأ ما لديهم من قرب الماء، فتروي إبلهم بحيث يكتفون فلا يحتاجون إلى طلب الحصول على شيء منها.

(١) و (٢) النيل: ما يمكن أن يُعطى. الخسيس: القليل. يُخاطب الشاعر حبيبته منزّهاً إيَّاها أن تمانع بالوصل، فالبخل ليس من طبيعتها والعبوس ليس من عادتها، فوجهها جميل وزكاة الوجه الجميل ابتسامة حلوة عذبة. وهو يتمنى ألّا تبخل بلقاء. وهذا ما يجعله ملحاحاً لقناعته بأنها لن تنزل عند رغبته.

(٣) الخود، بفتح الخاء: الشابة الجميلة الناعمة. جنت: جرّت. الوطيس: التنور من حديد. لقد تسببت تلك الشابة الحسناء بحرب بين الشاعر ولائميه في هواها من العذّل علّه يتخلّى عن هذا الحبّ الذي ترك فؤاده بهجرها آتوناً يغلي.

(٤) تميس: تميل وتتثنّى بمشيتها. يصف الشاعر حبيبته؛ إنها بيضاء ممَّا يدلّ على أنها حرّة طاهرة العرض، وهي رغم دلالها ورقّتها فإنها لا تتكلّم، وتمشي باتزان لا تصنع ولا تكبّر اعتزازاً بجمالها فلا تميس بمشيها وتتثنى كالمغناج من النسوة.

(٥) الداء: المرض. جالينوس: أشهر أطباء اليونان. لقد تأكّد للشاعر أن دواءه الشافي في لقاء حبيبته ليُعبّر عن مدى حبّه لها، ولم يُؤمن بأن وصفات جالينوس الطبّيّة مفيدة في حالة كهذه.

أبْـقَـى زُرَيْـقٌ لِـلـثُّـغُـورِ مُـحَـمَّـداً
أَبْـقَـى نَـفِـيسٌ لِـلنَّـفِـيسِ نَـفِـيسَـا[١]
إنْ حَـلَّ فَـارَقَـتِ الْـخَـزائِـنُ مَـالَـهُ
أَوْ سَـارَ فَـارَقَـتِ الْـجُـسُـومُ الـرُّوسَـا[٢]
مَـلِـكٌ إذَا عَـادَيْـتَ نَـفْـسَـكَ عَـادِهِ
وَرَضِـيـتَ أَوْحَـشَ مَـا كَـرِهْـتَ أَنِـيسَـا[٣]
الـخَـائِـضَ الْـغَـمَـرَاتِ غَـيْـرَ مُـدَافَـعٍ
وَالـشَّـمَّـرِيَّ الـمِـطْـعَـنَ الـدِّعِّـيـسَـا[٤]
كَـشَّـفْـتُ جَـمْـهَـرَةَ الْـعِـبَـادِ فَـلَـمْ أَجِـدْ
إلَّا مَـسُـوداً جَـنْـبَـهُ مَـرْؤُوسَـا[٥]

---

(١) زُريق: والد محمد الممدوح. الثغور، الواحد ثغر: هي مواطن متاخمة لبلاد الأعداء، يتخذها المقاتلة معسكرات للدفاع عن بلاد الإسلام. انتقل الشاعر من موضوع غزلي إلى موضوع مدحيّ دون مقدّمات. لقد جهّز زُريق والد الممدوح محمد من يأمنه على تخوم بلاد الإسلام لكفاءته وشجاعته وحسن بلائه في محاربة الأعداء. ولقد انتقلت تلك المهمة الخطرة من أمير عظيم إلى وريثه فورث كلّ مواصفاته، فهو بدوره نفيس كأبيه.

(٢) يصف الشاعر ممدوحه بجودِه في حال بقائه في دياره؛ فكرمه يعمّ جميع مواطنيه حتى لا يُبقي في خزائنه مالاً، وهو ماجد شجاع، فإذا خرج من دياره لملاقاة الأعداء كان سيفه وسيلة حصد الرؤوس عن الأجساد.

(٣) الأنيس: الصاحب. يُشيد الشاعر بممدوحه؛ إنه ملك قادر في مواجهة أعداء؛ فإذا أراد المرء أن يتخلى عن روحه ويتمنّى الموت فعليه أن يستعديه، ليكون أنيس قبر ولحد.

(٤) الغمرات: الحروب. الشمري: المجرّب في الملمات العظام. المطعن: المجيد والمكثر الطعن في القتال. الدّعيس: المبالغ في الطعن. الممدوح مثال في الشجاعة، إنه يخوض غمار بحار الموت في معارك عنيفة لا يُشقّ له غبار، سلاحه رمح يشقّ الصدور بعنف ويُحسن استعماله بمهارة ورشاقة عجيبة.

(٥) كشفت: اختبرت. الجمهرة: الجمهور. المسود: المستعبد. يجعل الشاعر ممدوحه فوق سائر البشر، فالبشر كثيرون، وهم بين سيّد ومسود، وبخبرته تبيّن له أن ممدوحه علا شأنه حتى بات سيد الناس بلا منازع، إليه يؤول أمرهم.

بَـــشَـــرٌ تَـــصَـــوَّرَ غَـــايَـــةً فـــي آيَـــةٍ
تَـنْفِـي الـظُّـنُونَ وتُـفْسِـدُ الـتَّـقْـيِيـسَـا[١]

وَبِـــهِ يُـضَـــنُّ عَـلـــى الْـبَـرِيَّـةِ لَا بِـــهَـــا
وَعَـلَـيْـهِ مِـنْـهَـا لَا عَـلَـيْـهَـا يُـوسَـى[٢]

لَـــوْ كَـــانَ ذُو الـــقَـــرْنَـــيْـــنِ أَعْـــمَـــلَ رَأْيَـــهُ
لَـمَّـا أَتَـى الـظُّـلُـمَـاتِ صِـرْنَ شُـمُـوسَـا[٣]

أَوْ كَـــانَ صَـــادَفَ رَأْسَ عَـــازَرَ سَـــيْـــفُـــهُ
فـي يَـوْمِ مَـعْـرَكَـةٍ لأَعْـيَـا عِـيـسَـى[٤]

أَوْ كَـــانَ لُـــجُّ الْـبَـحْـرِ مِـثْـلَ يَـمِـيـنِـهِ
مَـا انْـشَـقَّ حَـتَّـى جَـازَ فِـيـهِ مُـوسَـى[٥]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. غاية كلّ شيء: منتهاه. الآية: العلامة. التقييس: من القياس. يُتابع الشاعر فكرته، فممدوحه من البشر شكلاً، ويختلف عنهم بمادّة إنسانيته وطبيعته، إنه آية إلهية ونموذج من الظلم أن يُقاس بغيره من بني جنسه لما يميّزه عنهم من ملكات عقلية وفكرية وبطوليّة وأخلاقية؛ فذلك ينمّ عن قياس فاسد لدى أصحابه.

(٢) يُضنّ: يُبخل. البرية: البشر. يوسى: يحزن. إن ممدوح الشاعر نادر الوجود، لذا لا يُضنّ به على سائر الخلق لما ميّزه اللّه عزّ وجلّ به من مزايا وصفات، وليس لسائر الناس فضل عليه بشيء، لذا فلو خسروه لم يُفلحوا في حياتهم، فجميعهم لا يُعادلونه لعظم قدره لأنه أفضلهم، وبقاؤه ضرورة لحياتهم، فلو هلك لضاعوا جميعاً لأنه رأسهم، والجسد بلا رأس لا قيمة له.

(٣) و (٤) ومن مغالاة المتنبي المذمومة أن الممدوح ذو رأي سديد، فلو أن ذا القرنين استشار ممدوحه لأوضح ما عليه فعله ولأرشده إلى الصواب فوصل إلى درب ووصل إلى النور ولما وصل إلى درب الظلمات، ومن تلك المغالطات لو أن سيف الممدوح أطاح برأس عازر لما أمكن عيسى عليه السلام إحياءه؛ وذلك تمّ بفضل تأييد اللّه تعالى له لتكون من معجزاته عليه السلام.

(٥) ومن معجزات الممدوح أنه قادر على تغيير مسارات الإرادة الإلهية، فلو أن أعماق البحر حيث مرّ موسى عليه السلام مع قومه بقوّة يمين ممدوحه لتماسكت أعماق اليمّ =

أَوْ كَانَ لِلنِّيرَانِ ضَوْءُ جَبِينِهِ
عُبِدَتْ فَصَارَ الْعَالَمُونَ مَجُوسَا(١)
لَمَّا سَمِعْتُ بِهِ سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ
وَرَأَيْتُهُ فَرَأَيْتُ مِنْهُ خَمِيسَا(٢)
وَلَحَظْتُ أُنْمُلَهُ فَسِلْنَ مَوَاهِباً
وَلَمَسْتُ مُنْصُلَهُ فَسَالَ نُفُوسَا(٣)
يَا مَنْ نَلُوذُ مِنَ الزَّمَانِ بِظِلِّهِ
أَبَداً وَنَطْرُدُ بِٱسْمِهِ إِبْلِيسَا(٤)
صَدَقَ ٱلْمُخَبِّرُ عَنْكَ دُونَكَ وَصْفُهُ
مَنْ بِالْعِرَاقِ يَرَاكَ فِي طَرَسُوسَا(٥)

= وامتنعت عن السماح لموسى وقومه بالمرور وإغراق فرعون وجنوده؛ تلك إرادة اللّه عزّ وجلّ ولم يكن لموسى ولا للبحر يد في حدوث ذلك الأمر.

(١) ومن تلك المغالطات لو أن نيران المجوس استمدت من الممدوح ضياءها، لخضع البشر للنيران يعبدونها من دون اللّه عزّ وجلّ.

(٢) الخميس: الجيش العظيم المؤلف من خمس فرق. ومن المبالغات أن الممدوح فرد واحد ولكنه بمثابة جيش عظيم عرمرم، ومن هنا تبدو شجاعته فيقوم بما يقوم ذلك الجيش من بطولات وانتصارات.

(٣) الأنمل: الإصبع. منصل السيف: قبضته. لقد وجد الشاعر في ممدوحه كرماً لا حدود له يُنفق كيف شاء وهو في نفس الوقت شجاع بطل مغوار، فإذا به يبطش بالأعداء ويسفك دماءهم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. نلوذ: نلجأ ونحتمي. إن ركن الممدوح مكين؛ يُخاطب الشاعر الممدوح بأنه ملاذ آمن من عثرات الدهر، فظله نعمة الأمن والسلام، وباسمه محمد يُطرد إبليس لعنه اللّه تعالى، لأنه سميّ الرسول ﷺ.

(٥) يتناقل الناس الحديث عن مآثر الممدوح، وهم صادقون بمدحه. ورغم إعجابهم به فإن وصفهم ومديحهم دون ما يستحق من ذلك، فمن سمع من أهل العراق عن فضائله كأنه في طرسوس يرى ويسمع عن كثب مثالاً تصدق الروايات عنه في ما يُذكر.

بَــلَــدٌ أَقَــمْــتَ بِــهِ وَذِكْــرُكَ سَــائِــرٌ
يَـشْـنَـا الـمَـقِـيـلَ وَيَـكْـرَهُ الـتَّـعْـرِيـسَـا(١)
فَــإِذَا طَــلَــبْــتَ فَــرِيــسَــةً فَــارَقْــتَــهُ
وَإِذَا خَــدِرْتَ تَــخِــذْتَــهُ عِــرِّيــسَــا(٢)
إِنِّــي نَــثَــرْتُ عَــلَــيْــكَ دُرًّا فَــانْــتَــقِــدْ
كَـثُـرَ الـمُـدَلِّـسُ فَـاحْـذَرِ الـتَّـدْلِـيـسَـا(٣)
حَــجَّــبْــتُــهَــا عَــنْ أَهْــلِ إِنْــطَــاكِــيَّــةٍ
وَجَـلَـوْتُـهَـا لَـكَ فَـاجْـتَـلَـيْـتَ عَـرُوسَـا(٤)
خَـيْـرُ الـطُّـيُـورِ عَـلَـى الْـقُـصُـورِ وَشَـرُّهَـا
يَـأْوِي الْـخَـرَابَ وَيَـسْـكُـنُ الـنَّـاوُوسَـا(٥)

---

(١) يشنأ: يكره، يبغض. المقيل: نوم الراحة في الظهيرة. التعريس: النزول في أماكن الراحة آخر الليل. يصف الشاعر انتقال صيت ممدوحه بين الناس في بلاده؛ فلا يقرّ له قرار شأن البشر، لا في الليل ولا في النهار، لانشغال البشر بسيرته في كلّ وقت.

(٢) خدر الأسد: أقام في عرينه مستتراً. العريس: عرين الأسد. يُخاطب الشاعر ممدوحه، أنه أسد يحمي عرينه، ويُقيم فيه، فلا يُغادره إلّا لقتال أعدائه، وهو دائم المكوث لحماية عرينه كأسد يعمل على حماية أشباله وأسرته من كل شرّ.

(٣) وردت الأبيات الثلاثة التالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٢. انتقد: ميّز بين الرّديء والجيّد من الشعر. المدلّس: من يُخفي عيب سلعته لتروج بين الناس في السوق. يفخر الشاعر بشعره، إنه الدرّ، ويُخاطب ممدوحه طالباً منه أن يتبيّن شعره الجيّد؛ ففي السوق من بضاعته ما هو سيّئ كاسد يعمل المدلسون على رواجه بإخفاء معايبه، وليكن على حذر من الخداع، وليس كلّ من قال شعراً يُعتبر شاعراً.

(٤) حجبتها: حزتها. جلا: كشف وهيّأ. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه اختصّه بقصيدته دون سائر الناس في إنطاكية ليقدمها له كعروس جُليت وزُيّنت بأجمل زينة لينعم بها دون غيره.

(٥) الناووس: القبر. يُعبّر الشاعر عن رأيه بدور الشعر الجيد، فأفضل الأنواع ما أُنشد في قصور الملوك والأمراء والنبلاء والكاسد منه ما مدح به العامة من الناس. إنها نظرة شاعر متكسب لدور الشعر في حياة الأمة.

لَـوْ جَـادَتِ الـدُّنْـيَـا فَـدَتْـكَ بِـأَهْـلِـهَـا
أَوْ جَـاهَـدَتْ كُـتِـبَـتْ عَـلَـيْـكَ حَـبِـيـسَـا (١)

ألا أذّن

قال وقد أذن المؤذن فوضع سيف الدولة الكأس من يده: [الوافر]

أَلَا أَذِّنْ فَـــمَـــا أَذْكَـــرْتَ نَـــاسِـــي
وَلَا لَـــيَّـــنْـــتَ قَـــلْـــبـــاً وَهْـــوَ قَـــاسِ (٢)

وَلَا شُـــغِـــلَ الأَمِـــيـــرُ عَـــنِ الْـــمَـــعَـــالِـــي
وَلَا عَـــنْ حَـــقِّ خَـــالِـــقِـــهِ بِـــكَـــاسِ (٣)

يقلُّ له القيام

دسّ إليه الأسود من قال له قد طال قيامك في مجلس كافور، يريد أن يعلم ما في نفسه له فقال ارتجالاً: [الوافر]

يَـــقِـــلُّ لَـــهُ الْـــقِـــيَـــامُ عَـــلَـــى الـــرُّؤُوسِ
وَبَـــذْلُ الْـــمُـــكْـــرَمَـــاتِ مِـــنَ الـــنُّـــفُـــوسِ (٤)

---

(١) الحبيس: الموقوف لغير المسلمين. وتأييداً لموقف الممدوح الذي كان يقوم بالدفاع عن تخوم المسلمين في الثغور؛ فلو كان الخلود لأبقت الدنيا على ممدوحه وفدته بسائر الناس لأهميته للمسلمين، وحتى لو جاهدت وحصلت على الغنائم لقصرتها عليه دون سواه لأحقيته بذلك.

(٢) ورد البيت في: شرح شواهد شروح الألفية، للعيني ٤ :٤٥٨. يُخاطب الشاعر المؤذن الذي رفع صوته بالنداء، بأنه لم يذكّر ناسياً، فهو يُحافظ على الصلاة في أوقاتها، وليس بحاجة إلى من يُذكره بذلك، لأنه مؤمن، يخشع قلبه لذكر اللّه تعالى، لشدّة شعوره بالوقوف بين يدي خالقه.

(٣) يردّ الشاعر على المؤذّن بأن ممدوحه لا تشغله سفاسف الأمور؛ إنه مجرّد كأس ملئت خمرة، لا يشغله عن واجبه نحو خالقه كما أنه لا يُنسيه ما خلق لأجله السعي لبلوغ أعلى مراتب المجد، وهو ليس كغيره ممن يُضيعون أوقاتهم بلا فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العظيم.

(٤) ما يُقدمه الشاعر لممدوحه، مهما يكن عظيماً، فهو نزر قليل بحقّه، فهو جدير بتقديم =

إِذَا خَانَتْهُ فِي يَوْمِ ضَحُوكِ
فَكَيْفَ تَكُونُ فِي يَوْمٍ عَبُوسِ[(١)]

أنوك من عبد ومن عرسه

وخرج من عنده يوماً فقال :

[السريع]

أَنْوَكُ مِنْ عَبْدٍ وَمِنْ عِرْسِهِ
مَنْ حَكَّمَ الْعَبْدَ عَلَى نَفْسِهِ[(٢)]
وَإِنَّمَا يُظْهِرُ تَحْكِيمُهُ
تَحَكُّمَ الإِفْسَادِ فِي حِسِّهِ[(٣)]
مَا مَنْ يَرَى أَنَّكَ فِي وَعْدِهِ
كَمَنْ يَرَى أَنَّكَ فِي حَبْسِهِ[(٤)]
لَا يُنْجِزُ الْمِيعَادَ فِي يَوْمِهِ
وَلَا يَعِي مَا قَالَ فِي أَمْسِهِ[(٥)]

= الحبّ والولاء ، لذا فالرؤوس تنحني إجلالاً وتعظيماً لشخصه ، ولهذا تهون النفوس فتُبذل في سبيل صونه من كلّ مكروه .

(١) والحياة يومان : يوم سعد وأمن ، إنه يوم تلاقي النفوس على الودّ والحبّ ، فمن يخن في يوم كهذا لا يُقدّر ولا يُؤبه له لخيانته في أيام السلم ، ولهذا ففي يوم عبوس ، يوم الشدّة ويوم حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان يتكشّف الحبّ الحقيقي والإخلاص لمن اصطنعه .

(٢) الأنوك : الأحمق . العرس : الزوج . إنه عتاب النفس ، يوجهه الشاعر إلى ذاته ، فقد أخطأ التقدير إذ جعل عبداً يتحكّم بمصيره فلا يُحسن التخلص من قيود المصانعة ، فقد جعل عبداً أسود وزوجته يتحكّمان به ، وهو الحرّ ؛ وتلك مهزلة المفارقات في هذه الحياة .

(٣) وممّا يدلّ على سوء الحكم أن الشاعر بنى حكمه على نظرة خاطئة دفعه طمعه للسير فيها فاستحكم كافور بمصيره ، ولقد نتج ذلك بسبب حسّه الفاسد وعدم تقديره للعواقب .

(٤) إنه أمل بإنفاذ بوعد ، أمنيّة تُسعد في حال أصبح الوعد حقيقة ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ذلك أن من يعد يُخلف الوعد بكيد ، فإذا بالشاعر معلّق بالهواء ، مرّة يُحسّ بأن الوعد قد يُصبح حقيقة ومرّة أخرى يُحسّ بأنه مسجون لا يستطيع فكاكاً فيرحل عائداً إلى وطنه .

(٥) مشكلة الشاعر مع كافور تتمحور حول قضيتين : الأولى أنه لا يقدر على إنفاذ ما وعد =

وَإِنَّمَا تَحْتَالُ فِي جَذْبِهِ
كَأَنَّكَ المَلَّاحُ في قَلْسِهِ[(١)]
فَلَا تُرَجِّ ٱلْخَيْرَ عِنْدَ امْرِىءِ
مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ في رَأْسِهِ[(٢)]
وَإِنْ عَرَاكَ الشَّكُّ في نَفْسِهِ
بِحَالِهِ فَانْظُرْ إلى جِنْسِهِ[(٣)]
فَقَلَّمَا يَلْؤُمُ في ثَوْبِهِ
إلَّا الَّذِي يَلْؤُمُ في غِرْسِهِ[(٤)]
مَنْ وَجَدَ المَذْهَبَ عَنْ قَدْرِهِ
لَمْ يَجِدِ المَذْهَبَ عَنْ قَنْسِهِ[(٥)]

= بتحقيقه، والثانية أن كافوراً غافل كثير النسيان؛ ومن هنا لا يستحقّ أن يحكم بلاداً واسعة، والنسيان نقيصة بحدّ ذاتها.

(١) الملّاح: البحار. القلس: حبل السفينة تُشدّ به في مرساها. الحلّ في هذه الحالة يكمن بالمصانعة والدهاء للخلاص من هذه الورطة التي أوقع الشاعر بها نفسه علّه يحصل على مبتغاه، تماماً كالبحار يُمسك بحبل السفينة يشدّه لئلّا تُفلت منه، فيغرق وتنسلّ فيجرفها التيار خلاف ما يبغيه الملاح، فيضيع جهده سدى.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٤. النخاس: بائع الدواب والعبيد. يصبّ الشاعر جام غضبه على كافور، إنه لا خير فيه ولا يُرتجى منه نفع، فقد لقي الأمرين من النخاس الذي قام ببيعه ضرباً وتنكيلاً ونخساً بالمنخاس تماماً كما يُفعل بحمار حارن.

(٣) عراك: غشيك، داخلك. يُخاطب الشاعر من شكّ بطبيعة كافور، هل هو من البشر؟ ومن أيّ نوع منهم؟ إنه زنجيّ عبد، والعبد لا يُرجى منه نفع، إنه كأبناء جنسه غباءً فضلاً عن خلوّه من كلّ مكرمة، بل إنه لئيم بطبعه، عنيد لا يتراجع عن عناده.

(٤) الغرس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود ساعة ولادته. يرى الشاعر أن اللؤم متأصل بمن اتّصف بتلك الرذيلة، فمنذ ولادة المرء تغطيه هذه الصفة فتشوّه شكله وحياته طوالها.

(٥) القنس: الأصل. يُعلّل الشاعر مسلك كافور؛ فهو وإن تملّك أمور العباد وناصية البلاد، سرعان ما يعود لأصل العبودية المبنية على اللؤم والغدر فيه، فالعرق دسّاس يُحرّك العبد بلا شعور منه ودون وعي.

تحسد أرؤسهم أرجلهم

أحضرت مجمرة قد حشيت بالنرجس والآس حتى خفيت نارها فكان الدخان يخرج من خلالها، فقال:

[المتقارب]

أَحَبُّ امْرِىءٍ حَبَّتِ الأَنْفُسُ
وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مَعْطِسُ (١)

ونَشْرٌ مِنَ النَّدِّ لَكِنَّما
مَجَامِرُهُ الآسُ والنَّرْجِسُ (٢)

وَلَسْنَا نَرَى لَهَباً هَاجَهُ
فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّكَ الأَقْعَسُ (٣)

فَإِنَّ الْقِيَامَ الَّتِي حَوْلَهُ
لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الأَرْؤُسُ (٤)

---

(١) المعطس: الأنف. يُخاطب الشاعر ممدوحه أنه يُجمع الناس على حبّه، والحبّ يجمع البشر على ما يشتركون به، فلذا يتوحّدون من أجل مرضاة الممدوح. ويُضيف أن رائحة الندّ المنبعث من الجمرة يملأ الرؤوس بطيب رائحته.

(٢) النشر: فوح الطيب. المجامر: المباخر. يصف الشاعر المباخر وما ينبعث منها؛ إنه الندّ يفوح عطراً فيملأ الأرجاء برائحته، ولكنّ الدخان لا يُرى منبعثاً لوجود الآس والنرجس في المباخر، وهما لا يُثيران دخاناً مزعجاً.

(٣) الأقعس: الثابت. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن ما ثار لهب تلك المجامر رغم عدم رؤيتها تنبعث من تلك المجامر، فيسأله هل سرّ ذلك اللهب ما سببه غيرة وحسد تلك الطيوب منه ومن مجده الثابت الأركان، فلا يُوجد من يزيله عن مكانته؟

(٤) القيام: الجمع القائم. ويروى «الفئام» بدلاً من «القيام». والفئام: الجماعات من الناس. يُخاطب الشاعر ممدوحه أنه لا يُستغرب أن يحسده الند لما هو فيه من العزّ، فالوفود المجتمعة لتمثل بين يديه وتخدمه تحسد رؤوسهم أرجلهم لوقوفهم؛ وذلك مفخرتهم، ورغم ذلك فإن رؤوس هؤلاء القوم تودّ لو كانت مكان الأرجل لتتشرّف بهذه المكانة.

رويّ الشين

أبو الغمرات

وقال يمدح أبا العشائر علي بن الحسين بن حمدان ويذكر إيقاعه بأصحاب باقيس ومسيره من دمشق:

[الوافر]

مَـبِـيـتِـي مِـنْ دِمَـشْـقَ عـلـى فِـرَاشِ
حَـشَـاهُ لِـي بِـحَـرٍّ حَـشَـايَ حَـاشِ (١)

لَـقَـى لَـيـلٍ كَـعَـيْـنِ الـظَّـبْـيِ لَـوْنـاً
وَهَـمٍّ كـالـحُـمَـيَّـا فـي الـمُـشَـاشِ (٢)

وَشَـوْقٍ كـالـتَّـوَقُّـدِ فـي فُـؤَادٍ
كَـجَـمْـرٍ فـي جَـوَانِـحَ كَـالـمُـحَـاشِ (٣)

سَـقَـى الـدَّمُ كُـلَّ نَـصْـلٍ غَـيْـرِ نَـابٍ
وَرَوَّى كُـلَّ رُمْـحٍ غَـيْـرِ رَاشِ (٤)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥، ١٥٧. المبيت: المأوى ليلاً. حشاه: ملؤه. الحشا: ما اضطمت عليه ضلوع الإنسان. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية مصوّراً حالته النفسية، فقد ترك دمشق، وهو يُعاني من حرارة الحبّ الذي انعكس على فراشه فلم يستطع النوم وبقي ساهراً.

(٢) اللقى: الشيء الملقى. الحميا: سورة الخمر. المشاش: رؤوس العظام الرخوة. إنه ليل دامس، ظلامه قاتم، والهمّ ينهب ما في رأسه من اطمئنان وهدوء بال ويسري كما تسري الحمّى في الجسد فيبدو كالمخمور يُعاني الضياع فلا يُحسن التفكير.

(٣) المحاش: ما أحرقته النار. إنه شوق إلى الحبيب لاهب متوقّد يُحرق ما في قلبه لشدّة حبّه كالجمر يأكل جوانحه نار حارقة.

(٤) ينتقل الشاعر إلى مدح الممدوح ممهداً للحديث عن السلاح وفاعليّته، ويدعو بالسقيا =

فَـإِنَّ الْـفَـارِسَ الـمَـنْـعُـوتَ خَـفَّـتْ
لِـمُـنْـصُـلِـهِ الـفَـوَارِسُ كـالـرِّيَـاشِ (١)

فَـقَـدْ أَضْـحَـى أَبَـا الْـغَـمَـرَاتِ يُـكْـنَـى
كَـأَنَّ أَبَـا الْـعَـشَـائِـرِ غَـيْـرُ فَـاشِ (٢)

وَقَـدْ نُـسِـيَ ٱلْـحُـسَـيْـنُ بِـمَـا يُـسَـمَّـى
رَدَى الأبْـطَـالِ أَوْ غَـيْـثَ الْـعِـطَـاشِ (٣)

لَـقُـوهُ حَـاسِـراً فـي دِرْعِ ضَـرْبٍ
دَقِـيـقِ الـنَّـسْـجِ مُـلْـتَـهِـبِ الْـحَـوَاشِـي (٤)

كَـأَنَّ عـلـى الـجَـمَـاجِـمِ مِـنْـهُ نَـاراً
وَأَيْـدِي الْـقَـوْمِ أَجْـنِـحَـةُ الْـفَـرَاشِ (٥)

= لكلّ نصل لا تخطئ ضرباته ولا يكل زند حامله بل يمعن قتلاً وفتكاً بأعدائه. وكذلك يدعو لكلّ من يحمل رمحاً ألّا تفتر همّته في مهمته القتالية.

(١) يمدح الشاعر أبا العشائر المجمع على شجاعته من سائر الناس وهم يتناقلون الأحاديث في أسمارهم ومنتدياتهم بمواصفاته المحبّبة إلى نفوسهم، لقد فاجأ الأمير أنطاكية فأنزل بالروم الخسف والهوان، فإذا برؤوسهم تتطاير عن أجسادهم بسيفه الذي لا يكلّ بيده ضرباً وقتلاً.

(٢) ولكثرة جولات وصولات ممدوحه وحروبه، فقد أصبح يُكنّى بأبي الغمرات. يتناقل الناس بتلك الكنية بفرح واعتزاز حتى باتت تلك الكنية أغنية على كلّ لسان مما أنساهم كنيته الأصلية أبا العشائر.

(٣) الردى: الموت. ومع مرور الزمن وتوالي أعمال الحسين العظيمة، وهو مردي الأعداء في ميادين القتال، فإذا بهم يسمّونه بردى الأبطال لشجاعته، وقد يطلقون عليه اسم غيث العطاش لكرمه وجوده الذي يشمل سائر رعيّته.

(٤) و(٥) الحاسر: من لا يتدرع بدرع. إنه لقاء مفاجئ فلم يُسمح له بارتدائه درعه ليحمي نفسه، ولكن درعاً آخر حلّ محله، إنه يُحامي عن نفسه بشجاعته؛ ذلك أن الأعداء يدفعهم عدم ارتدائه درعه إلى الاحتشاد بكثرة علّهم يقتلونه، فإذا بذلك الجمع الغفير يكون له بمثابة الدرع فالكل يودّون الخلاص إليه ليفتخر قاتله بأنه أنجز عملاً بطولياً في بني قومه، فإذا بضرباته وضرباتهم لبعضهم يقضي عليهم ويخرج من بينهم سالماً؛ =

كَـأَنَّ جَـوَارِيَ الـمُـهَـجَـاتِ مَـاءٌ
يُـعَـاوِدُهَـا الـمُـهَـنَّـدُ مِـنْ عُـطَـاشِ (١)

فَـوَلَّـوْا بَـيْـنَ ذِي رُوْحٍ مُـفَـاتٍ
وَذِي رَمَـقٍ وَذِي عَـقْـلٍ مُـطَـاشِ (٢)

وَمُـنْـعَـفِـرٍ لِـنَـصْـلِ الـسَّـيْـفِ فِـيـهِ
تَـوَارِي الـضَّـبِّ خَـافَ مِـنِ احْـتِـرَاشِ (٣)

يُـدَمِّـي بَـعْـضُ أَيْـدِي الْـخَـيْـلِ بَـعْـضاً
وَمَـا بِـعُـجَـايَـةٍ أَثَـرُ ارْتِـهَـاشِ (٤)

وَرَائِـعُـهَـا وَحِـيـدٌ لَـمْ يَـرُعْـهُ
تَـبَـاعُـدُ جَـيْـشِـهِ والـمُـسْـتَـجَـاشِ (٥)

= وسيفه نار تلتهب فتطير رؤوسهم وأيديهم تتطاير عن أجسادهم كأنها أجنحة فراش تحوم على النار حيث تلاقي حتفها.

(١) المهجات، الواحدة مهجة: دماء القلوب. يعاودها: يرجع إليها مرّة بعد أخرى. الماء سرّ الحياة للبشر وسيف الممدوح دائم العطش لسفك دماء الأعداء، وهو لا يني يُعاود الكرّات المرة تلو الأخرى لاستمرار عطشه الذي لا يرويه إلّا المزيد من إزهاق أرواحهم.

(٢) المفات: المتروك. الرمق: بقية روح المنازع لحظة الموت. المطاش: من تولّه وذهب عقله. يصف الشاعر حالة أعداء الممدوح؛ فبعضهم هلك وفارقته بقيّة أنفاسه، وبعضهم الآخر استطاع الفرار، وهو في الرمق الأخير ويتحسس نفسه ليتأكّد من سلامة نفسه، وبعضهم الآخر طاش عقله، فإذا به يتصرّف تصرف من أصابه مسّ جنوني.

(٣) المنعفر: المتعفّر بالتراب. التواري: الاختفاء. الاحتراش: صيد الضباب. يصف الشاعر شدّة ضربات الممدوح التي تغوص بالمقتول حتى تصل به إلى الأرض، فإذا بالدماء تتلطّخ بالتراب تماماً كما يتوارى الضبّ في جحره مخافة اصطياده.

(٤) العجاية: عصَبة في يد الجواد فوق حافره. الارتهاش: شدّة الحكّ حتى يدمى عصب الذراع. يصف الشاعر هروب الخيول من المعركة، فإذا بها تخبط كيفما اتّفق لها، لذا فهي تغوص بدماء القتلى فيُلطّخ بعض أيديها، وكأنها بالارتهاش فدميت من جرّاء ذلك، وهي في الأصل سليمة ولم تصب بالارتهاش.

(٥) الرائع: المرعب. المستجاش: طالب النجدة والعون العسكري. يمدح الشاعر أبا =

كَـأَنَّ تَـلَـوِّي الـنُّـشَّـابِ فِـيـهِ
تَـلَـوِّي الـخُـوصِ فـي سَـعَـفِ الـعِـشَـاشِ (١)

وَنَـهْـبُ نُـفـوسِ أَهْـلِ الـنَّـهْـبِ أَوْلَـى
بِـأَهْـلِ الـمَـجْـدِ مِـنْ نَـهْـبِ الـقُـمَـاشِ (٢)

تُـشَـارِكُ فـي الـنِّـدَامِ إذا نَـزَلْـنَـا
بِـطَـانٌ لَا تُـشَـارِكُ فـي الْـجِـحَـاشِ (٣)

وَمِـنْ قَـبْـلِ الـنِّـطَـاحِ وَقَـبْـلِ يَـأْنِـي
تَـبِـيـنُ لَـكَ الـنِّـعَـاجُ مِـنَ الْـكِـبَـاشِ (٤)

= العشائر أنه قد أرعب تلك الخيول فولّت بفرسانها هاربة مخافة مفاجأة جيش عظيم لها، فإذا بفارس وحيد يتولى أمر قتالهم، ولم يطلب نجدة من أمير البلاد سيف الدولة البعيد عن أنطاكية حيث يقوم أبو العشائر بأمر حماية ذلك الثغر.

(١) الخوص: ورق جريد النخيل. السعف: أغصان النخيل، العشاش، الواحدة عشة: النخلة الدقيقة النادرة السعَف. يصف الشاعر مهارة ممدوحه في تلقّي سهام الأعداء، فهو يتلافاها بقدرته الفائقة على الحركة، لذا فإنها تتلوّى بين يديه بسهولة عجيبة كتلوي الخوص وأغصان النخيل، فلا تؤثّر فيه لشجاعته وبراعته، فهو لا يهتم بطعن الأعداء ولا بسهامهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. النهب: السلب والإغارة. القماش: يقصد بذلك المتاع. ينعى الشاعر على الجيش المغير، فقد قصد السلب والنهب والفتك بأعراض المسلمين، فإذا به يُنتهب من قبل أبي العشائر الذي انتهب أعمارهم وقتل فرسانهم فولّوْا هاربين لا يلوون على شيء سوى النجاة بأنفسهم.

(٣) الندام: المنادمة في شرب الخمرة. البطان، الواحد بطين: المكثر من الأكل. المجاحشة: المدافعة في القتال. يُندّد الشاعر بالقوم إنهم بطان يُكثرون في تناول الطعام ولا يشبعون، وهؤلاء يُنادمون في شرب الخمرة ولا يُحسنون قتالاً، فالمنادمة بالنسبة لهم تتمحور حول القتال، لذا فهم ليسوا أكفاء للأمير وجنده.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. النطاح: يقصد بذلك القتال والصراع. يأتي الشاعر بمثل يفصل بين مجموعتين من البشر، فثمّة من ينطح جيداً من الكباش، وهم الأقوياء. ومنهم من يحمل قروناً للزينة فلا يُناطح بها؛ فذوو القرون المقاتلة هم جند الأمير والفريق الآخر من الروم الذين لا يُحسنون صنعاً.

فَـيَـا بَـحْـرَ الْـبُـحُـورِ وَلَا أُوَرِّي
وَيَـا مَـلِـكَ الـمُـلُـوكِ وَلَا أُحَـاشِـي (١)

كَـأَنَّـكَ نَـاظِـرٌ فـي كُـلِّ قَـلْـبٍ
فَـمَـا يَـخْـفَـى عَـلَـيْـكَ مَـحَـلُّ غَـاشِ (٢)

أَأَصْـبِـرُ عَـنْـكَ لَـمْ تَـبْـخَـلْ بِـشَـيْءٍ
وَلَـمْ تَـقْـبَـلْ عَـلَـيَّ كَـلَامَ وَاشِ (٣)

وَكَـيْـفَ وَأَنْـتَ فـي الـرُّؤَسَـاءِ عِـنْـدِي
عَـتِـيـقُ الـطَّـيْـرِ مَـا بَـيْـنَ الْـخِـشَـاشِ (٤)

فَـمَـا خَـاشِـيـكَ لِـلـتَّـكْـذِيـبِ رَاجٍ
وَلَا رَاجِـيـكَ لِـلـتَّـخْـيِـيـبِ خَـاشِ (٥)

تُـطَـاعِـنُ كـلُّ خَـيْـلٍ كُـنْـتَ فِـيـهَـا
وَلَـوْ كَـانُـوا الـنَّـبِـيـطَ عَـلَـى الـجِـحَـاشِ (٦)

---

(١) يروى «يا بدر البدور» بدلاً من «يا ملك الملوك». يمدح الشاعر ممدوحه، إنه بحر فاق سائر البحور بكرمه الفيّاض، وبجراءته فإنه لا يعمد إلى التورية. وهو يخاطبه بأنه ملك سائر الملوك ولا يستثني منهم أحداً، فكلهم خول لأبي العشائر يأتمرون بأمره وينزلون عند رغبته.

(٢) الغاشي: الزائر. يمدح الشاعر أبا العشائر معرفته بالرجال لفطنته وحدّة ذكائه ونفاذ رؤاه، فما من زائر ممن يقصدون المثول بين يديه إلّا ويعرف ما الذي حمله على المجيء إليه، وما هي غايته من ذلك.

(٣) و (٤) الواشي: النمّام. الخِشاش: صغار الطيور على أنواعها. العتيق: الكريم. يصف الشاعر ممدوحه بالكرم، فجوده عمّه خيره، وهو قد أغلق سمعه ولم يقبل من أحد من الوشاة ما يُنقص من قيمة الشاعر، فسبب ذلك أن الممدوح كريم الخلق بين الرؤساء الذين هم بمثابة خشاش الطير الذي لا قيمة له لصغر حجمه، مقابل شخص الممدوح العظيم.

(٥) النحاشي: الخائف. إن خوف الخائف من انتقام الممدوح مبني على التجربة، فظنّه بأن الممدوح قادر على الاقتصاص والانتقام في حال الخيانة، وكذلك فإن من رجا الخير على يدي الممدوح فلن يخيب رجاؤه، فأمانيه لا محالة تتحقّق، لكرم فيض الممدوح.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. ويروى «سِرْت» بدلاً من =

أَرَى النَّاسَ الظَّلَامَ وَأَنْتَ نُورٌ
وَإِنِّي مِنْهُمُ لإِلَيْكَ عَاشِ (١)

بُلِيتُ بِهِمْ بَلَاءَ ٱلْوَرْدِ يَلْقَى
أُنُوفاً هُنَّ أَوْلَى بِالْخِشَاشِ (٢)

عَلَيْكَ إِذَا هُزِلْتَ مَعَ ٱللَّيَالِي
وَحَوْلَكَ حِينَ تَسْمَنُ فِي هِرَاشِ (٣)

أَتَى خَبَرُ الأَمِيرِ فَقِيلَ كَرُّوا
فَقُلْتُ نَعَمْ وَلَوْ لَحِقُوا بِشَاشِ (٤)

= «كنت». الأنباط: قوم من غير العرب كانوا يتّخذون الزراعة عملاً لهم. ينوّه الشاعر بدور ممدوحه مع جنده، إنّهم يتخذونه قدوتهم، وهم يستمدّون منه شجاعتهم، فيه يقاتلون ومن روحه يستلهمون حماسهم، ويصولون بخيولهم خلفه، حتى لو كان تابعوه من الأنباط الذين لم يعتادوا ركوب الخيول ولم يُقاتلوا لانقلب هؤلاء فرساناً ميامين خلف الأمير.

(١) عشا إلى النار: قصدها ليلاً. يرى الشاعر أن معظم الناس لا خير فيهم لبخلهم، بينما يرى في ممدوحه خيراً كثيراً وكرماً عظيماً، لذا فإنه في حالة لفّ الكون ظلمة؛ ففي مكان غير بعيد نور يشعّ فيه ومنه خير عظيم، إنه الممدوح فيعشو إلى ناره من أراد الدفء والغنى.

(٢) الخشاش: عود يجعل في أنف البعير يُشدّ فيه الزمام. إنه بلاء وامتحان عسير اختبر به الشاعر، فلم يجد في سائر البشر الخير المأمول، لأنهم لم يُقدّروا فيه شاعريته على حقيقتها، لذا فإنهم لا يستحقون أن ينعموا برائحة الورد؛ بل إن أنوفهم تستحقّ الخشاس للجمها تماماً كالإبل التي لا تفرّق بين ما هو جيّد وما هو سيّئ.

(٣) موقف البشر، تبع لمن ملك الثروة دائماً، فإذا افتقر تخلّوْا عنه وابتعدوا، وإذا اغتنى امرؤ وجدتهم يتزاحمون على أبوابه ويتدافعون في سبيل مرضاته لينعموا بنواله، وهم يتصايحون ويتهارشون.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٤. الشاش: من بلاد ما وراء النهر. يمدح الشاعر الأمير بأنه يُلاحق أعداءه موغلاً في بلادهم، ويردّ الشاعر مؤيّداً ذلك بأن هذا ديدن ممدوحه وهو لا يتوانى يلاحقهم حتى ولو كانوا في إقليم الشاش من أقاليم المسلمين وراء النهر.

يَــقُــودُهُــمُ إلَــى الــهَــيْــجَــا لَــجُــوجٌ
يُــســِـنُّ قِــتَــالُــهُ وَٱلْــكَــرُّ نَــاشِــي (١)
وَأَسْــرَجْــتُ الْــكُــمَــيْــتَ فَــنَــاقَــلَــتْ بِــي
عَــلَــى إعْــقَــاقِــهَــا وَعَــلَــى غِــشَــاشِــي (٢)
مِــنَ الــمُــتَــمَــرِّدَاتِ تُــذَبُّ عَــنْــهَــا
بِــرُمْــحِــي كُــلُّ طَــائِــرَةِ الــرَّشَــاشِ (٣)
وَلَــوْ عُــقِــرَتْ لَــبَــلَّــغَــنِــي إلَــيْــهِ
حَــدِيــثٌ عَــنْــهُ يَــحْــمِــلُ كُــلَّ مَــاشِ (٤)
إذَا ذُكِــرَتْ مَــوَاقِــفُــهُ لِــحَــافٍ
وَشِــيــكَ فَــمَــا يُــنَــكِّــسُ لانْــتِــقَــاشِ (٥)

---

(١) الهيجا: الحرب. اللجوج: الملحاح في الطلب. يُسن: يطول. ومن عادة الممدوح أنه لجوج في طلب أعدائه، ويقود جيشه خلفهم بإلحاح ولو طال الزمان ليُنزل بهم الهزائم، وتلك عادته منذ حداثة سنه، وذلك لا عجب فيه إن اكتهل.

(٢) أسرجت: وضعت السرج للفرس. الكميت: الأحمر والأشقر من الجياد. الإعقاق: انفتاق بطن الفرس للثقل الذي تحمله. الغشاش: العجلة. يذكر الشاعر أنه هيّأ فرسه الكميت، فراحت تُحسن وضع قوائمها حيث يجب أن تضعها، ممَّا يدل على معرفتها باختيار مواقع قوائمها، رغم حملها الثقيل وسرعتها في عدوها.

(٣) المتمرّدات: الممتنعات خبثاً. يصف الشاعر فرسه بأنها لصعوبة انقيادها للغرّ من الفرسان ومن لا يقدر على امتطاء متنها، وقد توقعه أرضاً، وهي تُحسن المصاولة لتتفادى طعنات الرماح من قبل الأعداء، والشاعر بدوره يعمل على حمايتها برمحه لتبقى سالمة، وهو بدوره فارس خبير بترويض الجامح من الجياد، الصعب الانقياد.

(٤) عقرت: مسّها سوء منعها عن السير، فلو هلكت فرسه لوجد الشاعر سبيلاً آخر توصله إلى ممدوحه، إنه ثناء الخلق على الممدوح الذي يتناقل ذكره المعجبون به، وذلك سبب وجيه يُشجّع من فقد وسيلة تُوصله إليه، أن يقصده مشياً على الأقدام، متّخذاً من حسن الثناء تسليته في طريقه.

(٥) شيك: شاكته شوكة في رجله. الانتقاش: العمل على إخراج الشوكة من مكانها. ومن تلك المغالاة، لو أن شجاعاً قد سمع ببطولة ممدوحه سعى لرؤيته حافياً فإذا =

تُـزِيـلُ مَـخَـافَـةَ الـمَـصْـبُـورِ عَـنْـهُ
وَتُـلْـهِـي ذَا ٱلْـفِـيَـاشِ عَـنِ ٱلْـفِـيَـاشِ (١)

وَمَـا وُجِـدَ اشْـتِـيَـاقٌ كَـاشْـتِـيَـاقِـي
وَلَا عُـرِفَ انْـكِـمَـاشٌ كَـانْـكِـمَـاشِـي (٢)

فَـسِـرْتُ إِلَـيْـكَ فِـي طَـلَـبِ الـمَـعَـالِـي
وَسَـارَ سِـوَايَ فِـي طَـلَـبِ الـمَـعَـاشِ (٣)

= شيك بشوكة لما أحسّ وخزها ولما عمل على التخلّص منها ولما خفض رأسه لسبب تافه كهذا ولاستمرّ في السير إليه حتى يتعرّف إلى طراز فريد.

(١) المصبور: المسجون للقتل. الفياش: المفاخرة. يُخاطب الشاعر الممدوح بأنه سبب إزالة خوف من حكم عليه بالقتل، لأنه علم بشجاعته وصبره في مجالدة أعدائه، فيتأسّى به، فيزول خوفه ويستمدّ منه شجاعته، وكذلك فإن المفاخر بحسن فعاله إذا سمع بما عليه الممدوح من صفات رَفيعة استخذى ولم يعد يلجأ إلى الفخر بما عنده.

(٢) يُعبّر الشاعر عن مدى شوقه لرؤية ممدوحه وحبّه للمثول بين يديه والإشادة بمفاخره، لذا فقد شمّر ساعد الجدّ ليتشرّف برؤيته ويسعد بقربه.

(٣) لذا فقد سار إليه راغباً في توليته أمراً من أمور تعلو به إلى المجد، وهو بلا ريب ولاية مهما تكن وكيفما تكن، بينما غيره ممن يقصد الممدوح من الشعراء يسعَوْن إلى بذل مواهبهم للتكسّب.

رويّ الضاد

أحلى في العيون من الغمض

وقال في بدر بن عمار، وقام منصرفاً في الليل:

[الطويل]

مَضَى اللَّيْلُ وَالْفَضْلُ الَّذِي لَكَ لا يَمْضِي
وَرُؤْيَاكَ أَحْلَى في الْعُيُونِ مِنَ الْغُمْضِ[١]

عَلَى أَنَّنِي طُوِّقْتُ مِنْكَ بِنِعْمَةٍ
شَهِيدٌ بِهَا بَعْضِي لِغَيْرِي عَلَى بَعْضِي[٢]

سَلامُ الَّذِي فَوْقَ السَّمٰوَاتِ عَرْشُهُ
تُخَصُّ بِهِ يا خَيْرَ مَاشٍ عَلَى الأَرْضِ[٣]

فعل السماء

وأمر سيف الدولة بإنفاذ خلعة إليه فقال:

[الكامل]

فَعَلَتْ بِنَا فِعْلَ السَّمَاءِ بِأَرْضِهِ
خِلَعُ الأَمِيرِ وَحَقُّهُ لَمْ نَقْضِهِ[٤]

---

(١) يروى «في الجفون» بدلاً من «في العيون». يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بدوام فضله عليه؛ فالليل مضى، إنه الزمن المتغيّر، أما الشاعر فإنه دائم تذكر الإحسان دلالة الإخلاص والعرفان، ويتمنّى الشاعر أن يرى ممدوحه في المنام، فيكون لقاؤه ممدوحه ليلاً ونهاراً، فذلك هو الزمان كله.

(٢) يعترف الشاعر باستمرار دوام تلاحق روافد النعم عليه من قبل ممدوحه، لذا فجسده كلّه وجوارحه تشهد بأن فضائل الممدوح كسته، ولهذا فكلّ جوارحه يشهد بعضها على بعض.

(٣) يدعو الشاعر لممدوحه بأن يعمّه سلام خالقه تعالى، فإنه أفضل من سائر البشر الذين يمشون على الأرض.

(٤) يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن ما خلعه عليه من خلعة موشاة تليق بالملوك هو فعل =

فَـكَـأَنَّ صِـحَّـةَ نَـسْـجِـهَـا مِـنْ لَـفْـظِـهِ
وَكَـأَنَّ حُـسْـنَ نَـقَـائِـهَـا مِـنْ عِـرْضِـهِ (١)
وَإِذَا وَكَـلْـتَ إِلَـى كَـرِيـمٍ رَأْيَـهُ
فِـي الْـجُـودِ بَـانَ مَـذِيـقُـهُ مِـنْ مَـحْـضِـهِ (٢)

إذا اعتل سيف الدولة

قال لما مرض سيف الدولة فيه يعوده من مرض:

[الطويل]

إِذَا اعْـتَـلَّ سَـيْـفُ الـدَّوْلَـةِ اعْـتَـلَّـتِ ٱلأَرْضُ
وَمَـنْ فَـوْقَـهَـا وَٱلْـبَـأْسُ وَٱلْـكَـرَمُ الـمَـحْـضُ (٣)
وَكَـيْـفَ انْـتِـفَـاعِـي بِـالـرُّقَـادِ وَإِنَّـمَـا
بِـعِـلَّـتِـهِ يَـعْـتَـلُّ فِـي الأَعْـيُـنِ الْـغُـمْـضُ (٤)

= خالق السماء سبحانه بالأرض بمن فيها وما فيها. والفعل هذا عظيم بحدّ ذاته، يستحقّ الإشادة به، ورغم ما مدح الشاعر ممدوحه فإنه لم يُوفّه حقه من الإشادة والمدح.

(١) يصف الشاعر الخلعة؛ إنها بديعة النسج، جيّدة الصنع، تليق بالملوك وهي في الأصل حِيكت لتكون لباس الأمير لنقائها، فكلّ ما يميّزها يُوحي بروعة لفظه البديع النظم المنظم بسلك الحكمة وبطهارة ونقاء عرض الأمير من كلّ نقص وخلوّه من كلّ ما يشين.

(٢) وكلت: فوضت. المذيق: الممزوج. المحض: الخالص. يصرّح الشاعر بحقيقة، مفادها أن المرء إذا ترك الكريم على سجيّته المتأصلة فيه في الكرم، كان طليق اليد يعطي عطاءً أريحياً لا تشوبه شائبة الحرص والبخل، بينما الأمر خلاف ذلك مع من اتّصف بالبخل، فإنه متردّد خائف يفتقد إلى أريحية العطاء، منكمش اليد حتى في حال عطائه.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٧٥. البأس: القوّة. المحض: الخالص. ثمّة تلازم بين سيف الدولة والأرض، فإذا مرض الأمير مرضت لأجله الأرض وما فيها ومن فيها وعليها، وحلّ فيها الضعف لأنها تستمدّ قوتها وشدّة بأسها منه، حتى الكرم ينزعج لمرض الممدوح فيمسك عن العطاء.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. يربط الشاعر بين مرض الأمير وعدم شعوره بالراحة، فهو لا يستطيع النوم وقد فارقت عينيه الإغماضة، فكأن العلّة انعكست على عينيه لذا فهو لا يعرف للنوم طعماً.

شَـفَـاكَ الَّـذِي يَـشْـفِـي بِـجُـودِكَ خَـلْـقَـهُ
فَـإِنَّـكَ بَـحْـرٌ كُـلُّ بَـحْـرٍ لَـهُ بَـعْـضُ (١)

(١) يدعو الشاعر للأمير بالشفاء العاجل مِنّة من الكريم سبحانه وتعالى الذي يُفيض خيره على سائر مخلوقاته، وبشفاء الأمير يعمّ الكريم خلقه، إنه واسطة خير، وهو بحر عظيم يضيع فيه كلّ البحار مهما عظمت، فخيره عميم عظيم.

رويّ العين

كان تسليمه وداعاً

أول شعر نظمه ارتجالاً قوله وهو صبي:

[الخفيف]

بِــأَبِــي مَــنْ وَدِدْتُــهُ فَــافْــتَــرَقْــنَــا
وَقَــضَــى ٱلــلَّــهُ بَــعْــدَ ذَاكَ ٱجْــتِــمَــاعَــا (١)

فَــافْــتَــرَقْــنَــا حَــوْلاً فَــلَــمَّــا الْــتَــقَــيْــنَــا
كَــانَ تَــسْــلِــيــمُــهُ عَــلَــيَّ وَدَاعَــا (٢)

فتى رأيه ألف جزء

وقال في صباه يمدح علي بن أحمد الطائي:

[الطويل]

حُــشَــاشَــةُ نَــفْــسٍ وَدَّعَــتْ يَــوْمَ وَدَّعُــوا
فَــلَــمْ أَدْرِ أَيَّ الــظَّــاعِــنَــيْــنِ أُشَــيِّــعُ (٣)

أَشَــارُوا بِــتَــسْــلِــيــمٍ فَــجُــدْنَــا بِــأَنْــفُــسٍ
تَــسِــيــلُ مِــنَ الآمَــاقِ والــسَّــمُّ أَدْمُــعُ (٤)

---

(١) و (٢) بأبي: هذه الباء باء التعدية. وددته: أحببته. يُعلن الشاعر أنه على استعداد للتخلي عن أبيه لقاء عودة من أحبّه، وقد أجاب اللّه تعالى رجاءه فعاد بعد فراق دام سنة وسرعان ما كان تسليم ليكون إيذاناً بوداع آخر، وقد يكون وداعاً أبدياً، حيث لا لقاء.

(٣) الحشاشة: بقية الروح في المريض. الظاعنين: المرتحلين. أشيّع: أرافق المسافرين لوداعهم. اجتمعت للشاعر مصيبتان: حشاشة التي ودّعته وهو مدنف مريض، والظاعنون وقد اصطحبوا معهم حبيبته، ممّا انتابه إحساس بالضياع والحيرة.

(٤) الآماق، واحدتها مأق: جانب العين ممّا يلي الأنف. السمّ: لغة في الاسم. كان =

حَـشَـايَ عَـلَـى جَـمْـرٍ ذَكِـيٍّ مِـنَ الْـهَـوَى
وَعَـيْـنَـايَ فِـي رَوْضٍ مِـنَ ٱلْـحُـسْـنِ تَـرْتَـعُ[١]

وَلَـو حُـمِّـلَـتْ صُـمُّ ٱلْـجِـبَـالِ ٱلَّـذِي بِـنَـا
غَـدَاةَ افْـتَـرَقْـنَـا أَوْشَـكَـتْ تَـتَـصَـدَّعُ[٢]

بِـمَـا بَـيْـنَ جَـنْـبَـيَّ الَّـتِـي خَـاضَ طَـيْـفُـهَـا
إلَـيَّ الـدَّيَـاجِـي وَالْـخَـلِـيُّـونَ هُـجَّـعُ[٣]

أَتَـتْ زَائِـراً مَـا خَـامَـرَ الـطِّـيـبُ ثَـوْبَـهَـا
وكَـالْـمِـسْـكِ مِـنْ أَرْدَانِـهَـا يَـتَـضَـوَّعُ[٤]

فَـمَـا جَـلَـسَـتْ حَـتّـى انْـثَـنَـتْ تُـوسِـعُ الْـخُـطَـا
كَـفَـاطِـمَـةٍ عَـنْ دَرِّهَـا قَـبْـلَ تُـرْضِـعُ[٥]

= الوداع مُؤلماً؛ فالركب المودّعون يُشيرون بأيديهم مودّعين فإذا بدموع الشاعر تنهمر معبّرة عن آلام النفس والروح التي تتّخذ شكل الدموع.

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٢٠، خزانة الأدب، للبغدادي ٣: ٣٧٦. يقصد الشاعر بالحشا قلبه، ومعناه أصلاً: ما في داخل جوف الإنسان. ذكيّ: اشتعال النيران. يصف الشاعر حالته الوجدانية؛ فقلبه ملتهب لشدّة حبّه، وعيناه مسمّرتان في وجه حبيبته تعبّان من مفاتن جمالٍ يأسر القلوب.

(٢) الصمّ: الصلبة. تتصدّع: تتحطّم. ولشدّة هموم الشاعر فإن الجبال الرواسي التي جُبلت من صوان تكاد تندك وتتفتت غداة افتراقه عن حبيبته.

(٣) الدياجي: الظلمات. الخليون: هم من خلت قلوبهم من الحبّ وهمومه. هجّع: نائمون. إن الشاعر مستعدّ لتقديم الفداء لمن يحبّ وقد زاره طيفها، وهو في هجعة خاطفة، بينما من خلت قلوبهم من الحبّ وعذاباته يغطّون غطيط من لا همّ له.

(٤) خامر: مازج، خالط. الأردان، الواحد ردن: أصل الكم. يتضوّع: ينتشر. جاءت حبيبة الشاعر زائرة، والعطر يفوح من ثوبها، وهي في الأصل لم تتطيّب، ذلك أنها خُلقت طيّبة النشر.

(٥) الدرّ: اللبن. سرعان ما رحلت بعدما جلست كأنها امرأة مرضع تودّ إرضاع وليدها.

فَشَرَّدَ إعْظَامِي لَهَا مَا أَتَى بِهَا
مِنَ النَّوْمِ وَالْتَاعَ ٱلْفُؤَادُ الـمُفَجَّعُ[(١)]

فَيَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَطْوَلَ بِتُّهَا
وَسُمُّ الأفَاعِي عَذْبُ مَا أَتَجَرَّعُ[(٢)]

تَذَلَّلْ لَهَا وَٱخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى
فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ[(٣)]

وَلَا ثَوْبُ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أحْمَدٍ
عَلَى أَحَدٍ إلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعُ[(٤)]

وَإِنَّ الَّذِي حَابَى جَدِيلَةَ طَيِّىءٍ
بِهِ اللَّهُ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ[(٥)]

بِذِي كَرَمٍ مَا مَرَّ يَوْمٌ وَشَمْسُهُ
عَلَى رَأْسِ أَوْفَى ذِمَّةً مِنْهُ تَطْلُعُ[(٦)]

---

(١) إعظامي : تكبيري . التاع : احترق . المفجّع : المتألّم . للوهلة الأولى انتشى في كيانه فرح سرعان ما تبخّر لتنبهه من غفوته ، فإذا بقلبه يُعاوده الألم والحسرات ، وقد اختفى الطيف .

(٢) أتجرّع : أشرب رغماً عني لشدّة مرارة ما أشرب . يستغرب الشاعر لليل طال والألم يأكل كبده ، حتى إن سمّ الحيات يبدو ذا مذاق عذب لفراق حبيبته .

(٣) ورد البيت في : دلائل الإعجاز ، للجرجاني : ٣٨٢. النوى : البعد . يُخاطب الشاعر نفسه متمنياً أن تذلّ وتخضع لإرادة حبيبته في كلّ حال ، في القرب والبعد ، والعاشق الصادق في حبّه من طبعه الاستسلام لإرادة محبوبه .

(٤) ورد البيت في : أمالي ابن الشجري ٢ : ٢٢٣ ، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده ، للسيوطي : ٢٣٧. اللؤم : خساسة الطبع . يتخلّص الشاعر من موضوع الغزل إلى موضوع المدح ؛ فابن أحمد ذو مجد لا يُشوّهه لؤم طبع .

(٥) ورد البيت في : أمالي ابن الشجري ١ : ٢١٧. حابى : منح . جديلة : فرع الممدوح من طيّئ . من فضل اللّه تعالى على قبيلة جديلة أن جعل ممدوح الشاعر وهّاباً كريماً يُعطي من شاء ويمنع من أراد .

(٦) يمدح الشاعر ممدوحه بأنه كريم . فهو أفضل من أشرقت الشمس عليه في كلّ يوم ، وهو يمتاز بصدق القول والعمل والوفاء ، فذمّته لا يعتورها أدنى شكّ .

فَــأَرْحَــامُ شِــعْــرٍ يَــتَّــصِــلْــنَ لَــدُنَّــهُ
وَأَرْحَــامُ مَــالٍ لَا تَــنِــي تَــتــقَــطَّــعُ[(١)]

فَــتًــى أَلْــفُ جُــزْءٍ رَأْيُــهُ فِــي زَمَــانِــهِ
أَقَــلُّ جُــزَيْءٍ بَــعْــضُــهُ الــرَّأْيُ أَجْــمَــعُ[(٢)]

غَــمَــامٌ عَــلَــيْــنَــا مُــمْــطِــرٌ لَــيْــسَ يُــقْــشِــعُ
وَلَا الْــبَــرْقُ فِــيــهِ خُــلَّــبــاً حِــيــنَ يَــلْــمَــعُ[(٣)]

إِذَا عَــرَضَــتْ حَــاجٌ إِلَــيْــهِ فَــنَــفْــسُــهُ
إِلَــى نَــفْــسِــهِ فِــيــهَــا شَــفِــيــعٌ مُــشَــفَّــعُ[(٤)]

خَــبَــتْ نَــارُ حَــرْبٍ لَــمْ تَــهِــجْــهَــا بَــنَــانُــهُ
وَأَسْــمَــرُ عُــرْيَــانٌ مِــنَ الْــقِــشْــرِ أَصْــلَــعُ[(٥)]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٢٠. والدليل على كثرة كرم الممدوح توالي عطاياه دون انقطاع، وهباته توزّع بين ممدوحيه الذين يُشيدون به، فكأن أرحامها تتقاطع.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٢. عاب القاضي الجرجاني قول المتنبي: هذا، يروى «وما قلّ جزء» بدلاً من «أقلّ جُزيء». اجتمعت للممدوح الفتوّة والتفوّق؛ فرأيه اجتمعت لديه قُدرات ألف جزء، وأقلّ جزء من تلك الأجزاء تامّ تكتمل لديه قوّة رجاحة عقل مدبّر ناضج.

(٣) غمام: سُحُب مفعمة بالمطر. يقشع: يتفرّق. البرق الخلب: البرق الخادع الذي يذهب بالأبصار ولا ماء فيه. إن الممدوح كريم جدًّا، وهو بمثابة غمام يعمّ فيضه المادحين باستمرار، ولا ينقطع، وهو يعد ويفي فليس برقاً يخطف الأبصار ولا يُرجى منه نفع.

(٤) حاج، الواحدة حاجة. المشفّع: هو من لا تردّ شفاعته. ومن شدّة كرم الممدوح فإنه يعمل على مساعدة ذوي الحاجات، فإذا طلبوا مساعدته وجدوا فيه المسعف؛ فإن نفسه شفيع له تشجّعه على الإسهام في مساعدة الآخرين.

(٥) خبت النار: خمدت. البنان: الأصابع. يقصد بأسمر: قلماً أسمر. إن الممدوح صاحب قرار الحرب والسلم، فكلّ حرب لا رأي له فيها ستخمد نارها، فبيده القدرة على إشعال نار حرب لا يهدأ أوارها لعزمه وقوّة بطشه.

نَـحِـيـفُ الـشَّـوَى يَـعْـدُو عَـلَـى أُمِّ رَأْسِـهِ
وَيَـحْـفَـى فَـيَـقْـوَى عَـدْوُهُ حِـيـنَ يُـقْـطَـعُ[١]

يَـمُـجُّ ظَـلَامـاً فـي نَـهَـارٍ لِـسَـانُـهُ
وَيُـفْـهِـمُ عَـمَّـنْ قَـالَ مَـا لَـيْـسَ يَـسْـمَـعُ[٢]

ذُبَـابُ حُـسَـامٍ مِـنْـهُ أَنْـجَـى ضَـرِيـبَـةً
وَأَعْـصَـى لِـمَـوْلَاهُ وَذَا مِـنْـهُ أَطْـوَعُ[٣]

فَـصِـيـحٌ مَـتَـى يَـنْـطِـقْ تَـجِـدْ كُـلَّ لَـفْـظَـةٍ
أُصُـولَ الْـبَـرَاعَـاتِ الَّـتِـي تَـتَـفَـرَّعُ[٤]

بِـكَـفِّ جَـوَادٍ لَـوْ حَـكَـتْـهَـا سَـحَـابَـةٌ
لَـمَـا فَـاتَـهَـا فِي الـشَّـرْقِ وَالْـغَـرْبِ مَـوْضِـعُ[٥]

وَلَـيْـسَ كَـبَـحْـرِ الـمَـاءِ يَـشْـتَـقُّ قَـعْـرَهُ
إِلَـى حَـيْـثُ يَـفْـنَـى الـمَـاءُ حُـوتٌ وَضِـفْـدَعُ[٦]

---

(١) الشوى: الأطراف، من رأس ويدين ورجلين. نحيف: دقيق. يعدو: يركض. أم رأسه: أعلاه. يصف الشاعر القلم بيد ممدوحه، إنه دقيق الأطراف، وهو يُسرع على رأسه، وإذا قُطّ يحسن خطّه ويبدو جماله.

(٢) و (٣) يمجّ: يقذف. يقصد بالظلام: المداد. بالنهار: القرطاس. باللسان: رأس القلم. والقلم ناطق بلسان صاحبه يُعبّر عن فكره دون سماعه منه شيئاً، والشاعر يُجري مقارنة بين القلم والسيف، فقد ينبو السيف وينجو من وُجّهت إليه الضربة، أما من كُتب بقتله، فإنه لن ينجو من مصيره المحتوم؛ لذا فالقلم أفضل من السيف وأفعل في حالة كهذه.

(٤) يمتاز القلم بالفصاحة، فما من كلمة ينطق بها إلّا وهي فصيحة، ومنها تُستقى البلاغة.

(٥) و (٦) الجواد: الكريم. حكتها: شابهتها. يمدح الشاعر ممدوحه بإجادة الخطّ، فالقلم بيده يجري بيد كريم، مغدق النعم، فلو كانت السحابة مثل كفّه لعمّت المشرق والمغرب. وهو ليس كحوت الماء أو الضفدع يغوص، فيبلغ قعر البحر، وإنما هو بحر بعيد المدى والغور، وجوده لا ينقطع.

أَبَحْرٌ يَضُرُّ الْمُعْتَفِينَ وَطَعْمُهُ
زُعَاقٌ كَبَحْرٍ لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ (١)

يَتِيهُ الدَّقِيقُ الْفِكْرِ فِي بُعْدِ غَوْرِهِ
وَيَغْرَقُ فِي تَيَّارِهِ وَهْوَ مِصْقَعُ (٢)

أَلَا أَيُّهَا الْقَيْلُ الْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ
وَهِمَّتُهُ فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ تُوضَعُ (٣)

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ
وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ تَظْلَعُ (٤)

وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيكُمَا
عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلْأَرْضِ أَوْسَعُ (٥)

وَقَلْبُكَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ دَخَلَتْ بِنَا
وبِالْجِنِّ فِيهِ مَا دَرَتْ كَيْفَ تَرْجِعُ (٦)

---

(١) المعتفين: المحتاجين. زُعاق: شديد الملوحة. يستفهم الشاعر منكراً على بحر يُودي بمن طلب فيه الرزق إلى الهلاك، وطعمه شديد الملوحة وبين كريم يُرفد الوافدين عليه بالنعم ولا يأتيهم منه ضرر.

(٢) الدقيق الفكر: الذكي اللمّاح. الغور: القعر. المصقع: البليغ. يُقارن الشاعر بين ممدوحه وبين من يتّسم بشدّة ذكائه ووفور علمه، فإذا ما التقى بممدوحه انكشف له قصوره وقلّة ما يمتاز به ممدوحه، فهو بحر عميق الغور يفيض علماً ومعرفة وذكاءً، فيضيع في غمراته.

(٣) القيل: الملك. منبج: إحدى مدن بلاد الشام. السماكين: النجمين، وهما: السماك الرامح والسماك الأعزل. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه ملك في منبج، طموح يسمو إلى العلاء حتى طالت يداه السماكين بهمته.

(٤) تظلع: تعرج. يُقرّ الشاعر بعجزه عن إيفاء ممدوحه حقّه من إسباغ مدحه رغم ما يمتاز به شعره من الإعجاز وحسن ظنونه بمزاياه المتعدّدة التي لا حصر لها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. ومن المستغرب أن صدر الممدوح يتّسع له ثوبه وهو يستوعب الأرض كلّها؛ فتلك معجزة رغم ضيق الثوب وسعة رحابة صدره.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩١. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ذو =

أَلَا كُلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ الْيَوْمَ باطِلٌ
وَكُلُّ مَديحٍ في سِوَاكَ مُضَيَّعُ(١)

رحل العزاء برحلتي

وقال في صباه ارتجالاً على لسان رجل سأله ذلك:

[الكامل]

شَوْقِي إِلَيْكَ نَفَى لَذِيذَ هُجُوعِي
فَارَقْتَنِي فَأَقَامَ بَيْنَ ضُلُوعِي(٢)

أَوَ مَا وَجَدْتُمْ في الصَّرَاةِ مُلُوحَةً
مِمَّا أُرَقْرِقُ في الْفُرَاتِ دُمُوعِي(٣)

مَا زِلْتُ أَحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً
حَتَّى ٱغْتَدَى أَسَفِي عَلَى التَّوْدِيعِ(٤)

رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِحْلَتِي فَكَأَنَّمَا
أَتْبَعْتُهُ الأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ(٥)

= قلب كبير يستوعب الكون بما يحتويه من بشر وجنّ، فإذا ما حلّ ساكنوه فيه، فإنهم يتيهون فلا يُمكنهم الخروج منه لعظم اتّساعه.

(١) سمح: كريم. يختم الشاعر مدحه بأن جعل الكرماء لا قيمة لهم إذا ما قورنوا بممدوحه، وكذلك فمدحه هؤلاء مضيعة وقت، فهم لا يستحقّون ما يستحقّه من مدح.

(٢) هجوعي: نومي. لقد حلّ شوقه إلى صديقه بين ضلوعه بعدما فارقه النوم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٣. الصراة: نهر يأخذ من الفرات، فينسكب في دجلة. رقرق الماء: صبّه. يُخاطب الشاعر صاحبه متسائلاً عن سرّ ملوحة نهر الصراة، لقد خالطته تلك الملوحة بسبب ما أراق من دموع الشوق.

(٤) لطالما سعى الشاعر على ألّا يودّعه مخافة فراقه، فانقلب أسف الشاعر على الوداع لما يصحبه من ألم الفراق.

(٥) ورد البيت في: الوساطة: ١٤٣، أسرار البلاغة، للجرجاني: ٢٧٦. العزاء: الصبر. لقد رحل الصبر عن الشاعر بارتحاله عن صحبه، وأنفاسه تتصاعد حرّى منه، فصار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان حلّا بساحته، فلما رحل ذاك كان حقّ هذا أن يُشيّعه قضاءً لحقّ الصحبة.

فكيف علوت حتى لا رفيعا

وقال يمدح علي بن إبراهيم التنوخي:

[الوافر]

مُلِثَّ الْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعَا
وَإِلَّا فَاسْقِهَا السُّمَّ النَّقِيعَا[(١)]

أُسَائِلُهَا عَنِ الْمُتَدَيِّرِيهَا
فَلَا تَدْرِي وَلَا تُذْرِي دُمُوعَا[(٢)]

لَحَاهَا ٱللَّهُ إِلَّا مَاضِيَيْهَا
زَمَانَ اللَّهْوِ وَالْخَوْدَ الشَّمُوعَا[(٣)]

مُنَعَّمَةٌ مُمَنَّعَةٌ رَدَاحٌ
يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الْوُقُوعَا[(٤)]

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٧، ١٥٦. الملثّ: الدائم الإقامة. القطر: المطر. الربوع: الديار. النقيع: المنقع يقصد بذلك المربى. يدعو الشاعر على تلك الديار بالهلاك مخاطباً السحاب الماطر بأن يتوقّف عن الانهمار والإدرار، وإن لم يفعل، فليمطرها سمّا ناقعاً مميتاً، لأن تلك الديار عيّت جواباً فلم تُحر جواباً لتعلمه عن مسير حبيبته.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٧. المتديريها: الذين اتّخذوها داراً. أذرى الدمع: جعله ينهمر. يعلّل الشاعر السبب الذي من أجله طلب من السحاب ألّا يمطر أو أن يسقيها سمّا قاتلاً لأنه سألها عن حبيبته وعن أهلها أينما ذهبوا فلم تردّ جواباً، لأنها لا تدري ولم تُجب وهي لم تُساعده في بكائه.

(٣) لحاها: قبّحها. الخود، بفتح الخاء: الجارية الجميلة الناعمة. الشموع: اللعوب الضحوك. دعا الشاعر على تلك الديار بالثبور واستثنى من ذلك ما كان له من ماضيه الجميل معها، يوم كان اللهو البريء مع جارية جميلة ناعمة ضحوك لعوب.

(٤) الرداح: الثقيلة الأوراك. يصف الشاعر محبوبته، إنها غنيّة تعيش في بحبوحة العيش، مرفّهة في مظهرها وملبسها، ثقيلة الردفين، مغناج لسانها يقطر حلاوة وظرفاً بحيث لو سمعها الطير لهوى ليسمع حلو حديثها رغم جمال صوته.

كَأنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ
يُضِيءُ بِمَنْعِهِ الْبَدْرَ الطُّلوعَا (١)

أقولُ لَهَا اكْشِفي ضُرِّي وَقَوْلِي
بأَكْثَرَ مِنْ تَدَلُّلِهَا خُضوعَا (٢)

أخِفْتِ اللَّهَ في إحْيَاءِ نَفْسٍ
مَتَى عُصِيَ الإلٰهُ بأَنْ أُطِيعَا (٣)

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَاماً
وَأصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا (٤)

أُحِبُّكَ أوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ
ثَبِيرَ أَوِ ابْنُ إبْرَاهِيمَ رِيعَا (٥)

---

(١) ورد قبل هذا البيت أربعة أبيات لم ترد في الديوان، وهي التالية:

تُرَفِّعُ ثَوْبَها الأَرْدافُ عَنْها ... فَيَبْقَى مِنْ وِشاحَيْها شَسُوعَا
إذا ماسَتْ رَأَيْتَ لَهَا ٱرْتِجاجاً ... لَهُ لَوْلَا سَوَاعِدُها نَزُوعَا
تَأَلَّمُ دَرْزَهُ والدّرْزُ لَيْنٌ ... كَمَا تَتَأَلَّمُ العَضْبَ الصَّنِيعَا
ذِرَاعَاها عَدُوَّا دُمْلُجَيْها ... يَظُنُّ ضَجِيعُها الزَّنْدَ الضَّجِيعَا

النقاب: القناع تستر المرأة به وجهها. يصف الشاعر حبيبته، إنها تتقنع بنقاب تستر به أنفها وفمها، كأنه غيم رقيق، فيبدو وجهها كالبدر ساعة اكتماله يشعّ جمالاً وضياءً.

(٢) و (٣) يطلب الشاعر من حبيبته أن تلقاه لتُزيل عنه ألمه بصدّها وكثرة دلالها وغنجها، وهو يزيد في تضرّعه وتذلّله، فإن ذلك إحياء نفس على وشك الموت، فليس في ذلك إغضاب للّه تعالى، وهو يسألها إن تملكها الخوف بإحيائه، إنها ليست معصية إذا نزلت عند رأيه وأطاعته في ما طلب.

(٤) الخلو: من خلي من هموم الحبّ. المستهام: المولّه. الخليع: المستهتر. لما هي عليه من جمال مثير، فإذا بمن خلا من هموم الحبّ يهيم حبًّا وعشقاً حتى من اتّسم بالرصانة والحرص الشديد في سلوكه، فلحظة رؤيته لها خلع عن نفسه وقاره وحرصه وأبدى تهتّكاً وخلاعة ليست من طبعه.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨، ١٥٤. ثبير: أحد جبال المدينة. ريع: خيف للمجهول. ابن إبراهيم هو الممدوح. يتخلّص الشاعر من الغزل =

بَـعِـيـدُ الـصِّـيـتِ مُـنْـبَـثُّ الـسَّـرَايَـا
يُـشَـيِّـبُ ذِكْـرُهُ الـطِّـفْـلَ الـرَّضِـيـعَـا[(١)]

يَـغُـضُّ الـطَّـرْفَ مِـنْ مَـكْـرٍ وَدَهْـيٍ
كَـأَنَّ بِـهِ وَلَـيْـسَ بِـهِ خُـشُـوعَـا[(٢)]

إِذَا اسْـتَـعْـطَـيْـتَـهُ مَـا فِـي يَـدَيْـهِ
فَـقَـدْكَ سَـأَلْـتَ عَـنْ سِـرٍّ مُـذِيـعَـا[(٣)]

قَـبُـولُـكَ مِـنْـهُ مَـنٌّ عَـلَـيْـهِ
وَإِلَّا يَـبْـتَـدِئْ يَـرَهُ فَـظِـيـعَـا[(٤)]

لِـهُـونِ الـمَـالِ أَفْـرَشَـهُ أَدِيـمـاً
وَلِـلـتَّـفْـرِيـقِ يَـكْـرَهُ أَنْ يَـضِـيـعَـا[(٥)]

= إلى المدح مؤكداً أن حبّه لن يزول كما أن النمل لن يستطيع نقل جبل ثبير من مكانه، وكما أن ابن إبراهيم لن يرعبه شيء.

(١) الصيت: انتشار الذكر الحسن بين الناس. السرايا، الواحدة سرية: الجماعة من الجند. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه مشهور بين الناس بالصيت الحسن؛ وهذا ما يفرح مواطنيه، وهو من يبعث سراياه لمحاربة أعدائه، إنهم من الشجاعة بمكان عالٍ بحيث تجعل أفعالهم الوليد الرضيع يشيب لهول ما يسمع عنهم.

(٢) يغض الطرف: يُشيح بنظره. الدهي: جودة الرأي. الخشوع: الخضوع للذلّ. يصف الشاعر ممدوحه بحسن الفطن؛ إنه يُشيح بنظره مبدياً عدم اهتمام بما يرى ويسمع، ويُعتقد للوهلة الأولى أن ذلك خشوع منه، وهو في الحقيقة يأبى الذلّ على نفسه لأنفته وكبريائه.

(٣) و(٤) قدك: كفاك. مذيعاً: منتشراً معلناً. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود مع تكتمه على ما يفعله، فلو أن امرأً استعطاه ما هو بحاجة إليه من مال أو مساعدة حتى لو كان كلّ ماله لكفاه مخافة وصول طلبه إلى آذان الناس ويُفتضح أمره، وسارع إلى تلبيته لحبّه للعطاء؛ فتلك ملكة متأصّلة فيه، لذا فهو يعتبر قبول العطاء من لدنه منّة تفضّل بها قابل العطاء عليه، ومن طبعه الأصيل أنه يُبادر إلى المعونة لمعرفته أحوال الناس فيوفّر عليهم مذلّة السؤال؛ فهذا من أعظم مستويات الكرم في البشر.

(٥) الهون: الحقارة. أفرشه: بسطه، الأديم: الجلد. يذكر الشاعر حدثاً رآه، مفاده أن ممدوحه قد جيء بمال كثير فنثره على جلد ونظر إليه غير مكترث به لهوانه عليه، =

إذَا ضَـــرَبَ الأمِــيــرُ رِقَــابَ قَــوْمٍ
فَـمَـا لِـكَـرَامَـةٍ مَـدَّ الـنُّـطُـوعَـا[١]

فَـلَـيْـسَ بِـوَاهِـبٍ إلَّا كَـثِـيـراً
وَلَـيْـسَ بِـقَـاتِـلٍ إلَّا قَـرِيـعَـا[٢]

وَلَـيْـسَ مُـؤَدِّبـاً إلَّا بِـنَـصْـلٍ
كَفَـى الصَّـمْـصَـامَـةُ التَّعَبَ الْـقَـطِـيعَـا[٣]

عَـلِـيٌّ لَـيْـسَ يَـمْـنَـعُ مِـنْ مَـجِـيءٍ
مُـبَـارِزَهُ وَيَـمْـنَـعُـهُ الـرُّجُـوعَـا[٤]

عَـلِـيٌّ قَـاتِـلُ الْـبَـطَـلِ الـمُـفَـدَّى
وَمُـبْـدِلُـهُ مِـنَ الـزَّرَدِ الـنَّـجِـيـعَـا[٥]

= وهو في الأصل يُريد أن يُوزّعه على مادحيه وقاصديه، ولا يُريد الاحتفاظ به في خزائنه.

(١) النطوع: الواحد نطع: جلد يوضع تحت من يقطع رأسه حتى لا تلطخ دماؤه المكان فينسكب على ذلك النطع. يعمد الشاعر إلى القياس؛ فوضع النّطع لضرب الرقاب ولئلا يلطخ المكان، ولذلك وضع الممدوح النطع لا ليُكرم تلك الأموال وإنما ليوزّعها، فليست كرامة المال بادّخاره في الخزائن بل في تفريقه بين مستحقيه ليقوم بدوره الذي من أجله وُجد.

(٢) القريع: الكريم من الفحول، ويقصد به السيد الشريف. لتفوّقه على أقرانه. يمدح الشاعر ممدوحه بكرم النفس، فهو يهب الأموال بلا حساب، وهو من الشجاعة في أعلى مكان بحيث لا يقتل إلّا العظماء الأقوياء من الأقران الأكفاء، ويتجنّب التجنّي على الضعفاء من البشر.

(٣) النصل: شفرة السيف. الصمصامة: من أسماء السيف وهو لا ينثني. القطيع: السوط المقطوع من جلد البعير. يصف الشاعر ممدوحه بأنه يؤدّب الخارجين على الطاعة الذين يُفسدون في الأرض بسيفه الذي استبدله بالسوط؛ فالسيف أكثر فعالية من السوط الذي استراح من التعب والمسؤولية.

(٤) و (٥) يصف الشاعر ممدوحه عليّا بالقوّة، إنه يقبل تحدّي من يأتيه مبارزاً فيتلقّاه فيكون لقاءه الأخير ولا يمكنه الرجوع إلى موطنه لأنه يقتله في المبارزة مهما كان قوياً، فلذا يكون قاتلاً لبطل يفديه الناس بأرواحهم لشجاعته وقوته؛ إنه بمثابة الحامي لهم، فإذا =

إِذَا اعْوَجَّ القَنَا في حَامِلِيهِ
وَجَازَ إِلَى ضُلوعِهِم الضُّلوعَا[١]
وَنَالَتْ ثأرَهَا الأَكْبَادُ مِنْهُ
فَأَوْلَتْهُ انْدِقَاقاً أَوْ صُدُوعَا[٢]
فَحِدْ في مُلْتَقى ٱلْخَيْلَيْنِ عَنْهُ
وَإِنْ كُنْتَ ٱلْخُبَعْثِنَةَ الشِّجِيعَا[٣]
إِنِ ٱسْتَجْرَأْتَ تَرْمُقُهُ بَعِيداً
فَأَنْتَ اسْطَعْتَ شَيْئاً مَا اسْتُطِيعَا[٤]
وَإِنْ مَارَيْتَنِي فَٱرْكَبْ حِصَاناً
وَمَثِّلْهُ تَخِرَّ لَهُ صَرِيعَا[٥]

= بالدماء تغطّيه ولم تنفعه الدروع الحديدية، إنها كانت عالة عليه فلم تحمه من فتكات عليّ.

(١) و (٢) اعوجّ: التوى. يصف الشاعر حاملي الرماح وهم يوجّهونها إلى أعدائهم، إنها تتلوّى في أجساد المقاتلين مخترقة ضلوعهم تنفذ من جانب لتخرج من جانب آخر، ولكنها تنقصف في أكباد القتلى لاعوجاجها لشدّة الطعن ومحاولة إخراجها بسرعة، وكأن الأكباد ثأرت من الرماح لما فعلته في القتلى.

(٣) الخُبعثنة: من أسماء الأسد. الشجيع: الشجاع. ينصح الشاعر من المقاتلين الشجاع ألّا يقرب من ممدوحه، فإنه لا محالة هالك على أيدي ممدوحه حتى لو كان بطلاً لا يُطاق، فهناك من هو أقوى منه؛ إنه لا يرحم خصمه أثناء القتال.

(٤) استجرأ: جرؤ. رمق: نظر بطرف نظره. يُخاطب الشاعر أخصام ممدوحه، فإن حملت جرأة أحدهم أن يرمي بطرفه إلى ممدوحه الذي يجول ويصول في المعركة فقد أتى شيئاً عظيماً لا يجرؤ أحد على فعله لأن الممدوح سيلاحظ ذلك ويكون ذلك سبباً لقتل ذلك المستجرئ.

(٥) ماريتني: جادلتني. يمدح الشاعر ممدوحه بقوّة شخصيته وعظم هيبته وذلك يكفي لوقوع الخصم في حال امتطائه فرساً واستعماله سلاحه حتى يقع صريعاً قبل ملاقاة الممدوح لسبب ما يتمتّع به من شدّة هيبته.

غَـمَـامٌ رُبَّـمَـا مَـطَـرَ ٱنْـتِـقَـامـاً
فَـأَقْـحَـطَ وَدْقُـهُ الْـبَـلَـدَ الـمَـرِيـعَـا(١)
رَآنِـي بَـعْـدَ مَـا قَـطَـعَ الـمَـطَـايَـا
تَـيَـمُّـمُـهُ وَقَـطَّـعَـتِ الْـقُـطُـوعَـا(٢)
فَـصَـيَّـرَ سَـيْـلُـهُ بَـلَـدِي غَـدِيـراً
وَصَـيَّـرَ خَـيْـرُهُ سَـنَـتِـي رَبِـيـعَـا(٣)
وَجَـاوَدَنِـي بِـأَنْ يُـعْـطِـي وَأَحْـوِي
فَـأَغْـرَقَ نَـيْـلُـهُ أَخْـذِي سَـرِيـعَـا(٤)
أَمُـنْـسِـيَّ الـسُّـكُـونَ وَحَـضْـرَمَـوْتَـا
وَوَالِـدَتِـي وَكِـنْـدَةَ وَالـسَّـبِـيـعَـا(٥)

---

(١) الغمام: السحب المليئة بالمطر. أقحط: جعل الأرض جدباء. الودق: المطر. المريع: المخصب. يصف الشاعر ممدوحه بالجود، إنه مطر ينشر الخصب في البلاد ويعمّ الخير ربوعها، وقد يتحوّل الغمام لديه إلى صواعق مدمّرة إذا حلّت نقمته بديار قوم، فإذا بغضبه يُحيل الخضرة والنماء إلى جفاف وقحط.

(٢) المطايا، الواحدة مطية: الإبل. التيمم: التوجّه. القطوع، الواحدة قطع: طنفسة تجعل تحت كتفي الجمل لتجعل ركوب الراحل مريحاً. يصف الشاعر المشاق التي تعرّض لها حتى وصل إلى ديار الممدوح، فقد أتعب ناقته طول السفر والطريق وهو يجتهد للوصول إلى ديار الممدوح حتى إن القطوع التي جعلها تحت كتفي جمله قد بليت وتقطّعت، فكان ركوبه جمله مزعجاً.

(٣) السيل: المطر المنهمر. الغدير: النبع الجاري. لقد قلب الممدوح أوضاع الشاعر المالية رأساً على عقب، فقد أغناه بما منحه، فإذا بسنته يعمها الخير الوفير، فتبدو ربيعاً مشرقاً بدفء العطاء.

(٤) جاودني: شاركني بتبادل الجود. إنها مبادلة مصالح، فقد سبق الممدوح الشاعر في الكرم؛ صحيح أن الشاعر مدح وأبدع إلّا أن الممدوح قد أغرق الشاعر بعطاياه التي فاضت عن حاجته فجعلت أيامه ربيعاً.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. يورد الشاعر أسماء أمكنة كانت القبائل تنزلها فسميت بأسمائها في الكوفة. يُشيد الشاعر بكرم الممدوح حتى إنه أنساه غربته وبعده عن مواطن طفولته حتى لقد نسي أمّه، والأمّ لا تُنسى أصلاً.

قَـدِ ٱسْـتَـقْـصَـيْـتَ فـي سَـلْـبِ ٱلأَعَـادِي
فَـرُدَّ لَـهُـمْ مِـنَ الـسَّـلَـبِ الْـهُـجُـوعَـا (١)
إذَا مَـا لَـمْ تُـسِـرْ جَـيْـشـاً إلَـيْـهِـمْ
أَسَـرْتَ إلـى قُـلُـوبِـهِـم الْـهُـلُـوعَـا (٢)
رَضُـوا بِـكَ كَـالـرِّضَـا بِـالـشَّـيْـبِ قَـسْـراً
وَقَـدْ وَخَـطَ الـنَّـوَاصِـيَ وَالْـفُـرُوعَـا (٣)
فَـلَا عَـزَلٌ وَأَنْـتَ بِـلَا سِـلَاحٍ
لِـحَـاظُـكَ مَـا تَـكُـونُ بـه مَـنِـيـعَـا (٤)
لَـوِ اسْـتَـبْـدَلْـتَ ذِهْـنَـكَ مِـنْ حُـسَـامٍ
قَـدَدْتَ بِـهِ الـمَـغَـافِـرَ وَالـدُّرُوعَـا (٥)

---

(١) استقصى: غالى في البحث والمتابعة. الهجوع: النوم. يصف الشاعر شدّة حرص ممدوحه في متابعة أموره التي أكسبته نجاحاً، فقد سلب من أعدائه كلّ شيء حتى النوم حرمهم طعمه لشدّة خوفهم منه حتى في منامهم.

(٢) الهلع: شدّة الخوف. يصف الشاعر ممدوحه بأنه مثير الرعب في قلوب أعدائه، حتى في حال عدم السير بجيشه إليهم، فمجرد تذكرهم أفعاله حتى ترتعش قلوبهم جبناً وخوفاً، فضلاً عن ذكر اسمه أمامهم.

(٣) القسر: الرغم. وخط: خالط. النواصي، الواحدة ناصية: مقدّم الرأس. الفروع، الواحد فرع: الشعر. ومن أثر أفعال الممدوح استكانة القوم رغماً عنهم، فتقبّلوا الوضع على حاله تماماً كما يتقبّل المرء المشيب الذي غزا رأسه دون مقاومة بل يتقبل ذلك باستسلام.

(٤) العزل: مصدر الأعزل: من لا سلاح له. اللحظ: مؤخر العين. المنيع: القوي. يصف الشاعر ممدوحه بأنه ذو بصر نافذ يُثير الرعب في القلوب، وبذلك استغنى عن السلاح فحلّ محلّه نظر مخيف، وبذلك وفّر على أعدائه دماءهم فضلاً عن إرعابهم.

(٥) المغافر، الواحد مغفر: زرد يُنسج من الدرع يُوضع على رأس المحارب. يصف الشاعر ممدوحه بحدّة الذكاء فلو أنه استعمل ذكاءه بدلاً من سيفه لقام ذلك الذكاء بعمل عظيم جعله يقطع الحديد، فيفصم زردات المغافر والدروع، فتكون له الغلبة دون استعمال السلاح.

لَـوِ ٱسْـتَـفْـرَغْـتَ جُـهْـدَكَ فِـي قِـتَـالٍ
أَتَـيْـتَ بِـهِ عَـلَـى الـدُّنْـيَـا جَـمِـيـعَـا(١)

سَـمَـوْتَ بِـهِـمَّـةٍ تَـسْـمُـو فَـتَـسْـمُـو
فَـمَـا تُـلْـفَـى بِـمَـرْتَـبَـةٍ قَـنُـوعَـا(٢)

وَهَـبْـكَ سَـمَـحْـتَ حَـتَّـى لا جَـوَادٌ
فَـكَـيْـفَ عَـلَـوْتَ حَـتَّـى لَا رَفِـيـعَـا(٣)

يا مغنياً أمل الفقير لقاؤه

يمدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الأصبع الكاتب:

[الكامل]

أَرَكَـائِـبَ الأَحْـبَـابِ إِنَّ الأَدْمُـعَـا
تَـطِسُ الْـخُـدُودَ كَـمَـا تَـطِـسْـنِ الْـيَـرْمَـعَـا(٤)

فَـاعْـرِفْـنَ مَـنْ حَـمَـلَـتْ عَـلَـيْـكُـنَّ الـنَّـوَى
وَٱمْـشِـيـنَ هَـوْنـاً فـي الأَزِمَّـةِ خُـضَّـعَـا(٥)

---

(١) استفرغت: خصّصت. يُخاطب الشاعر ممدوحه واصلاً بقدرته القتالية إلى أقصى حدودها؛ فلو أنه وضع كلّ جهوده في القتال لأخضع الكون لإرادته وأهلك كلّ من فيه من البشر.

(٢) سموت: علوت. تلفى: توجد. يُخاطب الشاعر ممدوحه، لقد أدرك أعلى مراتب المجد لهمته وإرادته العظيمة التي أهّلته لاحتلال أعلى قمم العلى، ومع ذلك، فيبدو أنه لم يكتف بما حقّقه بل لم تعرف القناعة طريقاً إلى همته وعقله.

(٣) هبك: احسب. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوهاً بطموحه أنه فاق كلّ كريم، فلم يبلغ أحد شأوه في هذا المجال، ولم يكتف بذلك فإذا به يسمو على سائر البشر في مضمار العظمة فاعتلى أعلى مكان فيها، فإذا به يبلغ السماء ويُمسك النجوم بيديه.

(٤) الوطس: الدق بقوّة. اليرمع: حجارة رخوة صغيرة. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. إنها دموع غزار شديدة الوطء بحيث تؤلم الخدود وكأنها أخفاف الإبل تطأ الحصا بقوّة فتفتتها.

(٥) النوى: البعد. الهون: التؤدة. الأزمة، الواحد زمام: مقود الدابة. يُخاطب الشاعر الإبل التي تنقل حبيبته بعيداً ويُوصيها أن تعرف قدرها بالنسبة إليه، كما يُوصيها بالسير =

قَـدْ كَـانَ يَـمْـنَـعُـنِـي ٱلْـحَـيَـاءُ مِـنَ الْـبُـكَـا
فَـالْـيَـوْمَ يَـمْـنَـعُـهُ الْـبُـكَـا أَنْ يَـمْـنَـعَـا[(١)]

حَـتَّـى كَـأَنَّ لِـكُـلِّ عَـظْـمٍ رَنَّـةً
فِـي جِـلْـدِهِ وَلِـكُـلِّ عِـرْقٍ مَـدْمَـعَـا[(٢)]

وَكَـفَـى بِـمَـنْ فَـضَـحَ الْـجَـدَايَـةَ فَـاضِـحـاً
لِـمُـحِـبِّـهِ وَبِـمَـصْـرَعِـي ذَا مَـصْـرَعَـا[(٣)]

سَـفَـرَتْ وَبَـرْقَـعَـهَـا الْـفِـرَاقُ بِـصُـفْـرَةٍ
سَـتَـرَتْ مَـحَـاجِـرَهَـا وَلَـمْ تَـكُ بُـرْقُـعَـا[(٤)]

فَـكَـأَنَّـهَـا وَالـدَّمْـعُ يَـقْـطُـرُ فَـوْقَـهَـا
ذَهَـبٌ بِـسِـمْـطَـيْ لُـؤْلُـؤٍ قَـدْ رُصِّـعَـا[(٥)]

= السهل الهادئ مخافة أن تتأذى في حال الإسراع، ومتمنياً عليها الخضوع لإرادة قائديها.

(١) الحياء ملكة في النفس، وهو يجعله يتماسك فلا يبكي لبعد حبيبته، والآن قد تبدّلت الأحوال فإذا بالدموع تنهمر فحالت دون الحياء الذي استجاب لإرادة المنع فامتنع.

(٢) الرنّة: الصوت. المدمع: مجرى الدمع. الشاعر شديد التأثر ممّا يجري أمام عينيه الدامعتين، فإذا بكلّ عظم من عظامه يُصدر صوتاً حزيناً، بل كلّ جارحة تئنّ بدورها لما هو عليه من حزن وألم.

(٣) الجداية: الظبية. فضح: أظهر وأبان. يصف الشاعر حبيبته إنها غاية في الجمال. فهي فضحت الغزال برقّته وأناقته وجماله، ففاقته بما هي عليه، إنه جمال كامل الأوصاف، وهذا يكفي ليُسبّب بهلاك من وقع أسير هذا الجمال، وبقدر ما هي جميلة بقدر تعلّقه بها وعشقه لها.

(٤) سفرت: كشفت عن وجهها. البرقع: غطاء الوجه. المحاجر، الواحد محجر: ما حول العينين. إنها لحظة الوداع، لحظة الفراق الطويل، الحبيبة تكشف عن وجهها، والحزن يصبغ ذلك الوجه البديع بغلالة من الحزن صفراء، تُشبه صفرة الموت كأنها برقع يغطّي مفاتنها، والخوف بادٍ على محيّاها؛ إنه القدر الذي قضى على الأحبّة بالفراق.

(٥) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٩. السمط: خيط القلادة. يصف الشاعر حبيبته وهي دامعة؛ فإذا بدموعها المنحدرة على وجهها =

كَـشَـفَـتْ ثَـلَاثَ ذَوَائِـبٍ مِـنْ شَـعْـرِهَـا
فِـي لَـيْـلَـةٍ فَـأَرَتْ لَـيَـالِـيَ أَرْبَـعَـا(١)
وَاسْـتَـقْـبَـلَـتْ قَـمَـرَ الـسَّـمَـاءِ بِـوَجْـهِـهَـا
فَـأَرَتْـنِـيَ الْـقَـمَـرَيْـنِ فـي وَقْـتٍ مَـعَـا(٢)
رُدِّي الْـوِصَـالَ سَـقَـى طُـلُـولَـكِ عَـارِضٌ
لَـوْ كَـانَ وَصْـلُـكِ مِـثْـلَـهُ مـا أَقْـشَـعَـا(٣)
زَجِـلٌ يُـرِيـكَ الْـجَـوَّ نَـاراً وَالْـمَـلَا
كَـالْـبَـحْـرِ وَالـتَّـلَـعَـاتِ رَوْضـاً مُـمْـرِعَـا(٤)

= الذي غطته صفرة صُبغت بالحزن، فبدا وجهها ذهبيّ اللون وقد رُصّع بسمطين من اللؤلؤ المنحدر من عينيها.

(١) يروى «كشفت» بدلاً من «نشرت». الذوائب، الواحدة ذؤابة: الخصلة من الشعر. الشعر الأسود ميزة المرأة العربية ينسدل بهدوء فيعطيها جمالاً رائعاً، والشعر رمز الليل لسواده، لقد كشفت حبيبة الشاعر عن ما يُميّز جمالها. إنه شعر يسبح على صدرها البديع ووجهها المنسجم مع شعرها، فإذا به يُشرق وتبدو أربع ليالٍ في ليل شرقي يشعّ حبًّا وجمالاً.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٦٠، أمالي ابن الشجري ١: ١٤، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٦٨٧. إنه استقبال الفرح، عندما يستقبل امرؤ امرأً على شاكلته، يتآلف معه وينسجم معه روحياً، فكيف بمن أشبه القمر جمالاً ورفعة وضياء، والقمر يسامر المحبين، فدون شكّ كلا القمرين يبوح لرفيقه بما يُضمر في أعماقه من حبّ، فيكون الاستقبال ممزوجاً بالودّ والحبّ.

(٣) الطلول، الواحد طلل: الآثار الباقية من رسوم الديار. العارض: السحاب المعترض في الأفق. أقشع: انكشف، وبان. يُخاطب الشاعر حبيبته، طالباً منها أن تصله وتلقاه ليبثها لواعج قلبه فيستريح، متمنياً السقيا لتلك الأطلال التي تركتها، مطراً دائماً متواصلاً لا انقطاع له على أن يُشبهه وصالها، فلو كان دائماً كالمطر ما انقشع ولدامت روابط الحبّ قوية.

(٤) الزجل: المصوت الذي يُحدث صوتاً. الملا: المتسع من الأرض والصحراء، التلعات، الواحدة تلعة: التلات تنحدر منها المياه إلى الوديان. الممرع: الخصيب. يصف الشاعر العارض بأنه غطّى السماء ببرقه، فاستحالت كنار ملتهبة، فإذا بالأمطار =

كَـبَـنـانِ عَـبْـدِ الْـوَاحِـدِ الْـغَـدَقِ الَّـذِي
أَرْوَى وَأَمَّـــنَ مَـــنْ يَـــشَـــاءُ وَأَجْـــزَعَـــا[1]

أَلِــفَ الـــمُـــرُوءَةَ مُـــذْ نَـــشَـــا فَـــكَـــأَنَّـــهُ
سُقِـيَ الـلِّـبَـانَ بِـهـا صَـبِـيًّـا مُـرْضَـعَـا[2]

نُـظِـمَـتْ مَـوَاهِـبُـهُ عَـلَـيْـهِ تَـمـائِـمـاً
فـاعْـتَـادَهـا فـإذَا سَـقَـطْـن تَـفَـزَّعَـا[3]

تَـرَكَ الـصَّـنـائِـعَ كَـالْـقَـوَاطِـعِ بـارِقـا
تٍ والـمَـعَـالِـيَ كـالْـعَـوَالِـيَ شُـرَّعَـا[4]

= تنهمر بغزارة فغطّت الأرض وبدت كأنها بحر طام، إنه يُحوّل التلال بمياهه وتدبّ بها الحياة خضرة ونماءً وخصباً.

(١) البنان: الأصابع. الغدق: الجمّ، الكثير، انتقل الشاعر من وصف ذلك العارض بفيض مائه بكرم عبد الواحد متخلّصاً إلى مدحه؛ إنه كريم معطاء يُغدق خيراته كما ينشر العارض دفق الخير بغير حساب، فضلاً عن أنه مصدر أمن إلى مواطنيه لحمايته لهم، ومصدر رعب وخوف لمن عاداه، إنه نار على أعدائه وخير على أحبائه.

(٢) ألف: اعتاد، المروءة: الشهامة. اللبان، الواحد لبن. إنها عادة حميدة تربّى عليها منذ طفولته الأولى، فهو شهم كريم، ولقد رضع لبانها مع لبان الأم ونشأ على ذلك، فأصبح ذلك أهمّ مكوّناته وصفاته المتأصلة فيه في شبابه.

(٣) التمائم، الواحدة تميمة: التعويذة، إن الممدوح ذو مواهب متعدّدة المناحي والأشكال لازمته كأنها تمائم تستره من أعين الحاسدين، بفضل عطائه وكرمه، فاستحقّ المدح من قبل الشعراء، والدعاء من قبل الفقراء، فكان كلّ ذلك بمثابة تمائم تحرسه وتمنع عنه حسد الحاسدين، ولو امتنع عنها لكان ذلك مثار خوفه، وقد اعتاد على سماع الدعاء والمدح، ولذا فلن يمتنع عن رفد هؤلاء عطاءه.

(٤) ترك: بمعنى جعل. الصنائع، الواحد صنيع: فعل الخيرات. القواطع، الواحد قاطع: السيوف. بارقات: لامعات. المعالي: الأمجاد. العوالي: صدور الرماح. شرّاع: مقوّمة. يصف الشاعر أثر أفعال الخير التي يقوم بها الممدوح، فقد حوّلها سيوفاً تقطع ذوات الحاجات عن السؤال والمذلّة، وهي مشرقة ضياء كلمع السيوف، ولقد نهض بأمجاده حتى انتشر صيته في الآفاق.

مُـتَـبَـسِّـمـاً لِـعُـفـاتِـهِ عَـنْ وَاضِـحٍ
تَـغْـشَـى لَـوَامِـعُـهُ الْـبُـرُوقَ الـلُّـمَّـعَـا (١)
مُـتَـكَـشِّـفـاً لِـعُـدَاتِـهِ عَـنْ سَـطْـوَةٍ
لَـوْ حَـكَّ مَـنْـكِـبُـهَـا الـسَّـمـاءَ لَـزَعْـزَعـا (٢)
أَلْـحَـازِمَ الْـيَـقِـظَ الأغَـرَّ الْـعَـالِـمَ الْـ
ـفَـطِـنَ الألَـدَّ الأريَـحِـيَّ الأرْوَعَـا (٣)
أَلْـكَـاتِـبَ الـلَّـبِـقَ الْـخَـطِـيـبَ الْـوَاهِـبَ الـنَّـ
ـدُسَ الـلَّـبِـيـبَ الْـهِـبْـرِزِيَّ الْـمِـصْـقَـعَـا (٤)

---

(١) العفاة، الواحد عافٍ: السائلين، المحتاجين. تغشى: تغطّي. لوامعه: ثناياه. يصف الشاعر لقاء ممدوحه السائلين، إنه لقاء ودٍّ ومحبّة يبعث في نفسه الفرح، فإذا بالابتسامة تضيء وجهه وتنفرج أساريره حتى تبدو ثناياه مشرقة بيضاء فتذهب بضوء البروق.

(٢) يروى «صكّ» بدلاً من «حكّ». وحكّ: زاحم. يمدح الشاعر ممدوحه بالشجاعة والقوّة؛ إنه يُجاهر بعداوته لأعدائه فلا يجبن ولا يضعف وهو ذو سطوة تزعزعهم حتى إنه لو زاحم السماء لأمكنه ذلك فتزلزلت من قدرته. وذلك من المبالغات التي يعمد إليها.

(٣) و (٤) يرصف الشاعر المزايا التي تُعتبر من مفاخر الإنسان العربي عبر التاريخ؛ إنه حازم يأخذ الأمور بجدّ ولا يتوانى، دائم اليقظة، فلا يغفل في أمور دولته، وذلك سرّ نجاحه، عالم بشتّى فنون العلم، ذو معرفة بأحوال البشر، فطن، فذكاؤه أهله ليتبوأ ذُرى المجد، ألدّ، شديد الخصومة لا يُداخله شعور برحمة أعدائه يصبّ جام غضبه عليهم، أريحيّ يستجيب لداعي الكرم ويُساعد المحتاجين بحبّ وعطف، أروع، فكلّ ما فيه يُثير الإعجاب ذكاءً وفِطنة، كاتب ذو معرفة تُؤهّله ليتبوّأ أعلى المناصب، لبق، يُحسن التصرف في الأوقات الحرجة بذكاء، خطيب مفوّه يعلو المنابر ويُشار إليه بالبنان، كريم يهتزّ فرحاً وأريحيّة عندما ينفح السائلين والمحتاجين، وهو يتفجّر فطنة وذكاءً، عاقل يتصرّف في الأمور بوعي وحذق، هبرزي يُسرّ الناظر إليه لجماله ووسامته وأناقته، مصقع خطيب مفوّه بليغ. إنه بلغ أعلى مراتب الكمال، فحقّ له أن يتبوّأ أعلى ذرى المجد.

نَـفْـسٌ لَـهـا خُـلُـقُ الـزَّمَـانِ لأنّـهُ
مُـفْـنِـي الـنُّـفُـوسِ مُـفَـرِّقٌ مـا جَـمَّـعَـا [(١)]

وَيَـدٌ لَـهـا كَـرَمُ الـغَـمَـام لأنَّـهُ
يَـسْقِـي الْـعِـمَـارَةَ وَالـمَـكَـانَ الْـبَـلْـقَـعَـا [(٢)]

أبَـداً يُـصَـدِّعُ شَـعْـبَ وَفْـرٍ وَافِـرٍ
ويَـلُـمُّ شَـعْـبَ مَـكَـارِمٍ مُـتَـصَـدِّعَـا [(٣)]

يَـهْـتَـزُّ لِـلْـجَـدْوَى ٱهْـتِـزَازَ مُـهَـنَّـدٍ
يَـوْمَ الـرَّجَـاءِ هَـزَزْتَـهُ يَـوْمَ الْـوَغَـى [(٤)]

يَـا مُـغْـنِـيـاً أَمَـلَ الْـفَـقِـيـرِ لِـقَـاؤُهُ
وَدُعَـاؤُهُ بَـعْـدَ الـصَّـلَاةِ إذَا دَعَـا [(٥)]

---

(١) يمدح الشاعر ممدوحه بأنه صنو الزمان، فكلاهما يُفنيان البشر؛ فالممدوح يقضي عليهم بسيفه وشجاعته، والزمن يقضي عليهم بقضاء اللّٰه سبحانه وتعالى، وهو كريم يُفرّق ما حصله من أموال بين البشر المحتاجين السائلين والشعراء.

(٢) العِمارة: المعمور من الأرض. البلقع: الخالي من الأرض. يمدح الشاعر ممدوحه بجوده العظيم؛ فكرمه مساوٍ لكرم الغمام الذي يفيض على سائر الأرض لا يبخل أبداً سواء أكانت عامرة بأهلها أم خلاءً من البشر؛ وذلك سرّ عظمة الممدوح.

(٣) يُصدّع: يُزلزل ويفرّق. الشعب: الشمل، الوحدة، الوفر: المال والغنى الكثير. يلمّ: يجمع. يمدح الشاعر ممدوحه بكرمه، إنه يُفرّق بين الخلق ماله الكثير فيشتت شمله، وفي المقابل يجمع لديه كلّ مكارم الأخلاق، وذلك مجال فخره وعزّه الذي لا يتفرّق.

(٤) الجدوى: الجود، العطاء، المهند: من أسماء السيف، وهو المصنوع في الهند. الوغى: الحرب وأصوات المقاتلة. يصف الشاعر ممدوحه بأنه يُطرب ويُسرّ يوم يتفضّل على الناس بعطائه تماماً كما يهتزّ السيف طرباً في يوم المعركة، ليدلّ على نفسه معتزًّا بما يفعل.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه مثنياً عليه فِعاله، إنه ملجأ الفقراء لدفع الفاقة عن كواهلهم، وهم يُبادلونه عِرفاناً بجميل ودعاءً بعد الصلاة ليحفظه اللّٰه تعالى ويحميه من كلّ ضيق.

أَقْصِرْ وَلَسْتَ بِمُقْصِرٍ جُزْتَ المَدَى
وَبَلَغْتَ حَيثُ النَّجْمُ تَحْتَكَ فَارْبَعَا(١)

وَحَلَلْتَ مِنْ شَرَفِ الْفَعَالِ مَوَاضِعاً
لَمْ يَحْلُلِ الثَّقَلَانِ مِنْهَا مَوْضِعَا(٢)

وَحَوَيْتَ فَضْلَهُمَا وَمَا طَمِعَ امْرُؤٌ
فِيهِ وَلَا طَمِعَ امْرُؤٌ أَنْ يَطْمَعَا(٣)

نَفَذَ الْقَضَاءُ بِمَا أَرَدْتَ كَأَنَّهُ
لَكَ كُلَّمَا أَزْمَعْتَ شَيْئاً أَزْمَعَا(٤).

وَأَطَاعَكَ الدَّهْرُ الْعَصِيُّ كَأَنَّهُ
عَبْدٌ إذا نَادَيْتَ لَبَّى مُسْرِعَا(٥)

---

(١) و (٢) أقصر: توقّف. المدى: أقصى الغاية. اربعا: أراد اربعن، فحذف نون التوكيد ووقف بالألف للضرورة الشعرية. يطلب الشاعر من ممدوحه، وهو يعلم أنه لن يستمع لطلبه، إنه لن يتوقّف عمّا اعتاد عليه وقد أدرك أقصى غاية تؤهله ليتبوّأ أقصى حدود العظمة، وقد أدرك أمانيه فحلّ حيث لم يستطع مخلوق من البشر أو الجنّ أن يتبوّأ تلك المعالي، فاعتلى أعلى السماكين وراح ينظر إلى سائر البشر.

(٣) ومن مآثر الممدوح أنه استطاع أن يجمع لديه فضائل البشر والجنّ في نفسه، وتلك الفضائل السامية لم يُحدّث مخلوق نفسه بجمعها لديه ولم تحدثه نفسه بإدراكها لقصور فيه وصعوبة مراقيها، فاستكان في بُقعة الخمول والكسل.

(٤) و (٥) أزمع: صمّم وعزم. إنها إرادة إلهيّة توافقت مع الممدوح واستجابت لرغبته، فإذا أراد شيئاً وافقته الأقدار وساعدته على بلوغ ما أراد بيسر وسهولة، وقد أطاعه الدهر، ومن طبيعته العصيان لإرادة البشر، ولكن الأمر مع الممدوح خلاف ذلك، إنها طواعية، وكأن الدهر في تلبيته لرغبة الممدوح كأنه عبد يستجيب لأمر سيده. يُشتمّ من ذلك حسد مبطّن من الشاعر، فضلاً عن المغالاة في قضيّة كهذه.

أَكَـلَـتْ مَـفَـاخِـرُكَ الـمَـفَـاخِـرَ وَانْـثَـنَـتْ
عَـنْ شَـأْوِهِـنَّ مَـطِـيُّ وَصْـفِـي ظُـلَّـعَـا(١)
وَجَـرَيْـنَ مَـجْـرَى الـشَّـمْـسِ فـي أَفْـلَاكِـهَـا
فَـقَـطَـعْـنَ مَـغْـرِبَـهَـا وَجُـزْنَ الـمَـطْـلَـعَـا(٢)
لَـوْ نِـيـطَـتِ الـدُّنْـيَـا بِـأُخْـرَى مِـثْـلِـهَـا
لَـعَـمَـمْـنَـهَـا وَخَـشِـيـنَ أَنْ لَا تَـقْـنَـعَـا(٣)
فَـمَـتَـى يُـكَـذَّبُ مُـدَّعٍ لَـكَ فَـوْقَ ذا
وَالـلَّـهُ يَـشْـهَـدُ أَنَّ حَـقًّـا مَـا ٱدَّعَـى(٤)
وَمَـتَـى يُـؤَدِّي شَـرْحَ حَـالِـكَ نَـاطِـقٌ
حَـفِـظَ الْـقَـلِـيـلَ الـنَّـزْرَ مِـمَّـا ضَـيَّـعَـا(٥)

---

(١) و(٢) انثنت: رجعت، عادت. الشأو: الغاية. المطيّ: الواحدة مطيّة: الركوبة. الظلّع، الواحد ظالع: من يمشي كأنه يعرج. لقد بلغ الممدوح غايته القصوى، فإذا بمفاخره تأكل سائر مفاخر البشر بل إنها فاقت الجميع، فلم يجرؤ أحد أن يفتخر، فإذا بمطاياهم تتقهقر خجلى منطوية على خزي وخسران، ولم تتوقف مفاخر الممدوح عند حد فإذا بها تطوف الأرض جميعها كالشمس فلا تفوتها قطعة من الأرض إلّا شعّت حرارتها فأمدتها دفئاً وضياءً ونوراً، كذلك كان صيت الممدوح يخترق مشرق الأرض ومغربها.

(٣) نيطت: قرنت. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً ببعد همّته؛ فرغم سعة الدنيا وما تتطلبه من إحاطة، فلو أن دنيا أخرى قُرنت بها لكانت همّة الممدوح قد شملتها مع أختها، وهذا ما يخيف الشاعر ألّا يكتفي الممدوح بذلك لبعد همّته وقوّة طموحه بلوغ أعلى الغايات في المعالي.

(٤) يُخاطب الشاعر ممدوحه معلّلاً مغالاته، فلو أن أحد المدّعين نسب تلك الأفعال إلى الممدوح ما كان كاذباً لأن اللّه تعالى يُصدّق شهادته، وذلك سببه قوّة إرادة الممدوح وعلو همّته.

(٥) النزر، القليل. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بكثرة مزاياه وفضائله، فلو أن امرأً حاول جمع فضائله لما أمكنه ذلك، ومهما تذكّر منها فإنه قليل أمام بحر واسع من الملكات التي اجتمعت لدى الممدوح.

إنْ كـانَ لا يُـدْعـى الْـفَـتـى إلّا كـذا
رَجُـلاً فَـسَـمِّ الـنَّـاسَ طُـرًّا إصْـبَـعَـا[١]

إنْ كَـانَ لا يَـسْـعَـى لِـجُـودٍ مَـاجِـدٌ
إلَّا كـذا فَـالْـغَـيْـثُ أبْـخَـلُ مَـنْ سَـعَـى[٢]

قَـدْ خَـلَّـفَ الْـعَـبَّـاسُ غُـرَّتَـكَ ٱبْـنَـهُ
مَـرْأًى لـنَـا وَإلـى الْـقِـيَـامَـةِ مَـسْـمَـعَـا[٣]

أنت نبع والملوك خروع

قال وقد ركب سيف الدولة في تشييع عبده يماك لما أنفذه في المقدمة إلى الرقة وهاجت ريح شديدة:

[الرجز]

لَا عَـدِمَ الْـمُـشَـيِّـعَ الْـمُـشَـيَّـعُ
لَـيْـتَ ٱلـرِّيَـاحَ صُـنَّـعٌ مَـا تَـصْـنَـعُ[٤]

---

(١) طرًّا: جميعاً. إنها مواصفات تلتئم لدى الفتى، الكامل الفتوّة، فإذا اجتمعت كلّ تلك الصفات لدى أحدهم فهو شبيه بالممدوح، وهذا محال لأن تلك الصفات متفرّقة بين البشر، وجميع الناس يساوون إصبع الممدوح إذا ما قيسوا بما لدى الممدوح من مزايا وصفات.

(٢) الغيث: المطر. يُقيم الشاعر مقارنة بين ممدوحه وسائر البشر، وبينه وبين المطر؛ فمن المؤكد أنه لا يوجد في البشر من يُوازي الممدوح في كرمه وسرعة تلبيته لاستغاثة الملهوف والمحتاج، حتى الغيث فإنه يُعتبر بخيلاً إذا ما قورن بالممدوح، فالمطر رحلته طويلة ليعمّ خيره الكون بما فيه ومن فيه من البشر عكس الممدوح الذي يُسارع إلى الخيرات.

(٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه خلف أبيه العباس، والولد سرّ أبيه، إنه غرّة وضّاءة ومفخرة أبيه، كرماً وخُلقاً وهيئة، ففضله يتمثل بفضل الممدوح وكرمه؛ إنه صيت يبقى مع الدهر إلى يوم يبعثون على ألسنة البشر ثناءً ومدحاً.

(٤) المشيِّع: اسم فاعل، ويقصد بذلك سيف الدولة. المشيَّع: اسم مفعول غلام سيف الدولة يماك. يدعو الشاعر لسيف الدولة بدوام العمر وألّا يفتقده عبده، وهو يتمنّى على الرياح أن تصنع ما يصنعه الأمير من فوائد للناس لكرمه وجوده.

بَــكَــرْنَ ضَــرًّا وَبَــكَــرْتَ تَــنْــفَــعُ
وَسَــجْــسَــجٌ أَنْــتَ وَهُــنَّ زَعْــزَعُ[(١)]
وَوَاحِــــدٌ أَنْــــتَ وَهُــــنَّ أرْبَــــعُ
وَأَنْــتَ نَــبْــعٌ وَٱلْــمُــلُــوكُ خِــرْوَعُ[(٢)]

أنت تخلق ما تأتي

قال وقد ظفر بسيف الدولة في هذه الغزوة:

[البسيط]

غَــيْــرِي بِــأَكْــثَــرِ هٰــذَا الــنَّــاسِ يَــنْــخَــدِعُ
إنْ قَــاتَــلُــوا جَــبُــنُــوا أَوْ حَــدَّثُــوا شَــجُــعُــوا[(٣)]
أَهْــلُ الــحَــفِــيــظَــةِ إلَّا أَنْ تُــجَــرِّبَــهُــمْ
وفــي الــتَّــجَــارِبِ بَــعْــدَ الــغَــيِّ مَــا يَــزَعُ[(٤)]

---

(١) السجسج: الرياح اللطيفة الربيعيّة. الزعزع، الرياح الشديدة المضرّة. يقيم الشاعر بين ممدوحه وبين الرياح العاتية مقارنة، إنها تبكّر مخرّبة الطبيعة ومؤذية البشر باشتدادها، بينما تبدو ريح الأمير لطيفة محيية تهب على الحياة لطيفة فلا تؤذي لرقتها، فلا هي حارّة مؤذية ولا هي باردة قارسة تُخيف وترعب.

(٢) يقيم الشاعر أيضاً بين الأمير والرياح الأربعة مقارنة، وهي الجنوب، والشمال، والصبا، والدبور. النبع: ضرب من الأشجار الصلبة التي تُتّخذ عيدانها قسياً. إن الأمير واحد يتفوّق على العنيف من تلك الرياح التي تحمل الأذى للبشر، وهو كالنبع الذي يُستفاد منه في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام، وبمقابل الأمير ملوك ضعفاء نبتهم من شجر ضعيف خوّار لا يُقاوم يتكسّر بيسر وسهولة.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٩٢. يبدأ الشاعر قصيدته بأنه لا ينخدع بمعسول الكلام، فالحرب لا تكون بالكلام بل بالفعل؛ فالشجاع يقاتل ويكشف عن أصالة معدنه وشجاعته، أما الثرثارون فإنهم كثيرون يخوضون المعارك وينتصرون وهم بعد في بيوتهم ومنتدياتهم، فلو دعوا إلى الجهاد تكاسلوا وتفننوا بإيجاد الأعذار الواهية.

(٤) الحفيظة: الحميّة والأنفة. الغي: الجهل. يزع: يردع، يمنع. ينعى الشاعر على المدّعين الجبن؛ إنهم يُبدون حماساً وحميّة في أحاديثهم؛ والتجربة امتحان يكشف =

وَمَـا الْـحَـيَـاةُ وَنَـفْـسِـي بَـعْـدَ مَـا عَـلِـمَـتْ
أَنَّ الْـحَـيَـاةَ كَـمَـا لا تَـشْـتَـهِـي طَـبَـعُ[١]

لَـيـس الـجَـمـالُ لِـوجْـهٍ صَـحَّ مَـارِنُـهُ
أنـفُ الْـعَـزِيـز بِـقَـطْـعِ الْـعِـزِّ يُـجْـتَـدَعُ[٢]

أَأَطْـرَحُ الْـمَـجْـدَ عَـنْ كِـتْـفِـي وَأَطْـلُـبُـهُ
وَأَتْـرُكُ الْـغَـيْـثَ فـي غِـمْـدِي وَأَنْـتَـجِـعُ[٣]

وَالْـمَـشْـرَفِـيَّـةُ لا زَالَـتْ مُـشَـرَّفَـةً
دَوَاءُ كُـلِّ كَـرِيـمٍ أوْ هِـيَ الْـوَجَـعُ[٤]

= أصالتهم وصدق حديثهم، فإن كانوا صادقي القول والفعل فهم ليسوا جبناء ولا جهلة، وإلّا فهم كذلك؛ وهؤلاء يظهرون على حقيقتهم في الملمات والأحداث الجسام.

(١) الطبع: الدنس. يعبر الشاعر عن رفضه لأسلوب الحياة الإنسانية الممهورة بالذلّ والهوان، إنها حياة الجبناء، فالمرء لا يعيش إلّا مرّة واحدة؛ فالعزّة حياة الثائرين على ضعفهم في سبيل حياة أفضل تخلو من الدنس وحبّ الحياة مهما كانت.

(٢) المارن: الأنف الليّن. اجتدع الأنف: قطعه. جمال الحياة باكتمال الجوارح، فمطلق قطع أي عضو في المرء تشويه جسديّ، والأنف عند العربي مصدر كبريائه وعزّته، ففي قطعه فقد لسلطانه على نفسه وسلب لعزّته، وفي حال تحطيمه لا معنى للحياة لديه.

(٣) الانتجاع: البحث عن مواقع المياه. الغيث: المطر. ثمّة رسالة خُلق الإنسان ليُحقّقها، ولتحقيق ذلك طريقان لا ثالث لهما، إما أن يكون طفيلياً على الحياة فيرتضع معها الذلّ والاستكانة والضعف، فعيش المرء وموته سيّان في حالة كهذه، وإما أن يمتشق سيفه ويحصد أسباب الضعف عن كاهله، وفي ذلك عِزّته ومنعته. وإلّا فليرحل عن هذه الحياة تاركاً المجال إلى غيره علّه يُوفّق في مسعاه.

(٤) المشرفية: السيوف. إنها نظرة حكيمة؛ فالسلاح قيمته باستعماله شأن كلّ شيء وُجد، فاستعماله يُسوّغ الغاية من وجوده، وإلّا فإنه داء عُضال؛ والسيف شرفه استعماله فيكون نعم السلاح، وإلّا فإنه نكبة ومرض لا بدّ من الخلاص منه؛ فالكريم يستعمله مهما تكن النتائج.

وَفَـارِسُ الْـخَـيْـلِ مَـنْ خَـفَّـتْ فَـوَقَّـرَهَـا
فِـي الـدَّرْبِ وَالـدَّمُ فـي أعْـطَـافِـهَـا دُفَـعُ[(١)]
فَـأَوْحَـدَتْـهُ وَمَـا فــي قَـلْـبِـهِ قَـلَـقٌ
وأغْـضَـبَـتْـهُ وَمَـا فـي لَـفْـظِـهِ قَـذَعُ[(٢)]
بِـالـجَـيْـشِ تَـمْـتَـنِـعُ الـسَّـادَاتُ كُـلُّـهُـمُ
وَالْـجَـيْـشُ بَـابْـنِ أبـي الـهَـيْـجَـاءِ يَـمْـتَـنِـعُ[(٣)]
قَـادَ الـمَـقَـانِـبَ أقْـصَـى شُـرْبِـهَـا نَـهَـلٌ
عَـلَـى الْـشَّـكِـيـمِ وَأدْنـى سَـيْـرِهَـا سِـرَعُ[(٤)]
لَا يَـعْـتَـقِـي بَـلَـدٌ مَـسْـرَاهُ عَـنْ بَـلَـدٍ
كَـالْـمَـوْتِ لَـيْـسَ لَـهُ رِيٌّ وَلَا شِـبَـعُ[(٥)]

---

(١) و(٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٧ـ١٠٨. خفّت: أسرعت منهزمة. وقر: ثبّت الروع. الدرب: المضيق المؤدّي إلى بلاد الروم. الأعطاف، الواحد عطف: الأجناب. أوحدته: تركته الخيل وحيداً. القذع: الفحش. يصف الشاعر سيف الدولة، وقد خاض غمار المعركة؛ إنه فارس الخيل، فإذا بمن معه يفرّقون وهو يعمل على ردّهم ليُقاتلوا معه صفاً واحداً ويثبتوا، ولكنهم تخلّوا عنه في مضيق ضيّق وموقف حرج، يتلفّت سيف الدولة في كلّ اتجاه فيجد نفسه وحيداً بين جند الأعداء، إنه سيف الدولة يتماسك ويخوض غمار معركة لا تكافؤ فيها، فلا يفرّ واثقاً من شجاعته ومقدرته، فلم يغضب ولم يتفوّه بهُجر ولم يُفحش ولم يتملّكه غضب.

(٣) إنه شأن الملوك، فهم لا يُقاتلون بأنفسهم، فسبب منعتهم جيوشهم، فبهم يُقاتلون وبهم ينتصرون، أما سيف الدولة فإنه ركن جيشه يتقدّم جنوده، فيه يُقاتلون وبه ينتصرون؛ وتلك قاعدة صحيحة مفادها أن القائد يجب أن يكون على رأس جيشه، به يتأسّوْن فيشعرون أنه يعرّض نفسه لما يتعرّضون وهذا ما يدفعهم إلى النضال.

(٤) و(٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. المقانب، الواحد مقنب: الحديدة المعترضة في فم الحصان من اللجام. السرع: السرعة. لا يعتقي: لا يؤخره. يصف الشاعر ما كان عليه سيف الدولة وبعض من جنده. لقد تقدّم جنده بسرعة يقودهم دون استراحة وقد نهلت الجياد وهي ملجمة ولم تخلع عنها لجمها؛ =

حَــتَّــى أقَــامَ عَــلَــى أرْبَــاضِ خَــرْشَــنَــةٍ
تَـشْـقَـى بِـهِ الـرُّومُ وَالـصُّـلْـبَـانُ وَالْـبِـيَـعُ (١)
لِـلـسـبـي مَـا نَـكَـحُـوا وَالْـقَـتْـلِ مَـا وَلَـدُوا
وَالـنَّـهْـبِ مَـا جَـمَـعُـوا وَالـنَّـارِ مَـا زَرَعُـوا
مُـخْـلًـى لَـهُ الـمَـرْجُ مَـنْـصُـوباً بِـصَـارِخَـةٍ
لَـهُ الـمَـنَـابِـرُ مَـشْـهُـوداً بِـهَـا الـجُـمَـعُ (٢)
يُـطَـمِّـعُ الـطَّـيْـرَ فِـيـهِـمْ طُـولُ أكْـلِـهِـم
حَـتَّـى تَـكَـادَ عَـلَـى أحْـيَـائِـهِـمْ تَـقَـعُ (٣)
وَلَـــوْ رَآهُ حَـــوَارِيُّـــوهُـــمُ لَـــبَـــنَـــوْا
عَـلَـى مَـحَـبَّـتِـهِ الـشَّـرْعَ الَّـذِي شَـرَعُـوا (٤)

= ولقد كان على عجلة من أمره، جادًا في ما عزم عليه، فلا يتوانى في لقاء عدوّه لا يُؤخره بعد ما بين بلد وبلد آخر، كأنه الموت فلا يترك أحداً يأخذ حاجته من ري وشبع؛ إنه دائم القضاء على ضحاياه، وذلك شأن سيف الدولة، فهو دائم الانتقال من بلد إلى بلد آخر يفتحه من بلاد الأعداء.

(١) ورد البيت في معاهد التنصيص، للعباسي: ١: ٢٤٩. الأرباض، الواحد ربض؛ الضواحي. خرشنة: إحدى بلاد الروم. البيع، الواحدة بيعة: الأديار يصف الشاعر فعل سيف الدولة في بلاد الروم، إنه دائم الغزو لهم، ولقد وطئت أقدام فرسه أرض خرشنة، وهو يتوغّل حتى ويُمعن فيهم قتلاً وتشريداً ويحطّم صلبانهم ويهدم بيعهم ويفرّق شملهم.

(٢) المرج: موضع ببلاد الروم. صارخة: إحدى مدن الروم. وممّا يدخل العزاء إلى قلوب المسلمين أن سيف الدولة قد خلى له الجوّ في المرج، وقد أصبحت صارخة من بلاد الإسلام حيث تُقام صلوات الجمع على منابرها ويُؤذّن في جوامعها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. ولكثرة قتلى الروم، على أيدي جيش سيف الدولة، فقد اعتادت جوارح الطيور نهش جثث قتلاهم، وها هي تلاحق الأحياء منهم تودّ تمزيقها بمخالبها وأظفارها.

(٤) الحواريون: أتباع سيدنا عيسى عليه السلام. الحواريون صفوة المختارين من أصحاب سيدنا عيسى، فلو عرفوا سيف الدولة وعدله واتصافه وشهامته لاجتمعوا على محبّته وأوجبوا طاعته، واتّخذوا شرعه الذي شرعه منهاجاً في حياة النصارى.

لَامَ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ طَلَعَتْ
سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزَعُ[(١)]
فِيهَا الْكُمَاةُ الَّتي مَفْطُومُهَا رَجُلٌ
عَلَى الْجِيَادِ الَّتي حَوْلِيُّهَا جَذَعُ[(٢)]
يَذْرِي اللُّقَانُ غُبَاراً في مَنَاخِرِهَا
وفي حَنَاجِرِهَا مِنْ آلِسٍ جُرَعُ[(٣)]
كَأَنَّهَا تَتَلَقَّاهُمْ لِتَسْلُكَهُمْ
فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ في الأَجْوَافِ مَا يَسَعُ[(٤)]
تَهْدِي نَوَاظِرَهَا وَالْحَرْبُ مُظْلِمَةٌ
مِنَ الأَسِنَّةِ نَارٌ وَالْقَنَا شَمَعُ[(٥)]

---

(١) و (٢) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. يروى «ذمّ» بدلاً من «لام». الدمستق: قائد جيش الروم. القزع، الواحدة قزعة: السحاب المنتشر. الكماة، الواحد كميّ: البطل الكاسي السلاح. الحولي: الذي بلغ السنة من عمره. الجذع: الذي بلغ سنتين. للوهلة الأولى نظر الدمستق إلى طلائع جيش سيف الدولة فظنّها شراذم فسرّ لذلك، ثم نظر إلى الأفق البعيد فإذا سحابة سوداء عظيمة غطّت الأرض، فلام نفسه على سوء تقديره للعواقب، إنه جيش عظيم يقوده بطل وحوله كماة يتسلّحون أفضل تسليح أبطال متمرّسون في الحروب على جيادٍ فتيّة تنهب الأرض نهباً بسرعة عظيمة، والفتيان في هذا الجيش أشداء رغم حداثتهم.

(٣) اللقان: اسم موضع. آلس: نهر بعيد عن ذلك الموضع. يصف الشاعر شدّة انطلاق الخيول ومواصلتها السير، فبسرعة عظيمة وردت مياه آلس، فإذا بها تبلغ اللقان قبل ابتلاعها المياه التي شربتها، وقد شمّت بمناخرها رائحة تراب ذلك الموضع رغم بعد الشقة بين المكانين.

(٤) و (٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. ومن مبالغات المتنبي أن خيول سيف الدولة تخترق جموع الروم وذلك بلقائهم برماح تسلكهم بشدّة طعن جنوده بحيث يُبيح لهم دفع خيولهم في أجوافهم محدثة جراحات عظيمة تسع خيولهم، فلو أن الظلمة غطّت ساحة المعركة لارتفاع الغبار في السماء كانت الرماح بمثابة شموع تتفجر ناراً حارقة تضيء جوّ المعركة.

دُونَ السَّهَامِ وَدُونَ الْقُرِّ طَافِحَةً
عَلَى نُفُوسِهِم الْمُقْوَرَّةُ الْمُزُعُ[(١)]

إِذَا دَعَا الْعِلْجُ عِلْجاً حَالَ بَيْنَهُمَا
أَظْمَى تُفَارِقُ مِنْهُ أُخْتَهَا الضِّلَعُ[(٢)]

أَجَلُّ مِنْ وَلَدِ الْفُقَّاسِ مُنْكَتِفٌ
إِذْ فَاتَهُنَّ وَأَمْضَى مِنْهُ مُنْصَرِعُ[(٣)]

وَمَا نَجَا مِنْ شِفَارِ الْبِيضِ مُنْفَلِتٌ
نَجَا وَمِنْهُنَّ فِي أَحْشَائِهِ فَزَعُ[(٤)]

يُبَاشِرُ الأَمْنَ دَهْراً وَهْوَ مُخْتَبَلٌ
وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ حَوْلاً وَهْوَ مُمْتَقَعُ[(٥)]

---

(١) السَّهام، بفتح السين: حرّ الصيف الشديد. القُرّ: بضم القاف: البرد الشديد. المقورّة: يقصد الخيول الضامرة. المزع: المسرعة. يحدّد الشاعر الأجواء التي كان سيف الدولة ينتهزها للإغارة على بلاد الروم، إنه وقت اعتدال الجوّ في الربيع والخريف لقساوة أجواء بلاد الروم، فشتاؤها قارس وصيفها حارّ، ففي جوّ كهذا تفاجئ خيول سيف الدولة الضامرة السريعة فتطأ بلادهم وتدوس نفوسهم.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. العلج: الواحد من كفار العجم. الأظمى: الرمح المتعطّش لدماء الروم. يصوّر الشاعر سرعة طعن الأعلاج من الروم، فإذا استنجد أحدهم بآخر منهم سارع إليه رمح ظامئ إلى دمائه فيحول دون مساعدة أخيه له فيفرق بين الضلعين ممّا يجعله يُفرّق بين العلجين.

(٣) الفقّاس: جدّ الدمستق. المنكتف: المربّط كتفيه. يُندّد الشاعر بالدمستق الذي ولّى هارباً تاركاً جنوده يلاقون مصائرهم، بين أسير قاتل حتى كلّت يداه فوقع أسيراً متهالكاً وبين بطل صمم على القتال حتى الرمق الأخير فقتل لشجاعته.

(٤) و(٥) شفار البيض، الشفار واحدة شفرة والبيض الواحد أبيض: السيوف: حدّ السيف. يُكمل الشاعر حديثه عن نتائج تلك المعركة، فما من ناج إلّا امتلأ قلبه رعباً وهو لا يصدّق أنه من الناجين، وقد سيطر خوف يجعله يتحسّس نفسه بيديه، وفي أعماقه إحساس بأن الموت يُلاحقه ولا سبيل له من الخلاص من هذا الإحساس إلّا =

كَـمْ مِـنْ حُـشَـاشَـةِ بِـطْـرِيـقٍ تَـضَـمَّـنَـهَـا
لِـلْـبَـاتِـرَاتِ أَمِـيـنٌ مَـا لَـهُ وَرَعُ(١)
يُـقَـاتِـلُ الْـخَـطْـو عَـنْـهُ حِـيـنَ يَـطْـلُـبُـهُ
وَيَـطْـرُدُ الـنَّـوْمَ عَـنْـهُ حِـيـنَ يَـضْـطَـجِـعُ(٢)
تَـغْـدُو الـمَـنَـايَـا فَـلا تَـنْـفَـكُّ وَاقِـفَـةً
حَـتَّـى يَـقُـولَ لَـهَـا عُـودِي فَـتَـنْـدَفِـعُ(٣)
قُـلْ لِـلـدُّمُـسْـتُـقِ إِنَّ الـمُـسْـلَـمِـيـنَ لَـكُـمْ
خَـانُـوا الأَمِـيـرَ فَـجَـازَاهُـمْ بِـمَـا صَـنَـعُـوا(٤)
وَجَـدْتُـمُـوهُـمْ نِـيَـامـاً فـي دِمَـائِـكُـمُ
كَـأَنَّ قَـتْـلَاكُـمُ إِيَّـاهُـمُ فَـجَـعُـوا(٥)

= بشرب الخمرة لينسى، فيبدو في حالة من الجنون والمرض، فصفرة الوجه تلازمه ولا تُفارقه أبداً لسنة كاملة.

(١) و (٢) الحُشاشة: بقيّة الروح. البطريق: القائد الرومي، تضمّنها: كفلها. الباترات: السيوف القاطعة. الورع: الابتعاد عن المحارم. الأمين: من لا يرتدع عن الإيغال في المحرمات ويقصد بذلك القيد. إنه المصير المحتّم فالبطارقة المأسورون لا بدّ لهم من مصير أسود إنهم رهن الموت، فإن من الواجب عدم الإبقاء على حياتهم في أيدٍ أمينة، فلا بدّ أن يكونوا ضحايا السيوف، فدماؤهم ليست محرّمة على سيوف جند سيف الدولة، فلو حاول ذلك الأسير النوم ما استطاع ولو حاول الفرار ما استطاع أيضاً؛ إنه مقيّد بالسلاسل.

(٣) المنايا، الواحدة منيّة: الموت. إن قرار الحرب وقتل الأسرى بيد سيف الدولة، فهو يأمر إن أراد فيشملهم دمارها ويُعاود الكرّة مرة بعد مرَّة، وإن أحبّ أن يركن إلى السلم كفّ جنوده عن إهلاك أعدائه.

(٤) و (٥) المسلمين، بفتح اللام: يقصد من أسلمهم سيف الدولة لعدوّهم لتخاذلهم. يُخاطب الشاعر من ينقل الرسالة إلى الدمستق. ومفادها أن سيف الدولة بعدما انتصر على جيش الروم انسحب بجيشه بعدما أمعن فيهم قتلاً وأسراً وترك جماعة من جيشه لينهوا المهمة بقتل من بقي من الأسرى، فلم يُطيعوه وتخاذلوا عن إتمام تلك المهمة، فإذا بجيش الروم يرتدّ إلى ساحة المعركة ويُفاجئ من بقي في ساحة المعركة، فإذا =

ضَـعـفَـى تَـعِـفُّ الأيـادِي عَـنْ مِـثـالِـهِـم
مِـنَ الأعـادِيَ وَإنْ هَـمُّـوا بِـهِـمْ نَـزَعُـوا[١]

لا تَــحْــسَــبُــوا مَــنْ أَسَــرْتُــمْ كَــانَ ذَا رَمَــقٍ
فَـلَـيْـس يَـأْكُـلُ إلّا الـمَـيْـتَـةَ الـضَّـبُـعُ[٢]

هَـلّا عَـلَـى عَـقَـبِ الْـوَادِي وَقَـدْ طَـلَـعَـتْ
أُسْـدٌ تَـمُـرُّ فُـرَادَى لَـيْـسَ تَـجْـتَـمِـعُ[٣]

تَـشُـقُّـكُـمْ بِـفَـتـاهَـا كُـلُّ سَـلْـهَـبَـةٍ
وَالـضَّـرْبُ يَـأْخُـذُ مِـنْـكُـمْ فَـوْقَ مـا يَـدَعُ[٤]

وَإنَّـمـا عَـرَّضَ الـلَّـهُ الـجُـنُـودَ بِـكُـم
لِـكَـي يَـكُـونُـوا بِـلَا فَـسْـلٍ إذا رَجَـعُـوا[٥]

= بمن بقي يرتمون بين القتلى، فأمعن الدمستق تقتيلاً بمن وجده، والردّ أن سيف الدولة قد ترك هؤلاء مقابل قتلى الروم، ولو أنهم لم يستسلموا وقاتلوا واستشهدوا لكانوا مجالاً لفخر الأمير، ولاستحقوا الشهادة أبطالاً وشجعاناً.

(١) و (٢) ضعفى، الواحد ضعيف. نزعوا: أعرضوا. يُندّد المتنبي بمن تخاذلوا: إنهم جبناء متخاذلون، فإن أرادوا قتال عدوّهم ترفع عن مقاتلتهم لجبنهم وخسّتهم، لذا لا يحقّ للروم أن يفخروا بما فعلوا، فقد أجهزوا على أموات لا رمق فيهم، تماماً لقد فعلوا ما يفعل الضبع، فإنه لخسّته يقتل عشراً من الغنم ليفوز بواحدة ميتة. ورد البيت السابق في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨.

(٣) هلّا: حرف تحضيض وتوبيخ. عقب، الواحدة عقبة. فرادى: آحاد. يسخر الشاعر ويُوبّخ الروم ويتحدّاهم أن يُقاتلوا أبطالاً حقيقيين وأسوداً يتبادرون إلى القتال أفراداً وجماعات واثقين بنصر مؤزّر لشجاعتهم وبسالتهم وقوّتهم.

(٤) السلهبة من الأفراس: الطويلة. يروى «بقناها» بدلاً من «بفتاها». يصف الشاعر ما سوف يفعله هؤلاء الفرسان الذين يمتطون من الخيول الطويل السلهب؛ فسيوفهم لا تتوقّف عن ضرب رؤوسهم ورماحهم لا تتوانى عن طعن فيهم، وهذا هو الأكثر ممّا يتركون من جموع الروم.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. الفسل: الجبان العاجز. يسخر الشاعر بنصر مزعوم، فاللّه عزّ وجلّ عرّض من قتل الروم لمصيرهم لجبنهم =

فَـكُـلُّ غَـزْوٍ إلَـيْـكُـمْ بَـعْـدَ ذا فَـلَـهُ
وَكُـلُّ غـازٍ لِـسَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الـتَّـبَـعُ[١]

تَـمْـشِـي الْـكِـرَامُ عَـلَـى آثَـارِ غَـيْـرِهِـم
وَأَنْـتَ تَـخْـلُـقُ مَـا تَـأْتِـي وتَـبْـتَـدِعُ[٢]

وهَـلْ يَـشِـيـنُـكَ وَقْـتٌ كُـنْـتَ فَـارِسَـهُ
وَكَـانَ غَـيْـرَكَ فِـيـهِ الْـعَـاجِـزُ الـضَّـرَعُ[٣]

مَـنْ كَـانَ فَـوْقَ مَـحَـلِّ الـشَّـمْـسِ مَـوْضِـعُـهُ
فَـلَـيْـسَ يَـرْفَـعُـهُ شَـيْءٌ وَلَا يَـضَـعُ[٤]

لَـمْ يُـسْـلِـمِ الْـكَـرُّ فـي الأعْـقَـابِ مُـهْـجَـتَـهُ
إنْ كَـانَ أَسْـلَـمَـهـا الأصْـحَـابُ وَالـشِّـيَـعُ[٥]

= وعجزهم، وهم لا خير فيهم تخلّص منهم عسكر الأمير ليعود إلى الروم بجنود اختارهم وخبرهم، لا جبن فيهم ولا ضعف.

(١) يُحذّر الشاعر الروم أن الغزوات القادمة سوف تكون من نصيب سيف الدولة وجنوده الأبطال الميامين الشجعان الذين لا يرهبون الموت، وستكون له الغلبة، لأنه أمير الغزاة وسيدهم.

(٢) يروى «يمشي» بالياء بدلاً من «تمشي» بالتاء. يكثر المقلّدون في الحياة، وهم يسيرون في حياتهم مقتدين بمن سلف، أما سيف الدولة فإنه يبتدع ويخلق أنماطاً من فنون القتال والقيادة لم يُسبق إليها.

(٣) و (٤) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. شان: شوّه سمعته. الضرع: الضعيف. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن ما حصل لن يُؤثر عليه لأن الجبناء العاجزين هم سبب ما حصل لهم وهذا لن يضيره ولطالما كان فارس الميدان يصول ويجول ولا يرهبه العدوّ وسيبقى كذلك؛ فمن علا وسما في مراقي المجد فلن يستطيع أحد أن يُذلّه ويحطّ من قدره، لذا فلن يُؤثر عليه شيء.

(٥) يروى «لا» بدلاً من «لم». يسلم: يخذل. الكرّ: العودة إلى القتال. الأعقاب: أواخر الخيل. الشيع: الأتباع. يُنوّه الشاعر بشجاعة سيف الدولة، فقد رجع إلى الميدان بعدما انسحبت مؤخرة الجيش من أصحابه وأشياعه، فكرّ عليها الروم ونالوا منها ما نالوا، ولكن أنفة وشجاعة الأمير جعلته يكرّ عليهم بدوره ويدافع عن نفسه بنفسه دون الاعتماد على أمثال هؤلاء من الأتباع.

لَـيْـتَ الـمُـلـوكَ عَـلَـى الأقْـدَارِ مُـعْـطِـيَـةٌ
فَـلَـمْ يـكُـنْ لِـدَنـيءٍ عِـنْـدَهَـا طَـمَـعُ[١]
رَضِـيـتَ مِـنْـهُـمْ بـأَنْ زُرْتَ الْـوَغـى فَـرَأَوْا
وَأَنْ قَـرَعْـتَ حَـبِـيـكَ ٱلْـبِـيضِ فَـاسْـتَـمَـعُـوا[٢]
لَـقَـدْ أَبَـاحَـكَ غِـشًّـا فـي مُـعَـامَـلَـةٍ
مَـنْ كُـنْـتَ مِـنْـهُ بِـغَـيْـرِ الـصِّـدْقِ تَـنْـتَـفِـعُ[٣]
الـدَّهْـرُ مُـعْـتَـذِرٌ وَالـسَّـيْـفُ مُـنْـتَـظِـرٌ
وَأَرْضُـهُـمْ لَـكَ مُـصْـطَـافٌ ومُـرْتَـبَـعُ[٤]
وَمَـا ٱلْـجِـبَـالُ لِـنَـصْـرَانٍ بِـحَـامِـيَـةٍ
وَلَـوْ تَـنَـصَّـرَ فـيـهَـا الأَعْـصَـمُ الـصَّـدَعُ[٥]

---

(١) الدنيء: الخسيس. يغمز الشاعر من قناة الملوك الذين لا يُعطون الشعراء على أقدارهم ويخصونهم بأفضالهم لأنهم يُشيدون بهم ويُخلّدونهم في أشعارهم، والمال يذهب بذهابهم بينما يُخلّد الشعراء ممدوحيهم، ولو أنهم قدّروا كلّ شاعر حقّ قدره ما تجرّأ على جوائزهم خسيس.

(٢) و (٣) الوغى: الحرب. الحبيك، الواحدة حبيكة: البيضة من الحديد وتوضع على الرأس. يعاتب الشاعر الأمير أنه يقبل من الشعراء مديحهم ويُجيزهم من ماله، وبذلك يساوي الشاعر بغيره من الشعراء الذين يكذبون في مدحهم، لأنهم لا يُشاركون الأمير في حروبه خلاف المتنبي الذي يصحب الأمير ويُقاتل إلى جانبه فيلبس عدة السلاح، ويضع الخوذة على رأسه ويُقارع الأعداء، ويعيش تجربة البطولة التي يصفها بصدق لا زيف فيها ولا كذب.

(٤) المصطاف والمرتبع: المنزل في الصيف والشتاء. يُحاول الشاعر أن يُخفّف من شدّة وطء الهزيمة على سيف الدولة: فمن قُتل بتقصير منه وضعف، وسيف الأمير على موعد ليثأر وينتقم من الروم الذين يتوقّعون غزوه لأراضيهم فيشتفي غيظه، فأراضيهم في الحقيقة أرضه يحقّ له غزوها صيفاً وربيعاً.

(٥) النصران: النصارى. الأعصم: الوعل الذي في إحدى يديه بياض. الصدع: الفتي من الوعول. رغم وعورة تلك الجبال وشدّة ارتفاعها، فإنها لن تمنعهم وتحميهم من انتقام سيف الدولة ومن مصير محتوم، فلا بدّ من وصول جيش الأمير، حتى الوعول لو تنصّرت فإنها لن تكون بمنأى عن نِقمة الأمير.

وَمَـا حَـمِـدْتُـكَ فـي هَـوْلٍ ثَـبَـتَّ لَـهُ
حَـتَّـى بَـلَـوْتُـكَ والأَبْـطَـالُ تَـمْـتَـصِـعُ [(١)]

فَـقَـدْ يُـظَـنُّ شُـجَـاعـاً مَـنْ بِـهِ خَـرَقٌ
وَقَـدْ يُـظَـنُّ جَـبَـانـاً مَـنْ بِـهِ زَمَـعُ [(٢)]

إنَّ الـسِّـلَاحَ جَـمِـيـعُ الـنَّـاسِ تَـحْـمِـلُـه
وَلَـيْـسَ كُـلُّ ذَوَاتِ الـمِـخْـلَـبِ الـسَّـبُـعُ [(٣)]

قبحاً لوجهك يا زمان

توفي أبو شجاع فاتك بمصر سنة خمسين وثلاث مئة (٩٦١م) فقال يرثيه بعد خروجه منها:

[الكامل]

أَلْـحُـزْنُ يُـقْـلِـقُ وَالـتَّـجَـمُّـلُ يَـرْدَعُ
وَالـدَّمْـعُ بَـيْـنَـهُـمَـا عَـصِـيٌّ طَـيِّـعُ [(٤)]

يَـتَـنَـازَعَـانِ دُمُـوعَ عَـيْـنِ مُـسَـهَّـدٍ
هٰـذَا يَـجِـيءُ بِـهَـا وَهٰـذَا يَـرْجِـعُ [(٥)]

---

(١) ورد البيت التالي في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٨. بلوتك: اختبرتك. تمتصع: تهرب. يُنوّه الشاعر بأنه مدح سيف الدولة بعدما اختبره، لذا فمدحه صادق لأنه يتمثل بنموذج حيّ بطل يلتقي الأبطال ويصرعهم إذا ما اشتدّ الهول؛ فمنهم من يلقى مصيره البئيس ومنهم من يفرّ جبناً.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٩. الخرق: الخفّة والطيش. الزمع: الخوف الشديد. للوهلة الأولى قد يحكم المرء على المتهوّر أنه شجاع، وهو ليس في الحقيقة كذلك، بل قد يكون جباناً، وهذا حكم في غير محلّه، بينما قد يُحكم على من ثار غضباً بأنه جبان وهو ليس في الحقيقة كذلك، بل قد يكون شجاعاً جلداً في القتال.

(٣) المخلب: للوحش من السباع والطيور. يُعقّب الشاعر على رأيه بأن كلّ من حمل سلاحاً لا يُعتبر بطلاً وشجاعاً، وكذلك فليس كلّ من كان ذا مخلب من وحوش الطيور والحيوانات قادراً على افتراس صيده وفرائسه.

(٤) و (٥) يعبر الشاعر عن شدّة تأثره لمهلك أبي شجاع فاتك، إنه قلق لما أصاب ذلك =

أَلـنَّـوْمُ بَـعْـدَ أبـي شُـجَـاعٍ نـافِـرٌ
وَالـلَّـيْـلُ مُـعْـيٍ وَالْـكَـوَاكِـبُ ظُـلَّـعُ(١)

إنِّـي لَأَجْـبُـنُ مِـنْ فِـرَاقِ أَحِـبَّـتِـي
وَتُـحِـسُّ نَـفْـسِـي بـالْـحِـمَـامِ فـأشْـجُـعُ(٢)

وَيَـزِيـدُنـي غَـضَـبُ الأعَـادِيَ قَـسْـوَةً
ويُـلِـمُّ بِـي عَـتْـبُ الـصَّـدِيـقِ فـأَجْـزَعُ(٣)

تَـصْـفُـو الْـحَـيَـاةُ لِـجَـاهِـلٍ أَوْ غـافِـلٍ
عَـمَّـا مَـضَـى فِـيـهَـا ومـا يُـتَـوَقَّـعُ(٤)

= الفتى، فالبكاء طيّع ويكاد ينهمر، ولكنّ صبره يردّه، فالبكاء لغة الضعفاء، والتأسي طبيعة الأقوياء، أصحاب الإرادات القويَّة. وثمة منازعة بينهما، فالدموع تغالب عيني الشاعر الذي لا يعرف للنوم طعماً، وكلا الحزن والبكاء يتنازعان الشاعر، فتارة الغلبة للحزن وطوراً الغلبة للدموع.

(١) وردت الأبيات السبعة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٧. ظلّع: عرجى. يصف الشاعر معاناته، فالنوم عاصٍ، والعينان لا تعرفان إغماضة النوم، ويطول الليل وليل الحزانى طويل يلفّه الهمّ برداء الحزن، فكأن الكواكب سمّرت في كبد السماء حتى لتبدو بطيئة لما هي عليه من ظلع.

(٢) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. يرى الشاعر نفسه في حالة الموت، إنه جبان خائف رعديد، وذلك في الموت المفاجئ على الفراش، ولكنه يحبّ موت الأبطال الشجعان الذين يقضون في ساحات النضال النبيل. ولا ريب بأن الموت محزن يفرّق بين الأحبّة والأصدقاء.

(٣) يحمل الشاعر في قلبه مشاعر متباينة متناقضة؛ فيملأ قلبه حبّ صادق لا شائبة فيه لمن أحبّ وأخلص الودّ، فهو يلين ويرقّ شعوره ويرفّ، بينما تبدو مشاعره نحوه أعدائه قاسية صلبة تدميرية لا تحيد إلى الملاينة والمهادنة.

(٤) ورد البيت في: المحتسب، لابن جني ١: ١٤١/ ٢: ١٣٠. يرى الشاعر أن الحياة عجيبة غريبة، فالجاهل تأتيه كما يشتهي حلوة المذاق، لا تعب فيها، كل شيء يرد حسب هواه هيناً ليّناً، فلا يُفكر في ما مضى من حياته ولا حتى في ما سيأتي، أمّا الفطن فإنه يُعاني من المشاكل ما لا يُحصى عدداً، وهو لا يني يفكر في كل شاردة =

وَلِـمَـنْ يُـغَـالِـطُ فـي الْـحَـقَـائِـقِ نَـفْـسَـهُ
وَيَـسُـومُـهَـا طَـلَـبَ الـمُـحَـالِ فَـتَـطْـمَـعُ(١)
أيْـنَ الَّـذِي الـهَـرَمَـانِ مِـنْ بُـنْـيَـانِـهِ
مَـا قَـوْمُـهُ مَـا يَـوْمُـهُ مَـا الـمَـصْـرَعُ(٢)
تَـتَـخَـلَّـفُ الآثَـارُ عَـنْ أَصْـحَـابِـهَـا
حِـيـنـاً ويُـدْرِكُـهـا الْـفَـنَـاءُ فَـتَـتْـبَـعُ(٣)
لَـمْ يُـرْضِ قَـلْـبَ أبـي شُـجَـاعٍ مَـبْـلَـغٌ
قَـبْـلَ الـمَـمَـاتِ وَلَـمْ يَـسَـعْـهُ مَـوْضِـعُ(٤)
كُـنَّـا نَـظُـنُّ دِيَـارَهُ مَـمْـلُـوءَةً
ذَهَـبـاً فَـمَـاتَ وكُـلُّ دَارٍ بَـلْـقَـعُ(٥)

= ووارِدة في ما مضى وما قد يحدث فالخوف يشلّ حركته والتشاؤم يسيطر على تصرّفاته في كلّ وقت.

(١) ووقفة تأمل متّئدة تُبيح للإنسان أن يرى حقيقة عارية لا دخل فيها ولا التباس، إنها دار غرور تفتح للمرء أبواباً من الفكر في معنى وجوده، وتدفعه بإلحاح ليجري وراء حلم يدغدغ مشاعره، وفجأة وبلا موعد يُدركه الموت وهو في غمرة نضاله، فإذا بكل شيء ينفخ فيه ريح الموت فيبدو كضباب لاح وسرعان ما اختفى.

(٢) و (٣) ينجرف الشاعر في تأملاته الحزينة المتشائمة، فيتساءل عن حقيقة الخلود في عالم يُغلّفه الموت والفناء، ها هما الهرمان يقفان في وجه العدم والموت ولكن بلا شكّ إلى حين وبعد ذلك هما إلى دمار تماماً كمن ابتناهما، فقد رحل ولم يبق لهما أو يبقيا له، وهنا يطرح سؤالاً يطرأ على كلّ بال: من هم هؤلاء العظماء الذين نهضوا بهذا الصرح العظيم؟ وكيف كانت أيامهم هل نعموا بالسعادة والغنى وتحقيق آمالهم وأحلامهم؟ ثم كيف انتهى أمرهم؟ وكيف دالت دولتهم؟ تلك الأسئلة يطرحها المرء على نفسه. فحتى لو استطاع الإجابة عن تلك الأسئلة لجدّت أسئلة على هذه الأسئلة. ومهما طال بقاء تلك الآثار العظيمة فإن لن تتخلّف عن ركب الفناء، فأعمارها تنقضي بانتهاء آجالها.

(٤) و (٥) يصف الشاعر بعد همّة أبي شجاع، إنه فتًى سما بفعله إلى أعلى درجات المجد، ورغم ذلك لم يكفّ عن النضال بل إنه كان يسعى لتحقيق المزيد من =

وإذَا الـمَكَـارِمُ والـصَّـوَارِمُ والْـقَـنَـا
وبَـنَـاتُ أَعْـوَجَ كـلُّ شَـيْءٍ يَـجْـمَـعُ (١)
أَلْـمَـجْـدُ أَخْـسَـرُ والـمَـكَـارِمُ صَـفْـقَـةً
مِـنْ أَنْ يَـعِـيـشَ لَـهَـا الْـكَـرِيـمُ الأرْوعُ (٢)
والـنَّـاسُ أَنْـزَلُ فـي زَمَـانِـكَ مَـنْـزِلاً
مِـنْ أَنْ تُـعَـايِـشَـهُـمْ وقَـدْرُكَ أَرْفَـعُ (٣)
بَـرِّدْ حَـشَـايَ إنِ ٱسْـتَـطَـعْـتَ بِـلَـفْـظَـةٍ
فَـلَـقَـدْ تَـضُـرُّ إذا تَـشَـاءُ وتَـنْـفَـعُ (٤)
مَـا كَـانَ مِـنْـكَ إلَـى خَـلِـيـلٍ قَـبْـلَـهَـا
مَـا يُـسْـتَـرَابُ بِـهِ ولا مَـا يُـوجِـعُ (٥)

= النجاحات، فإذا بالكون لا يسع مبتغاه، ولفتة سريعة إلى ما آل إليه أمره لقد رحل عن هذا الوجود ولم يبق في داره ما يسدّ الرمق فقد وزّع ما حصّله من أموال طائلة من الذهب والكنوز فإذا بداره خاوية بلقع لا مال فكلّ ما كان فيها كأنه هباء منثور.

(١) و (٢) يُتابع الشاعر حديثه عمّا خلّفه أبو شجاع بعد أن أنفق ذهبه وفرّقه، فإذا به يحتفظ بما يُساعده على تحصيل الغنى ويُوافق طبيعته وشجاعته وبطولته، منها فضائل أخلاقية عالية راقية، وسيوف بتّارة يُقاتل بها ورماح يستعملها في حروبه، وكرام الخيول المنسوبة إلى أعوجٍ، أفضل الجياد العربية، إنه جمع يوافق طبيعته البطولية. ولهذا فقد خسر المجد بطلاً من العيار الثقيل قلّ وجوده في الأزمات، إنها تجارة خاسرة بكلّ المقاييس، فجامع تلك الصفات في ذاته افتقدته وافتقدت قلبه الكبير الذي وسع صفات قلّ نظيرها، إنه ذكي الفؤاد.

(٣) و (٤) يُخاطب الشاعر المرثي، وهو في العالم الآخر، مبيّناً منزلته في معاصريه، إنهم دونه منزلة، وقد يحسدونه على مكانته، لذا فهو أرفع من أن ينزل إلى مستواهم ويحطّ من قدره في حال معايشته لهم، وإن حصل ذلك فمن باب التواضع وحبّ الخير للآخرين. وهو يطلب منه أن يردّ عليه ليبرد غليله ويهدأ ما في نفسه من لوعة وحزن، ولطالما أضرّ أعداءه بسيفه وأصدقاءه بماله وجاهه.

(٥) الخليل: الصاحب والصديق. استراب: جاء من الأعمال بما يُريب. يمدح الشاعر أبا شجاع، فقد كان نعم الصاحب المخلص الذي يُحسن معاملة أصحابه بصدق دون أي خداع أو غش؛ وهذا ممّا زاد في فجيعة أحبائه فإذا بهم يبكون فيه صفاته الجميلة المحمودة.

وَلَــقَــدْ أَرَاكَ وَمَــا تُــلِــمُّ مُــلِــمَّــةٌ
إِلَّا نَــفَــاهَــا عَــنْــكَ قَــلْــبٌ أَصْــمَــعُ(١)
وَيَــدٌ كَــأَنَّ قِــتَــالَــهَــا وَنَــوَالَــهَــا
فَــرْضٌ يَــحِــقُّ عَــلَــيْــكَ وَهْــوَ تَــبَــرُّعُ(٢)
يَــا مَــنْ يُــبَــدِّلُ كُــلَّ يَــوْمٍ حُــلَّــةً
أَنَّــى رَضِــيــتَ بِــحُــلَّــةٍ لَا تُــنْــزَعُ(٣)
مَــا زِلْــتَ تَــخْــلَــعُــهَــا عَــلَــى مَــنْ شَــاءَهَــا
حَــتَّــى لَــبِــسْــتَ الْــيَــوْمَ مَــا لَا تَــخْــلَــعُ(٤)
مَــا زِلْــتَ تَــدْفَــعُ كُــلَّ أَمْــرٍ فَــادِحٍ
حَــتَّــى أَتَــى ٱلْأَمْــرُ الَّــذِي لَا يُــدْفَــعُ(٥)
فَــظَــلِــلْــتَ تَــنْــظُــرُ لَا رِمَــاحُــكَ شُــرَّعٌ
فِــي مَــا عَــرَاكَ وَلَا سُــيُــوفُــكَ قُــطَّــعُ(٦)

---

(١) الملمة: المصيبة. الأصمع: الذكي اللبيب الفطن. يُخاطب الشاعر أبا شجاع، فقد عرف فيه أثناء حياته أنه كان يتصدّى للمشاكل فيعتصرها بعقل متفتح بصير بالأمور ويدفعها عن نفسه ببصيرة واعية، ولكن الموت غلبه على أمره، فانتهى كلّ شيء.

(٢) ومن جميل أفعال أبي شجاع أنه كان كريماً معطاءً لأصحابه وأحبائه، ومقاتلاً شجاعاً لأعدائه، وهو يُزاول ما يراه كأنه واجب عليه، وهو في الحقيقة يتبرّع بفعله بمحبّة لا يبغي من ورائها شيئاً، لا مدحاً ولا ثناءً.

(٣) و (٤) يُخاطب الشاعر أبا شجاع، فقد كان مترفاً كريماً، فهو يخلع عنه ثيابه ليجود بها على زائريه وأحبائه؛ وذلك ديدنه في حياته، أمَّا الآن فقد لبس رداءً أبدياً لن ينزعه عنه، فالأمر ليس بيده كما كان شأنه في حياته.

(٥) و (٦) الفداح: المكلف. لقد كانت عادة أبي شجاع في حياته أن يُبعد نفسه عن كلّ ما هو مكلف بما يستطيع به دفعه، ولكن الأمر المفاجئ لا يُمكن تلافيه ودفعه بأية وسيلة ممكنة؛ إنه الموت، ولا مفرّ منه. فكان استسلام كليّ حيث لا ينفع استعمال السلاح، مهما كان نوعه، فالأمر لا يتعلّق بصراع البشر في ما بينهم، فسيوفه لا تقدر على قضاء إلهيّ.

بِـأَبِـي الْـوَحِـيـدُ وَجَـيْـشُـهُ مُـتَـكَـاثِـرٌ
يَـبْـكِـي وَمِـنْ شَـرِّ الـسِّـلَاحِ الْأَدْمُـعُ[(١)]
وَإِذَا حَـصَـلْـتَ مِـنَ الـسِّـلَاحِ عَـلـى الْـبُـكَـا
فَـحَـشَـاكَ رُعْـتَ بِـهِ وَخَـدَّكَ تَـقْـرَعُ[(٢)]
وَصَـلَـتْ إِلَـيْـكَ يَـدٌ سَـوَاءٌ عِـنْـدَهَـا الْـ
ـبَـازِي الْأُشَـيْـهِـبُ وَالْـغُـرَابُ الأَبْـقَـعُ[(٣)]
مَـنْ لِـلْـمَـحَـافِـلِ وَالْـجَـحَـافِـلِ والـسُّـرَى
فَـقَـدَتْ بِـفَـقْـدِكَ نَـيِّـراً لا يَـطْـلُـعُ[(٤)]
وَمَـنِ اتَّـخَـذْتَ عـلـى الـضُّـيُـوفِ خَـلِـيـفَـةً
ضَـاعُـوا وَمِـثْـلُـكَ لا يَـكَـادُ يُـضَـيِّـعُ[(٥)]

---

(١) لو استطاع الشاعر أن يفدي أبا شجاع بنفسه لفعل، ورغم كثرة جيوشه وأصحابه فإنهم لم يُفلحوا بردّ الموت عنه، فإذا بهم يبكونه بكّاءً مرًّا، إنه شرّ البكاء بكاء الوداع الذي لا رجعة فيه.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٧. رعت: أخفت. تقرع: تضرب. يُتابع الشاعر فكرته بأن لطم الخدود والفزع والبكاء بئس السلاح، إنه سلاح لا يُجدي نفعاً ولا غناء فيه، وهذا ما يزيد القلوب حُزناً وألماً ولا يدفع همًّا.

(٣) الأشيهب: تصغير الأشهب: هو من غلب عليه البَياض. الأبقع: من فيه بياض وسواد. يُخاطب الشاعر أبا شجاع، لقد حلّت به يد الموت الذي لا يُفرّق بين سائر البشر كلّهم إلى نهاية واحدة؛ فالموت لا يميّز بين الشريف والوضيع ولا بين الأبيض والأسود ولا بين السيد والمسود، فكلهم يسوقهم بعصاه، ولا اعتراض على ما يفعل.

(٤) و (٥) المحافل، الواحد محفل: المجامع الجحافل، الواحد جحفل: الجيوش. السرى: المشي في الليل، يقصد بذلك الإغارة على الأعداء ليلاً. النير: القمر. يتساءل الشاعر من يُمكنه أن يحلّ محلّ أبي شجاع، فقد افتقدت الجحافل والمحافل حيث يجتمع القوم ويستمعون إلى خطيب مفوّه والسرى افتقد إلى من يُؤنس الليل بتحرك جنوده في هدأته، والقمر بدون قائد ما غاب بجماله وروعته وقد اختفى باختفاء أبي العشائر، فالليل يبدو مظلماً كئيباً حزيناً. فحتى الضيوف قد افتقدوا من يقوم بضيافتهم فيخدمهم ويُسرّي عنهم غربتهم ويلاطفهم كما كان يفعل من لا يُضيّع =

قُبْحاً لِوَجْهِكَ يَا زَمَانُ فَإِنَّهُ
وَجْهٌ لَهُ مِنْ كُلِّ قُبْحٍ بُرْقُعُ(١)
أَيَمُوتُ مِثْلُ أَبِي شُجَاعٍ فَاتِكٌ
وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الْخَصِيُّ الأَوْكَعُ(٢)
أَيْدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوَالَيْ رَأْسِهِ
وَقَفاً يَصِيحُ بِهَا أَلَا مَنْ يَصْفَعُ(٣)
أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ
وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ(٤)
وَتَرَكْتَ أَنْتَنَ رِيحَةٍ مَذْمُومَةٍ
وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ(٥)

= لندرة أمثاله، ومهما يكن الخليفة على كرم وخلق فلن يكون بكفاءة أبي العشائر، أو مثيلاً له.

(١) يصب الشاعر جام غضبه على الزمان، فالقبح يكلّله، ووجهه بشع تشوهه القبائح لقبح أفعاله، فإذا به وجه تُغطيه ألوان كالحة من براقع كثيرة الألوان بحيث لا يُعرف لونه الحقيقي لكثرة زيفه وتلوّنه.

(٢) يستغرب الشاعر أن يموت رجل اكتملت لديه عناصر السيادة والبطولة والكرم، ويحيا في نفس الوقت إنسان حقير حاسد خصيّ يفتقد إلى معالم الرجولة في الشكل والمضمون، ومن طبعه اللؤم، إنه بلا شكّ كافور الذي أدمى قلب الشاعر بمماطلته ودوام كذبه.

(٣) إنها فرصة مؤاتية للشاعر ليهجو كافوراً ويُندّد به، فلقد تقطّعت أيدي حاشيته لجبنهم وقبولهم بأن يحكمهم من هو دونهم مكانة وبشريّة، ورغم ذلك فهناك إلحاح من كافور يصيح بهم ألا من يصفع لأنه اعتاد الصفح فلا يستطيع العيش إلّا بالصفع، وهذا ما يحلو له.

(٤) و (٥) يُخاطب الشاعر الموت ماذا فعلت؟ لقد أبقى أكذب الناس على قيد الحياة واستحوذ على صادق إذا وعد برّ بوعده، وإذا سمع مقالة أو رجاء هبّ لتنفيذ مقالة صديق حميم دون تردّد أو تذمّر، وفي المقابل فقد ترك الموت رائحة مكروهة تزكم الأنوف بفساد عبقها وسلب البشرية عبقاً طيّب النشر في أرجاء الكون تتضوّع رائحته وتترك أثراً مريحاً في النفوس.

فَالْيَوْمَ قَرَّ لِكُلِّ وَحْشٍ نَافِرٍ
دَمُهُ وَكَانَ كَأَنَّهُ يَتَطَلَّعُ(١)

وَتَصَالَحَتْ ثَمَرُ السِّيَاطِ وَخَيْلُهُ
وَأَوَتْ إِلَيْهَا سُوقُهَا وَالأَذْرُعُ(٢)

وَعَفَا الطِّرَادُ فَلا سِنَانٌ رَاعِفٌ
فَوْقَ القَنَاةِ ولا حُسَامٌ يَلْمَعُ(٣)

وَلَّى وَكُلُّ مُخَالِمٍ وَمُنَادِمٍ
بَعْدَ اللُّزُوم مُشَيِّعٌ وَمُوَدِّعُ(٤)

مَنْ كَانَ فيهِ لِكُلِّ قَوْم مَلْجَأً
وَلِسَيْفِهِ في كُلِّ قَوْمٍ مَرْتَعُ(٥)

---

(١) لقد تغيّرت المقاييس بوفاة أبي العشائر، فإذا بالوحوش التي كانت أفضل طرائده، يُطاردها في كلّ وعر ومفازة، تسرح مطمئنة وقد حُجبت دماؤها، وقد كانت في ما مضى تتوقّع أن يُفاجئها، فيكون هلاكها على يديه.

(٢) السياط، الواحد سوط: المقارع، والواحدة مقرعة. ثمر السياط: العقد في أطرافها. أوت: عادت، رجعت. لقد كان موت أبي شجاع فرصة استردت خيله قوائمها، فقد كان يُلهبها ضرباً بالسياط لتسرع أكثر فأكثر؛ إنه على عجلة من أمره، فثمّة مستغيث يستنجده أو غزوة تنتظره، أو صيد يسعى للإيقاع، أما الآن فقد استعادت خيوله قوائمها واستراحت في مرابضها على مألوفها.

(٣) عفا: اندرس وانمحى، الراعف: النازف دماً. القناة: الرمح. الحسام: السيف البتّار. ولّى كلّ شيء، وخلا الميدان من فارسه، فلا سنان يُمزّق أحشاء بطل وقد استردّه أبو شجاع راعفاً، حتى السيف ما عاد يُواجه قرن الشمس فيشعّ على يديه إشعاع الموت.

(٤) المخالم: الصديق. المنادم: النديم. مشيّع: مودّع. لقد انتهى كلّ شيء، فحلقات السمر، والأحاديث العذاب بين الأحباب خبت صوتها والندماء انفكّ عقدهم وتفرّق شملهم، ومن ميزات أبي شجاع لباقة وذوق رفيع فقد كان يصحب منادميه ويُشيعهم بترحاب وابتسام.

(٥) المرتع: المرعى، ولّى الحصن الحصين لأصدقائه وأحبائه، فقد كانوا يلجأون إليه في =

إِنْ حَـلَّ فـي فُـرْسٍ فَـفِـيـهَـا رَبُّـهَـا
كِـسْـرَى تَـذِلُّ لـهُ الـرِّقَـابُ وَتَـخْـضَـعُ (١)
أَوْ حَـلَّ فـي رُوم فـفـيـهَـا قَـيْـصَـرٌ
أَوْ حَـلَّ فـي عُـرْبٍ فـفِـيـهَـا تُـبَّـعُ (٢)
قَـدْ كَـانَ أَسْـرَعَ فـارِسٍ فـي طَـعْـنَـةٍ
فَـرَسـاً وَلـكِـنَّ الـمَـنِـيَّـةَ أَسْـرَعُ (٣)
لا قَـلَّـبَـتْ أَيْـدِي الْـفَـوَارِسِ بَـعْـدَهُ
رُمْـحـاً وَلا حَـمَـلَـتْ جَـوَاداً أَرْبَـعُ (٤)

= كلّ صغيرة وكبيرة، فضلاً عن ضعفاء العامة من الناس، فقد كان لهم نعم المسعف؛ بينما كان لأعدائه عظيم الحظر، ولسيفه في أعناقهم حظّ.

(١) و (٢) يمدح الشاعر أبا شجاع؛ إنه حيثما يحلّ فهو ملك، لجلال الملك ومهابته ممّا يحمل الناس على الانقياد له طائعين، فلو حلّ في بلاد الفرس كان ككسرى فيهم، ولو حلّ في بلاد الروم كان كالقيصر فيهم، ولو نزل بلاد العرب كان تُبّعاً فيهم.

(٣) المنية: الموت. ومن سمات أبي شجاع المميّزة أنه أسرع الفرسان وأقواهم في الطعن، فلا مثيل له بينهم، ولكن النضال مع الموت خسارة محتّمة لأنه الأسرع في كلّ ميدان.

(٤) يدعو الشاعر آسفاً ومتمنّياً ألّا يحمل الفرسان بعد أبي شجاع رماحاً يُقاتلون بها، فلن يخلق اللّه تعالى مثله، ولن يُوجد فارس يعتلي جواداً رامحاً بقدره.

رويّ الفاء

الجوع يرضي الأسود بالجيف

أهدى إليه رجل يعرف بأبي دلف بن كنداج هدية وهو معتقل بحمص، وكان قد بلغه أنه ثلبه عند الوالي الذي اعتقله فكتب إليه من السجن:

[المنسرح]

أَهْوِنْ بِطُولِ الثَّوَاءِ وَالتَّلَفِ
وَالسِّجْنِ وَالقَيْدِ يَا أَبَا دُلَفِ[١]

غَيْرَ ٱخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِي
وَالْجُوعُ يُرْضِي الْأُسُودَ بِالْجِيَفِ[٢]

كُنْ أيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فَقَدْ
وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ[٣]

لَوْ كَانَ سُكْنَايَ فِيكَ مَنْقَصَةً
لَمْ يَكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ[٤]

---

(١) الثواء: الإقامة. يقصد مقامه في السجن. يبدأ الشاعر قصيدته مخاطباً أبا دلف كاشفاً عن استهانته بما يُلاقي من هوان في السجن؛ إنها إقامة جبريّة، حيث يُلاقي مرارة القيد في ظلمة سجن وغلاظة سجّانين طُبعوا على الشدّة ولؤم الطبع.

(٢) البرّ: الإحسان. يُعبّر الشاعر عن قبول هدية أبي دُلف، لقد قبلها مرغماً، فلا يُمكنه رفضها وهو سجينه، إنها الحاجة في وقت الضيق، وشأنه في ذلك شأن الأسود الجائعة التي لا تقدر على الصيد لأنها مقيّدة لا تقدر على مطاردة طرائدها ولهذا فهي تقبل الجيف مرغمة.

(٣) و (٤) يُخاطب الشاعر السجن أنه لا يبالي بما يُلاقيه من سوء معاملة، وإحساس بالظلم، إنها لحظة عابرة فعلى المرء الصبر والرضى بما يحصل له؛ فالسجن في نظره لا يُعتبر مهانة، إنه ليس بمجرم موطن السفلة والرعاع، فثمّة سبب نبيل أودى به إلى =

سمت في الخير والشر كفه

يمدح أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي:

[الطويل]

لِجِنِّيَّةٍ أَمْ غَادَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ
لِوَحْشِيَّةٍ لَا مَا لِوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ (١)

نَفُورٌ عَرَتْهَا نَفْرَةٌ فَتَجَاذَبَتْ
سَوَالِفُهَا وَالْحَلْيُ وَالْخَصْرُ وَالرِّدْفُ (٢)

وَخُيِّلَ مِنْهَا مِرْطُها فَكَأَنَّمَا
تَثَنَّى لَنَا خُوطٌ وَلَاحَظَنَا خِشْفُ (٣)

زِيَادَةُ شَيْبٍ وَهْيَ نَقْصُ زِيَادَتِي
وَقُوَّةُ عِشْقٍ وَهْيَ مِنْ قُوَّتِي ضَعْفُ (٤)

= سوء حاله، فالأمر عنده كالدّر في نفاسته وقد حُجب في صدف خسيس لا يُنقص من مقداره العظيم وتقدير الخلق له.

(١) الغادة: الحسناء من النساء. السجف: الستر إذا كان لفقين. الوحشية: قصد بها الغزالة، الشنف: الأقراط في الآذان. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. يتساءل الشاعر، وقد فوجئ بحسناء وقد رفعت السجف فبدت كالغزالة الوحشية برقتها وأناقة جمالها وحلو ظرفها، وقد تحلّت بقرطين بديعين يتدليان من أذنيها.

(٢) عرتها: أصابتها. السوالف، الواحدة سالفة: صفحة العنق. الردف: الكفل. يصف الشاعر شدّة انفعال تلك الغادة لرؤيتها شيئاً أثار مخاوفها؛ إنها نفور لا تلين لتوسل أو رجاء بطبعها، وما زاد نفورها ما بدا لها، فإذا بما يُزين عنقها من عقد ثقيل يجذبها، فإذا بها تميل ممّا جعل خصرها يميل بدوره لعظم ردفيها ودقّة خصرها.

(٣) خيل: بدا كالخيال. المرط: كساء من صوف أو خزّ يُؤتزر به. الخوط: الغصن. الخشف: ولد الظبيه. يصف الشاعر تلك الحسناء، لقد رسم مرطها جسدها رغم أنه يسترها، وهنا راح خيال الشاعر يرسم له لفتة غصن رقيق ناعم يميس بلطف عجيب، فبدت تلك الحسناء كخشف وقد اغتنى عن أمه واكتملت فيه معالم فتوّته وجماله.

(٤) يُقارن الشاعر بين ما آل إليه أمره وما هي عليه، إنها قوية وفتية بقدر ما آل إليه أمره لقد أحسّ بالشيب يتسرّب إلى رأسه لما يرى ويُحسّ، ولقد تملكه عشق عظيم هدّ قوّته وأضعف حيلته.

أَرَاقَتْ دَمِي مَنْ بي مِنَ الْوَجْدِ مَا بِهَا
مِنَ الْوَجْدِ بي والشَّوْقُ لي وَلَهَا حِلْفُ (١)

وَمَنْ كُلَّمَا جَرَّدْتَهَا مِنْ ثِيَابِهَا
كَسَاهَا ثِيَاباً غَيْرَهَا الشَّعَرُ الْوَحْفُ (٢)

وَقَابَلَنِي رُمَّانَتَا غُصْنِ بَانَةٍ
يَمِيلُ بِهِ بَدْرٌ وَيُمْسِكُهُ حِقْفُ (٣)

أَكَيْداً لَنَا يَا بَيْنُ وَاصَلْتَ وَصْلَنَا
فَلَا دَارُنَا تَدْنُو وَلَا عَيْشُنَا يَصْفُو (٤)

أُرَدِّدُ وَيْلِي لَوْ قَضَى الْوَيْلُ حَاجَةً
وأُكْثِرُ لَهْفِي لَوْ شَفَى غُلَّةً لَهْفُ (٥)

ضَنًى في الْهَوَى كالسُّمِّ في الشَّهْدِ كَامِناً
لَذِذْتُ بِهِ جَهْلاً وفي اللَّذَّةِ الْحَتْفُ (٦)

---

(١) يروى «هراقت» بدلاً من «أراقت» وهما من اللغات بإبدال الهمزة هاءً. الوجد: شدّة العشق. حلف: متلازم. لقد أدّت تلك الفتاة إلى إهدار دم الشاعر لشدّة عشقه لها، والحقيقة أنهما متحابّان، فكلاهما يجري الحبّ في دمائهما، فشوقهما لاعج يشتركان في حرارته.

- ورد بيتان لم يردا في الديوان، وهما التاليان:

وَمَنْ كُلَّمَا جَرَّدْتَها مِنْ ثِيَابَها كَسَاهَا ثِياباً غَيْرَها الشَّعَرُ الوَحْفُ
وَقَابَلَني رُمَّانَتَا غُصْنِ بَانَةٍ يَمِيلُ بِهِ بَدْرٌ وَيُمْسِكُهُ حِقْفُ

(٢) و (٣) الوحف: الكثير الملتف. الحقف: ما اعوجّ من الرمل.

(٤) البين: البعد. يُخاطب الشاعر البين ناعياً عليه تفرّقهما؛ وذلك مرتبط بالقدر، فلم تكن فرقة إلّا بسبب لا يتمنّى المرء حدوثه، وبخاصة في عالم الصحراء حيث القحط والجوع والخوف، فتباعد السكنى في أصحابها ويتجدّد كيد القدر، فإذا بالعيش نكد مكدّر لا صفاء فيه.

(٥) الويل: تعبير عن انزعاج من أمر. اللهف: التحسّر عمّا مضى. الغلة: شدّة العطش وحرارة الجوف. ديدن الشاعر ترديد ما ينمّ عن أسفه وشدّة حزنه لما يحدث، فليس بيده ما يُمكن تغييره من مصير تتحكم فيه الأقدار.

(٦) الضنى: شدّة وطأة المرض. الحتف: الهلاك والموت. يُعبّر الشاعر عن ألمه =

فَـأَفْـنَـى ومَـا أَفـنَـتْـهُ نَـفْـسِـي كَـأَنَّـمَـا
أَبُـو الْـفَـرَجِ الْـقَـاضِـي لَـهُ دُونَـهَـا كَـهْـفُ[(١)]

قَـلـيـلُ الـكَـرَى لَـوْ كَـانَـتِ الْـبِيضُ وَالْـقَـنَا
كَـآرَائِـهِ مَـا أَغْـنَـتِ الْـبَـيْـضُ والـزَّغْـفُ[(٢)]

يَـقُـومُ مَـقَـامَ الْـجَـيـشِ تَـقْـطِـيـبُ وجْـهِـهِ
وَيَـسْـتَـغْـرِقُ الأَلْـفَـاظَ مِـنْ لَـفْـظِـهِ حَـرْفُ[(٣)]

وإنْ فَـقَـدَ الإِعْـطَـاءَ حَـنَّـتْ يَـمِـيـنُـهُ
إِلَـيْـهِ حَـنِـيـنَ الإِلْـفِ فَـارَقَـهُ الإِلْـفُ[(٤)]

= وشعوره باللذة التي يُولّدها إحساس الحرمان من الحبّ، فالهوى مرض شديد الوطأة؛ إنه سمّ مزج بالشهد؛ فالطعم لذيذ حلو المذاق، ولكن نهايته حزينة أليمة تُودي بمن ابتلي به إلى موت محقّق، وبخاصة إذا كان المرء يدفعه جهله بما يُودي به إلى الهلكة.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٤. الكهف: الملجأ. يتخلّص الشاعر من الغزل إلى مدح القاضي أبي الفرج. إنه صراع بين الشاعر والضنى الذي أهلك نفس الشاعر وأرهقها، ولكن كانت النجاة؛ فالقاضي أبو الفرج كان نعم الملجأ، فإذا بنفس الشاعر تستقرّ في كنف القاضي.

(٢) الكرى: النوم. البيض، الواحدة بيضة: الخوذ الحديدية. القنا: الرماح، الزغف، الواحدة زغفة: الدرع اللينة. يمدح الشاعر القاضي باضطلاعه بمسؤولياته خير قيام، إنه دائم التفكير بأمور الدولة والرعيَّة، قليل النوم، ذو رأي سديد نافذ، فلو كانت الرماح والسيوف في حكمها كآرائه الصائبة لما حالت الدروع والخوذ دون أصحابها.

(٣) قطب حاجبيه: عبس. يمدح الشاعر القاضي بمهابة شخصيته، إنه يستعمل لغة الإشارة، فإذا قطّب حاجبيه، وقع في النفوس من مهابته شيء كثير فاستكانوا ومالوا إلى طاعته، وهذا ما لم يمكن للجيش العظيم أن يفعله، وهو يُحسن التعبير عن آرائه بإيجاز شديد بحيث يفهم الناس عنه بالقليل من العبارات؛ فتلك ميزة البلغاء.

(٤) يمدح الشاعر القاضي بالجود؛ إنها عادة متأصلة فيه وفي يده، فلو قصّرت حاله، لكانت يده يدبّ فيها حنين معتاد وشوق إلى ممارسة عادتها المتمثلة بالعطاء، والحالة هذه سببها مؤالفة الرفيق إلى رفيقه.

أَدِيبٌ رَسَتْ لِلْعِلْمِ فِي أَرْضِ صَدْرِهِ
جِبَالٌ جِبَالُ الأَرْضِ فِي جَنْبِهَا قُفُّ (١)

جَوَادٌ سَمَتْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَفُّهُ
سُمُوًّا أَوَدَّ الدَّهْرَ أَنَّ ٱسْمَهُ كَفُّ (٢)

وأَضْحَى وبَيْنَ النَّاسِ فِي كُلِّ سَيِّدٍ
مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي سِيَادَتِهِ خُلْفُ (٣)

يُفَدُّونَهُ حَتَّى كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ
لِجَارِي هَوَاهُ فِي عُرُوقِهِمِ تَقْفُو (٤)

وُقُوفَيْنِ فِي وَقْفَيْنِ شُكْرٍ وَنَائِلٍ
فَنَائِلُهُ وَقْفٌ وشُكْرُهُمُ وَقْفُ (٥)

ولَمَّا فَقَدْنَا مِثْلَهُ دَامَ كَشْفُنَا
عَلَيْهِ فَدَامَ الفَقْدُ وانْكَشَفَ الْكَشْفُ (٦)

---

(١) رست: استقرّت. القفّ: التلّ. يمدح الشاعر القاضي بغزارة علمه وثباته ورسوخه كالجبال الرواسخ ودونه سائر القفاف، فمهما ارتفعت فإنها لا تطاوله علماً ومعرفة؛ فصدره مخزن المعرفة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. الجواد: الكريم. سمت: علت. أود الدهر: تمنّى ورغم. يمدح الشاعر القاضي بأنه كريم يجود بالخير على أوليائه وأحبائه كما أنه مصدر شرّ لأعدائه ينزل بهم الشرور والويل حتى إن الدهر يودّ أن يسمّى كفًّا ليُشاركه التسمية، فكفّه مصدر كلّ خير وكلّ شرّ.

(٣) و (٤) لا يختلف الناس بسيادة الممدوح؛ فهم مجمعون على ذلك، وهم قد يختلفون على غيره في سيادته، ولذا فقد تمكّن حبهم له، فإذا به يجري في عروقهم مجرى الدم ثم ترفدهم دماؤهم، حتى إن ذلك الحبّ له فاق حبّ البشر لأنفسهم.

(٥) و (٦) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. الوقف: التخصيص. النائل: العطاء. كشفنا: فتّشنا. إنها مشاركة ماديّة ووجدانية، فالممدوح كريم يخصّ سائر الناس بعطاياه، فيشكرونه ويحمدون كرمه ويمدحونه ويبثّون حبّهم وتكريمهم واحترامهم له. وهذا ما جعلهم يُفتّشون في الناس على مثيل له فلم يعثروا، وقد جهدوا علهم يجدون؛ ممّا جعلهم يتأكّدون بأنه لا منازع له في صفاته ومزاياه.

وَمَا حَارَتِ الأَوْهَامُ فِي عُظْمِ شَأْنِهِ
بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ [١]
وَلَا نَالَ مِنْ حُسَّادِهِ الْغَيْظُ وَالأَذَى
بِأَعْظَمَ مِمَّا نَالَ مِنْ وَفْرِهِ العُرْفُ [٢]
تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ
وَبَاطِنُهُ دِينٌ وظَاهِرُهُ ظَرْفُ [٣]
أَمَاتَ رِيَاحَ اللُّؤْمِ وَهْيَ عَوَاصِفٌ
وَمَغْنَى الْعُلَى يُودِي ورَسْمُ النَّدَى يعْفُو [٤]
فَلَمْ نَرَ قَبْلَ ابْنِ ٱلْحُسَيْنِ أَصَابِعاً
إِذَا مَا هَطَلْنَ ٱسْتَحْيَتِ الدِّيَمُ الْوُطْفُ [٥]

---

(١) و (٢) الطرْف، بسكون الراء: النظر. الوفر: الكثرة. العرف: المعروف من كلّ خير. تنتاب المرء الحيرة، ولا يستطيع تحديد فضائل القاضي الخلقية والخلقية لكثرتها، من علم ورقّة المشاعر وحبّ الخير وجمال الخلْق وحسن الخِلْقة؛ وهذا ما حمل الحساد على حسده، ففشلوا في مسعاهم ليزيلوا عنه ما خصّه اللّه تعالى به، فازدادوا حسرة ونقمة وكيداً، بقدر ما كان من عموم أفضاله ومعروفه سائر محبّيه، فكثرة عطائه لا تُنقص شيئاً ذا قيمة ممّا لديه من حسنات ومواهب.

(٣) يعدّد الشاعر مواهب القاضي، ففكره تأمل في الحياة، وغاية البشر من وجودهم، ولذا فلو تكلّم لنطق بحكمة الوجود ونعمة الإيمان؛ فقد تشرّب روح الدين والغاية من بعثة الرسل والأنبياء والمعاد، ولأن الإسلام يسر لا تزمّت فيه، فقد امتاز بالظرف وحلو المنطق وبشاشة الوجه ولطف المعشر.

(٤) اللؤم: خساسة الطبع. المغنى: المنزل. يُودي: يُهلك. الغنى والعلم من أسباب القوّة، فالقوّة تُثير في النفس شعور الاستعلاء والتكبّر، فيُسيطر اللؤم على الطباع، ولقد أفلح القاضي بكبت تلك المشاعر في داخله فأفسد على تلك الرياح المنتنَة هبوبها في نفسه فأفاض كرمه على الناس، وبذلك نجا في الامتحان العسير.

(٥) هطلت السماء: أمطرت بغزارة. الوطف، الواحدة وطفاء: السحاب الممتلئ ماء الذي يُغطي السماء. الديم، الواحدة ديمة: المطر يدوم أياماً. إنها مباراة بين الممدوح وبين الطبيعة، فكرمه لا يتوقّف ولا نهاية له حتى إن السماء بغيومها وأمطارها الغزيرة داخلها شعور الحياء ممّا ترى من كرم لا حدود له.

وَلَا سَاعِياً فِي قُلَّةِ المَجْدِ مُدْرِكاً
بِأَفْعَالِهِ مَا لَيْسَ يُدْرِكُهُ الْوَصْفُ (١)
ولَمْ نَرَ شَيْئاً يَحْمِلُ الْعِبْءَ حَمْلَهُ
وَيَسْتَصْغِرُ الدُّنْيَا وَيَحْمِلُهُ طِرْفُ (٢)
وَلَا جَلَسَ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ لِقَاصِدٍ
ومِنْ تَحْتِهِ فَرْشٌ ومِنْ فَوْقِهِ سَقْفُ (٣)
فَوَاعَجَباً مِنِّي أُحَاوِلُ نَعْتَهُ
وقَدْ فَنِيَتْ فيهِ الْقَرَاطِيسُ والصُّحْفُ (٤)
وَمِنْ كَثْرَةِ الأَخْبَارِ عَنْ مَكْرُمَاتِهِ
يَمُرُّ لَهُ صِنْفٌ وَيَأْتِي لَهُ صِنْفُ (٥)
وَتَفْتَرُّ مِنْهُ عَنْ خِصَالٍ كَأَنَّهَا
ثَنَايَا حَبِيبٍ لَا يُمَلُّ لَهَا رَشْفُ (٦)

(١) و (٢) قلّة المجد: ذراه. يصف الشاعر الطريقة التي جعلت ممدوحه يتبوّأ ذرى المجد، فسعيه الدؤوب واجتهاده في طلب المعالي أهلاه لبلوغ أعلى ذرى المجد دون منازع، فانفرد في مرتقاه؛ فهو حمّال أثقال مواطنيه مهما اختلفت أنواعها وتنوّعت ظروفها المادية والمعنوية؛ إنه بمثابة طرف فرس كريم يطوي في قلبه نفساً عظيمة وإرادة قويّة، فليس المقياس الجسدي سرّ عظمة الإنسان بل همّته العالية وطموحه الذي لا حدود له.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٨. إن الممدوح بحر لا حدود له، فعطاؤه يشمل الكون كلّه في حالة هدوئه، وهو عاصف مدمّر في حالة ثورته وغضبه لا يُبقي ولا يذر لذا فإنه يستقبل القاصدين ببشريته كسائر أبناء جنسه، فيفترش لنفسه وتظله السماء بسقفها.

(٤) و (٥) القراطيس، الواحد قرطاس: الدفاتر الورقية. الصحف، الواحدة صحيفة: الكتب. يعبّر الشاعر عن عجزه عن الإلمام بوصفه كاملاً، فقد سبق للشعراء وصفه ومدحه فلم يحيطوا بكلّ ما يميّزه من صفات عن غيره، والقراطيس حتى الكتب التي أفاضت بذكر مزاياه لم تفِهِ حقّه، ولذا فأخباره لا تُحصى ولا حصر لها، ومكرماته تتجدّد تبعاً للظروف المحيطة بحالة قصّاده.

(٦) تفترّ: تنفرج. الرشف: المصّ. تكشف الأخبار المتواردة عن مكارم الممدوح عن =

قَصَدْتُكَ وَالرَّاجُونَ قَصْدِي إِلَيْهِم
كَثِيرٌ وَلٰكِنْ لَيْسَ كَالذَّنَبِ الأَنْفُ(١)

وَلَا الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ والتِّبْرُ واحداً
نَفُوعَانِ لِلْمُكْدِي وبَيْنَهُمَا صَرْفُ(٢)

وَلَسْتَ بِدُونٍ يُرْتَجَى الْغَيْثُ دُونَهُ
ولا مُنْتَهَى الْجُودِ الَّذِي خَلْفَهُ خَلْفُ(٣)

وَلا وَاحِداً في ذَا الْوَرَى مِنْ جَمَاعَةٍ
وَلَا الْبَعْضُ مِنْ كُلٍّ وَلٰكِنَّكَ الضِّعْفُ(٤)

وَلا الضِّعْفَ حَتَّى يَتْبَعَ الضِّعْفَ ضِعْفُهُ
وَلا ضِعْفَ ضِعْفِ الضِّعْفِ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفُ(٥)

= مزاياه المحبّبة إلى النفس كأنها ثنايا فم عذب يلذّ للمرء ارتشاف ريقه لحلو مذاقه ولذّة طعمه.

(١) يُمتّن الشاعر ممدوحه بأنه قصده دون سائر الممدوحين الذين يرغبون بمدحه إيّاهم ولكنه اختصّه من دونهم لأنه أفضلهم، فالأنف رمز الشمم خلاف الذنب التابع الذي لا يُؤبه به وله.

(٢) التبر: الذهب الناعم. المكدي: المتسوّل. الصرف: البقية. إنها عملية نفعية، فالفرق بين الذهب ذي القيمة العالية وبين الفضة عظيم، وإن انتفع بهما المحتاج، فالذهب يتمثل بالممدوح في نفاسته وكثرة قيمته، والراجون يتمثّلون بالفضّة، فحتى الأغنياء يأتون إلى الممدوح يلتمسون كرمه وعطاءه؛ إنه يفضلهم قيمة وعلماً وأخلاقاً.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. الدون: الخسيس، لئيم الطبع. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بمتانة أخلاقه فهو ليس بالخسيس الذي لا يُحترم والبخيل حتى يرتجي المرء الخير من دونه ويلتمسه من الغيث، فكلاهما الممدوح والمطر كريمان يُفيضان خيرهما على القاصدين، ممّا يُوحي بأن الممدوح يُرتجى نفعه في كلّ وقت وليس بعده من هو أكرم منه.

(٤) و(٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. الورى: البشر. يُخاطب =

أَقَاضِيَنَا هَذَا الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
غَلِطْتُ وَلا الثُّلْثَانِ هٰذَا وَلَا النِّصْفُ (١)
وَذَنْبِيَ تَقْصِيرِي وَمَا جِئْتُ مَادِحاً
بِذَنْبِي وَلَكِنْ جِئْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَعْفُو (٢)

جواشن من أسنة وسيوف

وأخرج إليه أبو العشائر جوشناً حسناً أراه إياه في ميافارقين فقال مرتجلاً:

[الوافر]

بِهِ وَبِمِثْلِهِ شُقَّ الصُّفُوفُ
وَزَلَّتْ عَنْ مُبَاشِرِهَا الْحُتُوفُ (٣)
فَدَعْهُ لَقًى فَإِنَّكَ مِنْ كِرَام
جَوَاشِنُهَا الأَسِنَّةُ وَالسُّيُوفُ (٤)

= الشاعر ممدوحه، إنه ليس واحداً من البشر بمزاياه فهو منهم شكلاً وجسداً ولكنه يفوقهم بل يزيدهم جميعاً، فإذا به ينيف عليهم فيكون ضعفهم جميعاً، وتتضاعف الأضعاف حتى تبلغ الألف ضعف. إنها المغالاة في شعر المتنبي.

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر ممدوحه القاضي ناسباً نفسه إليه منادياً عليه بقوله أقاضينا، لقد مدح القاضي بما يستحقّه وهو أهل له من ذكر فضائله، ثم يرى أنه من لم يفه حقّه فقد غلط، فليس ما أدلى به ثلثي ما هو أهل له ولا نصفه، ولا الثلثين، لذا أردف قائلاً ومعتذراً عن تقصيره بمدحه، ذلك أنه لم يأته مادحاً ولكن جاء طالباً العفو والصفح عن ذنب صدر منه.

(٣) و (٤) الجوشن: الدرع. الحتوف، الواحد حتف: الموت. يذكر الشاعر أن من يرتدي هذا الدرع، فإنه بإمكانه شقّ الصفوف، وتفريق أعاديه وتمزيق جموعهم، وهو مطمئن أن جوشنه يحميه من رماح أعدائه وسهامهم، فلا يطالون موته، لذا فإنه لشجاعته وقوته ليس بحاجة إلى درع يحميه في لقاء عدوّه، فهو يستعين برماحه وسيوفه التي تكفيه غائلة غدر أعدائه.

الكريم ألوف

كان أبو العشائر قد غضب على أبي الطيب فأرسلوا غلماناً له ليوقعوا به فلحقوه بظاهر حلب ليلاً فرماه أحدهم بسهم وقال : خذه وأنا غلام أبي العشائر ، فقال أبو الطيب :

وَمُـنْـتَـسِـبٍ عِـنْـدِي إِلَـى مَـنْ أُحِـبُّـهُ
وَلِـلـنَّـبْـلِ حَـوْلِـي مِـنْ يَـدَيْـهِ حَـفِـيـفُ (١)

فَـهَـيَّـجَ مِـنْ شَـوْقِـي وَمَـا مِـنْ مَـذَلَّـةٍ
حَـنَـنْـتُ وَلَـكِـنَّ الْـكَـرِيـمَ أَلُـوفُ (٢)

وَكُـلُّ وِدَادٍ لا تَـدُومُ عَـلَـى الأَذَى
دَوامَ وِدَادِي لِـلْـحُـسَـيْـنِ ضَـعِـيـفُ (٣)

فَـإِنْ يَـكُـنِ الْـفِـعْـلُ الَّـذِي سَـاءَ وَاحِـداً
فَـأَفْـعَـالُـهُ الـلَّائِـي سَـرَرْنَ أُلُـوفُ (٤)

وَنَـفْـسِـي لَـهُ نَـفْـسِـي الْـفِـدَاءُ لِـنَـفْـسِـهِ
وَلَـكِـنَّ بَـعْـضَ الْـمَـالِـكِـيـنَ عَـنِـيـفُ (٥)

فَـإِنْ كَـانَ يَـبْـغِـي قَـتْـلَـهَـا يَـكُ قَـاتِـلاً
بِـكَـفَّـيْـهِ فَـالـقَـتْـلُ الـشَّـرِيـفُ شَـرِيـفُ (٦)

---

(١) و (٢) من طبيعة المحبين أنهم يغفرون أخطاء من يُحبّونه ، بل إنهم يغفرون لمن ينتسبون إليهم ، شأن ذلك الغلام الذي سدّد سهمه وأخطأ الشاعر ، فإذا بالشاعر يردّ عليه بأنه يحبّه لا لشيء بل لأنه ينتسب إلى أبي العشائر ، فهو يودّه ويُحبّه ، ولقد أراد قتله رغم ذلك ، فإذا بالنبال تصدر صوت الموت من حوله . وحالما سمع ذكر أبي العشائر حتى استفاق في داخله شعور المحبّة والشوق إلى ممدوحه ؛ إنه طبع كريم لديه ، وليس سببه الخوف أو الشعور بالعجز والذلّ ، بل هو الحبّ والحنان .

(٣) الوداد : الصداقة . يُقرّ الشاعر بأن الصداقة قد تعترضها مشاكل من قبل الأصدقاء ، ومن طبيعة البشر أن الأذى يمزّق محبّتهم وصداقتهم ، بينما صداقة المتنبي لأبي العشائر صداقة دائمة مهما اعترضها من مشاكل ، لأنها نابعة من حبّ صادق .

(٤) وتعليل محبّة الشاعر لممدوحه أنه كثير الأفعال الحسنة التي أدخلت على الشاعر السرور ، فإن يكن ما حصل عملاً سيئاً فأفعاله الأخرى تغفر له أخطاءه .

(٥) و (٦) يُعلن الشاعر عن قبوله بما حصل له ، فقد أسره أبو العشائر بحسن أفعاله لذا فإنه =

كل ما يمنح الشريف شريف

وسأله سيف الدولة عن صفة فرس يرسله إليه فقال ارتجالاً:

[الخفيف]

مَـوْقِـعُ ٱلْـخَـيْـلِ مِـنْ نَـدَاكَ طَـفِـيـفُ
وَلَـوَ انَّ الْـجِـيَـادَ فِـيـهَـا أُلُـوفُ[(١)]

وَمِـنَ الـلَّـفْـظِ لَـفْـظَـةٌ تَـجْـمَـعُ الْـوَصْـ
ـفَ وَذَاكَ الْـمُـطَـهَّـمُ الْـمَـعْـرُوفُ[(٢)]

مَـا لَـنَـا فِـي الـنَّـدَى عَـلَـيْـكَ ٱخْـتِـيَـارٌ
كُـلُّ مَـا يَـمْـنَـحُ الـشَّـرِيـفُ شَـرِيـفُ[(٣)]

يا شرّ لحم

وقال في عبده إذْ أخذ فرسه وأراد قتله:

[المنسرح]

أَعْـدَدْتُ لِـلْـغَـادِرِيـنَ أَسْـيَـافَـا
أَجْـدَعُ مِـنْـهُـمْ بِـهِـنَّ آنَـافَـا[(٤)]

= مستعدّ ليفديه بنفسه، وهو يدعو له بالبقاء، رغم عدم رفقه به، لذا فلو أراد قتله، فليكن ذلك بيده لا بيد غلام اشتراه بماله، فذلك أشرف للشاعر لأنه شريف وحرّ مثله، وفي ذلك فخر له إن قتله أمير عربي عظيم.

(١) و (٢) الندى: الكرم. الطفيف: القليل. المطهّم من الخيول: التام الجمال. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه كريم وقد توالت عليه عطاياه بكثرة، ورغم جمال هذا الجواد التام الخلق، فإنه نزر من خيره العميم، فقد تلقّى منه ألوفاً أمثال هذا الجواد؛ إنه جواد مطهّم واللفظ يشترك جنس الجياد به، وقد خيّره الأمير في اختياره فإنه يختار هذا الجواد دون غيره لمعرفته به وبمواصفاته.

(٣) يعتذر الشاعر من الأمير بأدب جمّ بأنه طلب منه تحديد مواصفات الجواد المرغوب به، فحدّد مواصفاته بناءً لأمر الأمير، ومن حسن أدبه أنه جعل الأمر بيدي الأمير فلا اختيار للشاعر في ما يُعطى، ذلك أن الشريف لا يهب إلّا الشريف في كلّ ما يُعطي.

(٤) أعدّ: هيّأ. جدع الأنف: قطعه إمعاناً بالإذلال، لقد هيّأ الشاعر للغادرين من عبيده الذين أرادوا سرقته سيوفاً ليقطع أنوفهم إمعاناً بإذلالهم وتحقيرهم وتشويههم.

لا يَــرْحَــمُ الــلَّــهُ أَرْؤُســاً لَــهُــمْ
أَطَــرْنَ عَــنْ هَــامِــهِــنَّ أَقْــحَــافَــا[(١)]

مَــا يَــنْــقِــمُ الــسَّــيْــفُ غَــيْــرَ قِــلَّــتِــهِــمْ
وَأَنْ تَــكُــونَ الــمِــئُــونَ آلَافَــا[(٢)]

يَــا شَــرَّ لَــحْــم فَــجَــعْــتُــهُ بِــدَم
وَزَارَ لِــلْــخَــامِــعَــاتِ أَجْــوَافَــا[(٣)]

قَــدْ كُــنْــتَ أُغْــنِــيــتَ عَــنْ سُــؤَالِــكَ بِــي
مَــنْ زَجَــرَ الــطَّــيْــرَ لِــي وَمَــنْ عَــافَــا[(٤)]

وَعَــدْتُ ذَا الــنَّــصْــلَ مَــنْ تَــعَــرَّضَــهُ
وَخِــفْــتُ لَــمَّــا اعْــتَــرَضْــتَ إِخْــلَافَــا[(٥)]

لا يُــذْكَــرُ الْــخَــيْــرُ إِنْ ذُكِــرْتَ وَلا
تُــتْــبِــعُــكَ الــمُــقْــلَــتَــانِ تَــوْكَــافَــا[(٦)]

---

(١) الهام، الواحد هامة: أعلى الرؤوس. الأقحاف، الواحد قحف، بكسر القاف: العظم الذي فوق الدماغ. يدعو الشاعر ألّا يرحم اللَّه تعالى رؤوس عبيده الذين أطاح بهم بسيفه ففصلها عن أجسادهم.

(٢) ينقم: يعيب ويكره. للسيف حقّ في رقاب أمثال هؤلاء العبيد، لقد كره السيف قلّة عدد القوم، فالسيف يبغي لو يفتك بالآلاف منهم ليُخلّص الكون من شرّ العبيد الغادرين ومن كلّ عبد سوء في الوجود.

(٣) فجعه: أوجعه بحرمانه ممّا يُحبّ. الخامعات: الضباع تعرج في مشيها. يُخاطب الشاعر من قتل من عبيده بأنهم شرّ لحم أهدر دمه وتركه طعمة للضباع فلم تبق منهم شيئاً، فقد استقرّ في أجوافها.

(٤) يُخاطب الشاعر العبد الذي سبّب مقتله ومقتل رفاقه مستفسراً إذا ما طلب من يزجر الطير له إذ بإمكانه الغدر بسيده، وكان الأحرى به ألّا يلجأ إلى الغدر.

(٥) لقد وعد الشاعر سيفه أن يستعمله في حالة الغدر به، فقد سرق العبد خيوله، لذا كان عليه أن يصدق الوعد ويفي بما وعده، فكان ما كان من قتله عبده.

(٦) التوكاف: جريان الدمع وإسالته. يُخاطب الشاعر عبده المقتول أنه لا يُذكر إذا ذُكر =

إذا امْـــرُؤٌ رَاعَـــنِـــي بِـــغَـــدْرَتِـــهِ
أَوْرَدْتُـــهُ الْـــغَـــايَـــةَ الَّـــتِـــي خَـــافَـــا[1]

= الخير، فكلاهما على طرفي نقيض؛ فالخير حقّ والعبد باطل، ولذا فلن يبكيه ولن يأسف لقتله، فقد استحقّ جزاءً عادلاً.

(١) راعني: خافني. يذكر الشاعر أن من خافه وقد غدر به أوصله إلى حالة من الخوف بحيث يُورده مهالكه؛ فتلك الغاية التي سعى إليها بنفسه فاستحقّها بسوء عمله.

رويّ القاف

كبرت حول ديارهم

وقال في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن بن الرضى الأزدي:

[الكامل]

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ
وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ[(١)]

جُهْدُ الصَّبَابَةِ أنْ تكُونَ كَمَا أُرَى
عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفِقُ[(٢)]

مَا لَاحَ بَرْقٌ أوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ
إلّا ٱنْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ[(٣)]

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفي
نَارُ الْغَضَا وَتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ[(٤)]

---

(١) الأرق: السهاد. الجوى: الحرقة. العبرة، بفتح العين: الدمعة. تترقرق: تسيل. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزلي؛ إنه يُعاني من قلّة النوم، فالأرق يُثير عينيه، فلا يعرف للنوم سبيلاً، فقد تمكّن منه العشق، وازدادت الحرقة في قلبه، فدموعه تغسل وجهه.

(٢) الصبابة: شدّة الشوق للمحبّ. ما يدلّ على معاناة العاشق أن يرى المرء ما يُعانيه الشاعر من غرام يترجمه سهر وعين دامعة وقلب لا يعرف للراحة سبيلاً، إنه دائم الخفقان.

(٣) تثنيت: عدت. شيّق: مشتاق. ما يثير مشاعر الشاعر برق يلمع في كبد السماء، وغناء طائر يبكي أليفه بصوت شجيّ حزين، ممّا يحمله إلى العودة إلى حالة الحزن، ففي قلبه شوق لمن يحبّ.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري: ١: ٨٠. الغضا: ضرب من الشجر يدوم طويلاً =

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ (١)

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِيَ أَنَّنِي
عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا (٢)

أَبَنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ
أَبَداً غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ (٣)

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا (٤)

أَيْنَ الأَكَاسِرَةُ ٱلْجَبَابِرَةُ الْأُلَى
كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا (٥)

= عند احتراقه. معايشة الشاعر للحبّ طويلة الأمد، فناره لا تنطفئ، وهي تدوم أكثر ممّا تدوم نار تلك الأشجار في رحلة احتراقها بل إنها تكلّ إذا ما قورنت بنار حبّه.

(١) ورد البيت في مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٦٩٦. عذلت: لمت. كان من عادة الشاعر أن يلوم العشّاق حتى ابتلي بالحبّ وذاق عذابه، ولذا فهو يستغرب كيف أن العشاق لا يموتون من حبّهم.

(٢) ما أصاب الشاعر من آلام الحبّ وعذابه، جعله يعلم أنه كان مخطئاً في موقفه من العشاق ولومه لهم، فها هو الآن يُقاسي ما هم يُقاسونه من حرمان وهجر.

(٣) نعيق الغراب: صوته المكروه. ينتقل الشاعر من الغزل وهمومه إلى موضوع حكمي تأمّليّ في مسار البشر، لقد وجد الإنسان في دار غربة ووحشة، وفي أحد أركان الوجود يُصدر الإنسان نعيقاً يُشمّ منه رائحة التشاؤم؛ فثمّة غراب لا يني ينعق مؤذناً برحيل الأحبة والإخوان عن هذا الوجود.

(٤) و (٥) معشر: الناس المتعايشون. كلّ شيء هالك إلّا وجهه؛ فالدنيا نبكي لأجلها وتبكينا بمفاجآتها المحزنة؛ فما من جيل التقى وعاش إلّا آذن برحيل. حتى الأكاسرة العظام الذين ملأوا الدنيا بأعمالهم وجبروتهم، وكنزوا الكنوز، فما بقي منهم شيء.

مِـنْ كـلِّ مَـنْ ضَـاقَ الْـفَـضَـاءُ بِـجَـيْـشِـهِ
حَـتَّـى ثَـوَى فَـحَـوَاهُ لَـحْـدٌ ضَـيِّـقُ[(١)]

خُـرْسٌ إِذَا نُـودُوا كَـأَنْ لَـمْ يَـعْـلَـمُـوا
أَنَّ الْـكَـلَامَ لَـهُـمْ حَـلَالٌ مُـطْـلَـقُ[(٢)]

وَالـمَـوْتُ آتٍ وَالـنُّـفُـوسُ نَـفَـائِـسٌ
وَالـمُـسْـتَـعِـزُّ بِـمَـا لَـدَيْـهِ ٱلْأَحْـمَـقُ[(٣)]

وَالـمَـرْءُ يَـأْمُـلُ وَٱلْـحَـيَـاةُ شَـهِـيَّـةٌ
وَالـشَّـيْـبُ أَوْقَـرُ وَالـشَّـبِـيـبَـةُ أَنْـزَقُ[(٤)]

وَلَـقَـدْ بَـكَـيْـتُ عَـلَـى الـشَّـبَـابِ وَلِـمَّـتِـي
مُـسْـوَدَّةٌ وَلِـمَـاءِ وَجْـهِـيَ رَوْنَـقُ[(٥)]

حَـذَراً عَـلَـيْـهِ قَـبْـلَ يَـوْمِ فِـرَاقِـهِ
حَـتَّـى لَـكِـدْتُ بِـمَـاءِ جَـفْـنِـيَ أَشْـرَقُ[(٦)]

---

(١) و (٢) ثوى: لحَد في قبره. ويروى «توى» بالتاء بدلاً من «ثوى» بالثاء، وتوى بمعنى هلك. ومن الملوك من ضاقت الأرض بجيوشه وأعماله الحربية العظيمة، فإذا بالدنيا الواسعة تضيق لتنحصر بقبر ضيّق يحتضنه، وقد خمدت فيه حواسه، فإذا به عاجز عن النطق، وقد اعتاد أن يأمر فيطاع.

(٣) و (٤) يروى «المستغر» بالراء بدلاً من «المستعز» بالزاي. نفائس: غالية يُضنّ بها. المستعزّ: المفتخر بما لديه. لا مفرّ من الموت والحياة عزيزة لا يُستهان بها، والأحمق من بني البشر من يغترّ بما يملك من جاهٍ ومالٍ، ورغم قناعات البشر بحتميّة الموت، فهم يُقبلون على الحياة بشوق ورغبة، ومن مظاهر الزوال شيب يغزو الرؤوس، ومع ذلك ففترة الشباب والقوّة تمتاز لدى بعضهم بحماقات يرتكبونها.

(٥) و (٦) اللمّة من الشعر: ما جاوز شحمة الأذن. الرونق: الجمال. تخلّص الشاعر إلى ذكر تجربته مع الزمن، فقد ذرف دموعه وهو في ريعان صباه وشبابه، إذ كان شعر رأسه يُغطّيه السواد، ووجهه يطفح نضرة وجمالاً، مخافة زوال تلك النعم، حتى إنه كان يختنق من شدّة بكائه.

أَمَّا بَنُو أَوْسِ بْنِ مَعْنِ بْنِ الرِّضَا
فَأَعَزُّ مَنْ تُحْدَى إِلَيْهِ الأَيْنُقُ[(١)]

كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ
مِنْهَا الشُّمُوسُ وَلَيْسَ فِيهَا المَشْرِقُ[(٢)]

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ
مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ[(٣)]

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحٌ
لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ[(٤)]

مِسْكِيَّةُ النَّفَحَاتِ إِلَّا أَنَّهَا
وَحْشِيَّةٌ بِسِوَاهُمُ لَا تَعْبَقُ[(٥)]

أَمُرِيدَ مِثْلِ مُحَمَّدٍ فِي عَصْرِنَا
لَا تَبْلُنَا بِطِلَابِ مَا لَا يُلْحَقُ[(٦)]

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَحَداً وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ[(٧)]

---

(١) تخلّص الشاعر إلى مدح بني أوس بن معن بن الرضى؛ فهم مقصد من يطلب رِفدهم وصِلتهم، فإليهم تركب المطايا ويحدوها الحُداة.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٤٦، أمالي ابن الشجري ١ : ٨١، لشدّة إعجاب الشاعر بممدوحيه وحبّه لهم كبّر تعظيماً لهم، فهم شموس تشرق عظمة وبهاءً وكرماً، رغم أنهم يسكنون المغرب.

(٣) و (٤) ويستغرب الشاعر من كرم ممدوحيه، فأكفّهم ينهمر منها الكرم رغم كونها صخراً قوياً لا يُنبت ولا يُورق. وهم ينتشر صيتهم عبقاً فوّاحاً لحسن أخلاقهم التي تتناقل أفضالهم الألسن في كلّ مكان.

(٥) النفحات: الروائح. تعبق: تنتشر. أخبار ممدوحيه مسكية، رائحتها رائحة المسك وطيبها طيب المسك، وهي في نفس الوقت لا تستجيب لغيرهم لنفورها من مسلكهم، فهي مخصوصة بهم وهم مخصوصون بها.

(٦) و (٧) يُخاطب الشاعر من يُفتّش عن مثيل لمحمد ممدوحه، عبثاً يُحاول أن يجد شبيهاً =

يَـا ذَا ٱلَّـذِي يَـهَـبُ ٱلْـجَـزِيـلَ وَعِـنْـدَهُ
أَنِّـي عَـلَـيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَـصَـدَّقُ(١)
أَمْـطِـرْ عَـلَـيَّ سَـحَـابَ جُـودِكَ ثَـرَّةً
وَٱنْـظُـرْ إِلَـيَّ بِـرَحْـمَـةٍ لا أَغْـرَقُ(٢)
كَـذَبَ ٱبْـنُ فَـاعِـلَـةٍ يَـقُـولُ بِـجَـهْـلِـهِ
مَـاتَ الْـكِـرَامُ وَأَنْـتَ حَـيٌّ تُـرْزَقُ(٣)

أي محل أرتقي

[مجزوء الرجز]

أَيَّ مَـحَـلٍّ أَرْتَـقِـي
أَيَّ عَـظِـيـمٍ أَتَّـقِـي(٤)
وَكُـلُّ مَـا قَـدْ خَـلَـقَ ٱلـلَّـ
ـهُ وَمَـا لَـمْ يَـخْـلُـقِ(٥)
مُـحْـتَـقَـرٌ فِـي هِـمَّـتِـي
كَـشَـعْـرَةٍ فِـي مَـفْـرِقِـي(٦)

= له في ذلك العصر، ولن يجد من يبلغ شأوه؛ فمن رحمة اللّه تعالى له أنه لم يخلق مثيلاً له ولن يخلق شبيهاً به في مستقبل الأيام.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه، فهو كريم يُعطي بغير حساب لجزيل ما يُعطي وإحساسه في حال قبوله عطاءه أن الشاعر يتصدّق عليه بقبول عطاياه.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ٨٢. يستجدي الشاعر ممدوحه ويطلب منه المزيد، فكرمه لا حدود له، ثرّ وغزير يفيض بركة حتى يكاد يُغرق من يحصل عليه، ولذا يخاف الشاعر أن يغرق في بحر جود ممدوحه.

(٣) ابن فاعلة، كناية عن ابن الزانية. ينعى الشاعر على من يقول بأن الكرام قد فقدوا، ولم يعد لهم وجود، ولقد كذب ذلك المدّعي لوجود ممدوحه حيًّا يُرزق ويَرزق؛ فهو يُعطي من عطاء اللّه ربّ العالمين.

(٤) أي: اسم استفهام يُفيد الإنكار، دفع الغلوّ الشاعر إلى النظر باستعلاء حتى إنه يعتقد بأنه أدرك السماكين لبعد همّته، ولذا فلن يخاف حتى العظماء من الملوك والسادة، فقد حلّ في أعلى ذُرى المجد.

(٥) و(٦) المفرق: حيث يفترق الشعر في وسط الرأس. وقوّة التحدّي لدى الشاعر جعلته =

فتى يُخشى ويرتجى

يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

[الطويل]

هُـوَ الْـبَـيْـنُ حَـتَّـى مَـا تَـأَنَّـى ٱلْـحَـزَائِـقُ
وَيَـا قَـلْـبُ حَـتَّـى أَنْـتَ مِـمَّـنْ أُفَـارِقُ (١)

وَقَــفْــنَــا وَمِــمَّــا زَادَ بَــثًّــا وُقُــوفُــنَــا
فَـرِيـقَـيْ هَـوًى مِـنَّـا مَـشُـوقٌ وَشَـائِـقُ (٢)

وَقَـدْ صَـارَتِ الْأَجْـفَـانُ قَـرْحَـى مِـنَ الْـبُـكَـا
وَصَـارَ بَـهَـاراً فـي ٱلْـخُـدُودِ الـشَّـقَـائِـقُ (٣)

عَـلَـى ذَا مَـضَـى الـنَّـاسُ ٱجْـتِـمَـاعٌ وَفُـرْقَـةٌ
وَمَــيْــتٌ وَمَــوْلُــودٌ وَقَــالٍ وَوَامِــقُ (٤)

= يتحدّى سائر المخلوقات من بشر وحتى من عوامل الطبيعة، وهو لم يكتفِ بذلك بل إنه يتحدّى ما هو غير مخلوق، فإذا بالموجود واللاموجود يتصاغران أمام همّته الجبارة، فتبدو تلك الظواهر دون شعرة في مفرقه.

(١) و (٢) البين: الفراق. تأنى: تتمهّل. الحزائق، الواحدة حزيقة: الجماعة. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لقد حان الفراق؛ فجماعة الركب يتهيّأون للرحيل، وفيهم من يُحبّ الشاعر، لذا فالقلب سيصحب حبيبته معه، ويتركه يُعاني انفصاماً أليماً، فلا يُمكن أن يحيا الشاعر بلا قلبه، إنه وقف تحت ظل شجرة وينظر من بعيد والقلب يعصره الألم واللوعة تضاعف الأسى، والمشهد فريقان: عاشق شدّه الشوق إلى معشوقه، والمعشوق يزيد ألم عاشقه ممّا يبديه من عدم التأثر البادي على عاشقه.

(٣) قرحى: جرحى. البهار: ضرب من الزهر أصفر اللون. الشقائق، الواحدة: شقيقة: ضرب من الزهر أحمر، ويُسمّى شقائق النعمان. يصف الشاعر حالته؛ فالبكاء قرّح جفنيه، وخدّاه الحمراوان علتهما صفرة لاندهاشه ممًّا يرى وكأنه لا يُصدّق عينيه.

(٤) الوامق: العاشق. إنها الحياة منذ كان الإنسان الأول، فيجتمع الأحباب، ويفترق بعضهم، وموت وحياة تتجدّد بالميلاد، وهم بين مبغض ومحبّ، وهكذا تتوالى الأجيال والحزن يلفّ حياتهم.

تَـغَـيَّـرَ حَـالِـي وَالـلَّـيَـالِـي بِـحَـالِـهَـا
وَشِـبْـتُ وَمَـا شَـابَ الـزَّمَـانُ الْـغُـرَانِـقُ (١)

سَـلِ الْـبِـيـدَ: أَيْـنَ ٱلْـجِـنُّ مِـنَّـا بِـجَـوْزِهَـا
وَعَـنْ ذِي الـمَـهَـارِي: أَيْـنَ مِـنْـهَـا النَّـقَـانِـقُ (٢)

وَلَـيْـلٍ دَجُـوجِـيٍّ كَـأَنَّـا جَـلَـتْ لَـنَـا
مُـحَـيَّـاكَ فِـيـهِ فَـاهْـتَـدَيْـنَـا الـسَّـمَـالِـقُ (٣)

فَـمَـا زَالَ لَـوْلَا نُـورُ وَجْـهِـكَ جِـنْـحُـهُ
وَلَا جَـابَـهَـا الـرُّكْـبَـانُ لَـوْلَا الأَيَـانِـقُ (٤)

وَهَـزٌّ أَطَـارَ الـنَّـوْمَ حَـتَّـى كَـأَنَّـنِـي
مِـنَ الـسُّـكْـرِ فِـي الْـغَـرْزَيْـنِ ثَـوْبٌ شُـبَـارِقُ (٥)

---

(١) الغرانق: الشاب الجميل الطلعة الأبيض، إنها معركة الحياة، فإذا بالشاعر يغزو الشيب رأسه وقد تغيّرت حاله والأيام تمرّ سراعاً، والزمان لا زال في أول عهده فتيًّا شاباً يُغري بمسايرته ومهادنته.

(٢) البيد: الواحدة بيداء: المفازات. الجوز: الوسط. المهاري: النياق المنسوبة إلى قبيلة مهرة اليمنية. النقانق، الواحد نقنق: ذكر النعام. يُخاطب صاحبه، وهما يمتطيان نياقهما مسرعين، ويطلب منه أن يسأل البيداء التي يقطعانها عن الجنّ الذين يسيحون في وسطها وكذلك ذكر النعام الظليم وهو ينطلق يعدو مسرعاً، لقد فات الشاعر سكّان تلك المفازة قاصداً ممدوحه كعادته باحثاً عن رزقه في قصور ممدوحيه.

(٣) و (٤) دجوجي: شديد الظلمة. جلت: كشفت، أضاءت. محيَّاك: وجهك. السمالق، الواحدة سملق: الأرض البعيدة الطويلة. جنح الليل: جزء منه. جابها: قطعها. الأيانق: النياق. يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه في ليل حالك الظلمة، ومن بين ظلمة دامسة يبدو نور وجه الممدوح يُمزّق ما بقي من الليل في متّسع من الأرض المتطاولة البعد؛ إنه منارة مشعّة في حلك الليل ووحشة تلك المفازة، فكان لا بدّ للتغلّب على قسوة تلك الظروف من نياق تُعين على قطع تلك البيداء.

(٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٢. الغرز: ركاب الرحل من جلد. الشبارق: الممزّق. لم يعرف الشاعر للنوم طعماً، فقد منعته شدّة حركة ناقته من النوم فبدا كأنه في حالة سكر جعلته يترنّح فوق ناقته لشدّة إسراعها، وكأنه ثوب خلق ممزّق في الغرزين.

شَدَوْا بِابْنِ إِسْحَاقَ ٱلْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ
ذَفَارِيَهَا كِيرَانُهَا وَالنَّمَارِقُ (١)

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ ٱلْأَرْضُ خَوْفاً إِذَا مَشَى
عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ ٱلْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ (٢)

فَتًى كَالسَّحَابِ ٱلْجُونِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى
يُرَجَّى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ (٣)

وَلٰكِنَّهَا تَمْضِي وَهٰذَا مُخَيِّمٌ
وَتَكْذِبُ أَحْيَاناً وَذَا الدَّهْرُ صَادِقُ (٤)

تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا لِيُنْسَى فَمَا خَلَتْ
مَغَارِبُهَا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْمَشَارِقُ (٥)

---

(١) شدّوا: غنوا. الذفاري: ما خلف الآذان. الكيران، الواحد كور: الرحال. النمارق، الواحدة نمرقة: الوسائد توضع تحت الركبان. كان للحداة دور في إسراع النياق، فقد غنّوا يمدحون الحسين بن إسحاق فسالت أصواتهم إلى مسامعها فنشطت ورفعت رؤوسها ممّا جعل أقفاءها تصافح رحالها والوسائد التي عليها لروعة ما مُدح به ولجمال أصوات أولئك الحداة.

(٢) تقشعر: تنتفش الشعور التي في بدن الرجل إذا أصابه خوف أو موجة برد. ترتجّ: تهتزّ. الشواهق، الواحد شاهق: العالية، يصف الشاعر ممدوحه بأنه يُثير الرعب حتى في ما لا يُحسّ، فإذا بالأرض تضطرب وكأن زلزالاً حرّكها بعنف، حتى الجمال المرتفعة الشاهقة يتولّاها رعب فترتجّ لذلك.

(٣) و (٤) الجون: الأسود. الحيا: المطر. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه فتى اكتملت لديه عناصر الفتوة العربية، كرم الحسب، شجاعة وقوّة، كرم وجود، علوّ همة، سيادة، إنه كالسحب تحمل الخير إلى بني البشر، وهو يحمل خيره إلى مواطنيه فيأملون منه كلّ خير، كما أن المطر قد يأتي بالضرر فكذلك يخشى من الممدوح حالات غضبه فإنها كالصواعق تضرب دون تمييز وبلا رحمة، ومع ذلك فإن تلك السحاب تمضي في حال سبيلها وينسى الناس ما جاءت به بينما الممدوح يبقى ظِلّه مخيّماً على حياة الناس، وما يُميّزه عن تلك السحب أنها قد لا تمطر الخير فتكذب وتخلف موعدها بينما يصدق الممدوح لرجولته، فإذا وعد صدق.

(٥) يصف الشاعر ممدوحه بالزهد، فقد تخلّى عن حُطام الدنيا وما فيها، فتركه للمتكالبين =

غَـذَا ٱلْـهِـنْـدُوَانِـيَّـاتِ بِـالْـهَـامِ وَالـطُّـلَـى
فَـهُـنَّ مَـدَارِيـهَـا وَهُـنَّ الـمُـخَـانِـقُ(١)
تَـشَـقَّـقُ مِـنْـهُـنَّ الْـجُـيُـوبُ إذا غَـزَا
وَتُـخْـضَـبُ مِـنْـهُـنَّ ٱلـلِّـحَـى وَالـمَـفَـارِقُ(٢)
يُـجَـنِّـبُـهَـا مَـنْ حَـتْـفُـهُ عَـنْـهُ غَـافِـلٌ
وَيَـصْـلَـى بِـهَـا مَـنْ نَـفْـسُـهُ مِـنْـهُ طَـالِـقُ(٣)
يُـحَـاجَـى بِـهِ مَـا نَـاطِـقٌ وَهْـوَ سَـاكِـتٌ
يُـرَى سَـاكِـتـاً وَالـسَّـيْـفُ عَـنْ فِـيـهِ نَـاطِـقُ(٤)
نَـكِـرْتُـكَ حَـتَّـى طَـالَ مِـنْـكَ تَـعَـجُّـبِـي
وَلَا عَـجَـبٌ مِـنْ حُـسْـنِ مَـا الـلَّـهُ خَـالِـقُ(٥)
كَـأَنَّـكَ فِـي الإِعْـطَـاءِ لِـلْـمَـالِ مُـبْـغِـضٌ
وَفِـي كُـلِّ حَـرْبٍ لِـلْـمَـنِـيَّـةِ عَـاشِـقُ(٦)

= عليها، ومع ذلك فقد غرّب ذكره وشرّق في أركان الأرض لفعله الخيرات التي عمّت البشر.

(١) و(٢) الهندوانيات: السيوف المصنوعة في الهند. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الطلى: الأعناق. المداري، الواحدة مدرى: الأمشاط. الخانق، الواحدة مخنقة: القلائد. يصف الشاعر شدّة بطش ممدوحه بأعدائه، فسيوفه الهندية وسيلة قوّته، وقد عوّدها على الغذاء من الأعداء، فإذا بها كالأمشاط ترافق رؤوسهم أو المخانق إذا رافقت رقابهم، تسحقهم سحقاً وتمحقهم محقاً. ولهذا فإذا بالنادبات يندبن قتلاهن فيشققن جيوبهن إذا طلعت جيوشه في الآفاق، بينما يكون فرسان الأعداء طعماً لسيوفه التي تُخضّب لحاهم ومفارقهم بدمائهم.

(٣) و(٤) الحتف: الموت. يصلى: يُقاسي حرّها لشدّة نارها. وأعداؤه أمام أمرين؛ فالفائز منهم من يتجنّب غضبه أو يفرّ من مواجهته أو غفل عنه الموت فيحفظ نفسه ويسلم من سيفه، والخاسر من تجرّأ على عداوته فكان الموت من حظّه، وقد طلّق نفسه بإرادته، فاستحقّ ما سعى إليه برحيله. لذا فالممدوح يُحاجي بسيفه مع أنه لا ينطق ببنت شفة، إنها لغة السيف الذي ينطق بالموت، وهو الحقّ المبين عمّا يجول في خاطره.

(٥) و(٦) يستغرب الشاعر ويطول تعجبه ممّا عليه ممدوحه، ولكن التفكير هداه إلى أن =

أَلَا قَلَّمَا تَبْقَى عَلَى مَا بَدَا لَهَا، وَحَلَّ بِهَا مِنْكَ الْقَنَا وَالسَّوَابِقُ(١)

خَفِ ٱللَّهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِي ٱلْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ(٢)

سَيُحْيِي بِكَ السُّمَّارُ مَا لَاحَ كَوْكَبٌ وَيَحْدُو بِكَ السُّفَّارُ مَا ذَرَّ شَارِقُ(٣)

فَمَا تَرْزُقُ الأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ وَلا تَحْرِمُ الأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ رَازِقُ(٤)

وَلَا تَفْتُقُ الأَيَّامُ مَا أَنْتَ رَاتِقُ وَلَا تَرْتُقُ الأَيَّامُ مَا أَنْتَ فَاتِقُ(٥)

= اللّه تعالى يخلق ما يشاء ومن يشاء كما يريد، ولهذا فقد زال استغراب الشاعر ممّا شاهده في ممدوحه، فقد عرف أن كرمه نابع من كراهيته لجمع المال واختزانه، وأنه يعشق القتل في المعارك فيبطش بأعدائه ليُخلّص الأرض من الظالمين والمجرمين.

(١) القنا: الرماح. السوابق: الخيل. ولكثرة حروب الممدوح، فقد أفنى من أدواتها الرماح والخيول بكثرة، فالرماح تتكسّر في أجساد الأعداء، والخيول تُلاقي حتفها لكثرة استعمالها وما ينتج عن ذلك من إصابات تُودي بها إلى الهلكة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. يروى «حاضت» بدلاً من «ذابت». العواتق، الواحدة عاتق: الشابة من النسوة. الخدور، الواحد خدر: المخدع. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه جميل جدًا، ولذا يطلب منه أن يخاف اللّه تعالى ويستر جماله ببرقع كي لا تراه العواتق من النساء فيعشقنه فيؤدي ذلك إلى موتهن حسرة إن لم يحصلن عليه.

(٣) السمَّار، الواحد سامر: الساهرون في الليل، السفار، الواحد سفر: الملازمون للأسفار. ذرّ: طلع. الشارق ليلاً: الكوكب. ولبعد صيت الممدوح، فالسمَّار يحيون ليلهم بذكر مآثره والإشادة بفضائله، والسفر يحدون نياقهم في ليالي أسفارهم بمدحه ونشر محاسنه.

(٤) و (٥) فتق: مزّق لحمة الثوب. رتق: أصلح وأعاد لحمة الثوب. إنها مباراة مع الأقدار، الرابح فيها الممدوح، إنه يُعاند الأقدار، فالأقدار لا تقدر على إرزاق من حرمه الممدوح، وفي المقابل فإنها لا تحرم من رزقه الممدوح، فلو أرادت الأيام تمزيق عرى من أصلحه الممدوح كما أنها لا تقدر على جمع وإصلاح مما فرّقه الممدوح من لحمة بين المتشابهات من الأشياء.

لَـكَ ٱلْـخَـيْـرُ غَـيْـرِي رَامَ مِـنْ غَـيْـرِكَ الْـغِـنَـى
وَغَـيْـرِي بِـغَـيْـرِ الـلَّاذِقِـيَّـةِ لَاحِـقُ[1]

هِـيَ الْـغَـرَضُ الأَقْـصَـى وَرُؤْيَـتُـكَ الـمُـنَـى
وَمَـنْـزِلُـكَ الـدُّنْـيَـا وأَنْـتَ ٱلْـخَـلَائِـقُ[2]

أنفس ما للفتى لبه

وعرض عليه بدر بن عمار الصحبة للشرب في غد فقال ارتجالاً:

[المتقارب]

وَجَـدْتُ الـمُـدَامَـةَ غَـلَّابَـةً
تُـهَـيِّـجُ لِـلْـقَـلْـبِ أَشْـوَاقَـهُ[3]

تُـسِـيءُ مِـنَ الـمَـرْءِ تَـأْدِيـبَـهُ
وَلـكِـنْ تُـحَـسِّـنُ أَخْـلاقَـهُ[4]

وَأَنْـفَـسُ مَـا لِـلْـفَـتَـى لُـبُّـهُ
وَذُو الـلُّـبِّ يَـكْـرَهُ إِنْـفَـاقَـهُ[5]

وَقَـدْ مُـتُّ أَمْـسِ بِـهَـا مَـوْتَـةً
وَلَا يَـشْـتَـهِـي الـمَـوتَ مَـنْ ذَاقَـهُ[6]

---

(١) و (٢) ورد البيت الأول في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. رام: قصد. يدعو الشاعر للممدوح بدوام الغنى والسعادة، وهو يُنوّه بحبّه لممدوحه فغيره يقصد من الممدوحين غيره ويُفضّله بينما يفضل الشاعر ممدوحه ولهذا فقد لحق اللاذقية بلد الممدوح رغبة منه خلاف غيره من الشعراء؛ إنها غايته البعيدة حيث ينعم بمشاهدة ممدوحه، وحيث تتقلّص الدنيا في تلك المدينة لوجود من يتمثل فيه وبه الوجود البشري.

(٣) و (٤) وردت القصيدة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. المدامة: من أسماء الخمرة. غلابة: تغلب العقل. يرى الشاعر أن الخمرة تسيطر على العقول فتشلّها عن التفكير، وتثير في القلب نوازعه فيتذكر حبّه وتثير لواعجه، وتخرج المرء عن أدبه فيأتي بفاحش الكلام ويتبذّل في سلوكه، ولكنها في نفس الوقت تجعله كريماً يبعثر ماله كيفما اتّفق بلا وعي منه.

(٥) و (٦) اللبّ: العقل. إنفاقه: ضياعه. يرى الشاعر أن من صفات الفتى الكامل الفتوّة =

ليس تصلح للعناق

ووصفها بشعر كثير وهجاها بمثله لكنه لم يحفظ فخجل ابن كروس وأمر بدر برفعها فرفعت فقال:

[الوافر]

وَذَاتِ غَـدَائِـرٍ لا عَـيْـبَ فـيـهَـا
سِـوَى أنْ لَـيْـسَ تَـصْـلُـحُ لِـلْـعِـنَـاقِ (١)

إذَا هَـجَـرَتْ فَـعَـنْ غَـيْـرِ ٱخْـتِـيَـارٍ
وَإنْ زَارَتْ فَـعَـنْ غَـيْـرِ ٱشْـتِـيَـاقِ (٢)

أَمَـرْتَ بِـأَنْ تُـشَـالَ فَـفَـارَقَـتْـنَـا
وَمَـا أَلِـمَـتْ لِـحَـادِثَـةِ الْـفِـرَاقِ (٣)

سقاني الخمر

وسأله أبو محمد أن يشرب فامتنع، فقال له: بحقي عليك إلا شربت، فقال:

[الوافر]

سَـقَـانِـي ٱلْـخَـمْـرَ قَـوْلُـكَ لِـي بِـحَـقِّـي
وَوُدٌّ لَـمْ تَـشُـبْـهُ لِـي بِـمَـذْقِ (٤)

= أن يتمتَّع بعقل راجح وفكر نيّر، ولذا فإنه يكره أن يُضيّع عقله ولقد جرّبها البارحة وقد حصل له ما حصل فكان ذلك بمثابة موت، لذا فإنه لن يعود إلى موت كهذا لكرهه شرب الخمرة.

(١) و (٢) الغدائر، الواحدة غديرة: الذؤابة من الشعر. يصف الشاعر تلك الدميَة بأنها شبيهة بالنساء ولكنها لا تصلح للعناق مع أن غدائرها جميلة، والغدائر في النساء من مظاهر جمالهن، وما يفرّقها عن النساء أنها لا إرادة لها، فالنسوة من طباعهن هجر الأحبَّة وتعذيبهن بالبعد، بينما تلك الدمية ليست لديها مشاعر إنسانية، فالشوق معدوم لديها خلاف النسوة فأشواقهن حارَّة.

(٣) تشال: ترفع. يخاطب الشاعر ممدوحه لقد أمرت برفعها من المجلس فلم تبدِ أية مشاعر، فكان فراقها لا روح فيه، إنها لا تعرف للألم معنى، فالمرأة تتألم لفراق الأحبّة وقد تبكي بحرارة.

(٤) المذق: المزج. شابه: خالطه، لقد وافق الشاعر ممدوحه فشرب الخمرة لا حبًّا بها =

يَـمِـيـنـاً لَـوْ حَـلَـفْـتَ وَأنْـتَ تَـأتِـي
عَـلَـى قَـتْـلِـي بِـهَـا لَـضَـرَبْـتُ عُـنْـقِـي[(١)]

كلنا للخالق

كان لأبي الطيب حِجْرة تسمى الجهامة ولها مهر يسمى الطخرور، فأقام الثلج على الأرض بأنطاكية وتعذر المرعى على المهر فقال:

[الرجز]

مَـا لِـلْـمُـرُوجِ ٱلْـخُـضْـرِ وَٱلْـحَـدَائِـقِ
يَـشْـكُـو خَـلاَهَـا كَـثْـرَةَ الْـعَـوَائِـقِ[(٢)]

أقَـامَ فـيـهَـا الـثَّـلْـجُ كَـالـمُـرَافِـقِ
يَـعْـقِـدُ فَـوْقَ الـسِّـنِّ رِيـقَ الْـبَـاصِـقِ[(٣)]

ثُـمَّ مَـضَـى لا عَـادَ مِـنْ مُـفَـارِقِ
بِـقَـائِـدٍ مِـنْ ذَوْبِـهِ وَسَـائِـقِ[(٤)]

كَـأنَّـمَـا الـطُّـخْـرُورُ بَـاغِـي آبِـقِ
يَـأْكُـلُ مِـنْ نَـبْـتٍ قَـصِـيـرٍ لاصِـقِ[(٥)]

= ولكن طاعة وحبًّا لممدوحه لأنه أقسم عليه بحياته وهو يحبّه حباً صادقاً لا رياء فيه ولا محاباة.

(١) والقسم من قبل الممدوح لا بدّ نافذ، فلو طلب من الشاعر قتل نفسه لبادر بذلك دون تردّد، فضرب عنقه حبًّا وطاعة.

(٢) و (٣) المروج، الواحد مرج: المراعي. الحدائق، الواحدة حديقة: البستان المسوّر. الخلى: النبات الرطب. العوائق، الواحد عائق: الموانع. يتضجّر الشاعر من قسوة الطبيعة، فالثلوج غطّت الأرض بردائها الجميل الأبيض ممّا حال دون ظهور الكلأ؛ فإذا بالنبات يشكو سوء حالته، فلا يستطيع التنفّس لما تراكم عليه من الثلوج. فقد حطّ رحاله فلا يتزحزح عن المكان، فإذا بكلّ شيء جامد لا يتحرّك حتى لو أن امرأً حاول أن يبصق لتجمّد ريقه فوق أسنانه.

(٤) إنه الدفء يدبّ في أحشاء الطبيعة، فإذا بالبرد ينحسر عن وجه الأرض؛ فالثلج تدبّ فيه الحرارة ويذوب، وإذا بالأرض تتحرّر من ربقة الثلج شيئاً فشيئاً.

(٥) الطخرور: اسم مهر الشاعر. باغي: طالب. الآبق: العبد الفارّ من سيده. يصوّر =

كَـقَـشْـرِكَ ٱلْـحِـبْـرَ عَـنِ الْـمَـهَـارِقِ
أرُودُهُ مِـنْـهُ بِـكَـالـشُّـوذانِـقِ(١)

بِـمُـطْـلَـقِ الْـيُـمْـنَـى طَـوِيـلِ الْـفَـائِـقِ
عَـبْـلِ الـشَّـوَى مُـقَـارِبِ الـمَـرَافِـقِ(٢)

رَحْـبِ الـلَّـبَـانِ نَـائِـهِ الـطَّـرَائِـقِ
ذِي مَـنْـخِـرٍ رَحْـبٍ وَإِطْـلٍ لاحِـقِ(٣)

مُـحَـجَّـلٍ نَـهْـدٍ كُـمَـيْـتٍ زَاهِـقِ
شَـادِخَـةٍ غُـرَّتُـهُ كَـالـشَّـارِقِ(٤)

كَـأَنَّـهَـا مِـنْ لَـوْنِـهِ فِـي بَـارِقِ
بَـاقٍ عَـلَـى الْـبَـوْغَـاءِ وَالـشَّـقَـائِـقِ(٥)

وَالأبْـرَدَيْـنِ وَٱلْـهَـجِـيـرِ الـمَـاحِـقِ
لِـلْـفَـارِسِ الـرَّاكِـضِ مِـنْـهُ الْـوَاثِـقِ(٦)

= الشاعر ما كان عليه مهره؛ فجوعه جعله يلاحق العشب حيثما وجده، فلا يمكث في مكان واحد بل يلاحقه وكأنه عبد فرّ من سيده لشدّة جوعه وقلّة ما يُوجد من العشب.

(١) المهارق، الواحد مهرق: الصحيفة للكتابة فيها. أورده: أطلبه. الشوذانق: الصقر. يُتابع الشاعر وصف طلب مهره للكلأ؛ إنه كصقر سريع الطير يلتهم ما يقمّه من العشب، وكأنه يمحو كتابة من على صحيفة يريد تنظيفها، فلا يُبقي أثراً للكلأ على وجه الأرض.

(٢) بمطلق اليمنى: أي لا تحجيل في قائمته. الفائق: موصل العنق في الرأس يقصد بذلك أنه طويل العنق. العبل: الضخم الجثة. الشوى: القوائم. المرافق، الواحد مرفق: موصل الذراع في العضد. يصف الشاعر مهره بجمال الشكل وتناسقه فجمع كلّ ما يُحمد في الفرس مثنياً فيه عليه.

(٣) رحب اللبان: واسع الصدر. نائه: عال. الطرائق: أي طرائق اللحم. الإطل: الخاصرة. اللاحق: الضامر. لا يزال الشاعر يتمّ وصف مهره، فيغالي في إتمام صورته، شأنه في ذلك شأن العربي منذ العصر الجاهلي، فهو يهوى المغالاة في وصف ما يُحبّ.

(٤) المحجّل من الخيول: الأبيض القوائم. النهد: الضخم العالي. الكميت: الأحمر المائل إلى السواد. الزاهق: الذي لا هو سمين ولا هو هزيل. الغرة: البياض في وجه الفرس. شدخت الغرّة: انتشرت وسالت سفلاً. الشارق: الشمس لحظة إشراقها.

(٥) و (٦) البارق: السحاب ينبثق منه البرق. البوغاء: التربة الرخوة. الشقائق، الواحدة =

خَـوْفُ ٱلْـجَـبَـانِ فـي فُـؤَادِ الْـعَـاشِـقِ
كَـأَنَّـهُ فـي رَيْـدِ طَـوْدٍ شَـاهِـقِ (١)
يَـشْـأَى إلـى الـمِـسْـمَـعِ صَـوْتَ الـنَّـاطِـقِ
لَـوْ سَـابَـقَ الـشَّـمْـسَ مِـنَ الـمَـشَـارِقِ (٢)
جَـاءَ إلـى الْـغَـرْبِ مَـجِـيءَ الـسَّـابِـقِ
يَـتْـرُكُ فـي حِـجَـارَةِ الأَبَـارِقِ (٣)
آثَـارَ قَـلْـعِ ٱلْـحَـلْـي فـي الـمَـنَـاطِـقِ
مَـشْـيـاً وَإنْ يَـعْـدُ فَـكَـالْـخَـنَـادِقِ (٤)
لَـوْ أُورِدَتْ غِـبَّ سَـحَـابٍ صَـادِقِ
لأَحْـسَـبَـتْ خَـوَامِـسَ الأَيَـانِـقِ (٥)

= شقيقة: الأرض ذات رمل وحصى. الأبردان: الغداة والعشي. الهجير: حرّ الظهيرة. الماحق: المُزيل. لا يزال الشاعر يصف مهره متحدّثاً عن لونه، إنه بلون البرق، ومن طبيعته القدرة على السير في كل الظروف، في السهل والوعر، في البرد وقيظ الهاجرة.

(١) ركض الفرس: ضربه برحله ليُسرع. الريد: الحرف البادي من جبل. الطود: الجبل الشديد الارتفاع. يُتابع الشاعر حديثه عن شدّة سرعة مهره؛ فالفارس الواثق من فروسيته وقيادته لفرسه، يُداخله خوف شديد لعدم قدرته عليه؛ فإذا قلبه ولهان كأنه قلب عاشق تخلّت عنه حبيبته وهجرته، أو كأنه مشرف على السقوط من حرف جبل عالٍ.

(٢) يشأى: يسبق. المسمع: الأذن. ولشدّة عدوه فإنه يسبق الصوت، وهو لذلك، قادر على سبق الشمس من مشرقها فيصل إلى مغربها قبل مغيبها.

(٣) و (٤) الأبارق: الواحد أبرق: هي آكام فيها حجارة وطين. المناطق، الواحدة منطق: ما يُشدّ بها الوسط. ولشدّة عدوه، فإنه قد يترك آثار قوائمه محفورة على الآكام الصلبة الصخرية، فتبدو كأنها فصوص الحلي في حال قلعها من أمكنتها، وقد يترك آثاراً كأنها خنادق محفورة.

(٥) غبّ: بعد. أحسبت: كفت. الخوامس من الإبل: هي التي ترعى أربعة أيام ثم ترد الماء في اليوم الخامس. الأينق: النياق. يصوّر الشاعر عظم طبع الأرض الناتج عن وطء قوائم مهره، فإذا بها تحتفظ بقسط كبير من مياه الأمطار التي سقطت على =

إذا ٱللِّجَامُ جَاءَهُ لِطَارِقِ
شَحَا لَهُ شَحْوَ الغُرَابِ النَّاعِقِ[(١)]

كَأَنَّمَا ٱلْجِلْدُ لِعُرْيِ النَّاهِقِ
مُنْحَدِرٌ عَنْ سِيَتَيْ جُلَاهِقِ[(٢)]

بَزَّ المَذَاكِي وَهْوَ فِي الْعَقَائِقِ
وَزَادَ فِي السَّاقِ عَلَى النَّقَانِقِ[(٣)]

وَزَادَ فِي الْوَقْعِ عَلَى الصَّوَاعِقِ
وَزَادَ فِي ٱلْأُذْنِ عَلَى ٱلْخَرَانِقِ[(٤)]

وَزَادَ فِي ٱلْحِذْرِ عَلَى الْعَقَاعِقِ
يُمَيِّزُ ٱلْهَزْلَ مِنَ ٱلْحَقَائِقِ[(٥)]

= الأرض، وقد كفّت السماء عن الهطول، فإذا بآثار حوافر مهره تمتلئ بما يروي عطش تلك النياق.

(١) الطارق: الحادث ليلاً. شحا: فتح فاه. الناعق: الصائح. وقد يضطر الشاعر إلى استعمال مهره لحادث طارئ ليلاً، فيضع له اللجام، فإذا به يفتح فاه كما يفعل الغراب الذي يُصوّت.

(٢) الناهق: عظم ناتئ في مجرى الدمع من الفرس. السية: ما عطف من طرف القوس. الجلاهق: البندق الذي يرمى به. وما يدلّ على فتوّة مهر الشاعر أن هذين العظمين منه عاريان من اللحم يبدوان تحت جلده كأنهما شدّا على سيتي قوس البندق.

(٣) بزّ: تفوّق. المذاكي: الخيل التي كملت قوّتها. العقائق، الواحدة عقيقة: الشعر الذي يكون مع الوليد ساعة ولادته فيُحلق. النقانق، الواحد نقنق: الظليم، ذكر النعام. لقد كان من أمر مهر الشاعر أنه تفوّق على الجياد القوية فسبقها، وما أفسح له المجال في ذلك قوائمه أطول من ساق النعام.

(٤) الخرانق، الواحد خرنق: ولد الأرنب. ولشدّة عدو المهر فإنه يُصدر صوتاً أقوى من الصوت الصواعق في الأيام الماطرة، فضلاً عن أن أذنيه شديدتا السمع تنتصبان لسماعه أدنى صوت، ولهذا فقد بزّ الخرنق الصغير في هذا المجال.

(٥) العقاعق، الواحد عقعق: ضرب من الغربان، يمدح الشاعر مهره بشدّة الحذر، فهو دائم التوقّع للمفاجآت من أي نوع كانت وبذا تفوّق على الغربان، لذا فإنه يُميّز بين صوت صاحبه إن أراد اللهو في الميدان أو أراد التوجّه إلى المعركة. فيتهيّأ نفسياً ممّا يدلّ على ذكائه الحادّ في هذا المجال.

وَيُـــنْـــذِرُ الـــرَّكْـــبَ بِـــكُـــلِّ سَـــارِقِ
يُـرِيـكَ خُـرْقـاً وَهْـوَ عَـيْـنُ الْـحَـاذِقِ (١)
يَـــحُـــكُّ أَنَّـــى شَـــاءَ حَـــكَّ الْـــبَـــاشِـــقِ
قُـــوبِـــلَ مِـــنْ آفِـــقَـــةٍ وَآفِـــقِ (٢)
بَـــيْـــنَ عِـــتَـــاقِ ٱلْـــخَـــيْـــلِ وَالْـــعَـــتَـــائِـــقِ
فَـعُـنْـقُـهُ يُـرْبِـي عَـلَـى الْـبَـوَاسِـقِ (٣)
وَحَـــلْـــقُـــهُ يُـــمْـــكِـــنُ فِـــتْـــرَ ٱلْـــخَـــانِـــقِ
أُعِـــدُّهُ لِـــلـــطَّـــعْـــنِ فِـــي الْـــفَـــيَـــالِـــقِ (٤)
وَالـــضَّـــرْبِ فِـــي ٱلأَوْجُـــهِ وَالْـــمَـــفَـــارِقِ
وَالـسَّـيْـرِ فِـي ظِـلِّ ٱلـلِّـوَاءِ ٱلْـخَـافِـقِ (٥)
يَـــحْـــمِـــلُـــنِـــي وَالـــنَّـــصْـــلُ ذُو الـــسَّـــفَـــاسِـــقِ
يَـقْـطُـرُ فِـي كُـمِّـى عَـلَـى الْـبَـنَـائِـقِ (٦)

---

(١) الخرق: الحمق. الحاذق: الماهر. وممَّا يدلّ على شدة ذكاء ذلك المهر فإذا حاول أحدهم السرقة صهل محذّراً قومه كي لا يقع المحذور، وهو رغم شدّة عدوه، فإنه يحترس فلا يُنفق قوّته بسرعة بل إنه يعدو بحسبان، فإذا ما اقتضت الأمور زيادة سرعة استجاب لذلك وهو مستريح قادر.

(٢) و (٣) أنى: كيف. الباشق: ضرب من جوارح الطير. قوبل: كرم من جهة الأبوين. الآمق من الخيل: الكريم من جهة أبويه. يصف الشاعر مهره بحبّه للنّظافة، لذا فإنه يحكّ جسده كما يحلو له كالباشق من جوارح الطيور، فضلاً عن أنه كريم الأبوين، فأبوه وأمه من أصول عريقة في عالم الخيول عتقاً وجمالاً، فضلاً عن أنه ذو عنق طويل يطاول ويزيد عن طول النخيل جمالاً وجلالاً.

(٤) و (٥) الفيالق، الواحد فيلق: الكتيبة من الجيش. يصف الشاعر مهره بدقّة العنق فمن الممكن أن يُطوّقه المرء بفتره، ولقد جهّزه صاحبه للجولان والصولان في ميادين القتال حيث يُلاقي كتائب الأعداء عليه، حيث يُواجه أعداءه بسيفه يضربهم في وجوههم فيفلق رؤوسهم على مفارقهم، وهو يسير تحت الرايات الخافقة التي يحركها الهواء دلالة على النصر.

(٦) النصل: شفرة السيف. سفاسف السيف: طرائقه. البنائق، الواحدة بنيقة: لبنة =

لا أَلْحَظُ الدُّنْيَا بِعَيْنَيْ وَامِقٍ،
وَلا أُبَالِي قِلَّةَ المُوَافِقِ[(١)]

أَيْ كَبْتَ كُلِّ حَاسِدٍ مُنَافِقِ
أَنْتَ لَنَا وَكُلُّنَا لِلْخَالِقِ[(٢)]

كريشة في مهب الريح

وورد الخبر بأن غلمان ابن كيغلغ قتلوه فقال:

[البسيط]

قَالُوا لَنَا: مَاتَ إِسْحَاقٌ فَقُلْتُ لَهُمْ:
هٰذَا الدَّوَاءُ الَّذِي يَشْفِي مِنَ ٱلْحُمُقِ[(٣)]

إِنْ مَاتَ مَاتَ بِلَا فَقْدٍ وَلَا أَسَفٍ،
أَوْ عَاشَ عَاشَ بِلَا خَلْقٍ وَلا خُلُقِ[(٤)]

مِنْهُ تَعَلَّمَ عَبْدٌ شَقَّ هَامَتَهُ
خَوْنَ الصَّدِيقِ وَدَسَّ الْغَدْرِ في المَلَقِ[(٥)]

وَحَلْفَ أَلْفِ يَمِينٍ غَيْرَ صَادِقَةٍ
مَطْرُودَةٍ كَكُعُوبِ الرُّمْحِ في نَسَقِ[(٦)]

= القميص. من مآثر ذلك المهر أنه يحمل صاحبه، وبيده سيفه يقطر من دماء الأعداء.

(١) لحظه: رمقه بمؤخر عينيه. الوامق: المحب. يخلص الشاعر إلى ذكر مبتغاه من الدنيا، إنه لا يأمل منها ولا يرنو إليها بعين محبّ عاشق، لأنها تذلّ من تبعها، والشاعر لا يرى أنها تُطاوعه فتسهل وصوله إلى المعالي، بل عليه أن يعمل على إدراك ذلك بهمّة دون الاعتماد على أحد، فهو قادر على ذلك بمفرده.

(٢) كبت: أذلّ. يُخاطب الشاعر مهره، إنه يُعينه على إذلال حساده بمساعدته وكبتهم، فهم يحسدونه على ذلك المهر، وكلاهما مصيرهما واحد يكلأهما برعايته وحمايته.

(٣) و (٤) تنامى إلى مسامع الشاعر أن إسحاق بن كيغلغ مات. فردّ بأن لا دواء إلى الأحمق إلّا الموت، فإنه يرتاح من سخرية الناس ويرتاح الناس من حمقه وغفلته. إنه هجاء أخلاقي مرّ أن ينعت امرؤ بالغباء والحمق. لذا فموت الرجل لا يشعر به الخلق وحياته لا تهمّ أحداً منهم لعدم فائدته للخلق، ولذا فهم لا يتأثّرون بموته وحياتهم تجري على وتيرتها.

(٥) و (٦) الهامة: الرأس. الخون: الخيانة. الملق: التودد الكاذب بحلو الحديث. لقد =

مَــا زِلْــتُ أَعْــرِفُــهُ قِــرْداً بِــلاَ ذَنَــبٍ
صِـفْـراً مِـنَ الْـبَـأْسِ مَـمْـلُـوءًا مِـنَ الـنَّـزَقِ[(١)]

كَــرِيــشَــةٍ بِــمَــهَــبِّ الــرِّيــحِ سَــاقِــطَــةٍ
لا تَــسْــتَــقِــرُّ عَــلَــى حَــالٍ مِــنَ الْــقَــلَــقِ[(٢)]

تَــسْــتَــغْــرِقُ الْــكَــفُّ فَــوْدَيْــهِ وَمَــنْــكِــبَــهُ
وَتَــكْــتَــسِــي مِــنْــه رِيــحَ الْــجَــوْرَبِ الْــعَــرِقِ[(٣)]

فَــسَــائِــلُــوا قَــاتِــلِــيــهِ كَــيْــفَ مَــاتَ لَــهُــمْ
مَــوْتــاً مِــنَ الــضَّــرْبِ أَوْ مَــوْتــاً مِــنَ الْــفَــرَقِ[(٤)]

وَأَيْــنَ مَــوْقِــعُ حَــدِّ الــسَّــيْــفِ مِــنْ شَــبَــحٍ
بِــغَــيْــرِ رَأْسٍ وَلا جِــسْــمٍ وَلا عُــنُــقِ[(٥)]

= شرب المهجو من كأس لطالما سقى بها غيره، مفادها مكر كاذب وملق خادع وغدر مموّه بودّ لئيم، ولقد سلك عبده معه ذات المسلك حتى تمكّن منه فغدر به كما كان يغدر بأصدقائه، إنه صنع يديه وتلميذه في الغدر، فقد أقسم أيماناً مغلظة بلغت ألفاً توالت كنسق رمح ذات كعوب، مموّه بفنون الكذب الملفق بحلو الحديث.

(١) و (٢) يتابع الشاعر، مؤكداً قسم القاتل أنه على معرفة لا شكّ فيها أن المهجو قرد يُضحك بحركاته وحديثه حتى المحزون فيزيل همّه، إنه جبان رعديد تُرهبه أقل همسة أو حركة، وإذا تصرّف في أمر ما بدا على حقيقته غبياً أبله، فبدا كريشة لا قيمة لها تتلاعب بها الريح كيفما اتفق لها، فلا تستقرّ في مكان، فالخوف يتملّكه فلا يدري كيف يتصرّف لينجو ممّا سبب لنفسه من ارتباك.

(٣) الفودان: جانبا الرأس. الجورب: لباس الأرجل. العَرِق: المبتل عرقاً. يصف الشاعر مهجوّه فيصفه وصفاً مسخيًّا تحقيراً له، إنه صغير الرأس قصير العنق، بشع الوجه، وفي حال صفع بأكفّ الصافعين تخرج أيديهم ملوّثة من نتن جسده، فيتبشعون ذلك ويتمنون لو لم يفعلوا ذلك.

(٤) و (٥) الفرق: شدّة الخوف. يطلب أن يُسأل قاتلوه، وهو يعلم أنه جبان رعديد كيف تمّ لهم ما فعلوه به، فهل مات خوفاً ورعباً أم مات من شدّة الضرب على قفاه؟ ثم يسألهم أين موقع السيف الذي أودى بحياته، إنه شبح وليس بإنسان كامل وطبيعي، فلا رأس له ولا جسم ولا عنق، إنه لا شيء، لا وجود: إنَّه مسخ عجيب.

لَـوْلَا ٱلـلِّـئَـامُ وَشَـيْءٌ مِـنْ مُـشَـابَـهَـةٍ
لَـكَـانَ أَلْأَمَ طِـفْـلٍ لُـفَّ فـي خِـرَقِ (١)
كَـلَامُ أَكْـثَـرِ مَـنْ تَـلْـقَـى وَمَـنْـظَـرُهُ
مِـمَّـا يَـشُـقُّ عَـلَـى الآذَانِ وَٱلْـحَـدَقِ (٢)

الغنى قبيح في يد اللئيم

يمدح أبا العشائر الحسن بن علي بن الحسين بن حمدان العدوي :

[الخفيف]

أَتُـرَاهَـا لِـكَـثْـرَةِ الْـعُـشَّـاقِ
تَـحْـسَـبُ الـدَّمْـعَ خِـلْـقَـةً فـي الـمَـآقـي (٣)
كَـيْـفَ تـرثِـي الـتـي تَـرَى كـلَّ جَـفْـنٍ
رَاءَهَـا غَـيْـرَ جَـفْـنِـهَـا غَـيْـرَ رَاقِـي (٤)
أَنْـتِ مِـنَّـا فَـتَـنْـتِ نَـفْـسَـكِ لَـكِـنَّـ
ـكِ عُـوفِـيـتِ مِـنْ ضَـنًـى وَاشْـتِـيَـاقِ (٥)

---

(١) الولد سرّ أبيه، فآباء إسحاق تشرّبوا اللؤم طبعاً، فتأصل في سلوكهم، والآباء قدوة الأبناء ينشئونهم كما تربّوْا؛ فالكل شركاء في لؤم الطباع، ولولا آباؤه لكان ألام طفل لُفَّ في خرق، حتى الخرق تدلّ على الخساسة بذاتها.

(٢) يشقّ: يصعب. الأحداق: العيون. إن ما يُوحيه من منظر يُوحي بالودّ، ولكن الحقيقة أن منطق إسحاق يُؤذي الآذان لما فيه من غثاثة في القول المغلف بالخبث، وما يُثير الاشمئزاز قماءة منظره وبشاعته.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. أترى: أتظنّ. المآقي، الواحد مؤق: مؤخر العين ممّا يلي الأنف، يسأل الشاعر صاحبه مستعلماً عن علم محبوبته إذا كانت تعتقد أن بكاء عشاقها لشدّة حبهم لها أن دموع هؤلاء في مآقيهم خِلقة جُبلوا عليها.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. راءها: مقلوب رآها. راقي؛ ورقأ الدمع: انقطع. يسأل الشاعر عن غادة حسناء ترى كلّ العيون دامعة فلا ترثي لحال أصحابها الذين تركتهم يتعذّبون لإهمالها لهم وهجرهم بينما كانت عيناها لا تدمعان، فكيف يمكنها أن تتألم لما يُعانون من الحرمان.

(٥) الضنى: الضعف والهزال. يُخاطب الشاعر محبوبته ويعتبرها نرجسيّة قد هامت بحبّ =

حُـلْـتِ دُونَ الْـمَـزَارِ فَـالْـيَـوْمَ لَـوْ زُرْ
تِ لَـحَـالَ الـنُّـحُـولُ دُونَ الْـعِـنَـاقِ (١)

إنَّ لَـحْـظـاً أَدَمْـتِـهِ وَأَدَمْـنَـا
كَـانَ عَـمْـداً لَـنَـا وَحَـتْـفَ اتِّـفَـاقِ (٢)

لَـوْ عَـدَا عَـنْـكِ غَـيْـرَ هَـجْـرِكِ بُـعْـدٌ
لأَرَارَ الـرَّسِـيـمُ مُـخَّ الْـمَـنَـاقِـي (٣)

وَلَـسِـرْنَـا وَلَـوْ وَصَـلْـنَـا عَـلَـيْـهَـا
مِـثْـلَ أَنْـفَـاسِـنَـا عَـلَـى الأَرْمَـاقِ (٤)

مَـا بِـنَـا مِـنْ هَـوَى الْـعُـيُـونِ الـلَّـوَاتِـي
لَـوْنُ أَشْـفَـارِهِـنَّ لَـوْنُ ٱلْـحِـدَاقِ (٥)

قَـصَّـرَتْ مُـدَّةَ الـلَّـيَـالِـي الْـمَـوَاضِـي
فَـأَطَـالَـتْ بِـهَـا ٱلـلَّـيَـالِـي الْـبَـوَاقِـي (٦)

= نفسها لإعجابها بما لديها من جمال خارق، فإذا بها تستهين بعشاقها، هم يتألمون وهي بمنأى عن الآلام في حالة مرضية وراحة بال.

(١) حلت: منعت. المزار: الزيارة. النحول: شدّة الضعف، يُخاطب الشاعر حبيبته. أنه كان من أسباب ما حلّ به من نحول أنها حالت دون زيارتها له، فلو زارته لما استطاعت عناقه لشدّة هزاله بسبب هجرها له.

(٢) تبادل الشاعر نظراته مع حبيبته، فإذا بها لا تبدي اهتماماً نحوه، بينما كانت نظرته إليها مؤذنة بهلاكه، لقد عشق فيها جمالها، والأمر كان صدفة لم يقصد رؤيتها.

(٣) و (٤) عدا: منع. أرار: أذاب. الرسيم: ضرب من سير الإبل. المناقي، الواحدة منقية: النياق السمان. يُخاطب الشاعر حبيبته معتذراً عن متابعة رحلة الحبّ معها إلى نهايتها؛ فالبعد بإمكان المرء ملاحقته، أما الهجر فلا يُمكن ملاحقته، ولكان أذاب مخ ناقته المكتنزة وتابع المسير بها، مهما كانت النتيجة، ومهما لحق به من هزال لشدّة شوقه إليها، وما بقي منه سوى بقية أنفاس تدلّ على بقيَّة حياة، حتى ناقته التي أجهدها طول السير المتواصل فلم يبق منها إلّا الدماء فكأنها أرماق.

(٥) و (٦) الأشفار، الواحد شفر: منبت الهدب. الحداق، الواحدة حدقة: سواد المقلة. يستغرب الشاعر من أن تلك العيون الكحلاء ذوات الجفون الذابلة السوداء الأحداق =

كَـاثَـرَتْ نَـائِـلَ الأمِـيـرِ مِـنَ الـمَـا
لِ بِـمَـا نَـوَّلَـتْ مِـنَ الإيـرَاقِ(١)
لَـيْـسَ إلَّا أبَـا الْـعَـشَـائِـرِ خَـلْـقٌ
سَـادَ هٰـذَا الأنَـامَ بـاسْـتِـحْـقَـاقِ(٢)
طَـاعِـنُ الـطَّـعْـنَـةِ الـتي تَـطْـعَـنُ الْـفَـيْـ
ـلَـقَ بـالـذُّعْـرِ وَالـدَّمِ الـمُـهَـرَاقِ(٣)
ذَاتُ فَـرْغٍ كـأنَّـهَـا فـي حَـشَـا الـمُـخْـ
ـبَـرِ عَـنْـهَـا مِـنْ شِـدَّةِ الإطْـرَاقِ(٤)
ضَـارِبُ ٱلْـهَـامِ فـي ٱلْـغُـبَـارِ وَمَـا يَـرْ
هَـبُ أنْ يَـشْـرَبَ الَّـذِي هُـوَ سَـاقِـي(٥)
فَـوْقَ شَـقَّـاءَ لِـلأشَـقِّ مَـجَـالٌ
بَـيْـنَ أرْسَـاغِـهَـا وَبَـيْـنَ الـصِّـفَـاقِ(٦)

= تسحر وتُصيب شغاف القلوب بسهام قاتلة، إنها تجعل ليالي المحبين سريعة في حال الوصل والتلاقي وتطيلها في حال الهجر والخصام، فتؤلم القلوب وتُدمع العيون.

(١) يتخلّص الشاعر من موضوع الغزل إلى مدح الأمير. لقد زادت حبيبة الشاعر في إخلافها المواعيد فلم تبذل وصلها وبالغت في حرمانه، أكثر من مال الأمير وعطاياه للشاعر.

(٢) الأنام: البشر. يُفضل الشاعر أبا العشائر فقد ساد الناس بجدارة وملك قلوبهم دون غيره من الأمراء.

(٣) و (٤) الفيلق: الجيش. الذعر: الخوف. المهراق: المصبوب. يمدح الشاعر ممدوحه بالقوّة؛ فإذا صوّب رمحه إلى صدر عدوّ له يخترق صدره بعنف، فإذا نزعه من صدره نفر الدم بعنف كنبع تفيض به روحه، ممّا يُثير رعب الجيش بأكمله فكأن الدماء تخرج من فرغ دلو، وإذا حُدّث عن تلك الطعنة امرؤ ما ظلّ مطرقاً، وقد أخذته رعدة الخوف حتى كأن الدماء تخرج من جوفه.

(٥) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يرهب: يخاف. يصف الشاعر قوّة ممدوحه، إنه يصول ويجول في ميدان المعركة، والغبار يتعالى في سمائها، فيُطيح بسيفه بالرؤُوس غير هيَّاب ولا يرهب الموت لأنه يسعى إلى تبوُّء ذُرى المجد.

(٦) الشقَّاء: الفرس الطويلة القوائم الرحبة الفروج. الأشقّ: الحصان الطويل. الأرساغ، =

مَــــا رَآهَــــا مُــــكَــــذِّبُ الــرُّسْـــلِ إلَّا
صَــدَّقَ الْـقَـوْلَ فـي صِـفَـاتِ الْـبُـرَاقِ[(١)]

هَـــمُّـــهُ فــي ذَوي الأسِــنَّــةِ لَا فِــيــهَــ
ـهَـا وَأَطْـرَافُـهَـا لَـهُ كَـالـنِّـطَـاقِ[(٢)]

ثَــاقِـبُ الـرَّأْيِ ثَـابِـتُ ٱلْـحِـلْـمِ لا يَـقْـ
ـدِرُ أَمْــرٌ لَــهُ عَــلَــى إقْــلَاقِ[(٣)]

يَـا بَـنِـي ٱلْـحَـارِثِ بْـنِ لُـقْـمَـانَ لا تَـعْـ
ـدَمْـكُـمُ فـي الْـوَغَـى مُـتُـونُ الْـعِـتَـاقِ[(٤)]

بَـعَـثُـوا الـرُّعْـبَ فـي قـلُـوبِ الأعَـادِ
يِّ فَـكَـانَ الْـقِـتَـالُ قَـبْـلَ الـتَّـلَاقِـي[(٥)]

= الواحد رسغ، الصفاق: جلد البطن. يصف الشاعر الأمير، وقد امتطى فرسه الشقّاء الطويلة القوائم الرحبة الفروج يصول ويجول عليها وسيفه يحصد الرؤوس، ولو أن حصاناً طويلاً جال بين قوائمها وبطنها لأمكنه ذلك بحرّية.

(١) البراق: دابّة ركبها رسول اللّه ﷺ ليلة المعراج، يضرب بها المثل لسرعتها الفائقة. ولتصوّر عظم سرعة تلك الفرس عمد الشاعر إلى مقاربتها إلى البراق تلك الدابّة العظيمة التي تشرّفت بركوب سيد العالمين عليه الصلاة والسلام متنها، إنها أسرع دابة ممّا خلق اللّه تعالى، فإذا رأى مكذب الرسل تلك الفرس آمن بأن رحلة النبي ﷺ على متن البراق حقيقيّة، وتلك من معجزات النبي ﷺ.

(٢) الأسنّة: الرماح. النطاق: ما تحيط به المرأة وسطها. وإذا توسط الأمير ميدان المعركة وأحاطت به الأبطال والفرسان من كلّ جانب فهمّه الوحيد أن يخطف أرواحهم لا أن يتلافى رماحهم لثقته بشجاعته وقوّته.

(٣) ثاقب الرأي: صائبه. الإقلاق: الإرباك. يمدح الشاعر الأمير بصواب رأيه ونفاذه، إنه يُسرع إلى مبادرة شؤونه إذا طرأ طارئ لا يتردّد في مواجهته بحزم فلا يرتبك ولا يقلق، وهو فضلاً عن ذلك يمتاز بالحلم وعدم التسرع مع الضعفاء فيُنكّل بهم بل يغفر لهم أخطاءهم.

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. الحارث بن لقمان: جدّ أبي العشائر. يدعو الشاعر مخاطباً آل الحارث بن لقمان أن تدوم لهم ساحات النضال، وهم يمتطون متون خيولهم وينتصرون على أعدائهم الذين تملّك الرعب =

وَتَـكَـادُ الـظُّـبَـى لِـمَـا عَـوَّدُوهَـا
تَـنْـتَـضِـي نَـفْـسَـهَـا إِلَـى الأَعْـنَـاقِ(١)
وَإِذَا أَشْـفَـقَ الْـفَـوَارِسُ مِـنْ وَقْـ
ـعِ الْـقَـنَـا أَشْـفَـقُـوا مِـنَ الإِشْـفَـاقِ(٢)
كُـلُّ ذِمْـرٍ يَـزْدَادُ فِـي الـمَـوْتِ حُـسْـنـاً
كَـبُـدُورٍ تَـمَـامُـهَـا فِـي الْـمُـحَـاقِ(٣)
جَـاعِـلٍ دِرْعَـهُ مَـنِـيَّـتَـهُ إِنْ
لَـمْ يَـكُـنْ دُونَـهَـا مِـنَ الْـعَـارِ وَاقِ(٤)
كَـرَمٌ خَـشَّـنَ الْـجَـوَانِـبَ مِـنْـهُـمْ
فَـهْـوَ كَـالْـمَـاءِ فِـي الـشِّـفَـارِ الـرِّقَـاقِ(٥)

= قلوبهم فاستولى عليها فإذا بهم ينهزمون نفسياً قبل لقاء آل الحارث بن لقمان.

(١) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. الظبى، الواحدة ظُبة: حدّ السيف. تُنتضى: تُسلُّ. وقوّة هؤلاء القوم أنهم قد عوّدوا سيوفهم أن تخرج بنفسها من أغمادها لتُغمد في أعناق أعدائهم، قبل أن يعمدوا هم أنفسهم إلى استعمالها، فكأنها تُقاتل عنهم.

(٢) أشفق: خاف، يمدح الشاعر في هؤلاء جلدهم وصبرهم في حروبهم، فإذا خاف الفرسان في مواطن الجلاد، وبدأوا يفرّون وجدت هؤلاء يثبتون في مواقعهم كالجبال الرواسي ويُقاتلون حتى تلوح بوادر النّصر، لذا فهم يخافون أن يُتهموا بالجبن إذا خرجوا من المعركة قبل انتصارهم.

(٣) و (٤) يروى «يزيد» بدلاً من «يزداد». الذمر من الرجال: الشجاع. المحاق: آخر ليالي القمر. يعمد الشاعر إلى ذكر قضية عظيمة الأهمية؛ فموت الناس العاديين أنهم يموتون على فراشهم، ينتهي أمرهم بانتهاء حياتهم، أما العظماء والأبطال؛ فهم كالقمر الذي تمّ ضوؤه وأدّى دوره في حياة البشر وترك أثراً محموداً في حياتهم؛ وهذا شأن الشهداء الأبطال الذين قضوا في ساحات النضال في سبيل أنبل قضايا الأمم، فهم شعاع لا يختفي شعاعه ويدوم ما دامت الحياة، وهؤلاء القوم من هذه الفئة لأنهم يطلبون المجد دائماً، ولهذا فدرع الواحد منهم بمثابة قبره، وليس في ذلك عار بل إنه شرف ومجد.

(٥) الشفار، الواحدة شفرة: حدّ السيف. الرقاق: السيوف الرقيقة الشفار. يمدح الشاعر =

وَمَــعَــالٍ إِذَا ٱدَّعَــاهَــا سِــوَاهُــمْ
لَــزِمَــتْــهُ جِــنَــايَــةُ الــسُّــرَّاقِ (١)

يَــا ابْــنَ مَــنْ كُــلَّــمَــا بَــدَوْتَ بَــدَا لِــي
غَــائِــبَ الــشَّــخْــصِ حَــاضِــرَ الأَخْــلَاقِ (٢)

لَــوْ تَــنَــكَّــرْتَ فــي الــمَــكَــرِّ لِــقَــوْم
حَــلَــفُــوا أَنَّــكَ ابْــنُــهُ بِــالــطَّــلَاقِ (٣)

كَــيْــفَ يَــقْــوَى بِــكَــفِّــكَ الــزِّنْــدُ وَالآ
فَــاقُ فِــيــهَــا كَــالْــكَــفِّ فــي الآفَــاقِ (٤)

قَــلَّ نَــفْــعُ الْــحَــدِيــدِ فــيــكَ فَــمَــا يَــلْــ
قَــاكَ إِلَّا مَــنْ سَــيْــفُــهُ مِــنْ نِــفَــاقِ (٥)

= القوم بالكرم، ممّا جعلهم قُساة على أعدائهم لأنهم يرفضون الذلّ والهوان، والكرم سمته لديهم لين كالماء يحيي القلوب ويُنعشها، فإذا سقيته سيوفهم شحذت شفارها واكتسبت قوّة وصلابة، فضلاً عن أن كرمهم يجمع مواطنيهم حولهم فيزيدونهم قوّة ليصدّوا أعداءهم عن غيهم.

(١) الجناية: الجرم. ولقد حصّلوا أمجاداً وعظمة، فلو أن غيرهم ادّعى ما وصلوا إليه لكان من السهل اتهامهم بالسرقة وجرم الادّعاء الكاذب.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه فرع من أب ترك سماته وأخلاقه وصفاته متجسّدة بمن خلفه، فكأنه لا يزال حيًّا يتحرّك بولده، ويتنفس به ويقوم بعظائم الأمور التي لطالما استهوته باستمرار، فلو كان الممدوح يجول ويصول في ميادين القتال، وقد تنكّر لتعرّف إليه أعداؤه وأقسموا أنه ابن أبيه لتشابه ما كان يفعله الوالد بهم قبل ابنه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. الآفاق، الواحد أفق: أقطار الدنيا. يسأل الشاعر ممدوحه متعجباً كيف استطاع أن يجمع أقطار الكون بيده رغم صغرها، فإذا بالدنيا تتقلّص حتى تمكن من إمساكها، ومن هنا كانت دهشة المتنبي بأن زنده قدر على حمل كفّه: فالكفّ تنوء عادة بما يُتعبها، ممّا يُوحي بعظم قدرة الممدوح، وذلك من مغالاة الشاعر.

(٥) يصف الشاعر موقف أعداء ممدوحه، وقد أيقنوا أنهم لن يقدروا على محاربته فلجأوا =

إلْـفُ هٰـذَا الْـهَـوَاءِ أَوْقَـعَ فـي الأَنْـ
ـفِ أَنَّ الْـحِـمَـامَ مُـرُّ الـمَـذَاقِ (١)

وَالْأَسَـى قَـبْـلَ فُـرْقَـةِ الـرُّوح عَـجْـزٌ
وَالْأَسَـى لَا يَـكُـونُ بَـعْـدَ الْـفِـرَاقِ (٢)

كَـمْ ثَـرَاءٍ فَـرَّجْـتَ بِـالـرُّمْـحِ عَـنْـهُ
كَـانَ مِـنْ بُـخْـلِ أَهْـلِـهِ فـي وِثَـاقِ (٣)

وَالْـغِـنَـى فِـي يَـدِ الـلَّـئِـيـم قَـبِـيـحٌ
قَـدْرَ قُـبْـحِ الْـكَـريـم فِـي الْإِمْـلَاقِ (٤)

لَـيْسَ قَـوْلِـي فِـي شَمس فِعْلِكَ كَـالـشَّمْـ
ـسِ وَلٰـكِـنْ كَـالـشَّـمْـسِ فِـي الْإِشْـرَاقِ (٥)

= إلى سلاح فتّاك؛ إنها المصانعة والممالأة: فسيف النفاق في هذه الحالة أكثر فتكاً، ويُثير في النفوس رقّة القلوب.

(١) و (٢) يُناقش الشاعر قضية الوجود الإنساني الذي رضي بالدون من الحياة وآثر السلامة وتخلّى عن كرامته، لأنه اعتقد أن الموت في ميادين النضال طعمه مرّ، فالحزن والخوف موت بطيء، والمرء يقضي حياته على هامش الحياة يشلّ إرادته عجز مفاده حبّ الحياة، فإذا مات ابن آدم فلا ينفع الحزن وقد آذنت حياته بالمغيب؛ إنه لا يستحقّ دمعة حزن.

(٣) الثراء: الغنى الفاحش. فرّجت: كشفت. الوثاق: القيد. ومن حسنات الممدوح أنه حتى في تخلّصه من أعدائه مفيد، فقد يكون العدوّ بخيلاً منع رفده وعطاءه حتى عن أقرب الناس كأولاده وأقربائه فإذا به يُخلّصهم من نجله بقتله، فإذا بأمواله تعود إلى الحياة وينتفع بها وارثوه.

(٤) الإملاق: الفقر والعوز. يُردف الشاعر تعقيباً على ما سبق أن البخل عادة ذميمة للغني، وذلك من لؤم طبعه الذي اعتاد عليه، وما يسيء للكريم أن الإملاق الحادث قد يضطرّه إلى التوقّف عن عادته في الكرم، ففاقد الشيء لا يُعطيه.

(٥) ثَمّة تلازم بين قول الشاعر، إنه دائم الإشراق والإشعاع، وبين أفعال الممدوح التي تُنير الكون لشجاعته وكرمه وعلمه وحسبه الأصيل.

شَاعِرُ الْمَجْدِ خِدْنُهُ شَاعِرُ اللَّفْـ
ـظِ كِلانَا رَبُّ الْمَعَانِي الدِّقَاقِ (١)

لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ الْمَدِيحَ وَلٰكِنَّ
صَهِيلَ الْجِيَادِ غَيْرُ النُّهَاقِ (٢)

لَيْتَ لِي مِثْلَ جَدِّ ذَا الدَّهْرِ في الْأَدْ
هُرِ أَوْ رِزْقِهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ (٣)

أَنْتَ فِيهِ وَكَانَ كُلُّ زَمَانٍ
يَشْتَهِي بَعْضَ ذَا عَلَى الْخَلَّاقِ (٤)

خالق الخلق خالق الخُلُق

ضرب أبو العشائر مضربه على الطريق وكثرت سُؤّاله فقال أبو الطيب:

[المنسرح]

لَامَ أُنَاسٌ أَبَا الْعَشَائِرِ فِي
جُودِ يَدَيْهِ بِالْعَيْنِ وَالْوَرِقِ (٥)

وَإِنَّمَا قِيلَ لِمْ خُلِقْتَ كَذَا
وَخَالِقُ الْخَلْقِ خَالِقُ الْخُلُقِ (٦)

---

(١) و (٢) الخدن: الصديق والصاحب. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه شاعر المجد، يُوحي بكلّ مكرمة عنوانها المجد الخالد، ويمدح نفسه بأنه يجسد تلك المعاني بحروف من نور، بشعره الخالد كذلك، ولقد التقى صديقان كلّ منهما يُكمل الآخر. إنه يسمع أشعار الشعراء الذين يمدحونه، وهو يستحقّ المدح لما يتمثّل فيه من الفضائل والمكرمات، ولكن المشكلة أن معظم المادحين لا يصلون إلى مستوى الشاعر الذي يجيد الصهيل بينما يُجيد غيره من الشعراء النهيق شأن سائر الحمير.

(٣) الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. يتمنّى الشاعر لو كان له حظّ كحظّ الممدوح، فالتوفيق يُحالفه دائماً، فالأرزاق تتدفّق عليه من حيث لا يحتسب طوال دهره.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. إنها نعم تتدفّق على الأمير، حتى الزمان يتمنّى لو حصل على النزر اليسير من تلك النعم من اللّٰه عزّ وجلّ.

(٥) و (٦) العين: يقصد بذلك الذهب. الورق: يقصد بذلك الفضة. من طبيعة الخلق أنهم =

قَــالُــوا أَلَــمْ تَــكْــفِــهِ سَــمَــاحَــتُــهُ
حَــتَّــى بَــنَــى بَــيْــتَــهُ عَــلَــى الــطُّــرُقِ(١)

فَــقُــلْــتُ إِنَّ الْــفَــتَــى شَــجَــاعَــتُــهُ
تُــرِيــهِ فِــي الــشُّــحِّ صُــورَةَ الْــفَــرَقِ(٢)

الــشَّــمْــسُ قَــدْ حَــلَّــتِ الــسَّــمَــاءَ وَمَــا
يَــحْــجُــبُــهَــا بُــعْــدُهَــا عَــنِ الْــحَــدَقِ(٣)

بِــضَــرْبِ هَــامِ الْــكُــمَــاةِ تَــمَّ لَــهُ
كَــسْــبُ الَّــذِي يَــكْــسِــبُــونَ بِــالْــمَــلَــقِ(٤)

كُــنْ لُــجَّــةً أَيُّــهَــا الــسَّــمَــاحُ فَــقَــدْ
آمَــنَــهُ سَــيْــفُــهُ مِــنَ الْــغَــرَقِ(٥)

= كثيراً ما ينتقدون ويلومون ما يعتقدون أنه غير مألوف، فإذا بهم يلومون أبا العشائر على كرمه، فإذا به ينثر ذهبه وفضته على المادحين والأصحاب، فهم يقولون مستغربين كيف خلق اللّه تعالى أبا العشائر كريماً، ومن كان كريماً لا يستطيع التصرّف خلاف طبيعته التي جبل عليها إنها أخلاق يُجمّل اللّه عزّ وجلّ خلقه بها ليميّزهم عن سواهم من البخلاء.

(١) ومن اعتراضات اللائمين أنهم يُنكرون على أبي العشائر أنه ابتنى بيتاً يقصده الناس على جانب الطريق كي لا يكون بينه وبينهم أيّ حاجب يحول دون لقائه بهم.

(٢) الشحّ: البخل. الفرق: الخوف الشديد. البخل والجبن صفتان تدلّان على أن صاحبهما يسيء الظن باللّه سبحانه وتعالى. يرد الشاعر على لائمي ممدوحه بأن الفتوّة الحقّة تعني الشجاعة والشجاعة خلاف الجبن والخوف من الفقر، لذا فإن البخل آفة الخوف من الفقر.

(٣) يأتي الشاعر بمثل مؤدّاه أن الشمس بسموّها وارتفاعها، ومع ذلك فضوء أشعّتها لا يمكن أن يختفي.

(٤) الهام، الواحد هامة: الرؤوس. الكماة، الواحد كميّ: المدجّج بالسلاح، إن مصادر كسب أبي العشائر تتأتّى له بمجالدة الكماة الأبطال، فإذا ما قضى عليهم حصل على الأموال التي يكتسبها الضعفاء بالتملّق والمداهنة.

(٥) يُخاطب الشاعر ممدوحه طالباً منه أن يبقى على كرمه، فليكن بحراً طامياً يُنفق كيفما =

ودهم خداع ودينهم نفاق

قال يمدحه وقد أمر له بفرس دهماء وجارية:

[الوافر]

أَيَــــدْرِي الــــرَّبْــــعُ أَيَّ دَمٍ أَرَاقَــــا
وَأَيَّ قُــلُــوبِ هَــذَا الــرَّكْــبِ شَــاقَــا[(١)]

لَــنَــا وَلأَهْــلِــهِ أَبَــداً قُــلُــوبٌ
تَــلاَقَــى فِــي جُــسُــومٍ مَــا تَــلاَقَــى[(٢)]

وَمَــا عَــفَــتِ الــرِّيَــاحُ لَــهُ مَــحَــلاًّ
عَــفَــاهُ مَــنْ حَــدَا بِــهِــمِ وَسَــاقَــا[(٣)]

فَــلَــيْــتَ هَــوَى الأَحِــبَّــةِ كَــانَ عَــدْلاً
فَــحَــمَّــلَ كُــلَّ قَــلْــبٍ مَــا أَطَــاقَــا[(٤)]

= اتّفق له، فإن الفقر لن يستقرّ في دياره، لأنه قادر على تحصيل المال بسيفه، وكلّما أنفق مالاً حصّل أضعافه بسيفه فأمن الغرق في بحر العوز.

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. أراق: سفك. الركب: جماعة الراحلين. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لقد وقف على طلل، إنها بقايا الربع حيث تعرّف إلى مالكة قلبه، وكان الهجر والفراق، وشاءت الظروف أن يمرّ الشاعر بتلك الديار التي خلت من ساكنيها، فإذا بالشوق يُحيي ذكريات حلوة مضت، مما فتّح جروحات كانت قد اندملت، فإذا بدماء قلبه المشتاق تتدفّق، ولقد سفكتها حبيبته.

(٢) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٨٧. لغة القلوب المحبّة تتلاقى على الودّ والإخلاص؛ ففي قلبي الحبيبين مشاعر من الحبّ الفياض ولكنهما لا يلتقيان؛ وهذا يُسبب ألماً للشاعر.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٨٤. عفت: محت. يعزو الشاعر ما ألمّ بتلك الديار من تغيّر معالمها، لم تسببه الرياح التي عادة ما تبدّل معالم الديار، ولكن المسبب الحقيقي أن الحداة آذنوا بالرحيل، فإذا بتلك الديار يلفها شيء من الوحشة والسكون الحزين.

(٤) يتمنّى الشاعر لو أن الحبّ كان مُنصفاً، فقد جار عليه وحمّله فوق ما يُطيق، فقلبه ينوء بحمل ثقيل، فقد ملك عليه الحبّ وجدانه.

نَظَرْتُ إِلَيْهِم وَالْعَيْنُ شَكْرَى
فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا[(١)]

وَقَدْ أَخَذَ التَّمَامَ الْبَدْرُ فِيهِمْ
وَأَعْطَانِي مِنَ السَّقَمِ الْمُحَاقَا[(٢)]

وَبَيْنَ الْفَرْعِ وَالْقَدَمَيْنِ نُورٌ
يَقُودُ بِلَا أَزِمَّتِهَا النِّيَاقَا[(٣)]

وَطَرْفٌ إِنْ سَقَى الْعُشَّاقَ كَأْساً
بِهَا نَقْصٌ سَقَانِيهَا دِهَاقَا[(٤)]

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الأَبْصَارُ فِيهِ
كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا[(٥)]

---

(١) شكرى: مليء بالدموع. المآق: طرف العين ممّا يلي الأنف. لقد عادت الذكريات بالشاعر إلى الوراء يوم رحيل الأحبَّة؛ إنه يستظل نخلة في منعطف الطريق وينظر إلى الموكب وهو على وشك الرحيل، وهو لا يقدر على تغيير مجريات الأمور، فالأمر ليس بيده والأقدار تسوق الأحداث، وفي هذه الحالة ليس لديه إلَّا الاستسلام للمصير والبكاء الذي ينحدر على خديه، حتى لقد غطّى الدمع مآقيه.

(٢) المحاق: ما تبقى من القمر في آخر الشهر القمري. التمام: البدر يوم اكتماله. لقد حملت حبيبة الشاعر معها الإشراق والضياء لجمال طلعتها، ولم تبق للشاعر سوى المحاق الذي يعني الضعف والمرض في نهاية الشهر القمري.

(٣) الفرع: الشعر. الأزمة، الواحد زمام: الرسن تُقاربه الدَّابة. يصف الشاعر أثر حبيبته في الظاعنين؛ إنها نور يُسيّر النياق بلا استعمال أزمّتها، فشعرها مشعّ حتى قدماها كذلك، فوجهها إنه ضياء قمر يهتدي بنوره الموكب، فإذا بظلمة الليل تنقشع عن جمال حبيبة الشاعر.

(٤) دهاق: ممتلئ. يتغزّل الشاعر بعيني حبيبته إنهما ساحرتان تسقيان العاشقين كأساً ناقصة، بينما يستقي الشاعر من عينيها كأساً مترعة، ممَّا يجعله أكثر العشّاق عشقاً لها.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٠. إنها ذات خصر نحيل ينسجم مع جسدها، فإذا بعيون عشّاقها تتسمّر به إعجاباً وتحيطه من كلّ جانب فيبدو كالنطاق يلفّها من كلّ جانب.

سَلِي عَنْ سِيرَتِي فَرَسِي وَسَيْفِي
وَرُمْحِي وَالْهَمَلَّعَةَ الدِّفَاقَا[١]
تَرَكْنَا مِنْ وَرَاءِ الْعِيسِ نَجْداً
وَنَكَّبْنَا السَّمَاوَةَ وَالْعِرَاقَا[٢]
فَمَا زَالَتْ تَرَى وَاللَّيْلُ دَاجٍ
لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ المَلِكِ ائْتِلَاقَا[٣]
أَدِلَّتُهَا رِيَاحُ المِسْكِ مِنْهُ
إِذَا فَتَحَتْ مَنَاخِرَهَا ٱنْتِشَاقَا[٤]
أَبَاحَكِ أَيُّهَا الْوَحْشُ الأَعَادِي
فَلِمْ تَتَعَرَّضِينَ لَهُ الرِّفَاقَا[٥]
وَلَوْ تَبَّعْتِ مَا طَرَحَتْ قَنَاهُ
لَكَفَّكِ عَنْ رَذَايَانَا وَعَاقَا[٦]

---

(١) الهملعة: الناقة السريعة. الدفاق: المتدفقة في سيرها. يُخاطب الشاعر حبيبته ليُثير إعجابها، إنه مثال المحارب الشجاع، يسير وحيداً في المفاوز والصحاري، ممتطياً حصانه يندفع بسرعة عظيمة، وسلاحه رمح وسيف وتصحبه ناقة تندفق مسرعة إلى جانبه.

(٢) العيس: الإبل البيضاء. نكبنا: ملنا عن. السماوة: بادية تقع بين العراق والشام. يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه، فقد ترك نجداً خلفه ومرّ ببادية السماوة وطريق العراق قاصداً حلب موطن الممدوح.

(٣) و (٤) الليل الداجي: المظلم. الائتلاق: التوهّج. يصف الشاعر سير العيس في عتمة الليل الشديدة الظلمة، ولكنها تستهدي بشعاع وضّاء جميل، إنه وجه سيف الدولة، فإذا بها تنهب الأرض لإدراك ذلك الضياء، وتنعم بالمسك طيباً ينبعث من أردافه فتستنشق عبيراً يملأ خياشيمها ويحدّد وجهة سيرها.

(٥) يُخاطب الشاعر الوحوش الضارية، وقد اعترضت طريقه، فإذا به يُذكّرها بفضائل ممدوحه عليها، إنه وفّر لها الطعام بكثرة لكثرة ما قتل من الأعداء المناوئين والحاقدين الذين يخفرون ذمّته.

(٦) القنا: الرماح، الرذايا، الواحدة رذية: الناقة المهزولة لكثرة السير. ويُردف الشاعر =

وَلَوْ سِرْنَا إلَيْهِ فِي طَرِيقٍ
مِنَ النِّيرَانِ لَمْ نَخَفِ احْتِرَاقَا[(١)]

إمَامٌ لِلأئِمَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ
إلَى مَنْ يَتَّقُونَ لَهُ شِقَاقَا[(٢)]

يَكُونُ لَهُمْ إذَا غَضِبُوا حُسَاماً
وَلِلْهَيْجَاءِ حِينَ تَقُومُ سَاقَا[(٣)]

فَلَا تَسْتَنْكِرَنَّ لَهُ ابْتِسَاماً
إذَا فَهِقَ الْمَكَرُّ دَماً وَضَاقَا[(٤)]

فَقَدْ ضَمِنَتْ لَهُ الْمُهَجَ الْعَوَالِي
وَحَمَّلَ هَمَّهُ الْخَيْلَ الْعِتَاقَا[(٥)]

إذَا أُنْعِلْنَ فِي آثَارِ قَوْمٍ
وَإنْ بَعُدُوا جَعَلْنَهُمُ طِرَاقَا[(٦)]

= كلامه مخاطباً تلك الوحوش أنها لو تتبّعت ما طرحت رماحه من القتلى في الأرض لكفاها ذلك ومنعها عن ملاحقة مطايا الشاعر ولاكتفت بما يرميه لها من ضحاياه.

(١) ولشدّة سطوة الممدوح ينعدم الخوف من قلوب قاصديه؛ لذا فلو أن الشاعر خاض طريقاً محفوفاً بالأخطار، والنيران تستعرّ فيه لعبره ولم يتطرّق الفزع إلى قلبه لإيمانه بأن النيران تخاف سطوته.

(٢) و (٣) يمدح الشاعر سيف الدولة بأنه إمام لبني العباس، خلفاء بغداد من قريش، إنه يقطع دابر من يُناوئهم، فهو قادر وقويّ، وهم يُقدّرونه ويرفعون من مكانته، فبه يُقاتلون، وهو سيفهم به يبطشون بأعدائهم إذا غضبوا، وإذا دارت رحى الحرب كان بمثابة ساقها لا غناء عن الاستعانة به في الملمات الصعبة.

(٤) و (٥) الفهق: الامتلاء. المكرّ: ساحة الحرب. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه واثق بقوّته فالنصر حليفه، لذا فإنه يُقاتل والبسمة تعلو ثغره، فقلبه لا يعرف الخوف، ومهما كان أعداؤه أقوياء فإنهم طعم لسيفه مهما تكاثروا عليه وضاقت مجالات المصاولة، فدماؤهم تغطّي سلاحه، وخيوله العتاق الكريمة قد ضمنت أرواحهم، وقتال القوم لا يُكلّفه مالاً لذا فهو يبتسم باستمرار.

(٦) إنعال الخيل: تصفيح أيديها بحدوات الحديد. يتحدّث الشاعر عن أفعال تلك الخيول =

وَإِنْ نَـقَـعَ الـصَّـرِيـخُ إِلَـى مَـكَـانٍ
نَـصَـبْـنَ لَـهُ مُـؤَلَّـلَـةً دِقَـاقَـا[(١)]
فَـكَـانَ الـطَّـعْـنُ بَـيْـنَـهُـمَـا جَـوَابـاً
وَكَـانَ الـلَّـبْـثُ بَـيْـنَـهُـمَـا فُـوَاقَـا[(٢)]
مُـلَاقِـيَـةً نَـوَاصِـيـهَـا الـمَـنَـايَـا
مُـعَـوَّدَةً فَـوَارِسُـهَـا الـعِـنَـاقَـا[(٣)]
تَـبِـيـتُ رِمَـاحُـهُ فَـوْقَ الْـهَـوَادِي
وَقَـدْ ضَـرَبَ الْـعَـجَـاجُ لَـهَـا رِوَاقَـا[(٤)]
تَـمِـيـلُ كَـأَنَّ فـي الْأَبْـطَـالِ خَـمْـراً
عُـلِـلْـنَ بِـهَـا ٱصْـطِـبَـاحـاً وَاغْـتِـبَـاقَـا[(٥)]

= الكريمة في حال ملاحقة سيف الدولة لأعدائه؛ إنها تدوسهم وهم معفرون بالتراب، فإذا بها تنتعل بلحومهم ودمائهم وإن طال بعدهم، فلا بدّ من إدراكهم.

(١) و (٢) نقع: رفع صوته. الصريخ: المستنجد. المؤلّلة: المحدّدة يقصد بذلك آذان الخيول. إنها خيول مُدرّبة على سرعة الاستجابة، فإذا سمعت المستنجدين طلباً للمساعدة نصبت آذانها المرهفة السمع، فقد اعتادت على تلبية الدعوة وإغاثة الملهوف، ولو لم تكن الدعوة إليها للبّت دون تردّد نداء الاستغاثة بسرعة عجيبة وذلك بمقدار فواق ناقة أي مقدار ما بين الحلبتين، فإذا بالخيل تخوض غمار حرب بين جند الأمير والمغيرين.

(٣) النواصي، الواحدة ناصية: مقدمة شعر الرأس. المنايا: الموت. العناق: معانقة الأبطال في الحرب. تتلاحق الصور بسرعة عجيبة؛ سرعان ما يصل الأبطال ويكون ضرب السيوف وطعن بالرماح والخيول تواجه رماح الأعداء وتُحسن المناورة فتتلافى طعانهم، وسرعان ما تنكشف المعركة عن انتصار جند سيف الدولة الذين يُعانقون بعضهم بعضاً فرحين بسلامتهم من أي أذًى، فرحين بانتصارهم.

(٤) الهوادي: يقصد بذلك أعناق الخيل. العجاج: الغبار. إنه في حال استعداد دائماً، لذا فرماحه معروضة فوق أعناق خيوله، وهو يتّخذ من ظلمة الليل ستاراً ومن الغبار المتصاعد في جوّ المعركة ليفاجئ عدوّه، وذلك من شدّة حذره.

(٥) العلل: الشرب مرة بعد مرة. الاصطباح والاغتباق: الشرب صباحاً ومساءً. يصف =

تَـعَـجَّـبَـتِ الـمُـدَامُ وَقَـدْ حَـسَـاهَـا
فَـلَـمْ يَـسْـكَـرْ وَجَـادَ فَـمـا أَفَـاقَـا(١)

أَقَـامَ الـشِّـعْـرُ يَـنْـتَـظِـرُ الْـعَـطَـايَـا
فَـلَـمَّـا فَـاقَـتِ الأَمْـطَـارَ فَـاقَـا(٢)

وَزَنَّـا قِـيـمَـةَ الـدَّهْـمَـاءِ مِـنْـهُ
وَوَفَّـيْـنَـا الْـقِـيَـانَ بِـهِ الـصَّـدَاقَـا(٣)

وَحَـاشَـا لارْتِـيَـاحِـكَ أن يُـبَـارَى
وَلِـلْـكَـرَمِ الَّـذِي لَـكَ أنْ يُـبَـاقَـى(٤)

وَلَـكِـنَّـا نُـدَاعِـبُ مِـنْـكَ قَـرْمـاً
تَـرَاجَـعَـتِ الْـقُـرُومُ لَـهُ حِـقَـاقَـا(٥)

= الشاعر حالة تلك الرماح التي تعبّ من دماء الأعداء في كلّ مساء وصباح، فإذا بها تتمايل سكرى بتلك الدماء فضلاً عن ليونتها. ويتبيّن أن سيف الدولة كان دائم الاستعداد والإغارةِ على أعدائه ليل نهار.

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١ : ١٦٠. المدام: من أسماء الخمرة. حساها: شربها. لقد داخل العجب والدهشة الخمرة من سيف الدولة الذي اعتاد شربها فلم تؤثر به، فعقله راسخ ثابت قوي، وهو دائم السكر لجوده؛ فتلك عادة أصيلة فيه.

(٢) لقد كان الشعراء يقصدون الممدوح، فاستجاب لرغبتهم فدرّ عليهم نعمه وعطاياه، فإذا بالشعر يزهو ويزدهر في رحابه ويكثر ممدوحوه.

(٣) الدهماء: يقصد الفرس الأسود. القيان، الواحدة قينة: الجارية المغنية. الصداق: مهر المرأة عند الزواج. ينوّه الشاعر بعطاء سيف الدولة، فقد أنعم عليه بفرس سوداء وقينة، فكان أن مدحه الشاعر مقابل ذلك شاكراً له صنيعه.

(٤) حاشا: تفيد الاستثناء والاستبعاد. الارتياح: تحرّك قريحته. يُبارى: يُجارى. يباقى: يُغالب في البقاء. يسمو الشاعر بأريحية ممدوحه؛ فكرمه لا يُقاس بالشعر، وجوده يفوق جود سواه، لذا فجوده وكرمه بفضل ما يُنشد من شعر أبقى وأدوم من شعر الشعراء، ولو رجعنا إلى حقيقة لوجدنا أن الشعر أدوم وأبقى، بدليل أننا لا نزال نقرأه وقد مضت مئات السنين على أصحابه.

(٥) القرم من الجمال: الفحل، الحقاق، الواحدة: حِقَّة من النوق: التي دخلت في السنة =

فَــتَــى لَا تَــسْــلُــبُ الْــقَــتْــلَــى يَــدَاهُ
وَيَــسْــلُــبُ عَــفْــوُهُ الْأَسْــرَى الْــوِثَــاقَــا[(١)]

وَلَــمْ تَــأْتِ ٱلْــجَــمِــيــلَ إِلَــيَّ سَــهْــواً
وَلَــمْ أَظْــفَــرْ بِــهِ مِــنْــكَ ٱسْــتِــرَاقَــا[(٢)]

فَــأَبْــلِــغْ حَــاسِــدِيَّ عَــلَــيْــكَ أَنِّــي
كَــبَــا بَــرْقٌ يُــحَــاوِلُ بِــي لَــحَــاقَــا[(٣)]

وَهَــلْ تُــغْــنِــي الــرَّسَــائِــلُ فِــي عَــدُوٍّ
إِذَا مَــا لَــمْ يَــكُــنَّ ظُــبَــى رِقَــاقَــا؟![(٤)]

إِذَا مَــا الــنَّــاسُ جَــرَّبَــهُــمْ لَــبِــيــبٌ
فَــإِنِّــي قَــدْ أَكَــلْــتُــهُــمُ وَذَاقَــا[(٥)]

فَــلَــمْ أَرَ وُدَّهُــمْ إِلَّا خِــدَاعــاً
وَلَــمْ أَرَ دِيــنَــهُــمْ إِلَّا نِــفَــاقَــا[(٦)]

= الرابعة من عمرها. يتصاغر الشاعر أمام ممدوحه، فممدوحه بمثابة الفحل الكريم القوي، بينما يبدو الشاعر وما حصل عليه من عطايا كحقة مقابل ذلك الفحل.

(١) لقد أدرك سيف الدولة سموّ الأخلاق؛ إنه لا يسلب قتلاه ما عليهم ترفعاً عن صغائر كهذه، بل إنه يصل به أن يعفو عن أسراه فيفك قيودهم بيديه ويُعيد لهم حريتهم وكرامتهم، فيُخلي سبيلهم.

(٢) إنها معادلة وتبادل مصالح، فقد جاد سيف الدولة، وهو بوعي كامل، لا غفلة فيه؛ وتلك طبيعته وعادته في حياته، كما أن الشاعر لم يسرق ما حصل عليه، لقد أشاد بصاحب تلك المكرمة فاستحقّ التكريم والمديح.

(٣) يطلب الشاعر من ممدوحه أن ينقل رسالته إلى حاسديه في سيف الدولة أنهم لن يقدروا على اللحاق به، فقد كانت مباراة بينه وبين البرق، فرغم سرعته الفائقة فقد تفوّق عليه، ولم يستطع اللحاق، وبالتالي فإنهم لن يبلغوا شأوه ولن يتغلّبوا عليه.

(٤) الظبى، الواحدة ظبة: حدّ السيف. وما يُصوّر حنق الشاعر وغضبه أن الرسالة لا تسدّ رمقه بل يشفي غليله سيوف تفتك بحاسديه ليرتاح منهم.

(٥) و (٦) اللبيب: العاقل الفطن. يعبّر الشاعر عن معرفة بالبشر؛ فاللبيب يعرف أحوالهم ويُقاربها عن كثب؛ إنه يتذوّق ودّهم، ولكن الشاعر أكل ما لديهم فعرف طعم الأسى =

يُــقَــصِّـــرُ عَــنْ يَــمــيــنِــكَ كُــلُّ بَــحْــرٍ
وَعَــــمَّــــا لَــــمْ تُــــلِــــقْــــهُ مَــــا ألاقَــــا[١]
وَلَـــوْلَا قُـــدْرَةُ ٱلْـــخَـــلَّاقِ قُـــلْـــنَـــا
أَعَــمْــداً كَــانَ خَــلْــقُــكَ أمْ وِفَــاقَــا[٢]
فَــلَا حَــطَّــتْ لَــكَ الْــهَــيْــجَــاءُ سَــرْجــاً
وَلَا ذَاقَــتْ لَــكَ الــدُّنْــيَــا فِــرَاقَــا[٣]

أراه غباري ثم قال له الحق

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر الفداء الذي طلبه رسول ملك الروم وكتابه إليه:
[الطويل]

لِـعَـيْـنَـيْـكِ مَـا يَـلْـقَـى الْـفُـؤَادُ وَمَـا لَـقِـي
وَلِـلْـحُـبِّ مَـا لَـمْ يَـبْـقَ مِـنِّـي وَمَـا بَـقِـي[٤]

= والغدر والكفران، فقد ظهر له زيفهم، فودّهم خداع وغش، حتى دينهم بمظهره نفاق مغلّف بممارسات فارغة من مضمون الإيمان الصحيح.

(١) يفضل الشاعر ممدوحه، فيمناه تقطر كرماً لا يُساويه كل ما تُقدّمه البحار من عطاء، لذا فهو أكرم منها، وفي المقابل ما يبقيه في خزائنه رغم كثرته، فهو أقل ممَّا ينفقه؛ وذلك سرّ عظمته.

(٢) إن في الأمر سرًّا حمل الشاعر ليتساءل عن سبب عظمة ممدوحه، فإذا به يردّ الأمر إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى، إنه يخلق من يشاء كما يشاء، فهل كان الأمر عمداً أم أنها المصادفة والأقدار التي بعثت سيف الدولة في ظروف كانت الأمة بحاجة لمثله؟

(٣) الهيجاء: الحرب. يدعو الشاعر بطول العمر لممدوحه آملاً أن يبقى بطل الساح يصول ويجول ممتطياً حصانه وأن يحيا في هذه الدنيا فلا يُفارقها.

(٤) يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لغة العيون تكشف ما في القلوب رسائل لا يفهمها إلّا من يستطيع قراءتها ويفسّر ألغازها. لقد عزف الشاعر عن النساء، ولكن حدثاً مفاجئاً جعله يعدل عن ذلك؛ إنها عيون ساحرة ترمي سهامها بلا رحمة، فتُصيب من تُصيب في مقاتله، فيستسلم بلا مقاومة، وإذا لم يجد تجاوباً كان البلاء، فنحول جسم، وشرود عقل ودموع وبكاء.

وَمَـا كُـنْـتُ مِـمَّـنْ يَـدْخُـلُ الْـعِـشْـقُ قَـلْـبَـهُ
وَلَـكِـنَّ مَـنْ يُـبْـصِـرْ جُـفُـونَـكِ يَـعْـشَـقِ (١)

وَبَـيْـنَ الـرِّضَـا وَالـسُّـخْـطِ وَالـقُـرْبِ وَالـنَّـوَى
مَـجَـالٌ لِـدَمْـعِ الـمُـقْـلَـةِ الـمُـتَـرَقْـرِقِ (٢)

وَأَحْـلَـى الْـهَـوَى مَـا شَـكَّ فِـي الْـوَصْـلِ رَبُّـهُ
وَفِـي الْـهَـجْـرِ فَـهْـوَ الـدَّهْـرَ يَـرْجُـو وَيَـتَّـقِـي (٣)

وَغَـضْـبَـى مِـنَ الإِدْلَالِ سَـكْـرَى مِـنَ الـصِّـبَـى
شَـفَـعْـتُ إِلَـيْـهَـا مِـنْ شَـبَـابِـي بِـرَيِّـقِ (٤)

وَأَشْـنَـبَ مَـعْـسُـولِ الـثَّـنِـيَّـاتِ وَاضِـحٍ
سَـتَـرْتُ فَـمِـي عَـنْـهُ فَـقَـبَّـلَ مَـفْـرِقِـي (٥)

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ١٩٥، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٩١، ٦٠٥. يتابع الشاعر أنه كان عازفاً عن النساء، لا يصبو إليهن، ولكن عيني حبيبته الساحرتين سلبته مقاومته، فإذا به يستسلم لسحرهما، حتى من لا يشعر بأدنى إحساس نحو النسوة يذوب عشقاً ووجداً لأجل عينيها، فكيف بالشاعر؟!

(٢) النوى: البعد، المترقرق: الدمع على وشك الانهمار. يُصوّر الشاعر حاله، فالبكاء لغة الحرمان، يُحاول إرضاء حبيبته، ويخاف غضبها، وهو يتأرجح بين الوصل والهجر، وهذا ما يزيد آلامه فيحاول إمساك دموعه التي تتغلغل في عينيه، وقد يغلبه دمعه فينهمر.

(٣) ربّه: صاحبه. يتّقي: يجتنب. يرى الشاعر أن روعة الحبّ تكمن في أن توقّع حصول لقاء الحبيبة عذاب عذب، وللترقّب طعم لذيذ، والتوقّع يُثير في النفس خيالات وآمالاً، باغتنام فرصة عزيزة على القلب، ولكن في حالة حصوله يفقد المرء روعة الإحساس وخصوصاً بعد طول إعراض.

(٤) ريّق الشباب: أوله. يرى الشاعر أن حبيبته تصطنع الغضب دلالاً لتكتشف مدى حبّه لها؛ يحقّ لها ذلك، إنها في ميعة الصّبى، سكرى بجمالها تزهو بما هي عليه تختال وكأنها تقدّم للحياة شيئاً جديداً طرأ على الكون، فأنار جنباته، وتلك مشكلة الشاعر، فذلك يزيده تعلقاً بها وحبًّا لها.

(٥) الأشنب: الأبيض الأسنان المعسولة. الثنيات: الأسنان التي في مقدم الفم. المفرق: =

وَأَجْـيَـادِ غِـزْلَانٍ كَـجِـيـدِكِ زُرْنَـنِـي
فَـلَـمْ أَتَـبَـيَّـنْ عَـاطِـلاً مِـنْ مُـطَـوَّقِ (١)
وَمَـا كُـلُّ مَـنْ يَـهْـوَى يَـعِـفُّ إذَا خَـلَا
عَفَافِي وَيُرْضِي الْحُبَّ وَالْخَيْلُ تَلْتَقِي (٢)
سَقَـى ٱللَّـهُ أَيَّـامَ الـصِّبَـى مَـا يَـسُـرُّهَـا
وَيَـفْـعَـلُ فِـعْـلَ الْـبَـابِـلِـيِّ الـمُـعَـتَّـقِ (٣)
إذَا مَـا لَـبِـسْـتَ الـدَّهْـرَ مُـسْـتَـمْـتِـعاً بِـهِ
تَـخَـرَّقْـتَ وَالـمَـلْـبُـوسُ لَـمْ يَـتَـخَـرَّقِ (٤)

= موضع افتراق شعر الرأس. يصف الشاعر ترفّعه عن الخنى، لقد كان لقاء حبيبة ذات فم عذب المذاق، تنتظم أسنانها لؤلئية تبثّ رضاباً حلو المذاق يُغري بالقبل وينير وجهاً يشعّ نضرة وجمالاً، إنها ساعة امتحان عسير نجح فيها الشاعر فصان فمه وامتنع عن الفحشاء فإذا بفتاته تقبل رأسه حناناً وتقديراً لشهامته.

(١) الأجياد، الواحد جيد: الأعناق، العاطل: من لا حلي له. المطوّق: من طوّقت جيدها بالحلي. يُعقب الشاعر على ما سبق أنه عفّ ولم يقرب زنى، رغم كثرة النسوة الجميلات كأنهن غزلان من اللواتي زرنه؛ إنه لم يعرف إذا ما كنّ عاطلات لا يتحلّين بالحلي أو مطوقات جيادهن بالعقود والحلي.

(٢) الحِبّ، بكسر الحاء: المحبوب. ويُردف الشاعر منوّهاً بعفافه أنه ليس كلّ محبّ عفيفاً، فإذا خلا بمن يُحبّ أفحش وارتكب الموبقات والزنى إنه لم يقدم على ذلك، بل إنه يُحاول أن يُرضي محبوبته بإظهار شجاعته في ميادين القتال؛ وهذا ما يُعجب المرأة العربية من حبيبها.

(٣) البابلي: الخمرة المعتّقة في بابل، يدعو الشاعر بالسقيا لأيام الشباب الغضّ، إنها أيام سرور وانطلاق في عالم الفتوّة، ففعلها في النفس كفعل الخمرة البابلية المعتّقة تفعل فعلها في النفوس وتحرّك القلوب.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٦، تخرّق: تمزّق. يُشتمّ من بيت المتنبي رائحة الأسى والألم في قوله، فالمرء يأتي إلى الوجود ويقتحم الحياة فيلبس الأيام فتتوالى وتبلى جدّة الإنسان ثم تقضي عليه، بينما تستمر الحياة ويستمرّ الكون، وهكذا تُسلب النفوس من عالم الوجود إلى عالم الفناء.

وَلَـمْ أَرَ كـالألْحَـاظِ يَـوْمَ رَحِـيـلِـهِـمْ
بَـعَـثْـنَ بِـكُـلِّ الْـقَـتْـلِ مِـنْ كُـلِّ مُـشْـفِـقِ [(١)]

أَدَرْنَ عُـيُـونـاً حَـائِـرَاتٍ كَـأَنَّـهَـا
مُـرَكَّـبَـةٌ أَحْـدَاقُـهَـا فَـوْقَ زِئْـبَـقِ [(٢)]

عَـشِـيَّـةَ يَـعْـدُونَـا عَـنِ الـنَّـظَـرِ الْـبُـكَـا
وَعَـنْ لَـذَّةِ الـتَّـوْدِيـعِ خَـوْفُ الـتَّـفَـرُّقِ [(٣)]

نُـوَدِّعُـهُـمْ وَالْـبَـيْـنُ فِـيـنَـا كَـأَنَّـهُ
قَـنَـا ٱبْـنِ أَبِـي الْـهَـيْـجَـاءِ فِي قَـلْـبِ فَـيْـلَـقِ [(٤)]

قَـوَاضٍ مَـوَاضٍ نَـسْـجُ دَاوُدَ عِـنْـدَهَـا
إِذَا وَقَـعَـتْ فـيـهِ كَـنَـسْـجِ ٱلْـخَـدَرْنَـقِ [(٥)]

---

(١) المشفق: الخائف. عاد الشاعر مرة أخرى إلى الحديث عن الوداع؛ فالنظرات تؤدي رسائلها بين المحبين، ولأنه وداع قد لا يكون بعده لقاء يحمل في طيّاته لون الموت والخوف، فسحر العيون في هذه الحالة يمزّق الأكباد ويُميت قلوب العشاق.

(٢) الأحداق، الواحدة حدقة: سواد العينين. يصف الشاعر انفعالات النسوة وهن على وشك الرحيل، فإذا بعيونهن لا تستقرّ على شيء، لكثرة حيرتهن وهن يتملين بالنظر إلى ديارهن التي يُغادرنها، وقد لا تكون عودة إليها، ويُحاولن أن يُملين عيونهن التي لا تهدأ كأنها زئبق رجراج.

(٣) يعدونا: يمنعنا، إنه المساء، تتلاحق النظرات، ولكن ثمّة ما يحول دون الرؤية الواضحة؛ إنه البكاء، فالدموع غصّ بها البصر فاستحالت الرؤية.

(٤) ورد البيت في: التصريح بمضمون التوضيح، للشيخ خالد ٢: ٣١٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٣. البين: الفراق. القنا: الرماح. الفيلق: الفرقة من الجيش، يتخلّص الشاعر من الغزل إلى موضوع مدحيّ. يصوّر الشاعر مدى ما يتركه فراق الأحبّة بالنفس؛ إنه بمثابة رماح أبي الهيجاء سيف الدولة وقد مزّقت قلوب العاشقين.

(٥) قواضٍ: قاتلة، مواضٍ: نافذة، نسج داود: صناعته. الخدرْنق: العنكبوت. يصف الشاعر رماح الأمير، إنها تقضي على الأعداء مخترقة الدروع وممزّقة الأجساد، فإذا بها كنسج عنكبوت دلالة على قوّة الضرب وسهولة التمزيق.

هَـوَادٍ لِأَمْـلَاكِ الْـجُـيُـوشِ كَـأَنَّـهَـا
تَـخَـيَّـرُ أَرْوَاحَ الْـكُـمَـاةِ وَتَـنْـتَـقِـي [١]

تَـقُـدُّ عَـلَـيْـهِـمْ كُـلَّ دِرْعٍ وَجَـوْشَـنٍ
وَتَـفْـرِي إِلَـيْـهِـمْ كُـلَّ سُـورٍ وَخَـنْـدَقِ [٢]

يُـغِـيـرُ بِـهَـا بَـيْـنَ اللُّـقَـانِ وَوَاسِـطٍ
وَيُـرْكِـزُهَـا بَـيْـنَ الْـفُـرَاتِ وَجِـلَّـقِ [٣]

وَيُـرْجِـعُـهَـا حُـمْـراً كَـأَنَّ صَـحِـيـحَـهَـا
يُـبَـكِّـي دَماً مِـنْ رَحْـمَـةِ الْـمُـتَـدَقِّـقِ [٤]

فَـلَا تُـبْـلِـغَـاهُ مَـا أَقُـولُ فَـإِنَّـهُ
شُـجَـاعٌ مَـتَـى يُـذْكَـرْ لَـهُ الـطَّـعْـنُ يَـشْـتَـقِ [٥]

---

(١) هوادٍ: مرشدات، الأملاك: الملوك. الكماة، الواحد كمي: البطل المدجج بالسلاح. تلك الرماح تختار من المحاربين الملوك فتفتك بهم وتقتلهم، ولقد اعتادت على قتل السادات وكبار القوم من العداة.

(٢) تقدّ: تقطع. الجوشن: الدرع. تفري: تفصل. الخندق: الحفير يُقام لحماية المدن حولها، ولقوّة تلك الرماح، فإنها تمزّق الدروع التي يحتمي فيها الكماة الشجعان، ولذلك فإنها لا تحصّنهم من مصائرهم المحتومة، حتى الخنادق التي حفرت لتحميهم من جند الأمير، فإذا بجنوده يتخطّونها، فيقع الأعداء طعماً سهلاً لهم، إنهم بُسلاء شجاعتهم تتخطّى كلّ الحواجز.

(٣) اللقان: من بلاد الروم. واسط: بلد بالعراق. جلّق: غوطة دمشق. تلك الجيوش يد الأمير التي يبطش بها، إنها تنساح بناءً لرغبته في البلدان، فقد دكّت اللقان من بلاد الروم، وأوقع الأمير ببني البريدي بواسط، ومدى انتشار جند ما بين الفرات إلى أقاصي بلاد الشام.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧١. المتدقق: المتكسر. يصف الشاعر تلك الرماح التي استُعملت في معارك الأمير إنها ملطّخة بالدماء، فمنها ما يقطر دماً كأنه يبكي ما تكسّر منها أثناء المعركة حزناً على ما أصابه من أذًى.

(٥) يُخاطب الشاعر صاحبيه، على طريقة الجاهليين في مخاطبة صاحبين، طالباً منهما ألّا يذكراه بالحروب، فإذا ذكرت الحروب أمامه نهض إليها لشدّة حبّها المتعلّق في قلبه، فديدنه مزاولتها باستمرار.

ضَـرُوبٌ بِـأَطْـرَافِ الـسُّـيُـوفِ بَـنَـانُـهُ
لَـعُـوبٌ بـأَطْـرَافِ الْـكَـلَامِ الـمُـشَـقَّـقِ[1]

كَـسَـائِـلِـهِ مَـنْ يَـسْـأَلُ الْـغَـيْـثَ قَـطْـرَةً
كَـعَـاذِلِـهِ مَـنْ قَـالَ لِـلْـفَـلَـكِ ٱرْفُـقِ[2]

لَـقَـدْ جُـدْتَ حَـتَّـى جُـدْتَ فـي كُـلِّ مِـلَّـةٍ
وَحَـتَّـى أَتَـاكَ الْـحَـمْـدُ مِـنْ كُـلِّ مَـنْـطِـقِ[3]

رَأَى مَـلِـكُ الـرُّومِ ٱرْتِـيَـاحَـكَ لِـلـنَّـدَى
فَـقَـامَ مَـقَـامَ الـمُـجْـتَـدِي الـمُـتَـمَـلِّـقِ[4]

وَخَـلَّـى الـرِّمَـاحَ الـسَّـمْـهَـرِيَّـةَ صَـاغِـراً
لِأَدْرَبَ مِـنْـهُ بِـالـطِّـعَـانِ وَأَحْـذَقِ[5]

وَكَـاتَـبَ مِـنْ أَرْضٍ بَـعِـيـدٍ مَـرَامُـهَـا
قَـرِيـبٍ عَـلَـى خَـيْـلٍ حَـوَالَـيْـكَ سُـبَّـقِ[6]

---

(١) يصف الشاعر سيف الدولة بأنه ضروب، من صيغ المبالغة، أي كثير الضرب، فهو يستعمل سيفه باستمرار دلالة على قوّته وشجاعته، وهو كذلك بليغ يُحسن فن القول، فيُشقّقه بفصاحة وبلاغة رفيعة.

(٢) يصف الشاعر الأمير بالجود المفرط، فلو أن سائلاً طلب عطاءً لكان عطاؤه إليه بمثابة نقطة في بحر جوده، إنه لا يتردّد في هذا الامتحان لأنه مجبول على الكرم، وفي ذلك ردّ على لائمه؛ وشأنه في ذلك كمن يقول للفلك: ارفق في حركتك.

(٣) يخاطب الشاعر الأمير بأن جوده عمّ سائر الناس، سواء من كانوا يدينون بملّته أو من غيرها، وهم خليط من أمم شتّى، فكانت جائزته منهم حمداً وحبًّا وعرفاناً بجميل.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. الارتياح: الانشراح. الندى: الكرم. المجتدي: الطالب العطاء. المتملّق: المتودّد بخضوع وبمعسول الكلام. لقد شعر ملك الروم بانشراح صدر الأمير إلى الجود، فاستغلّ أريحيته، فتودّد إليه بمعسول الكلام وإظهار خضوع كاذب. ليستثير فيه ملكة العطاء والكرم.

(٥) و (٦) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. خلّى: ترك. الرماح السمهرية: التي صنعها سمهر وقوّمها. الصاغر: الذليل. الأدرب: الأكثر دربة ومعرفة. يذكر الشاعر سعي ملك الروم لإرضاء الأمير، فقد =

وَقَـدْ سَـارَ فـي مَـسْـرَاكَ مِـنْـهَـا رَسُـولُـهُ
فـمَـا سَـارَ إلَّا فَـوْقَ هَـامٍ مُـفَـلَّـقِ[١]

فَـلَـمَّـا دَنَـا أخْـفَـى عَـلَـيْـهِ مَـكَـانَـهُ
شُـعَـاعُ الْـحَـدِيـدِ الْـبَـارِقِ الْـمُـتَـأَلِّـقِ[٢]

وَأَقْـبَـلَ يَـمْـشِـي فـي الْـبِـسَـاطِ فـمَـا دَرَى
إلـى الْـبَـحْـرِ يَـمْـشِـي أَمْ إلَـى الْـبَـدْرِ يَـرْتَـقِـي[٣]

وَلَـمْ يَـثْـنِـكَ ٱلْأَعْـدَاءُ عَـنْ مُـهَـجَـاتِـهِـمْ
بِـمِـثْـلِ خُـضُـوعٍ فـي كَـلَامٍ مُـنَـمَّـقِ[٤]

وَكُـنْـتَ إذَا كَـاتَـبْـتَـهُ قَـبْـلَ هٰـذِهِ
كَـتَـبْـتَ إلَـيْـهِ فـي قَـذَالِ الـدُّمُـسْـتُـقِ[٥]

= تخلّى عن سلاحه من رماح وغيرها، لأنه من الجبن والصغار بمكان عالٍ لمن هو أكثر دراية في فنون القتال واستعمال السلاح، وكانت وسيلته معاهدة صلح رغم بعد بلاده التي من السهل أن يغزوها الأمير بخيوله السباقة السريعة، فتحيط به ويكون من الهالكين.

(١) و (٢) المسرى: الطريق الذي يسار فيه ليلاً. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. لقد كانت رحلة رسول ملك الروم طويلة، ولقد وطئ برجليه رؤوس قتلاهم التي غطّت الطريق رغم طولها، وهو في طريقه إلى الأمير في حلب، يسير ليل نهار حتى مثل بين يدي الأمير، هاهوذا يمشي بين الصفوف، وحيثما التفت وجد شعاعاً يعمي الأبصار؛ فالكلّ مسربل بالحديد، وتخلط مشاعره فيسأل نفسه أين يوجد، والكلّ متشابهون، وألق الحديد حال دون رؤية الأمير.

(٣) يروى «السماط» بدلاً من «البساط»، والسماط: الصف من الجند يقومون بين يدي الأمير. يرتقي: يصعد. مشاعر ممتزجة خالجت صدر السفير، إعجاب ممزوج بمهابة، وهو لا يعي بين يدي من هو؛ أإنه بحر من الجود أم قمر في علوه ومجده؟

(٤) لم يثنك: لم يصرفك. المهجة: الروح. الكلام المنمق: المزوّق المزيّف. يُخاطب الشاعر الأمير بأن أعداءه يُحاولون تجنّب غضبه كي لا يفنيهم قتلاً وأسراً بحلو الحديث المزخرف المزيّن الممتزج المزيّف.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. القذال: مؤخّر الرأس. الدمستق: القائد من قواد الروم. يُخاطب الشاعر الأمير بأن مكاتبة ملك الروم قبل =

فـإنْ تُـعْـطِـهِ مِـنْـكَ الْأَمَـانَ فَـسَـائِـلٌ
وَإِنْ تُـعْـطِـهِ حَـدَّ الْـحُـسَـامِ فَـأَخْـلِـقِ[(١)]

وَهَـلْ تَـرَكَ الْـبِـيـضُ الـصَّـوَارِمُ مِـنْـهُـمُ
حَـبِـيـسـاً لِـفَـادٍ أَوْ رَقِـيـقـاً لِـمُـعْـتِـقِ[(٢)]

لَـقَـدْ وَرَدُوا وِرْدَ الْـقَـطَـا شَـفَـرَاتِـهَـا
وَمَـرُّوا عَـلَـيْـهَـا رَزْدَقـاً بَـعْـدَ رَزْدَقِ[(٣)]

بَـلَـغْـتُ بِـسَـيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الـنُّـورِ رُتْـبَـةً
أَنَـرْتُ بِـهَـا مَـا بَـيْـنَ غَـرْبٍ وَمَـشْـرِقِ[(٤)]

إِذَا شَـاءَ أَنْ يَـلْـهُـو بِـلِـحْـيَـةِ أَحْـمَـقٍ
أَرَاهُ غُـبَـارِي ثُـمَّ قَـالَ لَـهُ ٱلْـحَـقِ[(٥)]

وَمَـا كَـمَـدُ ٱلْـحُـسَّـادِ شَـيْـئـاً قَـصَـدْتُـهُ
وَلَـكِـنَّـهُ مَـنْ يَـزْحَـمِ الْـبَـحْـرَ يَـغْـرَقِ[(٦)]

= وصول موفده كانت قد بلغته بما أصاب قائده من جراح بسيف سيف الدولة، وإن ذلك الأمر أبلغ مكاتبة ممَّا جعل ملك الروم يميل إلى المهادنة، فكانت المراسلات من جانبه.

(١) ويُردف الشاعر مبدياً رأيه مخيّراً الأمير بين أن يُعطيه الأمان والمهادنة، فذلك من طبعه، لأن ملك الروم جاء سائلاً، والأمير لا يُخيّب من قصده في أمر كهذا، وإما أن يُعدمه الحياة، فهو حري يستحقّ ذلك.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١١. الصوارم، الواحد صارم: السيف البتَّار. الرقيق: العبد. يمدح الشاعر بأن سيوف الأمير لم تترك من جيوش الأعداء من يُفدى لأنه لم يأخذ أسرى منهم ولم يستعبد أحداً حتى يُحرّره.

(٣) القطا: ضرب من الطيور شبيه بالحمام. شفرة السيف: حدّه، الرزدق: الصف. يصف الشاعر كيف كان الأمير يقتل جنود الروم تتوارد الجنود منهم كأنها أسراب قطا ترد المياه، وهم عطاش يردون حوض الأمير فيُخلّصهم من حياتهم.

(٤) يفخر الشاعر بما وصل إليه من علو ومجد لأنه مدح سيف الدولة، إنه مشهور، وقد استمدّ نوره وعلو المكانة بفضل ارتباط اسمه باسم ممدوحه حتى اخترق صيته الغرب والشرق، فكان اسمه نوراً وضّاءً.

(٥) و (٦) الأحمق: الغبي. لطالما ساء الشاعر أن يجد من يطعن على شعره، إذ به يوسّط =

وَيَــمْـتَــحِــنُ الــنَّــاسَ الأَمِــيــرُ بِــرَأْيِــهِ
وَيُـغْـضِـي عَـلَـى عِـلْـمٍ بِـكُـلِّ مُـمَـخْـرِقِ (١)

وَإِطْـرَاقُ طَـرْفِ الْـعَـيْـنِ لَـيْـسَ بِـنَـافِـعٍ
إِذَا كَـانَ طَـرْفُ الْـقَـلْـبِ لَـيْـسَ بِـمُـطْـرِقِ (٢)

فَـيَـا أَيُّـهَـا الـمَـطْـلُـوبُ جَـاوِرْهُ تَـمْـتَـنِـعْ،
وَيَـا أَيُّـهَـا الـمَـحْـرُومُ يَـمِّـمْـهُ تُـرْزَقِ (٣)

وَيَـا أَجْـبَـنَ الْـفُـرْسَـانِ صَـاحِـبْـهُ تَـجْـتَـرِئْ
وَيَـا أَشْـجَـعَ الـشُّـجْـعَـانِ فَـارِقْـهُ تَـفْـرَقِ (٤)

= الأمير بينه وبين سواه من الشعراء، وفكرة الاستعلاء جعلته ينظر إلى سواه نظرة تحقير واستخفاف؛ إنهم حمقى لا يقدرون على مجاراته في عبقريّته وشعره. إنه لم يقصد الكيد إلى أمثال هؤلاء، ولكنهم لا يستطيعون اللحاق به، ولذا كان حظهم الغرق في لجّة بحره الطامي.

(١) يمدح الشاعر الأمير بوفور عقله ورجاحته، فرأيه راجح يمتحن به من يدّعي العلم ويُوهم بأنه عالم فيكتشف أمره، ومع ذلك لا يفضحه، إنه كريم الأخلاق فلا يكشف زيفه.

(٢) الإطراق: أن يرمي المرء بنظره إلى الأرض مفكّراً. طرف العين: النظر. يُردف الشاعر كلامه بأن الأمير إذا سمع ما لا يُعجبه أطرق إلى الأرض مفكّراً في أحوال أمثال هؤلاء من البشر، لأنه يُحسّ بعقله وقلبه نواياهم وأحوالهم، ومع ذلك فهو لا يودّ الإساءة إليهم.

(٣) يمدح الشاعر ممدوحه لمنعته؛ فمن خاف طالباً يسعى للإيقاع به فعليه أن يحتمي به، إنه حِرز أمين يصون الجار ويحميه، وكذلك فمن قلّ ماله وبخل عليه حظه من الرزق، فعليه أن يقصده، فإنه يقصد بذلك جواداً معطاءً يمتاز بالغنى ووفرته.

(٤) ويخاطب الشاعر الجبان الذي يرتعد خوفاً من أعدائه، فعليه أن يرافق الأمير حتى يكتسب قوّة وثقة بالنفس فيستمدّ منه الشجاعة، وفي المقابل من أراد أن يضعف جانبه، فعليه أن يُغادر معسكره حتى يدبّ في قلبه الخوف وتغور قواه فيفقد شجاعته، ولو كان أشجع الشجعان.

إذَا سَـعَـتِ الأعْـدَاءُ فـي كَـيْـدِ مَـجْـدِهِ
سَعَى جَدُّهُ في كَيْدِهِمْ سَعْيَ مُحْنَقِ(١)

وَمَا يَنْصُرُ الْفَضْلُ المُبِينُ عَلَى الْعِدَى
إذَا لَمْ يَكُنْ فَضْلَ السَّعِيدِ المُوَفَّقِ(٢)

الحسن في الخلائق لا في الوجه

وقال يمدحه ويذكر قصة حرب جرت بينه وبين عقيل وقشير وعلان وكلاب:

[الطويل]

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ(٣)

وَصُحْبَةَ قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ
بِفَضْلَةِ مَا قَدْ كَسَّرُوا في المَفَارِقِ(٤)

وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ
كَأنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ في المَرَافِقِ(٥)

---

(١) و (٢) الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. المحنق: الغاضب. الأعداء كيدهم في نحرهم لو حاولوا زحزحة الأمير عن ذروة مجده، لانقلب الأمر عليهم، فالأمير محظوظ، وسعده يُلاحق هؤلاء القوم، والغضب يسحقهم، لأنه من حسن توفيقه الظاهر دائماً على أعدائه، لذا فلا يكفي أن التوفيق يلازم المرء، فلا بدّ له من قوّة تسانده لتكمّل عناصر النصر المؤزّر في الحياة.

(٣) و (٤) العذيب وبارق: موضعان بظاهر الكوفة. السوابق: الخيل. العوالي: الرماح. لقد عادت بالشاعر الذكرى إلى أيام اللهو، يوم كان ينزل في تلك الأمكنة العُذيب وبارق، مراتع الطفولة والشباب في العراق، فقد كان الفتيان الصعاليك يجرون رماحهم وهم يُطاردون الفرسان ويتسابقون، وهم يمتطون خيولهم، ويذبحون طرائد صيدهم بما بقي من سيوفهم، إنهم فتيان شجعان، اعتادوا على تكسير سيوفهم في مفارق الأبطال من أعدائهم.

(٥) توسّد: اتخذ وسادة، الثوية: موضع بقرب الكوفة، المرافق، الواحد مرفق: مواصل الأذرع في الأعضاد. الثرى: التراب. ومن الذكريات المحبّبة إلى قلب الشاعر أنه توسّد التراب برفقة صحبه، لقد كان التراب عابقاً بعبير عنبريّ في مرافقهم.

بِــلادٌ إذَا زَارَ ٱلْـحِـسَــانَ بِـغَـيْـرِهَـا
حَـصَـى تُـرْبِـهَـا ثَـقَّـبْـنَـهُ لِـلْـمَـخَـانِـقِ[١]

سَـقَـتْـنِـي بِـهَـا الْـقُـطْـرُبُـلِـيَّ مَـلِـيـحَـةٌ
عَـلَـى كَـاذِبٍ مِـنْ وَعْـدِهَـا ضَـوْءُ صَـادِقِ[٢]

سُــهَــادٌ لِأَجْــفَــانٍ وَشَــمْــسٌ لِـنَــاظِــرٍ
وَسُــقْــمٌ لِأَبْــدَانٍ وَمِــسْــكٌ لِـنَــاشِــقِ[٣]

وَأَغْــيَــدُ يَــهْــوَى نَــفْــسَــهُ كُــلُّ عَــاقِــلٍ
عَـفِـيـفٍ وَيَـهْـوَى جِـسْـمَـهُ كُـلُّ فَـاسِـقِ[٤]

أَدِيـــبٌ إذَا مَـــا جَـــسَّ أَوْتَـــارَ مِـــزْهَـــرٍ
بَـلَا كُـلَّ سَـمْـعٍ عَـنْ سِـوَاهَـا بِـعَـائـقِ[٥]

---

(١) المخانق، الواحدة مخنقة: القلائد. يُبدي الشاعر حبّه لموطنه؛ ترابه عنبر وحصاه تتّخذه الحسان قلائد يتحلّين به بعد ثقبه كما يُثقب اللؤلؤ لنفاسته وجماله.

(٢) القطربلي: نسبة إلى قطربل قرية من قرى بغداد، تنسب إلى الخمرة. يذكر الشاعر أن امرأة جميلة سقته الخمر؛ حلوة الحديث، من طبعها الوعد يُستشفّ منه روح الصدق، ولكنه كذب مغلّف بغلاف الصدق، لذا فلم تفِ بوعدها.

(٣) سهاد: سهر وأرق، سُقم: مرض. الناشق: الشامّ. يصف الشاعر الحسناء بأنها لا تجعله يستسلم للنوم، فليله سهر وأرق، إنها بمثابة شمس توحي بالدفء والعلوّ، لذا فالناظر إليها يهفو إليها بحسرة ولوعة، إنه يتمنّى قربها ولكنها تتمنّع، وهي تسبب الأسقام والأمراض لمن هام بها، إنها عبير المسك يتضوّع لمن يود شمّها ولكن هيهات أن يضمّها، ويبدو أنها من القيان التي لا يهمها سوى تحصيل المال.

(٤) الأغيد: الليّن الذي يميس في مشيه برقّة. يذكر الشاعر أنه شرب من يدي أغيد يميس في مشيه لرقته ورشاقته، إنه يمتاز بخفة روحه وجمال جسده، والناس في أمره بين فاسق يميل إليه إعجاباً بجسده، والعفيف تغويه خفّة روحه وجمال حديثه وظرفه.

(٥) المزهر: العود. العائق: المانع. يصف الشاعر حذق الفتى في عمله؛ إنه يُزاول الموسيقى، حديثه ينمّ عن ثقافة واسعة، فضلاً عن براعته بالعزف على العود، بحيث يمتلك آذان المستمعين، فيستزيدونه عزفاً، وهم في حالة انسجام تام، فلا يُلهيهم شيء عنه.

يُــحَــدِّثُ عَــمَّــا بَــيْــنَ عَــادٍ وَبَــيْــنَــهُ
وَصُــدْغَــاهُ فــي خَــدَّيْ غُــلَامٍ مُــرَاهِــقِ [١]

وَمَــا ٱلْــحُــسْــنُ فــي وَجْــهِ الْــفَــتَــى شَــرَفــاً لــهُ
إذا لَــمْ يَــكُــنْ فــي فِــعْــلِــهِ وَٱلْــخَــلَائــقِ [٢]

وَمَــا بَــلَــدُ الْإِنْــسَــانِ غَــيْــرُ الْــمُــوَافِــقِ
وَلَا أَهْــلُــهُ الْأَدْنَــوْنَ غَــيْــرُ الْأَصَــادِقِ [٣]

وَجَــائِــزَةٌ دَعْــوَى الْــمَــحَــبَّــةِ وَالْــهَــوَى
وَإِنْ كَــانَ لَا يَــخْــفَــى كَــلَامُ الْــمُــنَــافِــقِ [٤]

بِــرَأْيِ مَــنِ ٱنْــقَــادَتْ عُــقَــيْــلٌ إِلَــى الــرَّدَى
وَإِشْــمَــاتِ مَــخْــلُــوقٍ وَإِسْــخَــاطِ خَــالِــقِ [٥]

---

(١) عاد: من قبائل العرب البائدة. المراهق: الفتى الذي راهق الحلم والبلوغ. ومن مزايا ذلك الفتى أنه مثقّف يعرف أخبار العرب البائدة من عهد عاد، ويحفظ أشعارهم، فيُغنّي بها وألحانه تنساب إلى الآذان والقلوب رغم أنه لم يبلغ الحلم بعد وذو خدّ ناعم.

(٢) الخلائق؛ المفرد خلق. يرى الشاعر أن جمال الهيئة إن لم يعضده جمال الأخلاق لا يُعدّ مزيّة للإنسان، بل إنه قد يكون وبالاً عليه إن لم يزينه بحسن الخلق.

(٣) الأدنون: الأقربون. الأصادق: الأصدقاء. إنها نظرة صائبة في حال كساد الأوضاع السياسية والاقتصادية في موطن المرء، ففي هذه الحالة حيثما يجد المرء كرامته ومعاشه، فيعتبر هذا المكان موطناً صالحاً له، لذا فلا الأقرباء والأصدقاء إلّا من يشعر المرء بقربهم وحبّهم له، ولو كانوا من الأباعد.

(٤) المحبّة لا تكون بمعسول الكلام بل بالإحساس الصادق النابع من القلوب الصافية الودّ؛ فالتزلّف وإظهار الودّ لا يخفى على من خبر الحياة، فالنفاق والمداهنة سرعان ما يظهر صاحبهما على حقيقته.

(٥) الردى: الهلاك. إشمات: إفراح الأعداء بمصائب أعدائهم. إسخاط: إغضاب. يسأل الشاعر عن مسبب عصيان قبيلة عقيل، إحدى قبائل قيس عيلان. وخروجهم عن طاعة سيف الدولة الذي أوقع بهم ونكّل بالكثير منهم ممّا أشمت أعداءهم بهم وأسخط الخالق تعالى عليهم.

أَرَادُوا عَلِيًّا بِالَّذِي يُعْجِزُ الْوَرَى
وَيُوسِعُ قَتْلَ ٱلْجَحْفَلِ الْمُتَضَايِقِ (١)

فَمَا بَسَطُوا كَفًّا إِلَى غَيْرِ قَاطِعٍ
وَلَا حَمَلُوا رَأْساً إِلَى غَيْرِ فَالِقِ (٢)

لَقَدْ أَقْدَمُوا لَوْ صَادَفُوا غَيْرَ آخِذٍ
وَقَدْ هَرَبُوا لَوْ صَادَفُوا غَيْرَ لَاحِقِ (٣)

وَلَمَّا كَسَا كَعْباً ثِيَاباً طَغَوْا بِهَا
رَمَى كُلَّ ثَوْبٍ مِنْ سِنَانٍ بِخَارِقِ (٤)

وَلَمّا سَقَى الْغَيْثَ الَّذِي كَفَرُوا بِهِ
سَقَى غَيْرَهُ فِي غَيْرِ تِلْكَ الْبَوَارِقِ (٥)

---

(١) الورى: البشر، الناس. الجحفل: الجيش العظيم. إنه كيد الأعداء الذي أثار القوم ضدّ عليّ سيف الدولة حتى تمادوا بعصيانه، والقصد منهم أن ينهكوا قوى جيشه العظيم الذي يُغطّي الأرض كثرة، والحقّ أن هذا الجيش لكثرته وقوّته، فإنه يُعجز الناس عن ملاقاته في ساحة المعركة.

(٢) ومن سوء حظ بني عقيل أنهم كانوا طعماً سهلاً لجيش سيف الدولة، لقد بسطوا أكفّهم إلى من قطعها وحملوا رؤوسهم إلى قاطعها؛ لقد استسلموا للموت طائعين لبأس قادر فقطع أعمارهم وأوردهم حتوفهم.

(٣) لقد أقدموا بأيديهم مصممين على القتال، فإذا بهم يُفاجأون بمن تصدّى لهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفرّوا منهزمين فلم ينفعهم هربهم، فإذا به يُلاحقهم ليقطع دابرهم.

(٤) كسا: ألبس. كعب: إحدى قبائلهم. طغوا: ظلموا وتخطوا حدودهم. السنان: الرمح. لقد كانت لسيف الدولة يد بيضاء؛ فقد أنعم عليهم، فألبسهم من نعمه، ممّا حملهم على البطر بنعمته فكفروا بها، وطغوا، فكان جزاؤهم قتلاً وسفك دمائهم، وقد اخترقت رماحه ما ألبسهم من ثياب.

(٥) الغيث: يقصد بذلك العطاء. البوارق، الواحدة بارقة: السحب التي تبرق. يُردف الشاعر كلامه بأن سيف الدولة قدم لهم عطاءً مُغيثاً، فإذا بهم يُنكرون فضله ويتنكّرون له، فكان أن ساق إليهم جيشاً مدججاً بالسلاح تبرق طلائعه من بعيد فتثير فيهم خوفاً وتزرع في أرضهم موتاً.

وَمَـا يُـوجِـعُ ٱلْـحِـرْمَـانُ مِـنْ كَـفِّ حَـارِمٍ
كَـمـا يُـوجِـعُ ٱلْـحِـرْمَـانُ مِـنْ كَـفِّ رَازِقِ (١)

أَتَـاهُـمْ بِـهَـا حَـشْـوَ الْـعَـجَـاجَـةِ وَالْـقَـنَـا
سَـنَـابِـكُـهَـا تَـحْـشُـو بُـطُـونَ ٱلْـحَـمَـالِـقِ (٢)

عَـوَابِـسَ حَـلَّـى يَـابِـسُ الـمَـاءِ حُـزْمَـهَـا
فَـهُـنَّ عَـلَـى أَوْسَـاطِـهَـا كَـالـمَـنَـاطِـقِ (٣)

فَـلَـيْـتَ أَبَـا الْـهَـيْـجَـا يَـرَى خَـلْـفَ تَـدْمُـرٍ
طِـوَالَ الْـعَـوَالِـي فـي طِـوَالِ الـسَّـمَـالِـقِ (٤)

وَسَـوْقَ عَـلِـيٍّ مِـنْ مَـعَـدٍّ وَغَـيْـرِهَـا
قَـبَـائِـلَ لَا تُـعْـطِـي الْـقُـفِـيَّ لِـسَـائِـقِ (٥)

---

(١) يُقارن الشاعر الحرمان بوجهيه، فالحرمان بعد الإنعام أقسى على النفوس من حرمان متواصل من المرء. لقد كان سيف الدولة كريماً يبذل العطاء للقوم الذين عملوا على حرمان أنفسهم من عطائه، فاستحقوا العقاب.

(٢) حشو: ملء. العجاجة: الغبار. القنا: الرماح. السنابك: أطراف الحوافر. الحمالق، الواحد حملاق: باطن الجفن. إنها لمفاجأة جيوش تثير الأرض فيتعالى الغبار، فإذا بالرماح تخترق البطون وتبقرها وتعمي العيون فتنفذ إلى أدمغتهم.

(٣) عوابس: مقطّبة، عابسة. يابس الماء: العرق. الحُزْم، الواحد حزام. مناطق، الواحدة منطقة: الحزام يُشدّ به الوسط يصف الشاعر مجيء جياد سيف الدولة وقد أجهدها المسير، إنها عابسة مُقطّبة، وقد تجمّد العرق على أوساطها فكان كأنه إشعاع فضّة لامعة تُزيّن حزمها.

(٤) و (٥) أبو الهيجا: كنية والد سيف الدولة. تدمر: من مدن بلاد الشام، العوالي: الرماح. السمالق، الواحد سملق: متّسع من الأرض مترامي الأطراف. يتمنّى الشاعر لو أن والد سيف الدولة لا يزال حيًّا ليرى ما فعله ابنه بهؤلاء القوم في ذلك الصقع من الأرض وقد دكّت رماحه الطوال أركان ذلك المكان بمن فيه من قبائل العرب العصيّة المقاتلة التي لم تعرف الهزيمة طوال حياتها، ولم تولِّ أقفيتها هاربة.

قُشَيْرٌ وَبَلْعَجْلَانِ فِيهَا خَفِيَّةٌ
كَرَاءَيْنِ في أَلْفَاظِ أَلْثَغَ نَاطِقِ (١)

تُخَلِّيهِمِ النِّسْوَانُ غَيْرَ فَوَارِكٍ
وَهُمْ خَلَّوُا النِّسْوَانَ غَيْرَ طَوَالِقِ (٢)

يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الْكُمَاةِ وَبَيْنَهَا
بِضَرْبٍ يُسَلِّي حَرُّهُ كُلَّ عَاشِقِ (٣)

أَتَى الظُّعْنَ حَتَّى مَا تَطِيرُ رَشَاشَةٌ
مِنَ ٱلْخَيْلِ إِلَّا في نُحُورِ الْعَوَاتِقِ (٤)

بِكُلِّ فَلَاةٍ تُنْكِرُ الإنسَ أَرْضُهَا
ظَعَائِنُ حُمْرُ ٱلْحَلْي حُمْرُ الأَيَانِقِ (٥)

---

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٢. يُعدّد الشاعر أحلاف الذين خلعوا طاعة سيف الدولة؛ منهم بنو قُشير وبنو العجلان، فقد ولّوا هاربين رغم كثرتهم وشراستهم فتفرّقوا شذر مذر، فإذا بهم يختبئون بين غيرهم من القبائل كخفاء راءين في لفظ ألثغ إذا كرّرهما.

(٢) فركت المرأة: إذا كرهت زوجها. الطوالق، الواحدة: طالق. وممّا يدلّ على سوء حال القوم، فإذا بالنسوة يتخلّين عن أزواجهن لا لكراهتهن، والرجال تخلّوْا عن نسائهم دون طلاق، ولم يكن الأمر كراهة بينهم، ولكن لتشتتهم، فلم يعرف أحدهما الآخر.

(٣) الكماة، الواحد كميّ: البطل المدجّج بالسلاح. إنه سيف الدولة المسبب لتشتت تلك الأسر، فإذا بالأبطال بوادٍ وذراريهم ونساؤهم بوادٍ آخر، فقد ابتلاهم بضرب شديد لم يعتادوا على حرب من هذا النوع، بحيث ينسى المحبّ حبيبه، فلا ينتبه إلّا إلى نفسه مؤثراً السلامة على من عداه، فكان الهرب أسهل السبل.

(٤) و (٥) الظعن، الواحدة ظعينة: المرتحلة في هودجها. الرشاشة: الدم المنتشر. النحور، الواحد نحر: الرقاب. العواتق، الواحدة عاتق: الفتيات اللواتي أدركن في بيوت آبائهن. يصوّر الشاعر الحالة التي كان عليها النسوة وهنّ في هوادجهن؛ إنها صورة بشعة، فالمرأة العربية مصونة، وروح الفروسية تقضي من الفارس حماية النسوة ولو كنّ من الأعداء، فكيف ممن كن مسلمات؟! ومع ذلك فقد نالهن ما نال =

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ
يَصِيحُ ٱلْحَصَى فيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِقِ[١]

بَعِيدَةُ أَطْرَافِ الْقَنَا مِنْ أُصُولِهِ
قَرِيبَةُ بَيْنِ الْبَيْضِ غُبْرُ الْيَلَامِقِ[٢]

نَهَاهَا وَأَغْنَاهَا عَنِ النَّهْبِ جُودُهُ
فَمَا تَبْتَغِي إلَّا حُمَاةَ الْحَقَائِقِ[٣]

تَوَهَّمَهَا الأعْرَابُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ
تُذَكِّرُهُ الْبَيْدَاءُ ظِلَّ السُّرَادِقِ[٤]

= الرجال من تنكيل، فإذا بالدماء تُلطخهن برشاشها في نحورهن، وقد جدّ القوم في اختراق الصحراء حتى وطئت أقدامهم فلاة لم يسبق لمخلوق من البشر أن وطئها، والنساء في هوادجهن تحملها الحمر من النياق الكرام، وحليهن الذهب، ومع ذلك فقد أدركهم سيف الدولة بجنده، فلم ينفعهم الهرب من قبضته.

(١) الملمومة: الكتيبة من الجيش المجتمعة. سيفية: جند سيف الدولة يُنسبون إليه. ربعيّة: تنسب إلى قبائل ربيعة. اللقالق، الواحد لقلق: طير مائي أبيض موطنه الصيفي العراق. يصف الشاعر فرق الجيش المنتسبة إلى سيف الدولة، إنها ملمومة، سيفية، ربعيّة، ينبعث صوت من حوافرها إذا وطئت الحصى شبيه بصوت اللقالق.

(٢) القنا: الرماح. البيض، الواحدة بيضة: الخوذ يلبسها المحاربون برؤوسهم. اليلامق، الواحد يلمق: الدروع. يصف الشاعر سلاح جند سيف الدولة؛ بأيديهم رماح طوال تباعدت أطرافها من أصولها، ولكثرتهم تضيق بهم المسافات ويزدحمون، وقد علاهم الغبار لما تثيره خيلهم من الغبار. لقد ظنّ القوم أن تلك المفازة مانعتهم من جند الأمير فخاب ظنّهم.

(٣) يروى «سيبه» بدلاً من «جوده». الجود: الكرم. النهب: السرقة. تبتغي: تريد، تقصد. حماة الحقيقة: الأبطال الشجعان. يصف الشاعر سيف الدولة بكرم الأخلاق، فقد منع جنده من نهب القوم، فقد قصد قتل الأبطال الشجعان ليكون هو الحامي للقوم، وليتخلّص من كيدهم، فضلاً عن أنه يُربّي غيرهم بهم فيرتدعون ويتوقّفون عن الكيد له.

(٤) السَّورة: الوثبة. الأعراب: سكّان البادية. البيداء: الصحراء. السرادق: ما يدار حول الخيمة من غرف بلا سقوف. يعلّل سوء ظن هؤلاء الأعراب، فقد اعتقدوا أن سيف =

فَـذَكَّـرْتَـهُـمْ بِـالْـمَـاءِ سَـاعَـةَ غَـبَّـرَتْ
سَـمَـاوَةُ كَـلْـبٍ فـي أُنُـوفِ ٱلْـحَـزَائِـقِ (١)

وَكَـانُـوا يَـرُوعُـونَ الْـمُـلُـوكَ بِـأَنْ بَـدَوْا
وَأَنْ نَـبَـتَـتْ فـي الْـمَـاءِ نَـبْـتَ الْـغَـلَافِـقِ (٢)

فَـهَـاجُـوكَ أَهْـدَى فـي الْـفَـلَا مِـنْ نُـجُـومِـهِ
وَأَبْـدَى بُـيُـوتـاً مِـنْ أَدَاحِـي الـنَّـقَـانِـقِ (٣)

وَأَصْـبَـرَ عَـنْ أَمْـوَاهِـهِ مِـنْ ضِـبَـابِـهِ
وَآلَـفَ مِـنْـهَـا مُـقْـلَـةً لِـلْـوَدَائِـقِ (٤)

= الدولة قد اعتاد راحة البال وعدم المخاطرة شأن غيره من الأمراء والملوك الذين يركنون إلى الدعة، فإذا به يُفاجئهم في تلك الأصقاع المتنائية وينال منهم.

(١) غبرت: أثارت الغبار. السماوة: بادية بين بلاد الشام والعراق، بناحية العواصم. الحزائق، الواحدة حزيقة: الجماعة. يُخاطب الشاعر ممدوحه إنه صبور على العطش شأن غيره من الأعراب، فقد ذكّرهم حالما أدركهم بخيوله التي أثارت الغبار في تلك البادية وقد ملأت خياشيمها رائحة التراب الجاف حيث لا ماء هناك.

(٢) يروعون: يُخيفون. بدوا: سكنوا البادية. الغلافق، الواحدة غلفق: الطحالب. لم يُصب ظنّ هؤلاء البدو الذين ألفوا حياة شظف البادية، واعتادوا على قلّة الماء، كبد الحقيقة، فسيف الدولة ابن البادية، وقد اعتاد شظف العيش فيها؛ فليس شأنه شأن سائر الملوك الذين نشأوا إلى جانب الأنهار ومنابع المياه.

(٣) الفلا، الواحدة فلاة: المفازة. أبدى: أظهر. أداحي، المفرد أدحى: موضع مبيض النعام في الرمال. النقانق، الواحد نقنق: الظليم، ذكر النعام. ينوّه الشاعر بمعرفة الممدوح بعالم تلك الصحراء؛ فإذا بالقوم يُثيرون غضب الأمير، ظانين أنه لن يقوى على حرّ الهاجرة في الصحراء، فإذا به يهتدي إلى مواقعهم، حتى تفوّق على النجم، وكان أظهر بيوتاً فيها من مبيض النعام التي تدحو بيضها في الرمال، وهو في ذلك لم يتبّع مواطن الأشجار ليستظل بها؛ بل إنه يواجه الشمس بحرّها دون وجل أو خوف.

(٤) الأمواه: المياه. الضباب، الواحد ضبّ: ضرب من السنوريات صغير الحجم. الإلف: العادة. الودائق، الواحدة وديقة: الحرّ الشديد. يُردف الشاعر قوله مخاطباً =

وَكَـانَ هَـدِيـراً مِـنْ فُـحُـولٍ تَـرَكْـتَـهَـا
مُـهَـلَّـبَـةَ الأَذْنَـابِ خُـرْسَ الـشَّـقَـاشِـقِ (١)

فَـمَـا حَـرَمُـوا بِـالـرَّكْـضِ خَـيْـلَـكَ رَاحَـةً
وَلٰـكِـنْ كَـفَـاهَـا الْـبَـرُّ قَـطْـعَ الـشَّـوَاهِـقِ (٢)

وَلَا شَـغَـلُـوا صُـمَّ الْـقَـنَـا بِـقُـلُـوبِـهِـمْ
عَـنِ الـرَّكْـزِ لٰـكِـنْ عَـنْ قُـلُـوبِ الـدَّمَـاسِـقِ (٣)

أَلَـمْ يَـحْـذَرُوا مَـسْـخَ الَّـذِي يَـمْـسَـخُ الْـعِـدَى
وَيَـجْـعَـلُ أَيْـدِي الأُسْـدِ أَيْـدِي ٱلْـخَـرانِـقِ (٤)

= سيف الدولة منوّهاً بشدّة صبره على العطش الشديد، فحتى الضباب رغم قلّة طلبها للماء، فإنها لا بدّ أن ترده، وقد تبيّن للقوم أن الأمير قد اعتاد على احتمال شدّة الحرّ في الهاجرة.

(١) الهدير: صوت الجمل إذا ردده في حنجرته. المهلبة: المقطوعة الهلب وهو شعر الذنب. الشقاشق، الواحدة شقشقة: لهاة البعير تتدلّى عند هيجانه. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أنه قدر على أناس يهدرون كالفحول فأسكتهم وأذلّ كبارهم، وقد ظفر بهم فكانت الغلبة له عليهم.

(٢) الشواهق، الواحد شاهق: الجبل المرتفع. يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأنه في ملاحقة الأعراب في بواديهم لم يُرح خيله، لأنه لو لم يقم بذلك العمل لكان استعاض عنه بمهاجمة بلاد، فكان على خيوله أن تتسلّق جبالهم المرتفعة، فالأمر سيان لا راحة لجنده وخيوله.

(٣) الصم: الصلبة. القنا: الرماح. الدماسق، الواحد دمستق: قواد الروم. يُردف الشاعر فكرته أن سيف الدولة دائم القتال، فرماحه الصلبة شغلتها قلوب الأعراب ولم تهدأ وتركّز في التراب لتأخذ قسطاً من الراحة، عن قلوب أعدائه من الروم لتتخذ من الدماسق أهدافاً لها.

(٤) المسخ: قلب صورة الإنسان إلى أقبح منها. الخرانق، الواحد خرنق: صغار الأرانب. يسأل الشاعر مستنكراً على القوم قلّة حذرهم، فإذا بهم يُمسخون على أيدي بطل مغوار إلى أرانب صغيرة يفرّون لجبنهم عند أصغر صيحة بعدما كانوا أسوداً ترتعب لها الأبدان.

وَقَدْ عَايَنُوهُ فِي سِواهُمْ وَرُبَّمَا
أَرَى مَارِقاً فِي ٱلْحَرْبِ مَصْرَعَ مَارِقِ(١)

تَعَوَّدَ أَنْ لَا تَقْضَمَ ٱلْحَبَّ خَيْلُهُ
إِذَا الْهَامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ الْعَلَائِقِ(٢)

وَلَا تَرِدَ الْغُدْرَانَ إِلَّا وَمَاؤُهَا
مِنَ الدَّم كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ(٣)

لَوَفْدُ نُمَيْرٍ كَانَ أَرْشَدَ مِنْهُمُ
وَقَدْ طَرَدُوا الأَظْعَانَ طَرْدَ الْوَسَائِقِ(٤)

أَعَدُّوا رِمَاحاً مِنْ خُضُوعٍ فَطَاعَنُوا
بِهَا ٱلْجَيْشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الْفَيَالِقِ(٥)

---

(١) مصرع: مقتل. المارق: الخارج عن الطاعة. ما يستغرب المرء أن القوم قد شاهدوا أفعال سيف الدولة بغيرهم من العصاة، وكيف نكّل بهم، وقد شهدوا مصارع أعدائه، وللأسف لم يعتبروا بما سيؤول إليه أمرهم إذا خلعوا طاعته عنهم، فكانوا كسواهم من أعدائه فنالهم ما نالهم بأيديهم.

(٢) و (٣) القضم: أكل ما يبس من المأكول. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. العلائق، الواحدة عليقة: المخلاة تعلّق برقبة الدابة. جنوبها: جوانبها. من عادة خيول الأمير أن تُعلّق مخاليها في رقابها، وفي بعض الحالات فإنها ترفعها إلى أمكنة أعلى، ولكثرة القتلى وازدحام الأرض بها كان عليها أن ترفعها على رؤوس القتلى لتقضم علفها. وكان عليها أيضاً أن ترد الغدران لتشرب، فإذا بمياهها قد تغيّر لونها ولم يعد صافياً، فقد صبغته الدماء بلون الريحان المائل إلى اللون الأحمر.

(٤) و (٥) الوفد: القوم الماثلون بين يدي الأمير. الأظعان: النسوة في هوادجهن. الوسائق، الواحدة وسيقة: الجماعة من الإبل. يذكر الشاعر أن بني نمير، إحدى بطونهم، لم يُقاتلوا معهم، فقد استعملوا عقولهم، فكان أن أعلنوا خضوعهم ووفد زعماؤهم على الأمير خلاف المتمرّدين الذين حملوا نساءهم على هوادجهن مصمّمين على العصيان والقتال، أما الوافدون فقد أعدّوا سلاحاً أكثر فعالية مع حليم يصفح الصفح الجميل فأعلنوا نيّتهم بالخضوع، فإذا بعفو الأمير يحلّ محلّ سيوفه معهم، وبذلك حجبوا دماءهم وصانوا أعراضهم بأيسر سبيل.

فَـلَـمْ أَرَ أَرْمَـى مِـنْـهُ غَـيْـرَ مُـخَـاتِـلٍ
وَأَسْـرَى إلَـى الأعْـدَاءِ غَـيْـرَ مُـسَـارِقِ (١)
تُـصِـيـبُ الـمَـجَـانِـيـقُ الْـعِـظَـامُ بِـكَـفِّـهِ
دَقَـائِـقَ قَـدْ أَعْـيَـتْ قِـسِـيَّ الْـبَـنَـادِقِ (٢)

---

(١) المخاتل: المخادع. المسارق: من يتوقّع غفلة من عدوّه ليثب عليه. ينوّه الشاعر بمقدرة الأمير الفائقة في الحروب، إنه مثال الفارس العربي الحقّ، إنه لا يغدر بعدوّ، بل إنه يسري بجيشه علانية لمقاتلة أعدائه لثقته بالنصر.

(٢) المجانيق، الواحد منجنيق: آلة ترمى بها الأحجار لدك الحصون والقلاع. الدقائق: الأشياء الصغيرة. أعيت: أتعبت. البنادق، الواحدة بندقة: هنات من الطين دائرة الشكل ترمى بها الطيور لاصطيادها. وما يدلّ على مهارة الأمير العالية أنه يستطيع إصابة هدفه بدقّة عجيبة عندما يستعمل المجانيق رغم أنها ترمي بكلّ اتجاه، فلا تُحسن إصابة أهدافها بدقة وحتى من يرمي النبال قد لا يُوفّق فيُصيب أهدافه كما يفعل الأمير.



فهرس المحتويات